موسوعة

الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين

ملحقات بغية الراغبين

إعداد وتحقيق
مركز العلوم والثقافة الإسلامية
قسم إحياء التراث الإسلامي

الجزء الثامن

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

موسوعة

الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين

ملحقات بغية الراغبين



تأليف

السيد عبد الله شرف الدين

الجزء الثامن

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م
الطبعة الثانية
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار المؤرخ العربي

بيروت - لبنان - ص.ب: ٢٤/١٢٤ - تلفاكس: ٥٤١٤٣١ هاتف: ٥٤٤٨٠٥
Email: al_mouarekh@hotmail.com


بسم الله الرحمن الرحیم


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

دليل
موسوعة الإمام شرف الدين

١٤ . عصمة أهل البيت (عليهم السلام) بنصّ الكتاب

١٥ . الصلاة على أهل البيت (عليهم السلام) فريضة

١٦ . ثبوت الإمامة لعليّ (عليه السلام) بنصّ الكتاب

١٧ . بيّنة الوحي وشهادتها بأنّ عليّاً (عليه السلام) وشيعته خير البريّة

١٨ . فريضة ما أدّاها إلّا عليّ (عليه السلام)

١٩ . عقيلة الوحي زينب بنت أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)

٢٠ . صلح الحسن (عليه السلام)

٢١ . زكاة الأخلاق

٢٢ . بغية الفائز في جواز نقل الجنائز

٢٣ . ثبت الأثبات في سلسلة الرواة



٢٤ . تحفة المحدّثين

٢٥ . الفضائل الملفّقة

٢٦ . مختصر الكلام في مؤلّفي الشيعة من صدر الإسلام

الجزء السابع

٢٧ . بغية الراغبين في سلسلة آل شرف الدين

الجزء الثامن

ملحقات بغية الراغبين

الجزء التاسع

الوثائق، الخطب، المراسلات، الإجازات والتقريظات

الجزء العاشر

الفهارس

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يصطفي من عباده ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة، والصلاة والسلام على نبيّه وخاتم رسله، سيّد الأنبياء محمّد المختار وآله البررة الخيرة.

يعتبر الإمام السيّد عبدالحسين شرف الدين الموسوي من الرجال النوادر، وقد امتاز بمواهب شتّى جعلته نجماً لامعاً ومناراً شامخاً في العالم الإسلامي والعربي، وبذكائه ونبوغه المتميّز أصبح فذّاً بين الأفذاذ، وعَلَماً من أعلام الصحوة الإسلاميّة، حيث دان لعظمة هذا الشخص الكبير القاصي والداني، والمخالف والمؤالف.

لقد شاءت الإرادة الإلهيّة أن تكون هذه الشخصية نجم هداية يطلّ في سماء العالم الإسلامي والعربي أكثر من نصف قرن، ليُهتدى به من ظلمات الجهل والحيرة إلى رحاب العلم والمعرفة، وليُنتهل من علومه ما ينقشع به رين القلوب، وما يزيح غشاوة الشكوك، وما ينير بنور اليقين والهداية.

وإذا أردنا أن نعطي لهذه الشخصية البارزة منزلتها التأريخية، جعلناها في عِداد سلسلة أئمّة وروّاد إصلاح الفكر الديني النيّرين الذين برزوا وتألّقوا عبر العصور والأزمنة بأفكارهم الغنيّة المعطاءة للمسلمين إلى زماننا الحاضر.

فقد كان ـ رضوان اللّه تعالى عليه ـ في سيرته الذاتية وعمله الرسالي الذي اضطلع به طوال حياته المباركة قدوة مثلى للإسلاميّين، فهو لم يكن إلّا انعكاساً لظلال أئمّة أهل البيت عليهم السلام في جهادهم وجهودهم، ومدافعاً صلباً لإمامتهم ومنهجهم، حيث أخذ على

نفسه ما أخذ آباؤه الكرام عليهم السلام على أنفسهم من النهوض بأعباء الدعوة لهذا الدين الحنيف، والقيام بما يفرضه الواجب الديني من التبليغ بمبادئ الإسلام المحمّدي، ومنهج أهل البيت عليهم السلام السويّ.

كان الإمام شرف الدين في جميع الميادين ـ السياسية والاجتماعية والعلمية ـ فارسها المجلّي وبطلها المغوار. وحسبك شاهداً على بطولته آثاره الخالدة التي تركها غرّة في جبين الدهر، لا تفتأ تشعّ بالخير والجمال والنور، تحمل مشعل الهداية ساطعاً وهّاجاً في غمرة من الظلمات الحالكة، تضيء السبيل لمن ضلّ السبيل، وتكشف غياهب الشكوك والشبهات عن آفاق الحقّ والحقيقة، وتهدي التائهين إلى موطن الأمن والسلامة.

وقد جرى على يراعه من الدلائل والبيّنات والبراهين النيّرات ما يجعله آية من آيات اللّه الباهرة، وينبوعاً من ينابيعه الزاخرة، التي لا ينضب معينها الفيّاض ما بقي في دنيا الإسلام اسم للإسلام، وما بقي على وجه هذه البسيطة ظلّ للحقّ والإيمان.

وممّا يؤسف له أشدّ الأسف أنّ قسماً كبيراً من كتبه ومؤلّفاته ضاع ونهب وأحرق في هجوم الاستعمار الفرنسي على بيته ومكتبته.

غير أنّ المتبقّي من كتبه ـ كان ولا يزال ـ فيه كلّ الخير والبركة والعطاء المستمرّ للأجيال التي عاصرته وتلته حتّى يومنا هذا.

ولو أردنا أن نقف عند أهمّ هذه الآثار الموجودة ـ التي طبع أكثرها في حياته أو بعد وفاته ـ لقلنا إنّ ما أنتجه يراع هذا المفكّر العبقري هو مشروع فكريّ كامل، وإنجاز رساليّ جدير بالاهتمام.

مشروع تحقيق موسوعة الإمام شرف الدين

وحيث إنّ هذه الآثار كانت متفرّقة بعيدة عن أيدي القرّاء والباحثين من جهة، وقد طبع كثير منها مراراً طبعات غير محقّقة، مليئة بالأخطاء المطبعية من جهة أُخرى، مضافاً إلى التغييرات غير المناسبة التي قام بها بعض الناشرين على النصوص الأصلية، لهذا قرّر قسم إحياء التراث الإسلامي التابع لمركز العلوم والثقافة الإسلاميّة نشر مؤلّفات وتراث السيّد

عبدالحسين شرف الدين الموسوي الذي واكب حياة جيلنا الإسلامي المعاصر ، وذلك ضمن مشروعه الكبير المتضمّن نشر تراث العلماء الذين عاشوا في قرننا الحالي والقرون القريبة التي سبقته والذين أسّسوا حركة الإصلاح في الفكر الديني المعاصر .

ولا يخفى على علمائنا الأجلّة وقرّائنا الكرام أهميّة وفائدة نشر هذه الموسوعات الشاملة المحقّقة والمنقّحة واللائقة بمنزلة هؤلاء الروّاد، حيث سيتمّ نشر المؤلّفات الكاملة لكلّ شخصيّةٍ علميّة في مجموعةٍ متكاملة، تسهم في الاطّلاع على آرائه العلمية ، وعلى ما جدّ في زمنه من المسائل التي لم يبتلِ بها السلف الصالح ، وعلى مدى تطوّر العلوم الاسلاميّة في ذلك الحين ، وفوائد أُخرى كثيرة لا تخفى على الباحثين في حقل التراث الإسلامي .

عملنا

منذ أن تقرّر البدء بمشروع تحقيق تراث الإمام السيّد عبدالحسين شرف الدين وكتبه كلّها في موسوعة شاملة، قام قسم إحياء التراث الإسلامي بالخطوات التالية:

١. جمع كتب السيّد شرف الدين المطبوعة، ولا سيّما الطبعة الأُولى لكلّ كتاب والطبعات التي تتميّز فيها طبعة عن طبعة، مثل: الطبعة الأُولى للمراجعات والطبعة الثانية لها، حيث تختلف الطبعة الثانية عن الطبعة الأُولى في بعض الألفاظ والعبارات، وكلّها من ثمرات قلم السيّد شرف الدين وفي حياته.

ويدخل ضمن مهمّة جمع كتبه ﷺ التواصل مع أُسرة السيّد شرف الدين في لبنان حيث حصلنا منهم على بعض صور المخطوطات وبعض الإجازات التي لم تنشر من قبل، فضلاً عن المقالات المنشورة في مجلّة العرفان وغيرها.

ومع هذا فقد بقي من آثار السيّد شرف الدين ما لم تصل أيدينا إليه، وسنظلّ نتابع آثاره وتراثه وننشر ونصحّح ما استجدّ لنضيفه في الطبعات القادمة إن شاء اللّه تعالى .

٢. تخريج الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والأقوال والأشعار وما يحتاج إلى توثيقه.

٣. ضبط النصّ مع ملاحظة بعض الاختلافات فيما بين طبعات الكتاب الواحد، ووضع

أصحّها في المتن، وشرح الألفاظ الصعبة، وتوزيع النصّ، وتنظيم الهوامش.

٤. مقابلة المطبوع على الحاسوب مع النسخة المقوّمة النصّ.

٥. المراجعة الفنّيّة، حيث يلاحظ المطبوع على الحاسوب فنّيّاً من حيث حجم المكتوب في الصفحة، ووضع رؤوس الأسطر، والعناوين داخل المتن، والعناوين في أعلى الصفحات، وما شاكل ذلك.

٦. المراجعة النهائيّة، حيث يلاحظ الكتاب ملاحظة كاملة من كافّة النواحي: الإملائيّة والنحويّة واللغويّة، وما شاكل ذلك.

٧. الفهرسة حيث تفهرس الآيات والأحاديث والأقوال والأشعار والأمثال والأعلام والأماكن وما إلى ذلك، والفهارس كما هو معروف مفاتيح الكتب.

٨. علّق السيّد شرف الدين على كلّ كتاب من كتبه بتعليقة يفسّر بها الغامض ويفصّل المجمل ويزيد في الاستشهاد بالحديث وغيره. وعلّق محقّقونا ما حصل من عمليّة التحقيق والتخريج وما قاموا به من توضيح وبيان.

وقد جعلنا متن الكتاب أوّلاً ووضعنا تحته خطّاً قصيراً، وتحت ذلك الخطّ تعليقة المؤلّف ﷺ، ثمّ جعلنا خطّاً أطول تحته هوامش محقّقينا. وميّزنا أعداد علامة هوامش شرف الدين بأن جعلناها بين قوسين، بينما أوردنا أعداد علامة هوامش المحقّق خالية من الأقواس.

هذا وقد رتّبنا الآثار الخالدة للإمام السيّد عبدالحسين شرف الدين على حسب الأهمّيّة موضوعاً ودراسة ومنهجاً في مجلّدات، بحيث يشتمل بعضها على كتابين أو أكثر، ومجلّد يختصّ بالمقالات، ومجلّد يختصّ بالخطب والرسائل والإجازات والتقريظات.

وفرزنا كتاب بغية الراغبين عمّا ألحقه به ولده العلّامة السيّد عبدالله شرف الدين، فجعلنا الأصل مجلّداً، والملحقات مجلّداً مستقلاً، وجعلنا مجلّداً خاصّاً بالفهارس.

شكر وثناء

يتقدّم مركز العلوم والثقافة الإسلاميّة إلى جميع الإخوة المحقّقين في قسم إحياء التراث الإسلامي المشاركين في تحقيق وإخراج موسوعة الإمام السيّد عبدالحسين شرف الدين

بالشكر الوافر والثناء الجميل، مثمّناً جهودهم الكبيرة الجادّة، وداعياً الله عزّ وجلّ لهم بالتوفيق، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

وقد رتّبنا أسماء الذوات العاملين في هذه الموسوعة حسب حروف المعجم، وذكرنا أمام اسم كلّ منهم العمل الذي قام به:

مجموعة المحقّقين:

أسعد الطيّب، عضو اللجنة المشرفة على التحقيق، المراجعة النهائيّة.

إسماعيل بيك المندلاوي، عضو لجنة المقابلة.

جواد الفاضل، عضو مساعد في تخريج بغية الراغبين.

السيّد حسين بني هاشمي، تحقيق كلمة حول الرؤية، عضو لجنة المقابلة.

السيّد خليل العابديني، سكرتير اللجنة المشرفة على التحقيق، تحقيق إلى المجمع العلمي العربي بدمشق، وفلسفة الميثاق والولاية.

رضا المختاري، عضو اللجنة المشرفة على التحقيق، وله شرف اقتراح تحقيق موسوعة شرف الدين.

طه النجفي، عضو لجنة المقابلة.

عباس المحمّدي، عضو اللجنة المشرفة على التحقيق، وتحقيق قسم من النصّ والاجتهاد، وتقويم وتكميل تخريجات بغية الراغبين وملحقاته.

السيّد عبدالرسول الحامدي، عضو لجنة المقابلة.

عبدالرسول المهاجر، عضو مساعد في مقابلة النصّ وتخريج بغية الراغبين.

علي أوسط الناطقي، مسؤول قسم إحياء التراث الإسلامي، عضو اللجنة المشرفة على التحقيق، تحقيق قسم من النصّ والاجتهاد، والمراجعة النهائيّة، والمراجعة الفنيّة.

السيّد علي الحسيني لرگاني، عضو مساعد للمحقّقين.

غلامحسين قيصريه‌ها، تحقيق الفصول المهمّة، وأجوبة مسائل موسى جار الله.

غلام رضا النقي، تحقيق المجالس الفاخرة، والمساعد في تخريج المجاهيل.

محمّد إسلامي پناه، تحقيق ثبت الأثبات.

محمّد الباقري، عضو اللجنة المشرفة على التحقيق.

محمّدحسين المولوي، تحقيق مختصر الكلام في مؤلّفي الشيعة من صدر الإسلام.

محمّد الربّاني ﷺ، تحقيق مسائل فقهيّة.

محمّد مهدي عادل‌نيا، المساعد في تخريج بغية الراغبين.

منصور الإبراهيمي، تحقيق المراجعات، وأبوهريرة، والكلمة الغرّاء في تفضيل الزهراء عليها السلام، وقسم من المجالس الفاخرة، وستّة من المقالات.

السيّد مهدي الطباطبائي، المسؤول السابق لقسم إحياء التراث الإسلامي، وعضو اللجنة المشرفة على التحقيق.

السيّد منذر الحكيم، عضو اللجنة المشرفة على التحقيق، تأليف حياة الإمام شرف الدين، ومقدّمات التحقيق لأجزاء الموسوعة. وله شرف التواصل مع أُسرة شرف الدين.

نعمة الله الجليلي، تحقيق خمسة من المقالات، والمراجعة النهائيّة.

ولي الله القرباني، عضو لجنة المقابلة.

محسن النوروزي، المراجعة الفنيّة قبل النشر.

مجموعة الإخراج الفنّي:

رمضان علي القرباني ومحمّد الخازن.

مسك الختام

ويسرّنا هنا أن نتقدّم بالشكر الجزيل والثناء الخالص إلى كافّة مسؤولي مكتب الإعلام الإسلامي خصوصاً مدير المكتب فضيلة السيّد حسن الربّاني، ومسؤولي مركز العلوم والثقافة الإسلاميّة خصوصاً فضيلة الشيخ محمّدتقي السبحاني وفضيلة الشيخ محمدحسن النجفي، حيث جعلوا هذا العمل المبارك نصب أعينهم، ومنحوه جهدهم ووقتهم وقدّموا ما في وسعهم من عون منذ كان بذرة صغيرة أيّام اقتراحه ليكون أحد أعمال قسم إحياء التراث الإسلامي إلى أن أصبح بحمد الله تعالى شجرة باسقة وارفة الظلال تسرّ الناظرين.

مركز العلوم والثقافة الإسلاميّة

قسم إحياء التراث الإسلامي

مقدّمة التحقيق

ملحقات بغية الراغبين

المؤلِّف والمؤلَّف

لم تسمح الظروف للإمام شرف الدين بطباعة كتابه بغية الراغبين في حياته. ومن هنا نرى أنّ الباحث الموسوعي والمتتبّع المؤرّخ[1] فضيلة الحجّة السيّد عبد الله شرف الدين المولود سنة ١٣٤٥ هنجل الإمام شرف الدين وآخر أبنائه قد انبرى لطباعته بعد تتميمه بما أضافه إلى الكتاب من تراجم الأعلام من غير آل شرف الدين وتراجم أحفاد شرف الدين الذين لم يشر إليهم الإمام شرف الدين لأنّهم قد ولدوا بعده، وتراجم كوكبة من آل الصدر الذين استشهدوا أو افتقدوا بعد عصر الإمام شرف الدين، فكانت موسوعة تاريخيّة معاصرة.

وقد جمع السيّد عبد الله شرف الدين في هذه الملحقات مجموعة من البحوث والوثائق القيّمة ذات العلاقة بالإمام شرف الدين وإنجازاته.

وأمّا ما أضافه من إيضاحات أو استدراكات إلى ما كتبه الإمام شرف الدين فقد ميّزه بعلامة فارقة، وأصبح الكتاب في مجلّدين كبيرين.

---

١. له «مع موسوعات رجال الشيعة» في أربعة مجلّدات، استدرك فيها على ثلاث موسوعات وثمانية من كتب التراجم، وله أيضاً «معجم رجال الشيعة» في أكثر من ثلاثين مجلّداً. راجع ص ١٩٠ ـ ١٩٢.

مميّزات الطبعتين المحقّقتين

وقد ارتأى قسم إحياء التراث، بعد استجازة فضيلة السيّد عبد الله شرف الدين أن يقسّم الملحقات إلى قسمين:

القسم الأوّل ما ينبغي أن يلحق بذيل كلّ بحث تطرّق له الإمام شرف الدين، إذ سوف يكون تأخيره وفصله عن موقعه مخلّاً بالمقصود، وهذه الملحقات أُبقيت في نفس المجلّد الذي احتوى على بغية الراغبين.

علماً بأنّ الطبعة المحقّقة الأُولى قد تضمّن الجزء الأوّل منها للمقدّمة وللبابين، وتضمّن الجزء الثاني منها خاتمة المؤلّف وهي الخاصّة بترجمة نفسه، والتي تبلغ ثلث المجلّد الثاني.

بينما الطبعة المحقّقة الثانية قد خصّصت الجزء الأوّل بكلّ ما كتبه الإمام شرف الدين، وخصّصت الجزء الثاني بملحقات نجله دام ظلّه.

محتويات ملحقات بغية الراغبين

المجموعة الأُولى: وتناهز التسعين صفحة، وتتضمّن ما يلي:

١ ـ وفاة الإمام شرف الدين، موكبه، أُسبوعه، أربعينه.

٢ ـ صدى وفاته.

٣ ـ تأبينه ومراثيه.

٤ ـ مختارات من تأبينه ومراثيه في لبنان.

٥ ـ مختارات من تأبينه ومراثيه في العراق وسائر البلدان.

وهذه المجموعة تعكس صوراً من شخصية الإمام شرف الدين في ذاكرة العلماء والكتّاب والمصلحين، كما تبيّن الموقع الذي كان يحتلّه الإمام شرف الدين

في نفوسهم وقلوبهم والدور الذي قام به ﷺ والإنجازات التي تركت آثاراً إيجابيّة في عصره.

المجموعة الثانية: وتبلغ حوالي ٩٠ صفحة أيضاً، وتتضمّن البحث عن:

عقب الإمام شرف الدين، وقد أرّخ فيها لأبناء الإمام شرف الدين السبعة، وأبناء أبنائه وأحفاده، وفصّل الحديث عن شقيقه السيّد جعفر شرف الدين.

المجموعة الثالثة: الإمام شرف الدين في الصحف اللبنانيّة، وهي عبارة عن عشر مقالات حول جهاد الإمام شرف الدين، كانت قد نشرت في الصحف اللبنانيّة في عقد الثمانينات، وهي تناهز التسعين صفحة.

المجموعة الرابعة: وتضمّنت ذكر مجموعة من مترجمي الإمام شرف الدين.

المجموعة الخامسة: وتضمّنت قصّة الجعفريّة وعدّة لوحات رخاميّة.

المجموعة السادسة: سيّدان صدريّان، واستوعب فيها ترجمة الإمام الفقيد السيّد موسى الصدر وترجمة الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر ﷺ، وترجمة شقيقته بنت الهدى خلال ١٨٠ صفحة.

وقد كانت في الطبعة الأُولى مجموعة تحت عنوان مواقف تأريخيّة منه وله وتضمّن خمسة من خطبه السياسية، وتسعة مذكّرات سياسيّة، وثمانية رسائل سياسيّة، وتسعة رسائل تربويّة.

وكان الإمام شرف الدين قد عزم على الهجرة إلى العراق سنة ١٣٦٣هـ وما أن بلغ خبر الهجرة إلى علماء لبنان وقفوا أمام هذا العزم وحالوا دون هجرته، فكانت له كلمة مهمّة ولهم كلمات تاريخيّة تفصح عن عزمهم على المقاومة ليبقى هذا الثغر الإسلامي حيّاً نشيطاً صامداً أمام الهجوم الثقافي الغربي الكاسح. وقد جاء التقرير الموجز عن هذا الحدث في ابتداء هذه المجموعة. وقد أفرزنا هذه المجموعة من الكتاب وأدخلناها إلى الجزء التاسع في الخطب والرسائل.

هذا، وقد تمّ تصحيحها وتنقيبها ومراجعة مصادرها على أيدي المحقّقين الأعزّاء في قسم إحياء التراث الإسلامي، وهم الإخوة: الشيخ عبّاس المحمّدي والشيخ عليّ أوسط الناطقي والشيخ محسن النوروزي. راجين لهم من الله دوام التوفيق في خدمة مكتبة أهل البيت عليهم السلام. كما نتقدّم بالثناء والشكر إلى الأخ الكريم رمضان علي القرباني، حيث بذل غاية جهده في إخراج أجزاء الموسوعة بهذه الحلّة القشيبة.

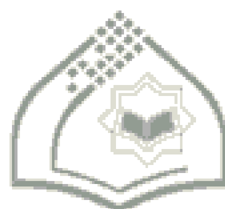
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

مركز العلوم والثقافة الإسلاميّة
قسم إحياء التراث الإسلامي



ملحقات

بغية الراغبين


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وفاته

قال صاحب مجلّة العرفان ـ في المجلّد ٤٥ من مجلّته المذكورة ص٤٦٦ وما بعدها مايلي ـ:

الإمام شرف الدين

وفاته، موكبه، أسبوعه

زارنا﵁ في صيداء منذ شهرين ونصف تقريباً ـ رغم عجزه وشيخوخته ـ وقال: «إنّما جئت لأُودّعكم الوداع الأخير فلا تنسونا من أدعيتكم».

وكانت ساعةً رهيبةً، وكأنّه عرف نفسه واستبق أجله.

وزرناه بعد ذلك مراراً في صور، وكان تعباً جسميّاً، لكنّه في عقله المفكّر وذهنه النيّر لا يكلّ ولا يملّ من الكتابة والمطالعة، وهذا شأن الأبطال الذين ينذرون أنفسهم للعلم، للنفع العامّ لهدي الناس وإرشادهم.

منذ شهر ـ تقريباً ـ نقل إلى مستشفى «أوتيل ديو» وكان قد أصابه «كريب» ولكن تبعه اشتراكات في الجسم والرئة ممّا أوجب الخطر على حياته الغالية، إلى أن كان صباح الإثنين في ٨ جمادي الآخرة، سنة ١٣٧٧، الموافق ٣٠ كانون الأوّل سنة ١٩٥٧، الساعة الخامسة والنصف صباحاً، فإذا بالقلوب واجفة، والنفوس باهتة، وإذا بالدموع تتلاقى بالدموع، واللوعة والأسى يعمّان الجميع، الكبير والصغير،

الغنيّ والفقير. لقد نعى الناعي الإمام المجتهد الأكبر السيّد عبدالحسين شرف‌الدين الذي ملأ دنيا العروبة والإسلام فضلاً وعلماً وأثراً.

يا لهول المصيبة، ويا لعظم الفاجعة! لقد هوى العملاق بعد روعة الإشراق، لقد غاب عنّا بابتسامته العذبة، وإشراقته الوضّاءة، فهل يغيب عنّا ذكره وأثره؟

نعته الطائفة الإسلاميّة الشيعيّة إلى العالمَين العربي والإسلامي، وجلس عطوفة الرئيس عادل عسيران[1]، وصاحب العرفان، وأنجال الفقيد، وآل بيضون يتقبّلون التعازي بالفقيد الراحل، في بَهو[2] الكلّيّة العامليّة، فأقبل الناس زرافات ووحداناً من جميع الطوائف للتعزية، وفي مقدّمتهم فخامة رئيس الجمهوريّة[3]، ودولة رئيس الوزراء[4]، والعلماء والوزراء والنوّاب وجميع أفراد الشعب، وفي الساعة الثامنة مساءً نعته الإذاعة اللبنانيّة بالكلمة الآتية:

نعي إلينا سماحة المجتهد الأكبر الإمام السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، مرجع الطائفة الإسلاميّة الشيعيّة، قبضه الله تعالى إلى رضوانه عن عمر قارب التسعين، قضاه في الكفاح و الجهاد لخدمة الدين والعلم والوطن.

لقد نذر الفقيد الكبير نفسه طوال حياته لنشر فضائل الدين وتعاليمه الكريمة، في مؤلّفاته الكثيرة القيّمة، التي عبّرت عن مختلف وجوه الحقّ والعدالة والمحبّة بين

---

١. هو أحد زعماء جبل عامل البارزين، ولد في صيداء سنة ١٣٢٣، وعرف من أوّل أمره بالجهاد وصدق الوطنيّة والشرف، ممّا أدّى إلى اعتقاله من قبل سلطة الانتداب الفرنسي مراراً، وقد تولّى رئاسة المجلس النيابي في عدّة دورات.

٢. البَهْوُ: الواسع من كلّ شيء، والمكان المخصّص لاستقبال الضيوف. المعجم الوسيط: ٧٥، «ب. ه. و».

٣. هو كميل شمعون رئيس حزب الأحرار ومن أكبر زعماء الموارنة في لبنان، ولد في دير القمر سنة ١٣١٩، وقد اقترن اسمه بأهمّ الأحداث في لبنان لا سيّما أحداث سنة ١٩٥٨، والفتنة الكبرى التي امتدّت طوال سنين.

٤. هو سامي الصلح من أشهر رجال السياسة في لبنان، ولد سنة ١٣١٣، وقد تولّى رئاسة محكمة الجنايات، فكان من ألمع القضاة، وانتخب بعد ذلك نائباً في جميع الدورات، وترأس الوزراة سبع مرّات، عقد في آخرها اتّفاقاً مع أميركا في مشروع إيزنهاور.

الطوائف، وكانت هذه المؤلّفات مرجعاً ولساناً لكلّ من ينشد هذه المثل العليا السامية في البلاد العربيّة والإسلاميّة.

كان الفقيد الكبير ينهض بأعباء الدعوة للخير ووحدة الكلمة، وإصلاح حياة الناس، سواء في قضائه أم في جهاده الديني والاجتماعي، أم في دروسه العلميّة التي كان يدأب دون انقطاع في بذل الجهد لها من راحته وعافيته، أم في إحياء مشاريع العلم التي ترفع ظلمة الجهالة، وتهدي إلى سواء السبيل.

ومن مآثره الخالدة: ذلك الصرح العلمي الكبير الذي أنفق من عمره المبارك سنوات لتشييده وترسيخ مكانته في جزء من الوطن العزيز، نعني به الكلّيّة الجعفريّة التي أعانت كثيراً من المواطنين المعوزين على تلقّي العلم والتهذيب.

ومن مآثره الخالدة: مواقفه الوطنيّة المشهودة وصرخاته الإصلاحيّة في تعزيز كلمة الوطن وصيانة استقلاله، وتوحيد صفوفه، حتّى ذهب صيته في البلاد العربيّة والإسلاميّة عامّةً، وكانت له الكلمة المسموعة لدى جميع الفئات العليا في شؤون الدين والعلم والإصلاح، وسينقل جثمان الفقيد صباح اليوم بالطائرة إلى العراق، ليودع إلى جانب مدافن الأئمّة في النجف الأشرف.[1]

وكان فقيدنا عليه الرحمة، قد أوصى أن يدفن بالنجف الأشرف، بجوار جدّه أمير المؤمنين عليه السلام.

وفي صباح يوم الثلاثاء كان موعد نقل الجثمان من المستشفى إلى المطار، والمسافة سبعة كيلومترات، وقد احتشد جمهور غفير أمام المستشفى، وفي الساعة الثامنة والنصف خرج الموكب من المستشفى، يتقدّمه العلماء والوزراء ورجال السلك السياسي، وكان البكاء بالغاً عنان السماء، وكان الموكب لا يدرك الطَّرْفُ آخرَه، وفي الساعة الحادية عشرة وصل الجميع إلى المطار، وطارت الطائرة إلى العراق.

---

١. إلى هنا آخر كلام الإذاعة اللبنانيّة.

وكانت جميع الهيئات والجمعيّات في النجف الأشرف قد نعت الفقيد إلى العراقيّين، وقد نعته جمعيّة منتدى النشر بما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

تنعى جمعيّة منتدى النشر ببالغ اللوعة وعظيم الأسف علم الأُمّة الشامخ، وحصنها المنيع، سماحة حجّة الإسلام آية الله السيّد عبدالحسين شرف‌الدين الذي كان وحده جيشاً مرابطاً في ثغور الإسلام.

فقد استأثرت به رحمة الله في لبنان بعد أن ناهز التسعين عاماً قضاها في جهاد مستمرّ، ونضال منقطع النظير، وهو حين يلقي بسلاحه على عتبات القدر بعد هذا العمر المديد، فإنّما يلقيه بعد أن بلغ في جهاده بأُمّته أوج ما ينتظر لها من نصر.

ومن آثاره الخالدة التي تركها في مختلف ميادين الجهاد، سواء في مجالات الذبّ عن المبدإ والعقيدة بقلمه الشريف، كالمراجعات و الفصول المهمّة و النصّ والاجتهاد وغيرها، أم في مجالات مناهضة المستعمرين دفاعاً عن حوزة الإسلام بلسانه البليغ وسنانه النافذ، وبما وضع للتعليم من مناهج طبّقها في كلّيّته الجعفريّة.

والجمعيّة إذ تبكيه فإنّما تبكي فيه بالإضافة إلى خسارتها العامّة خسارتها الخاصّة به؛ حيث كان ﷺ من أهمّ الموجّهين لفكرتها الإصلاحيّة، والمباركين لحركتها الثقافيّة بما كان يخصّها من محاضراته القيّمة في مواسم المجمع الثقافي.

طارت الطيّارة بالجثمان والمرافقين الساعة الحادية عشرة و ٢٠ دقيقة، وقد بلغنا بغداد الساعة الثانية بعد الظهر، وحمل الجمع المحتشد التابوت بالتهليل والتكبير والأناشيد الشعبيّة المؤثّرة، وسلّم وفد بغداد لوفد الكاظميّة التابوت بعد مسير زهاء ساعة مشياً على الأقدام، وسار وفد الكاظميّة وأمامه فريق من الشباب المثقّف ينشد الأناشيد العربيّة الفصيحة بنظام وترتيب، وهناك غسّل الجثمان الطاهر، وبعد مسير فريق من الكاظميّين والبغداديّين صحبة الجثمان اعتلينا السيّارات، وسرنا نحو كربلاء،

فبلغنا المسيّب الساعة الحادية عشرة ليلاً حيث استقبلنا وفد كبير من أهل المسيّب، ومعهم العلماء والوجهاء والأضواء الكهربائيّة المشعّة، فساروا طويلاً بعد ما حملوا الجثمان على الأكفّ منشدين الأناشيد الشعبيّة.

ثمّ سرنا بالسيّارات فبلغنا كربلاء الساعة الثانية بعد نصف الليل.

وفي اليوم التالي أقفلت كربلاء جميع حوانيتها فلم تكن ترى حانوتاً مفتوحاً، وكان النشيد من الجموع المحتشدة وراء الجثمان بالفارسيّة مؤثّراً جدّاً.

وبعد مسير ساعة مشياً على الأقدام ـ في جمع حافل جدّاً ـ امتطينا السيّارات، وما بلغنا خان النصف ـ وهو نصف الطريق بين كربلاء والنجف ـ حتّى وجدنا جمعاً غفيراً من العامليّين والنجفيّين جاؤوا للاستقبال، وبتنا كلّما تقدّمنا قليلاً نرى الوفود أثر الوفود.

وخرجت الوفود النجفيّة لمسافة نصف ساعة عن النجف بالتهليل والتكبير والأناشيد الشعبيّة المؤثّرة، وخرج العلماء الأعلام المراجع، وهم: السيّد محسن الحكيم، والسيّد حسين الحمامي، والسيّد أبوالقاسم الخوئي، والشيخ مرتضى آل ياسين وغيرهم كثيرون جدّاً. وما بلغنا الحضرة العلويّة إلّا بعد الغروب، بعد مسير ساعتين مشياً على الأقدام.

وبعد الصلاة على الجثمان الطاهر دفن في غرفة من غرف الحضرة، مودّعاً بالعبرات والحسرات والأسف الشديد على عالم هيهات أن يجتمع بأحد ما اجتمع بشخصه الكريم.

هيهات أن يأتي الزمان بمثله   إنّ الزمـان بـمثله لضـنينُ

وأُقيمت الفواتح، وفي طليعتها فاتحة آل ياسين وآل الصدر، فكانت فاتحة عظيمة جمعت فأوعت.

وفي اليوم الثالث جاءت محلّة المشراق، وهي أكبر محلّة في النجف ضاقت بأهلها فسحات جامع الخضراء الرحيبة وخارجه والطرقات المؤدّيه له. وأقام الفاتحة المراجع

الأعلام: السيّد محسن الحكيم في مسجد عمران[1]، والسيّد عبدالهادي الشيرازي في مسجد الشيخ مرتضى الأنصاري، وأشاد بها الخطيب الإيراني الشهير الشيخ مرتضى الأنصاري[2] بما كان للسيّد من صفات يندر أن تجتمع لغيره، وكذلك أقام السيّد حسين الحمامي فاتحةً، والسيّد أبوالقاسم الخوئي، وغيرهما.

وفارقنا النجف وبلغنا الكاظميّة، وكنّا نحضر فيها فاتحة آل الصدر التي أُقيمت ثلاثة أيّام بلياليها في مرقد السيّد المرتضى علم الهدى، ولم يبق أحد في بغداد والكاظميّة إلّا وحضرها، وكانت تلاوة الذكر الحكيم متتابعةً بها، وأحياناً تتلى الخطب والقصائد. وكان آل الفقيد وفي طليعتهم السيّد عليّ الصدر وأبناؤه النجباء والعين السيّد محمّد صادق الصدر يستقبلون المعزّين بما فطروا عليه من كرم الخلق.

وعدنا يوم الثلاثاء مساءً، وبلغنا دمشق مساء الأربعاء، فتابع قسم منّا مسيره لبيروت وصور.

وقد أرسل الوفد بكلمة الشكر هذه لإخواننا العراقيّين:

يتقدّم الوفد الذي رافق جثمان المجتهد الأكبر العلّامة السيّد عبدالحسين شرف‌الدين إلى النجف الأشرف، بشكره الجزيل لمراجعنا وللعلماء الأعلام وللشعب العراقي، وللجاليات الإيرانيّة والهنديّة والباكستانيّة والأفغانيّة والتبتيّة، والجمعيّات الإسلاميّة ورؤساء القبائل وشيوخ الأطراف، والهيئات ومواكبها شعبيّةً وطلّابيّةً، ويقدّر استقبالهم البرّ للجثمان، وتشييعهم له في مطار بغداد، وفي الكاظميّة، والمسيّب، وكربلاء، وخان النصف، والنجف الأشرف، وما أبدوه من

١. هو عمران بن شاهين تقلّد الجامدة والأهوار التي في البطائح، فما زال يجمع الرجال إلى أن كثر أصحابه فقوي وغلب على تلك النواحي، وحارب سلطان عصره، وتملّك على تلك المنطقة، توفّي سنة ٣٦٩. انتهى ملخّصاً عن ماضي النجف و حاضرها ج ١ ص ١٠١.

٢. كان من كبار الخطباء في قمّ، له أُسلوب قويّ وتأثير معجب في نفوس الجماهير.

صدق في الشعور، ونبل في العواطف، ويبتهل إلى الله عزّوجلّ أن يهيّء فيه من يسدّ الثغرة، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وحضرنا الحفلة الأُسبوعيّة في صور، التي أُقيمت في بَهوِ الكلّيّة الجعفريّة، ضاق الصرح على سعته بالوفود الكثيرة المتراصّة، كما ضاقت رحبات الكلّيّة كلّها عن استيعاب الوافدين.

وتليت الخطب والقصائد التي تضيق صفحات العرفان عن عدّها، فضلاً عن نشرها، وكان للخطابين القيّمين اللذَيْن ألقاهما العلّامتان الشيخ شفيق يموت ـ رئيس المحكمة الشرعيّة العليا[1] ـ، والدكتور مصطفى الرافعي[2] ـ قاضي بيروت الشرعي ـ وقع كبير في نفوس الحاضرين.

أمّا ما ظهر من مكارم وكرم بعض الصوريّين نحو الوفود الكثيرة، فممّا يقصر عنه البيان، لاسيّما ما ظهر من المحسنين الكرام السادة: خليل عوني، وإبراهيم عرب، وعبّاس حلاوي.[3]

مكارمٌ تلك منهم غيرُ محدَثةٍ   إنّ المكارمَ فاعلم شرُّها البدعُ

ولا عجب إذا ظهر الشعور الطيّب من العامليّين والعراقيّين، فالإمام الراحل بعلمه وفضله، بأدبه وتقواه وورعه، بجرأته وإخلاصه وكرمه، يذكّرنا بأجداده الأئمّة الأطهار، من موسى الكاظم عليه السلام إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

وإنّ العرفان التي كان الإمام الراحل من أنصارها الأوفياء، وأعوانها الأصفياء،

---

١. ولد في بيروت سنة ١٣٣٧، يحمل شهادة الليسانس من كلّيّة الشريعة بالأزهر، عهد إليه مفتي الجمهوريّة بخطابة الجمعة في الجامع العمري الكبير، واختطّ خطّةً جديدةً في الدعوة كان لها أثرها البارز في التوجّه الجماهيري. انتهى ملخّصاً عن كتاب علماؤنا.

٢. هو من أفاضل علماء طرابلس وميرزيهم، خطيب مفوّه.

٣. هؤلاء الثلاثة من مشاهير المغتربين في أفريقيا وأثريائهم، عرفوا بالشهامة والنخوة والسخاء في كلّ مجال من الأعمال الخيريّة، والإحسان والمبرّات الإنسانيّة.

ومشجّعيها الأوّل تعتذر إلى القرّاء إن لم تتمكّن من إيفائه حقّه في هذا العدد؛ لأنّ القلب متفطّر، والجراحات لم تندمل، والموتور لسان حاله أبلغ من لسان مقاله. حفظ اللّه أنجاله للأمّة والوطن. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] وإنّا للّه وإنّا إليه راجعون». انتهى ملخّصاً.

وقال في المجلّد ٤٥ من مجلّة العرفان أيضاً ص ٥٧١ وما بعدها ما يلي:

الإمام شرف الدين

أُسبوعه، أربعينه

وعدنا القرّاء في العدد الماضي أن نكمّل ما بدأنا فيه من الكتابة عن الإمام شرف الدين.

أمّا في صور في حفلة الأُسبوع، فقد كان من الخطب الرائعة كلمة فضيلة الشيخ معوّض إبراهيم معوّض، مندوب الأزهر للتدريس في الكلّيّة الشرعيّة في بيروت، والأُستاذ الشيخ معوّض عالم خطيب أديب، يغار على الإسلام والمسلمين ويقدّر أعلامهم.

وجاءنا من كربلاء أنّ سكّانها بعد أن قاموا بواجبهم حقّ القيام في التشييع، أقاموا الفواتح الكثيرة عن روح الفقيد، منها الفواتح الآتية:

١ ـ فاتحة آية اللّه الشيرازي في الصحن الشريف[2].

٢ ـ فاتحة السادة آل مرتضى الشاميّين في مسجد باب صحن الحسين عليه السلام.

٣ ـ فاتحة الشيخ ميرزا علي الأسكوني في حسينيّة باب الصحن الشريف.

٤ ـ فاتحة صنف الصائغين في جامع باب صحن العبّاس عليه السلام.

---

١. يونس (١٠): ٦٢.

٢. هو السيّد مهديّ الشيرازي كان من مراجع التقليد والعالم المبرّز الأوّل في كربلاء، ورئيس الحوزة فيها، وكان من الورع والتقوى بمكان، ولد سنة ١٣٠٥، وتوفّي سنة ١٣٨٠.

٥ ـ ومن المقرّر إقامة حفلة تأبينيّة كبرى بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاة الراحل، وقد اُلقيت عدّة كلمات وقصائد في تلك الفواتح تنشر في منشور خاصّ.

وجاءنا من النجف الأشرف: أنّه بعد عودة الوفد الذي رافق الجثمان قد اُقيمت فواتح كثيرة عن روح الفقيد العظيم، تليت فيها الخطب والقصائد.

وجاءنا من وكيلنا في البحرين السيّد علوي المشقاب[1] بأنّه قد اُقيمت الفواتح مدّة ثلاثة أيّام متوالية في البحرين، حضرها لفيف كبير من العلماء والأدباء والوجهاء وبقيّة أفراد الشعب، وقد اُلقيت فيها الخطب والقصائد.

وجاءنا من الكويت: أنّه اُقيمت فيها عدّة فواتح، وأنّ المثري الشهير الحاجّ يوسف البهبهاني قد ذبح الذبائح وأطعم الفقراء، وأنفق عن روح المرحوم الإمام شرف‌الدين.

وجاءنا من إيران: أنّ طهران أقفلت حداداً على المرحوم، واُقيمت فيها الفواتح الكثيرة[2]، كما أنّ صحف إيران ملأت أعمدتها بذكره.

وفي قمّ أقام آية‌اللّه الإمام السيّد حسين البروجردي فاتحتين في أهمّ مسجدين من مساجد قمّ.

وكتب لنا وكيلنا في تبريز العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائي: أنّه اُقيم في تبريز فاتحتان: الاُولى من قبل العلماء، والثانية من قبل التجّار في مسجد المرحوم الحاجّ يوسف المجتهد الطباطبائي الشهير، حضرهما جمع غفير من مختلف الطبقات، بينهم حاكم البلد حضرة «زند». وكان يوم وفاة الإمام في تبريز يوماً مشهوداً اُقفلت فيه الأسواق.

أمّا البرقيّات ورسائل التعزية التي وردت فهي أكثر من أن تحصى، ولا يتّسع المقام لتعدادها فضلاً عن نشرها.

---

١. هو أحد أعيان البحرين، كاتب أديب، كريم الخلق، لطيف المجلس، كما شاهدته ورأيته فيه.

٢. كما اُقيمت فواتح كثيرة أيضاً في جميع مدن وقصبات إيران؛ حيث بقيت جرائد طهران مدّة تنشر في كلّ يوم خبراً عن عدّة فواتح تقام في عدّة مدن.

ذكرى الأربعين

وقد بدأت حفلة الأربعين في ساحة الكلّيّة الجعفريّة في الساعة التاسعة صباحاً، فغصّت الساحة على رحبها بالحضور، وكان لكلمات العلّامة السيّد عليّ مهديّ إبراهيم[١]، والنطاسي البارع الدكتور شكر الله الحدّاد وقع حسن في النفوس. وقد ساهم الشعر الجيّد في أربعين الإمام من قصيدة العلّامة الشيخ عبدالكريم صادق، إلى قصيدة الشيخ سليمان ظاهر، إلى قصيدة السيّد عبداللطيف فضل اللّه التي استعيدت أبياتها مراراً، إلى قصيدة السيّد محمّد نجيب فضل الله التي استعيدت أبياتها أيضاً، وغيرها كثير.

وكانت كلمة آل الفقيد للعلّامة السيّد نور الدين شرف‌الدين موفّقةً جدّاً، بيّن فيها أنّ الجميع هم آل الفقيد، لا آل شرف‌الدين فقط. رحم اللّه فقيدنا العزيز الذي لم تزل ذكراه ماثلة أمامنا، وشكر الجميع الذين قاموا بواجبهم في أداء حقّ الإمام الراحل، وإنّا للّه وإنّا إليه راجعون. انتهى ملخّصاً.

وذكر في مجلّة العرفان أيضاً في المجلّد ٤١ ص ٩٤ ما يلي:

صدى وفاة المغفور له
آية اللّه الحجّة السيّد عبدالحسين شرف الدين

اهتزّت الأوساط الشيعيّة في أندونيسيّة، وهيمن عليها جوّ قاتم انكسفت لها القلوب، وطأطأت الرؤوس، وسالت الدموع مدراراً، وغدا الناس في حالة ما كانوا يعهدونها من حزن عميق، وألم ما بعده ألم.

لقد بلغ الشيعة هذا النبأ المؤلم المفجع فجأةً من مجلّة العرفان الغرّاء، فانبهت الناس

---

١. هو أحد العلماء المبرّزين، وأعيان رجال الدين، خطيب مفوّه مقدام، ولد سنة ١٣٢٨، وهو يقيم في عدلون، وقد قرن العلم بالعمل من حيث التوجيه الديني، والموعظة والإرشاد، وحلّ المشاكل والخصومات.

وسكتوا، وسادهم سكون رهيب مدّةً طويلةً لاينطقون ولا يتكلّمون، فقد غلب عليهم الارتجاج، وبعد برهة من الصمت العميق، والسكوت الحائر، بدأ الناس يتهامسون، وخفّت الأصوات معزّين بعضهم بعضاً، ولم تمض برهة من فاجعة الخبر، حتّى تطايرت الأنباء، وأُرسلت الرسائل إلى جميع الجزر الأندنيسيّة المتراميّة الأطراف، البعيدة الأرجاء، تحمل نبأ من اختاره المولى إلى جواره الرحيب، المغفور له آية اللّٰه الحجّة السيّد الحسيب النسيب. بقيّة السلف الصالح مولانا عبدالحسين شرف‌الدين.

كان لوفاته رنّة أسى ملأت القلوب، ووقع عميم أليم، لقد عرفوه من بعض كتبه القيّمة فقط النصّ والاجتهاد والمراجعات التي لايوجد منها في كلّ أندونيسيّة إلّا أربعة لا غير، تتداولها الأيدي، وتقرأ في المجامع والمنتديات، ويتلهّف الناس إليها تلهّفاً قد يصل إلى حدّ النزاع؛ لأنّ كلّ واحد يريد أن يكون له النصيب الأوّل في التمتّع بقراءتها.

إنّ في هذه الأرجاء جملة كبيرة وجماعة عظيمة ممّن ينتمون إلى هذه الطريقة المثلى مذهب آل بيت الطاهرين، غير أنّهم ـ وللأسف ـ كان نصيبهم الحرمان إلّا عن النزر الأقلّ من الكتب التي يجبّ أن تكون لدى كلّ فرد منهم، ولولا اهتمام الأخ محمّد أسد شهاب الذي سنحت له الفرصة لزيارة إخواننا في صور وبيروت وبغداد والنجف، فاستصحب معه مااستطاع أن يستصحبه من بعض الكتب؛ لكنّا إلى هذه الساعة في جهل عميق عن هذه الكتب القيّمة الخالدة، وما يصل إلينا من مجلّة العرفان الغرّاء هو كلّ ما نعرفه ونطالعه عن إخواننا الشيعة الإماميّة.

إنّ وفاة المغفور له السيّد شرف‌الدين لم تكن خسارةً لاحقةً بالشيعة في البلدان العربيّة فحسب، ولكنّ الخسارة عامّة للشيعة في العالم، وللمسلمين أجمعين بوجه أعمّ. لقد عرفنا السيّد من كتبه، فعرفناه حجّةً ساطعةً، فآمنّا به واتّبعناه، وحينما وصل إلينا النبأ المؤلم والفاجعة العظمى التي هزّت المشاعر كنّا كالطفل الذي فاجأه الفطام في غير وقت الفطام.

وقد أُقيمت له الفواتح في كلّ بقعة من هذه البقاع التي يوجد فيها من الشيعة، وشاركهم فيها السنيّون، وقُرأت الفواتح في كلّ ناد من نواديهم، بل في كلّ بيت من بيوتهم، ورفعت الأيدي ابتهالاً إلى المولى الكريم بأن يحفظ البقيّة الباقية من رجالات الشيعة وعلمائهم، وأن يكثر لهذه الطائفة من الطليعة الجديدة، ومن الجيل القادم والشباب رجالاً وعلماء ممّن يترسّمون خطى الفقيد المأسوف عليه في العلم والعمل.

عن جماعة الشيعة منتدى الوصيّ «فوساكا» أحمد حسين شهاب. انتهى ملخّصاً.

وقالت مجلّة رسالة الإسلام التي تصدر عن دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة بالقاهرة، في العدد الأوّل من السنة العاشرة ص١٠٨ وما بعدها ما يلي:

في صباح يوم الإثنين الثامن من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٧ اختار الله إلى جواره الأكرم علماً من أعلام الأمّة الإسلاميّة، كانت شخصيّته القويّة في العلم والخلق والجهاد والغيرة على الدين، والدعوة إلى الله مثلاً حيّاً يذكّرنا بالسلف الصالح من علماء الإسلام، ذلك هو المغفور له العلّامة الأكبر السيّد عبدالحسين شرف‌الدين الموسوي، طيّب الله ثراه، وأكرم مثواه في جنّة الخلد﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾[١].

لقد كان أجزل الله مثوبته نسيج وحده في الإحاطة بمختلف أنواع العلم والمعرفة، وكان له فكر منظّم واع، وقدرة عجيبة على التتبّع والاستقصاء والتأمّل والاستنباط في أدب العالم، وغيرة المؤمن، وأمانة الباحث المنصف، وصبر الفاحص المتثبّت، تشهد بذلك كتبه ورسائله، وكلّ ما خطّه قلمه من مقال أو فتوى أو مكاتبة، وكلّ ما نطق به لسانه من توجيه أو نصح أو خطبة، بل كذلك كان حتّى في أحاديثه العابرة، ومجالسه الكثيرة.

---

١. النساء (٤): ٦٩.

وقد اختمرت في رأسه فكرة التقريب بين المسلمين منذ شبابه، حتّى إذا سمع بدعوتها أوّل نشأتها خفّ إليها يؤيّدها وينصرها ويدعو لها، ويزكّيها ويفخر بالانتساب إليها.

وظلّ على عهده ذاك إلى أن رفعه الله إليه.

ونحن نثبت هنا فقرات من آخر كتاب أرسله قبيل إصدار هذا العدد إلى العلّامة صاحب السماحة السيّد محمّد التقيّ القمّيّ السكرتير العامّ لجماعة التقريب[1]، قال رحمه اللّه تعالى:

نصحتم ـ شهد الله ـ لله، ولكتابه عزّ وجلّ ولرسولهﷺ، ولأئمّة المسلمين، ولعامّتهم، مخلصين بنهضتكم هذه، هاجرتم في سبيل الله، وجاهدتم في تحقيق وحدة المسلمين، فكان لكم أجر المهاجرين المجاهدين ثمّ كان لكم هذا الفوز المبين.

فهذه رسالة الإسلام تشرفون على تحريرها وإصدارها مع بطل من أبطال الفكر والعلم والجهاد وحسن البلاء، هو العلّامة الدرّاكة الشيخ محمّد محمّد المدني في نفر من قادة الرأي في اُمّتنا الناهضة.

نعم هي خير رسالة لخير حملة ترسل من نورها فيتبلّغها المسلمون ويبلّغونها رافعة الصوت، ثاقبة الفكر، بعيدة الغور، وهؤلاء السادة القادة علماء الأزهر الأنور، ومن إليهم من حكماء الاُمّة وزعمائها يحملون هذا اللواء بأيد أمينة قويّة، يدفعهم للهدف الأسمى، النصح لله ولرسولهﷺ.

ثمّ هذا هو المختصر النافع لتفاصيل رسالة التقريب، هذا هو يتهادى بين صفوف المؤمنين، يشير بأفصح بيان إلى الثروة الفكريّة التي استقى منها مؤلّفه ـ أعلى الله مقامه ـ مادّته وأحكامه.

---

١. هو الشيخ محمّد تقيّ القمّيّ عالم مصلح جليل أقام مدّةً طويلةً في مصر، أبلى فيها بلاءً مشكوراً في سبيل التقريب بين المسلمين وخدمة مذهب التشيّع، وجعله مذهباً معترفاً به من قبل مشيخة الأزهر، جزاه الله خير الجزاء.

وقد كتبت لفضيلة العلّامة المجاهد الشيخ أحمد حسن الباقوري، أشكر له ولكم تقديم هذه الخطوة العمليّة إلى المسلمين بتينك المقدّمتين، تتفجّر البلاغة من بين سطورهما، وينطق الإخلاص في كلّ كلمة من كلماتهما. وحقّاً إنّ لرجال التقريب عامّةً، وللشيخ الباقوري خاصّةً، الشكر لمساعيهم كلّها عامّةً، ولطبعهم فقه الإماميّة خاصّةً.

حقّق الله آمالنا، وسهّل لكم ما تبذلونه في سبيل الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، وإلى رسولهﷺ والسلام عليكم أيّها الناصحون لله تعالى في ذلك، ورحمة الله وبركاته.

هذه فقرات أثبتناها من كتاب العلّامة الأكبر؛ وما كنّا لنثبتها لولا أنّه لقي ربّه.



تآبينه ومراثيه

ولنفتتح تأبينه بذكر كلمات كبار المراجع، وأعلام النجف الأشرف، وقد نشرت في مجلّة النشاط الثقافي التي تصدر عن جمعيّة التحرير الثقافي بالنجف الأشرف، وذلك في العدد الخامس من سنتها الأولى، ونقلها الأديب الفاضل عبّاس عليّ في كتابه الإمام شرف الدين ص ١٨٥ وما بعدها:

قال آية الله الخوئي:

التقيت بالفقيد الراحل في لبنان عام تشرّفي بحجّ بيت الله الحرام، والتقيت به في زيارته للنجف الأشرف، وفي كلتا المرّتين لمست في خلقه عظمةً لا تجارى، وفي آرائه سموّاً لا يدانى، وإنّ جهاده في سبيل الإسلام لا يكاد يجهله أحد. ولا يسع كلّ من يراجع كتبه إلّا أن يستفيد منها الحقيقة، ويخضع لها مهما كان قويّاً في آرائه، عنيداً في معتقداته. وقد وفّق كلّ التوفيق في ذبّه عن شريعه الإسلام، وفي انتصاره للمذهب الجعفري بالسبيل الأقوم، والدعوة إلى الإصلاح ـ جزاه الله عن الإسلام خير جزاء المحسنين ـ وقد ترك وراءه ثلمةً لا يسدّها شيء، وخلّف في المسلمين رزءاً لا ينسى، وجرحاً لا يندمل، حشره الله مع أجداده الطاهرين، وخلّد ذكره في المجاهدين.

أبو القاسم الموسوي الخوئي

وقال الحجّة المجاهد الطهراني:

ماذا يقول الواصف في راحلنا العظيم، فقيد الإسلام والمسلمين، فقيد العلم والدين، فقيد القلم والمنبر: أكان مجتهداً بارعاً؟ أم خطيباً مصقعاً؟ أم باحثاً ناقداً؟ أم مجاهداً دائب المناضلة عن الدين، دائم المكافحة عن المذهب الحقّ؟

نعم هو كلّ ذلك، تشهد له به المحابر والمزابر، والكتب والدفاتر. هل طالعتم المراجعات؟ أم هل تأمّلتم في الفصول المهمة؟ أم هل سمعتم أنّ أحداً كتب في الإسلام حقائق مدرّجةً في أبي هريرة كما كتب الفقيد؟

إلى غير ذلك من الآثار العلميّة الكثيرة والمعاجز القلميّة الباهرة.

أللهمّ ارزقنا الصبر على فقده، وأسكنه بحبوحة خلدك ورضوانك.

محمّد محسن الطهراني الشهير بآقا بزرك

وقال آية الله الحلّي:

كان الفقيد من أعاظم العلماء العاملين في سبيل إعلاء كلمة الحقّ، ونشر لواء الإسلام، وإنّ مؤلّفاته الخالدة ومواقفه المعروفة لخير دليل على ذلك، فقد خسر المسلمون بوفاته خسارةً عظيمةً، وترك فراغاً لا يسدّ، وثغرةً في الإسلام لا تسدّ إلّا بعناية من الله سبحانه، ونظرة رحيمة من وليّ العصر أرواحنا فداه.

نسأله أن يعظّم للمسلمين أجرهم، وأن يحشره مع أجداده الطاهرين.

حسين الحلّي

وقال آية الله الجزائري:

إنّي أعرف فقيدنا الراحل منذ قديم الزمن، رجلاً قد بلغ في العلم والأدب الدرجة العليا، كما كان محيطاً بالتأريخ الإسلامي إحاطةً كاملةً. وكان ذا قلم سيّال رافق صاحبه طيلة عمره الشريف، ذابّاً عن حوزة الدين، جارياً في ميدان النضال عن شريعة جدّه سيّد المرسلين، لا يكلّ ولا يملّ، مضافاً إلى ما تحلّى به من الأخلاق الفاضلة الإسلاميّة، وسيرته الحسنة اللتين امتلك بهما القلوب، واجتذب الألباب، تغمّده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنّته.

عبدالكريم الجزائري

وقال آية الله التبريزي:

كان إنساناً ذا أنحاء تلتئم حلقتا بطانه على العالم، والعبقري المتحرّر، والمفكّر الجريء، والمفوّه الخطيب، والمغامر والمجاهد، هذه أُمّة من الأبطال، وقد جاءت في بطل من الأُمّة، فمثله كمثل نفس في وحدته كلّ القوى، ومن شاء أن يعرف مبلغ بطولته، ويطّلع على جهوده وجهاده، فما عليه إلّا أن يقف عند مراجعاته.

محمّد جواد الطباطبائي التبريزي

وقال آية الله آل ياسين:

إنّ فقيدنا الراحل آية الله شرف‌الدين هو أحد أُولئك الأفذاذ من علماء هذه الأُمّة، الذين نهضوا بتأدية رسالتهم كما ينهض الأنبياء من الرسل بتأدية رسالاتهم.

وإذا كان نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله قد أدّى إلى أُمّته رسالة ربّه، ودعا إليها بالحكمة والموعظة الحسنة، وتحمّل في سبيلها ما تحمّل من ظلم وضيم، حتّى أخرج الناس من الظلمات إلى النور، ثمّ تعاهدها من بعده أوصياؤه الأبرار ـ صلوات الله عليهم ـ فأحاطوها برعايتهم، وأمدّوها بعنايتهم، وحرسوها من النكسة والضياع، فإنّ فقيدنا العظيم بسيرته المثلى التي اضطلع بها طوال حياته المديدة، لم يكن إلّا انعكاساً لظِلال أُولئك الأئمّة العظماء في جهادهم وجهودهم، فقد أخذ على نفسه ما أخذه أُولئك العظماء على أنفسهم، من النهوض بأعباء الدعوة لهذا الدين الحنيف، والقيام بما يفرضه الواجب من التبشير بالمبدإ والعقيدة، فكان لقلمه ميدان، ولفمه ميدان، وليده ميدان، وكان في كلّ هذه الميادين فارسها المجلّي، وبطلها المغوار. وحسبك شاهداً على بطولته في ميدان القلم آثاره الخالدة التي تركها غرّةً في جبين الدهر، لا تفتأ تشعّ بالخير والجمال والنور، وتحمل مشعل الهداية ساطعاً وهّاجاً في غمرة من الظلمات الحالكات، فتضيء به السبيل لمن ضلّ السبيل، وتكشف غياهب الشكوك والشبهات عن آفاق الحقّ والحقيقة، وتهدي التائهين إلى موطن الأمن والسلامة، حتّى لقد اهتدى على ضوئها مئون

ومئون من الناس، ممّن كانوا لا يهتدون إلى الحقّ سبيلاً. وهكذا شاء الله تعالى أن يجري على قلمه من الدلائل والبيّنات والبراهين النيّرات ما يجعله آيةً من آياته الباهرة، وينبوعاً من ينابيعه الزاخرة، التي لا ينضب معينها الفيّاض ما بقي في دنيا الإسلام اسم للإسلام، وما بقي على وجه هذه البسيطة ظلّ للحقّ والإيمان.

هذا هو ميدان قلمه، وعلى هذا فقس ميدان لسانه وفمه، فقد كان ﷺ من أروع الخطباء في دنيا الخطابة، وأشدّهم نفوذاً إلى قلوب سامعيه، وكم من موقف وقف فيه خطيباً فأعجب وأغرب، حتّى قيل فيه: إنّه من أخطب خطباء العرب، ولئن لم يكن كما قيل، فلا شكّ أنّه من أخطب خطبائهم في عصره الذي وجد فيه، ولعلّ للوراثة أثرها في تكوينه الخطابي المنبثق من تكوين أبيه سيّد الفصحاء، وإمام البلغاء، أمير المؤمنين عليه السلام، وفي بلاغته ﷺ التي كانت تتفجّر من بين فكّيه ما يشهد له بأنّه كان متأثّراً بتلك الوراثة إلى حدّ بعيد.

وأيّ عجب من أن يتأثّر بها في بلاغة لسانه، وفصاحة بيانه، وقد تأثّر بها في أكثر مزاياه الروحيّة والمعنويّة المطبوعة بطابع من اللطف، لا يصحّ إلّا أن يكون طابعاً علويّاً أو محمّديّاً، وهو الذى جعل من شخصيّته لا كالشخصيّات، وذاتاً لا تشبهها كثير من الذوات، وهو الذي بهذه اللغة البليغة التي تمكّن منها في أحاديثه وخطاباته، استطاع أن يعمل الأعاجيب في خدمة مبدئه وعقيدته. فكان يغزو بها العقيدة الفاسدة. وهي راسخة في مقرّها رسوخ الوتد في مغرزه، فيستلّها من موطنها استلالاً، ويستأصلها من جذورها استئصالاً، وليس لديه من سلاح إلّا تلك الحجج البالغة التي تتدفّق من لسانه تدفّق الينبوع من عينه الثرّة، وتندفع اندفاع السيل من أعالي القمم!... وامّا ميدان يده فليس في وسع هذه العجالة أن تلمّ بتفاصيله وأطرافه، ولكن في وسع الباحث أن يسأل عنه بلاد لبنان وأبناءها وأرضها وسماءها، لتنبئه عمّا كان له في تلك البلاد من جهود جبّارة وجهاد مستمرّ في سبيل إعلاء كلمة الله، وإقامة الحق، وإنكار الباطل.

غير هيّاب من سلطة، ولا متملّقاً لذي سلطان. ولعلّ صرخاته الأخيرة التي أطلقها من عقيرته في سبيل الإصلاح، لا يزال صداها مدوياً في آفاق الشرق الأوسط حتّى اليوم.

فرحمك اللّه يا شرف الدنيا و شرف‌الدين. لقد خسرك الإسلام، وأُصيب بك المسلمون، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

مرتضى آل ياسين

❋ ❋ ❋

وأقام سماحة مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة المرحوم الشيخ محمّد علايا حفلةً تأبينيّةً كبرى في دار الإفتاء، أُلقيت فيها خطب عديدة لعدّة من أعلام السياسة في لبنان، ولنذكر ذلك بما يلي:

كلمة سماحة الشيخ محمّد علايا:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

شجرة طيّبة قدّمت نعيم قلبها للناس فوحاً وثمراً، وسكبت آنيتها المقدّسة المليئة في دنياهم سكب السخاء ديناً ونوراً، وأعراساً وحبوراً، وأنداءً وعطوراً، فكان يجد عندها المكدود الذي أرهقه عنت الطريق ما شاء من راحة وطمأنينة قلب.

هذه الشجرة الطيّبة هي حكاية المعنى لفقيدنا الكبير الذي كان للتأريخ مذ كان للحياة، ونحن إزاءه نجد أنفسنا مدعوّين للحديث عنه أردنا أم لم نرد، إنّه ملأ دروبنا بالإعجاب وليس الخادع، فلا يدع أن نملأ دربه بالورود وليس المزوّر من ورق مصنوع ناحل، نعم مثلما يرجع الجندي الظافر هو رجع إلى ربّه، في قلبه شعلة إيمان، وفي يمينه لألاء ما قدّم من قربان، وعلى جبينه أكاليل الغار، كان يبرز ويرتفع في قوّة واعتلاء على من سواه، كأنّه قمّة الطور بالنسبة لسهول العامّة.

---

١. إبراهيم(١٤): ٢٤ـ٢٥.

وكان على الأغلب يستمدّ شموخه هذا من ديمقراطيّة متقدّمة، ميّزت شيعة الإسلام بحرّيّة الانتقاد وحقّه، وبالاجتهاد عبر العصور الثقافيّة، وهي ديمقراطيّة تتغنّى بالكثير من التراث المتراكم على هذه البقعة من دنيا المعرفة قبل الإسلام وبعد الإسلام، وكأنّها انفتاح رحب أو تطلّع مدهش على تطوّرات الحقيقة، من أفلاطونيّة قديمة ومستحدثة، ومن إنشاء تأريخي، واقتباس اسكندري، وحتّى شيء من معطيات الشرق الأقصى، هذه الديمقراطيّة المتبلورة المنفتحة فرع من أصل، وقد تميّز الجذر العربي الإسلامي بها، وكانت صفته وعنوانه وطابعه الخاصّ.

هذه الديمقراطيّة السمحاء توّجها وأذكاها، وحدب عليها ونهض بها عبر العهود المشرقة والمظلمة، عمود فقري حقيقي بارز من كبار الرجال، هم طليعة في حملة الرسالات، تقدّموا وفي نفوسهم شيء كثير من روح عليّ نفسها، ومحض توجّهه وسلوكه.

عرفنا الفقيد الكبير عن قرب، وفي مناسبات من معارضتنا الشعبيّة، في بعض ما اختلّ وفسد من أنظمة الحكم، وكان ﷺ لا يطيق الاعوجاج، ولا يتحمّل الاختلال، ولا يحترم سلطة جائرة، ولا يجامل كبيراً إذا وجب قول الحقّ أو فعله. فكان يجابه الباطل، ويدفع التعسّف و الطغيان.

عرفناه قمّةً من هذه القمم المتتابعة على مرّ التأريخ، تحوي خصائص السهول وتقودها؛ لأنّها ترفعها وتشمخ بها.

وللمسافة بين ذهنيّتي الفريقين المشار إليهما قياسان: الانتشار الأُفقي السطحي، والانطلاق العمودي، أي الانتشار الاعتلائي الارتفاعي.

فبالأوّل تقاس ذهنيّة من يقبل الواقع كما هو ويسايره.

وبالثاني تقاس ذهنيّة المتمسّكين بما يبدو في الأشياء من الحقّ الصراح.

إنّ هذا النوع من عدم التوافق، يقسّم الناس ـ كما قلنا ـ نصفين، ويديرهما حول قطبين.

ولم يكن الفقيد إلّا ممّن هم في صلابة تصوّرهم، وصوابيّة قصدهم، يؤمنون أنّ الأشياء والواقع يجب أن تكون هكذا مستقيمةً بلا عوج ولا استنساب ينعدم فيه شيء من الجوهر الأصيل، والصراط السويّ النهج.

وهل تستقيم أمور هذه الدنيا لمن يمشي، أو يحاول أن يملأ بالغبطة قلوب الذين انطووا على أهبة الصراع حقيقة حياة، وخطّة عمل، ومنطلق ثورة؟

لقد دلّ هذا اليوم النضالي المنعم بكبرياء الشعب وإرادته وعناده، على أنّه حلم عيد في قلوبنا، تتلفّت إليه كأمل منتشر، وتلتمس طلّته في الدروب والمفارق ثمّ كان هذا اليوم، وكان شيئاً كبيراً، كان كبيراً في تحقّقه وعياً، وفي تجسّده إرادةً فاعلةً، وقوى مطوّرةً، ثمّ كان كبيراً أيضاً في أنّه سجّل أو كاد النصر لنا ـ نحن الشعوب ـ في كلّ الميادين.

ثمّ أذكر فقيدنا أيضاً وقد استفاق على جهالة مدلهمّة، وليس ضحاياها إلّا الأبناء، وعلى طفولة مضيّعة يعتصرها أسىً يتساقط مع حبات الدمع إلى قرار مخيف.

ورأى ثمّة كيف ينكّل المترفون الآثمون في المجتمع.

كيف يحكّمون بالحملان أنياب الذئاب؟

وكيف يمسخون ترنيمة البلابل، فيجعلون في لحنها نعيب الغراب؟

وكيف يحوّلون القراح العذب إلى مرير الشراب؟

وكيف يصنعون من إنسان المجتمع إنسان الغاب؟

فسهر على كلّ أولئك المضيّعين بحدب الراعي الكريم، عين له مع الناس، وخفقة قلب له مع اللّه! معهد بعرق تعبه الأقدس جبل ترابه، ومن فلذ قلبه قدّ حجارته وسوّى لبابه، ومن مثل اللّه في تبتّل المؤمن طلى سدّته وبابه. فليشهد الكافرون بنعمة الوطن عليهم، كيف يشقى الوطني الحقّ ويستعذب عذابه؟

أيّها السيّد الخالد. سيرتك وذكراك ستظلّ منتشرةً في صحف مطهّرة بأيدي سفرة كرام بررة.

فقيدنا تراث إنساني

بقلم كمال بك جنبلاط [١]

يختلف الناس في التأريخ، ويتوزّعون إلى اتّجاهين مندفعين متباريين، في الموقف من الحياة، والتصرّف بمشكلاتها.

فمنهم من يأخذ الواقع كما يجيء، وكما يفرضه تطوّر الأحداث، موقناً أنّ دارنا الفانية هذه المحجوبة ـ بعامّتها لا بخاصّتها ـ عن إشراق الحقيقة، إنّما هي دار ازدواج و تناقض وتعاكس متّصل، ظلمة ونور، صواب وخطأ، جحيم عذاب، ونعيم جنّة، كلّ يعكس فيها ما يختزنه من وميض الأزل.

فالدنيا هكذا ـ عند هؤلاء ـ وستبقى هكذا إلى أبد الآبدين، لا يصلحها مصلح إلّا لفترة ولا يقوّم اعوجاجها نبيّ ولا صاحب دعوة إلّا لحقبة، ثمّ تعود البشريّة تنقلها أوضارها منحدرةً نحو ما كانت عليه؛ لأنّها بعد كلّ شيء من دم وروح. ولا يمنع هذا الاعتبار ـ عندهم ـ أحدنا أن يقوم بدوره، كلّ دوره، من تبديد الحجب، وإضاءة الطريق قدر ما يستطيع، ولا يطلب منا إلّا ما توفّره لنا القدرة من مقاييس وانطلاقات في شؤون الحاضر والغد، وهكذا يستمرّ المجتمع يعيش ببقاء الصالحين، وانتشار أرواحهم، ولو خلا زمن من الأبدال لتقهقر الكون إذن وانعدم.

والفئة الثانية تؤمن بالحقّ وبتحقّقه صريحاً لا مزيجاً، وتدين بتطوّره في لبسه وقشره، في كينونته الداخليّة، وصيرورته الخارجيّة، في شكله ومحتواه. هذه الفئة بسيطة النظر بساطةً لا تركيب فيها ولا ازدواج، و الحقّ في نظرنا مثال كمثالات الأفلاطونيّة القديمة. قبل تشخّصها بالأشكال والأجساد، وقبل أن يذهب المعلّم اليوناني إلى إحدى جزر أتباعه ـ وقد حكم عليها ـ ويضطرّ بعد قليل من التجربة إلى الهرب منها خوفاً على حياته، متّخذاً من سقراط ومصيره عبرةً؛ إذ قال: لو

١. هو رئيس الحزب التقدّمي الاشتراكي، ومن كبار زعماء لبنان وقادة الأفكار فيه، عرف بوطنيته وجرأته وجهاده فضلاً عن كونه رجلاً ضخماً في العلم والفلسفة، ولد سنة ١٣٣٥ واغتيل سنة ١٣٩٧.

قدّر لي أن أتعاطى الشؤون العامّة، لأصابني حظّ من حبّ الحياة.

كان عليّ بن أبي طالب بطلاً على هذا الغرار، وما كان نضال المتشيّعين له من أجل فكرة السلالة أو الخلافة لأجلها، والله وحده يرث الأرض ومن عليها، وإنّما كان نضالهم في سبيل فكرة الحقّ المحض، ومحاربة الواقع الذي شاء عكس ذلك. وما من شيء يفسّر لنا استمرار التمسّك بهذه الفكرة وبهذا النضال، سوى فكرة خدمة الحقّ لأجل الحقّ ولذاته، وإن كان هذا في مستوى الخلافة، في مستوى الاجتماع، في مستوى السياسة. ولم يتجاوز الاختلاف جوهر المعتقد الواحد.

وإذا شئنا أن ننصف فقيدنا الكبير المجتهد العلّامة، وأن نضعه في إطاره التأريخي، استطعنا أن نسلكه في سلسلة الأئمّة والقادة من القمم البشريّة عبر العصور، ونعدّه أحد تلك المجموعة النيّرة التي برزت وتألّقت وتعاقبت على الأيّام حبالاً إنسانيّةً حقيقيّةً تتعالى وترشّح متواليةً منذ بداية الدعوة حتّى يومنا.

وفي الواقع كان في الفقيد شيء كبير من روح عليّ، السير على حدّ السيف فلا يتأثّر، ويترنّح ولا يهوى!

هكذا رأى الحياة، فكان له جهاد واجتهاد، جهاد ينطلق وينبعث من اجتهاد من يفكّرون ويكتبون، ويتأمّلون ويناقشون، ثمّ يؤمنون فيفعلون أعمالهم انعكاساً لصور نفوسهم، ومثالات لسيرتهم، وإنّه لشأن الصدق في الحياة، والصدق يبدأ بنا، فهو الموافقة والمطابقة لما نستثيره من توهّجات الحقيقة فينا، وهو الجهاد الأكبر، والاجتهاد الأرفع، ومن هنا على الدوام نبدأ.

كان الفقيد الكبير ـ الذي عرفناه وقرأناه بعض الشيء ـ في سلسلة قادة الرأي والتصرّف، محاولةً ضخمةً، ومثالاً حيّاً للجهاد والاجتهاد.

لهذا كان الفقيد الكبير من التراث الإنساني الشامل، وإنّنا لنستجلي به معاني القدوة، وصرف التوجّه إلى الحقّ، وصلابة الرأي الذي كان يمثله بيننا. انتهى ملخّصاً.

عهد شرف الدين

بقلم دولة الحاج حسين العويني[١]

أجمع لبنان والعالم العربي في هذه الفترة من الزمن إجماعاً منقطع النظير على تقدير رجل الدين، سماحة المجتهد المجدّد، الشيخ عبدالحسين شرف‌الدين، وقد تيسّر لهذا الرجل إجماع الطوائف والمذاهب على محبّته واحترامه، وحسبنا أن نستعرض أسماء مؤبّنيه ودارسيه، وحاسبي مناقبه ومزاياه، حتّى نؤمن بأنّ في هذا الرجل العظيم صفات ألّفت حوله قارباً من مختلف الطوائف، وجمعت على محبّته النفوس صفات يندر أن تجتمع في رجل واحد.

ومن هنا سرّ عظمته، وسرّ إجماع الناس على تمجيده والانضواء تحت رايته أربع صفات، كلّ واحدة منها تكفي لتخلق رجلاً عظيماً، فكيف هي إذا اجتمعت كلّها في شخص واحد هو علّامتنا المجتهد الأكبر؟

الصفة الأُولى: هي العلم الصحيح، العلم المبنيّ على التنقيب والتحقيق والتدقيق، والفهم العميق لروح الشرائع قبل ألفاظها. هذا العلم يمتزج عند علّامتنا بالتواضع، شيمة العلماء الأعلام، فلا يزهو، ولا يشمخ، ولا يعتدّ بنفسه، ولكن يعيش في ديمقراطيّة العلماء، وزهد العلماء، ومشاركتهم للجماهير في أفراحهم وأتراحهم.

وأمّا الصفة الثانية التي كان يتحلّى بها علّامتنا المتواضع: فهي الجرأة التي ترفعه عن مستوى الطامعين الخادعين. إنّ الإمام الكريم يمثّل رجل الدين الجريء الذي لا يخشى في الحقّ لومة لائم.

رجل الدين الذي يقول للحاكم العاتي: أخطأت، وللحكام العادل: أنصفت.

رجل الدين الذى لا يبيع دينه بدنياه، ولا يساوم لا على دنياه ولا دينه، يقف في

---

١. هو أحد الرجال المرموقين والسياسيّين اللامعين، تولّى رئاسة الوزارة عدّة مرّات، أثبت فيها أهليّته ولياقته.

وجه المستعمرين وأذناب المستعمرين، ويقول لهم ـ وهم يحاولون إشاعة الفرقة بين أبناء الوطن الواحد ـ:

لا، لا، إنّكم لن تجدوا عند رجال الدين أمثال «عبدالحسين شرف‌الدين» المطيّة السهلة التي تركبون، ولكنّكم واجدون فيها الصخرة العالية، التي تتحطّم عندها محاولاتكم وإجراءاتكم.

إنّ وقفات إمامنا الكريم في وجه فرنسا وعملائها حفظت لجبل عامل كرامته وزعامته، وإنّنا لمدينون له بهذا الجيل الجديد من العقائديّين الذين يحملون رسالة شرف‌الدين، ويجاهدون في سبيلها اليوم ضدّ أذناب الاستعمار، كما جاهدوا ضدّ المستعمرين أنفسهم بالأمس.

وأمّا الصفة الثالثة: فهي العزّة، والعزّة للّه ورسوله والمؤمنين.

كان عبدالحسين شرف‌الدين مؤمناً؛ ولذلك فقد كان عزيزاً، إنّ كلّ مؤمن عزيز، وحينما تجد الذلّ فإنّك لا تجد الإيمان، ولكنّك واجد المتاجرين بالإيمان الذين يسخّرون الأديان للأهواء والمنافع الخاصّة.

عاش عبدالحسين شرف‌الدين عزيزاً فهابه الظالمون، ومات عزيزاً فبكى عليه المخلصون؛ ولذلك نجد الدنيا قد اجتمعت على تقديره، لا [...][1] في الدنيا من عزّة وسؤدد.

وأخيراً ننحني بإجلال واحترام أمام الميزة الرابعة التي جعلته في عداد الأبطال الخالدين، إنّها مزيّة التسامح.

كان عالماً جريئاً عزيزاً، ولكنّه كان في الوقت نفسه خيّراً رحيماً متسامحاً، يدعو إلى الألفة والمحبّة بين الناس، ولا سيّما بين مختلف الطوائف والمذاهب.

إنّه أوّل من دعا إلى نبذ هذه الخلافات الوهميّة القائمة بين الشيعة والسنّة، وهي ـ يشهد اللّه ـ من عمل الاستعمار، ومخلّفات السياسة، فمتى كان المسلم سنيّاً،

---

١. بياض في الأصل.

ومتى كان شيعيّاً، وهل كان الرسول الأعظم ـ صلوات اللّه عليه ـ والصحابة الكرام سنيّين أو شيعيّين؟

ألا ساء ما غرسته السياسة والحزبيّة، وساء ما تمسّك به الدخلاء من ظواهر وهميّة، وأحقاد خياليّة.

إنّنا في المجلس الإسلامي، نريد أن نخلد ذكر الراحل الكبير، لا عن طريق الكلام المنمّق، ولكن عن طريق العمل بما دعا إليه السيّد عبدالحسين شرف‌الدين.

إنّنا نريد أن نعلن عزمنا وتصميمنا على محو هذه الفرقة بين السنّة والشيعة، وافتتاح عهد جديد من الوحدة الدينيّة نطلق عليه اسم «عهد شرف‌الدين».

وإنّه لشرف لنا أجمعين، وإنّه لشرف للدنيا والدين، وإنّه لتحقيق لرسالة سيّد المرسلين.



شخصيّة الرائد

للأستاذ يوسف سالم[1]

كان الإمام شرف‌الدين حجّة الدنيا على أهلها، مثلما كان حجّة الدين على الدنيا. فالذين أنكروا من أمر الرواة ما نقلته عن سير المصلحين الغابرين، والذين قالوا: هل ترك الأوائل للأواخر؟ قد جاءهم بهذا الإمام البرهان المبين بأنّ شعلة الهدى لها في كلّ عصر منارها، وأنّ أعلام الحقّ لها في كلّ زمان أنصارها، وإن ازدانت بالروح والريحان.

في الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتاً تعمل أعمالها، فإذا انتهت الحياة انقلبت أعمال الإنسان ذاتاً يخلد هو فيها، فمن الخير هو خالد في الخير، ومن الشرّ هو خالد في

١. كان سياسيّاً عبقريّاً بعيد الغور، عميق الفكر، انتخب نائبا عن الكاثوليك في الجنوب في أكثر دورات المجلس النيابي، كما تقلّد وزارة الداخليّة مرّةً، توفّي في سنّ الشيخوخة سنة ١٤٠٠.

الشرّ، حتّى لكأنّ الموت لم يكن إلّا ميلاداً جديداً للروح، ولكن من أعمالها. وجاء الموت على الأرض ليكون معناه أنّ الإنسان حيّ في قانون نهايته، فلينظر كيف ينتهي ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1].

وحسب فقيدنا الكبير أنّه من عترة هي الكلم الطيّب، وأنّه من تبعة هي العمل الصالح.

إنّني لم أتكلّم في السيّد كثيراً، فعنده عُليّ من مناقبه ينضب [معها] معين القول، والناس مثل بيوت الشعر، كم رجل منهم بألف، وكم بيت بديوان.

ففي العلم حدِّث عن البحر ولا حرج، وفي التقوى لعلّها اتّخذت من قلبه محراباً، ومن ضميره هيكلها، مثلما جاء في الحديث القدسي: «ما وسعتني أرضي وسمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»[2].

ولكن مهما كفكفت من بياني، فلا يسعني إلّا أن أذكره يوم تَمَرَّدَ تَمرُّدَهُ الشامخ على المستعمر أيّام فيصل، وأراه كبرياء الإزورار أمام مغرياته!

أقول: السيّد عبدالحسين، وكان الوطنيّة يوم كانت آلاماً وتضحيات حمراء، وكان النزاهة يوم كانت حكايةً تروى، وكان الفكر الحرّ النيّر يوم كانت حرّيّة الرأي سبيلاً إلى الأعواد، وكان الصراحة المجلجلة الهادرة يوم كان الهمس الرعديد عنوان جرأة واستبسال.

السيّد عبدالحسين هذا رجل يعزّ على الرثاء، ليعش غلّاباً مارداً صنو غلّابه، وعزمةً جميعةً من عزمة أعصابه، وطلّاباً مقتحماً يحكي روعة طلّابه، وأمثولة يقصّها العربي في سفوحه وهضابه، وتلاوة صلاة يبثّها مضمّخةً بالعبير من أحقابه إلى أحقابه، ومن حضوره إلى غيابه، راضخاً في إطار قدس ملامح رجل أقدم في الروع في الهول وما ارتدّ على أعقابه.

---

١. فاطر (٣٥): ١٠.

٢. بحار الأنوار ٥٥: ٣٩ بتفاوت يسير.

أنا على مثل اليقين بأنّ فقيدنا من وراء هذا المنحنى الأرضي الذي يفصلنا عنه ينعم اليوم بتحقّق حلمه في النضال كما ننعم، ويغتبط كما نغتبط، ويقرُّ به عيناً كما نقرّ به عينا، فهذه اليقظات الشعبيّة المباركة، والانتفاضات الحرّة الماضية إلى ما تريد، شاء أم لم يشأ السادة العبيد!

اللّه صادق في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[١].

لقد شاءت رحمة السماء أن يطلع في سمائنا هذا الكوكب النيّر، فأطلّ على زاوية من الأرض في فترة من الزمن، كان فيها نور الهداية في حاجة تلحّ على الناس، وتمسّهم مسّ الحاجة إلى الغذاء والهواء، فاستنار القوم طيلة نصف قرن بهذا اللّألاء الدافق، واسترشدوا به في مسالكهم من ظلمات الجهل والحيرة إلى رحاب المعرفة، ومواضع اليقين، ومنازل الصواب.

أمّا آية الإمام الكبرى ووسيلته المثلى فهي أنّه علم بالقدوة والسيرة الحسنة، مثلما هو علم بالقلم والموعظة الحسنة.

فإذا حدّث الناس بهوان الدنيا وزوال حطامها، فقد وعظتهم بهما حياته قبل أن تعظهم كلمته، إنّه الزاهد بها وهي مقبلة عليه، المعرض عنها وهي جاثمة لديه، ويزدري ما يستهوي البشر من مفاتن ومغانم، فهو الغنيّ عن ثراء الدنيا بما استغنت به نفسه من كنوز المعرفة والفضيلة، حتّى ليحسّ أهل اليسار أنّهم هم الفقراء إلى فضله، المحتاجون إلى عطائه. وإذا أهاب بالقوم أن طهّروا نفوسكم من أوضار الذلّ والاستسلام، وارتفعوا بها عزيزةً جريئةً ثائرةً على الطغاة، شديدةً على الظالمين، عتيّةً على العاتين، فقد أهابت بهم قبل ذلك قدوة أخذوها عنه، ومواقف عرفوها منه؛ إذ رفع الصوت عالياً مدويّاً، وتحدّى طغيان المتجبّرين، وكيد المستعمرين، فنشر الحرّيّة والعدالة وكرامة الإنسان يوم غاب النصير وعزّ الظهير.

---

١. الرعد(١٣): ٧.

وإذا كان لنا اليوم أن ننعم بهذه النهضة المباركة ترتفع بمجتمعنا، وتنهض بنا على قواعد العلم والحرّيّة والأخلاق الفاضلة؛ فإنّ حقّ الوفاء علينا أن نذكر فضل الإمام الكبير، المصلح الحكيم، والقائد الشجاع، فهو الذي فتح لنا أبواب المعرفة، وسار أمامنا في طريق الكرامة، فتأتّى لنا بنعمة فضله وإرشاده وبفضل صموده وجهاده أن نرى حولنا جيلاً جديداً من بني قومنا قد أخذوا من العلم بأوفى نصيب، ومن الثقافة بقدر غير يسير، فكأنّهم وثبوا في برهة نصف قرن مسافة مآت من السنين، فإذا هم قد أدركوا ركب الحضارة السريع، وأصبحوا منه في الطليعة، وكان لهم ولأمّتهم الشرف الكبير، والغنم الكثير.

في جوار الله قبس من نور الجنّة، فأضاء في الدنيا، ومن جهاد الدنيا فأقام في الجنّة. إنّ له الثواب الذي أراده، فهيهات أن يكون تكريمنا هذا له مثابة، بل إنّه لنا تذكرة ومثاب، وشهادة صدق بأنّ الأوائل قد تركوا للأواخر، ﴿لِكُلِّ قَومٍ هَادٍ﴾؛ وبأنّ أنوار الجنّة أزليّة الآلاء، فليقبس من شاء، وليستنر من شاء.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[1].

١. الأعراف (٧): ٨٩.

[مختارات من تآبينه ومراثيه]

لنذكر مختارات من تآبينه ومراثيه التي تليت في حفلات تأبينه، وفي مجالس الفواتح التي أقيمت له في صور والعراق وغيرها من البلدان العربيّة.

من كلمة البعثة المصريّة

وهي ما ملخّصه:

لقد مات الإمام، وولّى الأمل، لقد أصبح العزاء شاقّاً وقاسياً، نعم شاقّاً وقاسياً علينا نحن أعضاء البعثة المصريّة، التي حظيت بالجليل العظيم من عطف ورعاية وتوجيه، هذا العطف الأبوي الذي أحسّ به كلّ فرد منّا منذ حظي بلقاء الإمام الكريم.

لقد انتقل الأب الرحيم إلى جوار ربّه، وماذا نفعل الآن نحن الأبناء إلّا أن نشارك الأهل في تقبّل العزاء.

فكلّنا أهل للإمام، وقد عرفنا قرابتنا بالفقيد الكريم، عندما جئنا لنؤدّي رسالة العلم، فإذا به يعظّم تلك الرسالة بإنزالنا من نفسه منزلة الأبناء، فإذا به يمدّنا بعزمه وتوجيهه، ويدفعنا بروح من عنده، هذه الروح القويّة التي جاهدت وناضلت في سبيل العلم، وأخرجت إلى الوجود أثراً خالداً، وأقامت طوداً شامخاً وصرحاً مجيداً للثقافة والمعرفة، هو هذه الكلّيّة الجعفريّة.

كانت حياته ـ طيّب الله ثراه ـ جهاداً ونضالاً وكفاحاً في سبيل الحقّ ونصرته، يدافع عن مبدئه لا تلين له قناة، ويذود عن عقيدته بحجّة مكّنه منها ربّه، وأهّله لها خالقه.

لاقى الكثير من العنت والاضطهاد، كما لاقى الكثير أيضاً من الإغراء بالمال أو الجاه، فلم يثنه الاضطهاد، ولم يغره المال أو الجاه عن المضيّ إلى تحقيق ما وهب نفسه له، وما وطّد عزمه عليه.

وكيف يحدث لمثله هذا، وهو سبط من قال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ماتركته»[1].

ذهب إلى مصر لينشر علمه، ويظهر فضله، وكان له في تلك الأيّام التي قضاها المنزلة السامية والدرجة الرفيعة، ولا زال وسوف يزال اسمه مردّداً على أفواه علماء الدين ورجال الفقه، يحتجّون برأيه، ويستشهدون بتأويله وتفسيره.

وعرف عامّة المصريّين الإمام الكبير، والمجاهد الأعظم عندما قرأوا تصريحاته، ووقفوا على آرائه المباركة الطيّبة في تأييده ثورة الحقّ ضدّ الباطل، فكان لهذا التأييد العظيم ـ الإمام الكريم عن جدّك صلوات الله وسلامه عليه[2] ـ أروع ما يتّصف به إنسان من صفات علويّة كريمة، وورث عنه الايمان والفداء والإيثار ويقظة الضمير، ورعاية الواجب، والجلد في المحنة، والأنفة من الضيم، والشجاعة في وجه الموت.

نعم، ورث كلّ تلك الصفات، فهل للعرب والمسلمين أن يتّخذوا من حياة أئمّتهم وأبطالهم المثل الأعلى، والقدوة الطيّبة؟ هل لهم أن يثبتوا على عقيدة زرعتها في نفوسهم، ومبادئ بذرتها فيهم؟

نعم، سنسير على هديكم، ولن نحيد عن مبدئكم أيّها الأنبياء والمصلحون، أيّها الأئمّة والهادون، فقد كان لنا من حياتكم أكبر عبرة، وكان لنا في مماتكم أعظم درس.

---

١. تفسير القمّي ٢: ٢٠٢، في تفسير سورة «ص». وعنه في بحارالأنوار ١٨: ١٨٢، ح ١٢ بتفاوت يسير.

٢. العبارة فيها خلل واضح، فتأمّل.

قصيدة العلّامة الكبير الشيخ عبدالكريم صادق رحمه الله[١]:

خفّت بثهلان واستعلت على السحبِ ذات الجناح ترينا أعجب العجبِ
تمرّ كالسهم إذ يعلو ولست بما أقوله ذا غلوّ أو بذي كذبِ
تصفّ منها جناحيها فتحسبها عنقاء مغرب تنحو الشرق في الطلبِ
تعلو صعوداً يخال الناظرون لها بأنّها تتحرّى موطن الشهبِ
لكنّ مقصدها أسمى وليس لها غير ارتياد جنان القدس من أربِ
فكم نزعتَ به يوماً إلى غرضٍ وما رأيناك يوماً قطّ لم تصبِ
«عبدالحسين» ألا ناهيك من رجل قد أكبرته رجال الفضل وهو صبيّ
حتّى إذا شبّ واستوفى شبيبته رأيتها حوله تجثو على الركبِ
تأتيه واردة ظمأى فيصدرها وهي الرويّة من سلساله العذبِ
يفيض منك عليها ما يفيض على نبت الضفاف من الغدران والقُلُبِ
فكم منحت لهم دلواً وقد ملئت حتّى الطفاف وحتّى معقد الكربِ
تلقي البيان وما تلقي سوى درر منظومة كجمان اللؤلؤ الرطبِ
لو أنّها جسّمت ألقت قلائدها واستوهبتها لحور الخرد العربِ
لله فوك أسحر ما يفوه به فلا يرى منه لبّ غير مختلبِ
يلقي البيان فما يدري أمن زهر للروض نظّم أم من لؤلؤ رطبِ؟
لكنّه علقميّ إذ تثور به على مَن الحقّ يأبى سورة الغضبِ
أمضى لسانك فيه كان من ظبة للسمهري ومن إفرند ذي شطبِ
وما يراعك إلّا قاطع خذم وإن يكن هو مقطوع من القصبِ

---

١. كان من الأعلام المبرّزين والفقهاء الكاملين، جليل القدر، عزيز الجانب، يمتاز بورعه وتقواه وأخلاقه الفاضلة، وله في الأدب مكانةٌ ممتازةٌ، ولد سنة ١٣٠٨، وتوفّي في بلده الخيّام سنة ١٣٩٢ رحمة الله عليه.

لله مــرقمك المـقطوع مـن قـصب كـم للسـباق نـراه محرز القصبِ
يـدلي بـحجّته والخـصم ذو لدد فـلا نـراه إليـها غـير مـنجذبِ
كـم كـنت تـطرب منه للصرير ولم تعرف سوى هـذه من نشوة الطـربِ
تـوحي إليـه ومـا تـوحيه يرسمه فـي لوجـه غـير ميّال ولا نكبِ
كـم حـلّةٍ نسـجتها مـنه إبـرته تسمو عـلى حـلل الديباج والقصبِ
وروضـةٍ كـوّنت مـن طـلّ ريقته نـظيرها لم يكـوّن وابـل السحبِ
كـم صـولةٍ لك في هـذا وذا قـصمت ظـهر الخـصيم الألدّ الحـانق الحربِ
لك الجـهادان قـد كـانا مـعاً، فـهما للـدين هـذا وذا للموطن العـربي
هـذا لتـطهيره مـن كـلّ مـفتتن وذا لتـخليصه مـن كـلّ مـغتصبِ
يا من عـلمتَ وحـقّاً قـد عـملت بـما عـلمت مـقتفياً آثـار خـير نـبي
أجـهدت نـفسك فـي إحـياء سنّته من بعد أن أوشكت تشفي عـلى العطبِ
لله جسـمك كـم حـمّلته تـعباً فـما شكـا ضـاجراً من شدّة التعبِ
حـمّلته ثـقل أعـباء بأيسـرها عـجزاً تـنوء مـتون الشمّخ الهضبِ
عصرَ الشبيبة عصرُ الشيب منك حكى عـزماً كأنّك لم تكـهل ولم تشبِ
هـذي فـصولك قـد جـاءت مؤلّفةً مـا بـين أمّـته تـقضي عـلى الشغبِ
أتت تـبيّن أنّ الديـن بـينهم آخـى ويسمو إخـاه عـن إخـا النسبِ

ومنها:

وكـم مـراجـعة للأزهـري له للـمعلم جـاءت بـروض مزهر خصبِ
فـيها الحـقيقة مـن تـنقيبه سـفرت وجـهاً وعـنه أمـاطت ستر منتقبِ
وكـان شـبه نـضال دار بـينهما بـه يـقوم بـريد الصحف والكـتبِ
أحـبِب بـه مـن نـضال لا يـراد بـه غـير الهـدى وانـجلاء الشكّ والريبِ
أحـبِب بـه مـن نـضال لا يـخالطه تـعصّب ومـحبّ الذات لم يشبِ
لله ذاتك مـا أبـهى مآثـرها لو مـثّلت نـافست سيّارة الشـهبِ

صـــفت فكـــان نــقاء لا يـماثلها مـا كَـنّ فـي صـدف مـن لؤلؤ رطبِ
كـلّا ولا مـن سقيط الطـلّ مـا حـملت تـلك الريـاض عـلى الآكـام والكثبِ
عـلوت عـن كـلٍّ مـا يـزري بـها وسـما بك الجـنـاح ولم يـنزع إلى صـببِ
مـاكـنت فـظّاً ولكـن كـنت ذا خـلق سـهل يـهشّ ولو فـي ساعة الغـضبِ
مـا كـنت ذا بـذخ حـاشاك مـن بـذخ ماكنت ذا صخب حـاشاك مـن صـخبِ
تــلقي الوفـود بـوجه بـاسم طـلقٍ لا بـالعبوس ولا بـالكالح القـطبِ
تـعطي المـحدّث مـنك الراح صـافيةً لكـن تـقول لهـا فـي سمعه انسكبي
لاغـول فـيها ولا طـيش وعـربدة ولا اخـتلاطٌ بـها للـجدّ بـاللعبِ
مـا كـنت للـمال جـمّاعاً تـضنّ بـه عـن طـالب لا ولا عـن غـير ذي طـلبِ
كـم قـلت للـفضّة انفضّي ولا تـقفي فـي الكـفّ منّي، واذهب قـلت للـذهبِ
هل تـحمل المـزن مـن لجّ البـحار حـياً إلّا لتـبذله للـمروض والعشبِ
فكـم كسـوت لأهـل البـؤس من بـدن عـارٍ بـه، ولكـم أشـبعت ذا سـغبِ
وشـدت للـعلم صـرحاً مـنه مـرتفعاً رواقـه واسـع السـاحات والرحبِ
لا يـرتقي الطـير مـنه هـام ذروتـه إلّا مـع الجـهد والإعـياء والنـصبِ
صـرح بـنى لك مـن فـخر رواق عُـلَىً وخـيمة بـالسُّها مشـدودة الطـنبِ
مـضيت وقـد ودعت لبـنان مـودعهُ للـحزن فـيه وطـيساً سـاطع اللـهبِ
تـجتاز جـلّق فـالصحراء تـاركة وراءهـا كـلّ فـجّ واسـع رحبِ
حـتّى إذا شـارفت بـغداد قـيل لهـا حـطّي فـبدّلت التـصعيد بـالصببِ
رست بأكـرم مـحمول مسـلّمة إيّـاه نـخبة أهـل الفـضل والأدبِ
والدمـع أوشك مـنهم أن يـحوّلها فـلكاً تـعوم بـيمّ زاخـر لجبِ
فـوق المـناكب مـنهم سـار مـحمله حـتّى رسا فـي ربـوع السـادة النـجبِ
أئـمّة الحـقّ أعـلام الهـدى حـجج البـا ري على الخلق مـن عـجم ومـن عـربِ
حـطّي بأطـهر جـثمان إليّ له دار السـلام اشـتياقاً قـالت انـجذبي

حيث الحفيد مع الأجداد تجمعهم ... أرض مقدّسة ملثومة التربِ
تهفو إليها قلوب المؤمنين كما ... تهفو العطاشى لورد المنهل العذبِ
«عبدالحسين» انعمن في قربهم ومتى ... كنت البعيد ومنهم غير مقتربِ؟
أرواحهم مازجتها الرُّوح منك كما ... تمازج ابن غمام وابنة العنبِ
أوصافهم تتجلّى فيك كاشفةً ... لولم يكن غيرها عن صحّة النسبِ
من نورهم قد قبست النور فانكشفت ... لك الخبيئات في الأستار والحجبِ
عن فكرك الغيب منها قطّ لم يغب ... وليس يجهل هذا منك غير غبي
أفدحْ برزئك من رزء أطلّ على الـ ... دنيا نهاراً بليل غاسق وقبِ
فالناس في حيرة والجوّ معتكر ... كأنّما الشمس قد غابت ولم تغبِ
فلو نظرت رأيت الناس حاشدةً ... ما بين نادبة في جنب منتحبِ
حفّت سريرك ترجو منك موعظةً ... فكان صمتك فيه أبلغ الخطبِ
ماذا دهى فانطوى ذاك البيان وما ... عسرى حدّ ذاك الفيصل الذربِ؟
متى وجمت وهل يوماً عييت وهل ... أتنا دعيت إلى قيل ولم تجبِ
اليوم عاملة تبكيك أعينها ... وليس تقنع إلّا بالدم السربِ
اليوم غصّت لهيُ بالكرب شارقةً ... حزناً لفقدك يا فرّاجة الكربِ
بمن تلوذ إذا حاق البلاء بها ... وأوسعتها انتهاشاً أنيب النوبِ
كانت إذا طاردتها الحادثات إلى ... حماك تأوي فتلقى النجح في الهربِ
أولى البريّة أن تبكي عليك وأن ... تلتاع حزناً رجال العلم والأدبِ
مثّلتهم حين منك النعش حفّ لهم ... بنات نعش وقد دارت على القطبِ
نم في حمى والد السبطين منتشقاً ... منه شذا قبره الميمون عن كثبِ
صبراً بني «شرف‌الدين» الكرام لها ... فكلّنا منه أُثكلنا أبرّ أبِ
هذي سماؤكم إن غاب كوكبها السا ... مي فما برحت ملأى من الشهبِ
وذا نديّكم لا زال يزهر بالـ ... وجوه منكم مدى الأعوام والحقبِ

ومن كلمة الدكتور شكرالله الحدّاد[١]:

أفتقدك اليوم والحديد يربض على الأرض، والنار تسعر في الرياح الأربع.

وسأفتقدك غداً، غداً عندما تصرع القوّة القوّة، وينهش الطمع الطمع، ويصبح القابض على الخُلُق والدين كالقابض على الجمر.

سأفتقدك فإذن تسمع القوّة صوت الحقّ، وتفرض القسط على الطمع، وتلوي بناصية الغالب لحكم الله، وتجهر بالدين فوق ضجيج البشر.

سأذكرك وأفتقدك كما كنت، وكما سنكون بحاجة إليك.

سأسأل عنك في ظلام الضغينة قبساً من المحبّة، وفي مقالع الحقد تفجّر الرحمة من صخور القلوب.

سأفتقدك جبّاراً ورفيقاً، عنيداً ومتفهّماً، عالماً ومتعلّماً.

سأفتقدك يا سيّدي أباً وعشيراً.

اذهب فلست عنّا ببعيد!..

لست بعيداً عنّا وقد حفرت بالصخر خطاك، ورسمت لنا صراطاً ونوراً.

الله يا عبدالحسين كم أكبرك!

الله ما أكبرك فوق صغار المستكبرين في الأرض!

الله ما أكبرك في دعتك وعظمتك!

الله ما أكبرك في دينك و دنياك!

لك الحول والطول، ولك اليد ولك القول، ولك العلم ولك الجبروت، وإليك يلجأ الضعيف، وفي كنفك يهدأ المتعب!

لك المنائر منابر، والآفاق صدى، ولك ظلام حفرة يتهامس من حولها البنفسج!

---

١. هو أحد وجهاء المسيحيّين في صور، ولد سنة ١٣٢٢، وكان من مهرة الأطبّاء، إنسانياً طيّباً، كريم الذات، مواسياً للفقراء، محبوباً من الجميع؛ وبهذا كان له في نفس المقدّس والدي أكبر حبّ وتقدير. توفّي مأسوفاً عليه سنة ١٣٩٠.

لك الدنيا فنبذت مخازيها، ونجّاك ربّك إلى الجنّة التي بارك لك فيها، ترد على نبيّها الحوض، وتتفيّأ من زيتونها الرحمة، وتتسربل من نعمائها بالغبطة والرضوان.

سلام عليك، سلام عليك سلام إبراهيم!

قصيدة السيّد محمّد نجيب فضل الله[1]:

منطق الوحي بعد سحر بيانِهْ سكت اليوم في ذرى لبنانِهْ
وأفاق الصليب من صرعة الشر ق وعزّى الهلال في قرآنِهْ
وأظلّ العراق وانتفض النيـ ـل وسال الفرات في أشجانِهْ
والتقى الفجر بالبراق مجدّاً حاملاً أُمّةً على أركانِهْ
فانحنى فوقه وأطرق هاماً ودموع السماء في أجفانِهْ
غسلته النجوم في أدمع الفجـ ـر وكان الصباح من أكفانِهْ
كبر الروح والملائك صلّت في متون السما على جثمانِهْ
ويد الله قد حوته ملاكاً يعبق الخلد من شذا أردانِهْ
ودّعيه إن استطعت قريش خفّ فيه الزمان طلق عنانِهْ
ودّعيه رسالةً وإماماً ختم الله فيه جيل زمانِهْ
أُمّة كان وحده ورسولاً وحّد المسلمين في تبيانِهْ
كم له صرخة تخرّ لها الشـ ـمّ انصداعاً وتنحني لكيانِهْ
هو في الله صرخة من عليّ صلب كالحسين في إيمانِهْ
سبق الأوّلين شوطاً بعيداً وجلى الآخرين عن ميدانِهْ
ترجم المرتضى كتاباًكتاباً توّج الكائنات في برهانِهْ
فلك دائر ودور رحيب وسع النائبات رحب جنانِهْ

---

١. هو أحد أدباء جبل عامل المرموقين، وشعرائه المحلقين، وكانت ولادته سنة ١٣٢٨، في عيناثا.

ثائر كالشواظ يقذف ناراً شامخاً كالزمان في سلطانِهْ
يوم عبّت من الدماء فرنسا وارتمى المسلمون في أحضانِهْ
ويد الغرب في الجزيرة نار وفم البحر مارج من دخانِهْ
والأساطيل كالجبال عليه قاذفات تدكّ في أوطانِهْ
والمغاوير في البلاد حيارى والأُسارى تئنّ من سجّانِهْ
لم يلن صعدةً وزمجر ليثاً وانتخى في يراعه وسنانِهْ
وعلى البغي شنّ حرباً عواناً بيديه وقلبه ولسانِهْ
وحواليه أوقدوا العزم ناراً أين نار الملوك من نيرانِهْ
إنّها جرأة أجلُّ من التا ج وأسمى من السرير [أو صولجانِهْ][1]
من ترى غيره استمرّ جهاداً فاقرأ العاملين في عنوانِهْ
ضمّخته طيوب دنيا المعاني بأباريق من يدي رضوانِهْ
شام أُفقاً به تبلّجت النفـ س سناءً وأسفرت عن جنانِهْ
وبه ألقت الرواحل فيها فإذا الأنبياء في لقيانِهْ

ومن كلمة للعلّامة الشيخ محمّد جواد مغنية:

كان التأريخ عند القدامى تأريخ أفراد لا تأريخ جماعات. كان تأريخ حكّام وأرباب جاه.

والتأريخ عند المفكّرين اليوم مظهر من مظاهر المجتمع الإنساني ونموّه وتطوّره.

إنّ الفرد الذي يدرك قضايا الشعوب، ويعمل على حلّ مشاكلها، إنّ هذا الفرد يقترن تأريخه بتأريخ الشعوب، فتأريخ الإسلام يقترن بتأريخ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، والفلسفة اليونانيّة يقترن تأريخها بتأريخ أفلاطون وأرسطو، وتأريخ

١. منّا؛ إذ كانت محواً في الأصل.

العلم الحديث يقترن بتأريخ نيوتن وأنشتاين.

أمّا تأريخ الجهاد والنهضة العلميّة، وتأريخ النور والضياء في هذا الجبل، فيقترن باسم الفقيد الكبير.

لم يكن الفقيد فرداً، وإنّما هو قوّة اجتماعيّة، وثروة دينيّة، وجامعة قوميّة، تمتدّ آثارها مدى الأجيال والقرون، لقد أتى بأعمال عجزت عنها الفئات والهيئات.

وذهب صوته وصيته في الآفاق العربيّة والإسلاميّة وتجاوزها إلى ما وراء البحار!

لقد أحيى الفقيد العقول بالعلم، والقلوب بالايمان، كان يلقي الإقناع بالحقائق في نفوس السامعين وعلى ألسنتهم إلقاءً، حتّى كأنّ إيمانهم طوع يده وإرادته.

كان شخصيّته لاتدع مجالاً للاختيار، تجذب إليها القريب والبعيد، من حيث يريد أو لا يريد، وينحني لها الصغير والكبير، ويخضع لعظمتها المؤيّد والمعاند.

وإذا كانت الجاذبيّة أولى خصائصه، فإنّ صفاته الأخرى لايحصى عديدها، منها حبّه للعلم وأهله واحترامه لهم، فكان أحدهم يملأ فاه بهذا التكريم والاحترام، يردّده معتزّاً أو مفاخراً، كأنّه شهادة جامعيّة، أو وسام شرف وتعظيم.

ومن صفاته أنّه المتسامح الهيّن الليّن ما بقي الحقّ معزّزاً مكرّماً، حتّى إذا امتدّت إليه يد غاصب أو كاسب أخذته الحميّة الدينيّة، وثار وأثار.

ولم يكتف بالدعاء والبكاء، كان يرسل صيحاته الوطنيّة المقدّسة بين الحين والحين في وجوه الطغاة والمستعمرين.

أرسلها في عهد الأتراك والفرنسيّين، وأُبعد وشُرّد، ونهبت داره وأُحرقت. وأرسلها من أجل فلسطين، ومن أجل الجزائر، ومن أجل بور سعيد، وكانت الملايين تجد أهدافها وأمانيها في تلك الصرخات المدويّة.

ومن صفاته العزم الصادق، والنشاط المتدفّق، قضى عمره الشريف موزّعاً بين الإرشاد والتأليف، وفصل الخصومات، وقضاء الحاجات، لاتثنيه عن واجبه متاعب الحياة، ولاتقف دون رسالته الحواجز والسدود.

هذا وما عرفت أحداً أقدر منه على استخراج حقائق القرآن الكريم ودقائقه، كان

يخترق الحجب ببصيرته النافذة، وينتزع من آياته معاني الإنسانيّة الرفيعة، ويركزها في الأفهام ببيان أبلغ من كلّ بيان.

ومن صفاته ذاك المرأى الرهيب، والوقار العجيب، تلك الهيبة التي يتضاءل أمامها الكبراء والعظماء، فما رآه متكبّر متعاظم إلّا تجرّد من جبروته، وطأطأ رأسه خجلاً من نفسه، فالذئب حمل بين يديه، والأسد نعامة إذا نظر إليه.

ومن صفاته أنّ المنابر الدينيّة في هذا العصر ما عرفت خطيباً مبرّزاً أعظم منه، كانت صيحاته تهزّ النفوس، وموعظته تقشعرّ منها الجلود، وتلين لها القلوب.

ومن صفاته أنّه عارك الحياة وعاركته، فما من أحد أزلّته الخطوب وذاق من مرارتها أكثر ممّا ذاق، فكانت حياته تنتقل من نائبة إلى نائبة أشدّ وأقوى، خاض في خضم الحياة، ورافق الأحداث، وأثّر فيها، وأثّرت فيه، كافح وناضل، وتحمّل من إيذائها ألواناً وأشكالاً من الآلام والمصائب، فتلقّاها صابراً محتسباً مبتغياً عند اللّه من الرحمة والرضوان.

هذه بعض صفاته لا كلّها.

وخلاصتها: أنّه أعطى اللّه بعض حقّه من طاعته وعبادته، وأعطى العلم حقّه في نشره وإذاعته، وأعطى الدين حقّه في إعلاء كلمته، وأعطى المجتمع حقّه من جهاده وتضحيته، وأعطى الدولة حقّها من إرشاده ونصيحته.

وبهذه الصفات سيبقى السيّد حيّاً يعيش مع المجاهدين.

ولعلّ قائلاً يقول: لماذا لم تذكر ـ وأنت تعدّد وتردّد صفات السيّد ـ أنّ من صفاته تفقّد الفقراء، وزيارة المساكين في بيوتهم، مع استنكافه عن زيارة الملوك و الحاكمين، على الرغم من الإغراء والإلحاح.

قلت في جوابه: إنّ هذا الرفض والاستنكاف إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على عظمة الشعوب، وقوّة الرأي العام، وأنّ السيّد لم يفعل أكثر من إعطاء الدليل، على أنّ أرباب التيجان والعروش لا يستأهلون التكريم، فليسوا بشيء ما دامت ميولهم

لا تلتقي مع رغبات الشعوب، وبهذا يتبيّن أنّنا لا نكرم الدين والعلم في السيّد وكفى، وإنّما نكرم السيّد الذي كرّم العلم والدين، ونقدّس شخصيّته التي قدّسها المؤمن والملحد على السواء.

إنّ فقد السيّد والفراغ الذي أحدثه ليس فراغاً في الأُصول والفقه، ولا في الاجتهاد والفتوى فقط، إنّه فراغ في هيبة الدين وبهائه، وعزمه ومضائه، فراغ في الرجولة والعنوان والتمثيل، فراغ في بنيان الدين وأركانه، في عُدّته لا عدده، فراغ في قوّة التنفيذ لا في التشريع.

إنّ الدين أداة خير وتوجيه، وداعية حبّ وصلاح، إنّ الدين لا يوجد القوّة، ولكنّه يوجّه القوّة الموجودة إلى الخير لا إلى الشرّ، فالعلم قوّة، والأدب قوّة، والشجاعة قوّة، والجرأة قوّة، والجاه قوّة، والذكاء قوّة، والدين هو الرائد الأمين الموجّه لهذه القوى.



وقد تجمّعت هذه القوى بكاملها في السيّد الكبير، فوهبها كلّها للّه، وبفقده خسرت الإنسانيّة هذه الكنوز، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون.

قصيدة الشيخ سليمان ظاهر ﷺ[1]:

الرزايا كمثل صوب الغمائمْ ... مرصدات صروفها للأعاظمْ

وهي ما إن تزال في كلّ آن ... نافثات فيهم سموم الأراقمْ

وإذا ما الرياح هبّت رخاء ... في أناس هبّت عليهم سمائمْ

ألها، ويحها، قديم ذحول ... تتقاضاه من مناجيب هاشمْ

وبهم نافذ على غير عدل ... جائر الحكم وهو أجور حاكمْ

وتألّت أن ليس يفترّ منها ... للميامين منهم ثغر باسمْ

---

١. هو أحد فضلاء جبل عامل المعروفين، وأُدبائه المرموقين، ولد سنة ١٢٩٠، وكان كاتباً بحّاثةً متتبّعاً. له كتابات كثيرة وعدّة مؤلّفات، توفّي سنة ١٣٨٠.

وهـــم زيـــنة الزمـــان وردء لبـــنيه وعـــدّة للأعـــاظمْ
ليت سـهماً راشـته يـمناه لم يـنـ ـفذ بـ«عـبدالحسين» أوتـار آثمْ
وقـــضاء الإله كـــان لهـا مـن قـبل إنـفاذ ذلك السـهم حـاسمْ
وهو في العصر حـجّة العـصر ما إن مـن مـجارٍ فـيه له أو مـزاحـمْ
عـــبقري والعـــبقريّة فـــيه قـد تـجلّت من قـبل عـقد التمائمْ
ومـحامٍ عـــن الحـنيفيّة البيـ ـضاء فـي حـجّة تـفلّ الصوارمْ
وبــأعبائها الثــقيلة نـهّا ض وبـالصالحات أفـضل قـائمْ
غـرّ آثـاره السـواطـع فـي الد هـر حـليٌّ لجـيده والمـعاصمْ
ســائرات أسـفاره كـلّ سـفر فـيه يـنجاب كـلّ أسـود فـاحمْ
يـتلقّاه مـن حـظيرة قـدس كـتلقّي الهـديل ورق الحـمائمْ
وحـواليـه ذهـن كـلّ حكـيم يـتحرّى كشـف الحـقيقة حـائمْ
وكـآي الكـتاب تـتلى مـثانيـ ـه ولم تـبق حـجّة لمـخاصمْ
ولهـا مـن خشـوع تـالي فـصول نـظمته خشـوع تـالي العـزائـمْ
بـبيان أعـاد للّـغة الفـ ـصحى بـلاغات عـهدها المتقادمْ
وهـو مـن نـهج جـدّه مسـتمدّ ذاك مسـتنفذ البـحور الخـضارمْ
كـلّ عـلم فـي العـالمين فـرشح مـن أواذيّ بـحره المـتلاطمْ
وهـو كـالغيث فـي البسيطة معز وّ إليـه حـصيدها والقـائمْ
لا كـما لا يـريك مـن يزعم التأ ليـف إلّا مـعقّدات الطـلاسمْ
وبـفضل الخـطاب يـفحم قسّـاً وبـبذل النـوال يـزري بـحاتمْ
وبـحلم مـا حـلم أحـنف يـحكيـ ـه ولا مـاعَزَوا لقـيس بـن عـاصمْ
ذكـره كـالعبير فـي كـلّ قـطر وكـزهر عـنه تشـظّى الكـمائمْ
وهـو للـمسلمين جـامع شـمل لم يـفرقه إلا أشـباه عـالمْ

ومنها:

إيه «عبدالحسين» خطبك أذكى   زفرات ولم يدع غير واجمْ
وعليك الدموع من فيض أجفا   نٍ هوامٍ كالغاديات السواجمْ
وبرح الجوى وهم مقيم   ملهبٍ للحشى [بالنار ضارم][1]
قد فقدنا بفقدك اليوم موسى   جدّك الضامن الإمام الكاظمْ
ثلمة لاتسدّ فقدك في الديـ   ـن إلى الحشر أو قيام القائمْ
ما لما سطّرته يمناك ماح   ولعلم أفشيت في الناس كاتمْ
ولا شارك.... خلود   الذكر في الدهر والبقاء الدائمْ[2]
عودك الصلب للدفاع عن الحـ   ـقّ تعاصى على النيوب العوارمْ
وهو في المشكلات أمضى جناناً   ولساناً من مرهف الحدّ صارمْ
وبصور أقمت للدين والعـ   ـلم صروحاً لها الصلاح الدعائمْ
دونها في الخلود إيوان كسرى   وتماثيل بعلبك الجواثمْ
وبما خطّه يراعك من بـا   ـهر العلم يضيق ذرع التراجمْ
أيّ فعل مستقبل كنت تنويه   ولم يمض قبل إلقاء جازمْ؟
كأوالي أيّام عيشك في الد   هر مليئاً بالصالحات الخواتمْ
ضمّ جثمانك الغريّ فعجّت   لك فيه وللجدود المآتمْ
فيه جاورت خيرَ ثاوٍ ستلقى   منه ترحيبه بأفضل قادمْ
نم مُهنّا بضجعة أنت فيها   جار صنو النبيّ قطب الملاحمْ
قرّ عيناً فمن بنيك ومن أ   بقيت من آلك السراة الأكارمْ
من بهم تدفع الخطوب وكلٌّ   لعوادي الخطوب بعدك هازمْ
وعليك السلام وقفا وروّى   لك مثوى الرضوان نوء المرازمْ

---

١. منّا؛ إذ هي فراغ في الأصل، مع الإشارة إلى قلق في صدر البيت.

٢. هكذا ورد.... .

ومن كلمة زكي بيضون ﷺ[١]:

ليست عظمة العظيم في التأريخ إلّا بمقدار ما للعبقريّة من قوى ذاتيّة، تفيض بها الحياة، فتصدر في وجودها منطلقة إلى أبعد ما يقدّر لها أن تنتهي إليه من عوامل التجديد والتحويل.

وفقيد الإسلام العظيم الذي زلزل نعيه العالَمين ـ العربي والإسلامي ـ هو واحد من هؤلاء العظماء، عظماء التأريخ الخالدين، الذين لم يكن ليقوم تعريفهم الشخصي على مفهوم واحد من مفاهيم الحياة.

وكلّ ما يمكن أن يقتصر ليجزئ في التعريف هو أنّه ينبوع معطاء من ينابيع العبقريّة، فاض على البشر بالخير، فأخذ كثيراً وأعطى كثيراً.

أخذ علماً فأعطى به علماً وهدايةً؛ لأنّ العبقريّة هي التي تحسن أن تستوعب العلم، لتحسن التصرّف به، وهي التي تحسن أن تفهم الحقّ، لتنفذ معه إلى معانيه في الحياة، كآيات في الكون والتأريخ.

ومجد العظيم في أن لا توطّأ له الأكناف، ولا تمهّد له السبل، وإنّما يجري إلى غايته في طريق يشقّها ويمهّدها، وأشواك يدوسها ويقتلعها، وعقبات يزيلها من أمامه، وصعاب لا يحفل بها.

فهذا التأريخ العلمي البطولي في أكثر من نصف قرن لم يخل يوماً من جهاد العظيم المعلّم، يبعث في النفوس حقائق الإيمان قائمةً على قواعد الإسلام وأخلاقه السمحة.

لم يخل يوماً من محاربة الأهواء والبدع؛ ليعيد للإسلام السمح معانيه الأصيلة الممتدّة في جذور الحياة، وكانت عدّته في ذلك أخلاقه النبويّة، وشجاعته

١. أديب ناضج قويّ الأسلوب، وكاتب باحث جيّد القلم، ولد سنة ١٣٢٧، وكان غاية في كرم الأخلاق والنجابة، وحسن السيرة والسريرة، حلو المجلس، يؤنس سامعيه بأدبيّاته ومحفوظاته، له مؤلّفات منها: كتاب في سيرة المصطفى ﷺ، توفّي ـ مأسوفاً عليه من محبّيه ـ بحادث سيّارة سنة ١٣٩٠.

العلويّة، ومعرفته بدقائق ما يحدث للنفوس ويعرض لها من آفات وعلل.

وإذا كان التعريف بهذا العظيم يستدعي الإحاطة بجوانب متعدّدة من شخصيّته الفذّة، فبأيّها أبدأ؟ وعلى أيّها أختم؟.

لقد أجمع الذين عرفوه، وأُتيح لهم أن يجتمعوا إليه أنّ هيبته تعقد الألسنة حتّى لا يملك جليسه من تهاويه وتخاذل نفسه قدرة الإقدام على الكلام.

ومن عجيب ما في السيّد من خلق الإسلام تطامنه العظيم لهؤلاء الذين جرّدتهم ظروف الحياة من النفوذ والثروة، إلى الحدّ الذي يذهل له المتواضعون، وإنّك لتجده وقد أقبل على أحدهم إذا آنس منه معرفةً وفهماً، يفسح له من صدره، ويناظره في محادثته فعل الندّ للندّ.

وعلى نقيض ذلك ما كنت تراه من تعاليه وترفّعه إذا كان في حضرته كبير من المتنفّذين؛ فإنّه ليقوم منه مقام السيّد من المسود في غير هوادة أو رفق، إلّا أن يكون جليسه في جُنّة من أخلاقه.

وكثيراً ما كان يتعاطى لأمثال هؤلاء المتعاظمين إذا أدرك من تصرّفاتهم غرور الجاه والمال دروساً من القمع والتأنيب.

أمّا جوده فهو الفيض الذي يغترف منه المحتاجون، ويقصد إليه الطالبون، ولا يجد منه أن يمسك يده على مال يرى مكان الحاجة إلى إنفاقه في السبيل الذي يرضي ربّه، وتهتزّ لمثله أريحيّة الكريم.

قصيدة السيّد عبداللطيف فضل الله[1]:

شهد الزمان لك الكفاح طويلا	فطواك تأريخاً وغالك جيلا
وطوى من العلياء في آفاقها	فلكاً يدور وعالماً مأهولا

١. هو نجل علّامة جبل عامل السيّد نجيب فضل الله، ومن الأفاضل المعروفين والأشراف المحترمين، له مشاركة حسنة في الشعر والأدب، ولد سنة ١٣٢٤.

وشغاف قلب في جوانح أمّة ألفته من أحشائها مسلولا
وأصابت الأحداث فيك لدهرها قوس الصعود فحوّلته نزولا
حملت بشؤم الخطب قبل حلوله فطوته عبأً للزمان ثقيلا
في الأرض سيماه وفي أفق السما أمسى «أبو ذنب» عليه دليلا
وتمخّضت والدهر أغبر كالح بيد المصائب بكرةً وأصيلا
فأتت به الدنيا بطلعة بشرها محواً وفي غصن الرجاء ذبولا
ومصيبة عرض الحياة وطولها ألف الخلائق عرضها والطولا
حشد الأنام إليك لبّاً طائراً منها وطرفاً بالعمي مكحولا
ثكلتك فحل المتّقين وطالما أعيا الرجال بأن تكون فحولا
أكبرت ذاتك فاحتفيت بمدحها والحقّ قلت مفصّلاً تفصيلا
جمعت أعاظمها الحياة بطيّها كالصيد في جوف الفرا محمولا
فترى بها الأبطال من أيّامها وترى عباقرة القرون الأولى
ولكلّ حادثة حديث عندها يجلو الصواب ويدفع التضليلا
قصم القضاء عرى الفلاح وخا ض في بحر العلوم فدمّر الأسطولا
واجتاز مكمنه الفساد بأرضنا فأصاب خصباً واستغلّ حقولا
طوت المنيّة في لسانك ألسناً للمسلمين وفي حجاك عقولا
للّه يومك فيه إذ شهد الورى غولاً أباح من الغضنفر غيلا
صديان لم يرو الغليل وجائعاً عمر المدى للعالمين أكولا
مثل الجميع أمام خطبك خشّعاً للهول إذ [فقد] الجليل جليلا
ألوت سواعدها الطوال وأغمدت للثار عنه أسنّة ونصولا
ورأت به فيما تمارس علّة كبّت على أذقانه المعلولا
كم غصّ منها في سلافة عيشه حان وكم ثكل الخليل خليلا
غامرت في دنيا الصعاب فرضتها وركبت منها اذ ركبت ذلولا

وجليت من أسفار قدمك للهدى ... شمساً تميط عن الصباح سدولا
فأقمت دنيا العلم في أجوائها ... ومن الفصول لها جعلت فصولا
وبنيت للأجيال ما يبني المدى ... ويردّ طرف الطامحين كليلا
هرم الخلود إذا اعتلى زحم السما ... أو فاض في علم أفاض النيلا
حملتك نفس العزّ دون هوانها ... ناراً تشبّ وتستحثّ خيولا
فغنيت في رأس الحياة وعُفتَها ... ذنباً به أخذ الأنام هزيلا
وخلعت دهر السوء عبداً آبقاً ... قد ضمّ غوغاء وحاز فلولا
والناس أوهن ماترى إن غربلت ... في دهرها أو نخّلت تنخيلا
لم تلف إلّا بانياً عمر المدى ... بالصالحات معارجاً ووصولا
أو طامحاً للعزّ في مضماره ... ركب الجناح وأبعد المأمولا
أُفديك من ثار أقام على الحمى ... أسداً ينشّ ثعالباً ووعولا
رُمْنا مثالك في الرجال كأنّما ... نبغي لحيدر أن نصيب مثيلا
هيهات ماتت قبل موتك آمّة ... نشأ العزيز بها فعاش ذليلا
جوفاء أوقرها العجيج يسيمها ... عادٍ وتقرعها الخطوب طبولا
جوفاء إن زاد العدوّ بدهره ... سمناً به يقوى تزيد نحولا
يا ابن الأولى باري الوجود براهم ... ظلاً يرفّ على الوجود ظليلا
وجبال عزّ للورى ألطافه ... عنها تفيض على العباد سيولا
كنت الإمام بما بنيت من الهدى ... وبما هدمت من الضلال رسولا
سقت المواعظ لو صدعت بمثلها ... حدّ الحديد وجدته مفلولا
ألبستها ألق الصباح إعارةً ... ذهب الأصيل حواشياً وذيولا
فأخذت منها في أزمّة أمّة ... تزجي قبيلاً للهدى وقبيلاً
بسقت بطيّ دماغه قرآنه ... ونمت بحبّة قلبه إنجيلا
وكأنّما قلم البيان إذا جرى ... قلم القضاء بما تشاء كفيلا

حـدّث فـإنّك في الحقيقة راسب[1] كشف الحمام غطاءك المسدولا
إنّا سئمنا ما وراءك نشتري ونبيع منه أكاذباً وفضولا
نسخوا لنا ظلّ الرشاد وأوكلوا لهواهم التحريم والتحليلا
فقضوا بأن يحيا الكريم مكبّلاً ويودّ من قبل الرحيل رحيلا
إن فرّ أرهقه البلاء وإن مضى بسبيله يوماً رآه وحولا
ألفت حماه الحادثات وأولعت فيه المكاره إذ رأته نبيلا
يا أيّها الجاني أرحه فإنّه بيديه يأبى أن يموت قتيلا
الأرض خصب والسماء وإنّما أمسى الزمان من الكرام محيلا
يبكي الحزين لعامل فكأنّما يبكي المتيّم أربعاً وطلولا
شاء القضاء لعينها أن لا ترى في الدهر عن «عبدالحسين» بديلا
بالخطب ينحر من تقلّد مديةً وطوى حساماً في التراب صقيلا
بدر حكى بدر السماء وما به عيب بدا حتّى حكاه أفولا
ملأت محاسنه الزمان فلا ترى إلّا فراغاً بعده وذهولا
لا يزدهي المجد الأثيل بمفرق حتّى يكون لرأسه إكليلا
تلقى بساحته الحوادث إن عرت جبلاً أشمّ وصارماً مسلولا
تتنفّس الأخلاق منه نديّة بالطيب تشربه النفوس شمولا
فكأنّما فاح الشذى عن روضة غنّاء وانبعث النسيم عليلا
اللّه حمّلك الإمامة هادياً ودعاك حيدر ثاوياً محمولا
فجليت نوراً يستضاء وديمةً تغشى البلاد أباطحاً وسهولا
ما طرت في ذات الجناح وإنّما بعث الإله بشكلها جبريلا
رغبت لقاء اللّه نفسك فانتحت دار السلام وأسرجت قنديلا

---

١. هكذا وردت.

عـادت كـما ابـتدأت لنـدوة قـدسها — فــرأت مــقرّاً عـندها ومـقيلا
من ساق وجـهك للـتراب فـلا يـرى — وجـهاً يـطلّ بـه الزمـان جـميلا

قصيدة السيّد عليّ إبراهيم الحسيني[1]:

مــاذا يــقول بك الأديب المـلهمُ — فـالدهر يـنثر فـي عـلاك ويـنظمُ
يـا صـاحب القـلم الذي مـن وحـيه — لم يـبق وجـه للـجهالة مـظلمُ
صـور الجـلال جـمعتها فـيحار مـن — يـدنو لقـدسك أيّ فـضل يـرسمُ
خـلّدت مـجدك بـيننا بـصحائف — فـيها لمـن ضـلّ السـبيل الأقـومُ
العـلم والأدب الطـريف تسـابقا — فـيها وكـلّ مـنهما المـتقدّمُ
تـبقى كـما يـبقى الزمـان وحـولها — نـور يـضيء وأمّـة تـتعلّمُ
يـا مـرسل الأعـصار فـي كـلماته — يـهوي عـلى صـرح الضـلال فـيهدمُ
كـم مـوقف لك فـي الرجـال رأيـته — فـعرفت منه كـيف يـسطو الضـيغمُ
كـم نـهضة لك فـي البـلاد وغـضبة — جـاهدت فـيها والحـواسـد نـوّمُ
شيدّت صرحك وهـو حـصن للـهدى — فـرداً فشأنك فـيه شأن أعـظمُ
وقـبضت مـنه الأمـر قـبضة سـيّد — لنـوال مـأربه تـنال الأنـجمُ
العـزم عـندك بـالنجاح مـؤيّد — سـرّ بـنفسك للـعناية مـبهمُ
هـممٌ عُـرِفْتَ بـها يـجول بـخاطري — تـصوير جـوهرها فـيكبو المـرقمُ
يا صـاحب الغـرر الحسـان وجـدتها — فـي القـبر بـين الوافـدين تكـرّمُ
حشـد مـن الأرواح يـتبع حـيدرا — وقـفوا عـلى الرمس الزكـيّ فـسلّموا
كـم ذدت عـن آثـارهم وتـراثـهم — وسـموت شـأناً كـالذين تـقدّموا

---

١. هو نجل العلّامة الكبير السيّد محمّد إبراهيم، ولد سنة ١٣٢٧، وهو فاضل كامل وأديب ناضج، متين الأُسلوب، جيّد القلم، ذو فهم وقّاد، له كتابات كثيرة منشورة، توفّي سنة ١٤٠١.

تحدوك للنجف الشريف شمائل ... غرّاء أنت بها المحبّ المغرمُ
دنياً حننت لها شهدت جمالها ... فاهناً بدنيا كنت فيها تحلمُ
ركب النبوّة ضمّ روحك فوقه ... علم الوصيّ وأنت تزهو فيهمُ
فهنالك الميزان يعدل لا ترى ... حقّاً سليباً أو تراثاً يهضمُ
وهنالك الأعلام من عمرو العلى ... حنّوا إلى علم رفيع منهمُ
وافاهم البطل الكميّ المعلم ... والحجّة الكبرى الأبرّ الأعلمُ
يا جاعلاً أدب الضيافة سنّةً ... هل بعد فقدك من كريم يكرمُ؟
يا صاحب الكفّ العريقة بالندى ... فكأنّما هي للحوائج ميتمُ
ما جال طرفي في ربوعك مرّةً ... إلّا تجسّم في خيالي المأتمُ
يا سائرين إلى مصير واحد ... الحيّ أقفر يوم عنه بنتمُ
جمعتكم الدنيا على أحداثها ... والخطب يذكيه الجديد المؤلمُ
لا الصبح مشبوب الضياء ولا الرؤى ... يرنو لها قلب المشوق فيبسمُ
يا آل بيت الوحي عمّ مصابكم ... فالمسلمون بكلّ أرض أنتمُ
ما زلتم رمزاً شريفاً للورى ... تروى المحامد والفضائل عنكمُ

قصيدة الشيخ عبدالله نعمة[1]:

تمضي وعمرك معشب نوّارُ ... أبداً وأعمار هناك قصارُ
تمضي وعمرك ثورة محمومة ... لا تلتوي عن دربها الأحرارُ
تمضي كما يمضي الضياء المرتجى ... في ليلة يطغى بها إعصارُ

١ـ هو من أفاضل العلماء، معروف بالعلم والفضيلة، وكاتب أديب ناضج، قويّ الأسلوب، له مشاركة حسنة في الشعر والأدب، وله مؤلّفات عديدة في عدّة مواضيع تدلّ على عمق في البحث والتحقيق والتتبّع، ولد سنة ١٣٣٤، وهو اليوم يتولّى رئاسة المحاكم الشرعيّة أيّده الله.

تـــتفجّر الأيّــام عـنك مـجاهداً لهب الجـــهاد بـــصدره مـــوّارُ
ويــدوّن التــأريخ فـيك صـحيفةً يــعلو بـــها للـــتائهين مـنارُ
وتـردّد الأجـيال باسمك صرخـةً للـحقّ تـذكو فـي سـناها النـارُ
ويـمور مـجدك بـالفضائل عـاطراً لاتـــرتقي عـــلياءه الأنـــوارُ
وتـعيش حـيّاً رغـم مـا نكب الردى فـي الخـالدين وقـد عـلاك الغـارُ
الخـــير غـــايتك التـي لاتـبتغي عـــنها بـديلاً والهـدى مـضمارُ
عـمر خـصيب بـالمطامح والعـلى عـــبق الجـــوانب مـترع فـوّارُ
إن يـخفت الصـوت الذي لما يـزل يــدوي فـلم تـخفت بك الآثـارُ
قـد عشت مشكـاة لتـهدي أمّـةً ضـــربت أمـام عـيونها الأسـتارُ
وأتـيت شـعباً فـي الجهالة حـائراً تـعشو الحـياة بـه ويـطغى العـارُ
حـيّان يسجد للـمدمى من رهبة (ويأمـر صـفاً أنّـى يراد يسار)[1]
بســطت ذراعـــيها عـليه فـلفّه مـنها سـلاسل [ظـلمة][2] وإسـارُ
مـــتململ يـــغشاه ليـل حـالك تـطغى عــلى آفـــاقه الأوزارُ
شـعب تـواري مـصلحوه فـعمّيت درب الحـــياة عـــليه والأنـــوارُ
أمســى فـريسة عـابث بـمصيره لم يـدر حـين يسـير أيـن يسارُ
فأتـــيته كـــيما تـــنير طـريقه ويشبّ فـــــيه للــحياة أوارُ
وأذعت روحك شـــعلةً قـــدسيّةً تـهدي الذيـن عـلى الضـلالة ساروا
ورفعت صـرحـاً شامخاً يسمو بـهم وبـــه لآفـــاق المـفاخر طـاروا
تـــمضي وتـختار الجـوار بـبقعة لثـمت ثـراهـا العـصبة الأبـرارُ
فـي بـقعة عـبق الهدى بأريـجها وعـــلى ربـاها تسـطع الأنـوارُ

---

١. هكذا ورد، ولا يخفى اضطرابه معنىً ومبنىً.

٢. منّا؛ لاستقامته معنىً ومبنىً.

تمضي وقد نكبت بفقدك أمّة يعلو عليها للأسى استعبارُ
حتّى كأنّك من عناه مسلّم في قولة غنّت بها الأعصارُ
سلكت بك العرب السبيل إلى العلى حتّى إذا سبق الردى بك ساروا
فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة يبكي عليها السهل والأعصارُ

هذه نماذج من تآبينه ومراثيه التي أبّن بها في لبنان.

[تآبينه في العراق]

ولنذكر نماذج ممّا أبّن به في العراق وغيرها من البلدان العربيّة، ونفتتحها بمنشور **جمعيّة الرابطة الأدبيّة** في النجف الأشرف، وهو ما يلي:

فقيد العلم والجهاد

تنعى جمعيّة الرابطة الأدبيّة في النجف بمزيد الأسى والأسف إلى العالَمين ـ الإسلامي والعربي ـ فقد حجّة الإسلام، وعلم الفقهاء الأعلام، السيّد عبدالحسين شرف‌الدين الموسوي، المرجع الديني الكبير في سوريا ولبنان.

فقد كان سماحته من أشهر الأبطال المجاهدين مع فقيد العرب الخالد الذكر، فيصل بن الحسين، في النهضة العربيّة في سوريّا، وما زال مثابراً على خدمة العرب والمسلمين، والذبّ عن شريعة جدّه سيّد المرسلين، وآله الغرّ الميامين بيده ولسانه، وقلمه وبيانه، إلى أن اختاره الله تعالى إلى جواره في صباح الإثنين ٨جمادي الثانية سنة ١٣٧٧ في لبنان، عن عمر ناهز التسعين عاماً قضاها بالجهاد والجلاد، والتأليف والتصنيف، وخدمة الدين الحنيف، ومكافحة أعدائه الدسّاسين، وتشييد المدارس العلميّة، والمعاهد الخيريّة، وغير ذلك ممّا يجعله في الرعيل الأوّل من ذوي الآثار والمآثر الخالدة. تغمّده الله برحمته، وأغدق شآبيب الرحمة على تربته الطاهرة.

وجمعيّة الرابطة الأدبيّة؛ إذ تعزّي العالم الإسلامي بهذه الخسارة الفادحة، تهيب بأبناء النجف الغياري، ورجالها الأطياب، أن يقوموا بما يحتّمه عليهم الواجب المقدّس تجاه تشييع جثمان الفقيد العظيم، ونسأل المولى جلّ شأنه أن يلهم المسلمين جميل الصبر، وأن يثيبهم عظيم الأجر. انتهى ملخّصاً.

وصدر أيضاً منشور عن «**مخزن الأميني**»[1] في النجف الأشرف أيضاً، نقتطف منه ما يلي:

إنّ للإمام الفقيد أيادي بيضاء على الإسلام والمسلمين فقد أوقف حياته مكافحاً مجاهداً مناضلاً في جميع الميادين السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة. فقد كافح الاستعمار الفرنسي البغيض الذي سيطر كابوسه على ربوع سوريا ولبنان ردحاً من الزمن، وحارب الجهل بكلّ عزم وحيويّة وثبات، وأنشأ المدارس والكلّيّات، فأقام صروحها وأشادها بإيمانه الشديد، وعزمه الصادق.

وحارب المبغضين الشانئين للدين، والدساسين الأفّاكين المنافقين الذين لا يبغون سوى التفرقة وإشاعة البغضاء بين طوائف المسلمين.

ثمّ هو إمام في العلوم الإسلاميّة من لغة وأدب ومنطق وتأريخ وحديث وتفسير وفقه وأُصول وكلام، فكان بحقٍّ الفارس الذي لا يجارى في الفضل والعلم والأدب، فلا عجب إذا كان نبأ وفاته قد هزّ العالم الإسلامي بأسره، حيث إنّ فقده خسارة لا تعوّض. انتهى.

---

١. هو الشيخ عبدالحسين الأميني علّامة مجاهد، وعلم محقّق، ولد في تبريز سنة ١٣٢٠، قضى أكثر عمره مجاهداً في سبيل الدين والمذهب بما أُوتيه من سعة في العلم، وعظم في التحقيق، وقوّة في الدفاع والنقاش، وإحاطة واطّلاع، تلمس ذلك في موسوعته الجليلة: الغدير في الكتاب والسنّة والأدب، في أحد عشر جزءاً. وقد أسّس بهمّته مكتبة أمير المؤمنين عليه السلام في النجف، وهي من أجلّ المكتبات وأغناها بالنفائس والمخطوطات، توفّي سنة ١٣٩٠.

قصيدة السيّد حسين بحر العلوم[1]

أُلقيت في الاحتفال التأبيني الكبير الذي أقامته جمعيّة الرابطة الأدبيّة في النجف الأشرف:

أتروق سمعك نغمة الإطراءِ	لأقول فيك مقالة الشعراءِ
قد كنت للإسلام سيفاً مصلتاً	رعفت عليه مفارق الأعداءِ
قد كنت للفصحى لساناً إنْ يَفُه	عقدت لديه فوارس البلغاءِ
قد كنت للوطن المضام بأهله	أحنى من الآباء للأبناءِ!
قد كنت... واعطف مثلها جمل الثنا	ألفاً أينفذ معرض الأزياءِ؟
أيلذّ سمعك أن تواصل ريشتي	بثناك كلّ صفاتك الغرّاءِ؟
أتطيب نفسك أن أحشد خاطري	في كيف أعرض أروع الأسماءِ؟
حاشاك أنت أجلّ من أن ترتمي	عبداً لزئبق مدحة جوفاءِ
حاشاك لست كمن يسيل لعابه	طمعاً بعظم موائد الإغراءِ
علماً بأنّ اللفظ كلّ فخاره	أن يبرز المعنى بخير أداءِ
ما قيمة الألفاظ صوّح قاعها	من كلّ معنى هادم بنّاءِ
الخلد للإبداع لا لحديثه	والسحر في الأصوات لا الأصداءِ
والسيف رعّاف بغير [قرابه][2]	والعطر فوّاح بغير وعاءِ

١. أديب فاضل وشاعر مطبوع، ولد في النجف عام ١٣٤٧، وهو أحد الشباب المرموقين في الفضيلة وحسن السيرة، أكثر من قراءة الكتب الحديثة في الأدب والفنّ وتأثّر بها، وحصل على استعداد أدبي وأُسلوب مشرق أخّاذ، نشرت له بعض المجلّات النجفيّة، وكتب الذكرى قصائد أعربت عن مكانته الأدبيّة. انتهى ملخّصاً عن شعراء الغريّ ج٣ ص٢٥٤.

٢. منّا؛ إذ ليس في الأصل.

وكذ الحقيقة [ليس][1] يعرف وقعها ... إلّا إذا برزت بغير رياءِ

* * *

يا صفقة الشعر اخسئي أفهكذا ... نلج الحياة مليئة الأرزاء؟
والعار أن نرث الحياة رخيّة ... ونظلّ نزجي الحمد للأشلاءِ
نحن المراض إذاً ومحنة دائنا ... أنّا نعالجه بغير دواءِ
ضاقت بنا العلياء [ذرعاً][2] أنّنا ... لم ندر كيف نسير للعلياءِ

* * *

إيهاً فقيد المجد لست بآسف ... أنّي أراك مؤبّناً برثائي
فالموت قنطرة الحياة فحاضر ... يمضي وآتٍ خلفه بإزاءِ
لكن أسفت عليك شيخاً لم تزل ... بـرواء فكرك طافح [الإعطاءِ][3]
ركضت بك التسعون حين قهرتها ... أن تستلين لأثقل الأعباءِ
ليت السنين تراجعت بك هل ترى ... إلّا فتيّ العزم والآراءِ
فكراً تخضبه الدماء وساعداً ... عبل الفتوح بساحة الهيجاءِ
الليل عندك هدأة ما شئتها ... إلّا لتحرج خاطر الظلماءِ
وإذا استفزّ الصبح ثرت مشمّراً ... من غير ما برم ولا إعياءِ
تمشي على خطوات فكرك في الدجى ... فكأنّ ليلك مشرق الأضواءِ

* * *

ليت السنين تجاوزتك لمانع ... بشبابه حذر من الإيماءِ
شقّ الفتور طريقه وشعوره ... فكأنّه جسم بلا أعضاءِ

---

١. منّا؛ إذ ليس في الأصل.
٢. منّا؛ لخلوّ الأصل منها.
٣. منّا؛ لخلوّ الأصل منها.

ألف الدجى سمراً لسلم رأسه ... لوثير لهوٍ أو أنيق غناءِ
مستعوّذاً بالبذخ في نعمائه ... [في أن يعيش بوافر النعماء][1]
أو كلّما نعب الغراب تنفّست ... رئة الخيال بمأتم وبكاءِ
نبعى على الماضي وننتفض القوى ... لنشيّع الآتي بحفل عزاءِ
وندور حول كياننا وأمامنا ... أممٌ تسير بسرعة الأضواءِ
طمع النبوغ بهم فلم يشأوا السرى ... إلّا على أرض بغير سماءِ
تتفجّر الأقمار من أفكارهم ... وعياً يضيق به فم الأنباءِ
أمّا هنا فقريحة معسولة ... ترفاً بثغر مليحة لعساءِ
أو خاطر عكر يلزّ به الأسى ... أنّى تقام محافل الخطباءِ
يا ليت يدري إذ يقيء رثاءه ... أنّ الرثاء لميّت الأحياءِ

❊ ❊ ❊

يا شعر حسبك في الحياة أناقةً ... متع سكبت بروضة غناءِ
وكفاك شؤماً دمعةً مزعومةً ... صخبت بمحجر صخرة صماءِ
فإلى م نلهث ذلّةً وميوعةً ... حسناء تسلمنا إلى حسناءِ
وإلى م نجترّ الأسى لنصوغه ... بقصيدة ـ في زعمنا ـ عصماءِ
وعلامَ لم نستلّ من أعماقنا ... حمم القريض طليقة الأجواءِ
لنشيد ماضينا ببعث جديدنا ... كي لا نكون مغبة الآباءِ
فالفخر أن تهب الحياة سواعدا ... مفتولة بعقيدة ومضاءِ
يجري دم الإيمان في أعصابها ... فتثور لكن في حجىً ودهاءِ
وإذا استفاق الفجر من سنة الكرى ... ليُنير أُفق الخير للأحياءِ
يعشو ويطبق جفنه كي لا يرى ... صفو النعيم يهان بالبأساءِ

---

١. منّا؛ لخلوّ الأصل منها.

يا موت هذّب مترفيك فلم يطب　　سحرُ الهوى إلّا مع الندماءِ
ولربّ أنملة بكفّ مناضل　　هزئت بخمس أصابع بتراءِ

❋ ❋ ❋

ليت السنين عدتك وارتطمت　　متخثّرين ظليلة الأفياءِ
برعوا ولكن في رشاقة قامة　　ونتوء صدر مفعم الخيلاءِ
متواكلين ويكتفون بأنّهم　　من آدم نسلوا ومن حوّاءِ
لهمّ عفوك هل رسالة آدم　　لبنيه: أنّ وجودهم لفناءِ؟
ما أكفر الإنسان آدم لم يدع　　ترف النعيم بجنّة فيحاءِ
ألا ليشعرنا برغم خمولنا　　أنّ السعادة بعد طول شقاءِ
وبأنّ أعذب جرعة ما قاءها　　بطن القليب بلفتة الصحراءِ
قتل العمى أيرفّ غصن يانع　　من بذرة تركت بغير رواءِ
ما أسعد الفلاح يحصل زرعه　　ويقول: هذا ما جنته دمائي

كلمة الشيخ هادي العصامي[١]:

شاء القدر الأعمى أن يكسف نور بدر وضّاء كان العرب والمسلمون يستصبحون بأشعّته الوضاءة.

شاء القضاء أن يعدمنا ريحانةً كانت تعطّر سماء العرب والمسلمين بأريجها الفوّاح العطر.

شاء القضاء المبرم أن يجذّ من العرب والمسلمين ساعداً مفتولاً في ميدان الجهاد

---

١. هو صاحب مجلّة الشعاع المحتجبة، من الأدباء الناثرين، أستاذ في العربيّة، له مقالات ضافية وكلمات متنوّعة، منشورة في المجلّات النجفيّة، عاداه الزمان «شأن الزمان عداوة الأحرار» فهو عصامي بحقّ، يعيش متعفّفاً قانعاً بما هو فيه مهما كان من عوز، لا يحسب للغنى حسابه، ولا يقيم له وزناً، ترى ما في نفسه بادياً على كتاباته فتراها قويّةً متينةً جافّةً غير لينة. انتهى ملخّصاً عن ماضي النجف وحاضرها ج٣ ص٣١.

القومي، والجهاد الديني، ذلك الجهاد المرير الذي لا يقوى عليه إلّا من امتحن الله قلبه بالإيمان، عندما «أخذ الله ـ جلّ وعلا ـ على العلماء أن لا يقارُّوا على كظّة ظالم، ولا سغب مظلوم»[١]. وهنا الامتحان والمحنة؛ ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً.

شاءت الإرادة السماويّة أن تبتلي العرب والمسلمين بنقص في الأنفس، وما المراد بهذا النقص؟

أترى المراد من النقص المعنى المتبادر إلى أذهان العامّة وهو الكثرة؟

ولو كان المراد ذلك لأتى الجمع بصيغه الكثرة، فيقول: في النفوس، ولكنّه قال: في الأنفس، فيظهر أنّ المراد هو ابتلاء العرب والمسلمين بموت من أبلى البلاء الحسن في الجهادين: الديني والقومي، أو الديني فحسب. وما وجه هذا الابتلاء من الله تعالى لنا؟

ألِأنّا لا نطيع ولاة أمرنا، وولاة أمرنا هم العلماء الذين امتحن الله قلوبهم بالإيمان؟ أم لأنّا غرّتنا الدنيا بزخرفها فتركنا ديننا خلفنا ظهريّاً، فباض الشيطان في قلوبنا وأفرخ، فسوّلت لنا نفوسنا ما سوّلت، فابتلانا الله بموت أخيارنا لئلّا تشملهم اللعنة التي تنصبّ علينا من السماء؛ لأنّا لا نأمر بمعروف، ولا ننهى عن منكر، وهذا هو الامتحان والمحنة؛ ليبلونا أيّنا أسرع إلى القيام بالواجب.

ورد في الحديث: «إنّ العالم إذا مات، ثلم في الإسلام ثلمةٌ»[٢]؟

وأيّ عالم ذاك الذي ينهدّ بموته ركن من أركان الدين هذا؟

العالم الذي لا يحسن من الدين غير الفتوى؟ أم الذي رشح دم قلبه من لسانه ويراعته في سبيل إنقاذ أمّته من خيبة الضلالة، وناضل بمزبره في سوح الجهاد، نضال الأبطال للدفاع عن النفس والعرض، كيما يجعل كوكب أمّته يأتلق في سماء الخلود؟

---

١. نهج البلاغة: ٣٠، الخطبة ٣.

٢. الكافي ١: ٣٨، باب فقد العلماء، ح ٢ ـ ٣، و فيه: «إذا مات المؤمن الفقيه» بدل «إنّ العالم إذا مات». وبتفاوت يسير في بحار الأنوار ٢: ٤٣ ـ ٤٤، ح ٩ و ١٢.

العالم الذى لا يمتدّ بصره إلى أرنبة أنفه؟ أم العالم الحادّ البصر، النافذ البصيرة إلى ما وراء أُفق حياته، ومحيطه الذي يحيا فيه، فيدرك بثاقب بصيرته ماذا يحيق بالدين من أخطار، وماذا يكتنف بأُمّته من أشواك، وما يعرقل مسيرها إلى المجد والخلود من عقبات، فيشمّر عن ساعد الجدّ ليدرأ الأخطار، ويقتلع الأشواك، ويذلّل العقبات؟

العالم الذى لا يحرق نفسه بخوراً، فلا يعطّر جوّ بيته الذي يسكنه؟ أم العالم الذى يحرق نفسه بخوراً، فيعطّر أُفق الحياة؟

العالم الذي هو ذبالة لا يضيء جوّ نفسه؟ أم العالم الذى هو نور الله في الأرض، يضيء الحياة بأشعّته، فيجلوها من وضر الآثام، وينير روح الإنسانيّة فيقيه الخطايا والأرجاس ويجعله يتسامى طهراً، فيسامت أجنحة الملائكة؟

وكيف لا يكون نور الله في الأرض، وقد ورد في الحديث: «علماء أُمّتي كأنبياء بني إسرائيل»[١]؟

العالم الذى هو ربّان زورق صغير، يسير في نهر متقارب الضفتين، ساكن الأمواج؟ أم العالم الذي هو ربّان سفينة تمخر في عباب بحر متلاطم الأمواج، يدير دفتها بحكمة وأناة وحنكة؛ ليجعلها تتغلّب على الأمواج، يخضع الأمواج لإرادته؟

العالم المنكمش على نفسه، الضنين بها وبقلمه وبجاهه إلّا فيما يخصّ ذاته، أم العالم الذى جاهد وناضل نضالاً مريراً في سوح الجهاد المقدّس، وسكب ماء حياته، وأراق دم قلبه لنصرة الحقّ، وتشتّت سحب التضليل عن وجه الحقيقة، ولردّ كيد الماكرين، ولدحر بغي الضالّين، سواء كان عن الدين، أم عن الأُمّة. كيما يجعل الحقّ وضاء، ونوره يألق في سماء الحياة؟

فهذا هو الذي يتهدّ بموته ركن من أركان الدين؛ لأنّه هو نفسه فريق الهدى، وأشياع الحقّ، وأعضاد الدين، فأين من كان بنفسه من لا يرى الدين إلّا الفتوى في الحلال والحرام؟

---

١. بحار الأنوار ٢: ٢٢، ح٦٧؛ و ٢٤: ٣٠٧.

فهذا إن مات يخمل بموته ذكره، ويقبر معه مجده.

أمّا فريق الهدى فهو إن مات قلم ولن تموت بطولته، وإن غيّبه اللحد فلم ولن يغيّب جهاده المستمرّ، ونضاله لنجدة الحقّ. فهو خالد بآثاره ومآثره، وهذا هو نتيجة خشيته من اللّه تعالى؛ لأنّ اللّه حين «أخذ على العلماء أن لا يقارُّوا على كظّة ظالم، ولا سغب مظلوم»[1] وفى للّه بما أخذ عليه من كان حشو قلبه إيماناً، لئلّا تصيبه لعنة السماء، فيصبح ماؤه غوراً، وحقله يباباً، وهنا الامتحان والمحنة؛ ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً.

فضّل اللّه العلم مع العمل على العبادة مع الزهد والتقوى؛ لأنّ العابد لا يخدم إلّا نفسه.

أمّا العالم العامل فإنّه يخدم الإنسانيّة؛ ليجعل كلّاً من أُمّته إنسانيّةً قائمةً بإنسانها.

والمحتفل بتأبينه خدم الإنسانيّة للإنسانيّة لم يبغ له من أجر إلّا ما أعدّه اللّه تعالى له ولأمثاله، من روح وريحان وجنّة نعيم، فهو البقيّة الباقية من السلف الصالح، فقد ضنّ القدر بهم، فأعدمنا منهلاً رويّاً تطفح ضفتاه، ولا يترنّق جانباه، فقلنا: «السيّد شرف‌الدين» كافي الكفاة، به ينجبر الكسر، ويلتئم الجرح؛ لأنّه هو نور اللّه، هو ربّان السفينة وهو، وهو، فكيف لا يسدّ الثغرة المحدثة في الدين بفقد سلفه الصالح؟ وهو صاحب اليراع الذي إذا صال فوق الطرس وقع صليله، سمعت صليل المشرفي له صدى في فتواه المدويّة ضدّ فرنسا.

ولكنّ القدر أعمى، يتخبّط في ليل دامس، لا يدري من أصاب، ولا يعرف من أردى، فأفقدنا البقيّة الباقية من العاملين بالخير، والتابعين بإحسان.

أسلم روحه الطاهرة إلى خالقه، ونحن بأمسّ الحاجة إليه.

ارتفعت روحه الطيّبة إلى الملكوت الأعلى بعد أن أدّى رسالته التي أخذ كاملةً وافيةً، لينعم بما أعدّه اللّه سبحانه من النعيم الدائم لأوليائه الأبرار، فترك فراغاً لا يسدّه إلّا من أوتي العلم وفصل الخطاب، إلّا من يرى راحة ضميره،

---

١. نهج البلاغة: ٣٠، الخطبة ٣.

ومسرّة قلبه، أن يخفق لواء الحقّ في سماء الوجود، ويرفع لواء العدل عالياً في أُفق الحياة.

ما سكن نبض الحياة من قلبه، وسلبت كفّ المنيّة آخر نفس من حياته، إلّا بعد أن وفى اللّه بما أخذ عليه، وكيف لايفي به وروحه الطيّب خلص من كدر الطبيعة كنور الشمس، وصفى جوهره من أدران المادّة وأوضارها كنور البدر، وطهر كماء السماء، فارتفع إلى عالم لايلذّ إلّا لعباد اللّه الصالحين، ولايطيب إلّا بهم في حين تلبّد الحياة بغياهب من الإحَن على أُمّة القرآن؛ لأنّها لاتدين للّه إلّا بكلمة التوحيد.

وعسى أن يقيّض اللّه من يسدّ ذلك الفراغ الذي أحدثه فقد الراحل العظيم، وما ذلك عليه بعسير بعد أن كان الدين للّه، وما العلماء إلّا رعاة دينه وأُمناؤه.



قصيدة الشيخ محمّد عليّ يعقوبي:

يوم الحسين وهل يوم يماثلُهُ ... راع العروبة والإسلام هائلُهُ
جبال لبنان قد دكّت على جبل ... في المجد والحلم ما كانت تعادلُهُ
عهدي بواديه مخضلّ الأديم فلا ... عداه طلّ الحيا الهامي ووابلُهُ
فعاد لا رائد تزهو مرابعه ... فيه ولا وارد تصفو مناهلُهُ
رجّت مغاديه فاغبرّ الفضاء به ... وأظلمت مكفهرّات أصائلُهُ
ولم يزل يتغنّى باسمه مدحاً ... فلم بتأبينه عجّت محافلُهُ
يؤبّن اليوم منكولاً له انصدعت ... حشى الهداية والإسلام ثاكلُهُ
وقاطعاً حبل دنياً لايواصلها ... ولو يشاء أتت طوعاً تواصلُهُ
ورافعاً علم الإصلاح في زمن ... فساده عمّ الدنيا وباطلُهُ
فتى به «شرف‌الدين» الحنيف سما ... شأواً بحيث الثريّا لاتطاولُهُ
يضوع في ذكره الحفل المعدّ له ... كأنّما عبقت فيه شمائلُهُ

خطب أصات بلبنان النعيّ به فهزّت النجف الأعلى زلازلُهُ
ما في النديّ سوى قلب يذوب أسىً ومدمع فاض هاميه وهاملُهُ
فطالب الرشد قد سدّت مسالكه وسائل العرف أعيته «وسائله»
يوم به المصطفى باتت «شرائعه» تبكيه والمرتضى تنعى «رسائله»
كم ذاد عن حرم الإسلام في قلم أمضى من العضب تجلوه صياقلُهُ
رمى به الحقّ حتّى اشتدّ ساعده وعزّ فيه الهدى واشتدّ كاهلُهُ
كم ناصب وهو بالبرهان قاطعه وراغب وهو بالإحسان واصلُهُ
كأنّ أنمله يشدو اليراع بها دوح بأفنانه تشدو بلابلُهُ
يعنو له خاطباً قيس بن ساعدة عيّاً ويقصر سحبان ووائلُهُ
يا راحلاً قد سرى ركب الحمام به الصبر بعدك قد زمّت رواحلُهُ
إيه أبا جعفر صابرتها محناً عوّضت في الحشر عنها ما تحاولُهُ
بلغت في الفضل شأواً لم تنله يد والنجم صعب على الأيدي تناولُهُ
رغبت في أجل باقٍ مضيت له وقد زهدت بما لم يبق عاجلُهُ
للّه ما ضمّ من علم ومن ورع بُردٌ تضمّك والتقوى غلائلُهُ
ناهزت تسعين عاماً قد طويت بها عمراً بنشر الهدى تطوى مراحلُهُ
علم ودين وأخلاق محبّبة كنفحة الروض قد ضاعت خمائلُهُ
وغرّة لاح نور الأنبياء بها يخفى سنا البدر منها لو تقابلُهُ
وإن تضاربت الأقوال عن شطط فما الصواب سوى ما أنت قائلُهُ
من ذا يسدّ من الإسلام ثغرته ومن به جيده يزدان عاطلُهُ
رعت العدوّ بلبنان وجارتها سوريّة يوم غالتها غوائلُهُ
فالبرّ في جيشه ضاقت فدافده والبحر في سفنه غصّت سواحلُهُ
حتّى تخلّى عن القطرين واندحرت جنوده وانجلت عنها جحافلُهُ
خلّصتها عن يد المستعمرين لها والظلم قد علقت فيها حبائلُهُ

جـاهدتهم بـجهود قـمت تـبذلها   وفـي سـبيل الهـدى مـا أنت بـاذلُهُ
فكـيف واراك يـا بـدر النـهى جـدث   أضحت تـهال عـلى التـقوى جـنادلُهُ
خـفّت بـنعشك أيـدي الحـاملين له   ومـا دروا أنّ روح القـدس حـاملُهُ
فـوق الأنـامل والأعـناق قـد رفـعوا   مـن طـوّقتهم بـجدواه أنـاملُهُ
وبـالدموع سـقوا مـثوىً نـزلت بـه   يا مـن بـه الخـلد قـد زيـنت مـنازلُهُ
مـاذا أقـول وهـول الخـطب أذهـلني   والوجد بين الحشـى تـغلي مـراجـلُهُ
وكـيف يـقوى لسـان أنت مـخرسه   عـلى رثـاك وفكـر أنت شـاعلُهُ
هيهات لم يطو في بـطن الثـرى عـلم   للـحشر بـين الورى تـتلى فـضائلُهُ

ومن كلمة للسيّد محمّد الجصّاني[1]:

لا أُريد أن أتحدّث إليكم عن عظم الخسارة القادحة التي حلّت بالعالمين ـ العربي والإسلامي ـ بفقد سماحة آية الله شرف‌الدين، فكلّكم يعرف عظم الخسارة وفداحة النكبة التي نزلت بالعرب والمسلمين، الذين عرفوا فقيدنا مناضلاً صلباً في الذود عن دنيا العروبة وحياض الإسلام.

وعرفوه واعياً مخلصاً للوحدة، وتحطيم الحواجز التي أقامها الاستعمار لتشتيت شمل العرب والمسلمين. ولا أُريد أن أتحدّث إليكم عن جهاده المشرّف في مكافحة المستعمرين، وليس فيكم من لم يسمع بتعقّب الإفرنسيّين لسماحته ولأعوانه بالسجن والتشريد والإبعاد، وما إقامته في مصر والشام وفلسطين، ونهب داره، وحرق مكتبته، إلّا أمثلة بسيطة على جهاده المشرّف الطويل في هذا السبيل.

ولا أُريد أن أتحدّث إليكم عن كفاحه العقائدي [من منّا] لا يعرف في الإمام شرف‌الدين مجاهداً عقائديّاً أوقف قلمه للدفاع عن عقيدته ومذهبه، ونذر نفسه

١. هو أحد فضلاء النجف المعروفين وأدبائها البارزين.

للحفاظ على كلمة الإسلام، وإعلاء شأن المسلمين، وما المراجعات والفصول المهمة والنصّ والاجتهاد وأبو هريرة وأجوبة مسائل جار الله وغيرها من مؤلّفاته الخالدة إلّا مشاعل من نور، أضاءت الطريق للذين ينشدون الخير، والحقّ والعدل، ومعاول هدمت ما أشاده المرجفون من شكوك وأباطيل.

فبم أتحدّث إليكم إذن؟

حديثي إليكم عن جانب لا يقلّ روعةً وإشراقاً عن جوانبه الكثر، ذلكم هو الجانب التربوي في حياته الخالدة، هذا الجانب الذي أحسب أنّه خافٍ على البعض بكلّ معالمه وصوره، وقبل أن أدخل معكم في تفصيلات هذا الجانب، بما فيه من ألوان ورتوش، يطيب لي أن أذكر لكم الأُسس التي كان ـ طيّب الله ثراه ـ [ينتهجها] في تحقيق برنامجه التربوي الواسع، والدستور الذي اتّخذه سبيلاً للعمل.

كان ﷺ يعمل بوحي من قوله الخالد: «لا ينتشر الهدى إلّا من حيث انتشر الضلال» وهذه الكلمات القليلة في عددها، الكبير في مفهومها، العميقة في مدلولها، هي دستوره التربوي، والأُسس التي تدلّ على نزعته الإصلاحيّة.

فلم يعش ﷺ منطوياً على نفسه، ينفر من كلّ جديد، ويتهيّب كلّ طارئ، ويتخوّف كلّ شيء لم يألفه في ماضي أيّامه.

وإنّما كان يعيش في يومه وليومه، ويعمل بمتطلّبات زمانه وعصره، بعد أن يكيّفه بالشكل الذي يعود على قومه بالفائدة والخير.

وهكذا صمد سماحته أمام المبادئ الوافدة التي احتشدت في وجه الإسلام والمسلمين، وراحت تصارع الإسلام وتنازله بما أُوتيت من علوم حديثة، ودعاية منظّمة، وأساليب لا عهد للمسلمين بمثلها.

وكان سماحته يراقب الموقف بيقظة وحذر، ويفحص السلاح الذي استخدمه العدوّ بخبرة ودراية، وهكذا عمد ﷺ إلى فتح المدرسة الجعفريّة في صور وأخضعها للمناهج الحديثة، وأدخل الدين في دروسها، وراح يشرف عليها بنفسه، ويحيطها باهتمامه وعنايته ويزوّدها بإرشاداته، وكانت المدرسة في بداية

تأسيسها بذرة صغيرة، ولكن اهتمام سماحته، وسهره المتواصل عليها، دفعه في النموّ المطّرد، وكانت رغبته أن يضمّ إلى قسميها الابتدائي والمتوسّط قسماً إعدادياً يهيّء الطالب إلى التخصّص في العلوم الدينيّة، كخطوة أوّليّة ينتقل بعدها الطالب إلى النجف الأشرف؛ لإكمال دراسته الدينيّة العالية، وقد اتّصل نجل سماحته الأُستاذ السيّد جعفر ـ بناءً على رغبة سماحته ـ بمنتدى النشر، طالباً منه العون في تحقيق هذا الهدف السامي.

قصيدة الشيخ أحمد الدجيلي[1]:

فجّرت باسمك نبع الشعر بركانا ورحت أسكب روحي فيه ألحانا
وأوقض الوتر الغافي فأبعثه من وحي ذكراك بالأشعار مرنانا
فهل أدني بك الماضي وإن بعدت أيّامه وطواه الدهر نسيانا؟
ألم تكن فجره الزاهي الذي ائتلقت به مجالي الهدى فاهتزّ جذلانا؟
قد كنت آيته الكبرى التي حملت رسالة الحقّ إسراراً وإعلانا
كأنّما الموت لم يمدد إليك يدا ولا عليك بداج منه قد رانا
ها أنت باق مع الأجيال خالدةً ذكراك تغمر بالألطاف دنيانا
رؤى تطلّ علينا في أشعّتها فنستعيد بها الماضي كما كانا
أيّام كنت لدين الله معتصماً وللهدى ناظراً ما انفكّ يرعانا
وجدولاً ما استقى من فيض منبعه ظام إلى العلم إلّا عاد ريّانا
ومقولاً طالما راع الطغاة به وهدّ فيه لصرح الظلم أركانا
وصارماً عزّ أن تصدا حديدته كم فيه شيّدت للإسلام أركانا

---

١. أديب فاضل وشاعر مطبوع، ولد في النجف عام ١٣٤٤، وهو من شعراء العراق البارزين، الذين واكبوا النهضة العلميّة والأدبيّة، استطاع أن ينتج أدباً مفعماً بالثورة، والتفاؤل بالمستقبل الزاهر، له شعر رصين رشيق الأُسلوب جزل اللفظ. انتهى ملخّصاً عن شعراء الغريّ ج١ ص٣٠٢ ومجلّة صوت الإسلام.

حتّى إذا نلت أقصى غاية بعدت — لنصرة الحقّ تعلي قدره شانا
أصابك القدر القاسي وقد عظمت — بك الرزيّة آلاماً وأحزانا!

* * *

يا ناصر الحقّ حدّثنا فقد ظمئت — إليك أرواحنا حبّاً وتحنانا
حدّث عن العرب في لبنان كيف مشت — بها السياسة أشكالاً وألوانا
فإنّ ما ساء لبناناً وجيرته — ساء العروبة أشياخاً وفتيانا
وكيف شرّدها الجاني وميّزها — طوائفاً وأقاليماً وسكّانا
فكان من فرط ما عاث الدخيل بها — وفرّق الوطن المحبوب أوطانا
إنّ العروبة دبّ الحقد في دمها — فكان أقربنا في الروح أعدانا
ويل العروبة إن لم تتّحد علماً — وراية تتبنّاها وقرآنا
فرحت تبعث روحاً منك نابضة — في جسم لبنان، صان الله لبنانا!
ونسحق الطائفيّات التي اتّخذت — مسارحاً في ربى الوادي وأحضانا
وقمت بالعلم تهدي كلّ قافلة — ضلّت عن الدرب أو زاغته عدوانا
وجئت فيها لشاطئ العلم تحضنها — فكراً وتوسعها هدياً وإيمانا
بوركت من مصلح ما يأتلي أبداً — يحنو على العرب إشفاقاً وتحنانا
آمنت فيك ملاكاً كنت لا بشراً — وإن رأى الناس في برديك إنسانا
وموقف لك راع الخائنين كما — بدا بتأريخك الوضّاء مزدانا
أيّام كانت قوى الأشرار عامدةً — تسوم شعبك إذلالاً وإذعانا
فهبّ لكن بوحي منك غيراناً — يثور حيناً ويستهديك أحيانا
وأنت تحت يد الجاني ورحمته — تجابه الظلم في منفاك يقظانا
حتّى إذا الشعب لاقى من مصائبهم — ما ليس أوفيه من ذكراك تبيانا
فعانقوا الموت أحراراً وما وهنوا — حتّى قضوا لطلّاب المجد شجعانا

وحـين نـالت بك اسـتقلالها وبـمن قـد أخـلصوا للـعلى عـهداً وإيـمانا
رأتك أنت الذى فـتّحت نـاظرها للـنور فـاستيقظت شـيباً وشـبّانا
وأنت غـذيت مـنها كـلّ طـائفة عـلماً تـطيب بـه الدنـيا وعـرفانا
وأنت أنت الذى كـابدت مـحنتها فكـنت للشـرف الوضّـاح عـنوانا

❊ ❊ ❊

فـيا مـحرّرَ بـالأفكار أمّـته وحـاملاً لهـداهـا الروح فـرقانا
أشكـو إليك خـطايانا وما فتكت بـروح أمّـتنا إلّا خـطايانا
نـصافح الظـالم الطـاغي ونـحسبه جـهلاً إذا مـا ادلهـمّ الخـطب مـعوانا
وهـذه العـرب تـدعونا لوحـدتها لا أبـعد الله أحـباباً وأخـوانـا
كأنّـنا قـد نسـينا مـا ألمّ بـنا حـتّى نـصافح أنـماراً وذؤبـانا
بـالأمس والأمس ليـل فـي مرابعنا أنـاخ كـلكله بـغياً وعـدوانـا
بالأمس والأمس وحش في أباطحنا نلقاه بـالرعب فـي المـاضي ويـلقانا
واليـوم رحـنا عـلى عـمد نـخالفه فـنستعيد بـه ذكـرى رزايـانا
هـذي خـطيئتنا الكـبرى وأعـجبها أنّـا نـزوّقها زوراً وبـهتانا
حـتّى غـدونا وسـوط الظـلم يـلهبنا آنـاً ويـعصف فـي أوطـاننا آنـا
ولا نـرى من يـداوي جـرح أمّـتنا ومـن يـفرّج فـي الأيّـام بـلوانا

❊ ❊ ❊

يا ربّ صـفحك قد بـحّت حـناجرنا وزهدت فـي سماع القـوم شكـوانـا
لمـن نـبثّ شكـاوانـا ونـحن كـما تـرى بأعـناقنا طـوقاً وقـضبانا
أللشـباب وقـد ضـلّت سـفينته مـمّا ألمّ بـها لم تـلف ربّـانا
أم للـحماة عـلى أوطـاننا وهـم يمشون رغم شعاع الشـمس عـميانا
ونـحن أنّـى اتّـجهنا لا نـرى أحـداً يحنو على جـرحـنا الدامي ويـرعانا

هذي الجزائر غرقى بالدماء فمن حيًا بها شهدانا أو ضحايانا

يا للغباوة كم تبقى تهدهدنا عصابة وتلوك الشعب قطعانا

وصوت إخوتنا لا زال نسمعه لحناً يدوّي على أشباح قتلانا

ولا نثور ونذكي من عزائمنا إنّ الدم العربي الحرّ قد هانا

وإنّ بطش فرنسا قد أحال لنا أرض الجزائر أشلاءً ونيرانا

❊ ❊ ❊

فيا فرنسا اخسئي ما أنت ظافرة بما ترجّينه جهداً وإمعانا

جودي على الشعب تقتيلاً وتفرقةً وشتّتيه زرافات ووحدانا

وخلفك الدول الرعناء لاهية لا تستجيب ولا تصغي لشكوانا

أحرارنا الصيد تأبى أن تمدّ يداً إلى الهوان فتغدو فيه عبدانا

ولا تموت انتفاضات الكفاح بنا وقد جعلنا لها الآمال ميدانا

ثقي فرنسا بأنّا ثورة عصفت على ربوعك أحقاداً وأضغانا

لابدّ أن تردي كأس الهوان بها وتستجيبي إلى الأحرار خذلانا

فننقذ الوطن الغالي وإن فتكت به يداك وعاثت فيه أزمانا

❊ ❊ ❊

أبا المناقب صفحاً إن نأى قلمي عن لطف معناك ترنيماً وسلوانا

لأنّني لم أزر علياك معرفةً بالشعر والفنّ تأكيداً وبرهانا

فأنت كالشمس ما زالت أشعّتها بالفضل تغمر دنيا الله إحسانا

وأنت كالروض ما انفكّت نوافحه باللطف تغمرنا طيباً وريحانا

فاخلد فأنت لنا آي نرتّله غنّى بها المجد مفتوناً وهيمانا

وأنتم آله صبراً وإن عظمت هذي الرزيّة آلاماً وأشجانا

ثقوا بأنّا وإيّاكم سواسية وأنّ نجواكم في الدهر نجوانا

وأنّ جرحاً تنزّى في جوانحكم مشى لهيب جراح في حنايانا
ولا غرابة فالقربى وشائجها تشدّ بغداد في البلوى ولبنانا

وللشيخ أحمد الدجيلي هذه القصيدة أيضاً:

نضب البيان فجفّ نبع ثنائي وثوى الخيال فعزّ فيك رثائي
وأبت قوافي الشعر حين أثرتها أن تستجيب لرغبتي وندائي
فكأنّ مجدك ليس تبلغ شأوه وهو الرفيع عواطف الشعراءِ
ما رحت أستوحي شعاعك جاهداً حتّى ضللت بنوره الوضّاءِ
كالشمس إن قابلتها لم تنكشف أبداً أشعّتها لعين الرائي
آمنت فيك محلّقاً فوق الذرى تنحطّ عنك مقالة البلغاءِ
آمنت، لا بالعلم، أنت [رعيته وحفظته][1] بعقيدة وولاءِ
لكنّما بصفاء روحك إنّه سيف تصول به على البغضاءِ
وكذاك شأن المخلصين عقيدةً تضرى لترقب موكب الشحناءِ
علماً بأنّ الدين أوّل غرسه في القلب بعض محبّة وصفاءِ
فإذا تمرّس فيه أبناء الهدى نبذوا العداوة وهي أفتك داءِ

❊ ❊ ❊

إيهٍ إمام المصلحين ومن سما حتّى تبوّأ موكب الجوزاءِ
يا ماحقاً ظلم الجهالة من سنا فكر يشعّ بنوره اللألاءِ
ومحرّر الأفكار بالقلم الذي أهوى على الباغين سوط بلاءِ
يجري فيمرع كلّ فكر مجدب ويفور[2] منه بواحة خضراءِ

---

١. منّا؛ لخلوّ الأصل منه.

٢. في الأصل: يغور.

تغذيهم منك الفضيلة والنهى ... فإذا هم في يقظة وذكاءِ
قدّست في بعث الحياة بمعشر ... ـ للعلم والدين الرفيع ـ ظماءِ
فكأنّ من أهداه رشدك للنهى ... حتّى ارتقى شرفاً إلى العلياءِ
ما غير وحيك منقذاً لحياته ... لولا وجودك لارتمى لفناءِ
بوركت في تلك الأُبوّة إذ مضت ... تحنو بما وُهبت على الأبناءِ

❊ ❊ ❊

وذكرت موقفك الجريء مجاهداً ... عسف الطغاة بهمّة شمّاءِ
لم يثن عزمك إن تخاذل معشر ... فَرَقَ العدا وتراجعوا لوراءِ
أيّام كان الأجنبي وأمّة ... عزلاء رهن سياسة نكراءِ
فذهبت لا بالسيف تنقذ أُمّةً ... لكن بفكر هادم بنّاءِ
فالفكر أوجع للطغاة إذا مضى ... ينقضّ فوق جماجم الدخلاءِ
والوعي أبلغ في الرسالة إنّه ... كالفجر يكشف ثاقب الظلماءِ
حتّى إذا ريع الطغاة وطوّحت ... بالغادرين مواهب الصلحاءِ
ومشت إلى شاطي التحرّر أُمّةٌ ... كادت تطيح بها يد العملاءِ
وتلفّتت لترى المعبّد دربها ... ومسعّر الجمرات للأعداءِ
فإذا «الحسين» هو المحرّر أُمّةً ... والناهض الجبّار بالأعباءِ

❊ ❊ ❊

يا أيّها البطل المجاهد هل تلى ... قلمي يصوّر لوعتي وبكائي
ماذا يصدر في مقامك شاعر ... ولأنت في منأىً عن الغوغاءِ
فلقد رحلت إلى الجنان إلى ذرى ... أُفق عليك منعم الأحناءِ
للخلد وهو مصير كلّ مجاهد ... حرّ لبعث عقيدة عصماءِ
حيث النفوس صفت فلا كدرٌ بها ... يبدو ولا من ذلّة وشقاءِ

كلّا ولا فيها هنالك حاقد ... للناس مثل الحيّة الرقطاءِ
يبدي محبّته إليك إذا بها ... حزب من التضليل والإغراءِ
كرّمت نفسك أن تعيش بمعشرٍ ... ما بين خائن ودّه ومرائي
أو بين أقوام تحارُ بوصفهم ... يتلوّنون تلوّن الحرباءِ
طوراً مع الشعب الضعيف وتارةً ... هم في الرعيل لنصرة الدخلاءِ
وهم إذا كشّفت شائن فعلهم ... بانت لديك ضمائر الأُجراءِ
إنّي أجلّك أن تظلّ بعالَم ... شمخ القوي به على الضعفاءِ
فرحلت للفردوس يصحبك التقى ... لتنال من عقباه خير جزاءِ
لكنّما بك قد خسرنا مصلحاً ... جمّ المناقب كاشف الغمّاءِ



يا سادة النجف... الغريبُ بأنّنا ... مرضى النفوس وما نحسّ بداءِ
نصف الدواء يعزّنا وجراحنا ... كادت تنزّ دماً بغير دواءِ
ندعو إلى الإصلاح لكن فاتنا ... أنّا به أولى من الدهماءِ
فالحقد ما زالت أفاعي سمّه ... تبدو وإن سترت بألف غطاءِ
أبداً نغالط كبرياء نفوسنا ... أنّا من الصلحاء والنبلاءِ
أسفاً أنمشي مخطئين طريقنا ... وأمامنا سيل من الأرزاءِ؟
فدعوا التباغض تدركوا أقصى المنى ... رغم الخطوب ورغم كلّ بلاءِ
ومحمّد ما قام يصلح أمّة ... وبروحه أثر من البغضاءِ
نشر المحبّة والهدى وكلاهما ... للناس خير رسالة عصماءِ
فإذا الشعوب جميعها في راحة ... من حبّه وبروضة غنّاءِ
إنّ المحبّة شاطئ في ظلّه ... تسمو الشعوب لوحدة وإخاءِ
لَهم طهر كلّ نفس دنست ... بالحقد آونة وبالخيلاءِ

فعسى نقوم بنهضة دينيّة ونقيم للإسلام خير بناءِ
وعسى نسير مع الشعوب إلى العلى في غير أضغاثٍ وغير عداءِ

* * *

أأبا الهداة الغرّ إنّك لم تغب عنّا وذكرك عاطر الأشذاءِ
خلّفت للأجيال خير رسالة ومن الصلاح عقدت خير لواءِ
خلّفتها وبنيك أشبالاً هُمُ بعلوّهم كالأنجم الزهراءِ
[يجلون] كلّ ملمّة إن جلجلت في عزمة من بأسهم ومضاءِ
فاهنأ بهم خلفاً فإنّ رسالةً خلّفتها لبنيك خير عزاءِ

كلمة[١] السيّد محسن جمال الدين[٢]:

الإمام شرف الدين منارٌ لاتنطفئ أنواره، ومجد لاتمّحي آثاره

أديمك من حبّ القلوب تمزّقت عليه فسال الشوق والحبّ والطهرُ
لئن ساءني غادٍ عليك ورائح فمن كبدي فوق الثرى قطع حمرُ
ولو قدرت، صانته عيني كرامةً كما صين في أغلى خزائنه الدرُّ

كان في أحشاء التأريخ العربي جنيناً من أجنّة العبقريّة، لوّحت يداه بمشعل الهداية على شاطئ البحر المتوسّط، والناس يومذاك يعيشون في لجّة ليل طالت امتدادات ساعاته، وعصفت أنواء رياحه، تحملهم سفن ليس لها من أشرعة تدفعها إلى ساحل النجاة، ولا من قادة تسيّرها نحو مرسى الحياة.

اختلفت آراؤهم فلم تتّحد على فكرة، وتضاربت عقولهم فلم تتماسك على مبدإ. ساعاتهم تمضي مثقلةً بهموم الدنيا، وأيّامهم تنصرف لغباً في خضمّ الوجود، وأشهرهم تنقضي سغباً في معترك العيش، وأعوامهم تسير تعاسة في حلك التيه والجهالة.

١. أرسلها من جامعة برشلونه في إسبانيا، ونشرت في مجلّة العرفان.
٢. هو من الكاظميّة، كاتب أديب ناضج جيّد القلم.

تباشرت أنفسهم بهجةً وحبوراً، وتنادت أصواتهم هتافاً وسروراً، لمّا رأوا في مولدك ذلك العبقري، وما شاهدوه من أنوار فناره الذي لاتخبو أضواؤه، ومجده الذي لا تمّحي عن الوجود آثاره.

هذا فإذا بتلك الروح المجنّحة بالخير والإنسانيّة ترفرف على سفينهم التائه، حاملة طيب ذلك الندّ الموشّى بعطر المحبّة، وإذا السعادة تطرّز مسالكهم بأزاهير الرياض التي عطرها حنان حبّه، ولوّنها دم قلبه.

وإذا الصوت الرخيّ المنساب من أعماق الفضيلة والتقوى، يرسل نغمات تهجّده في أستار الظلمة من جنبات المعابد، فيصل إلى نفوس الذين تاهوا وضلّوا ونسوا عالم الكينونة الحيّ، فشملهم الإطمئنان، وعمّهم الهناء، ووصلهم الغوث.

هذا هو يوم إن مرّت حقبة من الدهر على صور، وهي المدينة الساحليّة، التي نامت في الماضي على سرير الزمن قروناً وأعواماً، دون أن يوقظها أحد من سباتها الطويل.

دخلها المقدوني الكبير غازياً وفاتحاً، وحاورها الجزّار سافكاً وقاتلاً، حتّى انطلق من عقال ظلمتها مصباح السناء، وتوارى من ساحات دورها العناء، وتداعت أعمدة الجهل من جوانب أرباضها، وولّت أوهام الشكّ من صدور أبنائها، وأصبحت محجّةً لقاصدي خيرها، ونبراساً لمن أراد الاستنارة بهديها وشرعتها، وإذا التأريخ ينفض عنها غبار الإهمال وأتربة النسيان، ويبعث فيها روحاً سويّاً، وعقلاً كاملاً، وبعثاً جديداً.

معابد يذكر فيها اسم من دلّت الطبيعة على وجوده وعظمته، ومدارس بنيت للقدرة على علمه وفهمه، ومجالس أشادت نواديها بحكمته وفلسفته.

فإذا رحيق العلم يعصر من دماء النفوس، وحشاشة الأرواح، منسكباً من منابع البصيرة على لهاث الأقلام مقبّلاً شفاه الطروس وخدود الأسفار.

وترى الجوهر المكنون منتثراً على زرابي البهاء والجلال والحكمة والأمثال، تلتقطه كلّ نفس واعية، ويحويه كلّ صدر عامر بالإيمان، ويضمّه كلّ فؤاد مشبع

بالمودّة، ويخشع له كلّ طرف متعال بالكبرياء، ويخفت له كلّ صوت داوٍ بالغرور متّشح بالادّعاء.

أمّا ذلك العبقري الذي مرّت صورته في سجلّ الخلود، ولم تمض روائعه، أو تنطفي ذبالة علمه، فهو الأب الروحي الشريف الإمام المناضل المكافح في سبيل العقيدة العلميّة الواعية «السيّد عبدالحسين آل شرف‌الدين» والذي ضمّ إهابه قدسيّة المعرفة وجلال العلم، ومكانة الشرف، وسموّ الفضيلة، وقوّة المهابة.

أيّها الأب الروحي[١]

إذا ذكرناك يوماً في محافلنا ... قمنا لذكراك إعظاماً وإجلالا

إنّي أخفّ لدى ذكراك مضطرباً ... وإن حملت من الأحزان أثقالا

لو أنّني بلغت زهر النجوم يدي ... نحتّها لك بعد الموت تمثالا

تحدّث عنك الكثيرون، ووصف بعض أسرار حياتك القليلون، وأشار عن رفعة آياتك المحبّون، وبقي الكلّ وهم حائرون، أيختارون جانب الفضيلة ليصفوها؟

أم صورة الحقيقة فيقدّموها؟

أم تقوى العلم وجلالته فيرسموها لنا ألواحاً وتعابير، وأشعاراً وتراتيل؟

لأنّ العلم من صفات ذاتك!!

والفضيلة من جوهر عقيدتك!

والعبقريّة من ثمار دوحتك!

والحنان من أفياء سرحتك!

أمّا أنا أيّها المعلّم الكبير، والحبر الجليل، فلي ناحية من نواحي عظمتك، أقف عندها ربما غفل عنها الجميع، وأعنيها ناحية الحنان الأبوي، والحنان هو رمز من رموز الوجدان السليم الذي وهبته الحياة للإنسانيّة كافّةً، ولكن يمتاز به ذوو الشمائل الخيّرة، وذوو البواطن الطاهرة، الذين دخل الخير في أعماق جوانحهم وأرواحهم، فطهّرها من أدران الأنانيّة، وأبرأها من أسقام التوافه الزائلة.

---

١. ذكر عن مصادر الأبيات الشعريّة أنّها لبدوي الجبل ومعروف الرصافي وعمر أبو ريشة ونصر سمعان.

وحنانك يا سيّدي هو حنان الأبوّة الكاملة الشاملة، لم تقصره على أحد، ولم تخصّ به حفيداً أو ولداً، ولم تجعله وقفاً على الأبناء، أو خاصّاً بالأنسباء والأقرباء.

بل جعلت قلبك محراباً لكلّ الخلق يدخلونه دون استئذان أو رسميّات، وخصصت ذاتك قرباناً لكلّ لاجئ مضطرّ، ولكلّ شاكٍ متألم، وكلّ سائل مستفهم.

ولست أنسى حبّك السامي الذي أسبغته عليّ يوم أن قبّلت بين عينيّ، وشممت بين جنبيّ، وودّعتني وأنت تقول مستشهداً ببيت من مخطوطة لديك عن أسرة آل «شرف الدين».

وإنّا وإن شطت بنا غربة النوى ... لنذكر عهد الودّ منكم ونرعاهُ

إنّني لست نادباً عليك؛ فالندبة للراحلين وأنت خالد، ولست مستفهماً عن غيابك عنّا؛ لأنّي أراك بيننا حاضراً أو مقيماً.

ولا واصفاً لخيال جسدك الطاهر الذي توارى؛ لأنّ ذلك من صفات الفناء الذي ما بعده من كيان، والاندثار الذي ليس من ورائه وجود ولا صيرورة، وأنا أعيذه من ذلك.

أبي الحنون! سيّدي العبقري!

هم حسبوك متوفّياً فرثوك، وأنا أحسبك موجوداً فأُخاطبك، ويا لها من فروق بين الموت والبقاء، والنشر والانطواء، والغيبة والحضور.

بكينا عليك بكاء ضرير ... كبا وأضاع الأخ المرشدا
أُفق تَرَ آماقنا داميات ... وأنفاسنا تلهب الجلمدا
نثرنا الدموع ولو كان يجدي ... نثرنا على قبرك الأكبدا
وقد تجحد العين فضل الضياء ... وحاشا لفضلك أن يجحدا
فيا غائباً في ظلام الضريح ... تصدّر سماء العلى فرقدا
فأنت سنيٌ في عيون الخلود ... وأنت قذىً في عيون الردى

هم يخالونك بعيداً عن النواظر، وأنا أحسّك في أحداق العيون.

هم يظنّونك تباعدت عن الأفئدة، وأنا أراك كائناً فيها.

وهذه بعض الفروق بينك وبين من رثوك.

أيّها الإمام الجليل، يوصف الشيء عندما يحيط المرء بحقيقة ذاته، ومعاني صفاته، وأنت عندي أسمى من الذات، وأعلى من الصفات، وفوق الأفكار والتصوّرات، فإن غبت عنّا فأنت حاضر في كياننا، وإن ودّعتنا فأنت باق في عالمنا.

لقد عظمت ذاتك السامية، وجلّت صفاتك العالية.

إنّ للروح عودة في حنايا الغيب ... مهما تنعّمت في اغترابِ

أنت لا تعرف الردى أنت نجوى ... في فمي ضمخت بأشهى ملابِ

أيّها الأب البارّ، المحبّ الحنون لأبنائه، يا من سعدت الأنفس بطلاقة محياك، وخفّت الأهوال بابتسامة ثناياك، وتلاشت الآلام بحرارة حبّك، ولمس أناملك، وطربت الأسماع بروائع بدائعك، واتّفقت المجامع على سعة مداركك.

إذا نطقت فإنّما سرّ العبقريّة يتولّد في طيّات كلماتك.

وإن سطّرت فإنّما سحر الطبيعة يجري في حركة يراعك.

وإذا ألّفت فإنّما عظمة الأمجاد تتجلّى بادية في مؤلّفاتك.

أيّها الحجّة في الأفكار، والبرهان في القول، والرأي في الجدل، اجتمعت الناس على تأييدك وقدسيّتك، واختلفت في سبر أغوارك، ومعرفة خفايا علمك، ودراسة مآثر أعمالك.

إنّما قد ذكرت بعض مزاياك ... وإلّا فشرحهنّ يطولُ

وإذا القول لم يفده اختصار ... لم يفده الإطناب والتطويلُ

وإذا سكّت المقاويل حزنٌ ... ترجمت عنهم دموع تسيلُ

لك في العلم رتبة لن تسامى ... فاضل القوم عندهامفضولُ

فعطراً لتلك الروح العالية المقدّسة.

وتحيّةً لذلك الجناب الأمثل الرفيع.

وقبلةً لتلك السمات العلويّة، التي ظهرت في تأريخنا العربي منارة للتائهين، وقبساً من حكمة الخالدين، الذين ارتفعت أياديهم الكريمة ترشد الضمائر الضالّة،

وفتحت دورهم لإيواء القلوب الخائفة، ورفعت مقاماتهم لإرشاد الشعوب الجاهلة.

فعد إلينا يا مرشدنا العظيم، فما أحوجنا إليك في هذه الأيّام، وهذه الفترة؛ لأنّك أنت الوالد الرؤوف والناصح الأمين، والراعي المخلص.

وتراني يا سيّدي خاشعاً بين يدي جلالك، وفي هيكل خلودك، نفسي تحمل بين طيّاتها صورة خيالك الوضّاح، وقلبي يضمّ لك من الحبّ والإعظام فوق ما سطّرته ريش الأقلام، وتبارى به ذوو العقول والأفهام.

أدمـــوعاً تـــريدها أم رحـــيقا   لا ونـــعماك مـــا عـــرفت العـقوقا
نـــم بـــقلبي ولو قـــدرت مـــنعت القلـ   ـب حـــتّى تـــقرّ فـــيه الخـــفوقا
نـــم بـــقلبي وحـــرمة لك لن تســـ   ـع مـــنّي تـــأوّهاً وشـــهوقا
نـــم بـــعينيفقد فـــرشت لك الأحـ   ـلام مـــخضلّة الورود طـــريقا
نـــم بـــعيني إذا اصـــطفيت رؤاهـــا   هـــمّ عـــيني أن تـــصطفي وتـــروقا
زيّـــن الجـــفن دمـــعك فـــانهل   ســـلافاً عـــذباً، ومسكـــاً فـــتيقا
إنّ قـــلبي خـــميلة تـــنبت الأحـــزا   ن ورداً ونـــرجســـاً وشـــقيقا
إنّ بـــعض الأحـــزان يـــخطب بـــالمجـ   ـد وبـــعض الأحـــزان يشـــري رقـــيقا
مـــن جـــراح الضـــحى ســـني أريجي   نـــضر الكـــائنات حـــين أريـــقا

مولاى المقدّس، من زهور روضات المودّة، في بواكير الربيع البسّام، أبدعت لك هذه الباقة، التي لا يذبل رونقها، ولا تموت نضارتها، ولا يتلاشى عطرها؛ لأنّها من فراديس المحبّة، ومن نسمات الوداد والإخلاص.

قصيدة الشيخ عليّ الصغير[1]:

عَـــلَمَ الأمّـــة عـــلّمني البـــيانا   فـــعلى رزئك عـــاتبت الزمـــانا

---

١. عالم فاضل، وشاعر ماهر، وكاتب مجيد، ولد سنة ١٣٣٠، وعرف بخصوبة الذهن ومرونة الطبع، نبغ شاعراً من شعراء النجف الملهمين، وحصل على فضيلة عالية جليلة، وعرف إنساناً يجنح إلى الحقّ. انتهى ملخّصاً عن ماضي النجف وحاضرها [٢: ٤١٦، الرقم ٣] وغيره.

وانطوى العتب فلا عتب على زمن صوّر فيك الحدثانا
فانبرى يرسم في لوحته للأسى آناً وللأرزاء آنا
يعجز الفنان عن ريشته ويحير العقل في ذاك بيانا
كم عقول قد حوى متحفه وكنوز للنهى عادت لسانا
فإذا الرمل أديب كلّما تنطق الأيام دوّى ترجمانا
وإذا الأرض تراها عبقراً وبلحن الموت غنّى فشجانا

❊ ❊ ❊

أترى مدرسةً طلّابها بيد الأقدار جازوا الامتحانا
فمن الخير لهم أُطروحة ومن الشرّ هم لاقوا الهوانا
[ومن] الدهر أُستاذ فلا تأمن العقبى إذا الدهر استهانا
يسعد الإنسان في أعماله فاعمل الخير تجد فيه الأمانا
يحسد الإنسان إن فاز فلا تطلب الرحمة ذلاًّ والحنانا
عش بهذا الدهر حراً يقظاً واطلب الأخرى تجد فيها الجنانا

❊ ❊ ❊

علم الأمّة علّمني البيانا فبذكراك ازدهى الحفل وزانا
وأفض روحك في النادي تجد أنفساً أنزلها الحبّ مكانا
وأعر أذنك سمعاً كلّما تلتقي عند التناجي شفتانا
واستمع للسحر من أفواهنا فبذكراك تسامى فتدانى
عمّر النادي فيا سامره قد رفعنا لك في المحفل شانا
لا تخل أنّا رثيناك به فلعلياك عقدنا المهرجانا
لم يمت من جاهد الظلم يداً ولساناً واعتقاداً وجنانا

❊ ❊ ❊

علم الأمّة والذكرى به ... عظم الخطب وقد عزّ أسانا
روّع الوادي وناحت بردى ... ومياه النيل فاضت أرجوانا
قد زرعت المجد كي تقطفه ... فتبنّته مع العزّ يدانا
وحفظت العهد إذ ضيّعه ... آخر، لم يدر ما العهد فخانا
[فاهتفوا][1] للشيخ من محرابه ... واهتفوا بالقسّ أنّ الوقت حانا
جدّدوا الأديان من رجعيّة ... واغرسوا من خالص الدين هوانا
واعملوا فالسيل سيل جارف ... ولهدم الدين قد هبّت عدانا
لجّ هذا البحر في طغيانه ... وعلى الشاطئ قد فاضت دمانا
واحملوا المصباح لمّاعاً فقد ... ملئ الدرب غباراً ودخانا
ثمّ طوفوا هاهنا أو هاهنا ... تنقذوا من سبّة الغيّ فتانا
حاسبوا أنفسكم تستخلصوا ... أمّةً حادت عن الرشد زمانا
وإذا [....][2] فزكّوا عمّة ... عن رؤوس إنّها أصل بلانا
ثمّ قولوا جندنا أقلامنا ... في أكفّ تنثر الفضل جمانا

* * *

يا عيوناً في الحمى ساهرةً ... تحرس الوادي إذا الخطب دهانا
فلها طرف إلى محرابها ... ولها جفن على الدرس استكانا
ورجالاً جاهدوا كي يحفظوا ... بالخطى عن عثرة الجهل خطانا
بارك الله ابتهالات دعاً ... عظمت قدساً جبيناً وبنانا
فنعبّ العلم من أقداحها ... ونزيح الجهل عنّا والهوانا
واصلي مشكورة السعي فقد ... حمل السيل إلى الوادي شقانا

---

١. بياض في الأصل.
٢. بياض في الأصل.

من دموع الفاجعة

للدكتور باقر سماكة[1]

أرأيت البدر وهو يضغط قرصه ليزيد الكائنات تألقاً حتّى ينفجر؟
أرأيت النبع السخيّ عندما تجفّ إغداقاته في مسارب الرياحين وعلى خدود الورود؟
أرأيت الخير وقد هام بحبّ الخير حتّى قضى نضو نجواه وشهيد هواه؟
أرأيت السيّد المهذّب يستمرئ مرارة المنون على فراش نبيّ؟
أرأيت بسمة الرضى غافيةً مطمئنّةً على شفتي إمام سكت قلبه؟
ثمّ أرأيتَ كيف يهوي الجبل فيشقّ الأرض وهو معجزة في قوى التماسك؟
أرأيت الدموع الغزيرة وقد صعّدتها حسرات حسرات ولوّنتها جراحات جراحات؟
أرأيت العيون القلقة المشفقة حين ينبعث منها ألف سؤال وسؤال؟
أرأيت الوجوم الذاهل والصمت الشاحب وقد كتبا على كلّ جبين وقلب قصّة مجد وملحمة ثكل؟
أرأيت؟ أرأيت؟

أمّا أنا فقد رأيت كلّ هذه التجليّات الخيّرة في إنسانيّة إمامنا الراحل شرف الدين، ولمحت هذه القبسات النيّرة من إشعاع روحانيّته، وأحسست بهذه اللفحات من هاجرة غيبته.

قصيدة محمّد صادق القاموسي[2]:

حشدت قوى الجنود لديك حشدا فكان الموت أضعف منك جندا

---

١. هو نجل علّامة الحلّة الشيخ محمّد سمّاكة، وقد تخرّج من جامعة برشلونة في إسبانيّة، وهو الآن من أساتذة الأدب العربي في جامعة بغداد، له عدّة مؤلّفات ودواوين شعر.

٢. فاضل أديب، وشاعر مطبوع، وكاتب حرّ، ولد في النجف عام ١٣٤١، وهو أديب مرهف الحسّ، سريع النكتة، ذكيّ القلب، له عدّة كتب. انتهى ملخّصاً عن شعراء الغري ج ٩ ص ٢٣٢.

وكان الموت أعجز من تصدّى ... إليك وكنت أثبت من تحدّى
وكان الموت أقصر منك باعاً ... لأنك عشته قبلاً وبعدا
وكان أذلّ مستلب حياةً ... وكنت لها أعزّ من استردّا
وكان أحقّ منك به بليد ... تخثّر لا أفاد ولا تصدّى
وكان أحقّ منك به دعيّ ... فني من قبل أن يفنى، وأجدى
ملكت برغمه الأجيال تحيا ... بها ذكراً وتأريخاً وحمدا
ورحت تسابق الأمجاد شأواً ... فلمّا اجتزتها استحدثت مجدا

* * *

وهبت العلم للمثرين جهلاً ... وجدت به على الفقراء رشدا
ورحت تجير أمّته سنيناً ... ملأت فراغها بحثاً ونقداً
وتجهد تستنقيه لكلّ فنّ ... وإبداع فلا تألوه جهداً
ولم تك إذ سعيت تعبّ منه ... نميراً صافي الرشحات شهدا
وتستنزع الأطايب من جناه ... وتترك ما أشيب وساء وردا
لتخزنه وحولك حائرات ... عقول لم تجد سبلاً فتهدى
ولا لتضيعه فتصدّ عنه ... البنين وتستميل أباً وجدّا

* * *

حياتك فرصة سنحت حباها ... زمان مرّ لم يك منه أكدى
صنعت المعجزات بها ولولا ... سهام الحادثات خلقت عهدا
رأيت المسلمين وقد تولّى ... مقالدهم دخيل فاستبدّا
وراح [يصبّ][1] للواعين ناراً ... متى خمدت صلاها منه وقدا
وينسج من تخاذلهم لواءً ... يلملم فرقة وهوىً تبدّى

---

١. منّا؛ إذ فراغ في الأصل.

شتاتاً لا العقول جلبن وعياً لهنّ ولا القلوب نزعن حقدا
فرحت تعد للوثبات فكراً يزعزعه ويعكس ما أعدّا
وتحشده قوىً حتّى رأينا عقولاً قد مشين إليه جندا
وألفيت الهدى شبحاً ضئيلاً أشيح أقارباً وأضيع ولدا
هزيل البعث ما استسقى بياناً لدعوته ولا استصفى مُجدًا
تبارى حاضنوه ليسعفوه فأعياهم وقد حلّوه رشدا
وأقصى جهدهم أن يحفظوه إلى [وقت][1] تماثل أو تردّى
فرحت تجدّ تبحث أيّ داءٍ سرى ببليغ قوّته وأودى
ولمّا لم تجد في الدين نقصاً ولا في ما بنى الإسلام هدّاً
علمت الداء يكمن في المؤدّي ولو أوعى رسالته لأدّى

❊ ❊ ❊

طفقت تعدّ للوثبات نشأً تسلّح بالمعارف واستعدّا
وتغذيه المبادئ سائغات وتزجيه الثقافة مستجدًا
وتشعره الكرامة ما تبنّى لنهضته وعزّة [ما استعدّا][2]
وتشهده الحياة كما تراها عيون الناس بستاناً وورداً
ولا مستغلقاً بالخوف باباً أبى حرم الرسالة أن يسدّا
فلا مستنكراً فيهم رقاها ولا مستجدياً للدين زهدا
ولا مستعدياً ببليغ صمتٍ على أفيائه الخصم الألدّا
تحصّن بالخمول وراح يحصي أحاديث الرضى والصبر عدّا

❊ ❊ ❊

١. منّا؛ إذ فراغ في الأصل.
٢. منّا؛ إذ فراغ في الأصل.

وعشت تسدّد الضربات حرّاً — على جيش من النزعات فردا
وتحفر للأولى ولعوا ببث الخنسا[1] — وإشاعة النعرات لحدا
وترعى الواثبين إلى نضال — وتشحذ لاتفاضتهم فرندا
على المستعمرين تصبّ ناراً — وفوق الجاهدين تبثّ وتدّا
بذرت الوحدة الكبرى فهلّا — بقيت لتجتني ثمراً ونذّا
وشرّعت النضال وكان وقفاً — على الآمال لا فرضاً يؤدّى
فيا حلم الشريعة حين يجفو — ....
..................[2] — ويا غوث البلاد إذا أستبيحت
وحتف المستغلّ إذا تعدّى — لأحوج ما يكون إليك بيت
لما تلد الحوادث صار مهدا — رحلت وأنت كلّ الأهل عنه
وبان به فراغ لن يسدّا

ومن كلمة لعبدالله الخنيزي[3]:

الإمام شرف‌الدين ركيزة ضخمة، من الركائز التي اعتمد عليها الدين الإسلامي في هذا القرن الذي انتشر فيه الإلحاد والتفرقة، فكثفت فيه السحب حتّى حجبت الإشعاعة من الضوء أن تنفذ إلى العين، فيتلمّس طريقه مدلج في ليل، وأن تصل إلى القلب فيستروح الإيمان واليقين، وأُشيع فيه كثير من الجلبة واللغط، فحبسا همسة الحقّ أن تصل المسامع، على صفاء نبرة وجلال صدى.

١. هكذا وردت.

٢. فراغ في الأصل.

٣. هو نجل العلّامة الكبير الشيخ عليّ الخنيزي، ولد في القطيف سنة ١٣٥٠، وهو أديب ناضج قويّ الأُسلوب، ذو فهم واطّلاع وفكر ثاقب، له عدّة مؤلّفات منها: أبوطالب مؤمن قريش، وهو كتاب قيّم نفيس. وقد أوذي وسجن بسببه من الوهابيّين، يقيم الآن في النجف الأشرف مظهراً للفضل والأدب وفّقه الله.

ولولا الإمام «شرف الدين» وهو واحد بين قلّة قليلة من إخوانه المجاهدين في الطليعة الذين انبروا لصدّ كلّ فرية، وإحباط كلّ مؤامرة، وتزييف كلّ تهمة توجّه إلى الحقّ، وتنال من صفائه وروائه حتّى عادت تلك الأكداس من السحب القاتمة، وقد مزّقها الريح العاصف فسرى الشعاع، وأبصر النور كلّ ذي عين وسرى برد اليقين لكلّ ذي قلب لم يغلّفه الجهل والغرور، وحتّى هدأت وتلاشت تلك الجلبة اللاغطة، ووصلت همسة الحقّ صافيةً رائعةً حانيةً لكلّ ذي سمع لم يغشّ عليه الصمم.

أقول: لولا هذه الثلّة التي تشمل أمثال الفقيد، ولولا ما قدّموه من ثمار وما قاموا به من عمل لكان عصرنا هذا غير ما هو عليه اليوم.

فالفقيد ليس عالماً دينيّاً فحسب، بل هو من العلماء الذين فهموا الدين فهماً صحيحاً، واستساغوه فتفاعل لديهم.

فهو لم يفهم الدين الفهم المتحجّر الجامد فيكفّن بأكفان التلاشي والاضمحلال، ولا يساير الأزمنة والأعصار كما شاء له الله يوم نزّله الأمين على قلب الرسول الأعظمﷺ.

ومن هنا لم ينظر إليه الشباب الطالع نظرة خوف مثل نظراتهم لبعض الرجال الآخرين ممّن يرون فيهم الشبح المجسّم للخوف المرعب، فيبتعدون عن الدين ويفرّون منه.

عرف الدين كما تنزّل من مصدره الأسمى، وكما شاء له مصدره أن يستمرّ ويدوم.

ومن هنا كان أحد حاملي لواء الوئام والوحدة بين الطوائف الإسلاميّة على أُسس قويمة، وليس ممّن يدعو لها باجتثاث البناء، واستئصال الجذر.

ومن هنا كان وطنيّاً صميماً خدم وطنه، وضحّى في سبيله بكلّ غالٍ ومرتخص، فكان له تجاه طرد الفرنسيّين من بلاده قدم راسخة تعرّض في سبيلها لإهدار دمه. ولكنّه ـ وقد نجا من القتل ـ لم ينج بيته من التخريب، فكانت ضحيّته إضمامة من مؤلّفاته حتّى ذلك الحين.

فخسرت المكتبة العربيّة ثروةً لم تعوّض بها، وإن سدّ في بعض الجوانب ـ في

حياته الخصبة ـ قلمه الممراع.

وله في مضمار الوطنيّة الصادقة وخدمة وطنه ـ «وحبّ الوطن من الإيمان»[1] ـ نواح كثيرة، أنشأتها يده السخيّة المعطاء، وسعى إليها بنشاط الشباب وطموحهم وحنكة الشيوخ وتجاربهم، ولو لم يكن له في هذا السبيل سوى الصرح العلمي الشموخ ـ الكلّيّة التي بذل قصارى جهده في سبيل إخراجها وإيجادها، فكانت مدرسة الجيل ومشعل العلم والمعرفة ـ لكفاه ذلك فخراً ممّا يجعله في طليعة المجاهدين، وفي الرعيل الأوّل من الوطنيّين الصادقين، الواعين المخلصين.

قرأت الفقيد في ما كتب ونافح عن معتقده ومبدئه فأعجبت به وأكبرته، ورأيت فيه مثالاً للأخلاق الفضلى الكاملة.

وقدّر لي في صيف عام ١٩٥٦، أن أتشرّف بزيارته في داره بصور، وإذا بتلك الأخلاق تنسجم لديّ، وتعرض أمامي بصورة مكبرة، فما كدت ألثم أنامله الكريمة، وإذا به يطبع عليّ قبلةً تحمل كلّ ما في الأبوّة من عطف وحنان، ولم يرض حتّى أجلسني إلى جانبه، وازداد ذلك عندما قرأت عليه صفحات من كتاب سيّدي الوالد رحمه الله، فأبدى إعجابه وتقديره له، وثناءه عليّ وعلى قراءتي، ممّا أخجلني وجعلني في غمرة من الخجل، وودّعته فأتحفني بمثل ما استقبلني به من عطف وحنان، وبقيت تلك الساعات مسجّلةً في لوحة الذكرى، بحيث لا تنالها يد الزمن بالمحو والبلى، ما دام هذا الهيكل يلقي على الأرض ظلاله.

أمّا في ما كتب وجادل فهو إلى جانب ما يمتاز به من الخلق القويم، وما يرسمه من الطريق الأبلج، وما يرفعه من الهدى، إنّه إلى جانب هذا كلّه لذو ضمير واع منصف، وذو عقل حصيف مفكّر، يخدم مبدأً، ويدعو لهدف، يريد الارتواء من نبع الدين، وهو على عذوبة طعم، ورواء منظر لم يتعكّر، ولم يتلوّث.

وناحية في أسلوب فقيدنا لتنال الإعجاب، وتدعو إلى العجب في نفس الوقت،

---

١. سفينة البحار ٤: ٧٠٨، «وطن».

فالعادة أنّ الشخص كلّما طعن في السنّ وسارت به قدماه إلى خريف العمر يضعف منه الأسلوب، فالزمن بظروفه، والعمر في خريفه، والشيخوخة في وهنها الناهك، كلّ هذه أسباب تدعو لهذا الضعف، وعلى الأقلّ فللضعف النسبي إذا قيس إلى أُسلوب الشخص في ريعان الصبا، ونضارة الشباب، ولكنّه على العكس إذا نظرنا إلى أُسلوب الفقيد الكبير فنرى له مواضيع خطّتها يراعته، وبعد أن رسم الزمان تجاعيده على نضارة وجهه ويديه، وفي شيخوخته الناهكة الواهية فنعجب بها ليس من حيث الموضوع وحده والفكرة التي تعالج، بل ومن حيث الأُسلوب الذي يقف في صفّ من يحتفل بالأُسلوب كلّ الاحتفال، ولا تكاد تظنّ أنّ أُسلوباً كهذا خطّه يراع شيخ شارفت دورات عمره إلى التسعين بما فيها من أثقال ومشاق. وإنّ هذا ليس سوى دليل إيمانه بالتطوّر والتقدّم والرقي، ومسايرة الزمن في تقدّمه ومتطلّباته، وليس يحول بينه وبين ذلك شيخوخة واهنة، ولا جسم رازح تحت وطأة الآلام، جسميّةً كانت أو نفسيّةً، فهو ذو هدف، وهو ذو رسالة، فما على جسمه أن يخور

أو يرزح، وما على جسمه أن يتلاشى أو يضمحلّ، وهذا ما لا سبيل إلى وقفه، إذا ما أتمّ رسالته، وإذا ما خدم غايته، وإذا ما دافع عن هدفه، وإذا ما قام بواجبه، وإذا ما دعا إلى سبيله.

قصيدة محمّد حسين المختصر[١]:

أيكـــون ذكـــرك أن يـــقام عـــزاءُ ... وعـــظيم مـــجدك أن يـــقال رثـــاءُ
أن يـــنظم الشـــعراء مـــا اعـــتادوه فـــي ... هـــذا المـــجال لأنّـــهم شـــعراءُ
أو يكـــتب الأُدبـــاء حـــيث جـــهودهم ... فـــي كـــيف يـــظهر حـــسنه الإنشـــاءُ

١. أديب فاضل، وشاعر مبدع، ولد في النجف عام ١٣٤٢، وهو ذكّي الفؤاد، يقظ النفس، نشر في مختلف الصحف المقالات القيّمة، والقصائد الخالدة، ولمع في النجف كأديب له وزنه وقيمته. انتهى عن شعراء الغري ج٨ ص٢٨٧.

والكــون والأفـلاك كـيف تـماسكت فـــيها الحـــياة وســـرّهنّ بـــقاءُ
لكــنّني اســتحييت مــنك لأنّــني أُخـــبرت أنّك بـــالهراء تســـاءُ

* * *

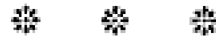
ذكـــراك لا أن نســتعيد قـصائداً تـــلقى ولا أثـــر ولا أصـــداءُ
ذكـراك أضـخم مـن نشـيد عـابر يـــتلى لتـحمل رجـعه الصـحراءُ
ذكـراك أن نـحيا عـلى السـنن التـي فـــيها حـــييت عــقيدة ومـضاءُ
فـــلقد عــرفتك يـوم زلّت أنــفس واســـتسلمت لمـــنافعٍ زعـــماءُ
ولقــد عــرفتك يـوم جُـرّد صـارم وتـــخاذلت مـــن خـــوفها جـبناءُ
ثـبت الجــنان تـقول رأيك واضـحاً كـــالشمس لا هـــمس ولا إيـماءُ
ثــبت الجـنان كـأنّ نـفسك لم يكـن يـــحسابها خـــوف ولا إغـــراءُ

* * *

يـــا راحـــلاً مــلأ الحـياة مـآثراً ومـضى وصـفحة مـجده بـيضاءُ
أُرثـيك حـاشا الفكـر مثلك لم يمت أومـــات فكـــر نـــيّر وضّـــاءُ
أُرثـــيك حـــاشا الفكـر إنّك مـاثل فـــينا وإن بـــعدت بك الغـــبراءُ
لكـــنّني أرثـــي الذيـــن طـوتهم هـــذي الحـياة وهـم بـها أحـياءُ
لكـــنّني أرثـــي الذيــن وجـودهم وســـواه فـــي هـــذا الوجـود سواءُ

* * *

يـــا راحـــلاً أنـــبيك إلّا أنّــني أخشـــى تســـيئك هـــذه الأنـباءُ
إنّ الذي أخـــلصت فـــي إصـلاحه وجـــهدت فـــي أن لا يـطاع نـباءُ
وعملت دهرك مـا استطعت مـحاولاً أن لا يكــــون لخـــاملين فـــناءُ
فـي كـيف يـرتجل الكـلام مـفوّه ليـــــلذّ مـــــنه لســـامعين أداءُ
فـــي كـيف يـظهر شـاعر ليـقال قـد غـــزت النـــديّ قـصيدة عـصماءُ
أكـبرت مـجدك أن يكـون كـغيره كـــلم يـــقال وخـــطبة وثـــناءُ



الشعر أرخص ما عرفت بضاعة ... لمّا يلذّ بشاعر إطراءُ
لمّا يلوح له بأنّ قصيدةً ... تلقى، سيرفع شأنه الإلقاءُ
فيروع يرتجل المكارم مسرفاً ... في خلقها لا يعتريه حياءُ
كم تافه في الناس عاش وذهنه ... وحياته للتافهات وعاءُ
أضحى بفضل الشعر بعد مماته ... علماً تناد بنرأيه الآراءُ
ولعلّ أدنى ما يكون محلّه ... أن لا تنال مقامه الجوزاءُ
أو ظالم ملأ الوجود مآثماً ... ومضى وكلّ حياته أخطاءُ
ويهرول الشعراء في أعقابه ... ويحاك من حلل الثناء رداءُ
الصدق أبعد ما عرفت سجيّةً ... يحيا عليها السادة الشعراءُ



فكرت حين رأيت مجدك ماثلاً ... وعليه من وهج الجهاد سناءُ
وأردت أن أرثيك إلّا أنّني ... قد ثار فيّ تساؤل ونداءُ
هل أسلك الدرب الذي سلك الأُولى ... فيما علمت وأوغلوا ما شاؤوا
فأقول ما للشمس يشرق نورها ... وعلى سناك من التراب غطاءُ
وأقول ماللنجم يضحك في الدجى ... أفلم يكن عند النجوم حياءُ
والزهرة الحمقاء كيف تفتحت ... في حين تفنى الواحة الخضراءُ
ما زال يفتح ساعديه لكلّ من ... يهوى اقتحام مجاله ويشاءُ
الباب مفتوح على مصراعه ... والدار ملء رحابها الضوضاءُ



إنّني وإن بعدت رياح سفينتي ... ومضت يداعب دفّتيها الماءُ
لأكاد أشعر أنّها بمسيرها ... تدنو إليه لأنّه الميناءُ

وأكـــاد أذكـــر حـــين عشت بـــظلّه   زمـــن الشـــباب تـــظلّني أفـــياءُ
أنّ الحـــياة ومـــا تـــزال بكـــنفه   لونـــان: طـــهر صـــادق وريـــاءُ
صـــنفان فـــيه النـــاس: هـذا مـؤمن   حـــقّاً، وذاك مـــلوّن حـــرباءُ
ما زلت أذكـر حـين ينسدل الدجـى   ويـــمدّ مـــنه عـــلى الحـياة رداءُ
ويـــروح فـــيه النـاس مـلء قـلوبهم   دعـــة ومـــلء جـفونهم إغـــفاءُ
تـــلك الوجـــوه وقـد عـلا قسـماتها   خـــوف وضـــجّ عـلى الشـفاه دعـاءُ
يســتصبحون اللـــيل هـــذا ســاجد   فـــيه وذلك ضـــارع بكّـــاءُ
حـــتّى إذا طـلع النـــهار وأشـرقت   فـــيه الحـــياة وأدبـــرت ظـلماءُ
يســـتقبلون نـــهارهم وكـــأنّهم   رســـل عـــلى أعـمالهم اُمـناءُ

ومن قصيدة لعبّاس أبوالطوس[1]:

وهذه الأبيات مذكورة في ترجمته في كتاب البيوتات الأدبيّة في كربلاء ص ٤٤، وقد ذكرها كما يلي:

أمّا عرضه في مناجاته لرثاء أرباب الفكر والعلم والأدب ففيه لوعة وأسى، حافل بأُسلوب سلس، جزل الألفاظ متين التركيب، إليك قوله في رثاء السيّد عبدالحسين شرف‌الدين:

ضـــجّت لمـــصرعك الرهـيب الدارُ   وتـــضرّمت بـــمصابك الأحـــرارُ
وتـــلبّدت فـــوق العـواصـم غـيمةٌ   هـــي للـــفجيعة والأســـى إنـذارُ
وارتـــجّ وادي الرافـــدين كآبـــة   وتـــماسكت بـــقضائه الأقـــدارُ
وانـــهدّ مـــن لبـــنان صـــرح شـامخ   قـــد غـــاب عـــنه الكـوكب النـوّارُ

١. كان شاعراً مبدعاً له مكان مرموق في الوجود الأدبي، ولد في كربلاء سنة ١٣٤٧، وقد حظي برصيد كبير في الثقافة العامّة، فكان علماً من أعلام الأدب البارزين الذين خطّوا بنتاجاتهم القيّمة أروع صفحات من المجد والسؤدد، توفّي سنة ١٣٧٨. انتهى ملخّصاً عن البيوتات الأدبيّة في كربلاء ص٣٧.

وبكت لمصرعك العيون وحقّ لو ... تفدى لك الأرواح والأعمارُ

قصيدة الشيخ عبدالرسول الكفائي:

شريعة أحمد ثكلى على ما ... وتبقى في مآسيها إلى ما
أتثكل كلّ يوم في مصاب ... وتفقد من قواعدها دعاما
ومأتمها يجدّد كلّ آن ... وفي ناديِ الهدى يبقى مقاما
فلا رقأت لها عبرات حزن ... ولا بلّ الزمان لها أواما
فكم غال الردى منها عميداً ... وكم فقدت لها حبراً إماما
ودهياء دهتها في مصاب ... من الإسلام قد جبّ السناما
لوى منها الحمام لواء مجد ... له حفضت بنو العلياء هاما
أُصيبت بالعميد، وهل عميد ... لها من بعده بالدين قاما
قضى «عبدالحسين» الحبر منها ... وكان من الخطوب لها عصاما
به فقد الهدى مصباح رشدٍ ... جلا للمستنيرين الظلاما
فهل عقم الزمان فلا عميد ... يجود به ليكفينا الخصاما
وهل راع سيرعانا بعدل ... وتستسقي به الخلق الغماما

❊ ❊ ❊

ورزء حلّ في فقدان حبر ... وأفجع دوحة «الشرف» الكراما
لقد أودى الردى منها عميدا ... ومن شمل الهدى فلّ النظاما
وقد فجعت ربوع العلم طرّاً ... بشيخ الشرع إذ كان القواما
قضى للفضل والتقوى مثالاً ... وقد فقد الجهاد به حساما
ورزء جلّ قد أوحى لفكري ... شعوراً في الحشا أذكى ضراما
إلى م الدهر يزجي بالرزايا ... يدكّ بها البواذخ والشماما

ويوهن من بناة الدين ركناً ... ركيناً في مواهبه تسامى
فأضحى الدين للأرزاء مرميٌ ... يقاسي حاله خطباً جساما
توسّط محنتين فتلك تذكو ... أسىً في فقد من ذاقوا الحماما
فقد أخلت مغانيه المنايا ... وأخلت منه أحياءاً عظاما
وعاد بفقدهم فينا غريباً ... وأمسى بعد نضرته جهاما
وأمّا المحنة الأُخرى ففيها ... يعاني الدين أحداثاً جساما
يقاسي اليوم هجراً واختلافاً ... وجهلاً وابتداعاً وانقساما

❊ ❊ ❊

طغت في عصرنا موجات شرّ ... أضلّت عن هدايتها الأناما
فذو الفحشاء عدّ تقدميّاً ... غداة بغيه في الفسق هاما
وعدّوا البرّ رجعيّاً إذا ما ... رأوا في الدين أنّ له اعتصاما
أقول لمن يُعدّ تقدميّاً ... وفي غمرات عصر الجهل هاما
أتترك مبدأ الإسلام جهلاً ... وديناً طبّق الدنيا سلاما

❊ ❊ ❊

أقومي من سباتكم أفيقوا ... كفاكم في رقادكم غراما
تلاعبت السياسة واستهانت ... بحقّكم وسامته اهتضاما
إلى م الحال يبقى في اضطرابٍ ... وقد ضربت كوارثه خياما
أنبقى راضخين لأجنبيٍّ ... علينا حكمه بالظلم داما
«أرى خلل الرماد وميض جمر» ... ويوشك أن نرى منها ضراما

❊ ❊ ❊

ألا يا داعي الإصلاح هيّا ... فحقّق للورى فيك المراما
فيوم الجدّ هذا اليوم فاعمل ... ودع عنك الأماني والكلاما

فما الإصلاح إلّا في جهاد ... يزيل بنوره عنّا الظلاما
وقل للمسلمين كفى اختلافاً ... فهيّا وانشدوا اليوم الوئاما
لعلّ نعيد للإسلام مجداً ... على الجوزاء قبلاً قد تسامى
بأيدينا وأدناه لأنّا ... منعناه اتّحاداً وانسجاما
ولم نحفل بأهل العلم يوماً ... ولم نبذل لجهدهم احتراما
ولكنّا إذا فقدوا ترانا ... نسحُّ لفقدهم دمعاً سجاما
فكم أودى الردى بعمادِ فضل ... أطاح به من العليا دعاما
تقحّم عارماً فاجتاح طوداً ... ومن شأن الردى كان العراما
فأودى الحجّة الكبرى وأدمى ... [فؤاد] الدين مجترحاً أثاما
ومرّ يغيض في رهج المنايا ... خضماً في معارفه إماما
سرت منه الحياة ضياء شمس ... على الدنيا بها يحيي الأناما
قضى من بعد ما غرس المزايا ... وأحكم في صيانتها الذماما
سقى الله الحسين بغيث فضل ... من الرضوان منسكباً دواما

قصيدة الشيخ سلمان الأنباري[1]:

يا أُمّة في مزاياها على الأُممِ ... تقدّمت وهي ذات المجد في القدمِ
لها الفتوحات في الإسلام شاهدة ... على تقدّمها بالعزم والهممِ
وفي الحضارة فاقت كلّ حاضرة ... وطاولت كلّ من يمشي على قدمِ
سادت فشادت صروحاً من سيادتها ... على السماك تسامت لا على القممِ
وفي الثريّا بنت من مجدها خيماً ... والمجد والعزّ والعلياء في الخيمِ
سلوا الأكاسر عنها فهي تخبركم ... عن فضلها وأياديها على الأُممِ

---

١. لم نتمكّن من معرفة أحواله.

نشر العدالة أقصى ما تحاوله ... بين الشعوب وبين العرب و العجمِ
وفي العدالة كلّما رغبت ... فيه وفيها غدت خفّاقة العلمِ
وفي العدالة للحكّام تزكية ... وفي العدالة صون الحكم والنظمِ
فأُمّة عمّت الدنيا حضارتها ... وعن مبادئها والدين لم تنمِ
ندبته بالقوافي الشاردات كما ... بكيت في أدمع ممزوجة بدمِ
أبّنته بشعوري إذ نظمت به ... وقفت محترماً تأبين محترمِ
أبا الرضا لا أرى إلّاك معتصماً ... لأُمّة أصبحت في غير معتصمِ
ضاعت مقاييسها وانهار محتدها ... فلا تفرّق بين الشاء والبهمِ
قم من ضريحك واشحذ في يمينك ما ... فيه تصول على الهنديّة الخذمِ
ذاك اليراع الذي قرضته علناً ... السيف نال المنى في خدمة القلمِ
يا واحداً لا أرى نداً له أبداً ... لئن تغيّر قولي فيه فضّ فمي
أبكي عليه كما تبكي الفصون دماً ... و الاجتهاد بنصّ واضح الحكمِ
والله يعلم أنّي لم أقل شططاً ... ولا أبالغ لا والله في كلمي
لقد فقدناه فقدان اليتيم أباً ... برّاً عطوفاً غيوراً واصل الرحمِ
لو كان يفدى فديناه بطائفة ... وجودها بين هذا الجيل كالعدمِ
جيل تعلّم حتّى صار ينظرها ... بعينه نظر السرحان للغنمِ
لأنّه لا يرى فيها سوى صور ... تسير عاريةً إلّا من السقمِ
كلامهم كطنين البقّ إن نطقوا ... كلامهمغير موزون ومنتظمِ
رحماك ربّاه هل تبكي السماء دماً ... عليهم مثلما تبكي على العلمِ
فإنّه خدم الإسلام عن ثقة ... وإنّهم لبني الدنيا من الخدمِ
وإنّه عبقري في معارفه ... مناضل بسلاح العزم والهممِ
وإنّه الجهبذ الفذ الذي اعترفت ... بفضله فضلاء العرب والعجمِ

لبنان صبراً وإن جلّت رزيّته   فأذهلت ساكن البطحاء والحرمِ
وأُمّة للهدى والدين مرشدها   «عبدالحسين» أمير الطرس والقلمِ
وأُمّة علم الأعلام رائدها   فحقّها غير مغصوب ومهتضمِ
فلا تلين ولا تعطي قيادتها   إلّا لمنقذها من دامس الظلمِ
أبا الرضا ومنار المسلمين ومن   فيه اقتدى كلّ من يسعى إلى الحرمِ
إذا تكلّم بذّ القائلين وفي   حلّ العويص تراه مرجع الكلمِ
ومن رآه بيوميه رأى رجلاً   عن نصرة الحقّ في يوميه لم ينمِ
فأُمّة هو هاديها ومرشدها   من الجدير بأن تسمو على الأُممِ
من الغريب بأن يمسي الغريب بها   مخدومها وابنها من سائر الخدمِ
من الغريب بأنّ الغرب ينظرها   في عين مستعمر للشرق منتقمِ
من الغريب بأن تمسي مضيّعةً   كأنّها لم تسد بالسيف والقلمِ
السرّ في فقد ما كانت ممتّعةً   فيه من المجد والعلياء والشممِ
فقدانها سيّداً علّامةً ورعاً   أعظم به من فقيد عالم فهمِ
كانت به أُمّة الهادي مكرّمةً   لأنّه مصدر المعروف والكرمِ
قد سار في أُمّة الهادي على سنن   إلى المعارف والأخلاق والحكمِ
لأنّه سيّد والله سوّده   بالعلم والحلم والعرفان والشيمِ
حتّى غدت أُمّة فيه مقدّسة   يردّد المدح فيها كلّ ذي كلمِ
فلا تسوّد فيها غير ذي شرف   حرّ أبيّ غيور ثابت القدمِ
تمشي الهوينا دلالاً وهي واثقة   في أنّها تبع للعيلم العلمِ
وإنّها أُمّة تحمي سيادتها   في ظلّ خير محامٍ دونها وحمي
أبا الرضا لا عدمناه ولا انقطعت   عنّا نصائحه في الفعل والكلمِ
طأ بفيك الثرى يا عاذلي فأنا   حرّ الضمير وحرّ الفكر والقلمِ

فـيه تـظمت الذي يـرضى النـبيل بـه		فـاعذر عـراك النـهى إن شئت أو فـلُمِ
هـذا قـريضي فـيه غـير مـتَّبع		«أمـن تـذكر جـيران بـذي سـلم»
أمّـا العـراق فـقد قـامت قـيامته		يـبكيه فـي مـدمع كـالغيث مـنسجمِ
عـلى الرؤوس تـراهـم حـامليه ولا		تـرى سـوى كـبد حـرّى مـن الألمِ
فكـلّهم صـادق والكـلّ يـندبه		والكـلّ مـنهم مـعزّىً فـي فـقيدهمِ
لولا الرضـا بـقضاء الله لانـفجرت		قـلوبهم كـبراكـين مـن الحـممِ
يـا عـظّم الله أجـر المسـلمين بـه		وخـلّد الله ذكـر العـيلم العـلمِ

وقال الأنباري أيضاً هذا التأريخ:

قـضى عـبدالحسـين وحـلّ ضـيفاً		عـلى صـنو النـبيّ أبـي شـبيرِ
لهـذا قـلت قـولاً يـرتضيه		فـأرّخ قـد سـما ضـيف الأمـيرِ

هذه مختارات من تآبينه ومراثيه التي أمكن لنا جمعها ووصلت إلى أيدينا.

عقب الإمام شرف الدين

أعقب ﷺ سبعة من الأبناء:

أوّلهم: العلّامة الكبير السيّد محمّد عليّ ﷺ

ولنلخّص ترجمته عن الكراس الذي صدر عن لجنة الاحتفال الذي أُقيم لتأبينه في صور في اليوم السابع من وفاته، وهي ما يلي:

ولد ليلة ١٧ من رجب سنة ١٣١٧ في النجف الأشرف، المهجر العلمي لآية الله والده. وكانت مخائله منذ فجره تدلّ منه على عبقريّة، وتشير فيه إلى تفوّق، فقد كان صباه حافلاً بمظاهر من النشاط العقلي يؤكّد رجولة الصبيّ الطالع، ويلفّ حوله الأصدقاء والمعجبين.

درس على أبيه العلوم العربيّة، فكان المثل في النضج والهضم والعمق والدقّة والاعتدال، وممّا يذكر في هذا الصدد: أنّ تحصيله الأوّل هذا لفت نظر الطلبة والأساتذة يوم اتّصل بهم في أوساط الكاظميّة والنجف العلميّة العليا، على أنّ موهبته العلميّة التي نصف لم تضعف من مواهبه العمليّة، بل كانت تصقل كفاءاته المختلفة التي تؤلّف شخصيّةً قويّةً، أعمدتها الحرّيّة والخير والذكاء والطموح.

ففي صباه نجد إلى جانب ثقافته العربيّة مشاركة في الأحداث السياسيّة، مستندةً إلى تفكير عقائدي إصلاحي وفق ما تتطلّبه تلك الفترة، بقدر ما يسمح به ذلك العهد.

ثمّ نجد إنّه عالى التجارة؛ كي يستجدّ الثروة التي تمهّد له أسباب العمل.

هذه جملة ما شغل به خلال خمس عشرة سنة لم تغفل منه سوى الإشارة إلى أنّه اشتغل في التعليم؛ إذ عيّن مدرّساً رسميّاً في العهد التركي.

وفي ربيع الأوّل سنة ١٣٢٧ هاجر إلى العراق لطلب العلم بسبعين ليرة ذهبيّة كان وفّرها من تجارته.

وكأنّه كان والأحداث المبدعة على موعد؛ إذ التهبت ثورة العشرين في العراق، وكان من أعلامها سماحة الصدر، بل كان علم أعلامها في وادي دجلة.

وإذا علمنا قربى الفقيد من سماحة الزعيم نسباً وعقيدةً انكشفت هذه المرحلة عن صفحة غنيّة من حياة الفقيد العزيز، نقرأ فيها تمرّسه بالثورة تمرّساً ينمي نزعته الإصلاحيّة ويغذي طموحه.

فقد كان يرافق سماحة الصدر إلى تلك المهرجانات الشعبيّة التي يعرفها تأريخ بغداد الحديث، وما كان أثرها ضعيفاً في نفس الشابّ الوثّابة، وحسّه المرهف، بل كان تفجيراً لطاقته، وإذكاءً لعزائمه.

وبينما كانت هذه التجارب تبلور نظرته إلى الحياة، كانت معاناته للدرس تشحذ ذهنه، وتدفعه دفعاً سريعاً قويّاً نحو الغاية، وفي ثلاث عشرة سنة منذ وروده العراق أحرز تقدّماً باهراً في الناحيتين العلميّة والاجتماعيّة.

أمّا في الأولى فقد رفعه فضله منها إلى عداد النخبة من الأعلام، والصفوة من المفكّرين بشهادة أساتذته، ونذكر منهم الأقطاب كالسيّد حيدر الصدر، والشيخ مرتضى آل ياسين، والشيخ محمّد عليّ الخراساني، ثمّ الميرزا حسين النائيني، والسيّد أبو الحسن الأصفهاني، والشيخ محمّد رضا آل ياسين، والشيخ ضياء الدين العراقي.

وتشهد قبل ذلك بفضله آثاره. فله كتابان في أبي طالب شيخ الأبطح، وابنه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وله ديوان شعر في مختلف الأغراض، وأهمّها الاجتماعيّة،

وهو فيها جميعاً منظّم الفكر، واضح العبارة، مترف الذوق، صحيح المنهج، أبعد شيء عن الفضول والسطحيّة.

هذا عدا المقالات والأبحاث المختلفة، وقد مزّق آثاره المخطوطة، ولم يبق إلّا المطبوع، وهو شيخ الأبطح، والمقالات المنشورة في مختلف المجلّات.

ونقّاد شيخ الأبطح يجمعون على وصفه بأنّه خير الكتب في موضوعه وعلى أنّه خير ما يكتب في الدراسات التأريخيّة.

وأمّا في الناحية الاجتماعيّة فقد رفعته مواهبه إلى القمّة، ولطالما استشرفه الناس في عليائه كما يستشرفون النجم، ولعلّه أوّل لبناني يهزّ النجف، ويرجّ السياسة العربيّة، بمثل موقفه من حوادث البقيع، وموقفه في حادث الحصّان[1] وغيرها من الأحداث العامّة ما بين عامي ٢٨م و٣٣م، وإذا قلنا: النجف هزّها، فإنّما نرمز إلى عظمة تتّفق إلّا للأقلّين من أفذاذ العباقرة، فالنجف عاصمة من أضخم عواصم الفكر في الشرق؛ لذلك لا يهزّها إلّا الأوحدي الأوحدي!...

وممّا تجدر الإشارة إليه: أنّ قادة الرأي في النجف الأشرف، ارتأوا آنذاك تأليف مجلس أعلى، يشرف على الأحداث الكبرى وتنظّم موقف النجف إزاء كلّ منها، بخطّة تنسجم وضخامة النجف؛ إذ كانت ولا تزال وستظلّ مركز الثقل في العالم الإسلامي، باعتبارها موجّهةً لعشرات الملايين من طبقات الشعوب الشرقيّة، واختير يومئذٍ عضواً لهذا المجلس، فكان واسطة عقده، وفي المجلس من الزعماء وأقطاب الرأي، مثل الشيخ جواد الجواهري[2]، والشيخ عبدالكريم الجزائري[3]،

---

١. هو عبدالرزّاق بن رشيد بن حميد الحصّان البغدادي الكرخي، مؤرّخ للقوميّة العربيّة، ولد سنه ١٣١٢، وعيّن في مكتبة الأوقاف ببغداد، وله عدّة مؤلّفات، توفّي في الكويت سنة ١٣٨٤. انتهى عن الأعلام ج ٣ ص ٣٥٢.

٢. هو لسان النجف الناطق، وساعدها القويّ، وقلبها النابض، كان له عند ولاة الأُمور المكان الرفيع، وأمّا عند العلماء فهو الباب، ومنه إليهم كان يؤتى، كان ديوانه مهبط ذوي الحاجات والملمّات، توفّي سنة ١٣٥٥. انتهى ملخّصاً عن ماضي النجف وحاضرها ج ٢ ص ١٠١.

٣. راجع ترجمته ماضي النجف وحاضرها ٢: ٨٦، الرقم ٩.

والشيخ عبدالرضا آل الشيخ راضي[١]، والسيّد محمّد علي بحر العلوم[٢]، وإن كان لابدّ من الاستشهاد برأي كبير من مفكّري العصر وعباقرته؛ فإنّ المغفور له الملك فيصل الأوّل، والسيّد محمّد الصدر، ومن ذكرنا من الأعلام كانوا جميعاً شديدي الإعجاب بالفقيد، عظيمي الاطمئنان إليه.

هكذا عهد الناس به قبل عشرين عاماً، قوّةً في الشخصيّة، وبعداً في الهمّة، ونفاذاً في الرأي، وجلالةً في القدر، الأمر الذي دعا والده إلى الاستعداد لاستقدامه لبلادنا في مقامه، ولكنّه ـ يا للفجيعة ـ كبا به الفرس، وعثر تحت قدمه الدهر، فكانت خسارة أبيه ـ وأبوه عزاء الأُمّة عن كلّ فادح ـ وخسارة البلاد عظيمة فادحة.

كان عالمه عالماً خيّراً طاهراً مثاليّاً، سلاحه الصراحة والإيمان والشجاعة، وكان واقع الحياة واقعاً شريراً دنساً ماديّاً، سلاحه الخداع والنفاق والدسائس، وكان يريد لعالمه أن ينتصر في المعركة، فخرّ صريعها، وتوارى في عزلة صوفيّة شهيد فكرته النبويّة، غير أنّه ظلّ عشرين عاماً قبل موت جسده، يعاني آلام الجراح في تمرّد وعنفوانيّة وجبروت، وظلّ يكافح في مكانه من المعركة.

هذا هو السيّد محمّد عليّ، الذي غاب عنّا عشرين عاماً ثمّ أطلّ علينا من القبر، سماء القبر في حياته الجديدة، إطلالة ضوء من التأريخ. انتهى.

وللعلّامة السيّد محمّد صادق بحر العلوم[٣] كلمة عن كتاب شيخ الأبطح وذلك في

---

١. كان من رجال العلم والأدب والوطنيّة، والأخلاق والصلاح، ولد في النجف سنة ١٢٩٨، وقد سطع نجمه في الأوساط العلميّة وأُشير إليه بالفضل والكمال، جاهد المستعمرين في جبهة المنتفك، فكان قطب المجاهدين، تدور عليه رحى قوّادها، وفي القضيّة العراقيّة كان ركناً من أركانها، ومحوراً لآرائها، توفّي سنة ١٣٥٦، انتهى ملخّصاً عن نقباء البشر [٣: ١١٢٣، الرقم ١٦٣٤] وماضي النجف وحاضرها [٢: ٢٩٧، الرقم ٥].

٢. هو أحد أعيان العلم، ومن زعماء النجف، وقادة الرأي فيها، ولد سنة ١٢٨٧، وله مواقف وطنيّة مشرقة في الثورة العراقيّة، توفّي سنة ١٣٥٥.

٣. شخصيّة علميّة فذّة، اجتهدت خلال حياتها الروحيّة أن تقوم وتسدّ كثيراً من الشواغر في عالم الآثار والنشر، ولد سنة ١٣١٥، وهو شاعر رقيق، وكاتب باحث، وإنسان مرن الطبع، يقظ النفس، خفيف الروح، له مؤلّفات وتعليقات، انتهى ملخّصاً عن شعراء الغريّ ج٩ ص٢٠٦.

مقالة له نشرها في آخر كتاب الحجّة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب للسيّد فخّار بن معد الموسوي[١]، فقد ذكر فيها أسماء الكتب المؤلّفة عن إيمان أبي طالب، فقال في ص١٢٨، عن شيخ الأبطح ما لفظه:

هذا الكتاب خير كتاب ألّف في هذا الموضوع، حلّل نفسيّة شيخ الأبطح أبي طالبعليه السلام، وبيّن ما له من الفضل، وكبير القدر في جميع أدوار حياته، وبحقّ ظهر للوجود وحيداً في بابه، تأريخيّاً فلسفيّاً علميّاً جيّد التبويب والترتيب، مفرغاً في قالب بديع متين، وأسلوب جذّاب، وألفاظ قويّة بليغة، أثبت إيمان أبي طالبعليه السلام وإسلامه بأدلّة قطعت الخصام، وبراهين سطعت فأماطت عن وجه الحقيقة سترة الظلام؛ ولذا لم يمض على طبعه أكثر من شهر واحد حتّى انتشر في الأقطار الإسلاميّة جمعاء، وبعد مضيّ خمسة أشهر من تأريخ طبعة ترجمه في لكهنوء إحدى حواضر الهند الكبرى، العالم الفاضل السيّد ظفر مهدي إلى اللغة الهنديّة «الأورديّة»، ونشره بتلك اللغة أيضاً أوّلاً في الجزء ٨ و٩ و١٠ من المجلّد الخامس من مجلّة سهيل يمن، ثمّ طبعه ثانياً مستقلاً، وتقديراً لجهود مؤلّفه الجليل أتيت بكلمتي هذه: كما قدّر جهوده قبلي جمهور من الأماثل، فقد اطّلعت على الكتب التي جاءت للمؤلّف من الأقطار في إطراء كتابه، وهي كثيرة، وفيها التقاريظ القيّمة من العلماء الأعلام، ومن ملوك الإسلام، منهم من آتاه الله من

١. كتابه هذا هو الذي قرّظه ابن أبي الحديد بأبياته المشهورة:

ولولا أبو طالب وابنه ... لما مثل الدين شخصاً فقاما
فذاك بمكّة آوى وحامى ... وهذا بيثرب جسّ الحماما
تكفّل عبد مناف بأمر ... وأودى فكان عليّ تماما
فقل في ثبير مضى بعد ما ... قضى ما قضاه وأبقى شماما
فللّه ذا فاتحاً للهدى ... ولله ذا للمعالي ختاما
وما ضرّ مجد أبي طالب ... جهول لغا أو بصير تعامى
كما لا يضرّ إياة الصبا ... ح من ظنّ ضوء النهار الظلاما

وقد ترجمه في أمل الآمل [٢: ٢١٤، الرقم ٦٤٦] فقال: كان عالماً فاضلاً أديباً محدّثاً.

فضله العلم والملك، وجمع له بين السلطتين: الدينيّة والزمنيّة، عاهل اليمن الإمام يحيى[1] خلّد اللّه ملكه، أمّا تقاريظ الصحف في العراق وسوريّا ومصر فقد كانت حافلةً بالشكر والثناء والمدح والإطراء، كثّر اللّه في رجال العلم والعمل أمثال السيّد المؤلّف، ولا حرم العالم الإسلامي من ثمرات جهوده، وجزاه عن جدّه أبي طالب، وعن الحقيقة خير جزاء المحسنين. انتهى.

وأمّا تقريظ الإمام يحيى فهو ما يلي:

حضرة العلّامة الفاضل، الهمام الأوحد الحلاحل، السيّد محمّدعليّ شرف‌الدين الموسوي العاملي، حرسه اللّه تعالى، وأدام نعمه عليه ووالى، والسلام عليه ورحمة اللّه وبركاته.

أيّها الفاضل، وردت إلينا هديّتك النفيسة ملفوفاً بها محرّرك اللطيف، فزفّا إلينا من نفسك ما استظرفناه، ومن نفيس التأليف ما استملحناه، فموضوع التصنيف جليل، والبحث فيه بالنقد والتحليل أبرز في قالب جميل، فنحن بعد الدعاء لك واستمداد مضاعفة المثوبة نهنّيك بما أُوتيت من لهجة تحرّت مواطن الصدق فولجتها، وفكرة أعملت مطايا بحثها إلى موارد الإصابة فوردتها شافيةً للغلّة، ومزيحةً للعلّة، وتنزّهت في رياض التحقيق، فجنّت يانع الثمر، وتمتّعت بجمال المنظر، وجميل النظر، وها نحن قد قابلنا تلك الهديّة الجميلة بالقبول شاكرين لك ما قدّمت، وبه أحسنت. ولا زلت محروس الجناب، والسلام عليك.

حرّر في ١٧ ذي القعدة سنة ١٣٥٠

---

١. هو يحيى بن محمّد بن يحيى حميد الدين الحسني، ولد بصنعاء سنة ١٢٨٦، وولي الإمامة بعد أبيه سنة ١٣٢٢، وحارب الترك وحاصرهم في صنعاء، ثمّ وقع الصلح بينهما وجلا الترك عن اليمن، وخلص له الملك، وطالت أيّامه، وهو كلّ شيء في اليمن، ومرجع كلّ أمر دقّ أو جلّ، وما عداه أشباح وشخوص آثر العزلة والانكماش في حدود بلاده، وله اشتغال بالأدب ونظم كثير، ضاقت صدور بعض بنيه وخاصّته، وفيهم الطامع بالعرش، وعلى رأس هؤلاء أقرب الناس إليه، عبداللّه بن أحمد المعروف بابن الوزير، وخرج ولده إبراهيم عن طاعته فـفاجأه بعض صنائعهم وهو في سيّارته خارج صنعاء، فقتلوه سنة ١٣٦٧. انتهى ملخّصاً عن الأعلام [٨: ١٧٠ ـ ١٧١] ج ٩ ص ٢١٥.

توفّي عليه الرحمة والرضوان في ١٥ شعبان سنة ١٣٧٢، وشيّع تشييعاً ضخماً من جميع طبقات الشعب، ودفن بجنب جدّته ـ عليها الرحمة ـ وأُقيم له في صور مجلس أُسبوعي ضخم جدّاً، وأُلقي فيه الكثير من الخطب العالية، والقصائد الجيّدة، معربة عن مكانته وشخصيّته ومآثره، وقد فقدت مع الأسف ولم يبق منها شيء لندوته.

كما أُقيم له في العراق عدّة فواتح مهمّةٌ من قبل العلماء الأعلام، تغمّده اللّه برحمته.

أعقب أربعة أولاد، هم[1]:

[أوّلهم:] **السيّد عبدالرؤف**، ولد في مستهلّ ربيع الأوّل سنة ١٣٤٢، وتوفّي في ٢ ربيع الثاني سنة ١٣٥٧، وهو أعزب.

[ثانيهم:] **السيّد حسن** ولد في ٢٧ جمادي الثانية سنة ١٣٤٤، وهو من رجال الشهامة والنخوة، درس أوّلاً في صور، ثمّ بغداد، وحاز على شهادة «ماجستير» في الأدب العربي من جامعة نيودلهي، وقد تعيّن سكرتيراً أوّلاً في وزارة الخارجيّة من قبل الحكومة العراقيّة في عدّة دول، فكان ممدوح السيرة في كلّ مكان دخله، وقد أعقب عدّة بنات[2].

[ثالثهم:] **السيّد حسين**، ولد في شوّال سنة ١٣٤٧، وهو أديب ناضج، حسن الأُسلوب، جيّد القلم، حائز على شهادة «ماجستير» في الأدب الفارسي من جامعة طهران، ومن صفاته الجرأة والإقدام وقوّة الشكيمة، له مواقف وطنيّة في عدّة ظروف، وقد تولّى عدّة مهامّ تنظيميّة، منها أمين عامّ المقاومة الشعبيّة في صور ومنطقتها، ومسؤولها الأمني عام ١٣٧٧ و ١٩٥٨، أيّام الثورة ضدّ رئاسة كميل شمعون، ممّا جعله يتعرّض طويلاً للملاحقة والتعذيب والسجن في المحاكم العسكريّة.

وكان في فترة الاحتلال الإسرائيلي لجبل عامل عضواً في المكتب السياسي لحركة أمل، وكان عرضة للملاحقة.

---

١. أُمّهم كريمة المرحوم سعيد الحاجّ يوسف حلاوة، المتوفّى سنة ١٣٥٨، وكان من الوجهاء المعروفين في صور.

٢. أُمّهنّ كريمة عمّه السيّد محمّد جواد.

مارس التعليم منذ سنة ١٣٦٧، ثمّ النظارة والإدارة في الثانويّة الجعفريّة منذ سنة ١٣٧٣، وهو الآن رئيس مجلس إدارة مدارس الثانويّة الجعفريّة، والمسؤول الثقافي والتربوي في الجمعيّة الخيريّة الجعفريّة، وجمعيّة مؤسّسات الإمام الصدر، ومدير شركة المياه في صور.

له مؤلّفات وبحوث وتحقيقات وهي:

١. تجربة تعليم اللغة العربيّة للإيرانيّين، دراسة وتطبيقات.

٢. المفردات العربيّة في اللغة الفارسيّة، ٤٥٠٠ كلمة مرتّبةً قاموسيّاً باللغتين العربيّة والفارسيّة.

٣. رجال عاهدوا الله، دراسة لسيرة علمائنا المجاهدين.

٤. تحقيق وتنقيح لجواهر الحكم ونفائس الكلم، للشيخ محمّد مغنية، تنشر تباعاً في مجلّة أمل.

٥. الحياة الثقافيّة في صور منذ ٢٥٠ سنة، قيد الإعداد.

٦. علماؤنا الأدباء، نشر منها اثنان وعشرون حلقةً موجزاً في مجلّة أمل.

٧. دراسة حول الحياة الحزبيّة في بلادنا خلال نصف قرن (١٨٧٠ ـ ١٩٢٠).

٨. مقالات وأبحاث ومحاضرات في ندوات، إلى جانب دراسات في موضوعات مختلفة.

وقد أسّس منذ فترة ندوة أدبيّة تعقد في بيته مساء يوم السبت من كلّ أسبوع، تجري فيها المساجلات الشعريّة والطرف الادبيّة، والبحوث حول أنواع الفنون الأدبيّة، واللغويّة، وقد وصف هذه الندوة المهندس غازي قهوجي[١]، ونقتطف من ذلك ما يلي:

ومنذ خروج صور من عمقها الجغرافي إلى ظاهر الرمل نسيت أن تحمل معها ما

---

١. أديب كاتب، جيّد القلم، ذو طبع لطيف، وروح مرحة. قلّ ما يرى مثله في الظرف، وأنس المجالسة وحلاوة النكتة.

كان يقال في بيوتاتها، وما كان ينشد في إحيائها بعد أن أكلت بيوتها آثار الفينيقيّين واليونان والرومان والبيزنطيّين وغيرهم، فخرجنا من المدينة بسقط المتاع تاركين بين أعمدة الرخام والمقابر قصص البحر، ووهم الأُسطورة، ومعجن الخبز، وقنديل الكاز، وأهملنا ضوء القمر مرميّاً على بقايا النواويس الحجريّة.

وتغوص بشغف حلقة الانتظار بين يباس الزهر والخضر وانعدام الشجر، فالأسمنت يحكم المدينة ويلتهم الشوارع والجنائن الصغيرة باسم العمران وحضارة الطوابق.

تهرب من الخارج إلى الداخل؛ لتنسى، لتعوّض، لتتنفّس. فالانتظار من الداخل له بعد آخر، ومذاق آخر.

هكذا في دارة الأُستاذ حسين شرف‌الدين، حيث ندوة السبت من الأمسيّات العامليّة.

تدخل تجلس كما اتّفق على كرسي كنبة، أو على سجّاد ليأتيك الشاي مثنى وثلاث، وأنت تطرب للشعر وبوح الخواطر، فيأخذك الحلم إلى القمح وماء الورد. وما أجمل أن تكون ندوة في بيت تعرف فيها كلّ الحاضرين من أصدقاء، طفولةً وصباً، أو تتعرّف على وجوه سمعت عنها، فهناك زملاء صفّ المدرسة القدامى، وأساتذة تعلّمت عليهم، وتلامذة علّمتهم، وبينك وبينهم زمن الوداد يستعاد على مستوى آخر، ولكن بحبّ أكبر.

هذا اللقاء الدوري العفوي النظيف يجعلك تسترجع نهراً كنت تظنّ أنّه مرّ في وادي الجفاف، حضرت تلك الأمسيات العامليّة مرّات عديدة، ورأيت التربة النائمة على الصخر ما زالت تبهر ويورق فيها برق الوجه الثاني نازعاً عنك تهمة التخلّف الملاحقين بها، عبر عمر طويل بعد أن أصبحت وشماً بين العينين.

هذا التواصل الذي افتقدناه طويلاً، أو غيّبناه أمام ضيق العيش والمساحة والظلم المزمن، والقبضات المعدنيّة.

فالأمسيات هذه ردّت شيئاً من الانتماء الشامل، وأسقطت التصنيفات الضيّقة

حين أحسّت بأنّ بيوت المدينة تقول مازرع فيها من رؤى كلّيّةٌ عبر من مرّ بها وترك نبتةً، أو من سكنها وحضن حبّة رمل على شاطئها.انتهى.

له أربعة أولاد[1] يملأون العين خلقاً وأدباً وفطنةً. وهم: رائد ولد في ٢٦ ذي الحجّة سنة ١٣٨٢، وهو الآن في إحدى جامعات أميركا، يتخصّص في فرع إدارة الأعمال، وله الآن ابنتان. والثاني: لؤي ولد في ١٨ جمادي الأُولى سنة ١٣٨٤، وهو يتخصّص بدراسة عدّة لغات أُروبيّة في إحدى جامعات أميركا أيضاً. والثالث: قصيّ ولد في ١٦ ربيع الثاني سنة ١٣٨٨، وهو يدرس الهندسة الزراعيّة في الجامعة الأميركيّة في بيروت. والرابع: نجاد ولد في ٢٦ رمضان سنة ١٣٩٣.

رابعهم: السيّد محسن، ولد في مستهلّ شعبان سنة ١٣٥٣، وهو كامل أديب، وشاعر مجيد، وشعره قويّ الانسجام، حسن السبك، جزل اللفظ، جيّد المعنى.

وهو حائز على شهادة «الليسانس» في الأدب العربي من جامعة بيروت العربيّة، ولنذكر نموذجاً من شعره الذي يصوّر شاعريّته، فمنه قوله تحت عنوان: هتاف السماء:

ذاك ليل كجبهة الصبح أنورْ ليس فيه سوى البشائر تنشرْ
وحداء من السماوات يهدرْ وابنة الأُسد فاطم تتضوّرْ
في ذرى الكعبة الشريفة ترأرْ ليس من كان في الدنا يتصوّرْ
أنّ في البيت للولادة منبرْ ميزة للوليد في الدهر تذكرْ
ووسام من السماء تحدّرْ هكذا الله قد أراد وقدّرْ
وهتاف السماء: الله أكبرْ هلّلوا سبّحوا سيولد حيدرْ

❊ ❊ ❊

ثمّ شبّ الغلام في حضن أحمدْ فإذا جبرئيل بالنور تنهدْ
وارتوى وحياً على شفتي محمّدْ أنذر الأرحام في الأهل وأرشدْ

---

١. أُمّهم السيّدة رباب الصدر.

غـــير أنّ الأهـــلين لاه ومـلحدٌ ... مـا عـدا ذاك الفتى ما كـان يعبدْ
هُـبلاً أو ذات عـزّىً دون أوحـدْ ... ضـارعاً.. قـال فـي يـديك مهنّدْ
صارم ما حييت يا ربّ فاشهدْ

❊ ❊ ❊

فــأجاب النـبيّ: الله أكـبرْ ... مـن يـطعني خـليفتي قـد تـقرّرْ
هكــذا الله قــد أراد وقــدّرْ ... أن يكـون الأمـير بـعدي حـيدرْ

❊ ❊ ❊

وأطــلّ الإســلام فـجراً نـديّا ... يــخضب الدنــيا إبــاً هــاشميّا
ليس فـي الإسـلام عـبداً أو عـتيّا ... قــرشيّاً أو كــان عـبداً حـبشيّا
لا وعــزّى لن نـمكّنه قـويّا ... أجـمعوا أمـرهم يـخفون شـيئا
وعـلى الرحـمن لا شـيئاً خـفيّا ... فـعليّ نـام مـبتسم المحـيّا
إنّه بمبيته يفدي النبيّا

❊ ❊ ❊

ثـمّ جـاؤوا والكـلّ جـمر تسعّرْ ... وسـيوف بكـفّهم ليس تـقهرْ
ثــمّ زيــح الغـطاء: الله أكـبرْ ... لا مـفرّاً والمـوت فـي كـفّ حـيدرْ

❊ ❊ ❊

أيّ غـيث وأوّل الغـيث قـطرُ ... دافــق والطــلّ أُحــد وبــدرُ
هـل سـواك البـتار والفـتك بكـرُ ... والســرايــا عـلى النـبيّ تكـرُّ
وعــنان السـماء هــدر وزأرُ ... لا حـمى إلّاك فـالصحب فـرّوا
لاذ بـعض بـالبعض فـالقلب ذعـرُ ... وابـنة الهـند فـي أكـفك جـمرُ
والمنايا بحدّها تستقرُّ

❊ ❊ ❊

ثـــمّ ثـمّ النـصر والفـتح المـظفّرْ هكـــــذا الله قـــد أراد وقـــدّرْ
وهـــــتاف الســــماء: الله أكـــبرْ ذو الفـقار المـجد فـي قـبضة حـيدرْ

إلى آخر القصيدة.

وله تحت عنوان «غريبان»:

ـ إنّي غريب يا جميلة هاهنا
ـ وأنا غريبهْ
ـ هلّا سمعت ببلدتي أنا بنت شيراز الحبيبهْ
ـ إنّي لألمح ذاك في العينين والشفة اللعوبهْ
ـ أترى بعيني غربتي...؟
ـ بل ألمح البلد الرطيبهْ
إنّي أرى الأطيار جذلى في حدائقها طروبهْ
وأرى الزهور مكدّسات بالشذى فرشت دروبهْ
وأرى الجنان مبعثرات فالدروب رؤىً عجيبهْ
والوالهات من الفراشات التي رشفت طيوبهْ
متعانقات أينما كانت حبيب مع حبيبهْ
والفجر في شيراز يقطن مذ تحرّيتم غروبهْ
مرّ الربيع ولم يبارحها وقد سلبته طيبهْ
وعن الخمور فما أُحدّث عن دواليها الخصيبهْ
ونبيذها في الروح قبل العقل قد ألقى دبيبهْ
ـ يا بنت شيراز أما لمتيّم يأسو ندوبهْ
فتبسّمت وانثالت الأضواء رشات غريبه
ورمت بزخّات الشموس تعالج الروح الكئيبهْ

وتدحرجت من مرشفيها كلمة جذلى طروبهْ
ـ ومتى ذهبت لبلدتي وغرقت في متع سكوبهْ
ـ أنا لم أزرها وهي من عيني ومن قلبي قريبهْ
يكفي بأنّي قد رأيتك زهرة منها رطيبهْ
وبعينك اختصر الجمال وحدّدوا منها ضروبهْ
ورموشها أفدي الرموش تجوب آفاقاً رحيبهْ
قد طاولت أُفق النجوم وأقسمت أن لا تجوبهْ
والأنف إعجاز الإله لخلقه آي عجيبهْ
ونبيذ شيراز على شفتيك حبّات خصيبهْ
والصدر إنّ الصدر حدّثني وأعجز أن أُجيبهْ
قد قال إنّ جهنّماً من وقدها لقمت لهيبهْ
ولقد تحدّاني بأن أدمى وأن أحسو زبيبهْ
وبأن أُحرّك ساكناً من بعد جرعات صخوبهْ
«سيمين» إنّي من يريد الانتحار فهاك كوبهْ
ونبيذ نهدك من دمي كرياته الحمر الصبيبهْ
ولهيب صدرك لي كقنديل الفراشات اللعوبهْ
قولي لنهدك أن يقيم بسرعة لغدي صليبهْ

وله تحت عنوان «لهيب وجليد»:

بــــربّك مــا الشــعر يــا مــرهفي إذا مـــــا نــــظمت ولم تـــعشقِ
ولم تأخـــذ الصـــور الحـــالمات مـــن العــــنق مـــن شـــاله الأرزقِ
ومـــن ضـحكة الفـجر فـي مـبسمي ومـــوت المســـاء عــلى مــفرقي
ومـــن نـضرة الكــرم فــي أعــيني فــمنها اخـــضرار المــدى المــورقِ

تــــوزّع مـــــنها غـــــلال الربـــيع　　　فــلا غــصن فـــي الكـــون لم يـورقِ
ومـــــن خـــــدّي انــــفلتت وردة　　　فـــــلا ورد فـــي الروض لم يشـــهقِ
وعــــــنقي ثــــلوج جــليد الشــمال　　　اكـــــتست بــعض رونـــقه المــونقِ
عـــجبت لِــمَ لا يــذوب الجــليد　　　وصــــــدري لهــيب لظــى مــحرقِ
تكـــــوّر فـــــيه قــــباب السـعير　　　فـــسنهدي جـــــهنّم هــــل تــتّقي
حــبيبة أغــرقت فـــي المــعصيات　　　فـــــصبّي عـــــذابك لا تشــــفقي
إذا احـــــــترقت بشــــرة مــــن　　　كـــياني نـمت بشـرة بـعد لم تـحرقِ
ومـــــثلي لا يــــرتجي رحـــمةً　　　لغـــــــير جـــــهنّم لم أُخـــلقِ
لأنّــــــــي أدري بأنّ العـــــذاب　　　يـــــؤدّي إلى جـــنّة المــــتّقي
وثــــــغرك وعـــــد وأُســـطورة　　　ســــواه تـــلاشت ولم تــــصدقِ

وله تحت عنوان «رباعيّات»:

يا ربّ حين خلقت هذا الكون من طين وماء
وبعثت آدم للوجود نفخت في طين وماء
عفوكَ اللّهمّ حين وضعت في عيني الضياء
وأردت أن أحيا جبلت الطين في دمع البكاء

❊ ❊ ❊

صورت بيتك لي خيوط الفجر بعض حدودهِ
فأتيت تائهةً إليه وخاطري بشرودهِ
كفراشة عشقت من القنديل خمر خدودهِ
لم تدر أنّ نهايةً لحياتها بوقودهِ

❊ ❊ ❊

قد كنت أمس مع الزهور لغتي حروف من عبيرِ
فقطفتني وشممتني وملأت بيتك من عطوري
وذبلت ثَمّة والذبول نهايةُ الزهر النضيرِ
ورميتني من بعد أن ضيّعت من كفّي مصيري

❊ ❊ ❊

قضي ـ عليه الرحمة ـ في حادث سيّارة في ٦ ذي القعدة سنة ١٤٠١، ودفن قرب ـ المقدّس ـ أبيه حيث جرى له تشييع حافل من جميع الطبقات، كما أُقيم له أسبوع فخم أبّن فيه من عدّة من الأُدباء والشبيبة المثقّفة.

وأرّخ وفاته الأديب الكامل السيّد حسين هاشم، المتقدّمة ترجمته فقال:

نصب القضا شركاً وبات بمكمن ليعود بالدر النفيس المثمنِ
فأصاب من أهل القوافي شاعراً غنّى جراح البائسين بموطني
ناح القريض على ربيع شبابه وبكاه منبره بصوت محزنِ
في مأتم الأشعار تأريخي له خنق الأسى صوتي لمصرع محسنِ

له من الأولاد اثنان: سامر ولد في ٢٨ صفر سنة ١٣٨٧، وعليّ ولد في ٢٦ صفر سنة ١٣٩٦، وأُمّهما كريمة عمّه السيّد يوسف.

ثانيهم ـ من أبناء المقدّس مؤلّف الكتاب ـ: السيّد محمّد جواد

ولد في شوّال سنة ١٣٢٤، وكان من أجلّاء السادة، وأعيان الأشراف، ذا مكانة وعزّة واحترام، درس مقدّمات العلوم على أبيه بكلّ ضبط واتقان، ثمّ أرسله إلى النجف الأشرف للتحصيل، فأقام فيها ما يقرب من سنة مكبّاً على الدروس، لكنّ مناخها لم يلائم جسمه، فساءت صحّته، واضطرّ إلى ترك النجف والرجوع إلى صور، وقد حدّثني بعض من درس عليهم عن قوّة تحصيله وسرعة انتباهه وتلقّيه للمطالب العلميّة ما يدعو إلى الإعجاب.

وقد تعيّن مفتياً لصور من قبل الحكومة اللبنانيّة، وبقي كذلك إلى أن اختاره اللّه إليه

في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٩٧، حيث شيّع تشييعاً يليق بمكانته، كما أُقيم له مجلس أُسبوعي فخم.

خلّف من الأولاد الذكور ولداً واحداً مع ثماني بنات[1]، وهو السيّد جعفر، ولد ليلة ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٣، درس أوّلاً في الكلّيّة الجعفريّة في صور، ثمّ في مدرسة الحكمة في بيروت، وكان من أوائل تلمذته تظهر عليه علائم النباهة والذكاء، فاجتاز الصفوف كلّها بنجاح وتفوّق، ثمّ سافر إلى باريس ودخل في جامعتها إلى أن تخرّج منها حائزاً على شهادة «ماجستير» في الهندسة الكهربائيّة، وعاد إلى لبنان يزاول عمله بكلّ خبرة واستقامة، ممّا دعا الحكومة اللبنانيّة؛ لأن تختاره وزيراً للكهرباء، والموارد المائيّة في الوزارة التي اختيرت من الشباب المثقّف سنة ١٣٩٠، برئاسة صائب سلام[2]، وذلك في عهد نيابة عمّه السيّد جعفر، وقد قام بمهمّته هذه خير قيام، ممّا أثبت كفاءته وأهليّته التامّة لهذا المنصب.

يضاف إلى ثقافته تضلّعه وإحاطته التامّة بالأدب العربي قديماً وحديثاً، فما تفتح معه موضوعاً من هذا الباب إلّا ويسترسل في الحديث حوله، فترى من استيعابه واستحضاره وهضمه للموضوع ما يعجب ويؤنس، وهو إلى الآن لم يتزوّج.

ثالثهم: السيّد محمّد رضا

ولنذكر ترجمته وشرح أحواله بقلم سماحة العلّامة الجليل السيّد محمّد صادق الصدر دام ظلّه، وهي ما يلي:

ولد المرحوم السيّد محمّد رضا شرف‌الدين في صور ليلة منتصف المحرّم سنة ١٣٢٧، نشأ وشبّ مفطوراً على حبّ الخير والفضائل، وقد آنس والده فيه خيراً،

---

١. أُمّهم كريمة حجّة الإسلام والمسلمين الشيخ عبدالحسين صادق ﷺ.

٢. من أشهر مشاهير رجال السياسة، ولد سنة ١٣٢٣، برز اسمه حين قام بدور وطني على أثر اعتقال بشارة الخوري من قبل الإفرنسيّين، كما كان له دور مهمّ في مختلف الظروف السياسيّة، تولّى عدّة وزارات كما ترأس الوزارة عدّة مرّات.

فأرسله إلى العراق ومعه أخوه المرحوم السيّد صدر الدين، وابن عمّهما السيّد نور الدين؛ حيث كان يقيم في الكاظميّة أخوه الأكبر المرحوم السيّد محمّد عليّ، وقد قام بتدريسهم النحو والمنطق وقد شمّروا جميعاً عن ساعد الجدّ. وكانت الدراسة الشغل الشاغل لهم في الليل والنهار.

وكان التحصيل رائد الجميع، وممّا كان يبعث فيهم النشاط والتسابق في هذه المرحلة من الدراسة ذلك الاجتماع الذي كان يحصل في كلّ ليلة في مقبرة جدّنا آية الله المرحوم السيّد الهادي الصدر في الصحن الكاظمي المطهّر. فقد كان المجلس في كلّ ليلة يزدان بحضور عمّنا الإمام السيّد المرحوم السيّد حسن الصدر، وولده المرحوم السيّد عليّ الصدر، وأولاد شقيقته المرحومين الأعلام السيّد محمّد مهديّ الصدر، والسيّد محمّد جواد الصدر، وأُستاذنا السيّد حيدر الصدر، والشيخ مرتضى آل ياسين، والشيخ راضي آل ياسين.

فقد كان الطلّاب بحضور هؤلاء الأقطاب تجري مذاكرتهم بمرأى منهم ومشهد، وقد كانوا يرون من هؤلاء الأعلام كلّ تشجيع وعناية، ممّا كان يحفزهم إلى التقدّم والسير إلى الأمام، ولا شكّ أنّ الفضل يعود في تنمية ملكاتهم وإعدادهم هذا الإعداد إلى مربّيهم وأُستاذهم الأوّل المرحوم السيّد محمّد عليّ، الذي كان له الفضل في هذا التوجيه والتقدّم.

انتقل المرحوم السيّد محمّد عليّ إلى النجف الأشرف، وانتقل معه إخوته، وهو يشرف على تربيتهم، ويسهر على مصلحتهم، ويبذل الوسع في انتقاء الأساتذة الأكفّاء لهم.

وقد درس المرحوم السيّد محمّد رضا في النجف الأشرف المعاني والبيان والبديع، وسطوح الفقه والأُصول، وبذل الجهد في نظم الشعر، والعكوف على كتب الأدب، وحضور الحلقات الأدبيّة، والاشتراك بمواسم الأفراح والأحزان، وكان له في كلّ هذه المناسبات جولات دلّت على شاعريّته وأدبه الجمّ.

وكان أوّل موسم سطع فيه نجمه الحفلات الأدبيّة الكثيرة التي أُقيمت بمناسبة

قران ابن عمّه السيّد نور الدين، فقد تلي للمرحوم الرضا موشّح يفيض بالشعور والشاعريّة، وكان له أكبر الأثر في نفوس الأُدباء والشعراء، ومن هذا الموشّح لمعت شاعريّته، ونَبَهَ[1] اسمه، ونظر الأُدباء إلى مستقبله الزاهر.

وكان له بعد ذلك في كلّ موسم من مواسم الأدب في النجف قدم ثابتة تدلّ على رسوخ أدبي، وشموخ في شاعريّته الخصبة.

لقد فكّر المرحوم السيّد محمّد رضا ـ بعد أن انصرف عن مواصلة دراسته في النجف الأشرف ـ أن يتّجه إلى الخدمة الأدبيّة عن طريق الصحافة، فأنشأ مجلّة الديوان في بغداد، وسار بها على غرار مجلّة الرسالة في مصر، من حيث الإخراج والأُسلوب، ونشر المواضيع الأدبيّة الراقية.

وقد نشر فيها أعلام العراق من كتّاب وشعراء.

وكان الساعد الأيمن له في النهوض بأعبائها أخوه المرحوم السيّد صدرالدين.

وكنت ممّن قام بالواجب، فواصلت النشر في الديوان على قدر المستطاع.

وبالنظر للوضع المادّي يومئذٍ اضطرّت الديوان ـ ويا للأسف ـ إلى احتجابها عن القرّاء، بعد أن لمعت في سماء الآداب، وحظيت من القرّاء بالإعجاب.

وبعد احتجاب الديوان عيّنه صاحب السماحة المرحوم السيّد الصدر رئيس مجلس الأعيان ملاحظاً في المجلس، براتب المتخرّج من الجامعة، وبقي في المجلس سنين عديدةً مثال الموظّف الكفوء الفاضل، وكان محلّ العناية والرعاية والتقدير.

ثمّ انتقل إلى وزارة الداخليّة، ومنها إلى وزارة الخارجيّة، فأقام مدّةً في دمشق والمغرب والسعوديّة وإيران.

ثمّ حصلت خلافات بين أخيه المرحوم السيّد صدر الدين ـ يوم كان مشغولاً بإصدار الساعة[2] ـ وبين بعض الساسة أدّى إلى الانتقام من الرضا، فحذفوا ملاك

---

١. نَبَهَ: شرف واشتهر. المعجم الوسيط: ٨٩٩، «ن. ب. ه».

٢. اسم لمجلّته السياسيّة.

وظيفته مقدّمةً للاستغناء عنه، الأمر الذي جعله خارج الوظيفة مدّةً من الزمن.

وقد وفّقت ـ بعون الله تعالى ـ إلى إعادته للوظيفة عن طريق المرحوم عبدالوهّاب مرجان وزير الماليّة يومئذٍ فعيّن في مديريّة البلديّات.

وكان آخر وظيفة شغلها معاون ملحق ثقافي في السفارة العراقيّة في بيروت، ومنها أُحيل على التقاعد قبل وفاته بمدّة قليلة.

وقد لقي رحمه الله من وزير المعارف الدكتور أحمد عبدالستّار الجواري كلّ عناية وتقدير طوال أيّامه في السفارة العراقيّة، شأن الدكتور المفضال من تقدير الفضل وذويه.

شعره ونثره

شاعر مجيد، يطفح شعره بالرقّة والعاطفة والشعور، وتطغى نفسه العلويّة العالية على شعره، فتبعث فيه قوّةً ومضاءً، ويفيض عليه من قلبه الطاهر الرقّة ما يزيده نقاءً وصفاءً.

لقد طرق أكثر أبواب الشعر، فكانت الأبواب مفتوحةً أمامه، يقول ما يعتقد، وينظم ما يجول بفكره، وما يخطر على باله إذا خطرت له خاطرة، أو دعت إلى القول مناسبة.

وكان يلبّي الواجب ولا يتأخّر عنه، سواء كان في مواكب الأفراح والأحزان، أو في مطارحة الإخوان، أو دفعه إحساس قويّ دعا إليه الضمير من دافع وطني أو شعور رحمي.

وكان شعره في المرحوم سماحة السيّد الصدر ـ رضوان اللّه عليه ـ من أعالي شعره، وفي القمّة ممّا أُثر عنه من نظم؛ ولعلّ ذلك يعود إلى جلال الموضوع، وعقيدة الشاعر القويّة في من نظّم له الشعر، كما يتّضح ذلك من شعره رحمه الله معلناً هذه العقيدة بشخص الزعيم الصدر؛ حيث يقول:

وأنت أحقّ هذا الكون عندي ... وعند الخَلق والمجد المشادِ

بتقديس اسمك الميمون امّا ... تداول في المحافل والنوادي

فتلك عقيدتي وكذاك كلّ الـ ... برايا من محبّ أو معادي

نعم إنّ هذه القصيدة الراسخة من الحبّ والتقدير هي التي دفعت بشعر الرضا في السيّد الصدر أن يكون من أعالي الشعر[١].

وانظر إلى الرضاﷺ كيف يودّع شخص الزعيم الراحل السيّد الصدر بشعره الحزين الذي يفيض بالعبرات، ويتقطّع بالحسرات والزفرات، وقد ألقاها في اليوم الثالث من مأتم الأسرة المقام في مرقد السيّد المرتضى في الكاظميّة.

وكان المجلس الحاشد حين الإلقاء كلّه إنصات وإصغاء، روّعه الخطب، وأدهشه المصاب، وأثّر عليه موقف الشاعر الثاكل:

«صدر» النديّ خلا، فأين محمّدُ ... هيهات يملأ جانبيه سيّدُ
ومحمّد هذا الذي نتفقّد ... مضت السيادة أثره والسؤددُ
لا صدر بعد محمّد متضامن ... للأصيد الغطريف أين الأصيدُ
السيّد المطلاع في فجواتها ... بدراً تشقّق عنه ليل أسودُ
الراسخ الممتدّ في أعراقها ... شرفاً يقيم ومحتداً يتوطّدُ
والأشوس المقدام كلّ مهاهل ... رمح يلازم كفّه ومهنّدُ
بعزيمة من «تغلب ابنة وائل» ... للثأر حفّزها المقيم المقعدُ
والفارس المغوار ملك يمينه ... ألف «كداحس» في [....][٢] أجردُ
الراكب اللزبات رغم عرامها ... فمهدئ طغيانها ومجمّدُ
السابق الأزمات في غلوائها ... فمخطّط ميدانها ومحدّدُ
والحامل العبء الثقيل بيومه ... أو أمسه فمجاهد أو مجهدُ

إلى أن يقول:

الدافع الخصم العنيد بفيصل ... من حزمه إذ لا يفيد تردّدُ
ومزوّد الروّاد من إخوانه ... فيما يشدّد خطوهم ويسدّدُ

---

١. وله أيضاً مرثية عصماء في الإمام المقدّس السيّد حسن الصدر تقدّم ذكرها في مراثيه.

٢. فراغ في الأصل.

سائل رفاق جهاده أسلاحهم أم رأيه أمضى لما هو أنجدُ
وأناته في حوّل أو قلّب من أمرهم أهدى لما هو أرشدُ
يا من فقدنا واحداً في دهره إنّا فقدنا عالماً بك يسعدُ
إنّا فقدنا فيك مصلح أمّة تبني لها فردوسها وتشيّدُ
بمحبّة تجري على أرسالها فيها الخلائق شملها يتوحّدُ
إنّا فقدنا فيك جامع حبّنا سيّان منّا مؤمن أو ملحدُ
والمسلمون مذاهب بك تلتقي «فمحمّد» للمسلمين موحّدُ

❊ ❊ ❊

يا أيّها الباني، فمثلك من بنى مجداً على كرّ القرون مخلّدُ
بالحلم ما وسع السفيه أبوّةً والعلم ما يهدي الجهول ويرشدُ
والخلق ما أحيا الزمان بشاشة والجود ما يغني العفاة ويرفدُ
أعليته والروع يركب بعضه كالموج يرغي في الخضمّ ويزبدُ
أعليته والحرب تبرق بالمنى طوراً وطوراً بالمنيّة ترعدُ
أعليته مجداً بحرب لاهب في السلم ما أهناه عيشاً يرغدُ
أعليته مجداً ومثلك من بنى مجداً لموطنه الحبيب يمرّدُ

❊ ❊ ❊

في الكرخ عند الشطّ كوخ زعامة[1] مجد القصور إباؤه المتمرّدُ
فاسأل تواضعه من العليا التي طول الأداهر عن مداها يقعدُ
لم تجن من هذي الدنا وحطامها إلّا اللواتي لحسنهنّ أردّدُ
وتركت آلك للمجادة والعلا حسب الشبول عرينهنّ المأسدُ

❊ ❊ ❊

١. يشير إلى الدار المتواضعة التي كان يسكنها السيّد الصدر وهي ملك لغيره.

يـا جـامع الدنـيا الكـبيرة قـلبه ... فـيه التـقى مـتوطّن ومشـرّدُ
قـد كـان لا يـؤسيك إلّا كـلمة ... شـتّى وشـمل للـعشير مـبدّدُ
سـتسير أُسـرتك العريقة وفـق ما ... شرعت لهـم فـي الماجدين لك اليـدُ

❊ ❊ ❊

ويـلاي مـن سحر تـهبّ بـه صبا ... أيّ الصـبا هـذا الهـبوب المـربدُ
لم نـدر أنّ نـذيره بـهبوبه ... أن قـد تـطامن للـمنون الأصـيدُ
ويـلاي ويـل عشيرتي لم نـدر مـا ... سـفر الصـباح ومـا أبـدى الغـدُ
قـد أسـفر الصـبح العـبوس بـفاجع ... لا مـنطق يـقوي عـليه ولا يـدُ
ويـلاي قُـوّض صـرح مجد شامخ ... النسـر مـن شـرفاته والفـرقدُ
ويـلاي خـرّ مـن الضراح سماكـه ... ويـلاي أنـزل فـي الضـريح مـحمّدُ
إن كـان يشـفي حـاسدينا فـقده ... فـليشف هـذا اليـوم فـينا الحسّـدُ
أو كـان يـرضي الشـامتين مـناحةٌ ... فـمآتم بـديارنا تـتجدّدُ
بـمناحة عـلويّة ولطـالما ... أرضـى الأعـادي رجـعها المتقصّدُ
الفـاطميّات اللـواتـي قـمن فـي ... يـوم الحسـين هـنا تـقوم وتـقعدُ
النـائحات وهـنّ أهـدا لوعـة ... بـنواحـهنّ إذا المـآتم تـعقدُ
النـادبات وهـنّ أبـعد حسـرة ... فـي ثكـلهنّ إذا المـراثـي تنشدُ
المـوقدات الحـزن أذكـى جـمرة ... بـقلوبنا إنّ المـجامر تـوقدُ
الصـائلات الجـائلات شـعورها ... مـنثورة فـمبسّط ومـجعّدُ
اللادمـات صـدورهنّ فـرجـعها ... مـمّا يـعاني لدمـهنّ مـخدّدُ

❊ ❊ ❊

أمّـا الرجـال فـأكـبد مـقروحة ... وحشـيٌ بـدمع عـيوننا تـتبرّدُ
إن سـرّ حـاسدنا الذي قـد ساءنا ... بشـراه أنّـا فـي لظـىً لا تـخمدُ

وقد جرت بيني وبين المرحوم أبي عليّ الرضا مراسلات شعريّة في كثير من المناسبات، وكان شعره في كلّ مورد من هذه الموارد يطفح بالمودّة والإخاء، ويزخربالصفاء والوفاء، وهو موجود ومثبت في ديوانه الكبير المخطوط.

ويحضرني من قصائده المرسلة إليّ قصيدة أرسلها بتاريخ ١٩٥١/١١/٢٨ قال رحمه الله:

أبا جعفر يا بدر دارة هاشم ... ومقولها ذرباً إذا احتشد الفضلُ
وفارسها في زحمة الجدّ مشرعاً ... من الرأي صيّاباً يسدّده العقلُ
ونحن بعصر كلّ «فارس يليل» ... بساحته علّامة حكمه فصلُ
لئن فتح الفرسان بالقتل أنّه ... كثير فتوح عندها انعدم القتلُ
وإنّ عرف الفرسان في النقع شارة ... فشارته قول يصدّقه فعلُ
وإن أدرك الفرسان بالركض غاية ... فغايته بالرأي أدركها مهلُ

❊ ❊ ❊

أبا جعفر هذي طليعة مدحتي ... يواكبها قولي إليك لك الفصلُ
ويتبعها ما دمت منّي غرائب ... تجلجل ذكراً مثلما جلجل الفحلُ
فتنشر عطراً أو تثير مفاخراً ... يتيه بها فرع ويزهو بها أصلُ
وتقذى بها للحاسدين محاجر ... وتدمى قلوب كلّ أدوائها غلُّ

❊ ❊ ❊

أبا جعفر ما كنت لي غير سائغ ... على أنّ طعم الدهر في فيّ لا يحلو
وتلك عهودي لم تغيّر صفاءها ... بشائبة الطفل أنت أو الكهلُ
تدثّر قلبي في حنانك كلّما ... توحّدت لا أهل هناك ولا شملُ
لئن نكرت أهلي الليالي فطالما ... تنكّر لي دهر وأنت لي الأهلُ
فيعشب حقلي في حماك ويمتلي ... بفيض نداك الغمر مأملي الضحلُ

وأرسل لي بتأريخ ٢٦ رمضان المبارك سنة ١٢٧٦ بمناسبة بناء دارنا في الكاظميّة فقال:

قد سرت الدهر على جدد	أبداً كالنور المتّقدِ
يعطينا هدياً لم يحدِ	عمّا يعطيه ولم تحدِ
ما أنت سوى علم لهدى	يهدي الضلّال إلى رشدِ
في خلقك فيض ندىً وشذىً	عبق الأزهار بكلّ ندي
في قلبك طهر ما حملت	دنساً سوداه على أحدِ
في صدرك دنياً كم وسعت	سوءاً بفم وأذىً بيدِ
فتّشت عن الأحقاد به	وتبارك ربّي لم أجدِ
العفو وكم مسحت يده	غلاً قد ران على كبدِ
قد صاغك من لطف أبداً	ربّ يرعاك إلى الأبدِ
فوصلت به رحماً قطعت	من حبلك محتبك العقدِ
ولكم في الجزر مددت يداً	مسحت بالعطف على الحسدِ
فسموت بنفسك إذ شدّت	نفس الحسّاد إلى وتدِ
والنفس بما أخفت تعطي	خيراً بالخير بلا عددِ
بوركت وبورك منتقل	كالشمس إلى برج الأسدِ
قد تمّ وسعدك طالعه	بيتاً قد شيد على عمدِ
دار للصادق قد عمرت	أرّخ: باليمن وبالرشدِ

وانظر إلى عاطفته الأخويّة كيف تتجلّى بمصاب فقيدتنا الراحلة السيّدة أمّ النهى ـ رحمها الله ـ وكيف يصوّرها بشعره الحزين فيقول:

قديتك أبا جعفر؛ إنّ فقد أمّ نهى فجيعة... فقدها فجيعة عالم المرأة الفاضلة في هذا العصر، بربّك قل لي: كم يوجد في عالمنا هذا مثل أمّ نهى؟ فما أعلم ولا إنسانة. أمثال أمّ نهى بين فضلاء بني آدم قليل.

أنا لا أُريد أن أزيد في شجونك، أنا معزّي معك، جامع قولي أُسلسل بعض الشيء، أتسمح لي بمخاطبتها؟ وأنا بعض إخوتها الأوفياء:

هـــــذا «أُســـامة» أقـــبلا فـــــاستقبليه بـــحي هـــلا
عـــــوّدتِه نشــــر الزهـــور بشــــــاشة وتـــــهلّلا
عــــــوّدتِه رشـــــف الطـــيو ب يـــــزقّ عـــطفك سلـــسلا
أوردتِـــــه القـــــلب الكـــبير تــــهلّلاً وتــــــعقّلا
فـــرفعتِه حـــــيث الرجـــا ل فــــتوّةً وتـــــأمّلا
أتـــــرى الأظـــــلّة بـــالرعا يــــة مــا تـــقيل مـــندلا
أصـــفى الحـــنان مـــن الأمـــو مـــة مـــا تـــعوّد مـــنهلا
أوّاه مـــــا هـــــذا التـــحوّ ل لن يـــــطيق تـــــحوّلا
أمّ النـــهى نـــاديت كـــلّ عـــقيـ ـلة بك مــــــجملا
أقســــمت بــــالزهراء أمّك والحســـــين وكـــــربلا
مـــــا أنت إلّا صـــــورة فـــيها الفـــواطـــم تـــجتلى
إنّـــــا رأيـــــنا آخـــــراً بك مــــــا ســـــمعنا أوّلا
هـــيهات يـــملأ بـــعد فـــقد ك مــــربع لك قـــد خـــلا
«أمّ النــــهى» لك مـــــنزل بـــين الصـــفايا قـــد عـــلا
لمــــناقب لك لو نشــــر ت لقـــيل هـــذا قـــد غـــلا
إن كـــــنت قـــلت المـــجملا فـــلقد طـــويت مـــفصّلا
حســــبي الأســـى فـــفجيعة تـــــتعجّلين تـــــرحّـــلا

وآثاره الشعريّة ﷺ:

رواية الحسين ﷺ، وقد طبعت سنة ١٣٥٢، وديوانه الكبير المخطوط، الذي جمع فيه كلّ ما قاله من الشعر، وكان مشغولاً به أواخر أيّامه ليعدّه للطبع.

والسبيكة، وهي أُرجوزة نظّمها في تراجم آبائه وأجداده وأرحامه الذين عاصرهم وعاصروه، وقد قال لي‌ﷺ:

إنّي على خلاف رأي علماء الرجال الذين يترجمون في كتبهم الأموات ويتركون ترجمة الأحياء؛ لأنّنا نحن أعرف بأحوال من عاصرناهم، وقد يسبّب تركنا لهم إهمالهم فيما بعد، كما حدث ذلك مع كثير ممّن أسدل عليهم التأريخ الستار.

وممّا زاد في قيمة السبيكة الهوامش أو التعليقات التي وضعها على سبيكته؛ لتوضيح وتكميل التراجم التي لم يتسنّ له بيانها في متن الأُرجوزة.

هذا شعر الرضا‌ﷺ.

وأمّا نثره فقد كان يجمع بين المتانة والوضوح، وقوّة السبك، وحسن الأُسلوب، ونصاعة البيان.

وقد أصدر كتاباً عن المغرب أسماه أربعة عشر يوماً بالمغرب، وكان عرضاً متسلسلاً رائعاً يأخذ بلبّ القارئ وحواسّه، ولعلّه من أبدع ما كتب في أدب الرحلات.

حرّره في السفرة الأُولى إلى تلك البلاد، وقد وقع الكتاب موضع الإعجاب والتقدير من ساسة وأُدباء المغرب، وقدّروا له هذا الجهد، وهذه المعلومات الدقيقة التي لايحصل عليها الباحث إلّا بعد طول أناة، وبحث متواصل مستمرّ.

وقد كان للكتاب أثره الكبير في احترام مؤلّفه والعناية به حين انتقاله بوظيفته إلى السفارة العراقيّة في المغرب.

وقد كتب عن السعوديّة كتاباً قيّماً ضمّنه كثيراً من المعلومات والفوائد المهمّة، وذلك بطلب البعض منه ممّن كان يرغب أن يكون في مصاف المؤلّفين، وأن يفوز بالقرب من ملك تلك البلاد، وقد طبع الكتاب باسمه ـ كما رغب ـ في حياة المرحوم السيّد محمد رضا.

وله ترجمة مفصّلة صوّرت حياة المرحوم السيّد الصدر أحسن تصوير، وقد نشرها بدون إمضاء في أعداد متوالية من جريدة عصا الجنّة الدمشقيّة، وهي ترجمة قيّمة

جمعت بين الدقّة في التفكير، والروعة في التصوير، ودلّت على اطّلاع واسع وأدب جمّ[1].

وأمّا الشعر المنثور، فله رسالة فيه تدلّ على أنّه لو قصده وأراده لكان فارس الحلبة، فقد نشر رسالةً في جريدة أخيه الساعة موجّهةً إلى طفلة من أرحامه، رآها في الطريق بعد أن حالت دونه ظروف أبعدته عن رؤيتها مدّةً من الزمن، وقد ألقت نفسها عليه فاحتضنها وأجهش بالبكاء، فوجّه إليها رسالته الطافحة بالأسى التي تنمّ عن حبّه وعواطفه وشعوره الجيّاش، وكانت قطعة رائعة يكاد كلّ حرف منها أن يكون ناطقاً.

وله في البند القديم ضلع، فقد ذكر له المرحوم عبدالكريم الدجيلي رسالةً من هذا النمط في كتابه البند.

توفّي‏ في ٩ ذي الحجّة سنة ١٣٨٩، ونقل إلى صور، ودفن في مقبرة جدّته «الزهراء» وكان أسبوعه وأربعين أخيه السيّد صدر الدين في يوم واحد، ورثاهما الشعراء، وبكاهما الأدباء.

وقد كان لتقارب الوفاتين الأثر المؤلم في نفوس عارفي فضلهم، ومقدّري أدبهم في لبنان والعراق، ولا يزال إخوانهم في الرافدين يحنّون إليهم، ويذكرونهم بكلّ إعجاب وإكبار. انتهى.

وترجمه أيضاً الأديب الفاضل الشيخ عليّ الخاقاني في شعراء الغري ج٨ ص ٤٨٥ ـ ٤٩٣ فقال ما ملخّصه:

أديب معروف، وشاعر رقيق، وكاتب بليغ.

ولد في صور في المحرّم عام ١٣٢٧، وما إن بلغ الخامسة عشرة من عمره وترعرع على والده حتّى بعثه إلى النجف لتلقّي العلم، فأكمل النحو والصرف على المرحوم أخيه السيّد محمّد عليّ، وأخذ المنطق على العلّامة الجليل السيّد

[1] . وهي منقولة بتمامها في كتاب زعيم الثورة العراقيّة وما بعدها للأُستاذ عبّاس عليّ.

عبدالكريم آل السيّد عليّ خان[١] والمعاني والبيان والبديع على العلّامة الكبير الشيخ محمّد طَة الحويزي[٢] والعروض على العلّامة الشيخ قاسم محي الدين[٣]، والأُصول على العلّامة الشيخ محمّد تقيّ صادق، والحجّة المرحوم الشيخ محمّد عليّ الخراساني، والحجّة الأكبر السيّد حسين الحمامي، والفقه على الحجّة الشهير السيّد حيدر الصدر، والعلم المعروف الشيخ مرتضى آل ياسين،[٤] وحضر حلقة الإمام الخالد الذكر الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء، والحجّة الأكبر الشيخ محمّد رضا آل ياسين.[٥]

وفي خلال دراسته كان يعني بالأدب وقرض الشعر، فنظم في عام ١٣٥٢ روايته الشهيرة الحسين، وطبعت بنفس العام في بغداد، وهي باكورة إنتاجه الأدبي، وأعقبها بنظم روايه قيس ولبنى، وهي لم تطبع، كما عني بنظم تأريخ العرب في ملحمة كبيرة، فنظم منها ما يقرب من ٣٠٠ بيتاً.

وفي عام ١٣٥٣، انتقل إلى بغداد فأصدر مجلّة الديوان، وخرج منها خمسة أعداد نالت إعجاب القرّاء، غير أنّ المادّة التي عطّلت كلّ أديب حرّ أبت أن تستثنيه فقعدت به عن إصدارها.

---

١. هو أحد الفقهاء الأعلام والمشاهير المبرّزين، تلوح على وجهه آثار السمت والورع، والأخلاق الفاضلة، ولد سنة ١٣١٧، ويقيم في بلدة بعقوبة في نواحي بغداد.

٢. ذكره الأُستاذ عبدالكريم الدجيلي في كتابه النوادر فقال: شاعر من طراز عال، وعالم في الفقه والأُصول، ولغويّ كبير يعوّل على خبرته الكثيرون، ورع متديّن لا تأخذه في الله لومة لائم، ظريف المعشر، حلو المفاكهة، ولد سنة ١٣١٧ في النجف، وسافر عدّة أسفار إلى إيران، فكان في الحويزة الزعيم المطاع، توفّي سنة ١٣٨٨. انتهى ملخّصاً عن شعراء الغري [٩: ٢٩٤ـ٢٩٨] وماضي النجف وحاضرها [٢: ١٨٧ـ١٨٨، الرقم ٨] وغير ذلك.

٣. هو علم بيته السامي، وعميد أُسرته، ولد سنة ١٣١٤، وهو من الشعراء، وأهل الكمال والأدب، حسن الجواب، حلو المفاكهة، جيّد الذهن، له مكانة في النفوس، ومحلّ عند ذوي الفضل والفضيلة، توفّي سنة ١٣٧٦. انتهى ملخّصاً عن ماضي النجف وحاضرها ج٣ ص٣٢٥ [الرقم ٢٦].

٤. راجع ترجمته في ماضي النجف وحاضرها ٣: ٥٣٤، الرقم ٧.

٥. المصدر: ٥٣٢، الرقم ٦.

وفي عام ١٩٣٩ ـ ١٣٥٨ ـ عيّن في مجلس الأعيان ملاحظاً لديوان الرئاسة.

وفي عام ١٩٤٧ ـ ١٣٦٦ ـ نقل إلى وزارة الخارجيّة بوظيفة ملحق صحفي في المفوضيّة العراقيّة بدمشق.

وفي عام ١٩٤٩ ـ ١٣٦٨ ـ نقل إلى المفوضيّة العراقيّة بطهران، ثمّ إلى المفوضيّة العراقيّة بجدّة، حتّى شهر آب سنة ١٩٥٠، حيث أُلغيت وظيفته من الملاك على أثر نزع جنسيّة أخيه السيّد صدر الدين، وخروجه من العراق إلى لبنان.

وفي عام ١٩٥٢ ـ ١٣٧١ ـ أُعيد تعيينه ملاحظاً لحسابات مديريّة البلديّات في وزارة الداخليّة، ولا يزال يشغل ملاحظيّة التخطيط والطبع فيها.

هذا موجز لحياة إنسان عرفته منذ أن دخل النجف، و لازلت أعرفه معرفةً حقّة، فقد وهب من حسن السلوك ومماشاة الرجال باليقظة وسرعة الانتباه، ما أفهم الجميع أنّه الإنسان الذي لم يتأخّر عن تأييد عقيدته، والاعتصام بشرفه ونبله، كما لم يختر الهجوم، أو إقحام نفسه في أمور لاتعنيه، أو لاتعود عليه بخير، وبهذا السلوك المتّزن استطاع أن يربح أكثر أصدقائه الذين واصل السعي في الحرص عليهم.

عرفت المترجم له معرفة لم تفقدني يوماً واحداً حبّه واحترامه.

والمترجم له أديب ذكيّ، وشاعر بديهي، يرصد النكتة ويجيدها، فمن خطابه لإبراهيم حلمي العمر عندما كان مديراً للمطبوعات وقد طلب منه امتياز مجلّة الديوان عام ١٣٥٣، وبعد مماطلته وتسويفه كتب له هذه الأبيات:

إنّي سئمت الوعد والتسويفا ... وسئمت عندك جلسةً ووقوفا
وغمرتني خُلُقاً ولم أر بارقاً ... يُنبي بأنّ وراءه معروفا
وتركتني متردّداً في حيرة ... أجني من الخلق الكريم صنوفا
وأعود في وعد طريف منعش ... وأراه ينتج إن رجعت طريفا
ليت الذي أعطاك خُلقاً سائغاً ... سوّاك برّاً بالوعود سلوفا
وعهدتك المفضال في آدابنا ... لم تسلف الآداب أرضاً ريفا

فامنح مجلّتنا امتيازاً وانتظر　　ما طاب من آدابها المقطوفا
شهران قد مضيا وهذا ثالث　　فامنح أو احبس غيثك المصروفا

وهذا اللون من الخطاب يصوّره لنا أنّه مؤدّب النفس والروح.

وعند وقوفي على مجموعة شعره وجدت فيها ألواناً من يقظة النفس، كما وجدت فيها ألواناً من الأدب الوجداني، وتصويره ووصف الغناء العراقي الشعبي والفصيح، وإليك أبياتاً من مقطوعة قالها عند سماعه لبعض النغمات المحزنة من الغناء الريفي عام ١٩٣٥ ـ ١٣٥٤ ـ قوله:

أصخ سمعاً لذي هزج وباكي　　وميّز لحن ذا من لحن ذاكِ
أتسمع غير ذي شجن يغنّي　　بحنجرة النوائح والبواكي؟
تشابه لحن من غنّى ولحن　　يقطعه الأسى في قلب شاكي
كلا الصوتين ذو شجو وبشر　　وليد نوائح وربيب باكي

والمترجم له واصل النظم منذ الشباب فقال القصائد العامرة، والموشّحات الرقيقة، والمقاطع المقبولة، وصوّر مجتمعه بأسلوب بين العاطفة والمنطق، وتحسّس الإصلاح فانصهر به زمناً.

ومن شعره قوله من قصيدة وعنوانها «أمثولة» في حوادث فلسطين عام ١٣٤٩:

هذي فلسطين وذلك «قدسها»　　هتكت محارمها يد شلّاءُ
دفعت بها خلف الستّار قوىً لها　　مثل الأفاعي ظاهر وخفاءُ
مسّ يطيب نعومةً وطراوةً　　وحقيقةٌ كمنت بها نكراءُ

❋ ❋ ❋

أسمعت بالشرقين كيف تزلزلت　　للقدس من أقطارها الأرجاءُ
خنقت على «الشطّين» أعلام الأسى　　وجرت دماءً عينها الوطفاءُ
وتفجّرت حمماً أصاخ لوقعها　　غرب و«عصبة» جرمه الصمّاءُ
وتجاوبت في المشرقين أذاهما　　رعد تمعّج زجره الأصداءُ
الشام والهند المبلبل في اللغا　　والدين آخت بينها الأرزاءُ

وإذا هـمـا إخـوان صـدق ضـمّهم	وطـن بـعيد قـربه عـنقاءُ

❊ ❊ ❊

وبأرض «مـصر» غـابة مـرهوبة	مـنه الهـدايـة والطـريق عـماءُ
مـا كـفكفت عـزماً تحوط بـه أخـاً	والحـوت يـزرقب فـعلها والمـاءُ
والشـام مـا فـي الشـام غير زمـازم	هـدرت وإلّا مـزنة حـمراءُ
تـهمي لتـروي غـلّة مـن ظـالم	مـا للـمظلوم سـوى الدمـاء جـزاءُ
جُـنّت بـها الثـارات تـزفر فـي لظـى	أحـقادها وزفـيرها البُـرَحاءُ
أتـسرى «ابـنها» سـامته ذلّاً عـصبةٌ	ضـربت عـليها ذلّـة لأواءُ
وتكـون راضـيةً ولا تـمري دمـاً	تـهمي[1] بـدرّته لهـا الأثـداءُ
وتـؤوب ظـامئةً ولم تـنزع رشـاً	فـيها تـمازج أدمـع ودمـاءُ
هـذي ديـار الشـرق آلـف بـينها	ألم ويأس مـن غـد ورجـاءُ
ولهـا عـلى الغـرب المـدلّل كـرّة	سـوداؤهـا تـنسيه مـا البـيضاءُ
كـانت بـلاد اليـعربي عـواصـم	ولهـا العـوالم أعـبد وإمـاءُ
فـتحدّرت فـيها طـوالع أمّـة	أخـرى تـعالى نـجمها الوضّـاءُ
وكـذلك الأيّـام دولة غـالب	يـسقط وللسـاهي القـعود فـناءُ
وغـفت بـمقفر مـا أثـار غـباره	ركب ولم يـؤنس حـماه حـداءُ
وتـصرّمت أيّـامها وتـعاقبت	ليـلاتها المسـودّة الليـلاءُ
وقـضت قـروناً كـلّهنّ سـوالك	مـا فـي السـماء والفـضاء ضـياءُ
أمّـا الدليـل فـلا دليـل يـرتجى	مـنه الهـدايـة والطـريق عـماءُ
وإذا بـخاتمة العـواصـف تـنجلي	عـقبى وفـيها الهـبّة الهـوجاءُ
تـجتاح أركـان البـسيطة كـلّها	اليـبس فـيها والرطـيب سـواءُ
فـنسوره عـاثت بآفـاق السـما	فـارتاع طـير وأمّـحت أصـداءُ

١. في المصدر: «تعمي» بدل «تهمي».

تـلقي الحـميم قـذائـفاً وإذا عـلى		دنـيا الـسـلامة والهـناء عـفاءُ
فـتعرّت الروضـات مـن حـلل لها		فـي الآمـنين أظـلّة ورقـاءُ
وسـفينه فـي البـحر يرسل عـاصفاً		للـبرّ ثـمّ يـمرّ وهـو رخـاءُ
والبـرّ مـا فـي البرّ غـير زعـازع		السـيف يـعصف بـالورى والداءُ
الغـرب تكـتسح البـلاد جـيوشه		والشـرق جـيش فـلّه الإعـياءُ
ذي فـرصة يـا مـن يـريد تـحرّراً		أو يكشـف الجـلّى امـرؤ جـلّاءُ
وتـحفّزت هـمم يـرفرف فـوقها		عـلم ووحـي للـنهوض نـداءُ
وإذا الحسـين الهـاشمي بـفيلق		يـجريه نـحو عـلائه غـلواءُ
وانـحاز للـجيش المـظفّر بـعدما		وضـعت عـهود شـرطهنّ وفـاءُ
وبـفضله فـي المشـرق الأدنـى جـرى		«فـتح» جـنت ثـمراته الحـلفاءُ
حـنثوا عـهودهم وكـان وفـاؤها		أن قسّـموا أوطـانه مـا شـاؤوا
وهـل اكـتفوا بـالحنث لا بـل حـالفوا		أعـداءه فـاجتاحه الأعـداءُ
سـلبوه «مـلكاً» كـان مـن آبـائه		إرثـاً تـولّى عـرشه الأبـناءُ
وهـل اكـتفوا بـل بـوّؤوه جـريرةً		كـيما يـوفّي أجـره الدأمـاءُ
فكأنّـما العـهد الوثـيق هـواء		والعـهد عـند الأقـوياء هـباءُ
ومـضى بـذمّة ربّـه وله عـلى الـ		ـمقدس المشـرّف مـنّةٌ وجـزاءُ

انتهى ملخّصاً.[١]

وقد أورد له أشعاراً كثيرةً غيرها.

ومن شعره هذه القصيدة في رثاء والده، وقد ألقاها في الحفل الأربعيني الذي أُقيم في الكاظميّة، وهي:

مـن ذا أنـا؟ أنـا نـاطق أم أبكـمُ		الحـرف عـندي عـن بـيان يـلجمُ
فـي جـانبيّ مـن الفـجيعة موسم		غـمرته كـفّ رزيّـة لا تـرحـمُ

١. شعراء الغريّ ٨: ٤٨٥ـ٤٩٣.

أمروّع بوجومه يستعصم	ومروّع هو والحشاشة مغنمُ
ومقوّس فوق الأسى يتحطّم	الحسّ مات به فما يتألّمُ
لا الدمع نّدى فالمحاجر مضرم	لا الصبر لبس فالأضالع مأتمُ
أمّا المدائح فهي ثمّ [...][1]	فمفوّه من حصره يتلعثمُ
ومديح قد [...][2] منه المرقم	أو ملهم لجموده لا يلهمُ
بفمي ضعوا بعض البيان فعاذر	أن ليس يفصح في مقالته الفمُ

❊ ❊ ❊

لكن أحدّثكم حديث ملابس	فأبين فيه تارةً وأجمجمُ
أنا في حديثي الرسل راوية وما	«عبدالحسين» سوى أبي وأبيكمُ
نهضت به أعماله لمكانة	هي في الأبوّة مرتقاها الأعظمُ
توحي معاني في الأبوّة قدّست	لا والد قدماً وعاها ولا [....][3]
أنا قد بلوت حنوّه وأنا ابنه	ويلاه مثلي مرمل أو أيّمُ
ويلاه مثلهما ومثلي نازح	ويلاه جار في المحلّة معدمُ
أرأيتم أمّ الفراخ بوكرها	تكسوهما من دفئها أو تطعمُ

❊ ❊ ❊

سمعاً أحدّثكم حديثاً موجزاً	عنه كريماً ما السحابة ترزمُ
قد كان مضيافاً يحنّ لضيفه	إن غاب يوماً فهو فيه متيّمُ
أنا قد شهدت أبي الرفيع مقامه	في خدمة الأضياف لا يتبرّمُ
لهم عليه منّةٌ أن أطعموا	من زاده، أو ماله، أن أكرموا

❊ ❊ ❊

---

١. بياض في الأصل.

٢. بياض في الأصل.

٣. بياض في الأصل.

سمعاً أحدّثكم وربّ محدِّث | ألقى الحديث لسامع هو أعلمُ
قد كان إنساناً تطامن في مدى الخيـ | ـرات فهو بها [............][1]
قد كان بنّاءً تعالى في دنا الاصـ | ـلاح فهي بفضله تترنّمُ
ملك الألوف كثيرةً لم يدّخر | منها ليوم قابل يتجهّمُ
ما صرّها فلساً إلى فلس ولم | يفرح بها [....][2] له تتأزّمُ
ما شاد منها لبنة في قائم | من ملكه أو نائل يتهدّمُ
بل شادها في الباقيات فها هنا | نادٍ وثمّة مسجدان وميتمُ
وهناك صرح للثقافة دونه | صرح بأشلاء الشعوب يرمّمُ
فيه المذاهب جمّعت أشتاتها | للعلم سار بها الطريق الأقومُ
يستنّ فيه الطالبون مشاعلاً | تهدي فما ليل هنالك مظلمُ
لم يؤثر الدنيا التي يجنى بها | فيء على ما لا يحلّ مقسمُ
بل آثر البقيا مع الأجيال ما | عمر المدارس طالب ومعلّمُ
ما صات عند المسجدين مؤذّن | فوق المنائر ما تعبّد مسلمُ
لم يَهْوَ منها في الغواية درهماً | بل قام منها للهداية سلّمُ

❊ ❊ ❊

سمعاً أحدّثكم حديثاً مفعماً | في كلّ معنى بالتفادي مفعمُ
كان الحميّ فنفسه لبلاده | يوم النزال ربيعة ومكدّمُ
كان الكميّ ففي الرعيل مقدّم | ما أن دعا وطن ولبّى معلّمُ
فيه شهدت أبا الفوارس عنتراً | في وجهه لفم البوارق ملثمُ
وشهدت زيد الخيل وهي مقانب | قد كرّ منها مرسل أو ملجمُ

---

١. بياض في الأصل.
٢. بياض في الأصل.

وشــهدت فـي الشهباء سيّد تـغلب … جـــيشاً بـــظلّ النـيّرين يــخيّمُ
والروم جـيش صـيح فـي حـوبائه … رعــباً فـهام عــلى الظــبا يـتحطّمُ
عـــلم أبـــي ثــار فـيه لمـوطن … يـــحتلّه مســـتعمر مســـتأثمُ
لا الخُـــلق مـــن أوصــافه فـيكفّه … عــن فـعل مــا لا يـجتريه المـجرمُ
دعـوى التـمدّن فـي الضـباع يـردّها … نــاب عــلى مسـنونه سـال الدمُ
وأشـدّ مـا عــاناه إخــوة يـعرب … مــنه عـــليهم أنّـــه يـــتضرّمُ
فـتخاء فـي يـوم الوغـى يسـتلم … للــزجـر أمّــا فـي السلام فـقشعمُ
الأعـــزل المـتناف ويــل زمــانه … مـــن حــاقد مسـتلئم يـتحكّمُ

❊ ❊ ❊

مــاذا أُحــدّث عــنه أيّ جــوانب … مـــنه أُوضّـــحها وأيّاً أبـــهمُ
كـــان الفـــقيه وللـفقيه رسـالة … فـيها الشـــريعة للـــتفهّم تـوأمُ
والاجـــتهاد مـــن الفـقيه دلـيله … لحكـــومة فـــيها الحـياة تـقدّمُ
أبـداً يكـون العـلم بـاعث نـهضة … مـــتحرّك لأمـــامه مـــتقدّمُ
مـــاذا أُحـــدّثكم أعـنه مـفسّراً … آي الكــتاب فـما هـنالك مـبهمُ؟
أم عـــنه راويـــةً، وعـنه مـحدّثاً … سنن الحـديث لسـانه والمـرقمُ؟
عـنه خـطيباً كـلّ مـنبر خـاطب … عـــود ومـــنبره الورى والأنـجمُ
عـــنه بـــليغاً البـــلاغة دونـــه … أُذن تـــعي ويـــراعـــة تـترسّمُ
عـــنه فـــصيحاً [....][١] … عـرف الكـلام أمـعرب أم مـعجمُ

❊ ❊ ❊

مـــاذا أُحـــدّثكم أعـــنه مـؤلّفاً … ذا مـنهج يـجري عـلى مـا يـرسمُ؟
فـــمخطّط يــجلى بــه مـوضوعه … ومــخطّط للــحرف كـيف يـترجمُ؟

---

١. بياض في الأصل.

ومـــخطّط يـدع المـعاني رحـبةً　　بـمجالها فـي لفـظها يـتحكّمُ
تــتوضّع الأحـداث فـهي رمـية　　صـيّابها الفكـر السـديد المـحكمُ

❊ ❊ ❊

تــلك الفـصول وإخـوة لفـصوله　　جـــيّاشة للــحقّ لا تــتلوّمُ
فــيها عـليّ نـاطق فـي حـجّة　　تـخذي ولا تـؤذي ولكـن تـفحمُ
فــيها مــهارة فـارس لرهـانه　　فـي السـبق لم يشـنق ولا يـتقحّمُ
فـيها المـروءات التـي عـفّت فما　　تـبدي لخـصم عـورة أو تـرجمُ
بـل كـان مـنها فـي مـواطـن ضعفه　　مــا قـد يـقوّي ضـعفه ويـقوّمُ

❊ ❊ ❊

نـاف الثـمانين التـي فـي عـرفنا　　عـمر يـطول مـع الحـياة ويـنعمُ
أفكـلّ عـمر طـال طـال بـنفعه　　كـم مـن حـياة نـحن فـيها أرقمُ
وهب الحـياة رخـيصةً مـن أجـل أن　　تُـغلى نـفوس الطـالعين وتسـلمُ

❊ ❊ ❊

أوّاه مــن نــعي يـصمّ ويـبكمُ　　ويـلاه مـن فـقد يـضلّ ويـوتمُ
نــاع نـعاه لعـالم فـي شـرقنا　　مـن مـثله قـد كـان يـصحو النـوّمُ
أبـمطلع الشـرقين كـثر مـثله　　لا والذي نـاداه، ذاك تـوهّمُ

وله تحت عنوان: جنيف في الصحراء:

رأيـتها بـناظري　　لا بـخيال الشـاعرِ
مثل السنا　　مثل المنى　　ملء الدنا
فـهل رأيت مـا أرى　　فـي القـنن فـوق الذرى
في قمّة الجمالْ　　تراقص السؤالْ　　وهمٌ أو خيالْ
فـي نشـوة الكـاساتْ　　فـي حسـرة الآهـاتْ

في ضحكة الألمْ في عبرة الأملْ في رقّة الشفاهْ
رأيت ما العدمْ رأيت ما الأزلْ
عرفت ما الإلهْ رأيت بذا ناظري لا بخيال الشاعرِ

* * *

هذي الليالي لا ترى في دفّتيها قمرا
نهارها ظلامْ وغيمها ركامْ ورحبها زحامْ
أكنت كالشمس بها تنداح في جلبابها
فتبعث الأنوارْ وتنضح الأزهارْ بالشذى المعطارْ
عهدي بها الصحراءْ قد جفّ فيها الماءْ
أكنت فيها الطيبْ والمندل الرطيبْ
والواحة الخضراءْ ومصر والخصيبْ
إنّي أرى وسط الصحارى من جنيف منظرا

وله تحت عنوان: أتاتك مهداة إلى أخي صدر الدين:

أهاجت بك الذكرى لمعسولة حوًا أم اعتدت مرّ الهجر فارتحت للنجوى
حنانك بعض الجهد يا حبّ فالهوى يهبّ كما يهواه، لا مثلما تهوى
أفانين هذي الريح، نكباء بعضها وبعض يوافيك الجنوب بها رخوا
فديتك، لا تعني بأوّل عارض فما اللذّة الكبرى سوى النهبة القصوى
لئِنْ كان هجراً جالباً لك داءه فذاك دواء في النهاية لا أدوا
فربّ حبيب مظهر لك صدّه يعاكس قلباً في غلائله يضوى
ينهل منك الودّ تصفية مشرباً وتعطي مقاداً بعد ذلك لا يلوى
فلا هو عن حبّيك تجديه سلوة ولا أنت بالسالي لأيّامه الغنوى

وليس بـــنـاديه وإن كـــان زاخـــراً　　　بكـــلّ أخـــي حبّ تـــمرّس بـالبلوى
كـــمثلك للـــــنارين نـــار صـــبابة　　　ونـار بـها تكـوي العـذول ولا تكـوى
ومـــثلك للـــيومين يـــوم شـــدائـد　　　ويـوم بـه يسـتمطر المـنّ والسـلوى
ومـــثل يـــراع فـــي بـــنانك مشـــرع　　　على نحو هزّ الرمـح سـاعده الأقـوى
يـــنثّ دمـــاً فـــي حـــالة وبـــأُختها　　　يـــنشّر ورداً عـــن شـمائله يـــروى
لك الفكـــر رفّـــافاً عـــلى كـلّ زاهـر　　　صباحاً يشيع النـور أو يـنشر الشـذى
تـــنقّل فـــي الأجـــواء للـنجم واهـباً　　　تألّـــقه والطـــير فـي أجـوائـها شـدوا
يـــطوف ليـــجني أو يـطوف ليـجتني　　　فيروي غـليلاً مـن مـجانيه أو يـروى
لك الذوق كـــاليعسوب عـــند خـلـيّة　　　يقطّ غريباً شـمّ مـن فـيه مـا يـجوى
تـــخيّر للأســـماع أشـــهى تـــلفّظاً　　　وأعذب جـرساً مـن مـحجّلة نشـوى
فـــللعين مـــا تـــرتاح فـيه مسـارحـاً　　　مدى العين ما تجلو بـمنظره العشـوى
وللعقل ما يسمو بـذي العـقل صـاعداً　　　إلى الأُفق الأعلى إلى سـاحة الـنجوى
أتـــاك أنّ الصـــبر أهـــدى مـــحجّة　　　إلى الهدف الأسمى إلى قلب من نهوى

وله هذه المقطوعة في رثاء أخيه السيّد صدرالدين ﷺ، وهي آخر نظمه:

أشـــقيق نـــفسي مـــا الدمـــوعْ　　　هـــلّت كـــما صـــبغ النـــجيعْ
هـــبني «مـــتمّم» شـــعري　　　البـــاكـــي وقـــلب لي وجـــيعْ
ليـــتني بك «الخـــنساء» يـــا　　　«صـــخري» ولي دمـــع يـــطيعْ
وأذن لبـــرد مـــن غـــليلي　　　مـــا يســـلسله الولوعْ
صـــبري قـــريع الخـطب عـهدك　　　فـــهوذا صـــبري الصـــريعْ
أمّـــا الذي بـــين الضـــلوع　　　فـــذاك قـــلبي والصـــدوعْ
آمـــال نـــفسي فـــي الحـياة　　　وحـــدها فشـــل ذريـــعْ
ســـتّون مـــن عـــمري ولي　　　فـــي مـا يـلي مـنه شـروعْ

أمّــــلت تــــقرب بــــيننا بـــــبقيّة مــــنه ربــــوعْ
لتـعيش فــي الشـمل الجـميع وحــــولك انــــتظم الجـميعْ
هــــيهات يــــزدهر الزمـــــان وعـــــنه قــــد جــفّ الربـيعْ
يـــا يـــوم فـــقدك إنّــني لاســــــيّةً أبـــداً نـــزوعْ
حســـبي بـــما بـين الضـلو ع تـسـفرّمت مــــنه الظـــلوعْ
مـــا كــنت أحسب يـومك الدا مــــي يـــصحّ له وقـــوعْ
أيـــصحّ يـــا مــوت الرجــو ع أوّاه لو حــــصل الرجـــوعْ

[تآبينه]

ولنذكر نماذج ممّا أبّن في حفلتي الأُسبوع والأربعين اللتين أُقيمتا لذكراه.

فمنها كلمة الأُستاذ صلاح الأسير وقد تضمّنت تأبينه وتأبين أخيه السيّد صدرالدين‌ؒ وهو ما يلي:

في هذه المدينة الطيّبة، التي صنعت أكثر من تأريخ، وأطلعت المائة من الأئمّة والمجتهدين، الذين ظلّوا لنا منائر تضيء في سراديب هذه الدنيا الفانية نلتقي اليوم على اسم القلم، الذي كرّمه الله في كتابه الكريم، وعلى اسم الشهادة، وهي من شيمنا نحن أهل البيت، وعلى اسم المروءات التي لاتعرف الدعوى وتتعالى فوق كلّ مصلحة، وعلى اسم المعرفة تقدّمها للناس مصبوغة بدم القلب، وفاءً لرسالة، واعتزازاً بقدوة، وسلام بعد ذلك على ما بقي من النوافل.

قصّة عجيبة نشهد منها النهاية ولادةً وخطئ جريئةً، ثمّ ترعرع فإقامة فاغتراب فعودة تمرّ مرور الطيف في أجفان الوسن، ومرور عبق البنفسج ما وراء جدار من العوسج، وتمضي القصّة على أجنحة الأزمنة والأمكنة، على أجنحة المنثور العميق، والشعر الموصول بما أعطى الشريف الرضي، وما أعطى جدّنا المكرّم في رجولته وبلاغته عليّ‌ؑ.

وأضيع أنا في توالي الأحداث والصور والذكريّات، فلا أعرف كيف أبدأ؟ وكيف

الختام يكون؟ هما وحدهما محمّد رضا وصدرالدين. عرفا في الوهج المتألّق البداية، وعرفا معاً في تواصل الشوق النهاية.

عرفتهما في جميع مراحل نضالهما الشاقّ العسير عنواني كرامة. هذا في شعره، وهذا في نثره، تأتلق الومضة عند محمّد رضا، وتتعرّى الفكرة عند صدر الدين، وفي الغمرة المضنية تتحوّل الومضة إلى قصيدة عند الشاعر. وفي الفرق في الواقع وما يحفل به من أضواء وظلال، تستوي الفكرة قويّة المنطق محدّدة الهدف عند الناثر.

ويستمرّ لقاء الأخوين حتّى في الرحيل عن دنيانا، فما إن غاب وجه صدر الدين حتّى لحق به محمّد رضا؛ ليضعا معاً الخاتمة للقصّة الرائعة التي عاشاها، والتي من أجلها نحن هنا في هذه الساعة الباكية.

الكلمة عند صدر الدين كائن حيّ مسؤول، هو وليد الاقتناع الكامل، والإيمان الرحب، والكلمة عنده وجدت للدفاع عن الحقّ، فما نزل بقلمه عن مستوى القمم الشواهق، من رجال الفكر عبر العصور.

والشعر عند محمّد رضا صدق في العاطفة، ونفاذ إلى عقل وقلب، ووله مستمرّ بالحكمة. فما نزل بشعره عن مستوى عمالقة الشعر، ونزّه شعره عمّا لا ينبغي له.

عزاؤنا في الدوحة المباركة التي أهدتها إلى العرب. هذه الدوحة التي ستواصل العطاء ما لمع في دجى الليل كوكب، وما بقي في الروض أريج وطيب.

وللأديب اللامع الأستاذ محمّد عليّ صادق هذه القصيدة:

جفاني تبياني فقم عنه وافيا　　ونب عن لسان ردّه الخطب نابيا
فما زلت ريّاً للصديق مروّياً　　وما زلت وحياً كالأتيّ مواتيا
وما زلت نوراً في الخواطر مشرقاً　　وما زلت روحاً في السرائر ساريا
وما زلت للصحبّ الوفيّ موفّياً　　وما زلت للقلب الأسيّ مؤاسيا
ألا وأتِ بي حتّى أكفكف عبرتي　　وأسلخ من أشلاء قلبي المراثيا

مراثي من معناك [كنّ][1] فرائداً   وآيات حسن من حلاك حواليا
فهذا الخيال الحرّ بات مصفّداً   بواقعك الدامي يجرّ المآسيا
وما كان قبل اليوم إلّا أخا السهى   ينادم في الأُفق النجوم الحوانيا
فألوى به الخطب المهدّ فرده   حطاماً بصحراء الفجيعة خاويا
أُعنّي على البلوى لنثر خواطري   وألهمني السلوى لجمع شتاتيا
فما أنا إلّا بعض ذاتك إن تغب   فلم تبق إلّا صورة لبقائيا
أخا الودّ غاض الودّ بعدك وانطوت   ليالٍ بها كنت السمير المناجيا
مضيت وما أبقى لي الدهر من رجاً   فغشيت زهو العمر باليأس راجيا
وخلّفت ما بين الضلوع مجامراً   تزاحم في نار الولوع المآقيا
كأنّي لم أفجع بمثلك راحلاً   ولم أفتقد من قبل فقدك غاليا
هتكت حجاب الصبر بين جوانحي   ولم تبق في ساح التجلّد باقيا
بغيرك ذكرى الموت سانح فرصة   لخوض بأحداث تحيط دواميا
ولكن خطباً مثل خطبك فادحاً   يلاشي بعينيّ الخطوب الدواهيا
يسمّرني عند انهيارك واهياً   كأنّك ما فقت الجبال الرواسيا
فأذكر والذكرى تعلّة واجد   عهوداً كما شاء الزمان زواهيا
أقمت بهاتيك المباسم ناطقاً   ورحت بهاتيك المسامع شاديا
تمدّ رواقاً للشمائل عالياً   وتبسط كفّاً بالفضائل جاريا
تناوبها الندمان أندى من الندى   وأطيب من فوح الأزاهر زاكيا
وتعلي مقاماً للكرام ممرّداً   وتدفع شرّاً للئام معاديا
تجشّمت دون المجد دنياً من العلى   طويت لها الأدنى وجزت الأقاصيا
بسعي شريف في المدى متواصل   وعزم صليب كالمهنّد ماضيا

---

١. منّا؛ إذ هي بياض في الأصل.

بـعيداً عـن الزلفى بصادق همّة ... فإن خانك المسعى سموت مراميا
فمن لي بـمئناف يضاهيك عزّةً ... يذود عن الخلق الكريم محاميا
أبت نفسك الكبرى رضوخاً إلى الخنى ... فـأرخصتها دون الكرامة فاديا
أيا منهل الإحسان والفضل والجدى ... رويـدك ما زلنا إليك ظواميا
لننعم في فيض من العطف دافقٍ ... ونجني غمراً من حنانك صافيا
عـقدنا بـنعماك الأماني الغواليا ... فـما لك لم ترع الأماني الغواليا
رويداً فقد أزرى بنا الدهر والتوى ... بـموتك بـتّار يقينا العواديا
ألا ليت شعري كيف يودي بك الردى ... وتوغل في حقل النوى متماديا
ولم ترتوِ الأنظار منك نضارةً ... ولم تشبع الأفكار منك معانيا
فـهذا محيّاك البهيّ يحيطنا ... جـلالاً بألوان البشاشة زاهيا
وذاك نـداك المستحبّ يمدّنا ... بـأعذب من لحن الهزار أغانيا
أشـاقك أن تمضي لصدر أكارم ... فـأدركت صدراً بالأخوّة وافيا
أأرثيك أم أرثي المروءة والندى ... وأبكيك؟ أم أبكي العلى والمآتيا؟
فـحسبك هذا الشعر أوريت زنده ... ليلهب إحساساً ويوقظ غافيا

أعقب ﷺ من الأولاد الذكور أربعة[1]:

أوّلهم: السيّد عليّ، ولد في ٢٥ ذي الحجّة سنة ١٣٦٢، وهو شابّ ذكيّ الفؤاد، حسن الأخلاق، حائز على شهادة «بكالوريوس» في هندسة البناء، يقيم في المملكة السعوديّة، حيث يعمل هناك، له ولد واحد اسمه رضا ولد في ٢٢ ذي القعدة سنة ١٣٩٥[2].

١. وأمّهم كريمة العلّامة الحجّة الشيخ عبدالحسين صادق ﷺ.
٢. أمّه كريمة رشيد أيبو من تجّار طرابلس.

ثانيهم: السيّد حيدر ولد في ٨ رمضان سنة ١١٦٣، وهو من أهل السمت والصلاح، هاجر إلى النجف الأشرف ثمّ إلى قمّ، لتحصيل العلوم الدينيّة، وقد سمعت من عدّة من أهل العلم يمدحون هديه وفضله وتحصيله، وقد عاد إلى جبل عامل سنة ١٤٠٩، وأقام في صير قرب النبطيّة للقيام بالوظائف الشرعيّة، له ولد واحد اسمه محمّد رضا ولد في صفر سنة ١٣٩٥[1].

ثالثهم: السيّد غالب، ولد في ذي الحجّة سنة ١٣٦٨؛ وهو مهاجر للكسب في أبيدجان ـ وفّقه الله ـ له ولد واحد اسمه وليد ولد في ربيع الثاني سنة ١٣٩٤[2].

رابعهم: السيّد محمّد، ولد في ٢٨ جمادي الثانية سنة ١٣٧٩، جامعي.

الرابع ـ من أبناء المقدّس مؤلّف الكتاب ـ: السيّد صدر الدين

ولنذكر ترجمته بقلم سماحة العلّامة الجليل السيّد محمّد صادق الصدر دام ظلّه، وهي ما يلي:

ولد المرحوم السيّد صدر الدين شرف‌الدين في ليلة الرابع من شهر المحرّم سنة ١٣٣٠ في مدينة صور، وكان والده الإمام المرحوم السيّد عبدالحسين شرف‌الدين في القاهرة هو وخاله والدي المرحوم السيّد محمّد حسين الصدر.

وكان سيّدنا الخال ـ رضوان الله عليه ـ يتداول الآراء مع الإمام البشري شيخ الجامع الأزهر في تلك الأيّام، يتذاكر معه في كلّ ما يهمّ المسلمين من مباحث علميّة تعود على المسلمين بالنفع العميم.

كان من أثر هذه السفرة الميمونة كتاب السيّد الخالد المراجعات الذي تعرّض لمباحث الإمامة بصورة تفصيليّة لم يسبق لها نظير.

وقد آب السيّدﷺ ظافراً مستقبلاً وليده الجديد، وقد تفاءل فوضع له اسم

---

١. أمّه كريمة العلامة الجليل الشيخ حسين معتوقﷺ.

٢. أمّه فرنسيّة الجنسيّة.

«صدر الدين»؛ إشعاراً بأن يكون جنديّاً من جنود الدين، الذي تطوّع لخدمته الأب الإمام من قبل، فكان السيّد‌ﷺ طوال أيّامه الزاهية المثل الأعلى للعلماء وللأُمّة كافّةً في خدماته الجليلة الخالدة، التي تمثّلت في مؤلّفاته رضوان الله عليه.

والدين الحنيف لا يخدم الخدمة الخالصة إلّا عن طريق العلم؛ لذلك وجدنا السيّد‌ﷺ قد جنّد أولاده في هذا السبيل، وأرسل الواحد تلو الآخر إلى النجف الأشرف، وعاصمة العلم والدين، ليتفقّهوا في الدين وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم، وكان الأوّل من هذه البعثة الروحية ابنه الأكبر المرحوم السيّد محمّد عليّ، العالم الباحث الجليل، الذي ألّف شيخ الأبطح، فأبرز شخصيّة أبي طالب الزعيم الهاشمي، ومثّلها أحسن تمثيل. وما بلغ عمر السيّد صدر الدين اثنتي عشرة سنة حتّى أرسله السيّد إلى النجف الأشرف مع أخيه السيّد محمّد رضا الشاعر الناثر، وابن عمّه السيّد نور الدين المستشار الأوّل للمحكمة العليا الشرعيّة الجعفريّة في بيروت، ﷺ جميعاً.

أرسل السيّد أشباله إلى العراق؛ ليكونوا تحت إشراف ولده الأكبر السيّد محمّد عليّ‌ﷺ، يغذيهم بحنانه، ويعلمهم من علمه، ويطبعهم على غراره، وهكذا كان لهم خير أخ ومعلّم ومؤدّب.

لبس الفتى العمّة والطيلسان، وتوسّط مع إخوته ساحة العلم، ودخل المعمان وهو مسلّح بالجدّ والذكاء والإخلاص، فكان يومئذٍ المثل الحسن لأصدقائه وإخوانه في تحصيله وسيرته، وازدهار حياته، وكان من ألمع طلّاب العلم والدين، يشار إليه بالذكاء، وقوّة الفكر، وحضور الذهن، وحسن التحصيل، وعلوّ الفهم.

لقد قرأ في الكاظميّة النحو والمنطق على أخيه الأكبر المرحوم السيّد محمّد عليّ، وقرأ في النجف المعاني والبيان والبديع، وسطوح الفقه والأُصول، وحضر الدراسات العليا في هذين العلمين لدى العلماء الأعلام.

ولعلّ السيّد صدر الدين‌ﷺ كان يومئذٍ أبرع من حمل القلم في حسن تعبيره ودقّة تصويره، وإشراق ديباجته من بين أصدقائه وأقرانه.

وكان أوّل موضوع لفت إليه الأنظار المرأة العربيّة قبل الإسلام نشرته مجلّة العرفان الصيداويّة، والموضوع كان متسلسلاً في عدّة أعداد من المجلّة، والعرفان يومئذٍ حلبة الأدب في العراق وسوريا ولبنان، ولها الصدارة في نفوس الأدباء والأعلام.

وكان هذا البحث محلّ الإعجاب والتقدير من كبار الأدباء، وقد دلّ على أنّ للكاتب الشابّ منزلة كبيرة في النثر، سيحتلّها في أقرب وقت.

وهكذا كان، فقد نما الشابّ نموّاً عظيماً، وطفر طفرات سريعة في سنوات معدودة قد هيّأت له المحلّ اللائق به، الذي احتلّه بين أدباء العربيّة المعجبين به وبعبقريّته الفذّة.

في هذه المرحلة من حياته العلميّه والأدبيّة ـ وسنّه لا يزيد على العشرين ـ ألّف كتابه المخطوط الزهراء عليها السلام الذي أرّخ حياتها، وأبان عظمتها وبلاغتها وشتّى صفاتها التي أعدّتها بحقّ لأن تكون «سيّدة النساء»، وقد نشر بعض مواضيعه في مجلّة الديوان التي كان يصدرها هو وأخوه المرحوم السيّد محمّد رضا.

وفي هذه الفترة من الزمن ألّف ونشرت كتابي الشيعة ـ وذلك سنة ١٣٥٢ ـ مدافعاً فيه عن آراء الشيعة الإماميّة، التي تعرّض لها بالنقد والتجريح الدكتور أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام.

وقد أحدث الذين لا تروقهم موضوعيّة البحث ضجّةً كبرى حول صدور كتاب الشيعة الأمر الذي جعل المرحوم السيّد صدر الدين أن يتريّث في إصدار ونشر بكتابه الزهراء، وقد بقي الكتاب بعد فوات الأوان في طيّ الإهمال والنسيان.

وكان المرحوم السيّد صدر الدين في هذه المرحلة من حياته الزاهرة في النجف الأشرف قد بشّر في النثر، وعرّف الحلقات الأدبيّة فائدته ومنزلته، وأبان ضرورة إدخال النثر في المحافل الأدبيّة التي تقام بمناسبة الأفراح والأحزان.

وقد حمي الوطيس بين المتعصّبين للشعر، وبين المفضّلين للنثر في سوق أدبي أشبه بسوق عكّاظ، وكان للسيّد صدر الدين وإخوانه مواقف مرموقة رفعت النثر في نظر النجفيّين، وحسبوا له ألف حساب.

نشأ السيّد صدرالدين ـ كما عرفت ـ نشأته الدينيّة الخالصة التي لا تشوبها شائبة، وقد رأى انحراف كثير من الشباب المتمدّن، وانجرافه في سيل من الدعوات الضارّة التي تخرجه عن دينه وتقاليده، فدعا إخوانه وأصدقاءه لأن يتسلّحوا بسلاح العصر من الثقافة العامّة، والخطابة والكتابة؛ ليستطيعوا ردّ عادية كلّ من أراد الكيد للإسلام والمسلمين.

وقد رأى أن يبدأ بالخدمة عن طريق الصحافة فأصدر هو وأخوه المرحوم السيّد محمّد رضا مجلّة الديوان في بغداد، وكانت من أهمّ المجلّات الأدبيّة التي صدرت في العراق من حيث الإخراج، وأهميّة المواضيع والبحوث.

وأُذكّر أنّي نشرت مقالاً في الديوان أعادت الرسالة في مصر نشره باسمي، بدون أن تشير إلى نقله عن مجلّة الديوان، فوجّه المرحوم السيّد صدر الدين رسالةً أدبيّةً رائعةً بعث بها إلى الرسالة عن لسان الديوان على طريقة الشعر المنثور معتبراً هذا الإغفال كنوع من الدلال.

وقد ضاهت الديوان المجلّات الراقية، واحتلّت الصدارة في نفوس الأعلام في البلاد العربيّة كافّةً، ولكن لم يكن لها من المادّة ما يضمن حياتها باستمرار، فوأدت نفسها واحتجبت عن الأنظار.

وقد رأى ﷺ بعد احتجاب الديوان أن يضحّي، فيترك زيّه العلمي والديني، ويقتحم ميدان الشباب بزيّهم ولباسهم، يرشدهم إذا ضلّوا، ويهديهم إن انحرفوا عن سواء السبيل.

لذلك فضّل أن يدخل في المعارف أُستاذاً يواجه الطلّاب وجهاً لوجه، ليتعرّف على دخائلهم وآرائهم ومطويّات نفوسهم، فدرّس في ثانويّة الكرخ في بغداد، وثانويّات الحلّة وكربلاء والنجف، وكان في كلّ هذه الإعداديّات مثال المدرّس الكفوء الذي برهن على إخلاص، وقوّة شخصيّة، وفضل عميم.

وقد تخرّج على يديه طوال أيّام تدريسه زمرةٌ طيّبةٌ فيها الكثير ممّن أصبح اليوم أُستاذاً في جامعة، أو سفيراً في وزارة، أو وزيراً لشعب.

وكل فرد من هؤلاء يحمل في نفسه له ما يحمل الطالب المخلص من إكبار تجاه أُستاذه البارّ.

واذكر باعتزاز من طلّابه النابهين الذين حفظوا له العهد، وساروا على الطريق المستقيم الدكتور أحمد عبدالستّار الجواري، والأخوين الدكتورين مصطفى كامل ياسين، وعليّ غالب ياسين بارك الله فيهم، وجعلهم قدوة لشباب اليوم.

وقد استطاع ﷺ بما أُوتي من علم وحزم أن يزرع في نفوس طلّابه الكثيرين حبّ الخير والخلق الكامل.

وكان في هذه الفترة التي قضاها في خدمة الطلّاب عن طريق المدرسة ينشر المقالات الأدبيّة، والبحوث الإسلاميّة في مختلف المجلّات الشهريّة الشهيرة.

كما أنّه في هذه الفترة ألّف كتابه الجليل هاشم وأُميّة، وقد طبع في بغداد. وقد حرّر كثيراً من بحوثه في المراحل التي كان يقطعها ذهاباً وإياباً بين الكاظميّة وبغداد في طريقه إلى ثانويّة الكرخ.

وكان الطريق يستغرق مدّةً حيث يقتصر يومئذٍ على عربة السكّة التي تجرّها الخيول، وكان للخيل يومئذٍ جولة، وكان للكاتب الراحل جولات أحرز فيها السبق بكتابه القيّم هاشم وأُميّة الذي أرجو أن يعاد طبعه ليعمّ نفعه.

والكتاب بحوث تأريخيّة إسلاميّة فذّة، قلّما عرفت المكتبة العربيّة مثيلاً لها في دقّته وتحليله، وحسن تحريره.

ونحن اليوم أحوج ما يكون إلى أمثاله من المؤلّفات النافعة.

ولقد سئمت نفس السيّد صدر الدين الطموحة جمود الروتين السائد في وزارة المعارف.

ورأى أن يخدم أُمّته عن طريق الصحافة التي فطر على حبّها منذ الصغر، ولكن الخدمة هذه التي يحلم بها، والتي يأمل أن تنتج النتائج الحسنة لا تأتي عن طريق الأدب؛ لأنّ الصحف الأدبيّة في إطارها الخاصّ لا تستطيع أن تعالج الأُمور الاجتماعيّة معالجةً فعّالةً، كما أنّها لا تقدر أن تقتحم ميدان السياسة عن طريق قريب أو بعيد.

لذلك رأى ﷺ أن يطرق باب السياسة، وسلاحه ضمير حرّ وفكر نيّر، وقلم عربي مبين، يوجّهه إخلاص لله تعالى وللوطن، وحبّ للمصلحة العامّة، فأصدر جريدته اليوميّة السياسيّة الساعة الشهيرة، فرحّب الناس بها كلّ الترحيب؛ لما عرف عن صاحبها ﷺ من كفاءة ومقدرة وخبرة ومشاركة فعّالة في أكثر المناسبات التي يجب معرفتها، وحسن التعبير عنها.

وكانت الساعة طوال أدوار حياتها خير وسيلة للتعبير عن شتّى المناسبات الإسلاميّة التي كان الناس يحسّون بالحاجة الماسّة إلى فهمها، والتعبير عن مفاهيمها.

ولعلّ الساعة كانت في هذه النواحي أبرز من أيّ مجلّة إسلاميّة. ترى نفسها مختصّةً بإفهام وتقييم مثل هذه المعاني السامية.

وقد يكون اهتمام صاحب الساعة ﷺ بإصدار عدد خاصّ بالإمام الحسين عليه السلام من كلّ عام لأقوى دليل على ما نقول عن هذه العناية التامّة بهذه الشؤون الإسلاميّة العامّة.

ولقد كانت هذه الأعداد الخاصّة الراقية ملتقى أقلام الأعلام في العراق ومصر وسوريّا ولبنان، ولو جمعت في كتاب لكانت خير سفر حول رزء الطفّ الرهيب.

لقد صدرت الأعداد الأُوَل من جريدة الساعة وأنا يومئذٍ في دمشق بإجازة اعتياديّة طلباً للراحة والاستجمام، وقد أرسلها ﷺ إليّ بعنواني الخاصّ للاطّلاع عليها.

وكانت استقالته من التدريس، وإصدار الساعة من المفاجآت غير المنتظرة.

وقد أرسلت له رسالةً أُبارك فيها الخطوة الجديدة متمنّياً له التوفيق والتسديد.

وقد استشعرت من العدد الأوّل الميل إلى جماعة خاصّة. فطلبت إليه الابتعاد عن التحيّز. والسير بالجريدة إلى الأمام، واضعاً نصب عينيه الصالح العامّ.

ولاحظت أنّ صاحبها ﷺ كان من أوّل الطريق يعرف جيّداً بدقّات ساعته نبض السياسة والمجتمع في العراق يدير بعقاربها عقرباً عقرباً، يوجّهه حيث شاء من

نقد سياسة، أو تجريح سياسيّين يَلْسَب هذا، ويلسع ذاك من ساسة البلد لسبّات قارصة، ولسعات موجعة لا تعرف عقاربها الشفقة ولا الرحمة، ولا سيّما في حقل عقارب الساعة الذي كان مختصّاً بهذه اللسعات، وقد اضطرّ المرحوم أخيراً إلى حذفه؛ لكثرة ما سمع من نقد وكلام.

وكان في الساعة حقل خاصّ بقلم المرحوم السيّد صدر الدين بعنوان «أشتات مجموعة»، وكان لا يخلو في كلّ يوم من التوجيه والنقد الاجتماعي النزيه، ويديره في كثير من الأوقات على اللسعات، ولكن بصورة غامضة لا يلتفت إليها القليل.

والساعة كانت ذا طابع خاصّ بين الجرائد السياسيّة في بغداد، فقد كانت تمتاز بأسلوبها وتبويبها، وحسن اختيارها، وأهميّة مواضيعها، وبما تنشره من أدب جمّ، وسياسة بنّاءة، وبلاغة في التعبير عن أهمّ المواضيع السياسيّة التي كانت تشغل القادة والسياسيّين في مختلف الأقطار العربيّة.

وقد طوّرت الساعة في بغداد الصحف السياسيّة، وألجأتها إلى الاهتمام في جمال التصوير، وحسن التحرير، وكانت لها المثل الذي يحتذى.

وأهمّ شيء في جريدة الساعة هو الافتتاحيّة التي كانت تعالج النقاط السياسيّة الحسّاسة التي تكون موضع النقاش عند الأحزاب، وفي المجالس الرسميّة الأعيان والنوّاب.

وفي المواضيع المبحوثة سابقاً مالو نشر الآن لأفاد في كثير ممّا نحسّه اليوم، فقد كانت حاسته السياسية عاليةً جدّاً لا تقصر عن إحساسه الأدبي، يساعده في ذلك حسّه المرهف الذي كان يقرّب له كلّ بعيد، ويدني من فهمه كل صعب شديد.

كانت جريدة الساعة تقرأ من قبل الطبقات كافّةً، فقد كان يقرأها الطالب الروحي والسياسي، وابن الشعب.

أمّا الروحي؛ فلأنّه يرى فيها من المحافظة على القدسيّات الإسلاميّة ما يحبّبه بها ويقرّبه إلى تلاوتها؛ تقديراً لوعيها الإسلامي.

ويرى السياسي في الافتتاحيّة من التحليل لأحداث الساعة ما يفرض عليه الاهتمام بالاطّلاع عليها، وانتظارها في كلّ صباح وإن اختلف معها في الرأي.

وأمّا ابن الشعب؛ فإنّه يرى فيها معالجة كثير من الأوضاع التي يشكوها، كما يلمس مشاركة الصحيفة له في ما يهمّه من الأُمور الدينيّة التي نشأ عليها، وسار على تقديسها في حياته الاجتماعيّة.

وهذا ما دعا الجميع إلى الاهتمام بصحيفة الساعة الأمر الذي كان يلمسه أكثر القرّاء بصورة واضحة في كلّ الأدوار التي مرّت بالساعة ما دامت الساعة تدور، وعقاربها تشير إلى الحركة، ودقّات قلب صاحبها ينبض بالحياة.

ولقد حمي الوطيس بين صاحب الساعةﷺ وبين كثير من ساسة البلد الذين كانوا يتعاقبون على الحكم، وكان كلامه يشتدّ عليهم إذا كانوا في الحكم، فإذا اعتزلوا ورجعوا إلى قواعدهم من دورهم كانت الهدنة الدائمة.

لقد خاصم المرحوم السيّد صدر الدين وزارة توفيق السويدي[1]، واحتدّ النزاع، وكتب حول المرحوم السويدي افتتاحيّةً أقضّت مضجعه، فقال في بعض مجالسه الخاصّة: ماذا يريد صدر الدين لقد أقضّ مضجعي، وما عرفت عيناي المنام طوال الليل عند اطّلاعي على افتتاحيّة الساعة، فماذا يريد صدرالدين؟

ليس لي معه عداوة سابقة إنّي أحترم والده، وأعرف مقامه وخدماته الوطنيّة والإسلاميّة، ولا أذكره إلّا بإكبار، فماذا يريد صدر الدين؟

والواقع أنّ المرحوم السيّد صدرالدين كان يحترم السويدي أيضاً، ولكن كان يختلف معه في الرأي فانتقد أعماله السياسيّة بشدّة وقسوة.

وهكذا اشتدّ النزاع بينه وبين الحزب الديمقراطي، وكانت جريدة الأهالي لسان حال الحزب، وكانت الردّ على الساعة، تنشر فيها من قبل الرئيس المرحوم كامل

---

١. زعيم شهير من العاملين في القضايا العربيّة، ولد سنة ١٣٠٨، وعيّن عميداً لكلّيّة الحقوق في بغداد، فمديراً للعدليّة، فوزيراً للمعارف، وقد ترأس الوزارة ثلاث مرّات، كما أسّس حزب الأحرار، توفّي في بيروت سنة ١٣٨٨. انتهى ملخّصاً عن الأعلام ج ٢ ص ٩٣.

الجادجي، وتارةً من قبل نائب الرئيس الأُستاذ حسين جميل، وإن كانت التواقيع تغفل في أكثر الأحيان.

وكان القرّاء بانتظار صباح كلّ يوم، ليطّلعوا على افتتاحيّة الساعة، وردّ الأهالي.

ولقد استغلّ بعض العامليّين ما نشره المرحوم السيّد صدر الدين في مجلة العرفان من مقاله المعنون «هنا ولدت»، فرغبوا إلى جريدة الأهالي أن تطالب بنزع الجنسيّة منه؛ فالمقال ينصّ على ولادته.

وما كان السيّد صدر الدين لينكر محلّ ولادته في يوم من الأيّام، والمقال دليل على سوء فهم القائل؛ لأنّ السيّد صدر الدين؛ يريد أن يعترف للعرفان بالجميل، وإحسانها إليه، حيث كانت مفتاح شخصيّته، ومحلّ ولادته الأدبيّة؛ إذ كانت السبيل إلى شهرته، وتعريف الناس بأدبه، وهو غير ناظر إلى ولادته ومسقط رأسه في أيّ محلّ كان.

وكان نائب الحزب حسين جميل بعد رجوع السيّد صدر الدين إلى لبنان مثال الصداقة والوفاء؛ لاطّلاعه على نفسيّة المرحوم ونبله، ووفائه الشديد للعراق وأهله.

ويذكر حسين جميل المرحوم السيّد صدر الدين بكلّ احترام وإكبار، تقديراً للعلم، ومعرفةً للجميل.

لقد كان المرحوم السيّد صدر الدين في أكثر أدوار الساعة في تفاهم كامل مع المرحوم صالح جبر، والدكتور فاضل الجمالي، والمرحومين السيّد عبدالمهديّ وصادق البصام، وكان من المؤيّدين لسياستهم الداخليّة في كثير ممّا يذهبون إليه، كما أنّهم كانوا ينشرون في الساعة كثيراً من الآراء بأسمائهم، أو بتواقيع رمزيّة.

لقد أدركت أوّل الأمر ميله الواضح إلى المرحوم صالح جبر وجماعته ـ كما ذكرت سابقاً ـ وطلبت منه أن يبتعد عن كلّ حزب، فأجاب على الرسالة بدون أن يعرض إلى هذه الناحية.

وفي نهاية المطاف اشتدّ الخلاف بينه وبين صالح جبر، وكان هذا الخلاف حديث

الأندية في حينه، فما السبب في ذلك يا ترى؟

إنّ دوافع الجفوة ألتي مهّدت إلى الخلاف سببها الوحيد الانتخابات التي اجراها المرحوم صالح جبر أيّام وزارته فقد طلب السيّد صدر الدين﵀ من الرئيس صالح جبر الموافقة على أن يرشّح نفسه عن لواء كربلاء، واللواء يترشّح عنه في كلّ دورة عدّة نوّاب فليس السيّد صدرالدين ببعيد عن اللواء؛ نظراً لعلاقاته الخاصّة بالناس أيّام تدريسه، ولبنوّته للإمام المرحوم السيّد عبدالحسين شرف‌الدين الذي يحترمه اللواء ويعرف قدره ومقامه، الأمر الذي يجعل ترشيحه عنه قريباً من نفوس أهل اللواء.

ولكن السيّد صدر الدين لم يجد أذناً صاغيةً من الرئيس صالح، واعتذر له بأنّ أهل اللواء أحقّ بالنيابة ممّن كان خارجاً عن لوائهم، وهذا العذر وإن كان وجيهاً بحسب الظاهر ولكن عمل الوزارات العراقيّة في كلّ الأدوار على خلاف ذلك؛ فإنّ شخصاً معيّناً يرشّح عن لواء خاصّ، ويكون نائباً عنه في دورة، وليس له أيّ ربط في ذلك اللواء، وأمثاله كثيرون يعرفهم المتتبّعون.

لقد أثّر هذا الرّد في نفس السيّد صدرالدين أثراً مؤلماً؛ لأنّ السيّد صدر الدين له خدمات لصالح لاتنكر، ولم يكن لصالح تجاه ذلك أيّ خدمة تقابل تلك الخدمات، ولكن السيّد صدر الدين مع هذا كتم آلامه في نفسه، ولم يؤثّر هذا الردّ أثراً ظاهراً على تصرّفاته، وعلى سيره في الجريدة، وأيّده في سياسته الداخليّة على عادته، ولم ير من المناسب أن يكون سبب الخلاف أمرٌ خاصّ يسند إلى الترشيح للنيابة، أو لغيرها من الأسباب الشخصيّة، التي تعود إلى الصحيفة أو إلى صاحبها.

ولكن لمّا قدّمت معاهدة «بورتسموث» التي أراد المرحوم صالح جبر عقدها، والقيام بتصديقها أعلن عندئذٍ المرحوم السيّد صدر الدين مخالفته الصريحة في المجالس الخاصّة، وعلى صفحات الساعة؛ لأنّ المعاهدة هذه تخالف المصلحة العراقيّة العامّة، وتتنافى مع الحرّيّة والكرامة الوطنيّة، وقد أبان﵀ في

كتابه سحابة بورتسموث[١] كلّ ما فيها من أضرار، وكشف كلّ ما دار وراء الكواليس من أسرار.

وقد أراد جمال بابان نائب رئيس الوزراء بعد سفر الرئيس صالح إلى لندن التفاهم مع السيّد صدر الدين، ولكن لم تجد معه المساومة ولا المقاومة، وكان من أمره ما كان.

كان أوّل أمر أصدره الرئيس صالح جبر في أوّل يوم من رجوعه إلى بغداد منع الكتاب، وجمع نسخه من المكتبات.

ولكن الوزارة تضطرّ إلى الاستقالة أمام غضبة الشعب، ويؤلّف الوزارة المرحوم سماحة السيّد الصدر بين الهتاف والتهليل والتكبير، ويعود الكتاب إلى أيدي القرّاء ينهلون منه، ويستفيدون من ينبوعه الفيّاض، وقد أخذ الحاقدون والناقمون على المرحوم السيّد صدر الدين بعد عودة الحكم إلى نوري السعيد يسعون إلى إبعاد السيّد صدر الدين عن العراق، وسحب الجنسيّة منه.

وقد صرّح لي الأستاذ نجيب الراوي مرّات عديدةً أنّ القوم ينوون الشرّ لصدر الدين، فأوصيته بالهدوء وعدم النشر؛ لئلّا يكون لهم عليه الحجّة.

ولكنّه‍ لايقرّ له قرار، فدفع إلى المطبعة بكتابه الجديد صورة العراق الحاضرة، انتقد فيه الوضع السياسي، وانتقد الساسة الحاكمين، وفي مقدّمتهم نوري السعيد. لذلك أُوقف الكتاب، وأُمر بحجز نسخه، وحرّض الحاقدون نوري السعيد على إخراج السيّد صدر الدين، فأمر بتوقيفه.

فذهبت لمديريّة الشرطة العامّة، وكفلته بعشرة آلاف دينار، وأخرجته وأوصلته إلى داره في الكاظميّة على أن يسافر إلى لبنان في الصباح، وهكذا كان الأمر، فسافر‍ مع عائلته عن طريق أبي الشامات، وواصل السير إلى صور حيث كان والده الإمام‍ وسائر الأرحام والأصدقاء بانتظاره، وذلك سنة ١٣٦٨، وأقام في

---

١. طبع في دار العلم للملايين في بيروت سنة ١٩٤٨.

صور بعيداً عن السياسة والسياسيّين، وبقي﴿﴾ وفيّاً لبلده العراق، فما نشر طيلة السنين الماضية عنه إلاّ ما يرفع قيمته، ويظهر عظمته، وتناسى كلّ ما صنعه معه السياسيّون وأتباعهم، ولم يذكرهم بمدح أو قدح، شأن الرجل الشريف، والسيّد الجليل، الذي يعرف نفسه، ويحفظ حقّ غيره، ولو كان له ظالماً.

رجع السيّد صدر الدين إلى لبنان موطن أهله وأُسرته، ولكنّه كالغريب؛ لأنّه نشأ في العراق، وتربّى في تربته، وتعلّم في مدارسه، وتخرّج على أيدي أساتذته، ولم يعرف من لبنان إلّا ما عرفه عنه أيّام طفولته.

رجع إلى صور بعائلته الكبيرة في كنف والده الإمام، فأحاطه الجميع بالعناية والرعاية كما هو شأنه ــ رضوان اللّه عليه ــ من العطف والحنان نحو البعيد فضلاً عن القريب.

وقد رأى السيّد صدر الدين﴿﴾ في تلك الفترة أن يصدر مجلّته الأدبيّة الراقية الألواح في بيروت، وقد اشترك في تحريرها نخبة من أُدباء لبنان المشهورين، وجماعة آخرون من أُدباء سائر البلاد العربيّة، ونالت شهرةً واسعةً بمدّة قليلة، ولكنّ الوضع الاقتصادي الخاصّ بها قصّر من عمرها، فخسرتها الثقافة والآداب الرفيعة. ولم تصدر سوى سنةً واحدةً بعد أن كانت خير صلة ربطت الحديث بالقديم، ووصلت بين جماعة الأُدباء هنا وهناك على «لوح» واحد جمع شملهم، وآلف قلوبهم، وحفظ آثارهم النافعة.

رزئ العالم الإسلامي بفقده والده الإمام سنة ١٣٧٧، وانطفأ ذلك النور في صور، وقد رأى السيّد صدر الدين بعد فقد والده الإمام أنّ من واجبه الديني أن ينصرف إلى الأعمال التي كانت الهدف للسيّد في حياته من نشر العلم، وخدمة الدين، والدفاع عن الحقّ، فألّف ونشر وكتب كلّ ما كان يرى في نشره الفائدة، وقد ركّز على الأُمور التالية:

١ ــ تأسيس مجلّة النهج، وقد نشر فيها من البحوث الإسلاميّة، والدفاع عن المذهب ما جعلها تنهض بكثير من الواجبات.

٢ ـ تأسيس مدرسة النجاح، وقد أنشأها ليحفظ بها عروبة النشء وأخلاقهم، وعهد بالقيام بها إلى ولده السيّد مصطفى الذي سار بها على نهج أبيه، وكان يقوم بالإشراف عليها طوال حياته.

٣ ـ إنشاء جمعيّة الإنماء الثقافي في صور؛ لتكون همزة وصل بين أُدباء البلد ومثقّفيه وكانت برئاسته وتحت إشرافه.

٤ ـ إنشاء دار النهج؛ لنشر الكتب الصالحة التي تخدم العلم والدين والأدب، وقد وفّقت لنشر ما يلي:

١ ـ النصّ والاجتهاد، في طبعته الثانية التي حوت الزيادات التي أضافها والده الإمام في حياته، فجاء الكتاب مع هذه الإضافات خير ما وصل إليه العلم في الفكر والأدب في التحرير والتصوير.

٢ ـ زيارة الأربعين، للمرحوم السيّد صدر الدين، وهي صورة معبّرة عن فترة مرّت على العراق، بأسلوب انتقادي قد يصعب هضمه على الكثيرين.

٣ ـ كلمة ومناسبة، للسيّد صدر الدين، ضمّنها بعض ما قاله في المناسبات الدينيّة التي واجه بها الجموع الحاشدة المتعطّشة لسماع أقواله وآرائه.

٤ ـ حليف مخزوم، للسيّد صدرالدين، وهو الكتاب الجليل الذي قدّمه للقرّاء والده الإمام، معلّقاً عليه الآمال الجسام، وهو خير ما خرج من قلم المرحوم بلاغةً وأسلوباً وتحليلاً ونضوجاً في الفكرة، وفهماً واقعيّاً للتأريخ.

٥ ـ شيخ المضيرة، للمرحوم الشيخ محمود أبو ريّة[١] الذي مثّل فيه حرّيّة البحث والانقياد للعقل، والبعد عن التعصّب، والوصول إلى الحقائق على ضوء البرهان والدليل.

---

١. من علماء القاهرة المحقّقين، حقّق في السنّة النبويّة، وعرى الأيادي التي دسّت فيها، يندفع فيما يكتب إلى نصرة أهل البيت، ولد سنة ١٣٠٧، وقد أُوذي في سبيل العقيدة الإسلاميّة إيذاءً شديداً، واستمرّ إلى آخر يوم في حياته يناضل عن الحقّ بصدق وإيمان، توفّي سنة ١٣٩٠. انتهى ملخّصاً عن رجال الفكر في القاهرة ص٢١٢.

هذه ما سمحت به صحّته وظروفه الخاصّة، ولو تصدّى بعض الباحثين إلى جمع مقالاته المنشورة في الديوان، والعرفان، والألواح، والنهج، وجريدة الساعة لجاء بكتاب فريد يحتوي على عدّة مجلّدات، تجمع بين العلم والدين والأدب والسياسة، وما أحوج الثقافة العصريّة اليوم إلى مثل قلمه العالي، ونثره البليغ، وأدبه الرفيع، ومن أولى من مصطفى بأبيه في القيام بهذه الخدمة الأدبيّة الخالدة التي تشكرها له الأجيال؟

وحبّذا لو جعل مجلّداً خاصّاً يجمع فيه كلّ ما كتبه في أهل البيت عليهم السلام باسم «أهل البيت»، وفي الصدر مقدّمة أبيه التي كتبها آخر حياته فيهم عليهم السلام، وليكن هذا المجلّد باكورة الأعمال، حقّق اللّه فيه الآمال إن شاء اللّه.

كنت في لبنان سنة ١٩٧٠، وكان السيّد صدر الدين رحمه الله في صحّة متلاشية، وفي الشوط الأخير من حياته، ولكنّه ـ وهو في مرضه الشديد ـ لا يشكو ولا يتبرّم، ويعطي نفسه للفكر، كأنّه على أحسن ما يرام من الصحّة والنشاط.

تراه في يده القلم، وفي اليد الأخرى السيكارة التي لا تكاد أن تفارقه في حال، وأمامه «قوري الجاي» على المنقل، فما يكاد يتمّ كأس الجاي، حتّى يتبعه بالآخر، وهكذا دواليك بدون حساب ولا كتاب.

وفي تلك الأيّام التي كانت آخر أيّامه في الحياة كتب مقدّمةً لكتاب كان مشغولاً بالتفكير بتأليفه، وكان رحمه الله قد وضع له اسم «اثنا عشر إماماً».

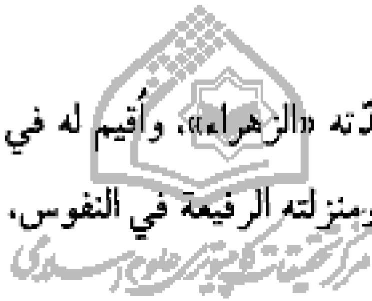
وكانت المدّة التي فكّر فيها في وضع مثل هذا الكتاب أوائل تأسيس «النهج»، وهي مدّة طويلة كافية، وفي حال جيّدة من صحّته، تتّسع للتأليف والتفكير، وإنجاز مثل هذه المهمّة، ولكن ظروفاً خاصّةً قاهرةً ـ على مايظهر ـ حالت ـ واأسفاه ـ دون تأليف هذا الكتاب على نحو ما فكّر وقدّر.

وأظنّه كتب المقدّمة؛ لتكون من بعده مقدّمةً لكتاب في «أهل البيت» يجمع فيه كلّ ما كتبه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وبضعته الزهراء، وسبطيه الحسن والحسين، وعن الإمام عليه السلام وحفيده الإمام زين العابدين عليه السلام والإمام الرضا عليه السلام، فإنّه لو جمع ما كتبه

فيهم عليهم السلام لكان من خير الكتب فائدةً، وأجلّها عائدةً[١].

ولعلّه رحمه الله أحسّ بدنوّ أجله، فأراد أن يواجه الله تعالى بخير عمل يقدّمه بين يديه، فكتب المقدّمة وهو أدنى إلى الموت، ووضعها في قميصه، وأمسّها صدره؛ ليكون ذلك تقرّباً إلى الرحمن، ورمزاً لعظيم الإيمان رحمه الله، وعرّف بينه وبين أجداده الطاهرين في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

توفّي رحمه الله في بيروت يوم الأحد ٤ ذي القعدة سنة ١٣٨٩، ونقل إلى صور بتشييع حافل، اشترك به جماعة من موظّفي السفارة العراقيّة في بيروت، كان في مقدّمتهم الملحق العسكري، وقد ظهر عليه التأثّرات النفسيّة ممّا أثار انتباهي، وقد لاحظ انتباهي فقال: إنّه أُستاذي، ومن حقّه أن أبكيه وأحزن على فقده، فقد كان رحمه الله بارّاً بطلّابه الأوفياء.



وقد دفن إلى جنب جدّته «الزهراء»، وأُقيم له في نادي الإمام الصادق عليه السلام أُسبوع حافل دلّ على مقامه ومنزلته الرفيعة في النفوس، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه.

---

١. وله أيضاً من المؤلّفات ما يلي:

١ ـ كلمة في المولد والهجرة: وهي محاضرة ألقاها في الاحتفال بالمولد النبوي الذي أقامه المقدّس والده في مسجد صور سنة ١٣٥٣، وقد طبعت في نفس السنة.

٢ ـ خليفة النبيّ صلى الله عليه وآله: وهي محاضرة ألقاها في الاحتفال بعيد الغدير الذي أقامه والده أيضاً في نادي الإمام الصادق عليه السلام سنة ١٣٦٨، وقد طبع في وقته، وهذان من أنفس ما أخرجه قلمه يكشفان عن تفوّقه، وعمق تفكيره، وبلاغة قلمه وبيانه.

٣ ـ شاعر الله: كتاب عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام، قيّم نفيس في موضوعه لم يتمّ.

٤ ـ بيوت من زجاج: كتاب أدبي حياتي كان يتمثّله حاكياً الحرب والسلم لتولستوي، إنّما أحدث زمناً يريده صورةً لأحداث الأُمّة العربيّة بين الحربين وما بعدها شاملاً شخصيّاتها الأساسيّة.

٥ ـ محنة العراق: كتاب صوّر فيه الوضع السياسي في العراق أثناء ثورة رشيد عالي الكيلاني. راجع ترجمته في الأعلام للزركلي ٣: ٢٣ ـ ٢٤. مطبوع.

٦ ـ كان في اليمامة: قصّة تحكي حياة العصر بثوب تأريخي يعود إلى صراع طسم وجديس على الحكم في اليمامة وهو مطبوع.

ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم، وألهمنا الصبر على فقده، فقد كانت حياته مأساة، وموته فجيعة.

نثره وشعره

كان نثر السيّد صدر الدين من الطراز الأوّل فيما نعرف من الكتّاب من حيث عمق التفكير، وبلاغة التعبير، وحسن الأداء.

وكان أوّل أمره يميل إلى الغموض، فلا يفهمه إلّا الفاهم العارف بأسرار الفصاحة والبلاغة، شأنه في ذلك شأن العقّاد والرافعي أوائل أمرهما، فيما كان يصدر عنهما من تأليف، أو تحرير موضوع، ولكن هؤلاء الثلاثة ـ العقّاد والرافعي وصدر الدين ـ قد عدلوا عن هذه الطريقة، إلى وضوح الفكرة وحسن الأداء.

ويتجلّى ذلك بصورة ملموسة في ما كتبه الرافعي في مجلّة الرسالة، وجمعه بعد ذلك في كتابه وحي القلم، وفيما دبجه العقّاد في العبقريّات، وفي ما حرّره صدر الدين في افتتاحيّات الساعة، وكتبه في حليف مخزوم.

وكان هؤلاء الثلاثة أصحاب مدرسة، ولكلّ واحد منهم تلاميذ كثر في البلاد العربيّة آثروا أُسلوبهم الأخير، ومشوا على طريقتهم الخاصّة في التحرير والتفكير.

ولو أقام السيّد صدر الدين في مصر ـ بعد مغادرته العراق ـ لكان له شأن غير شأنه في لبنان، فإنّ مصر تعرف منزلة الكتّاب وقدر المفكّرين بدون ملاحظة للطائفيّة، أو الإقليميّة السائدتين في لبنان في سائر الأدوار.

لقد سافر المرحوم السيّد صدر الدين إلى مصر في السنوات الأخيرة قبل وفاته، واجتمع بالدكتور طه حسين[1] والأُستاذ العقّاد، وكبار الأدباء والكتّاب ـ وأهدى إليهم إنتاجه الأخير حليف مخزوم ـ ومن عرفوا منزلته وقدره.

---

١. من نوابغ كتّاب هذا الزمن ومفكّريه، ولد سنة ١٣٠٧، تولّى عمادة كلّيّة الآداب في القاهرة، ووزارة المعارف، ونال شهرةً كبيرةً ومنزلةً سامية، توفّي سنة ١٣٩٣ [راجع الأعلام ٣: ٢٣١].

وقد كتب رحمه الله بعد رجوعه من مصر إلى لبنان كتاب عشرة أيّام في القاهرة، عبّر فيه عن أفكاره وأحاسيسه وانطباعاته عن تلك السفرة التي دلّت على عمق تفكيره وأدبه الجمّ.

وقد كان رحمه الله يمتاز بالشعر المنثور، وله من هذا القسم قطع نثريّة فيها بلاغة الناثر، وتصويرالشاعر، ولا أعرف اليوم في كتّاب العصر من يجاريه في هذا الشعر المنثور الساحر، وكان هو رحمه الله والمرحوم الزيّات[1] ـ صاحب الرسالة ـ كفرسي رهان يسيران في هذه الحلبة، وقد مات الفارسان فخلا بعدهما الميدان.

وأُسجّل للتأريخ حادثةً وقعت أمامي تعرف منها براعته في هذا المضمار.

لقد أقمنا في دارنا بالكاظميّة حفلةً بمناسبة ميلاد إمام العصر، محمّد بن الحسن المهديّ عليه السلام، وكانت تقتصر على شعر الشعراء الذي أعدّوه للإلقاء، ولكن سيّدنا المرحوم السيّد الصدر ـ وكان ينوّر الدار ويتصدّر الاحتفال ـ قد اقترح على السيّد صدرالدين أن يحرّر كلمةً في ميلاده عليه السلام يلقيها على الحاضرين، فامتثل رحمه الله وحرّر في تلك اللحظات كلمته «نور»، فكانت من أبلغ الكلمات، وكان كلّ حرف منها يشعّ ويثقل في الميزان على ما قاله الشعراء في تلك الحفلة.

وكان السيّد الصدر رحمه الله يعيد كلّ مقطع من مقاطع ذلك الشعر المنثور، مكبراً تلك الإشعاعات التي كانت تتنزّل من ذلك «النور». وله مقطع آخر من هذا الشعر المنثور الذي يأخذ باللبّ والشعور، نشرته له مجلّته الألواح، أفرغ المقطع قلمه المتين في وصف بلبل حزين فقد أفراخه بعد تخريب وكرهم، والعبث بعشّهم، وقد شاء بلبل الشعراء أمين نخلة[2] أن يحتفظ بهذا المقطع بإطار، مثبتاً إيّاه في صدر الدار.

١. هو أحمد حسن الزيّات، أديب من كبار الكتّاب، خصب الإنتاج، جمع بين الثقافتين العربيّة والغربيّة، فكان متين السبك، رائع الأداء، واسع الآفاق، ولد سنة ١٣٠٢، عيّن عضواً في المجلس الأعلى للآداب والفنون، توفّي سنة ١٣٨٨. انتهى ملخّصاً عن الأعلام ج ١ ص ١١٣ وغيره.

٢. شاعر ملهم، ومجدّد مبتكر، يمتاز أُسلوبه بالطراوة، وبجملته السهلة الموسيقيّة التي تلعب فيها الألفاظ دور الأوتار وأكثر، ولد سنة ١٣١٩، وتوفّي سنة ١٣٩٦. انتهى ملخّصاً عن الجديد في الأدب العربي وغيره.

أمّا نظم السيّد صدر الدين للشعر العمودي فقد كان حسناً، ولكنّه لا يتناسب مع نثره البليغ ولا مع شعره المنثور.

وما كان يكثر من محاولة نظم الشعر، وإذا حاول ذلك فإنّه لا ينجح في أكثر الأحيان.

وحاله في هذا حال العالم اللغوي الخليل بن أحمدﷺ[١]، فإنّه كان يقول ما مؤدّاه: إنّ ما أُريده لا أستطيع نظمه، وما أُنظمه لا أرضى عنه.

وكان قبله الأُستاذ العقّاد يحاول ذلك فقد نظم كثيراً حتّى أنّه نشر ديواناً من الشعر وكان يرضى عن شعره، ولكنّه في واقع الأمر أشبه بالنثر منه بالشعر، وهو لا يحوي بنظري من مقوّمات الشعر إلّا الوزن.

ولكنّ المرحوم السيّد صدر الدين لو كرّر المحاولة واهتمّ بالشعر اهتمام العقّاد به لكان من الشعراء المجيدين المعدودين.

وإنّي أحفظ له بعض الأبيات التي توجد فيها مقوّمات الشعر من جرس التعبير، وحسن التصوير، وبلاغة الأداء، فاستمع إليه كيف يتنزّل الشعر عليه فيقول:

تعالي نقرأ الماضي ونفحص عن أماليهِ
وعن سحر الهوى سحراً وكيف نبات نغذيهِ
حباب القلب نطعمه وماء العين نسقيهِ
وننشده قصيد جوىً يظلّ الدهر يرويهِ
ويخفق فوقنا علماً فيطوينا ويطويهِ
تنزّل ملهماً وحياً فيا سبحان موحيهِ

إنّ هذا من الشعر السهل السائغ، الذي يسيل رقّةً وعذوبةً، وليس فيه من التكلّف الذي نحسّه في شعره بالمناسبات الأُخرى.

١. هو أوّل من استخرج العروض، كان من الزهّاد المنقطعين إلى العلم، توفّي بالبصرة سنة ١٧٠. أنتهى عن فهرست ابن النديم [: ٤٨].

لم يكن مكثراً من الشعر، ولم يطرق كثيراً من أبوابه، وإنّما يقوله إذا دعته إلى القول حاجةٌ ـ وهو قليل ـ ولم يحتفظ به كما احتفظ بنثره.

ومن كانت له هذه الثروة العظيمة من النثر كان في غنىً عن أعالي الشعر.

وإنّي لا أزال أذكر له موقفاً خطابيّاً رائعاً كان في غاية البلاغة، هزّ النفوس والمشاعر، فقام بعد الفراغ من الخطاب المرحوم الحاجّ عبدالعزيز البغدادي وقال: أتمنّى أن لا تكون لي ثروتي الماليّة وأن يكون لي مثل هذا الخطاب القيّم.

وكان الأعلام من مراجع العلم والدين في النجف الأشرف وفي إيران يأملون من المرحوم السيّد صدر الدين أن يعود إلى بزّته العلميّة، ويرجع إلى الحوزة الدينيّة في النجف الأشرف، مستعيداً دراساته العليا التي انصرف عنها طوال السنين الأخيرة، والتي ابتعد فيها عن حلقات تلك الدراسات الفريدة.

وكان﵀ يشكر تلك العواطف والعوارف، التي تزخر بها رسائلهم الكريمة، وهو يعدهم على ما هو عليه من وضعه الخاصّ أن يقوم بكلّ ما تتطلّبه المصلحة الدينيّة، وما يوجبه الدفاع عن الإسلام والإيمان، وما يفرضه الولاء لأهل البيت ـ سلام الله عليهم ـ في شتّى الظروف والمناسبات، وأن يكون جنديّاً من جنود الحقّ كلّما دعا الدفاع عنه.

رحمه الله، ونفع بقلمه حيّاً وميّتاً، وهيّأ الله تعالى له من بعد وفاته من يذيع أخباره ويحيي آثاره.﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1]. انتهى.

وترجمه الأديب الفاضل الشيخ عليّ الخاقاني في شعراء الغريّ ج ٤ ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ فقال:

كاتب معروف، وأديب شهير.

ولد في محرّم عام ١٣٢٠، ودرس في النجف مدرسته الأخيرة.

وفي عام ١٩٣٦ ـ ١٣٥٥ ـ عيّن مدرّساً في الملاك الثانوي.

---

١. التوبة (٩): ١٠٥.

وفي شهر آب عام ١٩٤٥ استقال من وظيفته، وأصدر جريدة «الساعة وكانت سياسيّةً فمالت إلى سياسة فخّامة صالح جبر ومماشاتها، وكان قد برهن على صرامة صحفيّه وملاكمات مع كثير من أرباب القلم والساسة، وأدّى إلى اختلاف شديد مع صالح عندما انشغل بمعاهدة «بورتسموث» فقد أخرج كتابه سحابة بورتسموث في نقده، وضمنه كثيراً من الخواطر التي استكثرها عليه الساسة، فضلاً عن غيرهم ممّا أوجب أن تصادره الحكومة، فكان السيّد صدر الدين قد ظهر فيه أنّه البطل الأوّل في الانقلاب والشخصيّة الوحيدة في حلّ المجلس النيابي، وهذا الأُسلوب دفع بالزعيم صالح جبر أن يشمئزّ من هذا السلوك، وأن يتخلّى عنه ممّا دعا إلى تعطيل جريدته، ونزع جنسيّته العراقيّة، وإخراجه من العراق في تموز عام ١٩٤٩.

والمترجم له عرفته منذ النشأة، فقد كان مثال الذكيّ الحيّ، والشباب الروحي المستقيم، وكان وهو في النشأة الأُولى يمتلك أُسلوباً بارعاً، وإنشاءً قويّاً حتّى برز بين كتّاب العربيّة، وبالإضافة إلى ذلك فهو ينظّم الشعر الجيّد، إلّا أنّه مقلّ فيه جدّاً، ومن شعره قصيدة أرسلها إلى أخيه السيّد محمّد رضا من لبنان بتأريخ ١٩٣٩/٨/٦ قوله:

أجرني فديتك من سعرة   لظاها تأجّج في أضلعي
لزت فؤادي في شعلة   تفور على وهجها أدمعي
تراءى خيالك في ناظري   ورنّ نداؤك في مسمعي
فثارت كوامن وجدي المثير   وثارت بنات اشتياقي معي
تريني جمالك وشي الضحى   بحاشية الرونق الممتعِ
تريك روعة ليلي المهيب   تهزّ شعور الذكي الألمعي
تريك أعطر روض نضير   تفوّح في جوّي الممرعِ
تريني سناءك نوراً يموج   على مغرب الشمس والمطلعِ
تريني في كلّ أغرودة   تلاحين من فنّك الطيّعِ
فأهتزّ بالذكريات الحسان   إلى عهدك الأنضر الأروعِ

وتـملكني مـن نـواك الشجون   فـتلقي السـهاد عـلى مضجعي
تـجنّ عشـيّاتي السـادرات   وتـعشو بأقـمارها اللـمّعِ

❊ ❊ ❊

وهـامت نـوازي تـجلو الذي   تسـلّخ مـن عـمرنا المسـرعِ
فـهذي العـذارى تـروّي الظـماء   بـخمر هـوىً مـثلج مـنقعِ
وهـذي الذؤابـات رفّت عـلى   نشـاوى الشـفاه التـي لا تـعي
وهـذي الأمـاسي رنت للشـقيق   فـباح بسـرّ الشـذى الأضـوعِ
وهـذي بكـور الصـبا نـوّرت   أمـاني الهـوى المـونق المـولعِ
وهـذي صـفايا الوداد النـدي   تـهاوى عـلى مسـلك مـهيعِ
يـهدهد روحـي مـهد الصـبا   وأذنك تـحسو حـدا الرضّـعِ



❊ ❊ ❊

تـلفتُّ شـوقاً لمـاضي النـعيم   بـجيد إلى صـفوه مـتلعِ
وطـافت خـوالج مـن ودّنـا   تـطير بـقلب أخٍ مـولعِ
لديـنا جـمال يسـيل نـضاراً   عـلى شـرف الطـبع والمـنزعِ
أدمـامك دجـلة تـوصي الهـوى   وتـوصي الحـنين ألا فـاسجعِ

انتهى ملخّصاً.

ولنذكر نماذج من تآبينه في حفلة الأسبوع

منها: قصيدة لفضيلة السيّد محمّد حسن الأمين حفظه الله[١]:

فـارس الحـرف ساهمات رؤانـا   لصـدى مـنك يـرتمي فـي مـدانـا

---

١. هو السيّد محمّد حسن بن السيّد عليّ مهديّ الأمين من أفاضل العلماء، وشاعر مـجيد قـويّ الأُسلوب، مـتين التركيب، يمتاز بطيب أخلاقه وحسن سمته ولطف معشره، ولد سنة ١٣٦٦، وهو اليوم قاضٍ في صيداء وفّقه الله.

أيّ سـرّ يـلفّ بـالغيب دنـيا　　ك ويـطوي بـصمته دنـيانا
أبـحرت فـيك عـن شـوا　　طئنا الريح فأيّنا يسامر الشطآنا؟
ووقـفنا تـلوّن الحـيرة الخـرسا　　ء مـسنًا الأرواح والأجـفانا
كـلّ يـوم لنـا هـنا وقـفة التا　　ئـه فـي البـيد ضـيّع الركـبانا
وسـؤال وحـيرة وذهـول　　ثـمّ نـلوي نـجرجـر الأردانـا
نـحمل الخـيبة المـريرة زاداً　　ونـواري اللـغوب والخـذلانا
قـدرٌ أن يـلفّ أعـيننا الصـمـ　　ـت وإن شـفّ ضـوءه أحـيانا

＊　＊　＊

فارس الحـرف كـم ضـفرت مـن الـ　　ـحرف على مجتلى الضحى أفنانا
وكـم ابتلّ مـن نـدى كـفّك السمـ　　ـح جـديب فأنـبت الريـحانا
ولكـم نـبتة تـعهّدتها غـر　　ساً فـطالت وأفـرعت أغـصانا
غرس كـفّيك هـذه السرح الخضرا　　ء تـهمي الظـلال والأوانـا
أنت فـجّرت عـبر آفـاقها النـو　　ر ونـضّرت دربـها إيـمانا
لم تكـن تـرتضي لهـا غـير أن　　تسـرج أفـراسها وتـرخي العـنانا
حـيث مـرقى الشـموس يـمتـ　　ـدّ والأنجم تـدنو لشـوطها مـيدانـا
كـنت تأبـى لهـا الجـمو　　د وتـحدوها إلى أن تـمزّق الأكـفانا
غـير أنّ الطـريق قـد أوحش الركـ　　ـب سـراه وأتـعب الفـرسانا
وانـثنت بـالمطهّمات أكـفّ　　حـينما أوشكت تـحوز الرهـانا
وتـراءت لهـا الأمـاني بـعيدا　　ت فـقالت ليـقْطِفْنها سـوانـا
عـذرنا أنّـنا نـهدنا إليـها　　وجـررنا الخـطى فـلم تـتدانى

＊　＊　＊

مـن هـنا كـانت القـوافـل تـمضي　　حـاملات للـناس بـعض هـدانا

عاقداتٍ على مفارقها الشمـ … س (وزلّات أثرى)[1] عنفوانا
حيث تجري تفجّر الخصب في القفـ … ر ويفتضّ خطوها الكثبانا
ناقلات للعالمين حضارا … ت وفكراً يحضر الإنسانا
أين سيف كالبرق يفترع الليـ … ل فينهار مثخناً خزيانا
حين كنّا نعي الصعاب وندري … أنّ بالعزم نسترقّ الزمانا
يوم كانت مدارج الفكر مرقا … نا وكان النضال يوري خطانا
أين منّا تأريخنا هل وعينا … ه حياة وجوهراً وكيانا
أم كفتنا أشكاله فكسونا … عريانه الأجوف الشفوف الحسانا
ونسينا أنّ الرياح عتيّا … ت وسرعان ما تشقّ ردانا
غرباء عن أمسنا غرباء … عن مدانا، عن أرضنا، عن سمانا
يا لزهو الأمجاد أين حكايا … نا الغواني هل أنكرتنا دمانا
أين راياتنا ترفرف في الأصقا … ع والبيد سكرة من علانا
ورفوف السحاب تعجز عن أن … تتخطّى فلولهنّ مدانا
من ترى بدّل الدم العربي الحـ … رّ فينا دماً هجيناً مهانا
وطباع النسور من [...][2] الكبـ … ر وسوّى لها الحضيض مكانا؟
ونفايا التأريخ من فكّ عنهم … عفن القيد فاستذلّوا ربانا؟
وأغاروا على مرابعنا الخضر … جراداً ملء الربى ودخانا
جيف من مزابل الغرب ألقى … بهم البحر يدنسون ثرانا
فانثنينا نهجو الزمان كأنّا … لم نكن بالظبا نذلّ الزمانا
وغفونا نستمطر النصر من ر … بّ البرايا ونستدرّ الحنانا

---

١. هكذا وردت.

٢. لفظة غير مقروءة.

ونسينا أنّا بغير الدم المسفو … ح لن نستردّ بعض منانا
وبأنّ الرصاص أفصح من وقـ … ع في ساحة الردى ألحانا
يا رياح الفداء هبي أعا … صير وثوري فوق الذرى بركانا
ولكأنّي بالفتح عادت ليا … ليه سيوفاً مسلولةً وطعانا
وبجيل الفداء يزجي ضحايا … ه على مذبح العلى قربانا
أنتم يا طلائع النصر واحا … ت منانا وبارقات دجانا
من سناكم يضيء ليل فلسطيـ … ن ويفترّ فجرها وسنانا
وعلى كلّ نقلة من خطاكم … تنبت الأرض أنهراً وجنانا
وغداً عندما يطالعنا الفجر … على القدس أخضراً ريّانا
سنصلّي لكم طويلاً ونعلي … لكم من ضيائه عنوانا
فارس الحرف لا تلمني إذا ر … حت على الحرف أوقظ الأشجانا
قد عرفناك والميادين عطشى … فارس الضوء تسكر الميدانا
وعرفناك ريشةً تقهر السيـ … ف وفكراً غضّاً يفلّ السنانا
علّمتنا حروفك الخضر أنّ الحر … ف أعتى يداً وأمضى جنانا
وبأنّ الفكر التزام فما أصحـ … ـر منه مع الغوايات خانا
ثروة أنت لم تزل من جناها … البكر نغدو على الدروب خطانا

كلمة فوزي صلّوخ[1]:

الراحل الذي نحتفل بذكرى مرور أُسبوع على مواراته الثرى رجل ولا أضخم قمّةً، ولا أعلى إنساناً، ولا أكبر خسارةً لا تعوّض.

١. كاتب مجيد، وأديب ناضج، قويّ الأسلوب، ولد في القمّاطيّة سنة: ١٣٥٠، ونال شهادة بكالوريوس في العلوم السياسيّة والاقتصاديّة من الجامعة الأميركيّة، وعيّن قنصلاً، ثمّ سفيراً في عدّة ممالك، كما مثّل لبنان في عدّة مؤتمرات سياسيّة.

الراحل لذي نقيم ذكراه هذا اليوم أديب أريب، كاتب ضليع، شاعر فذّ، فقيه متشرّع، مصاب جلل.

السيّد صدر الدين شرف‌الدين صاحب هذه الذكرى سياسي قدير، صحافي لوذعي، مفكّر موهوب، ناقد لاذع.

هذا هو الراحل، وهذه هي صفاته وخصاله. قلمّا انحصرت في شخص واحد، وقلمّا توفّرت في رجل فرد.

ومن كانت هذه مواهبه، ومن تحلّى بهذه الطاقات، ومن اختزن مثل هذه الفعّاليّات. فهو ولا شكّ عالم في فرد، أو أنّه فرد يضاهي عالماً.

كان ﷺ مستقيم الرأي، حرّاً لايواري ولا يراوغ، فخسر المعركة أكثر من مرّة، ولم يأبه للخسارة حيث ظلّ منتصراً بصوابيّة رأيه، وعمق إيمانه، ونظافة يده، حيث ظلّ منتصراً باحترامه وتقديره وكرامته.

كثيراً ما حورب، وكثيراً ما بسطت له الأيدي، وكثيراً ما امتدّت له الأكفّ، وكثيراً ما حاولوا معه سياسة العطاء، فالسكوت فالسيطرة فالإملاء، لكنّه رفض وأبى وبقي قويّاً في محرابه، رابطاً جأشه في صومعته، مدلاً على الخطإ، مشيراً إلى ضرر السكوت والاستسلام، مقدّساً المبدأ، ممجّداً حرّيّة الرأي، عابثاً بالاستزلام، ضاحكاً بالمغريات، هازئاً بالمستضعفين الأذلّاء.

السيّد صدرالدين شرف‌الدين ـ العالم الفقيه ـ نشأ وترعرع بظلّ فرع من فروع الدوحة النبويّة، فارتوى من ينابيعها الصافية، وغاص في بحورها العارمة. نهل المعرفة من مستودعاتها، وأخذ العلم من معادنه النقيّة، لم يكفه شرفاً أنّه أخذ العلم عن والد كبير ـ علّامة فهّامة ـ أخذه من كابر عن كابر حتّى شدّ الرحال بتشجيع من الوالد الفذّ للمجاورة في النجف الأشرف، يحصّل ويستزيد ويختزن من الفقه واللغة وفروعها وآدابها، حتّى امتلك ناصيتها جمعها، وبرز فيها قمراً منيراً، قلماً ثبتاً رزيناً حديثاً فيّاضاً، إصلاحاً وصلاحاً، إرشاداً وهداية، استقامةً وصلابةً، وفاءً للنذر.

السيّد صدر الدين شرفالدين الأديب الأريب، القمّة السامقة التي لم ولن تعلوها قمّة. الأديب الذي إذا كتب غرف من بحر، انتقى لؤلؤه، أفرد زمردّه، لاعب الثمين من خزائنه، وإذا تكلّم نحت من صخر اللغة، أظهر مخبآتها، دلّ على مكنوناتها، اطّلع على غناها وثروتها، وإذا تمنطق عاد بالحديث إلى أصوله وفروعه، وردّه إلى مجاريه وسواقيه، فجعل منه فهماً للسامع، واستساغةً للقارئ.

السيّد صدر الدين شرفالدين ـ الكاتب العبقري القدير ـ صاحب القلم الرصين، والفكر الثاقب، والمواهب المتدفّقة، صاحب المقالات الإصلاحيّة، وصاحب الكتب الاجتماعيّة، إذا كتب تدفّق النهر من ينابيعه، وتهادت تموّجاته صافيةً نقيّةً، فكانت مقالاته اللوح المحفوظ، آيات بيّنات من العمق الفكري، ومن الإصلاح الاجتماعي، والنقد البنّاء، وقد عكست مقالته في اللوح المحفوظ، مايجيش في فكره وعقله وضميره، لقد عكست النفسيّة الطيّبة، الأخلاق الرفيعة، الإصلاح المنشود في مجتمع متقهقر، كان إذا كتب بنى الهياكل المتكاملة من المنطق، وإذا أرّخ أعطى نماذج رائعةً من أدب التأريخ.

ومثلما كانت هذه المقالات زاداً دسماً للقرّاء المتلهّفين، الذين كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، كانت علقماً للذين لم يتفهّموا نفسيّة السيّد صدر الدين وإيمانه مبادئه.

السيّد صدرالدين شرفالدين ـ الصحافي اللامع ـ صاحب جريدة الساعة في بغداد العراق، وصاحب الألواح في بيروت لبنان، وفي هذه وتلك كان كعادته جامعاً شاملاً ملمّاً بكلّ ما يدور في الظاهر والخفاء.

وبقدر ما لاقى من الصعاب، بقدر ما استقوى واستنشط واستصلب.

وبقدر ما واجه من المتاعب، بقدر ما أصرّ على رأيه، وحافظ على مبدئه وعقيدته وإيمانه.

السيّد صدر الدين الصحافي هو نفسه السيّد صدر الدين السياسي، الذي مارس السياسة من أجل الإصلاح لا حبّاً بالزعامات.

السيّد صدر الدين شرف‌الدين الذي لم يعرفه البعض منكم حقّ المعرفة، الذي لم يتسنّ للبعض الآخر شرف هذه المعرفة، قمّة من القمم الباسقات أصابها سهم المنيّة، وإنّنا إذ نقيم ذكراه نقيم ذكرى العلم، نقيم ذكرى الأدب، نقيم ذكرى الأخلاق، والعقيدة العصماء، والإيمان الشديد.

غفر الله للراحل الكبير، وحفظكم جميعاً والسلام عليكم.

قصيدة الأُستاذ إبراهيم شرارة:

اليوم لا أمسي يطيق ولا غدي   من رزء صدر الدين رزء محمّدِ
خلّ الليالي تمّحى في حالك   فلقد دجى ليل الهموم الأسودِ
وتهالكت متع الربيع ولوّحت   أغصانها كفّ الخريف الأجردِ
سلني عن الدنيا وعن عثراتها   فمهودها ولحودها في موعدِ
ولقد قرأت كتابها وخبرتها   بفؤاد مكلوم وجفن مسهّدِ
كم رائح عنها إلى ما دونها   ويودّ منها ما يودّ المغتدي
سلني عن اللذّات كيف تهدّمت   عرصات جنّتها بكفّ مشيّدِ
واللاهثون على الطريق تهالكوا   زمراً تمنّت راحةً في مقعدِ
سلني فصدر الدين أوقد ناره   ودعا أخاه من رحاب المعهدِ
أخوان في [عين][1] المنون تعاهدوا   فاليوم لا أمسي يطيق ولا غدي
إن قلت صدر الدين [طود][2] شاهق   أومأ واتلع شاهق بمحمّدِ
ياللرجال وللرجال مصاعد   للحقّ كلّ مزيّة في مصعدِ
زوّدتموا بالعلم وهو خميلة   للراغبين وحيلة المتردّدِ
فالشعر في أبياتكم والحقّ من   غاياتكم أمثولة للمقتدي

١. منّا، بياض في الأصل.
٢. منّا، بياض في الأصل.

فاقرأ سلامي للأبوّة والتي		تشفي وتبرئ حرقة المتوجّدِ
واسجد لمجد العلم في محرابه		فله ولله العظيم تعبّدي
يا للرجال وأيّ سيف مغمد		كانت له عين المنون بمرصدِ
بالأمس سلّته الصواعق مرهفاً		في وجه كلّ منافق أو معتدي
واليوم ما للحقّ يغمد سيفه		فانهض فإنّ الحقّ ليس بمغمدِ
من بيتهم سل بيتهم عن جمرة		تلظى وأخرى مثلها لم تخمدِ
آباؤهم في الدهر هاشم والذي		أرسى دعائم دين كلّ موحّدِ
لو كان للأحجار شأن محدّث		لتحدّثت عن قصّة لم تسردِ
يوم استثير إمامها فأثارها		حمراء تلفح عزّة المستأسدِ
كادت قواعد بيته أن تلتظي		حقداً وصاحبها الذي لم يحقدِ



* * *

حمل الجنوب عن الجنوب همومه		حمل الشقيق عن الشقيق المجهدِ
ومضى يحمّلني العزاء تحيّةً		للصيد من أبناء شهم أصيدِ
فذرفتها دمعاً وصغت حروفها		وطعمتها جمر الوفاء الموقدِ
وحملت إكليل العزاء على يد		وهموم أهلي الفاقدين على يدِ

* * *

هذا الجنوب المستباح لطامع		وهو المشرّد يحتمي بمشرّدِ
يقتات من حرمانه ويئنّ من		طغيان يوم بالشدائد مرعدِ
والمترفون على الأرائك طعمة		الشهوات بين مقهقه ومعربدِ
نصحوا بمهزلة الصمود وليتهم		أسدوا النصيحة مدّع لم يصمدِ
متنكّباً لسلاحه متأهّباً		في ساحة ما ردّ كيد المعتدي
خانوا الحسين فأفردوه بكربلا		ودروا بأنّ الحقّ ليس بمفردِ

ورضـيعه فـي حـجره يـلقى عـلى ... ظـمإ سـهام المـارق المـتمرّدِ
لو ردّ طـاغية الطـفوف ورهـطه ... فـحسين لم يـجبن ولم يـتردّدِ

❊ ❊ ❊

هـذا الجـنوب وإنّـني من أهـله ... سـيف يـماني بكـفّ مـجنّدِ
يـفدي العـروبة بـالدماء رخـيصةً ... والحـرّ إن دعت الكـريهة يـفتدي
فـي كـلّ رابـيةٍ هـناك مـقاتل ... حـمل السلاح بـوجه طـاغٍ أوغـدِ
لبّـيك يـا أرض المـعاد ويـا حـمى ... مـعراجـنا فـيه ومـهد السـيّدِ
ومـحمّد والصـدر لو مـلكا لهـا ... عـزماً لألفـيناهما فـي المسـجدِ
والقدس راعشة الضلوع على اللـظى ... والذئب يـعوي فـي فـناء المـعبدِ
قـل للأراقـم فـي غـد يـغزوهما ... لا المستحيل ولا الأراقـم فـي الغـدِ
واليـوم مـا للـقدس تـندب أهـلها ... وتـغطّ راقـدةً بـأحقر مـرقدِ
والمـهد مكـلوم الحشـى متوجّد ... يـدعو المسـيح بـخافق مـتوجّدِ
والمـصطفى تـهوي شـرائـع ديـنه ... تـحت السـياطفيا لديـن مـحمّدِ
قـل للـزمان [..........][1] ... قف في مهبّ الريح ويحك واجـمدِ
والصبح لو عـقرت شـموس نـهارنا ... ولدتـه عـزّتنا ولمّـا يـولدِ

❊ ❊ ❊

«عبدالحسين» ومـا العـتاب بـنافعي ... أو مـنقذي مـن حـيرتي وتـوجّدي
كـم أجـتدي كـفّ العـتاب مـلهفاً ... فـتردّ كـفّ المـوت كـفّ المجتدي
وأنا الغـريب فـقدت مـا أنـا واجـد ... فوجدت فـي الفـقدان مـا لم يـوجدِ
ولقـد بـنيتَ فكـنت بـاني أُسـرة ... فـي الدهـر والبـانون مـنك بـمشهدِ

---

١. بياض في الأصل.

ونـبتَّ غـصناً فـي أراكـة هـاشم		فـجنيت فـي شـرف ثـمار المـحتدِ
فـي صـدرها إن قـلت راع رحـيله		فـلقد شـهدت بـه رحـيل السـوددِ
ولقـــد يـقرّبني لخـالص نـفسه		رغـم البـعاد المرّ مـا هـو مـبعدي
أعـــطيته شـعري أُصـلّي للـذي		فـــيه فــأعطاني رؤىً لم تـنفدِ
وأعـــرته دمــع الوفـاء ليـومه		فأعــارني يـوم الوفـاء تـجلّدي
ولقـــد أردّ له يـداً مــن فـضله		فــتردّني أيـدٍ له عــن مـقصدي
مـاحيلتي وأنـا الضـعيف أمـامه		وجـداولي غـرقى بـبحر مـزبدِ
ومـحمّد فـي ليـلة الأضـحى التـي		مـا بـعدها شـرف كـدعوة أحـمدِ
فـيها اصـطفاك الله فـافتح كـوّةً		أُخـرى وقـل: لبّـيك ربّـي، واصـعدِ

* * *

«عـبدالحسين» خـذ المـنابر والذي		هـزّ المـنابر مـن مـقال جـيّدِ
لأصـوغ مـنه الحـمد حـلية شـاعر		بـمطهّر غـير الحـلي لم يـرتدي
هـات الحـديث فـما الزلال بـنافعي		إن أنت لم تسكب فـيحلو موردي
هات الهدى فأنـا الفـقير إلى الهـدى		وأنــا الغـنيّ بـنوره أن أهـتدي

أعقب السيّد صدر الدين عليه الرحمة **ستّة أبناء**[1] كلّهم على نهج آبائهم في حسن السمت والسيرة.

أوّلهم: السيّد مصطفى ولد في ١٨ المحرّم سنة ١٣٥٦، وهو أديب كامل جيّد القلم، وهو مجاز في العلوم السياسيّة من الجامعة اللبنانيّة، يتولّى الآن إدارة كلّيّة النجاح في صور، وقد أسّسها أبوه ـ عليه الرحمة ـ، وهو يسير بها في طريق التقدّم والنجاح وفّقه الله.

---

١. اُمّهم كريمة العلّامة الحجّة الكبير الشيخ عبدالحسين صادق.

وله من الأولاد الذكور ثلاثة:

صدر الدين، ولد في ٢٦ رمضان سنة ١٣٨٢، وهو حائز على شهادة الهندسة المدنيّة.

وماشق، ولد في ١٦ صفر سنة ١٣٨٣[1]، وهو حائز على شهادة الهندسة الكهربائيّة.

وعليّ، ولد في ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٣٨٦، جامعي.

ثانيهم: السيّد أحمد ولد في ١٢ صفر سنة ١٣٥٨ مجاز في الفلسفة والاجتماع من الجامعة العربيّة، وهو مدرّس في الثانوية الرسميّة.

له ولدان[2]:

تمام، ولد في شوّال سنة ١٣٨٩.

ورامي، ولد في ٢٧ رمضان سنة ١٣٩٢.

ثالثهم: السيّد محمود ولد في ليلة العاشر من شعبان سنة ١٣٦١، وهو مجاز في الفلسفة والاجتماع من الجامعة العربيّة، مشغول بالتجارة والكسب الحلال.

له ولدان[3]:

فادي، ولد في ١٦ رمضان سنة ١٣٩٠.

ووائل، ولد في ٢٩ رمضان سنة ١٣٩٨.

رابعهم: السيّد محمّد ولد في ٣ صفر سنة ١٣٦٩، وهو من أهل السمت والصلاح، ملتزم تماماً بأوامر الشرع ونواهيه.

وله ولد اسمه صادق[4]، ولد في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٤٠٨.

خامسهم: السيّد نصر ولد في ١٨ ربيع الثاني سنة ١٣٧٢، وهو حائز على شهادة

---

١. ولماشق هذا ولد اسمه مصطفى، ولد في ١٤ المحرّم سنة ١٤٠٩.

٢. أمّهما كريمة عمّه السيّد محمّد رضا عليه الرحمة.

٣. أمّهما من أُسرة حبّ الله من أسر صور المحترمة.

٤. أمّه كريمة ابن عمّته المناضل الإسلامي، المهندس هادي السبيتي، سجّين الأُردن فرّج الله عنه.

«بكالوريوس» في الهندسة المعماريّة من جامعة دمشق، وله ثلاثة أولاد[١]:

فوّاز، ولد في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٣٩٧.

وعليّ، ولد في ٩ ربيع الثاني سنة ١٤٠٠.

وحمزة، ولد في ٧ شعبان سنة ١٤٠٥.

سادسهم: السيّد عمّار ولد في ٢٣ شوّال سنة ١٣٧٣، وهو من خيرة أقرانه تمسّكاً بأهداب الدين، واتّباع تعاليم الشرع المبين، تعلوه سمات التقوى والصلاح، والأخلاق الإسلاميّة العالية، وقد سمت به نفسه إلى اتّباع منهج آبائه في طلب العلوم الشرعيّة، فاندفع إلى دراستها بكلّ جديّة ومثابرة، وكانت دراسته أوّلاً في المدرسة الدينيّة في صور، ثمّ هاجر إلى قمّ بعد أن أدّى الامتحان في سفارة الجمهوريّة الإسلاميّة ونجح بامتياز وتفوّق، وهو الآن منكبّ على الدراسة ليلاً ونهاراً، وأسمع من كلّ مطّلع على أحواله كلّ ثناء ومدح على سيره وسلوكه وممارسته وقوّة تحصيله، فهو أمل الأُسرة في إحياء مجد آبائه وتجديد تراثهم بعونه تعالى.

وقد أعقب إلى الآن ثلاث بنات.

الخامس ـ من أبناء المقدّس مؤلّف الكتاب ـ: السيّد جعفر

ولنذكر ترجمته بقلم الأُستاذ حسين حمادة[٢] وهي ما يلي:

مولده ونشأته وثقافته

في إحدى أصابيح شهر جمادى الأُولى سنة ١٣٣٨ ـ وفي قرية شحور، وفي بيت الإمام ـ استهلّ صوت وليد جديد، ولم يكن يدري الزمان أنّ هذا الصوت سيصبح

١. أُمّهم كريمة عزّت الحبال من محترمي دمشق.

٢. عالم فاضل، وأديب كامل، وخطيب مفوّه، ذو هدي وسمت من آل حمادة، أُسرة الزعامة والمجد، ومن كرام باشكيدا من قضاء البترون، ولد سنة ١٣٥٥، وتلقّى علومه في المعاهد الإسلاميّة: الكلّيّة الشرعيّة في بيروت، وكلّيّة اللغة العربيّة في الأزهر الشريف. أُستاذ في الفلسفة والآداب العربيّة، ومؤلّف في العلوم الإسلاميّة والقرآنيّة.

في مستقبل الأيّام كلمة الحقّ، وصيحة الحرّيّة.

وسمّاه الأب العظيم «جعفراً» وكان لحدس الأب يقين الوحي بابنه، فكانت التسمية الإماميّة المباركة.

درج الطفل في البيت الأبوي على عين الأب الإمام كالطائر في صعوده، يحضر الأجواء، ولعلّ مدرسته الأبويّة كانت الرافد الأكبر لشخصيّته في توجيهها النظري، وسلوكها العملي. وكان الأثير على قلب أبيه؛ لما كان يتوسّم فيه من مخايل النجابة وقابليّة التلقّي؛ ولما كان يرى فيه من يقظة الصبح، وسطوع الظهيرة، وسجوّ المساء، وبكلمة كان ظلّ أبيه، فغدا اليوم صورته.

وأعطته المدرسة الأبويّة من قلبها وعقلها ما يغنيه على المدى، فهي كمدرسة نظريّة بشخص أبيه لغة عربية بأُصول على مستوى الإمامة في اللغة، وهي فقه على مستوى الإمامة في الاجتهاد، وهي كمدرسة عمليّة موسم العقيدة، حيث كانت القدوة الكبرى في مجتمع الإسلام وغير الإسلام.

وكان إلى ذلك تلميذاً في كتّاب أهلي، ثمّ في مدرسة صور الرسميّة، ثمّ تحوّل في دراسته المنهجيّة إلى بيروت؛ لينال إجازة الكلّيّة الشرعيّة، ومنها إلى كلّيّة الآداب الشرقيّة سنة ١٣٦١ ـ ١٣٦٢ في الجامعة اليسوعيّة؛ ليتقدّم إلى نيل إجازتها، وكان سبيله إلى ذلك «دراسة رائعة» موضوعها أدب الطفّ.

ولم يكن في شتّى هذه المراحل إلّا مميّزاً بين أقرانه، ومجلّياً في مختلف الأقسام والصفوف ملفتاً للسمع والبصر، بل ملء السمع والبصر.

وانتهى الى الدراسة الموسوعيّة التي تأخذ من كلّ فنّ طرفاً، ووقف طويلاً مع الأدب قديمه وحديثه، شعره ونثره، شأن الحفظة المحقّقين، وله في كلّ من جوانبه رأي الفكر وذوق الجمال، وغاص على أسرار اللغة أُصولاً وتأريخاً حتّى تمكّن منها كصاحب طروحات فيها.

يقرأ بشوق، ويطالع بجلد، وكثيراً ما قضى يومه بليله ونهاره مع كتاب، أمّا ثقافته المحيطة فهي في الناس وفي الحياة، ولطالما قضى سحابة أيّامه مع الناس وللناس.

زواجه

لم يحل انكبابه على الدراسة بينه وبين الزواج، فقد كان زواجه الميمون في أواسط شعبان سنة ١٣٥٩، من السيّدة الفاضلة زهراء درويش أسعد من صور[١].

وكانت الذرّيّة المباركة ـ ذرّيّة الأكرمين ـ ثلاثة ذكور هم اليوم كعوالي الرماح:

السيّد محمّد، مهندس معماري[٢].

السيّد موسى، طبيب مختصّ[٣].

السيّد عليّ، مهندس كهربائي[٤].

والثلاثة الشبول هؤلاء هم الرجال الرجال في ساحة الاختصاص، والخلق، والوعي، والالتزام، ووقف النفس على خدمة المجتمع كلّ لما يسّر له.

نشاطه التربوي

وتحوّل به النشاط الدائب إلى التدريس، وكانت الجعفريّة هي المسرح الكبير لهذا النشاط المميّز، وكان في عمله صاحب مدرسة ونهج، وكان طلّابه ولا يزالون النماذج الرائعة بإشراقة اللفظة، وفنّ التعبير، واتّساع المعرفة.

---

١. هو أحد محترمي تجّار صور.

٢. ولد في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٦١، وهو من خيرة الشباب في أخلاقه وسلوكه، جامع لمختلف الأوصاف الحميدة، والأخلاق العالية من شهامة وشمم ونبل وكرم، مثل عال في صلة الرحم، وجلب الخير، ومساعدة القريب والغريب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وقد تخرّج من جامعة طهران بدرجة «ماجستير» في هندسة البناء وله ولدان: جعفر ولد في ٢٩ جمادي الثانية سنة ١٣٩٩، وعبدالحسين، ولد في ١٠ رمضان سنة ١٤٠٦.

٣. ولد في رجب سنة ١٣٦٥، وكانت تظهر عليه من صغره علائم الذكاء الحادّ والحركات التي تدلّ على جودة الفهم والحذق، وقد تخرّج من جامعة موسكو، وانتدب لمزاولة عمله في قرى جبل عامل فقام بمهمّته من خدمة الإنسانيّة والمرضى والفقراء ما صيّر مدحه والثناء عليه لهجة جميع من عرفه، مضافاً إلى حسن تصرّفه، ومآثر مزاياه، ولطف أخلاقه ومعشره، له ولدان أحدهما فراس.

٤. ولد في ١٠ صفر سنة ١٣٦٨، وهو من خيرة أترابه في حسن ذاته وأوصافه، تخرّج من إحدى جامعات المانية الشرقيّة، وله ولد اسمه غفّار ولد ليلة ١٣ شعبان سنة ١٤٠٧.

وامتدّت به الطريق إلى إدارة الجعفريّة؛ لينتهي رئيساً لها ولا يزال، والحديث عن الجعفريّة في جبل عامل .هو الحديث عن الغيث في الجنوب القاحل، وهكذا كان جهاده في الجعفريّة على مستوى معاناة الجنوب، وكان بذلك رسول أبيه فيها، وطفق يعمق بها جذوراً ويعلو بها بنياناً، حتّى كانت القلعة.

لقد هاجر إلى أفريقيًا من أجلها الهجرتين، وقضى سحابة عمره واقفاً على بابها، يصلّي في محرابها، فالجعفريّة الابتدائيّة، فالتكميليّة فالثانويّة عنه صدرت، وبه شمخت، وكانت ولا تزال تدرج على عينه، وتنبض في قلبه، وتحيا في إيمانه، نجماً في الليالي السوداء، وواحة في كبرى الصحراء.

وصدر عنها شبابها صدور الشعاع من الكوكب، والأريج عن الزهر، وهل النخبة المصفّاة في الجنوب؟ وهل النابهون في كلّ اختصاص إلّا حصيلة هذه المؤسّسة المنارة؟

وهل أطبّاء ومهندسو وصيادلة ومحامو وأساتذة وقياديّو صور وما إليها إلّا صنع يدي الجعفريّة وجعفر؟

نشاطه الأدبي

وله في دنيا الأدب مدرسة ونهج أيضاً، وليس قلّة أُولئك الذين يستقون من مناهله في جنوبنا المتأدّب، ومجلّة المعهد هي فصل في مدرسته، وعنوان في منهجه؛ ذلك أنّ أدبه يبدو وكأنّه مقلع فكر، أو كأنّه من جانب آخر روضة يضحك فيها الزهر الملوّن، والعطر الأخضر، والنغم النسيق، والماء السلسبيل، فالكلمة على ريشته صور، والعبادة مشهد، والمشهد لوحة، ولا يتأتّى إلّا لذوي الجناح السارح بين النجوم.

والكلمة على فمه تسترق منك السمع والبصر والفؤاد، فلا تدري: هل أنت مع النغمة المعبّرة، أو المشهد الحيّ، أو مع الوجدانيّة التي تبعث فيك يقظة الحياة؟

كتب في الأدب وفي التربية وفي السياسة وفي المجتمع من وحي هذه المدرسة

وهذا النهج، بل كتب نفسه، جسّد تطلّعاته بنفس المستوى الذي يمارس فيه الحياة، فكان الإطار كالمحتوى، والهالة بمستوى البدر، ومن يقف على افتتاحياته وكتاباته في مجلّة المعهد، والفكرة التي كان يتوّج بها كلّ عدد منها، يلمس أيّ فتح في افتتاحيّته؟ وأيّ مقولة في كتاباته؟ وأيّ طرح بسط في فكرته؟ إنّه يكتب وكأنّه على المنبر يخطب، فتثيرك نبرات قلمه كما تحرّكك نبرات صوته.

وهو خطيب محضّراً كان أو مرتجلاً، عرفه وعرّف عنه المنبر في الجعفريّة، وفي النوادي الحسينيّة والاجتماعيّة، ثمّ منبر البرلمان، وله مواقف مشهودة تناول فيها القضايا المطروحة من اجتماعيّة وسياسيّة، تربويّة وإصلاحيّة، وله في كلّ ذلك آراء حياتيّة هادفة، وتقييم للإنسان والحياة على مستوى القدوة، كما إنّ له في ذكرى المولد النبوي الشريف، والغدير، وعاشوراء طروحات إسلاميّة تضعه في الصفوة من القادة الموجّهين.

ولا شك أنّ ولاءه وانتماءه لآل الرسول ﷺ فعل فيه فعل الإيمان، وصهره على مستوى حقيقة الإنسان.

أجل، هذا الولاء وذاك الانتماء هو المميّز في ممارسات السيّد جعفر ومعاناته، والتزامه بما يلتزم به العقائديّون، من مبادئ ومنطلقات، ومن اقتداء وإخلاص حتّى الفناء.

نشاطه الاجتماعي

نستطيع أن نختصر أبا محمّد بالعنوان الكبير «الإنسان».

هذا الإنسان الغنيّ بالألوان الزاهية، والظلال الوارفة، حتّى لنستطيع أن نقول فيه: إنّه في الصراحة والوضوح كفلق الصبح، وفي النداوة والإشراق كالربيع، وفي الصفاء والرقّة كالفجر، ولك أن تجد فيه الصدق الأمين، والوفاء الخالص، والتضحية حتّى الإيثار.

إنّه التوحّد بين الحسّ والفكر، والقول والفعل، فلا ازدواجيّة ولا انفصام، ولا

التواء. يعيش مع الناس نفوسهم أحاسيسها، في الضيق وفي الرخاء، ويحيى المشاركات الوجدانيّة يألم لآلامهم، ويسعد معهم إن سعدوا على سعة صدر وانفتاح قلب، وخفض جناح، وإرادة تصميم، وغاية صلاح وإصلاح.

إنسانه الاجتماعي كألوان الحياة، وما أجملها من ألوان.

من سمته في ذلك التصدّي من ذاته، فالخير في رسالته للخير يصدر عنه، كما يصدر الضياء عن الشمس، والعطر عن الزهر.

والشهيد على نضاله الاجتماعي بعض منجزاته، كمثل جمعيّة البرّ والإحسان في صور مع نفر من المؤمنين، ومثل إقامة هذه الجمعيّة للنادي الحسيني في جبّانة صور، وتسوير وتنسيق المدافن فيها، وتقديم المساعدات الأُسبوعيّة والموسميّة لمن تحسبهم أغنياء من التعفّف، وتعظيم الشعائر الإسلاميّة، وإحياء المواسم التأريخيّة والاجتماعيّة.

وكمثل تأسيس «جمعيّة رابطة إنعاش القرى» وأبرز نشاطاتها تعميم التعليم الابتدائي المجّاني في القرى النائية، وله بها الآن ثلاث وعشرون مدرسةً موزّعةً ما بين ما يسمّى «حزام الفقر» حول بيروت حيث يتواجد عمّال الطائفة الشيعيّة وسوادها الأعظم، وبين الجنوب والبقاع.

وكإدارة الوقف الجعفري، وعلى يده كان نماؤه الملحوظ، وتطوّره المشهود، وكقيامه بهجرتين إلى افريقيّا الغربيّة سنة ١٩٥٠ و١٩٥٤ حيث زار الجالية العامليّه في شتّى مطارح اغترابها باسم أبيه الإمام، فلبّوا النداء؛ لينقلب عنهم بما رفع سمك الجعفريّه صرحاً ممرّداً، يرتدّ الطرف عنه وهو حسير، هجرتان لله وللجعفريّة، بَدْءاً ببنائها المكين، وانتهاءً بتطوّرها العظيم.

بيته مكتب خدمة، ومحجّة طلّاب الحاجة ما أصبح صباح، وأمسى مساء. مساعداته للمتعبين والمعذّبين، وكثيراً ما أرسل المرضى منهم إلى الخارج للاستشفاء.

مساعداته الثقافيّة، وكثيرون أولئك الطلّاب الذين التحقوا على يديه في الجامعات

في لبنان وخارج لبنان، وعادوا بشتّى الاختصاصات؛ ليزرعوا الحياة في الجنوب، ولا يزال العديد منهم يتابعون تحصيلهم في جامعات الشرق والغرب.

نشاطه السياسي

وحكاية أبي محمّد السياسيّة نسخة مفردة في السوق السياسيّة؛ لأنّ الأزمة في السياسة أزمة أخلاق؛ لذلك كان موقعها أخطر المواقع؛ لأنّ المتلبّسين فيها بمقدّرات الشعب، ومصير البلاد. وعُملة السياسيّة بعامّة وفي البلاد بخاصّة متقلّبة متأرّجة، ذات وجوه متعدّدة، ومن أسف أنّها هي العملة المتداولة في سوق السياسة السوداء، ليس في لبنان والبلاد العربيّة فحسب، وإنّما في الأسواق العالميّة بنسب متفاوتة ترتبط بموازين مسلكيّة وخلقيّة سلباً وإيجاباً.

فالصدق في اللغة السياسيّة المتداولة بَلَه، والاستقامة جمود، والأمانة سذاجة، والوفاء غباء، والكذب فيها عبقريّة، والتقلّب ألمعيّة، والغدر سيّد اللعبة.

أمّا السيّد جعفر فهو من القطع النادر في البورصة السياسيّة، فبينما تقرأ على هويّة السياسي المحترف هواية اللعب على الحبال، والوصوليّة والأنانيّة، وتدبير المكائد، تقرأعلى هويّته هواية الاستقامة التي لاتلتوي، والصراحة التي لا تنطوي على خلفيّات المحترفين، من صيارفة العملة المتداولة.

لذلك انطلق صادق العهد والوعد، في ميزان ونهج، الميزان عدل واستقامة، والنهج خطة والتزام، وبين هذا وذاك إيمان بالله وبالإنسان عميق، ونضال لا يقهر.

نعم انطلق في الطريق الشائك والتوجّه الصعب في نضال مرير، ووعي متدفّق، وكانت له مشاركات قياديّة في المنطلقات الوطنيّة والاجتماعيّة، وكانت مواقفه مشهودةً، وصيحاته جريئةً طوال عقد الخمسينيّات، جسّدت معنى التحدّي والتصدّي في مواجهة السياسات المشبوهة، والأخلاق الاستعماريّة، ومنها حلف بغداد، ومشروع إيزنهاور، وقد تجاوز صور والجنوب في أحداث سنة ١٩٥٨، مناضلاً صلباً في القيادة الشعبيّة والسياسيّة.

وقد أنشأ في تلك الفترة جبهة وطنيّة تتمثّل فيها مختلف القطاعات المهنيّة، والعمّاليّة والاجتماعيّة والتجاريّة، وقد لعبت هذه الجبهة دورها المنتظر في ميدان التوعية الشعبيّة، والقيادة الوطنيّة، بما فيها محاربة الانحراف في السياسة الداخليّة، والتصدّي للمشاريع الاستعماريّة المشبوهة، التي هبّت على الشرق طوال عهد الخمسينات.

في مجلس النوّاب

سعت إليه النيابة لدورات ثلاث على مدى اثنتي عشرة سنةً، من سنة ١٩٦٠ حتّى سنة ١٩٧٢، وكان انتخابه في كلّ دورة على مستوى المبايعة الشعبيّة، بحيث استشعر السياسيّون المحترفون والتقليديّون خطر هذه الظاهرة الداهم.

ودخل ندوة البرلمان فاتحاً، لكنّه لم يكن أشراً ولا بطراً، واستمرّت به خلقيته وممارسته وتطلّعاته الوطنيّة، مع الشعب وإلى الشعب، ولم تكن النيابة لديه مغنماً سياسيّاً، ولا شرفاً أدبيّاً، وإنّما كانت غرماً مرهقاً، وسبيلاً إلى معاناة في يمّ السياسة الخضم.

يقال: إنّ السياسة فنّ أجلّ، وكلّ ظاهرة تحتاج لفنٍّ حتّى العلوم الصرفة، لكن الفنّ السياسي ليس تمويهاً، ولا بهلوانيّةً، إنّما هو فنّ الالتزام ولا تأويل، وفنّ لعبة الحقّ لا اللعب به أو عليه، فنّ دولة الحقّ التي تهزم دولة الباطل.

لم يكن السيّد جعفر إذن في النيابة من الممارسة المتعارف عليها في شيء، ولا كانت عنده من الألعاب اللولبيّة في شكل؛ لأنّه لم يكن من الذين يختانون أنفسهم، أو من المفرّطين بالأمانة التي طوّق الشعب بها عنقه، وكانت اللعبة البرلمانيّة عنده هي لعبة العقيدة السياسيّة التي تستوي فيها الوسيلة والغاية، وكانت له طروحاته ولا تقليد، وكانت له نشاطاته ولا افتعال، ولم يعرف المناورة الكاذبة، ولا كان مع السراب الفارغ، إنّما كان الواقعيّة التي تحمل هموم الناس وآمالهم بأمانة ورصانة.

طرح في الندوة البرلمانيّة قضايا العمّال، وكافح طويلاً مع مزارعي التبغ، ووقف بعناد مع مشروع الليطاني لإرواء الجنوب أرضاً وإنساناً، وكان الحركة الدائمة لتحقيق الضمانات الاجتماعيّة والصحيّة والسكنيّة. وطالت وقفاته الداعية في سبيل إقرار التعليم الإلزامي، وتوحيد الكتاب المدرسي، وإصلاح المناهج التعليميّة، إلى غير ذلك من مواقف مسجّلة، كمشروع إقرار التجنيد الإجباري، وخدمة العلم، وتعميم الطرقات، ومياه الشفة، وإنارة القرى المحرومة.

ولم يكن أمام القضايا الوطنيّة إلّا رسول محبّة، وداعية تسامح، ورائد وحدة، أمّا إذا حوّلنا النظر إلى القضايا العربيّة، لرأينا فيه فارسها وحاديها، وفي طليعتها قضيّتا فلسطين والجزائر، وله مع القضيّتين مواقف صلبة، كان فيها جنديها المعلّم.

وكانت له مبادرات شعبيّة رائدة، ففي سنة ١٩٦٣ قلب المقاييس في الترشيح لعضويّة المجلس البلدي في صور، إذ عقد ما ينوف على عشرين حلقةً عمّاليّةً واجتماعيّةً وشعبيّةً أفرزت المرشّحين من مختلف هذه القطاعات، وكانت مبادرته هذه ضربةً صائبةً للاحتراف السياسي، والاسترلام والاستغلال.

لذلك واجهها السياسيّون المتحرفون بحلف جهنّمي إن هو فوّت الفرصة على نجاح الممثّلين الحقيقيّين لمدينة صور، فإنّه لم يستطع أن يعيد عجلة هذه الظاهرة القارعة إلى الوراء.

وأبرز شخصيّة صور الشعبيّة أيضاً حين زاره في صور سفير الاتّحاد السوفياتي سرفاد عظيموف مع أركان سفارته سنة ١٩٦٨، حيث أقام لهم مأدبةً حافلةً في استراحة صور الرسميّة، لم يكن الوزراء والنوّاب والأعيان ضيوفها حول هؤلاء الدبلوماسيّين، وإنّما كان الضيوفَ مع السفير ممثّلو العمّال والنقابات والأحزاب الوطنيّة والقطاعات الشعبيّة، ولعلّ هذه المأدبة كانت فريدةً في المآدب التي تلتقي فيها الفئات الكادحة بالسفراء، وذلك خروج على الأعراف المتّبعة في لبنان.

وعودة إلى سنة ١٩٤٨ ـ حيث نكبة فلسطين ـ لنرى السيّد جعفر مع مائتين وخمسين شاباً من معلّمي الجعفريّة وطلّابها، يستقبلون الإخوة الفلسطينيّين في ميناء صور، ويحملون أمتعتهم على ظهورهم، وكان هو أوّل من حمل، ثمّ نراه وقد جنّد البيوت الخالية، والمرافق العامّة، والمدارس والنوادي، لإيواء آلاف الإخوة المغلوبين على أمرهم، المتآمر عليهم وعلى قضيّتهم، ونراه وقد وزّع المائتين وخمسين شاباً على بيوت صور المضيافة، لتهيئة الطعام للإخوة القادمين على مدى عشرة أيّام، حيث استقرّ بهم المقام.

وهكذا يعيش أبو محمّد أفكاره في المدينة في القرية، كما في مجلس النوّاب، كما في الشارع، كما في المحافل الدبلوماسيّة، كما في الحلقات الشعبيّة.

إنّه هو هو، لا يتغيّر ولا يتبدّل.

إنّه الإنسان بكلّ ما للإنسانيّة من معانيها، الصادق بكلّ ما في الصدق من حلاوة ومرارة، ومن اطمئنان وحرج.

وخلاصةً السيّد جعفر إنّه إنسان، إنّه الخير المحض.

وكالشمس ـ هو ـ لا يهمّها أين يقع منها الضياء.

أو كالنهر لا يفرّق بين الحقول والصخور، ولا حساب لمسيرته في ليل أو نهار.

وأبو محمّد هذا هو الطبع، وما بالطبع ثابت.

إنّه الواحد قلباً ولساناً وعملاً.

إنّه الواحد عقيدةً وسياسةً واجتماعاً وأدباً.

إنّه الانسجام خطّاً ولوناً ومشهداً في لوحة الحياة.

والترجمة له غنيّة بالحقّ، سخيّة كالفضيلة تذهب في العمق مدى، وفي الارتفاع سماء.

وها أنت ـ أبا محمّد ـ بلغت الخمسينات عمراً، وما بين الولادة ويومك سماء سحاب من غيثك، وجبل شموخ من جبهتك، ونور وحي من قلبك، فلا عدمتك الحياة. انتهى.

وقد كتب عنه في كتاب الإسلام دين وحياة، وذلك في أواخرا ج٦ ص٢٧١ في عنوان: قصّة الجعفريّة[1]، تحت عنوان السيّد جعفر والجعفريّة، وهو ما يلي:

نعم قرّت عينه ـ رضوان اللّه عليه[2] ـ وعين الأمّة بنهضة ولده، ابن هذه الأمّة البارّ؛ ذلك لأنّ له قصّة مع الجعفريّة، تبتدئ من حرفها الأوّل، وتستمرّ حتّى كتابة هذه القصّة، أي تبتدئ من الحجر الأساسي، وتنتهي في سلّم البرج الأعلى في صور نفسها، في الكلّيّة نفسها، ثمّ يطير بها أو تطير به إلى القرى العامليّة، المنثورة هنا وهناك في قضاء صور، حيث القرى المحرومة من العلم والثقافة.

والسيّد جعفر كان في خطوط التصميم العريضة التي خطّها الإمام أبوه لإنشاء المدرسة، أي أنّ فكرة إنشاء الجعفريّة لابدّ أن تتحقّق، وأنّ السيّد جعفر لابدّ أن يتعهّد هو هذا الإنشاء، ويديره ويرعاه، ويذوب في ظلّه.

كانت المدرسة، وكان السيّد جعفر نفسه هو الرسول الأمين من قبل أبيه إليها، فقد كان المدير والمعلّم والحاجب والجابي، وكان كلّ شيئ في المدرسة الجعفريّة.

رعاها الإمام من قريب وبعيد بعينه وقلبه، دعائه وإيمانه، ورعاها السيّد جعفر بإرادته وفكره، وإخلاصه وثباته وصبره، حتّى كانت الجعفريّة، وحتّى كان ظلّها المديد الذي امتدّ إلى كلّ زاوية في جبل عامل، ودخل كلّ بيت، ومرّ على كلّ قرية.

وبقي السيّد جعفر ـ كذلك ـ معها، معها رعايةً وخدمةً، وحراسةً وتوجيهاً، حتّى كانت كلّيّةً، وحتّى كانت جيلاً كاملاً بعلمه وثقافته ووطنيّته وإخلاصه.

ولم يكتف السيّد جعفر بما حقّقه من رسالة أبيه العظيم في قاعدة جبل عامل «صور» من نشاط علمي، وخدمات اجتماعيّة، بل انطلق إلى جبل عامل نفسه، وزرع فيه الجعفريّات، فسدّت الفراغ في كثير من القرى المحرومة، وإنّه يعمل

---

١. وراجع ص ٣٠٤ وما بعدها، وقد ذكر فيه أيضاً عن السيّد جعفر وخدماته للجعفريّة، ورحلاته إلى أفريقيا في سبيلها.

٢. أي أبوه المقدّس.

الآن مع الحكومة على تعميم المدارس في كافّة قرى صور وجبل عامل.

ذلك لأنّ السيّد جعفر يحرص أن تبقى جميع منائر رسالة والده العظيم مشعّةً من بعده الإشعاع نفسه، والشمول نفسه، فلا تطغى منارة على أُخرى، ولا يعطّل إشعاع ليعمل آخر.

الجمعيّتان، الكلّيّة، الإعداديّتان، الجعفريّات الابتدائيّة، التأليف بين القلوب، التأليف بين الآراء، في أسفار هي الحجّة، الفتاوى الدينيّة في دار هي المحجّة، الجهاد المستمرّ، المنابر التوجيهيّة تنطلق من عليها الحناجر العلويّة الحسينيّة، المساجد تهوي إليها أفئدة الطلّاب والمؤمنين، ويطمئنّون فيها إلى ذكر اللّه، المشاريع ما أُنجز منها وما هو في دور الإعداد، كلّ هذه المنائر التي كان الإمام المجاهد يوجّه أنوارها نحو ساحة واحدة، هي ساحة الشعب، وغاية واحدة، هي مرضاة اللّه، والإسلام الصحيح، والضمير الحيّ.

كلّ هذه المنائر، استطاع نجله السيّد جعفر أن يشعشعها بعد أبيه، بكثير من الألمعيّة والمرونة والبذل والتفاني. انتهى.

وكتب عنه كمال أمين قليلات في السجل الذهبي اللبناني لعام ١٩٦٩، ص١٤٧، وهو ما يلي:

ممثّل صور الدائم في الندوة التشريعيّة اللبنانيّة سعادة السيّد جعفر شرف‌الدين المحترم من أكبر وجهاء صور، ومن أركان رجالاتها العلميّة والدينيّة والسياسيّة. رجل الجهاد والجهود لخير مدينة صور، نائب الأخلاق الفاضلة، والمزايا الحميدة العالية.

السيّد جعفر شرف‌الدين هو بالحقّ الشخصيّة اللبنانيّة الكبرى التي تجسّمت فيها الطلعة الوسيمة المخلصة، ومن أكبر وجهاء مدينة صور، وأركان رجالات دينها ودنياها، إنّه ذو محيّا يتدفّق ذكاءً، وذو اسم عالي المكانة عطر السمعة لدى جميع الطبقات، ولقد طمح سعادته بعد تتميم مراحل دراسته العلميّة والثقافيّة أن يهب نشاطه ومزاياه الوطنيّة الفريدة لخدمة المواطنين، وخاصّةً للدفاع عن حقوق

مدينة صور، وما لاقته من إجحاف حتّى الآن؛ وذلك لعدم اهتمام المسؤولين بأمرها في تخصيص المبالغ الكفيلة بتحصين مصالحها العامّة، وخاصّةً مرفأها الكبير الذي يعدّ من المرافئ التجاريّة الهامّة في لبنان.

ولقد أقرّ سعادته الأقوال بالأفعال، فخاض المعركة الانتخابيّة لأوّل مرّة من عام ١٩٦٤[١]، حيث جال اسمه الكريم منذ الساعة الأُولى على كلّ شفة ولسان؛ إذ كنت ترى أهالي صور بشبابها ونسائها وكهولها الغيورين على مستقبل مدينتهم الخالدة، يتنادون باسم السيّد جعفر شرف‌الدين، ويتسابقون في تأييده وانتخابه، وما أن غربت شمس ذاك النهار من انتخابات عام ١٩٦٤ إلّا وكانت موجات الأثير تنادي بفوزه، وتردف إذاعة لبنان وصحفه والصحافة العربيّة جمعاء صدى فوزه الساحق، وهكذا أضاف سعادته لعائلته الكريمة شأناً كبيراً في عالم الوجاهة والسياسة والأدب والاجتماع، وحيث أبان منذ البدء إجحاف منطقته من المشاريع والإصلاحات الضروريّة لها في مختلف مرافقها العامّة إلى أن نالت مدينة صور بعض مطالبها نتيجة نداءاته ومساعيه المتكرّرة، منها تعميم الماء والكهرباء، وتجهيز مستشفاها بالأجهزة الطبيّة الحديثة، إلى أن بات اليوم بعد المراجعات بشأنه يعدّ من أهمّ المستشفيات في لبنان.

وهكذا انبرى الزعيم الشعبي «الصوري» الكبير السيّد جعفر شرف‌الدين لأن يكون السبّاق للمرشّحين عن مدينة صور تحت قبّة البرلمان؛ والدليل على ذلك فوزه الساحق أيضاً في انتخابات عام ١٩٦٨؛ حيث بدأ نجمه يتلألأ في آفاق المدينة، واسمه وصيته على كلّ شفة ولسان، وفوق كلّ منزل من منازلها العامرة.

وفي أنّ وجود أمثال السيّد جعفر شرف‌الدين إلى جانب زملائه النوّاب المخلصين يعتبر ضمانةً لمصالح لبنان وحقوقه، والحؤول دون انزلاق سياسته إلى المهاوي

١. الصواب ١٩٦٠.

والأغوار، وعلى هذا الأساس اعتزّت صور وضواحيها باسم الشريف الذي اعتزّت النيابة بجلوسه على كرسيّه، حيث يعدّ ضمانة للشعب الجنوبي.

عرفته الندوة النيابيّة دائماً من البارزين بين أعضائها، فكان في كلّ دورة يمثّل بها الشعب ذلك النائب الجريء في الإخلاص والتفاني، والدفاع عن الوطن، وذوداً عن كيانه، وتدعيماً لاستقلاله وسيادته. وكلمة تساق في هذه المناسبة لوجه الإنصاف والإقرار بالواقع، إنّ السيّد جعفر شرف‌الدين يأتي في طليعة أعضاء الندوة التشريعيّة عنايةً بمصالح الوطن الحقيقيّة المباشرة، وسيّان عنده بعد ذلك ما يوصف به تصرّفه ويقال بآرائه.

برلماني من الطراز الأوّل، أي بالمعنى الصحيح القائم بهذه المهمّة، المهمّة الدقيقة المثقلة بالمسؤوليّات الجسام، ذو خبرة وحنكة بالمفهوم العميق لهاتين الكلمتين، ينظر إلى الحوادث نظرةً واقعيّةً، ويعالجها بما يضمن لها الوصول إلى النتائج الإيجابيّة.

وقد انتخب سعادته في عدّة لجان نيابيّة، فكان فيها ذلك البرلماني الفهيم، وخاصّةً في لجنة التربية والتعليم؛ حيث له في هذا المضمار صولات يسجّلها له مجتمعنا بماء الذهب.

وفي الواقع أنّ لسعادة السيّد جعفر بك المحترم دراسات برلمانيّة دقيقة بلغت حدّ الروعة، وأحرزت إعجاب كبار الأخصائيّين والأقطاب بشؤون التربية والصحّة وغيرها، بحيث أنّ المواطنين هم على أحرّ من الجمر بانتظار سعادته لدخول الوزارة، ليبيّن من المخلصون الأوفياء لهذا الشعب المحتاج لأمثال سعادته إذا كان تحت قبّة البرلمان، أو في الحكم.

وهكذا كان علم السيّد جعفر شرف‌الدين يرفرف قبّة البرلمان كنائب شريف، ومن الذين يفتخر بهم الدهر، ويعتزّ بهم الوطن العزيز، حيث كان سعادته عند حسن ظنّ منتخبيه، بما وعدهم به من تحسين أحوال منطقتهم، سواءً كان اجتماعيّاً أم صحّيّاً، اقتصاديّاً أم ماليّاً.

فبورك به من نائب اجتماعي شعبي وغيور فاضل.
إنّ السجلّ الذهبي اللبناني الدولي الممتاز، الذي ينعم بتأييد ومناصرة رجالات العلم والدين والتربية والأخلاق ـ كأمثال السيّد جعفر شرف‌الدين ـ لا يسعه في هذه المناسبة السعيدة إلّا أن يتقدّم من سعادته بأطيب التمنّيات، داعياً له بطول العمر والتوفيق، لتبقى صور سعيدةً برجالاتها المخلصين، وبنوّابها الشرفاء المجاهدين في سبيل مصلحة الشعب العامّة، راجياً لسعادته اطّراد النجاح والتقدّم والتوفيق.
كثّر اللّه من أمثاله في لبناننا الجنوبي الغالي العزيز، ولسعادته منّا أطيب التسليمات والتحيّات.

السادس ـ من أبناء المقدّس مؤلّف الكتاب ـ : السيّد يوسف

ولد في جمادي الأُولى سنة ١٣٤١، وهو نجيب طيّب، يفيض شهامةً ونبلاً وعاطفةً، لا سيّما في ما يرجع إلى صلة الرحم، هذا مع لطف معشر، وعذوبة محضر، له خبرة ومرونة في أمور الكسب والتجارة، له من الأولاد أربعة[1]:

عدنان، ولد في ١٣ ربيع الأوّل سنة ١٣٦٨، وله ولد اسمه يوسف.

هاشم، ولد في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٧١، وله ثلاثة أولاد: باسل ولد في ٢٩ شعبان سنة ١٣٩٤. وربيع ولد في ١٤ ذي الحجّة سنة ١٣٩٦. وعليّ ولد في ٢١ ذي الحجّة سنة ١٤٠٣.

هادي، ولد في ٢٧ ذي القعدة سنة ١٣٧٢.

عبدالحسين، ولد في ٥ جمادي الثانية سنة ١٣٧٧، وقد تخرّج في الطبّ من إحدى جامعات روسيّا بدرجة ممتازة متخصّصاً بالأمراض الصدريّة، وعاد إلى صور سنة ١٤٠٨ مزاولاً عمله بكلّ جدّيّة وإخلاص.

---

١. أُمّهم كريمة عمّه المرحوم السيّد محمّد.

السابع ـ من أبناء المقدّس مؤلّف الكتاب متمّم هذا الكتاب ـ: عبدالله

وأذكر ما كتبه عنّي فضيلة الشيخ عبدالحميد الحرّ قاضي بيروت الشرعي[١]، وهو ما يلي:

مولده ونشأته

ولد السيّد عبدالله في قرية شحور من أعمال صور ليلة ١٤ رمضان سنة ١٣٤٥، وفي الثالثة من عمره انتقل مع أُسرته إلى صور، وانتسب إلى كتّاب المرحوم السيّد نور الدين الأخوي[٢] وكان أبرز مدرسة قديمة، بحيث إنّه كان يستقطب أطفال البلدة النابهين مع وجود مدرسة رسميّة ذات مناهج حديثة، وقد أتقن في مدرسته الأُولى مبادئ اللغة العربيّة، قراءةً وكتابةً وإملاءً، وختم القرآن الكريم على أُستاذه تجويداً وترتيلاً.

وانتقل سنة ١٣٥٧ إلى المدرسة الجعفريّة التي أنشأها والده المقدّس في تلك السنة، وتدرّج في صفوفها النظاميّة ثلاث سنوات، مضيفاً إلى معلوماته الأُولى مبادئ اللغة الفرنسيّة، والعلوم الطبيعيّة، والتأريخ والجغرافيا والحساب.

توجيهه وتوجّهه

انتظم السيّد عبدالله سنة ١٣٦٠ في الدراسة على والده ـ رضوان الله عليه ـ وكان

١. تخرّج من كلّيّة الفقه في النجف الأشرف، ومن كلّيّة دارالعلوم في القاهرة، وحصل على شهادة بكالوريوس في العلوم العربيّة، وعلى دبلوم في التأريخ الحديث من جامعة القاهرة، وله عدّة دراسات فقهيّة وقضائيّة واجتماعيّة محفوظة، توفّي سنة ١٤٠٨.

٢. هو من أُسرة الأخوي من أشهر أُسر طهران، ينتهي نسبها إلى موسى المبرقع بن الإمام محمّد الجواد عليه السلام، جاء أبوه السيّد حسين من إيران، وأقام في صور، وفيها ولد ابنه سنة ١٣١٢، وكان أديباً شاعراً،له يد طولى في نظم التواريخ الشعريّة، توفّي سنة ١٣٧٦.

منذ نشأته أثيراً لديه، يغذّيه شأن إخوته بلبان التقوى والإيمان، وقد أضاف إلى غذائه الروحي من جديد لبان العلم والمعرفة، من نحو وصرف وسطوح الفقه والأُصول، وإلى جنب ذلك لقّنه الدروس التطبيقيّة، فشحنه بثروة فكريّة وعلميّة، وذلك بأن استكتبه المواضيع المهمّة التي تدور عليها كتاباته ومؤلّفاته على مدى عدّة سنين، كان يملي عليه الموضوع حتّى إذا انتهى منه أمره بقراءته، وجعل يعيد فيه ويبدئ، ويمحو ويكتب، يصحّح وينقّح، مرّةً ومرّةً، حتّى إذا استوى لديه الأُسلوب والمعنى ورضي عنه عاد يمليه عليه مرّةً أخيرةً.

وقد أصاب بذلك السيّد عبدالله حظّاً عظيماً وفائدةً كبرى؛ إذ اختزن ما عند والده من التأريخ الإسلامي، ومواضيع الخلافة والإمامة، وتأويل متشابه القرآن والسنّة النبويّة والحديث الشريف، وبكلمة موجزة: كانت الفترة التي لازم فيها السيّد عبدالله والده المقدّس أغنى دور في حياته العلميّة، بل أطول وأعرض فترةً في تكوين شخصيّته العمليّة.

صفاته ومواهبه

يطالعك السيّد عبدالله، فتأخذك منه طلعةٌ هاشميّةٌ بسماتها وصفاتها، فهي تحكي مهابة العالم الورع، وهمّة الشباب المتوقّد.

يحدثّك دون ملل منه أو من جلسائه، وحديثه يجرّ حديثه، فينتقل من موضوع إلى موضوع، كأنّه يقرأ في كتاب؛ لأنّ أحداث التأريخ حاضرة لديه، بشؤونها وشجونها، بعجرها وبجرها، بطرائفها ومآسيها، وسيرة الرجال على لسانه، يصوّرها ويفصّلها، كأنّه شاهد عدل على أحداثها، أو كاتب بالعدل لتأريخها.

لا تعجب، فقد تكوّنت في صدره مكتبة عامرة بأنفس الكتب وأنفعها، وتحوّل فكره إلى مسجّل دقيق الالتقاط، لا يترك شاردةً ولا واردةً إلّا أحصاها، وله طاقة نادرة على اصطياد المفارقات والمواقف المذهلة من ممارسات الحاكمين باسم الإسلام، عبر العصور المظلمة والمضيئة على السواء.

وكذلك هو الآن مع معاصريه، فربّما غبت عنه أربعين سنةً تنقص أو تزيد، فيلقاك لقاء من فارقك ليلةً أو ضحاها، فإذا استغربت ذلك ردّك إلى آخر لقاء معك بالزمان والمكان والمناسبة.

هجرته إلى قمّ

ارتحل في ذي القعدة سنة ١٣٧٣ في طلب العلم إلى إيران، واستقرّ في مدينة قمّ المقدّسة منضوياً إلى حوزتها العلميّة، وكانت زاهيةً زاهرةً في إبّان رئاسة المرجع الأكبر، السيّد حسين البروجردي رضوان الله عليه.

انخرط السيّد عبدالله في هذه الحوزة العلميّة الغنيّة برموزها وأساتذتها الذين كانوا في تلك الفترة يتوجّهون إلى المرجعيّة العامّة، وأبرزهم آيات الله السيّد روح الله الخميني، والسيّد كاظم شريعتمداري[1]، والسيّد محمّدرضا الكلبايكاني[2]، هؤلاء القادة الذين أصبحوا مراجع هذا العصر مع آيات الله في النجف الأشرف.

التزم السيّد عبدالله في قمّ بمجالس تلك الفئة المختارة التي تتربّع على قمّة الهرم العلمي، يعمل بتوجيه منهم، وينصرف إلى طلب العلم في كنفهم، وكان العلّامة العربي الكبير الشيخ محمّد الكرمي[3] من أساتذة الحوزة ومدرّسيها، وقد لازمه السيّد عبدالله ملازمة التلميذ لأستاذه، يغرف من معينه طوال هجرته في قمّ، التي استمرّت خمسة عشر عاماً.

١. هو أحد أعلام المراجع في إيران، ولد سنة ١٣٢٢، وتخرّج في قمّ على الإمام الشيخ عبدالكريم الحائري، وصار من أركان الحوزة فيها، ومن المدرّسين الأوّل هناك، يمتاز بدماثة أخلاقه وكياسته وبعد نظره في الأمور.

٢. من المراجع الأول في إيران، ومن أركان البحث والتدريس في قمّ، ولد سنة ١٣١٦ يمتاز بتقواه وصلاحه وإخلاصه في العلم والعمل.

٣. هو أحد العلماء الأعلام، واسع العلم والثقافة الإسلاميّة، حسن الأخلاق والمجالسة، له مؤلّفات كثيرة في مواضيع إسلاميّة، طبع أكثرها، ولد سنة ١٣٤١، وقد عيّن بعد قيام الجمهوريّة الإسلاميّة رئيساً للّجنة الشوريّة الإسلاميّة في الأهواز.

رحلاته العلمية

انقطع السيّد عبدالله في قمّ إلى دراسته كما تقدّم، وزيارة المكتبات الإسلاميّة في الشرقين ـ الأقصى والأوسط ـ يعيش مع الكتب منقّباً وباحثاً على مدى الخمس عشرة سنة، حتّى أصبح حجّة في التأريخ الإسلامي، ومن المتخصّصين القلائل في سيرة الرجال وكتب التراجم اختزاناً واستيعاباً، وتمرّساً في أديان ومذاهب أهل الكتاب، مسلمين وغير مسلمين.

ارتحل في سبيل ذلك إلى أمّهات المكتبات، فزار مكتبات طهران، وعمد إلى أصفهان فزار بعض مكتباتها، وتشرّف مراراً بزيارة الإمام عليّ الرضا عليه السلام في مشهد خراسان، وقضى أيّامه لدى كلّ زيارة في تلك المكتبة العظمية، التي تضمّ أنفس الكتب الإسلاميّة، وأندر المخطوطات بخطّ كبار علماء السلف.

وارتحل إلى الهند، فزار مكتبة «سالار جنك»[1] في حيدرآباد الدكن، ومكتبة سيّد العلماء، والمتكلّمين السيّد حامد حسين الهندي[2] في لكهنو، ومكتبة مدرسة الواعظين هناك أيضاً، ومكتبة راجه مدينة رامبور، ومكتبة مدرسة الهادي في بنارس.

وارتحل إلى الباكستان ،وزار مكتبة مدرسة جامع المنتظر في لاهور.

كما زار المكتبة الظاهريّة في دمشق عدّة مرّات، وزار مكتبات النجف الأشرف وكربلاء المقدّسة والكاظميّة وبغداد في كلّ مرّة تشرّف فيها بزيارة العتبات المقدّسة في العراق.

---

١. هو مير تراب عليّ، ولد سنة ١٢٤٥، تولّى رئاسة الوزارة في حيدر آباد الدكن، وعني بالإصلاح الإداري ثمّ عيّن بعد ذلك أحد وصيّين على العرش، وتوفّي سنة ١٣٠١. انتهى ملخّصاً عن القاموس الإسلامي ج ١ ص ٣٨.

٢. كان من أساطين المناظرين المجاهدين، ولد سنة ١٢٤٦، وقد بذل عمره في نصرة الدين والأئمّة الهادين عليهم السلام باحتجاجات برهانيّة، وإلزامات نبويّة، له تصانيف جليلة، تموج بمياه التحقيق والتدقيق، تعلّم الناس بأنّه بحر طام لا ساحل له، أهمّها عبقات الأنوار في مناقب الأئمّة الأطهار، وهو أجلّ ما كتب في هذا الباب إلى الآن، يقع أكثر من عشرة مجلّدات، توفّي سنة ١٣٠٦. انتهى ملخّصاً عن نقباء البشر ج ١ ص ٣٤٧.

وكان في لبنان يثابر على زيارة دور النشر في بيروت ومكتباتها الكبرى.

زواجه وعقبه

تمّ زواجه في طهران من السيّدة الماجدة مرضيّة ابنة الشيخ حسن الغروي[1]، وأمّها ابنة المرجع الكبير المقدّس السيّد حسين القمّي، وقد أنجب منها من الأولاد الذكور اثنين: محمّداً[2] وعليّاً[3].

كتاباته ومؤلّفاته

عاد السيّد عبدالله إلى لبنان سنة ١٣٨٨، وانصرف إلى تتمّة ما بدأ فيه من مؤلّفات في اختصاصه رغم اختياره قاضياً في المحاكم الشرعيّة اللبنانيّة في نفس السنة التي استقرّ فيها بعد عودته.

يكتب السيّد عبدالله ببساطة الحقّ، وعفويّة الصدق، يكتب كما يتكلّم بلغة سهلة، وأسلوب مبسّط، لا يتعمّد الإغراق في المبالغة في إنشائه، ولا يتعمّد موسيقى الكلمات في الجمل، ولا الألحان في التعبير، وإنّما يكتب على سجيّته في جماع ما يكتب، فغايته المعاني لا المباني، والأفكار لا الألفاظ.

بهذا الأسلوب كتب السيّد عبدالله مؤلّفاته التي بارى فيها كتب أكبر المؤلّفين في تراجم الرجال في هذا العصر، وفي العصور السالفة، وقد أنجز منها حتّى الآن:

١ ـ مع موسوعات رجال الشيعة، يقع في أربعة مجلّدات.

---

١. هو الشيخ حسن بن الشيخ محمّد الغروي القوشاني ،كان من الخطباء المرموقين في مشهد الرضا عليه السلام، جامعاً لمحامد الصفات، وأنواع الفضائل والكمالات، محبوباً لذلك مقدّراً عند كلّ الطبقات، ولد سنة ١٣٢٣، وتوفّي سنة ١٣٥٥، وكان أبوه من أعلام العلماء في مشهد، توفّي سنة ١٣٦٤.

٢. ولد ليلة ٢٣ صفر سنة ١٣٧٧، وقد درس الطبّ أوّلاً في جامعة طهران، ثمّ جامعة دمشق، حيث نال منها شهادة الليسانس، ثمّ عاد إلى جامعة طهران ليتابع دراسته النهائيّة.

٣. ولد ليلة ٢٨ شوّال سنة ١٣٨٢، وهو يتخصّص بدراسة الأدب العربي في الجامعة اللبنانيّة في بيروت، وأحمد الله تعالى على سمتهما وهديهما والتزامهما بطريقة آبائهما المثلى.

وهو مراجعة تدقيق وتمحيص لثلاث موسوعات مع ثمانية من كتب التراجم هي:
الذريعة إلى تصانيف الشيعة، للإمام المتتبّع الشيخ آقا بزرك الطهراني‌، وهو يقع في خمسة وعشرين جزءاً.
طبقات أعلام الشيعة، له أيضاً، ويقع في عشرة أجزاء.
أعيان الشيعة، للإمام الجليل السيّد محسن الأمين‌، ويقع في ستّة وخمسين جزءاً.
أمل الآمل في علماء جبل عامل، للحرّ العاملي عليه الرحمة، وهو في جزأين.
رجال النجاشي [1].
شهداء الفضيلة، مجلّد واحد، للشيخ عبدالحسين الأميني‌.
أنوار البدرين في علماء الأحساء والقطيف والبحرين، في جزء واحد، للشيخ عليّ البلادي عليه الرحمة [2].
ماضي النجف وحاضرها، في ثلاثة أجزاء، للشيخ جعفر محبوبة عليه الرحمة [3].
موارد الاتحاف في نقباء الأشراف، في جزأين، للسيّد عبدالرزّاق كمونة‌ [4].

---

١. هو أحمد بن عليّ بن أحمد بن العبّاس النجاشي الأسدي، عالم نقّاد بصير أفضل من خطّ في فنّ الرجال، ولد سنة ٣٧٢، وتوفّي سنة ٤٥٠. انتهى ملخّصاً عن مقدّمة رجاله وغيره [راجع خلاصة الأقوال: ٧٢ ـ ٧٣، الرقم ١١٨].

٢. عالم بارع، وفقيه فاضل، ولد في البحرين سنة ١٢٧٤، وكانت له في بلاده وجاهة ومرجعيّة، توفّي سنة ١٣٤٠. انتهى ملخّصاً عن نقباء البشر ج٣ ص١٢٧٢ [نقباء البشر ٤: ١٣٧٢، الرقم ١٩٠٧].

٣. كان من أفاضل العلماء كاتباً باحثاً ومؤرّخاً متتبّعاً، ذا اطّلاع واسع، ولد في النجف الأشرف حدود سنة ١٣١٤، وله عدّة بحوث ومؤلّفات وتعاليق نافعة. توفّي سنة ١٣٧٧.

٤. هو السيّد عبدالرزّاق بن حسن بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن إسماعيل بن مبارك بن بدر الدين بن أحمد بن حسين بن ناصرالدين محمّد بن عليّ بن حسين بن جعفر بن أبي منصور بن أبي الفوارس طرّاد بن شكر بن أبي جعفر هبةالله النفيس بن أبي الفتح محمّد بن عبدالله بن عبيد الله بن عليّ الصالح بن عبيد الله الأعرج بن الحسين الأصغر بن الإمام زين العابدين‌. كان عالماً فاضلاً، نسّابة محقّقاً، ولد سنة ١٣٢٤ في النجف الأشرف، وله مؤلّفات كثيرة في الأنساب والتراجم [راجع الأعلام للزركلي ٣: ٣٥١].

منية الراغبين في طبقات النسابين، في جزء واحد له أيضاً.

الفوائد الرضوية في علماء الإمامية، للشيخ عبّاس القمّي ﷺ مجلّد في جزأين.

٢. معجم رجال الشيعة، وهو في تراجم رجال الشيعة من جميع الطبقات في مختلف العصور حتّى الآن، وقد أنجز منه حتّى الآن نحواً من ثلاثين مجلّداً.

٣. تتمة هذا الكتاب والحاشية عليه، وذلك بإلحاق النواقص منه؛ حيث توفّي والده ﷺ وفي الكتاب شيء من النواقص، كما ذكر فيه عدّة ممّن ولدوا بعد وفاته، وألحق في الكتاب أيضاً عدّة أشياء مهمّةً في أحوال عدّة من المترجمين.

أمّا الحاشية فقد ترجم فيها للأعلام من غير آل شرف الدين، ممّن وردت أسماؤهم في المتن.



[الإمام شرف الدين في الصحف اللبنانيّة]

مقالات حول جهاد الإمام شرف‌الدين نشرتها الصحف اللبنانيّة في عقد الثمانينات وهي:

١. الصراع في سبيل الحقّ. مجلّة الباحث، العدد ٢٠ ـ ٢١ / ١٩٨٢.

٢. ثورة لها تأريخها. جريدة السفير، ١٧ / ٢ / ١٩٨٤.

٣. الانتداب الفرنسي وحجّة الإسلام شرف‌الدين. مجلّة الشراع، أيلول ١٩٨٦.

٤. الصراع بين العلماء والاستعمار. مجلّة المنطلق، ذوالقعدة ١٤٠٧ حزيران ١٩٨٧.

٥. مفهوم الوحدة الإسلامية عند السيّد عبدالحسين شرف‌الدين. مجلّة الوحدة الإسلاميّة، ذو القعدة ١٤٠٧ تموز ١٩٨٧.

٦. مؤتمر وادي الحجير. مجلّة العرفان، العددان ١ و٢ من المجلّد ٧٥.

٧. زعيم مؤتمر الحجير وداعية الوحدة الإسلاميّة. مجلّة الشراع، العدد ٢٧٩ تموز ١٩٨٧.

٨. أضواء على مؤتمر وادي الحجير الحلقة الأُولى والثانية. جريدة العهد، ١٣ ربيع الأوّل ١٤١٠ والعدد الذي يليه.

٩. نظرة في الجذور التأريخيّة للمقاومة الإسلاميّة. جريدة العهد، ١٩ رجب ١٤٠٩.

١٠. إطلالة على جذور المقاومة في جبل عامل. مجلّة الفجر، العدد ١٤، صفر ١٤١٠ / أيلول ١٩٨٩.

الصراع في سبيل الحقّ طبيعة

ولد السيّد عبدالحسين شرف‌الدين في الكاظميّة في بيت رفعت دعائمه على أعلام لهم في دنيا الإسلام ذكر محمود وفضل مشهود.

عاد ـ وهو في الثامنة من عمره ـ إلى عامل ودرس على والده ما يحتاجه من علوم.

وتوجّه ـ وهو في السابعة عشرة من عمره ـ إلى النجف الأشرف، حيث عرف كطالب متفوّق.

وعند ما بلغ سنّه الثانية والثلاثين عاد إلى عامل من جديد وهو حائز رتبة الاجتهاد، ومتمتّع بشخصيّة العالم المجتهد.

والحقّ أنّ إدراك سرّ تكوّن هذه الشخصيّة التي يتمتّع بها العالم المجتهد ـ وليس السيّد موضوع الدراسة ـ فحسب لا يمكن أن يتأتّى إلّا بعد معرفة أمرين أساسيّين. إضافةً إلى أمور أخرى عديدة.

والأمران اللذان نعني نبسطهما كما يلي:

يعود الأمر الأوّل إلى الجوّ يحياه العالم في بيئته الأولى، بيته ومحيطه وهو جوّ ملؤه الاحترام للعلم وأهله بمن فيهم الطالب، وتسوده رغبة في الحوار والنقاش، وإذعان للحقّ.

ولنقرأ عن هذا الجوّ الذي كان سائداً بين السيّد وأبيه وأخيه: «... نظمت المذاكرات العلميّة من جديد بين الأب وولديه، كما تكون بين الإخوة والأصدقاء، ... وقد يشتدّ النزاع بينهم، ويعلو الخلاف في كثير من المسائل العلميّة، ولكنّك لاترى إلّا البشاشة في الوجوه، والرحابة في الصدور، والابتسامة في الثغور. وقد تتساقط دمعات من عيون الأب القريرة إشعاراً بالفرح والغبطة»[1].

---

١. النصّ والاجتهاد ـ الطبعة الثالثة ـ: ١٤ في مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.

ولنقرأ ما يقوله السيّد نفسه عن جدّه السيّد هادي، وكان قد أمضى فترة دراسته في النجف برعايته: «... وكم كنت أرجع إليه في مشكلات المنطق والعلوم العربيّة فيثلج غلّتي بما ينفيه عنّي من معتلج الريب... وكان على جلالته وشيخوخته يقبل على مباحثتي بانبساطه، ويسترسل إلى مناظرتي بأنسه، ويحملني على مناقشته ...»[١].

ويعود الأمر الثاني إلى المناخ الذي كان يعيشه الطالب في بيئته الدراسيّة في النجف الأشرف، الجامعة الإسلاميّة التي مرّ على تكوينها أكثر من ألف عام، فقد امتازت هذه الجامعة كما يقول السيّد محمّد تقيّ الحكيم، أستاذ الأصول في كلّيّة منتدى النشر: «بفتحها على طلّابها أبواب الاجتهاد، وتركها المجال للعقول تتصارع في سبيل البلوغ إلى الحقّ عن طريق الجدل العلمي»[٢].

وقد تأصّل هذا النوع من الجدل والصراع ممّا أكسب بحوثها صفة العلميّة والتواضع وسرعة التنازل للحقّ، ويؤكّد الأستاذ حسين مروّة هذه الحقيقة عند ما يتحدّث عن جامعة النجف التي أمضى فيها ردحاً من شبابه.

يسأل الأستاذ مروّة: «من أين وكيف تتكوّن هذه الرؤية ـ الشهادة؟» أي: شهادة جامعة النجف ـ ويجيب: تتكوّن بفعل التقاليد التأريخيّة الإيجابيّة لهذا الوسط الدراسي ـ كما عرفنا ـ في أخريات العهد بهذه التقاليد، فهي تقاليد تنهض أساساً على أنّ العلاقة بين الأستاذ والطالب ليست علاقة التلقّي والاستماع، وإنّما هي علاقة حوار ومناقشة حتّى منتهى الصراحة، ومنتهى الحرّيّة للطالب أن يبحث موضوع الدرس خارج الكتاب المقرّر، وخارج النصّ الراهن، وخارج رأي الأستاذ.

وأمّا ثانياً: فإنّ اللقاءات اليوميّة بين أهل هذا الوسط الدراسي من أساتذة وطلبة لا يمكن أن تحدث دون أن تطرح فيها مسألة مّا... وحين تنظر المسألة لابدّ أن يكون لكلّ من يحضر اللقاء صوت ورأي وموقف... .

١. المصدر: ١٣.

٢. المصدر: ٦٣ في مقدّمة السيّد محمّد تقي الحكيم.

وهكذا يصير الصراع في سبيل الحقّ طبيعةً للعالم المجتهد. وهذا ما يذهب إليه السيّد تقيّ الحكيم؛ إذ أنّه يقول: «... وربما تجاوز تأثيرها مجاله العقلي إلى سلوكه في حياته الاجتماعيّة، فأصبح مناضلاً في مختلف ميادين الحياة»[1].

في الميدان السياسي العملي

وهذا ما حدث فعلاً، فكان السيّد مناضلاً في مختلف ميادين الحياة، ففي ميدان النضال العملي ـ السياسي كان مؤيّداً للثورة العربيّة، قائماً بمعارضة الفرنسيّين.
وممّا يذكر في هذا المجال أنّه كان من المبادرين لعقد مؤتمر الحجير، ومن المساهمين في بلورة القرار الذي صدر عنه، وقد مرّ منّا أنّه اختير مع سميّه السيّد نور الدين لنقل قرار المؤتمر إلى الحكومة السوريّة.
وممّا يذكر أيضاً: أنّه كان يحفز الهمم للنهوض ضدّ المحتلّين، وأنّه كان يساهم في توقيع المضابط التي تصرّح برفض حكم الفرنسيّين وتطالب بالاستقلال الناجز ثمّ أفتى بالجهاد[2] ممّا عرّضه لانتقام الفرنسيّين.
وقد مرّ منّا أنّه فرّ واختبأ في مغارة تقع قرب شحور، وذلك عند ما جرّد الفرنسيّون حملتهم للقضاء على ثورة جبل عامل، وقد احتلّ الفرنسيّون ـ خلال حملتهم هذه ـ داره في صور، ونهبوا فيها مكتبته الحاوية لأنفس المؤلّفات، ولا سيّما مؤلّفاته المخطوطة، وكان عددها ثمانية عشر مؤلّفاً[3].
ثمّ عند ما وصلوا إلى شحور أحرقوا داره فيها، وكانوا قبلاً قد أرسلوا أحد عملائهم لاغتياله ولكنّه فشل، وأدّى هذا إلى تشرّده إلى دمشق فمصر ففلسطين؛ حيث أقام في قرية تدعى «عَلَما» في حين كانت عائلته وأهله موزّعين هنا وهناك.

---

١. المصدر: ٦٤.
٢. المصدر: ١٨ في مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.
٣. المراجعات في مقدّمة الشيخ مرتضى آل ياسين.

وهو أثناء ممارسته النضال في الوطن وخلال التشرّد كان مثالاً للتضحية والعمل المخلص الجادّ.

قال للسيّد الجابري ـ وهو يهدي الجيش العربي مبلغ خمسة آلاف ليرة عثمانيّة كان قد أهداه إيّاها الملك فيصل ـ: «تمنّيت أنْ أكون درهماً لأضع نفسي في صندوق الجيش العربي لأُدافع عن الإسلام والعرب»[1].

وفي دمشق كان كما يقول السيّد الصدر ـ مثال الرجل المجاهد ـ: «حتّى أصبح من زعماء الفكر وقادة الرأي... .

وكان يوسف العظمة ـ شهيد ميسلون ـ كثير التردّد على مجلسه، والإعجاب به وبمواقفه»[2].

وفي مصر التي وصلها متنكّراً بزيّ عربي وراء كوفيّة وعقال، استشهد في حفل خطابي بقول حيدر الحلّي:

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحمُ فلا مشت بي في طرق العلى قدمُ[3]

وعندما تساءل القوم عنه قال أكثر من واحد، وقد عرفوه: «إنّه رجل العلم والوطنيّة والإخلاص»[4].

وهذا جميعه يؤكّد ما يقوله الشيخ مرتضى آل ياسين فيه: «... ولعلّ المحن التي كابدها هذا الإمام الجليل في إسعاد قومه لم يكابد نارها إلّا أفذاذ من زعماء العرب وقادتهم، وممّن أبلوا بلاءه، وعانوا عناءه»[5].

في سبيل الوحدة واتّفاق الكلمة

إضافةً إلى ما سبق عرضه من دور قام به السيّد في سبيل تأييد الثورة العربيّة

---

١. النصّ والاجتهاد ـ الطبعة الثالثة ـ: ١٨ في مقدّمة السيّد محمّد الصدر.

٢. المصدر: ١٩ ـ ٢٠.

٣. المصدر: ٢٠، وراجع المراجعات في مقدّمة الشيخ مرتضى آل ياسين.

٤. المصدرين السابقين.

٥. المراجعات في مقدّمة الشيخ مرتضى آل ياسين.

وتحقيق الوحدة السوريّة، وضدّ المحتلّ العامل على تجزئة الوطن العربي، ينبغي التطرّق إلى دور آخر لايقلّ أهميّةً عن الأوّل ونعني به سعيه المتواصل على الصعيدين النظري والعملي، في سبيل تحقيق الوحدة الإسلاميّة ونبذه للطائفيّة.

والواقع أنّ السيّد شرف‌الدين كان يتمتّع بصفات العالم المجتهد جميعها، فهو يمتلك مقدرةً على البحث والتنقيب غريبةً وجلداً على العمل لايضاهى.

ولنطّلع على هذه الصورة التي يرسمها له ابنه السيّد صدر الدين، وكان قد تجاوز الثمانين: «... وإنّي لأراه محاطاً بكتل من المراجع بعضها مفتوح المصاريع، وبعضها قد كفأه على وجهه، وهو يقرأ في أحدها ملصقاً بوجهه...»[١].

لهذا كان من الطبيعي أن يكون ذا ثقافة شاملة ومعرفة واسعة.

وهذا ما يؤكّده زملاؤه وتلامذته فيقول أحدهم ـ وكان إماماً في اللغة وعلوم العربيّة وآدابها، والمنطق والتأريخ والحديث والتفسير والرجال والرواية ـ: «ولم يكن مقتصراً على أحاديث أئمّته ورواتهم، بل كان علمه ووعيه للأحاديث الواردة عن طريق السنّة لايقلّ عن علمه بأحاديث الخاصّة»[٢]. وفي تعبيره كان صاحب أُسلوب خاصّ معروف يتميّز بالعلميّة والدقّة حتّى «أنّ الكاتب الفذّ مهما أُوتي من قوّة في البيان لايستطيع أن يحذف لفظةً، أو يضع محلّها أُخرى»[٣].

ولايعني هذا أنّ أُسلوبه كان جافّاً، وإنّما على العكس من ذلك؛ إذ أنّه وفّق بين العلم والفنّ، وكان في ذلك ممتازاً، وممّا يذكره صدر الدين عن أبيه أنّه كان يشترط في الكلمة إلى جانب شروط الصحّة مقاييس الجمال وفضيلة الوضوح[٤]؛ لهذا كلّه كان من الطبيعي جدّاً أن يمتلك مقدرةً على الإقناع يصفها أحدهم فيقول: «... وتأتيه حين تأتيه مالكاً لأمرك مسيطراً على نفسك فاذا استقرّ بك المقام عنده

---

١. النصّ والاجتهاد: ٧٤ في مقدّمته على الطبعة الثالثة.

٢. وهو السيّد محمّد صادق الصدر في مقدّمته على الطبعة الثالثة من النصّ والاجتهاد: ٢٤.

٣. المصدر: ٢٦.

٤. النصّ والاجتهاد: ٧٤ في مقدّمته على الطبعة الثالثة.

لم تتمالك دون أن تضع قيادك بين يديه»[١].

وهذا ما يؤكّده قول «مي زيادة» التالي، وكانت قد سمعته يلقي خطبةً: «لا أدري هل الخاتم أطوع إلى بنانه، أم البيان أطوع إلى لسانه؟»[٢].

توافرت لهذا الرجل إذاً صفات العالم الحقّ من جلد على التنقيب والبحث، ومعرفة واسعة، وحرص على الدقّة والموضوعيّة وتقصٍّ للحقيقة، وأسلوب يجمع بين ميزات التعبيرين: العلمي والأدبي، ممّا أهّله لأن يكون ـ كما يقول السيّد تقيّ الحكيم ـ «مؤلّفاً له فضل الأستاذيّة والتوجيه لأكثر الباحثين العقائديّين في هذا الجيل»[٣].

وقد سخّر جهده العملي والعلمي في سبيل الوحدة فأعطى ما فيه الخير العظيم وما «يجمع الأمّة تحت لواء التوحيد وتوحيد الكلمة»[٤].

سبق وذكرنا أنّ الفرنسيّين أحرقوا مؤلّفاته الأولى. أمّا ما كتبه بعد ذلك، فيربو على الأربعة عشر مؤلّفاً ما بين كتاب ورسالة، والواقع أنّنا سنركّز لدى اطّلاعنا على هذه المؤلّفات على ما يختصّ بموضوع الدعوة إلى توحيد الكلمة، وما يجدر ذكره أنّ المجال هنا لا يسمح إلّا بالإشارة الدالّة؛ وهذاما سنقصر صنيعنا عليه.

الحقّ أنّ الدعوة إلى توحيد الكلمة التي تبنّاهاالسيّد شرف‌الدين وعمل من أجل تحقيقها طويلاً، لم تكن كلاماً يقال في المناسبات بغرض الاستهلاك وإنّما كانت سعياً جادّاً يقوم على أساس من مناقشة الأمور بغية التوصّل إلى الحقائق الأساسيّة.

وهو يرى: «أنّ جملة من صور الخلاف بين الفريقين لاتستند إلى أساس، وإنّما هي وليدة نسب كاذبة، ودعايات وليدة ظروف غذّتها السلطات... والخلافات

---

١. هو الشيخ مرتضى آل ياسين في مقدّمته على الطبعة الثانية من المراجعات: ٢١.

٢. النصّ والاجتهاد: ٢١ في مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.

٣. المصدر: ٤٦ في مقدّمة السيّد تقيّ الحكيم.

٤. المصدر: ٧ في مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.

الأُخرى لا تعدو أن تكون من قبيل الخلافات بين أيّ مذهب ومذهب، أو مجتهد ومجتهد»[١].

ويرى أيضاً أنّ «النزاع بينهما في جميع المسائل الخلافيّة صغروي في الحقيقة، ولا نزاع بينهما في المسائل الكبرى عند أهل النظر أبداً»[٢].

إنطلاقاً من هذا الفهم سعى متطلّعاً إلى سبيل سويّ يوقف المسلمين على حدّ قطع دابر الشغب بينهم، ويكشف هذه الغشاوة عن أبصارهم، مريداً لهم أن يعودوا إلى الأصل الديني المفروض عليهم، ثمّ يسيروا معتصمين بحبل الله جميعاً تحت لواء الحقّ إلى العلم والعمل، إخوة . . .

وفي سبيل تحقيق تطلّعه وتجسيد إرادته هبط مصر، أواخر سنة ١٩٢٩ هـ، راجياً أن تسدّد «الكنانة» سهماً يصيب الغرض ويعالج الداء. وفي مصر التقى بالشيخ سليم البشري، شيخ الأزهر الذي كان شبيهاً للسيّد في فهمه وإرادته، فقد قال: «إنّه لم يتعرّف فيما مضى من أيّامه على دخائل الشيعة وأنّه كان قد سمع أنّ من رأيهم مجانبة السنّة، ولكنّه عندما رأى السيّد «فإذا الشيعي ريحانة الجليس، ومنية كلّ أديب»[٣].

ضرورة وصل الشمل بعد أن عقد أعداء الأمّة الغدر بها، وهكذا اتّفق العالمان، ولنقرأ لهذا اللقاء وهذا الاتّفاق بقلم السيّد شرف‌الدين: «شكوت إليه وجدي، وشكا إليّ مثل ذلك وجداً وضيقاً، وكانت ساعةً موفّقةً أوحت إلينا التفكير فيما يجمع الله به الكلمة، ويلمّ به شعث الأمّة، فكان ممّا اتّفقنا عليه أنّ الطائفتين ـ الشيعة والسنّة ـ مسلمون يدينون حقّاً بدين الإسلام الحنيف، فهم فيما جاء الرسول به سواء، ولا اختلاف بينهم في أصل أساسي يفسد التلبّس بالمبدإ الإسلامي الشريف، ولا نزاع بينهم إلّا ما يكون بين المجتهدين في بعض الأحكام؛

---

١. النصّ والاجتهاد: ٦٩ في مقدّمة السيّد محمّد تقيّ الحكيم.

٢. راجع الموسوعة ج ٤، أجوبة مسائل موسى جار الله: ٤ في خطبة الكتاب.

٣. راجع الموسوعة ج ١، المراجعات: ٩، المراجعة ١.

لاختلافهم فيما يستنبطونه من الكتاب أو السنّة، أو الإجماع، أو الدليل الرابع، وذلك لا يقضي بهذه الشقّة...»[١].

ثمّ اتّفق العالمان على بحث الأُمور موضع الاختلاف بطريقة تنظر في أدلّة الطائفتين بحيث، كما جاء في المراجعات: «نفهمهما فهماً صحيحاً، من حيث لا نحسّ إحساسنا المجلوب من المحيط والعادة والتقليد، بل نتعرّى من كلّ ما يحوطنا من العواطف والعصبيّات، ونقصد الحقيقة من طريقها المجمع على صحّته، فنلمسها لمساً...»[٢].

وهكذا كانت المراجعات مجموعة من الرسائل تبودلت مضامينها بين السيّد وبين شيخ الأزهر في مواضيع عقائديّة، وقد مثّل سماحة الفريق الأوّل ورمز إلى توقيعه بـ«ش» كما مثّل سماحة الشيخ البشري الفريق الثاني ورمز لتوقيعه بالحرف «س».

وقد عمل كلّ من السيّد والشيخ على تحرّي الحقّ فيقول الأوّل: «إنّه جهد في البحث عن الجواب على النحو الأكمل، من كلّ الجهات بدليل لا يترك خليجةً وبرهان لا يدع وليجةً»[٣]. ويقول الثاني: «إنّه نشّاد ضالّة وبحّاث عن حقيقة، فإن تبيّن الحقّ: فإنّ الحقّ أحقّ أن يتّبع»[٤].

ونحن إن كنّا لا نريد التوسّع، فإنّا سنمثّل بما يشير إلى طريقة عمل العالمين عرض السيّد مسألتي: الاجتهاد والمذاهب الخمسة. وممّا قاله عن المسألة الأُولى: «وما الذي ارتجّ باب الاجتهاد في وجوه المسلمين بعد أن كان في القرون الثلاثة مفتوحاً على مصراعيه؟...»[٥].

---

١. راجع الموسوعة ج ١، المراجعات: ٥، في مقدّمة المصنّف.

٢. المصدر: ٥.

٣. المصدر: ٦.

٤. المصدر: ٩، المراجعة ١.

٥. المصدر: ١٧، المراجعة ٤.

وعن المسألة الثانية: «والاختلاف بين مذاهب أهل السنّة لايقلّ عن الاختلاف بينها وبين مذهب الشيعة؛ تشهد بذلك الألوف المؤلّفة في فروع الطائفتين وأُصولهما؛ فلماذا ندّد المندّدون منكم بالشيعة في مخالفتهم لأهل السنّة، ولم يندّدوا بأهل السنّة في مخالفتهم للشيعة، بل في مخالفة بعضهم لبعض؟ فإذا جاز أن تكون المذاهب أربعة؛ فلماذا لايجوز أن تكون خمسة؟...»[1].

وبعد الاطّلاع على الغرض، أجاب الشيخ بشري: «... فكتابك قويّ الحجّة في المسألتين، صحيح الاستدلال على كلّ منهما، ونحن لا ننكر عليك الإمعان في البحث عنهما، واستجلاء غوامضهما، وإن لم يسبق منّا التعرّض لهما صريحاً، والرأي فيهما ما رأيت»[2].

الحقّ أنّ مسألة وحدة الكلمة تشكل الإطار العريض لمؤلّفات السيّد؛ فهي الأساس الذي تقوم عليه مؤلّفاته التالية: الفصول المهمّة، إلى المجمع العلمي، أجوبة مسائل موسى جار الله، النصّ والاجتهاد.

ويمكن للدارس أن يتبيّن هذه الدعوة واضحةً في كتاب الفصول المهمة في تأليف الأمّة الذي انتهى السيّد شرف الدين من تأليفه سنة ١٣٢٧ هـ. لأنّه يضمّ مختلف المسائل المعالجة في الكتب الأُخرى فيما يختصّ بهذه القضيّة.

والكتاب هذا ـ وإن تمّ تأليفه قبل الرحلة إلى مصر بسنتين ـ يفي بغرض مؤلّفه منه؛ إذ أنّنا نقرأ فيه مناقشةً مفصّلةً لمسألة الوحدة في الإسلام تعتمد الموضوعيّة والبحث العلمي الرصين، وقد قسّمه صاحبه إلى فصول تحدّث فيها، مستقصياً عمّا جاء في الكتاب والسنّة من الترغيب في الاجتماع والأُلفة، وحدّد معنى الإسلام والايمان اللذّين ينال العبد بهما غاية الرضوان.

ويصل إلى تقرير حقيقة مفادها أنّ هذين ـ الإسلام والإيمان ـ لايختلف فيهما السنّة والشيعة.

---

١. المصدر: ١٨، المراجعة ٤.

٢. المصدر: ١٩، المراجعة ٥.

وينتهي هنا إلى الحكم الذي تقرّره الآية الكريمة: ﴿وَمَن لَم يَحكُم بِمَا أنزَلَ اللّـهُ فَأُولَئكَ هُمُ الكَافِرُونَ﴾[1].

ثمّ يفصّل في أُمور تدور في إطار وحدة أهل التوحيد من حيث ضرورة هذه الوحدة ووسائل إتمامها ومعوّقاتها ومن لهم مصلحة في ذلك ويناقش هنا هؤلاء، ويفصّل في ذلك ويدحض آراءهم ويعيد الأمر في ما يذهبون إليه إلى مصلحة سياسيّة، وهو يستند في ذلك كلّه إلى العقل والنقل عن مصادر الطائفتين.

أمّا غرضه من كتابه فهو لا يختلف عنه في أيّ كتاب من كتبه الأُخرى، وهو يوضّحه عندما يقول: «لا تتّسق أُمور العمران... ولا تبزغ شموس الدعة... ولا نرفع عن أعناقنا نير العبوديّة بيد الحرّيّة إلّا باتّفاق الكلمة... أمّا إذا كانت الأُمّة أوزاعاً... ليكوننّ حيث منابت الشيح أذلّ الأُمم داراً»[2].

وهو عندما يدعو إلى اتّفاق الكلمة ويبيّن ضرورة ذلك يربط دعوته بالواجب الوطني، ويضعها في إطارها من الظروف العامّة، وفي حيّزها الزماني والمكاني، ولنقرأ ما يقوله عن إرادة الغرب، وما يستوجب على رجال الإصلاح إزاء ذلك: «... لينهض رجال الإصلاح بأسباب الوئام والوفاق، فقد نصب الغرب لنا حبائله، ووجّه قنابله، ولئن لم يعتصم المسلمون بحبل الاجتماع... ليكوننّ أذلّاء خاسئين»[3].

ولنقرأ ما يقوله عن أُفول عصر الظلام، وإقبال عصر العلم، ودور الذكاء، وما يتطلّب ذلك من نهضة وبنيّة على إزهاق نفس العصبيّة: «... وهذا عصر العلم، عصر الإنصاف، عصر النور، عصر التأمّل في حقائق الأُمور، عصر الإعراض عن كلّ تعصّب ذميم، والأخذ بكتاب الله العظيم، وسنّة نبيّه الكريم»[4].

وممّا ينبغي التطرّق إليه هنا طريقة السيّد في معالجة الخلافات، والحقّ أنّها طريقة

---

١. المائدة (٥): ٤٤.

٢. راجع الموسوعة ج ٣، الفصول المهمّة في تأليف الأُمّة: ٣ـ٤.

٣. المصدر: ٢٢، فصل ٣.

٤. المصدر: ١٦، فصل ٣.

تتّسم بسعة الأفق، وبعد النظر، والتحرّي عن الحقيقة، وبالدعوة لتوظيف كلّ جهد في سبيل الحياة والمستقبل، إنّه يدعوهم للعيش في الحاضر وليس في التأريخ يظلّ الكلام مجرّداً مهما طال؛ لذا سألجأ للأمثلة فلديها دفء اليقين.

يردّ على من يقول أنّ الشيعة ينكرون خلافة الشيخين فيقول بعد أن ينفي ذلك: «... فأيّ وجه لتنافر المسلمين بسببها؟ وأيّ ثمرة عمليّة تترتّب فعلاً على الاعتقاد بها؟... فهلمّوا للنظر سياستنا الحاضرة، وعرّجوا عمّا كان من شؤون السياسة الغابرة... وقد آن للمسلمين أن يلتفتوا إلى ما حلّ بهم...»[1].

يضع مسألة إسقاط «حيّ على خير العمل» من الأذان والإقامة في إطارها التأريخي فيقول: «وذلك أنّهم كانوا يرغبون في إعلام العامّة بأنّ خير العمل إنّما هو الجهاد في سبيل الله؛ ليشتاقوا إليه، وتعكف هممهم عليه...؛ ولذا ترجّح في نظره إسقاط هذه الكلمة تقديماً لتلك المصلحة...»[2].

وهو عندما يناقش يطالب بتحرّي الحقيقة والبحث عنها في مظانّها، ففي رسالته إلى المجمع العلمي العربي في دمشق يقول، بعد أن يرشدهم إلى أسماء كتب الشيعة، وأمكنة وجودها، وبعد أن يطالبهم بممارسة الديمقراطيّة بالنشر، يقول: «فليتكم قبل أن تنشروا عن الشيعة ما نشرتم من الدواهي والطامّات بحثتم عن الحقيقة...». ويستشهد بالبيت التالي:

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزللُ

إلى المجمع، ص ١٠.

وعندما يناقش محمود شكري الآلوسي يطلب منه مصادره التي رجع إليها في دعواه، ثمّ يرجعه هو والقارئ إلى مصادر يسمّيها لتكون الحكم، ثمّ بعد ذلك يعاتب صاحب المنار ـ رشيد رضا ـ ويحاسبه طالباً منه أن يسأل ويتحقّق قبل أن ينشر[3].

---

١. المصدر: ١٧٠، فصل ٩.

٢. المصدر: ٨٤، فصل ٨.

٣. المصدر: ٦٧ ـ ٦٨، فصل ٨.

في الميدان التربوي

والواقع أنّ المطّلع على نشاطات السيّد شرف‌الدين يلمس إدراكه الكلّي للأمور. فإضافةً إلى ما سبق عرضه من نشاط عملي ونظري مارس نشاطاً عـمليّاً فـي ميدان تنشئة الجيل وتربيته، بغية القضاء على الجهل والتخلّف وإنشاء جيل وطني واع، وذلك عبر إنشاء مؤسّسات تقوم بهذا العمل.

كانت «مس بل الإنكليزيّة» قد قالت: «إنّ رجال الدين كانوا من أكبر دعاة الثورة خلال الحرب العالميّة الأُولى وبعدها، وهذا ممّا دعا رجـال الحكـم إلى إنشـاء المدارس الحديثة؛ لكي يضعّفوا بها الدين في نفوس الجيل الجديد، ويقتلعوا بذلك الثورة من أساسها»[1].

إزاء هذا الموقف كان للسيّد موقف مقابل عبّر عنه بقوله الشهير: «لا ينتشر الهدى إلّا من حيث انتشر الضلال». والقول هذا يعني المبادرة إلى إنشاء مدارس حديثة، ولكن وطنيّة تحاكي تلك المدارس في البرامج والعلوم إضافةً إلى مبادئ الإسلام، وقد مارس هذا باكراً، فهو عندما كان مهاجراً في دمشق في الصالحيّة «... وقد رأى أهلها فقراء في المادّة، فعطف على فقيرهم، واهتمّ بتربية صغارهم بمدرسة في بيت متواضع تغذّي هذا النشء الطالع»[2].

وعندما عاد إلى جبل عامل قام بإنشاء ناد حسيني ومسجد ومدرسة حديثة، وناد يعرف باسم «نادي الإمام الصادق». وعن المدرسة التي أنشأها يـقول الأُسـتاذ محمّد كاظم مكيّ: «بدأت هذه المدرسة نشاطها التعليمي عام ١٩٢٨م ـ ١٣٥٧هـ بهمّة العلّامة الكبير السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، وفي منتصف هذا القرن أنشأ لها بناءً كبيراً بمساعدة المهاجرين اللبنانيّين، وقد تألّفت لها جمعيّة تشرف على سيرها وعلى أوقافها، وهي اليوم مدرسة ثانويّة في صور تدعى بالكلّيّة الجعفريّة».

١. النصّ والاجتهاد: ٦٦ في مقدّمة السيّد محمّد تقيّ الحكيم.

٢. المصدر: ٢٠ في مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.

وفي هذا الميدان أيضاً شجع التأليف والنشر، ولنقرأ ما حدث لأحد الشعراء عندما أراد أن يدفع تكاليف طبع كتابه: «ولمّا أراد المؤلّف أن يدفع لمطبعة العرفان مصاريف الطبع أجابه صاحبها الأستاذ أحمد عارف الزينﷺ : «إنّ السيّد دفع لنا الحساب ولم يبق بذمّتك شيء»[١].

والحقّ أنّ ما لمسناه من نشاط عملي وفكري وهو بعض اقتطعناه من كلّ غنيّ يؤكّد الحقيقتين اللتين قلنا ـ من قبل ـ: إنّ التأريخ العاملي يتميّز بهما. والحقّ أيضاً أنّ السيّد شرف‌الدين الذي رأيناه فيه أنموذجاً للعالم الذي يصبح النضال في سبيل الدين والوطن والأمّة لديه طبيعةً أصيلةً، الحقّ أنّ هذا الرجل إن هو إلّا أحد كثيرين من رجالات عامل، وما ينبغي قوله هنا: إنّ هذا الجبل «ما عاش على هامش العطاء، وإنّما على هامش الجلبة، وصخب التأريخ، فدوّن شبح التأريخ صخبهم، وصمت أذناه عن الجهد المتّئد»[٢].

وإنّا لنسأل: أفإن صمت شبح التأريخ البائس يتمكّنون من المصادرة ويقدرون على الامتصاص والعصر!؟

عبدالمجيد زراقط
مركبا ـ جنوب لبنان
مجلّة الباحث ـ بيروت ـ السنة الرابعة
ـ العدد ٢٠ ـ ٢١ تشرين الثاني وشباط ١٩٨٢

---

١. النصّ والاجتهاد: ٣٢ في مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر على الطبعة الثالثة.

٢. محمّد كاظم مكّي، الحركة الفكريّة والأدبيّة في جبل عامل (بيروت، دار الأندلس، الطبعة الأولى ١٩٦٣)، ص ٦.

ثورة لها تأريخها

كتب الأُستاذ حسن محمود قبيسي تحت هذا العنوان، في عدد الخميس ٩ ـ ٢ ـ ٨٤ تناول فيه انتفاضة الجنوب، وردّها إلى تأريخ جبل عامل النضالي، وركّز في هذا الصدد على أحداث جبل عامل سنة ١٩٢٠، ومحطّتها البارزة «مؤتمر وادي الحجير»:

ويهمّني أن أُسجّل معلوماتي حول هذه الأحداث؛ توثيقاً لهذه الصفحة المشرقة من تأريخنا:

يقول الأُستاذ محمّد عليّ الحوماني في وصف هذا المؤتمر ـ العدد ٢٠ من السنة الأُولى لمجلته العروبة ـ عبر رسالة مفتوحة وجّهها إلى السيّد عبدالحسين شرف‌الدين ما نصّه:

«ولقد شهدته بنفسي ورأيت كلّ عالم وزعيم ورده دون إحساس الحضور بوروده؛ لكثرة ما ازدحم فيها من الخلق، حتّى إذا أوشكت ركابك أن تحلّ به، حسبنا أنّ الأرض قد تزلزلت، والسماء أطبقت علينا. ولمّا تكشف هذا الرهج المعقود فوق الوادي برزت من تحته كالبدر ينشقّ عنه الغمام ليلة تمّه، إذا بالقسطل المعقود فوقك تثيره سنابك الخيل المحدقة بك، وإذا بالرعود القاصفة ممّا تبعثه البنادق والحراب المشرعة حولك.

لم يبق في الوادي فرد واحد لم يهرع إلى استقبالك، ويتشوّف ركبك، ولمّا جلست في خيمة العلماء حفّوا بك، وتهافت الحفل المحشود عليك.

كلّهم يحدق بك، ويستمع إليك، وأنت مندفع تخطب كالسيل، تبعث في نفوسهم الحميّة، وأنت دائب فيهم تحرّضهم على الجهاد في سبيل الحقّ». انتهى.

ويلخّص الأُستاذ محمّد جابر آل صفا في كتابه تأريخ جبل عامل المقرّرات التي اتّخذت فيها بالإجماع بثلاثة بنود هي: «الانضمام إلى سوريّا، والمناداة بجلالة

المليك فيصل مليكاً عليها. رفض حماية وانتداب الفرنسيين. انتخاب السيّد عبدالحسين شرف‌الدين والسيّد عبدالحسين نورالدين لرفع قرار المؤتمر للحكومة السوريّة». انتهى. على أن ينضمّ إليهما في دمشق السيّد محسن الأمين؛ إذ كان رضوان الله عليه فيها حين انعقاد المؤتمر.

ويتحدّث السيّد عبدالحسين شرف‌الدين عن هذا المؤتمر الذي عقد يوم السبت ٥ شعبان ١٣٣٨ للهجرة ١٩٢٠ للميلاد في كتابه المخطوط صفحات من حياتي بعد أن ألقى خطابه ما نصّه:

«ثمّ أقسمت اليمين، وأخذتها على العلماء والزعماء، أن نتضامن على حفظ الأمن، والحرص على سلامة النصارى بوجه خاصّ، وأحضرت رؤوس الثوّار: صادق الحمزة، وأدهم خنجر، ومحمود الأحمد، وأخذت اليمين عليهم»[1]. انتهى.

على أنّ ما جاء في حديثه عن المؤتمر الذي اجتزأت منه سطرين فقط، وما جاء في خطابه بالمؤتمر، يدحض كلّ بهتان آثار الفتنة في حينه، ويصحّح المزاعم التي تناولت المؤتمر، والبحث الذي دار فيه، وخصوصاً التزوير الذي نشرته بعض الصحف سنة ١٩٢٠، ومنها جريدة البشير، والميول التي برزت فيما تناوله بعض المؤرّخين في تحجيم دور السيّد شرف‌الدين، وأدوار بعض قادة المؤتمر، وهذه مقاطع من الخطاب الوحيد الذي قيل في المؤتمر، وهو خطاب السيّد عبدالحسين شرف‌الدين أشار إليه الأستاذ الحوماني، وسجّله مرافق السيّد عبدالحسين شرف‌الدين وكاتبه ابن عمّه المرحوم السيّد عليّ شرف‌الدين في مخطوطة أسماها الشذرات، ونصّ المقاطع هو:

١ ـ ألا وإنّ جبل عامل بعد هذا المؤتمر بين أمرين: إمّا عزّ لا تفصم عروته، ولا تقرع مرّته، أو ذلّ تهاوت معه كواكب السعد، وتقوّض به سرادق المجد.

---

١. راجع الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٩٠.

فإن نبذتم الأهواء الشخصيّة، وآثرتم شرف القضيّة، فلتكوننّ في حرز لايفصم، وتكون بلادكم في حمى لايقحم.

٢ ـ فوّتوا على الدخيل الغاصب ـ برباطة الجأش ـ فرصته، وأخمدوا ـ بالصبر الجميل ـ فتنته، فإنّه والله ما استعدى فريقاً على آخر إلّا ليثير الفتنة الطائفيّة، ويشعل الحرب الأهليّة، حتّى إذا صدق زعمه، وتحقّق حلمه استقرّ في البلاد تعلّة حماية الأقلّيّات.

٣ ـ ألا وإنّ النصارى إخوانكم في الله وفي الوطن وفي المصير، فأحبّوا لهم ما تحبّونه لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم، كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة.

٤ ـ إنّ هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية، ويأبى إلّا الاستقلال التامّ الناجز، المعتمر تاج «فيصل» العرب، عاهلاً مؤثّلاً، وقائداً محجّلاً، يقيم دولةً شرعيّةً تجعل من الوطن جبهةً منيعةً ينحدر عنها السيل، ولا يرقى إليها الطير...[1]. انتهى.

وفي ١٧ شعبان ١٣٣٨ الموافق ٦ أيار ١٩٢٠ أمّ دمشق السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، والسيّد عبدالحسين نور الدين، والزعيم كامل الأسعد صاحب الدعوة للمؤتمر لإبلاغ الملك فيصل مقرّرات المؤتمر، وفي ١٩ شعبان و٨ أيار استقبل الملك فيصل وفد جبل عامل استقبالاً رسميّاً في حشد من رموز حكومته وأعوانه، فيهم الشهيد المرحوم يوسف بك العظمة وزير الحربيّة آنذاك. وقد تكلّم السيّد شرف‌الدين وممّا قاله:

«١ ـ أمّا بعد، فإنّني أتقدّم بتحيّة جبل عامل وولائه للمليك المفدّى، ثمالة السلف، وبقيّة الخلف، وذؤابة الشرف، أجل إليك يا ابن رسول الله، أرفع تحيّة شيعتك المتمسّكين بالعروة الوثقى من ولايتك، العاقدين نيّة القربة على مبايعتك بيعةً قائمةً مستمرّةً حتّى بلوغ الهدف، «ذمّتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم»، والهدف

١. راجع الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين.

يقوم على دعامتين اثنتين هما: تطهير أرضنا من رجس الاحتلال، وجمع شتاتها تحت لواء وحدة وحرّيّة واستقلال.

٢ ـ وقد أجمع الرأي العامّ عندنا على المناداة بذلك، والجهاد في سبيل تحقيقه، وواجه به لجنة الاستفتاء الأمريكيّة، ولا عبرة بمن شذّ عن ذلك من كلّ مستأجر شرك الشيطان في جنانه، ونطق على لسانه، وكانت مقرّرات مؤتمر وادي الحجير الحدّ الفاصل بين الحقّ والباطل، والوثيقة التي رفعناها لجلالتكم أمس الأوّل تفصّل ما نجمل»[1]. انتهى.

وتطوّرت الأحداث في جبل عامل، فبينما كان الملك فيصل يستقبل الوفد يوم السبت في دمشق كانت فتنة الفرنسيّين قد جعلته يوم سبت أسود في جبل عامل؛ إذ أتت أكلها فيه، فالسلاح الذي زوّدوا به عملاءهم فعل فعلته، فأدّى إلى فتنة طائفيّة خبيثة لم يطفها ضبط النفس، ورباطة الجأش اللذين نادى بهما السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، ويقول هو نفسه في ذلك ما نصّه: «وقد كان استياؤنا بهذه الكارثة عظيماً، أزعجنا مظهرها الفوضوي البربري الذي لاتبيحه شريعة، وأزعجنا أنّها أساءت إلى خطتنا التي أعلنّاها من الحفاظ على الأمن والمبالغة في تأمين النصارى، وقد كانت هذه الكارثة في رأس العراقيل التي حالت بيننا وبين تحقيق هدفنا في الاستقلال والتحرّر»[2]. انتهى.

وعاد الوفد من دمشق ليجد أنّ «عاملة» كما يصفها السيّد شرف‌الدين بما نصّه: «تنوء تحت ضربة بكر، وتلفظ أبناءها هنا وهناك من الخشية والذعر، وأعلنت الأحكام العرفيّة، فحكم عليّ بالنفي المؤبّد مع مصادرة ما أملك، وبهذا حكم على العلّامة السيّد عبدالحسين نورالدين، وعلى الأحرار من زعماء البلاد، وفي مقدّمتهم كبيرهم كامل بك الأسعد.

---

١. راجع الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين.

٢. المصدر: ٥٩٣ ـ ٥٩٤.

أمّا فتيان الثورة فقد حكموا بالإعدام، وفرضت على جبل عامل غرامةً فادحةً لا تتحمّلها ثروة البلاد، قدرها مائتا ألف ليرة ذهبيّة، دفعتها البلاد من دمها وأملاكها خمسمائة ألف. وهكذا كان نصيب السماسرة من باعة الضمائر والأوطان أكبر من نصيب المستعمر، وهكذا أخفق الجبل فأخفقت القضيّة؛ لأنّه كان المرحلة التجريبيّة التي جرّأت فرنسا على سوريّا، والأُمّة العربيّة ممتحنة في تأريخها الحافل بالنهضات والكبوات جميعاً»[1]. انتهى.

حسين هاشم

جريدة السفير ١٧ / ٢ / ١٩٨٤



١. المصدر: ٥٩٦ـ ٥٩٧.

الانتداب الفرنسي وحجّة الإسلام شرف الدين

«فرنسا والقوى السياسيّة اللبنانيّة» عنوان لتحقيق قيّم نشرته الشراع العدد رقم ٢٣٤ تأريخ ٨٦/٩/٨.

مع تقديرنا التامّ لجهد من كتب، وعلى الأخصّ ما كتب عن ذيّاك الرعيل الذي قاوم الظلم والقهر، وكلّ رموزه ومن أبرزها الانتداب الفرنسي، إلّا أنّنا نستغرب ونتساءل كيف يغفل عن ذكر جهاد كريم من أكرم الكرام، حجّة الإسلام عبدالحسين شرف‌الدين، السيّد الإمام المجاهد الثائر الحازم الصابر، والقائد القادر، الذي قاوم كلّ حالات الانتداب والاستعمار، وحارب كلّ أنواع الظلم والاستئثار، وأغنى المكتبة الإسلاميّة بمؤلّفات مراجع قلّ نظيرها، ويتعاظم يوماً بعد يوم تأثيرها، وتصدّى لمحو الاُميّة ومكافحة الجهل، فشيّد الصروح الثقافيّة وعمل على مكافحة الانحلال الخلقي والتفكّك الاجتماعي، كما أسّس المؤسّسات التربويّة والاجتماعيّة؟

فذّ من عاملة تصدّى بشجاعة الأبطال لكلّ أنواع القهر والظلم، ممّا أوجب استدراك الخلل الذي حصل تقديراً لمصداقيّة مجلّتنا الشراع، وتعبيراً عن حقيقة مواقف صاحبهاالقوميّة والوطنيّة، فنتوجّه إلى قرّاء الشراع ببعض من فيض جهاد الإمام شرف‌الدين وحصراً نضاله الشرس ضدّ الانتداب الفرنسي؛ ليعلموا أنّه كان طليعة من ناضل وتصدّى وقاوم وصمد؛ ولهذا قرّر الفرنسيّون ملاحقته واعتقاله، وكان ذلك سنة ١٩٢٠؛ إذ حمل عليه الفرنسيّون من مركز إقامته في صور إلى مسقط رأسه «شحور» حيث قرّر أن يغادرها متخفّياً، فلجأ إلى كهف في وادي نهر الليطاني ممّا أفسد على الفرنسيّين خططهم فباءت حملتهم التي داهمت شحور لاعتقاله بالفشل.

وعندما اشتدّ غضبهم عمدوا إلى إحراق منزله ومكتبته فيها، ثمّ عادوا إلى مداهمة بيته في صور، فاستباحوه وضاعت المكتبة الإسلاميّة الكبرى التي ورثها عن أسرته، إضافةً إلى ما جمعه من كتب قيّمة، ومخطوطات نادرة فضلاً عن مؤلّفاته الشخصيّة.

ومن كلامه في مقدّمة واحد من مؤلّفاته ـ المراجعات ـ: « وكنت أردت طبع تلك المراجعات لكن الأقدار الغالية أرجأت ذلك، فلمّا تكبنافي أحداث ١٣٣٨هـ ١٩٢٠ م نهبت مع سائر مؤلّفاتي يوم نهبنا في دورنا».[١]

ويقول في كتابه صفحات من حياتي: « ثمّ كانت لنا مواجهات مع المسيطرين من الفرنسيّين: كيكيو[٢] وغورو، وشربنتيه، ودلبستر، وينجر،[٣] وقد حضر بعض هؤلاء إلى صور وفاوضونا دون خجل في أن تكون لنا الإرادة المطلقة في أسس الحكم المحلّي وفي التعيينات، ولكنّنا رفضنا هذه المساومة، وقد شهد بعض هؤلاء في صور وشحور، احتشادات الجماهير الهابطة من الجبل بأعلامها الوطنيّة الخافقة، وهتافاتها الصاخبة، فكان له وقع في نفوسهم، وعلموا أنّ الشكيمة التي يحاولونها شكيمة لا تروض»[٤].

وعندما زارته لجنة الاستفتاء الأميركيّة في صور سنة ١٩١٩ وبعد مباحثات شاقّة مضنيّة سلّمها مذكّرته الشهيرة التي جاء فيها: «أمّا بعد فإنّني أكّد البحث الذي أردته وأخي حجّة الإسلام الشيخ حسين مغنية معكم في صور، وأسجّل في هذه الوثيقة خلاصة الرأي الذي أدلينا به؛ منعاً لكلّ لبس لدى المترجم، ودفعاً لأيّ تقوّل من الذين يحرّفون الكلم عن مواضعه»[٥].

---

١. كذا في النسخة والعبارة بنصّها موجود في بغية الراغبين. راجع الموسوعة ج ٧، ص ٥٣٣.

٢. في المصدر: «كييكو» بدل «كيكيو».

٣. في المصدر: «نيجر» بدل «ينجر».

٤. راجع الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٨٣.

٥. المصدر.

أوّلاً: لا نرضى بغير استقلال سوريّا التامّ الناجز بحدودها الطبيعيّة التي تضمّ قسميها الجنوبي ـ فلسطين ـ والغربي ـ لبنان ـ وكلّ ما يعرف ببرّ الشام.

ثانياً: تكون الحكومة فيها ملكيّةً ذات عدالة ومساواة، يستوي فيها الناس كافّةً في الحقوق والواجبات.

ثالثاً: الأمير فيصل هو مرشّح العرب الطبيعي لملك سوريّا لما له من جهاد في سبيل القضيّة العربيّة، ومن عبقريّة سياسيّة وخلقيّة.

رابعاً: لا حقّ لما تدّعيه فرنسا في أيّة بقعة في سوريّا، ولا تقبل أيّ مساعدة منها.

حتّى كان يوم السبت ٥ شعبان ١٣٣٨هـ ١٩٢٠ يوماً تأريخيّاً مشهوداً حيث عقد مؤتمر وادي الحجير وكان الإمام شرف‌الدين أحد أبرز المؤتمرين حيث أقسم اليمين وأخذها على العلماء والزعماء، وذلك على التضامن وعلى حفظ الأمن والحرص على سلامة النصارى بوجه خاصّ، وأجمع مؤرّخو تلك الحقبة على أنّه كان خطيب المؤتمر الأوحد، وفي مقاطع من خطابه يقول: «إنّ هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية ويأبى إلّا الاستقلال الناجز» إلى أن يقول مخاطباً الجماهير: «ألا وإنّ النصارى إخوانكم في الله وفي الوطن وفي المصير فأحبّوا لهم ما تحبّونه لأنفسكم وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخمدون الفتنة، وتطبّقون تعاليم دينكم وسنّة نبيّكم»[١].

ويمكن العودة إلى كتاب تأريخ جبل عامل للأستاذ محمّد جابر للاطّلاع على مقرّرات مؤتمر الحجير التي اتّخذت بالإجماع، حيث اختير وفد لرفع قرارات المؤتمر إلى الحكومة السوريّة.

وبالفعل فقد أمّ دمشق وفد لابلاغ الملك فيصل تلك المقرّرات. وفي تأريخ ٨

---

١. راجع الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين.

أيار/ مايو ١٩٢٠ استقبل الملك فيصل وفد جبل عامل، وقد تكلّم السيّد شرف‌الدين باسم الوفد وممّا قاله «ذمّتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم، والهدف يقوم على دعامتين اثنتين هما: تطهير أرضنا من رجس الاحتلال وجمع شتاتها تحت لواء وحدة وحرّيّة واستقلال»[1].

وعاد الوفد من دمشق ليجد أنّ فتنة الفرنسيّين أدّت إلى فتن طائفيّة خبيثة، وأعلنت الأحكام العرفيّة، فحكم على السيّد شرف‌الدين بالنفي مع مصادرة أملاكه، وهكذا عاد السيّد إلى سوريّا مهيض الجناح، ومنها إلى مصر، ومن ثمّ إلى فلسطين لقربها من جبل عامل، وإلى بلدة «علما» جاءه مبعوث خاصّ من الجنرال غورو برسالة تدعوه إلى العودة على ما يحبّ.

وفي بيروت التقى غورو وترابو في حوار لم ينكرا فيه صلابة العود و قوّة الشكيمة، بل جرى فيه بصراحة ووضوح وإصرار، وفتح حديثه بطلب إطلاق جميع المعتقلين، ونترك للأستاذ الحوماني الذي عاش جميع هذه المراحل ليخاطب الإمام شرف‌الدين قائلاً: «أتذكّر يوم عدت من مهجرك في سبيل الجهاد وهبطت صور فانكفأ الجبل بأسره عليك»... إلى أن يقول: «وشهدت أيضاً يوم أعلنت صعودك إلى قريتك «شحور»، ثمّ صعدت والخيل في ركابك تمتدّ أميالاً حتّى إذا وطأت أرض «شحور» غصّت الحقول بالمستقبلين حتّى لم تبق شجرة تتدلّى فروعها على غير محبّيك وزائريك».

وما زال الحديث عن ذيّاك الرعيل الذي تحدّى، وبكلّ عنفوان، وقاوم وبكلّ كبرياء، فعلينا أن نأتي على أسماء لم يأت على ذكرها كاتب المقال ومنها: دولة الرئيس عادل عسيران، الشهيد معروف سعد، عليّ بزي، عليّ بيضون، سليم أبو جمرة، الفرد أبو سمرة. إلى آخره.

وها هي المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة التي تجترح المعجزات على الأرض المقدّسة

---

١. المصدر.

في الجنوب تعبير صادق وبرهان قاطع عن البذرة الطيّبة التي غرسها أُولئك المجاهدون الأبطال، إلى أنّ تعهّدها ورعاها بعد ذلك وبمشيئة الله ـ سبحانه وتعالى ـ السيّد موسى الصدر الذي أزال غبار التأريخ عن كلّ القدرات، فبرزت الطاقات، وارتفع صوت المحرومين والمستضعفين بعد أن كان خفيضاً. وأُعيدت للإنسان في لبنان القيمة والكرامة، فالتهبت المشاعر الوطنيّة، تفجّرت ينابيع الخير والإيمان؛ لتغذّي تلك البذور وتنمّيها؛ لتتحوّل إلى قوافل الشهداء عجائبيّة في العطاء، أُسطوريّةً في بذل الدماء، ومن المقدّر لها أن تنمو وتستمرّ وتصمد حتّى النصر المبين بإذن الله.

الأُستاذ أحمد إسماعيل

مجلّة الشراع العدد ٢٣٧ ـ ٢٩/ أيلول ١٩٨٦



الصراع بين العلماء والاستعمار

الحلقة الثانية

محاربة العالم المسلم في بلاد الشام

لقد شهدت بلاد الشام تكالباً استعمارياً شديداً، ومتوزّعاً على ثلاث جِهات: الفرنسيّة؛ الإنكليزيّة؛ الصهيونيّة.

وكان للعلماء المسلمين مع كلّ جِهة من هذه الجِهات الاستعماريّة صراع، وسنذكر ولايتين من بلاد الشام كنموذج على ذلك:

أ ـ جبل عامل

لجبل عامل دور عظيم في مكافحة المستعمرين الفرنسيّين، وكان يقود العامليّين في صراعهم مع المستعمرين العلماء المجاهدون، ومن أبرزهم السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، بعد عقد معاهدة فرساي وقع لبنان ضمن منطقة النفوذ الفرنسي، ممّا جعل الجماهير الطامحة للحرّيّة والاستقلال، تتحرّك ضدّ المستعمرين الفرنسيّين، وكان لجبل عامل قصب السبق في هذا المضمار.

لقد قام العلماء بقيادة السيّد عبدالحسين شرف‌الدين يطالبون بحقوق الجماهير المحرومة خصوصاً في جبل عامل.

جهاد السيّد عبدالحسين شرف‌الدين

ولمّا رأى الفرنسيّون نشاطات السيّد شرف‌الدين المكثّفة أرسلوا أحد ضبّاطهم الكبار ـ ابن الحلّاج ـ مع مفرزة من الجنود لاعتقاله.

لكن العامليّين ما إن سمعوا بذلك حتّى ثارت ثائرتهم، ووقفوا بشدّة ضدّ هذا الإجراء الفرنسي، وكادت الفتنة أن تقع والمذبحة تحصل لولا حكمة السيّد

شرف‌الدين الذي استطاع أن يمنع ذلك.

كانت مطاليب الجماهير التي يقودها العلماء، والذين كان محورهم السيّد شرف‌الدين هو إعطاء الاستقلال لمسلمي لبنان من جِهة، والتحاق هؤلاء المسلمين بباقي إخوتهم من مسلمي سوريّا من جِهة أُخرى.

لقد توجّست القوّة الفرنسيّة بلبنان خيفةً من هذا التحرّك، فمنحت الشيعة بضعاً من حقوقهم المسلوبة على أمل أن يسكنوا ويقبلوا بالمسالمة، لكن الجماهير وقياداتها العلمائيّة رفضت ذلك، واستمرّوا بمطالباتهم بالاستقلال.

وفي سنة ١٩١٩ حصل اتّفاق عامّ بين المجاهدين على خطّة: لنيل الاستقلال في مؤتمر عام في «وادي الحجير».

ولمّا علمت الحكومة الفرنسيّة بذلك طاردت أعضاء المؤتمر، واعتقلت من تمكّنت منهم.

أمّا السيّد شرف‌الدين فقد طاردته القوات الفرنسيّة بشدّة، فاستعملوا مختلف الوسائل لإلقاء القبض عليه، لما عرفوا عن دوره الفعّال في قيادة الجهاد ضدّهم، لكنّه استطاع أن ينجو من قبضتهم هارباً إلى دمشق، فما كان من الفرنسيّين إلّا الانتقام من الرجل بإحراق بيته في بلدة شحور، وسرقة داره في صور، وإحراق مكتبته فيها واتّخاذها مقرّاً لجنودهم.

لقد أوضح السيّد شرف‌الدين نهجه في العمل الثوري عندما أرسل له في يوم من الأيّام الملك فيصل مبلغاً ـ قدره خمسة آلاف دينار ـ من الذهب فرفض السيّد قبول هذه الهديّة قائلاً: «نحن لم نثُر على القوم من أجل المال، ولكنّها عقيدة دينيّة نستجيب لها كلّما خشينا على تراث محمّد ﷺ أن يصاب».

ومن دمشق كان السيّد شرف‌الدين يدير الأعمال الجهاديّة ضدّ الفرنسيّين.

وبعد مهاجمة الفرنسيّين لدمشق فرّ السيّد إلى فلسطين، ثمّ سافر إلى مصر والتقى بعلمائها، ثمّ رجع إلى فلسطين واستقرّ في بلدة «علما»، الواقعة على الحدود اللبنانيّة من جِهة جبل عامل، ومنها حاول إطلاق المعتقلين في سجون القوّات

الفرنسيّة فلم يفلح، وعندها قرّر الذهاب إلى العراق، لكن فرنسا خافت من تفاقم الأمور لو وصل السيّد إلى العراق، فأصدرت العفو عنه، لكنّه أبى قبول العفو دون إطلاق سراح المعتقلين وقد كان له ما أراد.

واستمرّ جهاده داخل لبنان مع كلّ ما أصابه من أذى على يد الفرنسيّين، ففي سنة ١٩٣٩ شرّعت الحكومة الفرنسيّة قانوناً للأحوال الشخصيّة، مشتملاً على الكثير من الأحكام المخالفة للإسلام.

فما كان من السيّد شرف‌الدين إلّا الاحتجاج على هذا التصرّف، وقد أعلن باسم جميع مسلمي لبنان عدم الخضوع لقوانين تخالف أحكام الإسلام، وأنّهم سوف يثبتون على ذلك مهما كلّف من ثمن غال.

فخافت الحكومة من هذا الاحتجاج خوفاً شديداً خشية إشعال نار حرب ضدّها، فسارعت إلى تعديله وخيّرت المسلمين بين الالتزام بهذا النظام، أو أحكام دينهم، وبعد انتهاء عهد الاستعمار كانت للسيّد مواقف قويّةٌ ضدّ التصرّفات المضادّة للإسلام من قبل الحكومة اللبنانيّة، كما كان له قصب السبق في بثّ الوحدة بين المسلمين في لبنان.

لقد استمرّ الدور الجهادي للعالم المسلم في لبنان بعد ذلك فكان للسيّد موسى الصدر الدور المشرف في مناهضة الحكومة اللبنانيّة المرتبطة بالمستعمرين، وقد دفع ثمن ذلك غالياً عندما أقدمت القوى الاستكباريّة على اختطافه وإخفاء مصيره. لكن جهاد علماء لبنان الثوريّين لم يتوقّف مع كلّ المحاولات الآثمة التي اتّخذت لتصفية موقعهم القيادي من قبل القوى المرتزقة من مختلف الأصناف في لبنان، فكان جهاد الشيخ راغب حرب مثالاً رائعاً على استمرار قيادة العالم الديني للصراع ضدّ الاستكبار، وكان اغتياله مثالاً واضحاً على استمرار الاستعمار في خطّته القديمة في تصفية العلماء الثوريّين.

المهندس عبدالله نجف

مجلّة المنطلق، العدد ٣٣ ذو القعدة ١٤٠٧/ حزيران ١٩٨٧

مفهوم الوحدة الإسلاميّة عند السيّد عبدالحسين شرف الدين

الحديث عن الوحدة الإسلاميّة لم يكن وليد أحداث وأزمات عصفت بالساحة الإسلاميّة، ففرضت على المخلصين فيها الذين يعيشون الاختلاف في كثير من الأُمور، العمل على توحيد القوى الموجودة من أجل الحفاظ على استقلاليّة الأُمّة.
ما نودّ قوله في هذا المجال أنّ الشعور بالخطر الذي كان يهدّد الأُمّة في بُعدها الحضاري والتأريخي من خلال تمييع شخصيّتها، وفي بعدها المادّي من خلال سلب ثرواتها، لم يكن وحده السبب في الدعوة إلى الوحدة الإسلاميّة.
فالعمل من أجل الوحدة كان نتيجة عصارة فكريّة لعدد من العلماء والمفكّرين المسلمين الذين وجدوا أنّ كثيراً من الحواجز المصطنعة التي تقسّم الأُمّة وتفرّقها، والتي ساهم في نموّها كثير من الأوضاع المتراكمة عبر السنين، ما هي إلّا حواجز واهية لا وجود لها إلّا في مخيّلة أصحاب النفوس المريضة، والباحثين عن موقع تغذية الغريزة الطائفيّة.
وقبل الشروع في أيّة محاولة لفتح هذا الباب، لابدّ من التوقّف عند شخصيّة تركت بصماتها على كثير من المفاهيم والأفكار التي لابدّ من الرجوع إليها قبل الولوج في خوض عباب هذا البحر اللجّي. وهذه الشخصيّة هي شخصيّة السيّد عبدالحسين شرف الدين.

شخصيّة السيّد

قبل التطرّق إلى الأفكار والمفاهيم التي شرحها ووضع الأُسس العمليّة لها، لابدّ من التوقّف عند عاملين أساسيّين لإدراك سرّ تكوين شخصيّة السيّد شرف الدين وغيرها من شخصيّات العلماء المجتهدين.
العامل الأوّل يعود إلى الجوّ العلمي الذي يحياه العالم في بيئته الأُولى أي: بيته

ومحيطه، فولادة السيّد كانت في الكاظميّة في العراق في بيت «رفعت دعائمه على أعلام لهم في دنيا الإسلام ذكر محمود وفضل مشهود»، وفي محيط تعتبر الفضيلة والمعرفة والدين قواعد أساسيّة لا يستطيع الفرد ممارسة حياته بدونها.

وهذا الجوّ المملوء حبّاً للعلم وتقديراً لأهله، بمن فيهم الطالب الذي كانت تعقد عليه الآمال ليكون الامتداد الطبيعي لآبائه وأجداده.

والحياة الأُسريّة في البيت الواحد لم تقم على أساس سلطوي تفرض فيها الأفكار دون أيّة مناقشة أو حوار إنّما كانت حياة تعيش روحيّة الحوار وتبني مواقفها على أساس ماتتوصّل إليه من حقائق.

ولنقرأ هذه الكلمات التي كتبها السيّد عن جدّه السيّد هادي الذي كان قد أمضى فترةً من دراسته تحت رعايته في النجف «وكم كنت أرجع إليه في مشكلات المنطق والعلوم العربيّة، فيثلج غلّتي بما ينفي عنّي معتلج الريب، وكان على جلالته وشيخوخته يقبل على مباحثتي بانبساطه، ويسترسل إلى مناظرتي بأُنسه، ويحملني على مناقشته»[1]. إنّ هذا الشيخ المتقدّم بالسنّ لا يشعر بأيّ ملل عندما يرى حفيده يطرح عليه المسائل ويناقشها، بل على العكس من ذلك إنّه يفتح أمامه باب الحوار، ويستمع إليه حتّى يرى ما توصّل إليه ثمّ يتابعا سويّاً حتّى يتوصّلا للحقيقة.

ويعود الأمر الثاني إلى المناخ الذي يعيشه الطالب في بيئته الدراسيّة في النجف الأشرف، الجامعة الإسلاميّة العريقة في وجودها العلمي، المتميّزة «بفتحها على طلّابها أبواب الاجتهاد، وتركها العقول تتصارع في سبيل البلوغ إلى الحقّ عن طريق الجدل العلمي».

إنّ هذه الأجواء التي عاشها السيّد، وهذه العوامل المؤثّرة في حياته، أكسبته ثقافةً شموليّةً وإلماماً بكثير من جوانب الحياة العلميّة والعمليّة، وهذا ما جعله لا يشعر بأيّة عقدة اتّجاه من يخالفه الرأي أو المعتقد.

---

١. النصّ والاجتهاد: ١٣ في مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.

دور السيّد في الدعوة

وعلى هذا الأساس نرى دوره المتميّز فيذلك الوقت في الدعوة إلى الوحدة الإسلاميّة، ولم تكن دعوته كلاماً يقال في المناسبات بغرض الاستهلاك. إنّما كانت سعياً جادّاً ومتواصلاً يقوم على أساس مناقشة الأُمور حتّى الوصول إلى الحقائق الأساسيّة. وهو يرى «أنّ جملة من صور الخلاف بين الفريقين لا تستند إلى أساس وإنّما هي وليدة نسب كاذبة ودعايات، ووليدة ظروف غذّتها السلطات. والخلافات الأُخرى لا تعدو أن تكون من قبيل الخلافات بين أيّ مذهب ومذهب، أو مجتهد ومجتهد»[1].

ويرى أيضاً: «أنّ النزاع بينهما في جميع المسائل الخلافيّة صغروي في الحقيقة، ولا نزاع بينهما في المسائل الكبرى عند أهل النظر أبداً»[2].

عند حديثه عن الوحدة يرى أنّ كثيراً من الأوضاع تساهم في تغذية الخلاف، وأوّل الأوضاع هي السلطة الجائرة القائمة التيترى أنّ من مصلحتها ألّا يتّفق الناس حتّى تبقى محتفظة بزعامتها.

أمّا الأُمور الكبرى كالتوحيد والنبوّة والمعاد فلا خلاف فيها عند الذين ينظرون إلى الأُمور من مواقعها الصحيحة.

إنطلاقاً من هذا الفهم يتطلّع إلى سبيل سويّ يوقف المسلمين على حدّ يقطع دابر الشغب بينهم، ويزيل الغشاوة عن أبصارهم، مريداً لهم أن يعودوا إلى أصل المفهوم الديني؛ ليعتصموا بحبل الله جميعاً، فهو قد ضاق ذرعاً بما رأى من جهل يطبق على الأُمّة، واستغلال من الحكّام وأصحاب الأقلام الرخيصة الذين باعوا أنفسهم للشيطان، فأخذوا يبثّون سمومهم بين المسلمين، ويكتبون ما تملي عليهم نفوسهم الضعيفة ليزيدوا الهوّة اتّساعاً بين الناس.

---

١. النصّ والاجتهاد: ٦٩ في مقدّمة السيّد محمّد تقيّ الحكيم على الطبعة الثالثة.

٢. راجع الموسوعة ج ٤، أجوبة مسائل موسى جار الله: ٤ في خطبة الكتاب.

فهبط مصر أواخر سنة ١٣٢٩هـ علّه «يجد فيها سهماً يصيب الغرض، ويعالج الداء». والتقى الشيخ سليم البشري الذي كان آنذاك علم مصر، وإمام الأزهر، وكان شبيهاً للسيّد في فهمه وإدراكه، وقال له الشيخ: «إنّه لم يتعرّف فيما مضى على دخائل الشيعة، وإنّه سمع أنّ من رأيهم مجانبة السنّة فإذا به عندما رأى السيّد: «فإذا الشيعي ريحانة الجليس ومنية كلّ أديب»[١].

ثمّ اتّفق العالمان على بحث الأُمور المختلف عليها بحثاً دقيقاً لتفهم فهماً صحيحاً كما جاء: «من حيث لا نحسّ إحساسنا المجلوب من المحيط والعادة والتقليد، بل نتعرّى من كلّ ما يحوطنا من العواطف والعصبيّات ...»[٢].

إنّه يريد أن يناقش بعقله لا بعاطفته من حيث الابتعاد عن جوّ الناس الذين يفكّرون غرائزيّاً وعاطفيّاً حتّى يتوصّل في النهاية مع الشيخ إلى نتيجة تؤدّي إلى ما يلمّ شعث الأُمّة.

ولنقرأ هذا الاتّفاق بقلم السيّد: «شكوت إليه وجدي، وشكا إليّ مثل ذلك وجداً وضيقاً، وكانت ساعةً موفّقةً أوحت إلينا التفكير في ما يجمع الله به الكلمة، ويلمّ به شعث الأُمّة، فكان ممّا اتّفقنا عليه أنّ الطائفتين ـ السنّة والشيعة ـ مسلمون، يدينون حقّاً بدين الإسلام الحنيف، فهم فيما جاء الرسول به سواء، ولا اختلاف بينهم في أصل أساسي يفسد التلبّس بالمبدإ الإسلامي الشريف، ولا نزاع بينهم إلّا ما يكون بين المجتهدين في بعض الأحكام؛ لاختلافهم في ما يستنبطونه من الكتاب أو السنّة أو الإجماع أو الدليل»[٣].

إنّه ينطلق ليتحدّث عن الأساس الذي يجمع، بينما الأُمور المختلف عليها لا تعدو أن تكون بين أيّ مجتهد وآخر. وهنا ينظر الناس في ما يفرّق ولمّا ينظرون في ما يجمع، وهو مع ذلك يبيّن لنا منافع الوحدة، ومضارّ الفرقة. فإذا به يقول: «لا تتّسق

---

١. راجع الموسوعة ج ١، المراجعات: ٩، المراجعة ١.

٢. المصدر: ٥ في مقدّمة المصنّف.

٣. المصدر: ٤ ـ ٥.

أُمور العمران، ولا تبزغ شمس الدعة، ولا ترفع عن عناقنا نير العبوديّة إلّا باتّفاق الكلمة... أمّا إذا كانت الأُمّة أوزاعاً متباينةً، وشيعاً متباغضةً، لاهيةً بعبثها، غافلةً عن رقيّها؛ لتكوننّ حيث منابت الشيح ومهافي الريح أذلّ الأمم داراً وأجدبها قراراً»[١].

فهو يرسم صورتين تمثّلان الأُمّة في حالتيها المجتمعة والمفرّقة، فالحالة الأُولى: هي تلك الأُمّة التي تتّسق أُمور عمرانها، وتعيش على الرخاء الاقتصادي، والحرّيّة الكاملة الناتجة عن رفع نير العبوديّة للآخرين، إنّ هذه الحالة التي تصبح بها الأُمّة لابدّ أن تأتي من خلال وحدة الكلمة والموقف.

أمّا الحالة الثانية: فهي تلك الأُمّة المفكّكة، التي يبحث كلّ فريق فيها عمّا يؤمّن استمراريّة وجوده على حساب وجود الآخرين، فتتضارب المصالح، وتبدأ المشاحنات والمصادمات، فتقع تحت سيطرة المستغلّين الذين يبحثون عن منفذ يستطيعون من خلاله مصادرة قرار الأُمّة وإذلالها واستغلال خيراتها.

وهو عندما يطلق دعوته إلى التنبّه لمضارّ الفرقة، فإنّه يربطها بما يحيط بالأُمّة الإسلاميّة من مخاطر، ومن اجتماع الأعداء عليها فنراه يقول: «لينهض رجال الإصلاح بأسباب الوئام والوفاق فقد نصب الغرب لنا حبائله، ووجّه قنابله، ولئن لم يعتصم المسلمون بحبل الاجتماع... ليكوننّ أذلّاء خاسئين»[٢].

إنّ هذا الاستغلال من قبل الغرب، وهذه المكائد التي ينصبها لنا لم تكن لتستمرّ لولا هذا التفكير الجاهلي لدى الكثيرين ممّن يدعون الحرص على الإسلام وأهله، فهم من خلال عصبيّتهم الجاهليّة يدعون الناس إلى عدم الاجتماع؛ ليبحثوا فيما يفرّقهم، وهو يعطينا صورةً عن هؤلاء من خلال قوله: «إنّ أمر المسلمين ليس كما يزعمه أُخوان العصبيّة، وأبناء الهمجيّة الذين شقّوا عصا المسلمين... ليس إلّا ما نفخته الشياطين، أو نفثته أبالسة الإنس»[٣]. إنّ هذه

---

١. راجع الموسوعة ج ٣، الفصول المهمّة: ٤.

٢. المصدر: ٢٢، فصل ٣.

٣. المصدر: ١٦، فصل ٣.

الأكاذيب التي تمزّق جسد الأمّة ما هي إلّا من عمل هؤلاء الذين يريدون الإبقاء على مراكزهم من خلال تفرقة الناس عن بعضها البعض.

ولا يمكن التخلّص من هؤلاء الذين يطلقون العنان لألسنتهم؛ لتزرع الشقاق فيما بين الناس، إلّا بالعودة إلى المخلصين من العلماء والمؤتمنين على الرسالة الذين يخافون الله في ما يقولون ويكتبون. فنرى دعوته الصريحة إلى ذلك: «لو رجعوا إلى ما أفتى به المنصفون من علمائهم لأيقنوا أنّ الأمر على خلاف ما يزعم المرجفون»[1]؛ لأنّ هؤلاء المنصفين يعيشون في الحاضر وليس في التأريخ، إنّهم لا يبحثون عن الماضي ليعقدوا به الحاضر والمستقبل، بل في سبيل توظيف كلّ التأريخ الماضي من أجل صيانة مسيرة الحاضر والمستقبل.

فها هو يدعوهم لنسيان السياسة الماضية التي تكون مربكةً لنا وهو يقول في هذا المجال: «فهلمّوا يا قومنا للنظر في سياستنا الحاضرة، وعرّجوا عمّا كان من شؤون السياسة الغابرة، فالأحوال حرجة، والمآزق ضيّقة لا يناسبها نبش الدفائن، ولا يليق بها إثارة الضغائن، وقد آن للمسلمين أن يلتفتوا إلى ما حلّ بهم من هذه المنابذات والمشاغبات التي أعادتهم طعمة الوحوش وفرائس الحشرات»[2].

إنّ هذا الزمن وهذه الأيّام التي تمرّ بها الأمّة لا تتحمّل نبش التأريخ؛ لأنّ الوحوش تحيط بنا، وتحاول أن تستفرد كلّ جهة لتفترسها، حتّى أولئك الضعفاء في قومهم يبحثون عمّا يظهر قوّتهم فيغدو علينا، لعلّهم ينهضون من ضعفهم على حساب ثرواتنا وحضارتنا وتأريخنا.

الوحدة بمفهوم السيّد

من خلال هذا العرض للأفكار والمفاهيم التي طرحها السيّد شرف‌الدين حيث أظهر تصوّره لكيفيّة العمل من أجل الوحدة الإسلاميّة يمكن استخلاص أهمّ

---

١. المصدر: ٣٥، فصل ٦.

٢. المصدر: ١٧٠، فصل ٩.

المبادئ التي تقوم على أساسها هذه الوحدة:

١ ـ الإقرار بإسلاميّة السنّة والشيعة، وعدم جواز تكفير بعضهم البعض على قاعدة الايمان بالأمور الكبرى كالتوحيد والنبوّة والمعاد والقرآن.

٢ ـ الابقاء على المذاهب مع اختلافها في تفسير الجزئيّات، وأمور الشريعة على أساس الاجتهاد، وفيما يستنبط من الكتاب والسنّة.

٣ ـ عدم نبش سلبيّات التأريخ التي تؤدّي إلى بذر الخلافات بين الناس، وتوظيف إيجابيّات الماضي في سبيل صيانة مسيرة العمل الإسلامي، والأمّة الإسلاميّة.

٤ ـ نبذ الداعين إلى التفرقة الذين يعيشون العقليّة العصبيّة، والباحثين عن موقع لهم من خلال المساهمة في تخلّف الأمّة، وتشتّتها، وتعيدها إلى غياهب الجاهليّة.

٥ ـ اتّباع العلماء المخلصين الذين لاينطلقون من خلال مصالحهم الشخصيّة: ويعملون على متابعة المسيرة نحو الحرّيّة، وبناء المجتمع الإسلامي الصحيح، وإقامة الدولة الإسلاميّة العادلة.

٦ ـ فتح باب الحوار والنقاش بين الطوائف الإسلاميّة؛ لأنّ الحوار يؤدّي إلى القفز فوق الجدر الوهميّة بينها، وهذا الانفتاح يؤدّي إلى الالتقاء عند نقاط كثيرة؛ لأنّ نقاط الالتقاء أكثر من نقاط الافتراق.

والحوار والنقاش لابدّ أن يكونا بين الذين يلمّون بجوانب الفكر الإسلامي، وينفذون إلى أعماق المسائل المطروحة، ويعيشون الانفتاح، ويبحثون عن الحقّ حتّى يتّبعوه، وهذا ما نراه واضحاً في ذلك الحوار البنّاء الذي دار بين السيّد شرف‌الدين والشيخ سليم البشري اللذين توصّلا إلى نتائج هامّة في هذا المجال؛ لأنّ الحوار عندما يكون بين عمالقة الفكر لابدّ بالنهاية أن يتوصّل إلى حقائق ملموسة.

السيّد يعقوب فضل‌الله

مجلّة الوحدة الإسلاميّة في بيروت ـ السنة الرابعة

العدد ٥٨ ذوالقعدة ١٤٠٧

من أحداث ١٩٢٠ في جبل عامل

مؤتمر وادي الحجير

دعاني إلى الدخول على خطّ المؤرّخين لهذا الحدث الهامّ حوافز جمّة: منها: أنّني من قرية «شحور» التي كانت مسرحاً للأحداث في زمن أحمد باشا الجزّار عام ١٧٨٢ بإحراق بعض بيوتها، وقتل بعض شبابها، واعتقال بعض شيوخها، ولا تزال صخرة عندنا تعرف بـ«صدر القتلى»، وهي في الساحة التي جرت عليها المعركة الحاسمة بين أهالي شحور بقيادة الشيخ حمزة النصّار العسكريّة، وإدارة الشيخ عليّ الزين السياسيّة من جهة، وعسكر الجزّار بقيادة زمرة من عتاة المجرمين.

وقد أبلت «شحور» بلاءً حسناً في الدفاع عن أرضها وكرامتها، وأثخنت قتلاً وإصابات من الطغمة العاتية.

واستشهد في هذه المعركة قائدها الشيخ حمزة، وانسحب الشيخ عليّ الزين من شحور، ثمّ من لبنان إلى الهند، فكان له فيها شأن كبير.

واستشهد فيمن استشهد السيّد هبة الدين شرف‌الدين شقيق السيّد صدر الدين والسيّد محمّد عليّ اللذَين التحقا بأبيهما السيّد صالح الذي تهجّر قبلهما إلى العراق هرباً من ظلم الجزّار وعسفه، وكان السيّد صالح ﷺ معتقلاً في لومان عكّا. وحكاية خروجه من سجنه تقرب من الكرامات؛ إذ أنّه وجد حائط سجنه مشقوقاً فخرج منه[1]، وقد تبيّن أنّ أحد حرّاس السجن من إحدى قرى جبل عامل القريبة من عكّا، هو الذي شقّ الحائط ليلاً؛ لتسهيل مهمّة خروج هذا العالم الكبير.

---

١. راجع كتاب بغية الراغبين في أحوال آل شرف‌الدين السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، وكتاب تكملة أمل الآمل في علماء جبل عامل للمرجع الكبير السيّد حسن الصدر ﷺ ـ دار الأضواء ـ بيروت ١٩٨٦.

قصد «السيّد» بعد نجاته من السجن، بمسراه إلى بلدته «شحور» حيث سلك الطريق الصعب إلى وادي الليطاني تحت البلدة، وأرسل عامل «المطحنة» القائمة على ضفة النهر، لدعوة أخيه السيّد محمّد الثاني، ولقائه في الكهف الذي آوى إليه، وبالفعل فقد التقى الأخوان بعد فراق طويل، حيث أبلغ السيّد صالح أخاه عزمه على الهجرة إلى العراق، وطلب إليه أن يحمل عياله وولديه إليه في العراق، وهكذا كان.

وفي العراق وفي إيران أسّسا عائلة «الصدر» انتساباً لأحدهما «صدر الدين»، وأوّل من انتسب إليه ولده الذي خلّفه على المرجعيّة العامّة السيّد إسماعيل، ثمّ عقب أخيه السيّد محمّد عليّ الذي توفّي في حياته، وأشهرهم حفيده المرجع الكبير السيّد حسن، وأشهر أحفاد السيّد إسماعيل الصدر المرجع الكبير الشهيد السيّد محمّد باقر بن السيّد حيدر بن السيّد إسماعيل، والإمام السيّد موسى بن السيّد صدر الدين الثاني بن السيّد إسماعيل صدر الدين، وأشهر أحفاد السيّد هادي بن السيّد محمّد عليّ الزعيم الثائر السيّد محمّد بن السيّد حسن أحد أبرز قادة الثورة على الإنكليز سنة ١٩٢٠، وأحد أبرز رؤساء الوزارة في العراق، ورئيس مجلس الأعيان على مدى عشرين سنةً، وأبرز أحفاد السيّد محمّد الثاني شقيق السيّد صالح حجّة الإسلام والمسلمين السيّد يوسف، وولده آية الله الإمام السيّد عبدالحسين شرف‌الدين.

وكذلك كانت بلدتي شحور مسرحاً للأحداث عام ١٩٢٠ من قبل الانتداب الفرنسي الغاشم، وتحت وطأة الحملة العسكريّة التي شنّها بقيادة الكولونيل «نيجر»؛ لاعتقال الإمام شرف‌الدين بعد اختفائه من «صور»، ولكنّ الله أنقذه قبل أن يكمل الجيش الفرنسي إحكام الطوق على البلدة؛ إذ خرج من بيته وقد اختفى ضمن عباءة وضعها على رأسه[1]. فجلّلته من الفرع إلى القدم، ومضى بقدم ثابتة

---

١. فضيلة الشيخ عبدالحميد الحرّ في كتابه الإمام شرف‌الدين.

من خلال طرفي الحلقة من متطوّعة «المغرب العربي»، وتابع سيره متّخذاً طريق وادي الليطاني الوعرة[١]، وآوى إلى كهف هناك ومن عجيب الصدف أن يكون نفس الكهف الذي آوى إليه السيّد صالح قبل ١٢٨ سنة، وأن يكون خروجه من شحور على يد متطوّعة من مسلمي المغرب العربي، كما كان خروج السيّد صالح من لومان عكّا على يد أحد متطوّعة مسلمي جبل عامل، وأن يسلك إلى وادي الليطاني نفس الطريق الوعرة التي سلكها السيّد صالح.

يحدّث بذلك «الطحّان» المقيم بحكم عمله في بيته على ضفة النهر، نقلاً عن أبيه عن جدّه، ثمّ جدّه الأعلى الذي استضاف السيّد صالح، كما حدّث أحد أحفاده الإمام شرف‌الدين حين استضافه بنفس الكهف.

وكذلك يتحدّث المعمّرون، وآخرهم والدي الشيخ عليّ إسماعيل ﷺ عن أحداث سنة ١٩٢٠، ويقفون عند «مؤتمر وادي الحجير» طويلاً؛ لأنّ جميع من كان لديه دابّة يمتطيها، وجميع من يستطيع السير مسافةً طويلةً، كلّ هؤلاء حضروا ذلك المؤتمر، وحدّثوا عن مجريات وقائعه، وكانوا فخورين بانتسابهم إلى بلدة شحور التي ينتسب إليها الإمام شرف‌الدين، وهو أبرز وأهمّ من حضر المؤتمر؛ لأنّ الاستقبال العفوي الذي جرى له هناك لم يجر لغيره من كبار العلماء والزعماء والثوّار[٢]، ولم يرتفع فيه صوت غير صوته بحيث أنّ مقرّرات المؤتمر أخذت من نفس خطابه في ذلك المؤتمر.

ويتحدّث المعمّرون في بلدتي شحور، وفي البلدات المجاورة لها، عن الحملة العسكريّة التي داهمت «شحور» قبل بزوغ الفجر لاعتقال الإمام شرف‌الدين، وحين فاتهم ذلك صبّوا جام غضبهم على بيته فأحرقوه، وعلى أسرته فنكّلوا بهم، واعتقلوا من طالته يدهم منهم ومن آل الحسيني وغيرهم من العائلات الشحوريّة.

---

١. الإمام شرف‌الدين في كتابه صفحات من حياتي، أي كتاب بغية الراغبين.

٢. المرحوم الأُستاذ محمّد عليّ الحوماني في مجلّته العروبة، م١ ع٢٠، ١٩٣٤.

هذا من أكبر دوافعي إلى استعادة هذه الذكريات، ونقلها عنهم، وعن مؤرّخي وقائعها توثيقاً لها بأُولئك وهؤلاء، كمصادر لتلك الوقائع، ومن دوافعي إلى استحضار هذه الوقائع أيضاً، أنّ والدي رحمة الله عليه ـ كان أثيراً عند الإمام شرف‌الدين، وتلميذاً له. كما كان جدّي أثيراً عند أبيه المقدّس السيّد يوسف شرف‌الدين، ومن معاصري المدرسة الإسلاميّة الشرعيّة التي أسّسها في «شحور»، ثمّ في «طورا»[1]. وهكذا نشأت في أحضان والد ملتزم يحترم العلماء العاملين، ورجال الدين المجاهدين، وقد أورثني هذا الاحترام، وزرعني أنا وأخي محمّد في الكلّيّة الجعفريّة في صور، فكنّا من تلاميذها زمناً طويلاً. أمكننا من التعرّف بالتفصيل على ذلك الطود الشامخ، والعلم الباذخ، وخلقه العظيم، وعواطفه الأصيلة التي تسع الدنيا.

وإنّ حديثي هذا هو حديث إخلاص ومحبّة وصدق؛ تطبيقاً لما علق في الذهن من شروط النقد الأدبي، عند تقييم كتاب أو عالم أو كاتب أو شاعر، وهو أن يكون القائم بهذه المهمّة محبّاً لما أو لِمَن يريد تقييمه أو دراسته، أو أن يكون غير كاره له على الأقلّ، وأُصول علم النقد تمنعه من الكتابة حوله؛ لأنّه يقع في الشطط إذا كتب.

ولابدّ لي وأنا أخوض هذا الموضوع من القول أنّ بعض من تناوله خالف أُصول القاعدة الأدبيّة، فوقع في الشطط، وبعضهم لم تتحكّم بهم عقد الكره أو الحساسيّة، فكتبوا على سجيّتهم وعفويّتهم في وصف هذا المؤتمر وصفاً إيجابيّاً؛ لأنّه إن لم يحب قيادة ذلك المؤتمر فهو بريء من عقد الكراهيّة أو الحساسيّة. أمّا حبّه ـ إن صحّ التعبير ـ فهو أقرب إلى الإعجاب ببلاغة أو موهبة أو جرأة أو إخلاص قيادة هذا المؤتمر.

أمّا أنا فإنّني أُقدّر السادة القادة وأعجب بما منحهم الله من مواهب ومبادرات

---

١. المغفور له السيّد محسن الأمين في كتابه خطط جبل عامل.

تضعهم في صفوف العلماء الذين يصحّ لنا القول أنّهم ورثة الأنبياء، وأبرز الذين أقصد في هذا المجال الإمام المجاهد السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، زعيم ثورة العشرين ضدّ الانتداب الفرنسي، والإمام القائد السيّد موسى الصدر الذي خلفه في مركزه فكان خير خلف لخير سلف.

وإذا كان هذا الحديث يتمحور حول السيّد شرف‌الدين، فإنّ لحديث السيّد الصدر موعداً أرجو أن يكون قريباً إن شاء الله.

أحسبني دخلتُ في الموضوع الذي دعاني إلى الكتابة إنّه موضوع مؤتمر وادي الحجير الشهير، وقد أجملت القول فيه ظروفاً ومقدّمات ووقائع:

عقد المؤتمر يوم السبت ٥ شعبان ١٣٣٨ هجريّة/ ٢٤، نيسان ١٩٢٠ ميلاديّة، وقد حضره كبار العلماء والزعماء والأعيان والثوّار، والسواد الأعظم من قرى جبل عامل ببشارته وشقيفه، وقد سجّل وقائعه العديد من الكتّاب والمؤرّخين والشعراء في سياق أحداث جبل عامل، وحركته الثوريّة ضدّ الانتداب الفرنسي. ونكتفي باستعراض المؤرّخين الذين شاهدوا وسمعوا وقائع المؤتمر، ثمّ وصفوا ما شاهدوه وسجّلوا ما سمعوه، فأصبحوا بذلك المصادر الأُولى لأحداث سنة ١٩٢٠ بما فيها أبرزها «مؤتمر وادي الحجير». وهناك مصادر أُخرى تكاد تنقرض؛ لأنّها تعود إلى المعمّرين ممّن حضروا المؤتمر، ثمّ حدّثوا بما شاهدوا وما سمعوا.

أمّا من عايش تلك الأحداث، وكان من فعّاليها وسجّلها في كتاب أو صحيفة فهم: سماحة السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، فضيلة الشيخ سليمان ظاهر، فضيلة الشيخ أحمد رضا، فضيلة الأُستاذ الشيخ محمّد عليّ الحوماني، فضيلة الأُستاذ محمّد جابرالعاملي من آل صفا، فضيلة السيّد عليّ شرف‌الدين أمين سرّ الإمام شرف‌الدين، ومرافقه مدى الحياة، وكاتبُ جميع ما ألّفه من كتب، وما أملاه من رسائل و مذكّرات، ومسجّل جميع ما ارتجله من خطب هامّة في جبل عامل وبيروت ودمشق والقاهرة، فضلاً عن عشرين شاعراً أرّخوا لهذه الأحداث شعراً، وجميع قصائدهم لا تزال محفوظة لدى آل شرف‌الدين، وهي معدّة للطبع في

كتاب وبتأريخ هذه الأسرة الشريفة.

وأمّا من شهدوا الأحداث ولم يسجّلوها، ولكنّهم حدّثوا بأحداثها، فهم قسمان: قسم من العملاء والانتهازيّين، وكفاهم خزياً أنّهم أصبحوا ركاماً في مزبلة التأريخ. قسم من المخلصين الفضلاء، نذكر منهم فريقاً ممّن كانوا مصادر لبعض الدراسات الجامعيّة في مقابلات معهم جرت بين ١٩٢٠ ـ ١٩٥٠ حتّى ١٩٦٠. وقسم من المعمّرين بين سنة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٤ ولا يزالون على قيد الحياة، أطال الله أعمارهم، ورحم من سبقهم إلى رحمة الله.

ومن قدامى المصادر الشفهيّة المذكورة[١] أصحاب الفضيلة:

السيّد عبدالحسين محمود الأمين، الشيخ عليّ مهديّ شمس الدين، الشيخ عليّ فاضل، الشيخ أحمد مروّة، الشيخ حسن سويد، السيّد عليّ هادي مكيّ، الشيخ أحمد فنيش، الشيخ أحمد حدرج ﷺ وأحسن إليهم.

أمّا المصادر التي لا يزال أصحابها على قيد الحياة فنعرف من سمعنا منهم، وهما صاحبا الفضيلة: السيّد محمّد باقر الأمين، والسيّد عبدالحسن الأمين[٢]، والمرحوم الشيخ فهد يحيى.

وبالعودة إلى من أرّخوا تلك الأحداث في كتب، أو مجلّات، أو مجاميع، نجد أنّ الإمام شرف‌الدين تحدّث عن هذه المواضيع ضمن كتابه صفحات من حياتي نشرت قسماً منه مجلّة العرفان، ومجلّة الألواح، ومجلّة المعهد، وأنّ الشيخ سليمان ظاهر كتب يوميّات الأحداث في مفكّرات تلك السنين، وأنّ الشيخ أحمد رضا كتبها في كتاب نشره في مجلّة العرفان متسلسلاً بعنوان مذكّرات للتأريخ، وأنّ الأستاذ الحوماني سجّلها في مجلّته العروبة، وأنّ الأستاذ محمّد جابر سجّلها في سياق مواضيع كتابه تأريخ جبل عامل، وأنّ السيّد عليّ شرف‌الدين سجّلها في

---

١. السيّد جعفر شرف‌الدين في مقابلات شخصيّة مع كلّ منهم.

٢. السيّد جعفر شرف‌الدين في دفتر الذكريات الجنوبيّة، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي.

مجاميع أسماها رسائل ومسائل الشذرات، وصدى التهاني في بلوغ الأماني، وقد ضمّت هذه الأخيرة القصائد الموجّهة لسماحة الإمام شرف‌الدين في مثل هذه المناسبات.

ومن اطّلع على هذه المطبوعات أو المخطوطات العائدة لهذه الأحداث، أو كتب عنها معتمداً على هذه الآثار كمصادر لبحثه لوجد أنّ وصف وقائع أحداث سنة ١٩٢٠ في جبل عامل، بما فيها مؤتمر وادي الحجير، لدى سماحة السيّد شرف‌الدين، والشيخ سليمان ظاهر، والأستاذ الحوماني، والسيّد عليّ شرف‌الدين، كلّها متطابقة ومتوافقة ومفصّلة، بينما نرى مذكّرات الشيخ أحمد رضا تتجنّى على السيّد عبدالحسين شرف‌الدين ودوره وخطابه في مؤتمر وادي الحجير، وذلك من خلال ردّ السيّد جعفر شرف‌الدين عليها، ونرى أنّ كتاب تأريخ جبل عامل يحجّم دور هذا الإمام القائد المجاهد.

أُوردُ هذه المعلومات بكلّ اعتزاز وفخر من جهة، وبكلّ مرارة وأسف من جهة ثانية، لأنتقل إلى تفسير لهذه المواقف أوّلاً، وإلى الردّ عليها وتوثيق مصادرها ثانياً، ثمّ الردّ على العملاء المزدوجين الذين عانى الشيخ أحمد رضا والشيخ محمّد جابر مع سائر المخلصين الدسّ والخيانة، وكلّ ما يتمرّس به العملاء والمرتزقة، وأختصر ذلك باختصار ما يراه أحد العلماء المجاهدين سبباً في التعتيم والتحجيم لدور العلماء المجاهدين، يقول هذا العلّامة المجاهد السيّد حسن نصر الله في جريدة العهد[1] تحت عنوان: «بين الأمس واليوم»:

١ ـ «أزمة لبنان على المستوى الداخلي مرتبطة في الماضي الذي يمتدّ عبر الحكم الأموي والعبّاسي، إلى الأيّوبيّين، والحمدانيّين، والمماليك، والعثمانيّين، إلى أن نصل إلى فترة الانتداب الفرنسي التي نعتبرها أقرب فترة تأريخيّة سياسيّة قاومها المسلمون، وكان رمز مقاومة الفرنسيّين الإمام السيّد عبدالحسين

١. العدد ٢٥ الصادر في بيروت يوم الجمعة ٢٣ شوّال ١٤٠٥.

شرف‌الدين. ولكن ـ كما هي العادة في العمل السياسي ـ برز من تريد فرنسا أن يبرزوا على أساس أنّهم أبطال المقاومة».

٢ ـ وأختصر الردّ على المغفور له الشيخ أحمد رضا باختصار ما جاء في الصفحة ٩٤ ـ ٩٦ من العدد الأوّل من مجلّة العرفان، الصادر ضمن المجلّد ٣٤ سنة ١٩٤٧، أي: في العدد الذي تلا العدد المنشورة به مذكّرات الشيخ أحمد رضا يقول السيّد جعفر شرف‌الدين في ردّه:

«تناول الأُستاذ المفضال الشيخ أحمد رضا في العدد الماضي من العرفان حديث مؤتمر الحجير، في سياق مذكّراته التي ينشرها تباعاً.

ومؤتمر الحجير حديثه ذو شجون يُذكر كلّما ذكر التنكّر للحقّ الذي تجهّمت له نفوس أقوام، فقلبته رأساً على عقب أُولئك هم الانتهازيّون المنافقون الذين كانوا وطنيّين في الوطنيّين، وخونة من الخونة في وقت واحد، وكان أن حضر بعض هؤلاء المؤتمر، وانفضّوا عنه إلى أُذن المستعمر يبثّون فيها الحقائق مقلوبةً.

هو ذا مؤتمر وادي الحجير الذي يغض صفحة جبل عامل في تأريخ العزّة العربيّة، فكانت فجراً للحياة الحرّة، كاد أن يتبعه صباح وضحى، لولا نفوس صغيرة تمرّغت قبيل الصبح على عتبة المستعمر.

هذا هو مؤتمر وادي الحجير الذي أُعقّب في التعليق على حديثه الوارد في مذكّرات الشيخ أحمد رضا.

وإنّني معتمد في تعليقي هذا على رجل كان لسان هذا المؤتمر الناطق، نُهبت داره في صور وشحور، وسلبت مكتبته الكبرى، وأُتلِفت مؤلّفاته المخطوطة بعد أن نفي وشرّد في سبيل القضيّة العامليّة التي كان مؤتمر الحجير وجهها الصحيح، من هذا الرجل استقيت تعليقي، ومن ناس كثيرين حضروا المؤتمر ـ كما حضره صاحب المذكّرات ـ ثمّ من صحف تحدّثت عنه قديماً وحديثاً[1].

---

١. قديماً كالعرفان والعروبة.

أ) يقول الأُستاذ رضا: «واندفع العلّامة الكبير السيّد عبدالحسين شرف‌الدين يتكلّم ويشرح حادثة[١] وقعت في صور، بين متطوّعة العسكر وأهل مدينة صور...». إلى آخره.

والذي أُريد أن أقوله هنا: إنّ هذا الحديث ـ الذي اندفع به السيّد ـ ليس الخطاب، وإنّما هو حديث تحدّث به إلى من حوله[٢] بلهجته المعروفة التي تقرب من الخطابة، أمّا خطابه فكان أوسع من هذا أُفقاً، وأبعد مدى،

إنّه أعلن وجهة نظر المؤتمرين باستقلال جبل عامل، ضمن المملكة السوريّة الهاشميّة التي دعوا إليها باسم «الوحدة السوريّة»، ثمّ حثّ على التضامن والاتّحاد، وبين عاقبة الاختلاف والفوضى التي تفسح المجال للقول بأنّنا لا نستطيع التمرّس بالحكم الذاتي، ومن هنا يأخذ المستعمر طريقه إلينا. ثمّ وقف طويلاً لدى المحافظة على الأمن في البلاد عامّة، وتأمين اخواننا المسيحيّين خاصّة، لنسدّ على المستعمر المجاهد في تفرقة الصفوف، الباب الذي يدخل منه لحماية المسيحيّين، ثمّ تناول قرآناً من جيبه، وأخذ اليمين على نفسه بحفظ الأمن والإخلاص لله ولعباده، مسلميهم ومسيحيّيهم، ثمّ طفق يأخذ اليمين على العلماء والزعماء وفي طليعتهم حجّة الإسلام الشيخ حسين مغنية، وزعيم جبل عامل كامل بك الأسعد.

هذه هي حكاية الخطاب، وكان لزاماً على المؤلّف أن يثبتها؛ فيها من تصوير بليغ للوثبة العامليّة وحقيقتها التي عبث بها العابثون.

ب) ويقول الأُستاذ: «وبعد المداولة قرّر القوم ضرورة إرسال وفد إلى دمشق وانتخبوا له العلّامة ـ كبير العلماء الشرعيّين ـ الشيخ حسين مغنية، فاعتذر بعجزه، فانتخب المؤتمر العلّامتين السيّد عبدالحسين آل شرف‌الدين، والسيّد عبدالحسين

---

١. هذه الحادثة اختلق المرجفون حولها تعاليق على لسان السيّد تثير الحقد الطائفي، ولا أدري لماذا اختصّها الأُستاذ بالذكر ووصفها بأنّها خطاب السيّد.

٢. في جواب عن سؤال للمقدّس السيّد جواد مرتضى عن حادثة وقعت قبل انعقاد المؤتمر بستّة أيّام.

آل نور الدين لهذه المهمّة، وفي دمشق يجتمعان بعلّامة الشيعة الأكبر السيّد محسن الأمين، ويقوم هؤلاء الأعلام الثلاثة بمفاوضة جلالة الملك باسم العامليّين».

ويُلخّص هذا بأنّ المؤتمر انتخب وفداً مؤلّفاً من الشيخ فقط، وحين اعتذر بعجزه انتخب المؤتمر بدلاً عنه وفداً مؤلّفاً من الأعلام الثلاثة، ونحن لا نشكّ أنّ الشيخ المقدّس أهل وحده ليكون وفداً، كما أنّ كلّ واحد من الأعلام الثلاثة أهل وحده لهذه المهمّة، ولكن الذي وقع أنّ المؤتمر انتخب وفداً مؤلّفاً من الشيخ والسيّدين وحين اعتذر الشيخ انتخب السيّد الثالث.

ج) ويقول الأُستاذ: «واُستدعيَ الشيخ صادق الحمزة ودخل السرادق، سرادق العلماء حيث انعقدت جلسة المؤتمر يحفّ به رجاله شاهرين بنادقهم حوله[1]، فجلس أمام العلماء والقرآن بين أيديهم، فأخذوا عليه وعلى رجاله الأيمان المغلظة، وأن لا يتعرّض إلى أحد من المواطنين، أبناء جبل عامل ـ مسلمين ومسيحيّين ـ بسوء أو أذيّة. إلى آخره».

وقضيّة اليمين أوسع ممّا ذكر الأُستاذ، فالعلماء أنفسهم والزعماء والثوّار كلّ أُولئك أُخذت عليهم الأيمان، كما قلت آنفاً، ولكن اليمين التي أُخذت على صادق الحمزة رأس الثوّار سبقها وعيد وإنذار وتهديد، وانثال كامل بك الأسعد على الثائر يكرّر التهديد والوعيد، ثمّ التفت إلى السيّد قائلاً: «مروا الآن أن أضرب عنقه».

هذه حكاية أخذ اليمين، وهي من الشكليّات التي صُرفت في مذكرات الأُستاذ عن سبيلها، بينما هي على قدر من الأهميّة في سياق مذكّرات تؤرّخ لحقبة من

١. تحدّث الشيخ فهد يحيى الصعبي في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، تعقيباً على محاضرة عن صادق الحمزة في ٤ / ١٠ / ١٩٨٤ فقال: إنّ صادق الحمزة وأدهم خنجر دخلا السرداق منفردين بناءً على استدعاء من كامل الأسعد، وأمرهما بترك سلاحهما حيث يجلسان مع فرقتيهما. وللعلم فإنّ صادق الحمزة ينتمي إلى أحد فروع آل الأسعد. وأدهم خنجر ينتمي إلى الصعبيّين ومنهم الشيخ فهد يحيى أحمد إسماعيل.

الزمن حسّاسة، وترسم إحدى صور المؤتمر الذي شوّهته أقلام وألسنة المغرضين، فخبطت وخلطت وجرّت ذيولاً تنطف الدم.

وهكذا جرت الرياح بما لا تشتهي السفن، فَشُرّد الرابنة، ودَعْ عنك نهباً صِيح في حُجُراتهم، إلى ما هنالك من مِحَنٍ متدفّقة كالسيل الآتي من كلّ جانب.

وفّق الله الأستاذ ووفّقنا لتمحيص الحقّ، وهو تعالى والتأريخ من وراء القصد».

٣ ـ والخبط والخلط الذي يشير إليه جعفر شرف‌الدين في ردّه هذا يعود إلى نقل وقائع المؤتمر مشوّهةً أو محرّفةً، من شأنها إثارة عواطف المسيحيّين واستعداؤهم، وتشجيع العملاء والخونة على استغلال، ذلك بالدسّ أوساط إخواننا المسيحيّين، أو نقل وقائع المؤتمر على ضوء هذا الاستغلال الأمر الذي أدّى إلى تلك المآسي التي وقعت، والتزوير للحقيقة والتأريخ الذي سجّلته بعض الصحف وبعض الكتب.

ينقل الأُستاذ محمّد جابر آل صفاء في كتابه تأريخ جبل عامل طرفاً ممّا جاء في جريدة البشير في وصفها لمؤتمر وادي الحجير، إذ قالت البشير[1]:

«وقد أهاج عواطف القوم السيّد عبدالحسين شرف‌الدين بتكراره على شعبه في مؤتمر ـ وادي الحجير ـ تلك الفتوى الشرعيّة التي أصدرها بإفناء المسيحيّين»!! فإهاجة عواطف القوم على حدّ تعبير البشير، وإضرام النفوس بالحقد والكره لها نفس الفعاليّة في تهييج عواطف المسيحيّين، وإضرام نفوسهم ونفوس السلطات بالحقد، وهذا ما تعتبره السلطات وعملاؤها شهادة شيخ من أهل السيّد شرف‌الدين، دليلاً اتّهاميّاً للمؤتمر، وللخطيب الذي أثار نفوس المؤتمرين، وينقل الأُستاذ محمّد جابر ما هو أدهى بهتاناً وتزويراً، ادّعاهما «الفيلسوف» أمين الريحاني في كتابه ملوك العرب[2] بقوله: «وقد عقد اجتماع في وادي الحجير،

---

١. البشير الصادرة في ٢٠ أيار/ ١٩٢٠، صفحة ٣.

٢. المجلّد الثاني صفحة ٣١٥ـ٣١٦.

فضرب أحد المشايخ خيرةً ـ أي استخار بالمسبحة ـ على ذبح النصارى»!!.

٤ ـ ونختصر ما تحدّث به الإمام شرف‌الدين في كتابه صفحات من حياتي عن المؤتمر، قال رضوان الله عليه:

«وفي اليوم الموعود كان وادي الحجير يستقبل ضيوفه من صفوة علماء جبل عامل، وأُسوده ووجهائه وأعيانه، وكان يضيق بالرايات، ويدوّي بالهتافات، وكأنّما «عاملة» بعثت من جديد.

أقبلنا والجميع كامل مستتبّ، وانحزنا إلى صفّ العلماء والزعماء نداولهم الرأي، ثمّ وقفتُ في ذلك الجمع المشهود، وتكلّمت في الأزمة، ووسائل تفريجها[1]، ووقفت وقفةً خاصّةً عند هذه الفوضى التي تهدّد الأمن، وأثبتّ أنّها لن تكون إلّا من العراقيل التي تخذل قضيّتنا، وتدلّ على عدم كفايتنا لما نطلبه، ثمّ أقسمت اليمين، وأخذتها على العلماء والزعماء أن نتضامن على حفظ الأمن والحرص على سلامة النصارى بوجه خاصّ، وأحضرت رؤوس الثوّار صادق الحمزة، وأدهم خنجر، ومحمود الأحمد، وأخذت عليهم اليمين»[2].

٥ ـ وتحدّث الأُستاذ محمّد عليّ الحوماني عن «مؤتمر وادي الحجير» في العدد العشرين من مجلّته العروبة الصادر في ١٥ رمضان ١٣٥٣ هجريّة، الموافق ٢٢ كانون الأوّل ١٩٣٤ ميلاديّة موجّهاً الحديث إلى الإمام شرف‌الدين وممّا قاله:

«لقد شهدته بنفسي، ورأيت كلّ عالم وزعيم ورده دون أن يحسّ الحضور بوروده؛ لكثرة ما ازدحم فيه من الخلق حتّى إذا أوشكت ركابك أن تحلّ به، حسبنا أنّ الأرض قد تزلزلت، والسماء أُطبقت علينا، ولمّا تكشّف هذا الرهج المعقود فوق الوادي برزت من تحته كالبدر، ينشقّ عنه الغمام ليلةً تمّه، وإذا

---

١. لم يكن السيّد ـ أكرم الله مثواه ـ يكتب خطبه وإنّما كان يرتجلها ارتجالاً، كلّ ما أُثِر عنه من خطب كان كاتبه ابن عمّه السيّد عليّ شرف‌الدين يسجّلها فوراً، ثمّ يدرّجها في مجموعته مسائل ورسائل، أو في غيرها من مجاميعه وتجدها ضمن هذا الكتاب جميعاً.

٢. راجع الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين: ٥٩٠.

بالقسطل المعقود فوقك تثيره سنابك الخيل المحدقة بك، وإذا بالرعود القاصفة تبعثها البنادق والحراب المشرعة حولك.

لم يبق في الوادي فرد واحد لم يهرع إلى استقبالك، ويتشوّف إلى ركبك، ولمّا جلست في خيمة العلماء حفّوا بك، وتهافت الحفل المحشود عليك، كلّهم يحدق بك ويستمع إليك وأنت مندفع تخطب كالسيل، تبعث في نفوسهم الحميّة، وتحرضهم على الجهاد في سبيل الحقّ».

إنّني وأنا أنقل هذا الوصف الحميم البليغ لوقائع مؤتمر الحجير، وللدور الفريد الذي تميّز به الإمام شرف‌الدين عن سائر العلماء والزعماء بذلك الاستقبال العفوي الذي لا يحدث إلّا لأمثاله من قادة الأمّة ونوّاب الأئمّة لا بدّ لي هنا من أن أُحيّي بحرارة روح الأُستاذ الحوماني وأمثاله من الذين لم تركبهم العقد النفسيّة، وأعتب بمرارة على غيره ممّن حجّم دور الإمام شرف الدين، أو حوّر كلامه، وأشجب العملاء، والمأجورين، من المفترين والمزوّرين الذين زوّدوا جريدة البشير وكتاب ملوك العرب بالإفك والبهتان، أو دسّ السمّ بالدسم، فقدّم وصفاً للمؤتمر ظاهره الرحمة، وباطنه العذاب. وما أروع ما وصف به الأُستاذ الحوماني نفسه هؤلاء الموتورين والعملاء متوجّهاً بكلامه للإمام شرف‌الدين:

صعدت السماء بلا سُلّمِ　　　ورحت تدوس على الأنجمِ
نهضت على سُنّة المصطفى　　　تسير وفرقانه المحكمِ
رموك بما أنت منه البريء　　　ببغي فلا سلموا واسلمِ
وصالوا عليك بأقوالهم　　　هريرَ الكلام على الضيغم
تبارك معطيك عفواً عن　　　المسيء، وصفحاً عن المجرمِ

٦ ـ ونأخذ من خطاب الإمام شرف‌الدين في المؤتمر أربع فقرات من مجموعة كاتبه السيّد عليّ شرف‌الدين رسائل ومسائل [١]:

---

١. من دفتر الذكريّات الجنوبيّة للسيّد جعفر شرف‌الدين، والدكتور هادي فضل‌الله في كتابه الفكر الديني والسياسي لدى السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، وغيرها من الرسائل الجامعيّة.

«ألا وإنّ جبل عامل بعد هذا المؤتمرين بين أمرين: إمّا عزٌّ لا تُفصَمُ عُروَتُهُ، ولا تُقرع مِرَّته، أو ذُلٌّ تهاوت معه كواكب السعد، وتقوّض به سرادق المجد. فإن نبذتم الأهواء الشخصيّة، وآثرتم شرف القضيّة فسنكوننّ في حرز لا يفصم، وتكون بلادكم في حِمى لا يُقحم. أمّا إذا غلبكم الهوى فلنكوننّ مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان أمام قوّة العدوّ، وشدّة الفتن، وتظاهر الزمان.

فوّتوا على الدخيل الغاصب ـ برباطة الجأش ـ فرصته، وأخمدوا ـ بالصبر الجميل ـ فتنته، فإنّه ـ والله ـ ما استعدى فريقاً على آخر إلّا ليثير الحرب الأهليّة، ويشعل الفتنة الطائفيّة حتّى إذا صدق زعمه، وتحقّق حلمه استقرّ في البلاد تعلّة حماية الأقليّات.

ألا وإنّ النصارى إخوانكم في الله، وفي الوطن، وفي المصير، فأحبّوا لهم ما تحبّونه لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخمدون الفتنة، وتطبّقون تعاليم دينكم وسنّة نبيّكم.

إنّ هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية، ويأبى إلّا الاستقلال التامّ الناجز، المعتمر تاج فيصل العرب، عاهلاً مؤثّلاً، وقائداً محجّلاً، يقيم دولةً شرعيّةً تجعل من الوطن جبهة منيعة ينحدر عنها السيل، ولا يرقى إليها الطير».

ويلخّص الأُستاذ محمّد جابر في كتابه تأريخ جبل عامل المقرّرات التي اتّخذها المؤتمر بالإجماع بثلاثة بنود هي:

«إنّ المؤتمرين قرّروا بالإجماع انضمامهم للوحدة السوريّة، والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكاً على سوريّا، ورفض الدخول تحت حماية أو انتداب الفرنسيّين».

ويتابع الأُستاذ جابر فيقول:

«وانتخب السيّد عبدالحسين نور الدين، والسيّد عبدالحسين شرف‌الدين للسفر

إلى دمشق العاصمة، لرفع القرار للحكومة السوريّة، وقد سافرا إليها يحملان آمال البلاد وأمانيها، وانفضّ الاجتماع بعد أن نادى كبار العلماء بلزوم الطاعة والابتعاد عن الشرور، والمحافظة على أموال وأملاك المواطنين المسيحيّين وأرواحهم ودفع الأذى عنهم، وإنذار المعتدين والمخالفين بشرّ الجزاء».

وبالعودة إلى خطاب الإمام شرف‌الدين، وإلى وصفه أخذ اليمين على العلماء والزعماء والثوّار في كتابه صفحات من حياتي ندرك أنّ هذه المقرّرات وهذه التوصيات إنّما أخذت جميعها من ذلك الخطاب، ومفعول تلك اليمين.

وبالعودة إلى تذكرة الإمام شرف‌الدين للجنة الاستفتاء الأميركيّة، وقراءة بنودها في كتابه صفحات من حياتي وفي مجموعة رسائل ومسائل للسيّد عليّ شرف‌الدين بتأريخ ٥ شوّال ١٣٣٧، نراه يورد فيها من قبل ما أورده في خطابه من بعد في مؤتمر وادي الحجير، وهذه هي:

أ) لا نرضى بغير استقلال سوريّا الناجز بحدودها الطبيعيّة التي تضمّ قسميها الجنوبي ـ فلسطين ـ والغربي ـ لبنان ـ وكلّ ما كان يعرف ببرّ الشام، دون حماية أو وصاية.

ب) تكون الحكومة ملكيّة ذات عدالة ومساواة يستوي فيها جميع الناس كافّةً في الحقوق والواجبات.

ج) الأمير فيصل هو مرشّح العرب الطبيعي لملك سوريّا؛ لما له من جهاد في سبيل القضيّة العربيّة، ومن عبقريّة سياسيّة تؤهّله لتسنّم هذا الدور.

٧ ـ ويلخّص فضيلة الشيخ عبدالحميد الحرّ في كتابه الإمام شرف‌الدين قائد فكر وعلم ونضال مواقف الإمام شرف‌الدين في أحداث ١٩٢٠ بما يلي:

«وأبرز الاجتماعات التي عقدها كانت في إبّان الثورة العامليّة التي كان هو نفسه قائدها وقطب رحاها سنة ١٩٢٠، وكان الفرنسيّون وعملاؤهم يأتمرون به

ويكيدون له. فاحتكم إلى الشعب وطرح مصير البلاد على أهلها في رفض الانتداب الفرنسي، وإلحاق جبل عامل بسوريّا تحت لواء الملك فيصل الأوّل، وكان يحمل لواء الرفض مع سيّدنا أجلّة العلماء، وقلّة من الزعماء، على رأسهم كامل بك الأسعد، ومعهم السواد الأعظم من جبل عامل.

وكان إجماع البلاد العامليّة على تأييد موقف سيّدنا بحيث زحفت وفود الشعب زرافات ووحداناً وأعياناً إلى مقرّه في صور، توقّع عريضة هذه المطالب المبادئ حتّى لم تبقَ قرية أو مزرعة أو عالم أو زعيم إلّا ووقّعها، سواء منهم المؤيّدون له، أو المعارضون الذين جرفهم تيّار الرأي العام.

ثمّ كان مؤتمر وادي الحجير ـ وهو وادٍ يتوسّط البلاد العامليّة ـ كملتقى لأقضية صور، وبنت جبيل والنبطيّة ومرجعيّون من جهة، ومكان واسع بعيد عن أعين السلطة، حصين بجباله وبمكانه الطبيعي، وحين التأم الجمع عقد المؤتمر، فوقف سيّدنا يطرح قضيّة البلاد بإسهاب، ويحثّ المؤتمرين على ضبط النفس، وهدوء الأعصاب أمام التحدّيات والتعدّيات التي كان يفتعلها الفرنسيّون بواسطة عملائهم، وناشد الحشد المجتمع أن يفوّتوا الفرصة على السلطة المنتدبة التي تعلّل احتلالها وانتدابها بالمحافظة على المسيحيّين، ثمّ ختم خطابه التأريخي بأن أقسم اليمين على حماية أرواح النصارى وأموالهم كحماية روحه وماله، ثمّ أخذ اليمين على العلماء الأعلام، وفي طليعتهم علّامة جبل عامل الشيخ حسين مغنية، ثمّ أخذ اليمين على الزعماء، وفي طليعتهم كبيرهم كامل بك الأسعد، ثمّ استدعى الثوّار صادق الحمزة، وأدهم خنجر، ومحمود الأحمد، وأخذ اليمين نفسها عليهم، وأغلظ القول لهم، وهدّدهم إن حنثوا باليمين ليأخذهم بأشدّ العقاب[1].

ثارت ثائرة الفرنسيّين لنجاح المؤتمر فنفخوا في بوق الفتنة، وأشاعوا في طول

١. كما جاء بقلمه في كتابه صفحات من حياتي، وهو سيرته الذاتيّة [راجع الموسوعة ج ٧، بغية الراغبين].

البلاد وعرضها أن السيّد عبدالحسين شرف‌الدين أفتى بمحاربة النصارى في مؤتمر وادي الحجير، وحاولوا إكمال مخطّطهم بإزالة سيّدنا من الطريق، فدفعوا بعض جفاتهم الغلاظ إلى اغتياله، واقتحم جورج الحلّاج على السيّد داره، ولكن بإرادة إلهيّة ما همّ بإطلاق النار حتّى عاجله شبل عليّ برفسة منكرة فوقع لليدين وللفم.

بعد هذا الحادث تفاقم الاعتداء، فجرّدت السلطة الفرنسيّة حملةً عسكريّةً، زحفت إلى بلدته ـ شحور ـ فطوّقتها تمهيداً لاعتقاله.

ولكنّه فطن للأمر، والفجر يبزغ ،فخرج من بيته واخترق الحصار بأعجوبة؛ ولعلّ من مرّ بهم من الجند كانوا من المغرب العربي، فأفسحوا له المجال؛ بدليل أنّهم أطلقوا النار من حوله وهو في متناولهم مختفياً تحت عباءة وضعها على رأسه الشريف، فجلّلته من الفرع إلى القدم واستمرّ في مسيرته نزولاً إلى وادي الليطاني. أصدر المحتلّون بعد ذلك حكمهم بإعدامه، والقبض عليه حيّاً أو ميّتاً، للحيلولة دون ذهابه إلى دمشق... ولكنّه وصلها في ثلّة من أهله وأنصاره.

وحين يئست قوات الانتداب الفرنسي من القبض عليه سلّطت حقدها على داريه، فأحرقت بيته في شحور ثمّ احتلّت داره في صور وأباحتها للأيدي الأثيمة، وقد صيح في حجراته نهباً ـ كما قال في مقدّمة كتابه المراجعات [1] ـ إلى ما هنالك من محن كالسيل الآتي من كلّ جانب، وأقسى هذه المحن نهب وحرق مكتبته النفيسة بما فيها مؤلّفاته المخطوطة التي ترك فقدانها في نفسه جرحاً لم يلتئم طول حياته.

وفي دمشق أحيط بالإكبار والإجلال، من قبل زعماء القضيّة العربيّة، وكان السيّد زعيماً بين زعماء الفكر، وقائداً من قادة الرأي، يرجع إليه الساسة والمخلصون، وكانت سوريّة على أبواب مرحلة حاسمة، فكانت فيها لسيّدنا مواقف سجّلها التأريخ العربي بالفخر والإعجاب».

---

١. المراجعات في مقدّمة الشيخ مرتضى آل ياسين.

٨ ـ ويصف فضيلة الشيخ أحمد قبيسي طيّب الله في كتابه حياة الإمام شرف‌الدين هذه الفترة بما نختصره بالفقرة التالية:

«ولمّا علم الفرنسيّون بذهابه إلى دمشق، أحرقوا داره في بلدة «شحور»، ونهبوا داره في مدينة «صور» وأحرقوا مكتبته فيه، وجعلوها مقرّاً للجنود.

وفي دمشق بعث الملك فيصل[١] مع ناموسه الخاصّ إحسان الجابري إلى سماحة السيّد بدرة[٢] فيها خمسة آلاف دينار من الذهب. فأبى السيّد أخذها قائلاً: «لم تكن ثورتنا من أجل المال، ولكنّها عقيدة دينيّة نستجيب لها كلّما خشينا على تراث محمّد أن يصاب».

ويتابع الشيخ القبيسي‌ﷺ وفي ذلك يقول الأمير شكيب أرسلان: لم يحلّ نفسي محلّ الإكبار والتجلّة أحد كالسيّد عبدالحسين شرف‌الدين قائد ثورة جبل عامل على الفرنسيّين سنه ١٩٢٠، ثمّ يكرّر الرواية ويقول: «وسأتحدّث بخلّته هذه ما حييت».

٩ ـ وفي رسالة الأسس المعرفيّة لسلطة العلماء في جبل عامل[٣] حديث عن هذه المرحلة ننقله مختصراً:

«وأفتى بالجهاد ضدّ الاستعمار الفرنسي[٤] ممّا عرّضه لنقمة المحتلّين الذين سعوا لاعتقاله فالتجأ إلى مغارة تقع قرب شحور وحاولوا اغتياله[٥]؛ لأنّ مواقفه كانت تلهب شعور أبناء جبل عامل، وتحثّهم على الثورة، ونهبوا مكتبته الحاوية على أنفس المؤلّفات وحرّقوا داره، وحكموا عليه بالإعدام».

١٠ ـ ونختصر ما تحدّث به عن هذه الفترة المغفور له سماحة الحجّة الكبير الشيخ

---

١. دين وتمدين، مجلّد ١ صفحة ٢٢٩ للأستاذ الحوماني، وكذلك في كتابه من يسمع [: ٣٨٤].

٢. صرّة فيها مقدار من المال [راجع المعجم الوسيط: ٤٣، «ب. د. ر»].

٣. إعداد موسى أحمد صوفان بإشراف الدكتور عليّ الشامي، تموز ١٩٨٣.

٤. السيّد محمّد صادق الصدر في مقدّمة النصّ والاجتهاد: ٤.

٥. مجلّة الباحث صفحة ١٤٠.

محمّد حسين المظفّر، في كتابه تأريخ الشيعة[١] في سياق حديثه عن الشيعة في جبل عامل، تحت عنوان الشيعة في جبل عامل بما يلي:

«وأرسلت الدول لجنةً أميركيّةً لاكتشاف رغبات الشعوب، وعبّر العامليّون على لسان ممثّليهم، وفي طليعتهم حجّة الإسلام السيّد عبدالحسين شرف‌الدين رغبتهم في تشكيل حكومة عربيّة مستقلّة، يكون ملكها فيصل».

غير أنّ فرنسا لم تعر هذه الرغبة أُذناً صاغيةً، فسبّب ذلك التهاب نيران الثورة، في طول البلاد العامليّة وعرضها، وكان زعيم هذه الثورة حضرة السيّد عبدالحسين، وقد تعزّزت الفرنسيّة بالعدّة والعدد، ودخلت بلاد «صور» واستولت على دار السيّد، وكان قد انتقل منها إلى «شحور» فانتهبتها، وأتلفت مكتبته الثمينة نهباً وحرقاً، ثمّ زحفت على جميع البلاد واحتلّتها، فاضطرّ السيّد للفرار إلى دمشق، وبعد سقوطها بيد القوّة الفرنسيّة غادرها إلى مصر، ولم يسمح له المستعمرون بالعودة إلى بلاده إلّا بعد سنتين، وكانت تلك الثورة في عام الثورة العراقيّة على الإنكليز، وهو عام ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ م.

١١ ـ ونختصر ما تحدّث به عن هذه الفترة سماحة آية الله المغفور له الشيخ مرتضى آل ياسين في مقدّمة كتاب المراجعات تحت عنوان حياة المؤلّف بما يلي:

«وناهيك بما فاجأته به سلطة الاحتلال الفرنسي حين ضاقت به ذرعاً؛ إذ أوعزت إلى بعض جفاتها باغتياله، فاقتحم عليه الدار، ولكنّ الله سبحانه أراد له غير ما أرادوا فكفّ أيديهم عنه.

وتعقّبته السلطة الغاشمة بقوّاتها المسلّحة، وحين يئست من القبض عليه سلّطت النار على داره في «شحور»، فتركتها هشيماً تذروه الرياح، ثمّ احتلّت داره الكبرى في صور، وأباحتها للأيدي الأثيمة، فلم تترك فيها غالياً، ولا رخيصاً، وكان أوجع ما في هذه النكبة تحريقهم مكتبة السيّد بكلّ ما فيها من نفائس

١. دار الزهراء للطباعة والنشر في بيروت، صفحة ١٦ ـ ١٧ [ومن منشورات مكتبة بصيرتي: ١٥٩].

الكتب وأعلاقها، ومنها تسعة عشر مؤلّفاً من مؤلّفاته كانت لا تزال خطّية»[١].

... وله في دمشق مواقف مذكورة، وخطابات محفوظة سجّلها له التأريخ بكثير من الفخر والإعجاب.

ولم يكن بدّ من اصطدام العرب بجيش الاحتلال حتّى إذا التقى الجمعان في «ميسلون» دارت الدائرة على العرب؛ لأسباب نعرض عنها، فغادر السيّد إلى فلسطين ومنها إلى مصر.

١٢ ـ ونختصر ما تحدّث به عن هذه المرحلة سماحة الحجّة الجليل المغفور له الشهيد السيّد حسن الشيرازي في مقدّمة المراجعات[٢] تحت عنوان «حوار القمّة» بما يلي:

«حاول الاستعمار الفرنسي خنق صوت السيّد الإمام، فعمد إلى محاولة اغتياله، ولكنّه لم ينجح في هذه المهمّة الجهنّمية ونجا السيّد بأعجوبة، فالله غالب على أمره.

ولمّا فشل الاستعمار في خنق صوت السيّد أحرق دارته الصيفيّة في «شحور»، ونهب منزله في «صور»، وأحرق مكتبته العامرة التي كانت تحتوي فيما تحتوي على تسعة عشر مؤلّفاً لم يقدر لها أن تمثّل للطبع.

وإحراق مؤلّفاته المخطوطة ترك في قلبه جرحاً ظلّ يشكو منه حتّى أُخريات أيّامه، فتلك المؤلّفات كانت قد اعتصرت شبابه.

ويكفي أن يكون من تلك المؤلّفات كتاب سبيل المؤمنين الذي عرض جزءً منه على السيّد حسن محمود الأمين رئيس علماء جبل عامل، فتحدّث عن انطباعاته عن الكتاب للمؤلّف قائلاً له: «ستكون كتبك أنفع من كتب السيّد المرتضى».

ومن ثمّ شرّد السيّد الإمام إلى دمشق، ومن ثمّ إلى فلسطين، ثمّ إلى مصر».

---

١. المراجعات في مقدّمة الشيخ مرتضى آل ياسين.

٢. دار الصادق للطباعة والنشر في بيروت.

١٣ ـ ونختصر ما تحدّث به عن هذه الفترة سماحة العلّامة الإسلامي الكبير السيّد محمّد صادق الصدر في مقدّمة كتاب النصّ والاجتهاد تحت عنوان «قبس من حياة السيّد المؤلّف». بما يلي:

«وأخذ الناس يفدون على دار السيّد، ويوقعون الوثائق برفض حكم الفرنسيّين والمطالبة بالاستقلال الناجز. وقد تسامع الفرنسيّون بالأمر، فأرسلوا أحد عملائهم لاقتحام دار السيّد والغدر به، ولمّا همّ بالسيّد جلّد السيّد به الأرض، فرجع خائباً مخزياً، وقد سمع الناس باقتحام الدار، فتجمّعت القرى العامليّة من كلّ حدب وصوب، حتّى غصّت مدينة «صور» بالوفود والقرى الزاحفة.

ووجّه الفرنسيّون جيشاً جرّاراً إلى بلدة «شحور» حيث كان السيّد قد ذهب إليها، ولكنّه نهض مسرعاً وقد وضع عباءته على عمامته فأعمى الله تعالى أبصارهم عنه، فوصل إلى مغارة على ضفة الليطاني، وهي المغارة التي اختبأ بها أخو جدّنا السيّد صالح شرف‌الدين؛ فراراً من ظلم الجزّار الطاغية المعروف.

وفي جنح الظلام توجّه إلى دمشق متنكّراً، وقد أكرم الملك فيصل ضيفه الكبير وأحلّه المحلّ اللائق»[1].

١٤ ـ ونختصر ماتحدّث به عن جهاد الإمام شرف‌الدين العلّامة الإسلامي الشيخ عبدالله العلايلي في ذكرى أربعينه بدار الفتوى في بيروت بما يلي:

«كان الفكر الحرّ النيّر يوم كانت حرّيّة الرأي سبيلاً إلى الأعواد. وكان الصراحة المجلجلة الهادرة يوم كان الهمس الرعديد عنوان الجرأة والاستبسال.

وكان الوطنيّة يوم كانت آلاماً وتضحيات حمراء... وكان النزاهة يوم كانت النزاهة حكايةً تروى.

أمّا في العلم فحدّث عن البحر ولا حرج، وفي التقوى لعلّها اتّخذت من قلبه محرابها، ومن ضميره هيكلها».

---

١. النصّ والاجتهاد: ١٨ ـ ١٩ في مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.

١٥ ـ وهذا الشاعر الكبير بولس سلامة صاحب «ملحمة عيد الغدير» يصف هذه المرحلة بقصيدة، نقتطف منها الأبيات التالية :

أيّها السيّد هلّا ذكرت	أمسك المنناف أقزام تباهى
يوم لم تركع على الضيم وقد	راح سوط الذلّ يستاق الشياها
عرضت للأسد البادي الطوى	طيّبات مغريات فأباها
أحرقوا دارك والنار محت	من معين العلم أسفاراً رواها
كانت النيران لمّا أضرمت	ألسناً تدعو عليهم وشفاها
لا يموت الفضل مهما جعجعت	صولة الظلّام واشتدّت رحاها
شرفاً عبدالحسين المرتقي	من صروح العلم والدين ذراها
تملأ المنبر عزّاً وسنى	وكذاك الشمس تهدي من يراها
كادت الأعواد من نشوتها	تلبس الخضرة ذكراً لصباها
أو تعيد الغضّ من أوراقها	كلّما «العلّامة السبط أتاها
أصيدا يعتمد السيف الذي	بسليل الضيغم الزأر باهى

١٦ ـ وللشعر دور بارز في أحداث ١٩٢٠ في جبل عامل شأنه مع الأحداث الكبرى في التأريخ يخلدها بواسطته نخبة ممّن عايشوا مراحلها، وعاشوا ظروفها، فأرّخوا لها معتزّين بقياداتها وشهدائها ومنجزاتها، غارسين بهذا الاعتزاز بذور الثورة والجهاد، كتراث يؤتي أكله للأجيال القادمة. وها هو «جبل عامل» يستند إلى هذا التراث العريق، وينطلق من هذه القاعدة التي أقامها لهم سلفهم الصالح في الثمانينات بعد التسعمائة وألف، وسنة العشرين بعد التسعمائة وألف، فيسجّلون في مقاومتهم للعدوّ الإسرائيلي صفحات من الجهاد والاستشهاد، تربط خير خلف بخير سلف، وتمهّد كذلك للأجيال القادمة طريق الحرّيّة والكرامة، وها نحن ننظر باعتزاز إلى البطولات التي سجّلها قادتنا من العلماء في تأريخنا، ثمّ أرّخها أدباؤنا ـ نثراً وشعراً ـ في مذكّرات ويوميّات ومجاميع، وحين

نستعرض أسماءهم الكريمة نلاحظ أنّهم من خيرة العلماء والأدباء والشعراء، ولا تزال قصائدهم الموجّهة إلى الإمام شرف‌الدين محفوظة في مجموعة السيّد عليّ شرف‌الدين، وهي كما وردت في المجموعة المذكورة تنصّ على أسماء أصحاب الفضيلة:

الشيخ محمّد حسين، والشيخ عليّ مهديّ، والشيخ محمّد أمين شمس الدين، وأصحاب السيادة السيّد محمّد حسن فضل الله، والشيخ حبيب آل إبراهيم، والشيخ محمّد رضا الزين، والسيّد أمين علي أحمد الحسني، والفضلاء الشيخ أسد الله ريحان، والأُستاذ محمّد عليّ الحوماني، والأُستاذ محمّد كامل شعيب العاملي، والشيخ عبدالله سليمان، والسيّد حسين فخر الدين، والسيّد حسين نور الدين، والشيخ توفيق البلاغي، والأُستاذ أحمد حجازي ـ ابن البادية ـ، والسيّد عبداللطيف قاسم الحسيني، وطه حسين العراق الدكتور محمّد مهديّ البصير.

ونكتفي باختيار مقتطفات من خمس قصائد[1]:

فمن إحدى قصائد المغفور له الشيخ محمّد حسين شمس‌الدين:

سمعاً فـ«عامل» خطبه جلل　　　　يكفيك عن تفصيله الجملُ
هبّت عليه مصائب فغدت　　　　على أمثالها لا تبرك الإبلُ
وتدافعت ترمي مدافعها　　　　كُـتَلاً تطاير تحتها القللُ
ودويّ أصوات المدافع في السـ　　　　ـتّ الجهات لوقعها زجلُ
فالجوّ يمطر فوقهم شرراً　　　　والأرض بالنيران تشتعلُ
ونجا «أبو الأشبال» معتصماً　　　　بالله وهو عليه متّكلُ
علم الإله بأنّ نهضته　　　　للدين وهو لدينه البطلُ
لو لم يكن هو روح «عاملة»　　　　ما هيّجت سرباً له الدولُ
يرمي إلى استقلاله شغفاً　　　　بسهام رأي ما به خطلُ

---

١. من دفتر الذكريّات الجنوبيّة للسيّد جعفر شرف‌الدين عن مجموعة صدى التهاني للسيّد عليّ شرف‌الدين.

لو كـان يـقبل مـنهم مـننا لأتـاه مـا لا تـحمل البـزلُ
لكـن أبـى إلّا الإبـاء وكـذا مـن قـبله آبـاؤه الأُوَلُ
فـرمت مـعاقله بـذي لجب عـنه يـضيق السـهل والجـبلُ
ونجوت يا «عبدالحسين» بما حُفظت بـه مـن قـبلك الرسـلُ
ورمـوا إليك بكـلّ رائـعة يـهوي عـلى فـوهاتها الأجـلُ
فكأنّـما الدنـيا بأجـمعها رجـلٌ وشـخصك ذلك الرجـلُ

ومن إحدى قصائده رضوان الله عليه نقتطف الأبيات التالية:

دعـته لتـحريرها «عـامل» فهمّت هـبوب الحسـام الخـذمْ
وكـان لنـهضته نـبأة أصـاخت إليـها جـميع الأُمـمْ
أقـام وأقـعد عـزم المـلوك عـلى خـطة يـرتضيها الحكـمْ
وقد أعـلنوا أن تـقوم الشـعوب لتـحريرها والنـظام انـتظمْ
فـقام يـدافـع عـن «عـامل» قـريع الحـقيقة والمـعتصمْ
ولمّـا رأتـه جـموح القـياد ويأبـى الإبـاء له والشـممْ
رمـته عـلى غـرّة غـدوة بـجيش لهـام كـسيل العـرمْ
وقـد أكـبرته نـفوس المـلوك ويكـبر فـيها كـبير الهـممْ
فسـل «مـصر» عـنه فـفيها له مـآثر يـعلمها مـن عـلمْ
وكـم أرّج الذكـر مـنه «العـرا ق»بـنشر فـعبّق أرض الحـرمْ
فبشرى فـبشرى لأهـل العـراق فـقد أزمـع الهـمّ والأُنس عـمْ
بـعود الإمـام إلى «عـامل» وعود ابن خال الإمـام الأشـمْ[١]
هـما نـهضا لابـتناء العـلاء وحفظاً عـلى الوطـن المـنهضمْ

١. ابن خال الإمام شرف الدين هو الزعيم السيّد محمّد الصدر ابن المرجع الأعلى السيّد حسن الصدر، وكان قد نفي إلى لبنان على أثر الثورة العراقيّة على بريطانيا سنة ١٩٢٠.

وأثبت كلٌّ على مزلق الدفا ع بيوم النضام القدَمْ
فكم نهضة لبني هاشم لقد خضبوا الأرض منهم بدمْ

ومن إحدى قصائد المغفور له الشيخ عليّ مهديّ شمس الدين نقدّم هذه الأبيات:

أرى الكون بُرْدَ السرور التحفْ وداعي التهاني به قد هتفْ
وأصبح يبسم عن ثغره ارتيا حاً ويسحب ذيل الشرفْ
ويهتزّ من طرب عطفه كغصن ثناه الصبا فانعطفْ
وباتت ترددّ ألحانها طيور المسرّة فوق الغرفْ
تزجّ التهاني بأنواعها بلاد «الشآم» لأرض «النجفْ»
وأكبر نعمى يراها البصير رجوع الحياة عقيب التلفْ
فكم شاهد الناس من مزعج يذيب الحشا ويشقّ الشغفْ
براكين نار تشقّ الثرى كزمجرة الراعد المنقصفْ
وصوت البنادق من حولنا تطير لها مهجة المرتجفْ
فكم ربوة أصبحت وهدة وكم جبل شاهق قد نسفْ
ففي البرّ نشر كيوم النشور وفي البحر أفعى حتوف تلفْ
وفي الجوّ ظلّت مناطيدهم لإتلافنا كتفاً في كتفْ
وفوق الثرى جيش حتف يسير يحاكي الجراد إذا ما زحفْ
فلا بدع إن فرّ ذو عزمة به في الوجود حياة السلفْ
فموسى لقد فرّ وهو النبيّ أخو العزم خِيفَةَ أن يُختطفْ
وخير الورى المصطفى ذو البراق لقد جعل الغار منه كنفْ
و«عبدالحسين» ابن بنت النبيّ له في البريّة نعم الخلفْ
إباءً كآبائه الأوّلين تجافى عن الضيم حتّى انكشفْ
وعاد ومن فوقه راية من النصر أنّى تولّى ترفْ

ومن إحدى قصائد المغفور له الأستاذ محمّد عليّ الحوماني نورد هذه الأبيات:

صعدت السماء بلا سلّمِ ورحت تدوس على الأنجمِ
بنفس أبيّ أبى أن يضام وهمّة ذي لبد ضيغمِ
نهضت على سنّة المصطفى تسير وفرقانه المحكمِ
ورحت بعزمك وهو الأشدّ تدافع عن مجدك الأقدمِ
ومستنكرين عليك النهوض بما كان من رأيك الأحزمِ
رموك بما أنت منه البريء ببغي فلا سلموا وأسلمِ
وصالوا عليك بأقوالهم هرير الكلاب على الضيغمِ
بذلت لكسب العلاء الصريح نفيس حياتك والمغنمِ
وخضت غمار الردى لاقطاً دراريه من بحرها المفعمِ
لئن غبت عن أفقنا والعيو ن جرى دمعها من دمِ
فقد عدت بدراً جلا ضوؤه دجى كلّ ليل بنا مظلمِ
تبارك معطيك عفواً عن المسيء وصفحاً عن المجرمِ

ونقتطف من قصيدة للدكتور محمّد مهديّ البصير الأبيات التالية:

إذا ما صحا شعب وصحّت عزائمه فأقلامه مرهوبة وصوارمُهْ
وهل يصلح الأوطان إلّا رجالها وينهض دون الغبل إلّا ضراغمُهْ
ويُعلي مقام الحرّ إلّا فعاله كما رفعت «عبدالحسين» مكارمُهْ
لقد عرفته «عامل» وهو حصنها بكلّ ملمّ هالها متفاقمُهْ
ودافع عنها كلّ خطب وإنّها بلاد بها نيطت عليه تمائمُهْ
فما ارتعشت بالمشرفيّ بنانه ولا اضطربت بالسمهريّ معاصمُهْ
كتائبه عنها تذبّ وكُتبه وأقلامه من دونها ولهاذمُهْ
وغادرها والصدق ملء ضميره وآثاره تزهو بها ومعالمُهْ

وبــاتت وإن شـطّ المـزار كـأنّما يـنادمها تـحت الدجـى وتـنادمُهْ
ولمّــا أعــاد الله للــغاب ليــثه ونظّم شمل المجد بـاليمن نـاظمُهْ
تهلّل وجـه الدهـر واهـتزّ عـطفه وأشرق ثغر المجد وافترّ بـاسمُهْ

هذه هي ملامح ثورة «جبل عامل» على الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٠ ميلاديّة. وهذه هي حقيقة مؤتمر وادي الحجير مسندةً موثّقةً، شعراً ونثراً، وقائع وأحداثاً. وهو مَعْلَم من معالم الجهاد في «جبل عامل»، وكلّ المعالم الجهاديّة يرسمها العلماء المجاهدون الأعلام من صدر الإسلام، مروراً بمسيرة التأريخ الإسلامي حتّى أيّامنا الراهنة، ففي نهاية القرن الثالث عشر الهجري وبداية القرن الرابع عشر ونهايته تتابع على قيادة الجهاد أعلام المراجع القيّمون على جامعات النجف وكربلاء والكاظميّة وقمّ وأصفهان وخراسان والأزهر والقرويّين والزيتونة وجبل عامل، بل إنّ كلّ ثورة قامت في دنيا الإسلام إنّما قادها العلماء، هؤلاء الذين عناهم رسول الله ﷺ بالحديث الشريف: «العلماء ورثة الأنبياء»[1].

الأستاذ أحمد إسماعيل

مجلّة العرفان العددان ١ و٢ المجلّد ٧٥

١. الكافي ١: ٣٢، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، ح ٢؛ بصائر الدرجات: ١١ ـ ١٢.

زعيم مؤتمر الحجير وداعية الوحدة الإسلاميّة

السيّد محمّد حسن الأمين:

ثاني اثنين بعد الأفغاني انتهت إليهما زعامة الدعوة للوحدة الإسلاميّة

الشيخ عبدالله العلايلي:

كان الوطنيّة يوم كانت آلاماً وتضحيات

في إطار سياسة الشراع بتكريم أعلام الفكر والأدب وقادة الرأي من العرب واللبنانيّين، عقدت العزم منذ زمان طويل على تنظيم ملفّ عن الإمام شرف‌الدين، عدت إلى أرشيف الشراع ومكتبتي، وإلى خزانة ذاكرة نجل الإمام شرف‌الدين الصديق السيّد جعفر فعثرت على ضالّتي، وكنت حدّثت العلّامة الشيخ عبدالله العلايلي عن مقصدي، فقال: إنّ في نيّته أن يضع كتاباً في السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، ووعدني أن يزوّدني بفصول من الكتاب المرتقب، لكن حالت دون الشيخ ودون تحقيق رغبته ظروف أقعدت همّته العالية عن تحقيق الكتاب، بيد أنّي سمعت من الشيخ كلاماً كثيراً في السيّد، وسأجعله في صلب هذا الملفّ.

ومنذ أسابيع زرت العلّامة السيّد محمّد حسن الأمين ودار حديث عن الإمام شرف‌الدين خلصت منه إلى فائدتين: الأُولى: قول السيّد الأمين: «إنّ الإمام شرف‌الدين هو ثاني اثنين من السلف الصالح بعد السيّد جمال‌الدين الأفغاني، انتهت إليهما زعامة الدعوة للوحدة الإسلاميّة» ويقصد محمّد عبده، والإمام شرف‌الدين. وأضاف السيّد الأمين فائدةً ثانيةً حينما نوّه ببلاغة وفصاحة الإمام شرف‌الدين في خطبه ورسائله ومصنّفاته.

وكنت قرأت كتباً ومقالات، وسمعت محاضرات ومساجلات عن مؤتمر وادي

الحجير، ودور الإمام شرف‌الدين في قيادته ودفعه إلى ما انتهى إليه من مقرّرات وطنيّة وقوميّة.

وتأسيساً على هذه الأقوال وما توافر لي من مصادر للبحث استقرّ بي الرأي على أن أنظّم الملفّ حول محاور ثلاثة:

١ ـ زعامة الإمام لمؤتمر الحجير.

٢ ـ ريادة الإمام للدعوة إلى الوحدة الإسلاميّة.

٣ ـ خصوصيّة لغة الكتابة والخطابة البلاغيّة في كلّ ما تركه الإمام شرف‌الدين من آثار.

في البدء تأتي السيرة

الذين كتبوا ترجمة حياة الإمام شرف‌الدين كثيرون، من أبرزهم السيّد محمّد صادق الصدر رئيس مجلس التمييز الجعفري الشرعي في العراق ـ سابقاً ـ في مقدّمة كتبها لكتاب النصّ والاجتهاد[1] الذي ألّفه السيّد شرف‌الدين، والشيخ مرتضى آل ياسين في مقدّمة المراجعات[2]، والشيخ محمّدمحسن الطهراني في فصل من كتابه نقباء البشر في القرن الرابع عشر[3]، والسيّد حسن الشيرازي في مقدّمة المراجعات، والإمام شرف‌الدين نفسه في مذكّرات له نشرتها مجلّة العهد الصوريّة، تحت عنوان صفحات من حياتي، وقدّم لها السيّد عزّ الدين آل ياسين.

أجمعت كلّ هذه المراجع وغيرها ممّا لا يتّسع المجال لذكره كأعيان الشيعة[4]، على أنّ مولده كان في الكاظميّة ـ العراق ـ في سنة ١٢٩٠ هجريّة، ونشأ على أبيه السيّد يوسف، فتعلّم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم، ثمّ درس شابّاً في النجف

١. النصّ والاجتهاد: ٩ في مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.

٢. المراجعات في مقدّمة الشيخ مرتضى آل ياسين.

٣. نقباء البشر ٣: ١٠٨٠، الرقم ١٥٨٦.

٤. أعيان الشيعة ٧: ٤٥٧.

الأشرف على الشيخ حسن الكربلائي، والشيخ محمّد طه نجف، والشيخ محمّد كاظم الخراساني، والسيّد محمّد كاظم اليزدي، وشيخ الشريعة الأصفهاني، والسيّد إسماعيل الصدر، والسيّد حسن الصدر.

وفي سنة ١٣٢٢ هجريّة عاد إلى جبل عامل مزوّداً بإجازات الاجتهاد، فاستوطن بلدة «شحور»، وفي سنوات معدودة ذاع صيته وملأت شهرته البلاد، وأصبح مرجعاً كبيراً من مراجع الدين في الفتيا، وكان حجّة الإسلام السيّد عليّ محمود الأمين المرجع الديني الأكبر في جبل عامل، فكتب إلى والد السيّد شرف‌الدين يشهد له أنّ ولده: «عادل ومجتهد مطلق، وأنّه لا يعرف له نظيراً في علماء العامليّين».

وفي سنة ١٣٢٩ سافر السيّد شرف‌الدين إلى مصر حيث التقى شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري، ودارت بينهما مباحثات تمحورت حول وحدة المسلمين، وكان من نتائجها تلك المراجعات التي جاءت على شكل رسائل متبادلة بين الشيخ والسيّد، فشكّلت كتاب المراجعات القيّم الذي طبع مرّات عديدةً.

وزار مصر ثانية في العام ١٩٢٠ ميلاديّة هارباً من طغيان الفرنسيّين الذين حكموا عليه بالإعدام، فدعا ثانيةً إلى الوحدة الإسلاميّة، وقال كلمته الشهيرة عن السنّة والشيعة: «فرّقتهما السياسة فلتجمعهما السياسة»، وقد نوّه بهذه الكلمة الشيخ رشيد رضا في مجلّته المعروفة المنار مكبراً في السيّد هذه الروح.

ومن مصر انتقل السيّد إلى فلسطين حيث أقام في بلدة «علما»، وبقي فيها مرجعاً للوطنيّين وطلّاب الفتيا إلى أن عاد إلى صور ليتابع رسالته الإصلاحيّة.

في صور أنشأ المدرسة الجعفريّة ونادي الإمام الصادق، ثمّ كبرت الجعفريّة فتحوّلت إلى «الكلّيّة الجعفريّة»، وبنى صرحها الجديد إلى جانب مبنى المدرسة القديم، ومن الجعفريّة انطلقت أفواج الخرّيجين إلى الجامعات العليا، وإلى وظائف الدولة، وإلى المهاجر، مشكّلة جيلاً كاملاً من العصاميّين.

وواصل الإمام شرف‌الدين جهاده إلى أن كان صباح الإثنين في ٣٠ كانون الأوّل

ديسمبر سنة ١٩٥٧ الساعة الخامسة والنصف صباحاً حيث نعاه الناعي ورحل مخلفاً صيتاً ذائعاً، وخلفاً صالحاً، وعشرات المؤسّسات الخيريّة والتعليميّة، ومثلها من المؤلّفات القيّمة.

زعيم مؤتمر الحجير

الذين كتبوا عن مؤتمر وادي الحجير ـ على وفرتهم ـ اختلفوا حول الكثير من التفاصيل، بيد أنهّم أجمعوا على زعامة الإمام شرف‌الدين لهذا المؤتمر، وقد رجعت إلى ما كتبه المؤرّخ محمّد جابر آل صفا، والشيخ أحمد رضا، والسيّد أحمد اسماعيل، والسيّد جعفر شرف‌الدين، والدكتور محمّد بسّام، والقاضي الشيخ عبدالحميد الحرّ وغيرهم، فرأيت الأخير أكثرهم فائدةً للموضوع الذي أنا بصدده فاعتمدته.

يقول الشيخ الحرّ في فصل من كتابه الإمام السيّد عبدالحسين شرف‌الدين قائد علم وفكر ونضال ما حرفيّته:

«وكان الفرنسيّون وعملاؤهم يأتمرون به ـ أي بالإمام شرف‌الدين ـ ويكيدون له، فاحتكم إلى الشعب وطرح مصير البلاد على أهلها في رفض الانتداب الفرنسي، وإلحاق جبل عامل بسوريّا تحت لواء الملك فيصل الأوّل، أو الرضوخ للانتداب الفرنسي، والذي كان العملاء والمتنفّذون يعملون له بكلّ ما أُوتوا من شراسة وإرجاف وبغي، وكان يحمل لواء رفض الانتداب مع سيّدنا أجلّة العلماء وزعيم البلاد المرحوم كامل بك الأسعد، وقلّة من الزعماء، ومعهم السواد الأعظم من أهل جبل عامل.

وكان إجماع البلاد العامليّة على تأييد موقف سيّدنا المترجم له بحيث زحفت وفود الشعب زرافات ووحداناً وأعياناً إلى مقرّه في صور توقّع وثيقة رفض الانتداب، حتّى لم تبق قرية أو مزرعة أو عالم أو زعيم إلّا ووقّعها، سواء منهم المؤيّدون أو المعارضون الذين جرفهم تيار الرأي العامّ.

وكان ردّ سلطات الانتداب أن زوّدوا عملاءهم بالأسلحة الحربيّة ودفعوهم إلى

الإخلال بالأمن؛ ليستثيروا حفيظة الوطنيّين. وكانت اشتباكات حوّلها العملاء إلى نعرات طائفيّة، ودبّت الفوضى في طول البلاد وعرضها».

مؤتمر وادي الحجير ١٩٢٠م

ويتابع الشيخ الحرّ كلامه عن السيّد فيقول: «فماكان من سيّدنا إلّا أن اتّفق مع زعيم البلاد كامل بك الأسعد على عقد مؤتمر عامّ يضمّ علماء البلاد وزعماءها، وأهل الرأي بها وثوّارها، وكان المؤتمر في وادي الحجير. وهي واد تتوسّط البلاد العامليّة كملتقى لأقضية صور، وبنت جبيل، ومرجعيّون، والنبطيّة من جهة، وكمكان واسع بعيد عن أعين السلطة، حصين بجباله وهضابه. وبمكانه الطبيعي، وحين التأم الجمع عقد المؤتمر، ووقف سيّدنا يطرح قضيّة البلاد بإسهاب، ويحثّ المؤتمرين على ضبط النفس وهدوء الأعصاب أمام التحدّيات والتعدّيات التي كان يفتعلها الفرنسيّون بواسطة عملائهم، وناشد الحشد المجتمع أن يفوّتوا الفرصة على السلطة المنتدبة التي تعلّل احتلالها وانتدابها على لبنان بالمحافظة على المسيحيّين، ثمّ ختم خطابه التاريخي بأن أقسم اليمين على حماية أرواح النصارى وأموالهم وأعراضهم كحماية روحه وماله وعرضه. ثمّ أخذ اليمين على العلماء وفي طليعتهم علّامة جبل عامل الشيخ حسين مغنية، ثمّ أخذ اليمين على الزعماء وعلى رأسهم الزعيم الأوّل كامل بك الأسعد، ثمّ استدعى الثوّار، وفيهم صادق الحمزة، ومحمود الأحمد، وأخذ اليمين نفسه عليهم وأغلظ القول لهم وهدّدهم إن حنثوا باليمين ليأخذنّهم بأشدّ العقاب.

وانفضّ المؤتمر بتفويض المترجم له، والعلّامة السيّد عبدالحسين نور الدين، والزعيم الأسعد بأن يمثّلوا البلاد لدى الأمير فيصل الأوّل في دمشق.

ثارت ثائرة الفرنسيّين لنجاح المؤتمر فنفخوا بوق الفتنة لإحباطه، وأشاعوا في طول البلاد وعرضها أن السيّد عبدالحسين شرف‌الدين أفتى بمحاربة النصارى في مؤتمر وادي الحجير، وقام عملاؤهم بأعمال هستيريّة؛ إذ دفعوا البلاد إلى فتنة

زهقت فيها الأرواح البريئة.

وهكذا كان للفرنسيّين والعملاء ما أرادوا، ونجحت الفتنة التي لقحوها ليثبّتوا أقدامهم في لبنان بعد أن ينكّلوا بمن استدرجوهم إلى الفتنة، ولكن واأسفاه فقد وقعت الواقعة وألبسوها لمؤتمر وادي الحجير وأصحابه، بل للذي أقسم على حماية الأرواح والأموال وأخذها على الجميع وفيهم الثوّار أنفسهم، ولكن تغلّب كيد العاطفة الحمقاء عندهم فعطّل عقولهم.

إلّا أنّ سيّدنا لم يصبر على ذلك بل أمر بتعقّب مشوّهي الثورة فتشرّدوا إلى غير رجعة، وكان المترجم له يرى أنّ هؤلاء الذين نفّذوا أوامر المحتلّين، وساعدوا على نجاح الفتنة، ارتكبوا بحقّ الوطن، وأهله جريمتين ـ في آن واحد ـ إحداهما أفظع من الأُخرى.

الأُولى: الفتك بإخوانهم في الله، والوطن، والإنسانيّة.

الثانية: إعطاء المستعمر المحتلّ حجّةً دامغةً، ومبرّراً هامّاً لبقائه، وتمركزه في لبنان بداعي حماية هؤلاء المواطنين من جِهة، ورفع هذا التخلّف الرهيب من جِهة أُخرى، وأنّ للمستعمر وعملائه مختلف الطرق والأساليب للوصول إلى غاياته ومآربه غير الإنسانيّة، ولو كانت بتشويه الحقائق والتضحية بالنفوس البريئة، أو على سلّم من الجماجم.

وحاول المحتلّون إكمال مخططهم بإزالة سيّدنا من الطريق، فدفعوا بعض جفاتهم الغلاظ باغتياله، واقتحم ابن الحلّاج على السيّد داره ـ وهو بين أهله وعياله ـ قاصداً تنفيذ أوامر السلطة الجائرة، ولكن بإرادة إلهيّة قويّة ما إن همّ بإطلاق النار حتّى عاجله شبل عليّ برفسة منكرة فوقع لليدين وللفم، وعلت الصيحة فتراكض الناس من كلّ فجّ، وكان ابن الحلّاج قد لملم نفسه وفرّ لا يلوي على شيء.

وهكذا وبالإرادة الخفيّة نجا الإمام شرف الدين من محاولات المستعمر وأعوانه، وبقي ليكمّل مسيرته في عالم الإنسان؛ حيث أراده الله بالعلم والعمل، رائد حقّ، وداعي أُلفة ووئام.

وبعد هذا الحادث اتّسعت شقّة الخلاف بين السيّد والقوّة الغاشمة ممّا أدّى إلى تجريد حملة عسكريّة عارمة، زحفت إلى بلدة «شحور» حيث كان يزورها وطوّقت البلدة تمهيداً لاعتقاله، ولكنّه فطن للأمر والفجر يبزغ، فخرج من بيته واخترق الحصار بأعجوبة، ولعلّ من مرّ بهم من الجند كانوا من «المغرب العربي» فأفسحوا له المجال بدليل أنّهم أطلقوا النار من حوله وهو في متناولهم مختف تحت عباءة وضعها على رأسه الشريف فجلّلته من الفرع إلى القدم، واستمرّ في مسيرته نزولاً إلى وادي الليطاني.

وأصدر المحتلّون بعد ذلك حكمهم بإعدامه والقبض عليه حيّاً أو ميّتاً؛ للحيلولة بينه وبين ذهابه إلى دمشق، ولكنّه وصلها في ثلّة من أهله وأنصاره.

وحينما يئست قوّات الاستعمار الفرنسيّة من القبض عليه سلّطت نار حقدها على داريه فأحرقت بيته في شحور، ثمّ احتلّت داره في صور، جاعلةً منها ثكنةً عسكريّةً، بعد أن أباحتها للأيدي الأثيمة، وقد صيح في حجراته نهباً كما قال في مقدّمة كتابه المراجعات[1] إلى ما هنالك من محن، كالسيل الآتي من كلّ جانب، وأقسى هذه المحن إحراق ونهب مكتبته النفيسة، بما فيها مؤلّفاته المخطوطة التي ترك فقدانهاوإتلافها وسلبها في نفسه جرحاً لم يلتئم طيلة حياته.

وفي دمشق أُحيط بالإكبار والإجلال من قبل زعماء القضيّة العربيّة، وكان السيّد في هذه الفترة بينهم زعيماً من زعماء الفكر، وقائداً من قادة الرأي، يرجع إليه فيها الساسة والمخلصون في دمشق لأخذ رأيه في ما يجب اتّخاذه، وكانت سوريّا آنذاك على أبواب مرحلة حاسمه من تأريخها المجيد. فكانت هناك مداولات ملكيّة، واجتماعات سياسيّة، وحفلات وطنيّة، وكان لسيّدنا في جميعها مواقف مذكورة سجّلها له التأريخ الوطني العربي بكثير من الفخر والإعجاب.

وحين اصطدم العرب السوريّون بجيش الاحتلال في الموقعة المشهورة

---

١. راجع الموسوعة ج ١، المراجعات: ٧، مقدّمة المصنّف.

«ميسلون» واستشهد وزير الحربيّة يوسف العظمة ـ وكان رحمه الله أثيراً لدى سيّدنا يحبّه كأبنائه ـ غادر سيّدنا دمشق إلى فلسطين، ومنها إلى أرض الكنانة.

انتهى كلام الشيخ الحرّ

وثيقتان من المؤتمر

كان السيّد عليّ شرف‌الدين سكرتير الإمام الخاصّ وكاتبه وحافظ خزانة أسراره وأقواله وخطبه ومواقفه.

دوّن في دفتر خاصّ بعض تلك الخطب، ومنها خطبته في مؤتمر وادي الحجير، وشفّعها بمقرّرات ذلك المؤتمر.

وعن هذه المخطوطة ننقل فقرةً من الخطاب والمقرّرات إلى المقدّمة:

أيّها الفرسان المناجيد، إنّ لهذا المؤتمر ما بعده، وسيطبّق نبؤه الآفاق السوريّة، ويتجاوب صداه في الأقطار العربيّة، ويتجاوزها إلى عصبة الأمم، وقد امتدّت به إليكم الأعناق، وشخصت الأبصار، فانظروا ما أنتم اليوم فاعلون.

ألا وإنّ جبل عامل بعد هذا المؤتمر بين أمرين: عزّ لاتنفصم عروته، ولا تقرع مرّته، أو ذلّ تهاوت معه كواكب السعد، وتقوّض فيه سرادق المجد.

فإن نبذتم الأهواء الشخصيّة، وآثرتم شرف القضيّة، فلنكوننّ في حرز لايفصم، وتكون بلادكم في حمى لا يقحم، أمّا إذا غلبكم الهوى، فلتكوننّ مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، أمام قوّة العدوّ، وشدّة الفتن، وتظاهر الزمان.

يا فتيان الحميّة المغاوير، الدين النصيحة.

ألا أدلّكم على أمر إن فعلتموه انتصرتم؟ فوّتوا على الدخيل الغاصب ـ برباطة الجأش ـ فرصته، واخمدوا بالصبر الجميل فتنته، فإنّه والله ما استعدى فريقاً على فريق إلّا ليثير الفتنة الطائفيّة، ويشعل الحرب الأهليّة، حتّى إذا صدق زعمه وتحقّق حلمه، استقرّ في البلاد تعلّة حماية الأقليّات.

ألا وإنّ النصارى إخوانكم في الله وفي الوطن وفي المصير، فأحبّوا لهم ما تحبّونه لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخمدون الفتنة، وتطبّقون تعاليم دينكم وسنّة نبيّكم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

بهذا السلوك يا أبنائي الأعزّاء دون غيره تردّون كيد الفرنسيّين إلى نحورهم، وتعيدون جحافلهم إلى جحورهم، وتنعمون بالحرّيّة لا يتطاول بعدها إليكم متطاول.

إخواني وأبنائي، إنّ هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية ويأبى إلّا الاستقلال التامّ الناجز، المعتمر تاج «فيصل» العرب عاهلاً مؤثّلاً، وقائداً محجّلاً، يقيم حكومةً شرعيّة تجعل من الوطن جبهةً منيعةً ينحدر عنها السيل، ولا يرقى إليها الطير.



مقرّرات المؤتمر

١ ـ تأييد مقرّرات المؤتمر السوري في رفض تقسيم سوريّا والانتداب الفرنسي، وإعلان الدولة العربيّة في سوريّا، وتتويج فيصل ملكاً عليها.

٢ ـ انضمام جبل عامل للدولة العربيّة «الوحدة السوريّة» ومبايعة الملك فيصل على تطهير البلاد من الاحتلال الفرنسي.

٣ ـ المحافظة على النصارى وحقوقهم وحلف اليمين على ذلك.

٤ ـ تفويض حجّة الإسلام المجاهد السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، والعلّامة الجليل السيّد عبدالحسين نور الدين، وزعيم جبل عامل كامل بك الاسعد بتمثيل البلاد لدى الملك فيصل، ومفاوضته في موضوع تنفيذ هذا المقرّر.

---

١. المائدة(٥): ٨٢.

داعية الوحدة الإسلاميّة

في مستهلّ هذا الملّف أشرت الى رحلة السيّد إلى مصر وإلى تلك المناظرات القيّمة ذات المنحى التوحيدي التي عقدها مع شيخ الأزهر وجمعت لا حقاً في كتاب المراجعات.

وأشرت أيضاً إلى فائدة استخلصتها من حديث السيّد محمّد حسن الأمين حول دور الإمام شرف‌الدين في الدعوة للوحدة الإسلاميّة.

وبين مخطوطات الإمام وقعت على خطبة له ألقاها في الجامع العمري الكبير في ١٩ تشرين الثاني / نوفمبر سنة ١٩٢١، إبّان الانتداب الفرنسي على لبنان، سأعرض لبعض فقراتها؛ للاستدلال على ما ذهبت إليه من إقرار بفضله في قيادة حركة الدعوة لتوحيد المسلمين وتقريب مذاهبهم الفقهيّة.

بعد مقدّمة استهلّها بالحمد لله والصلاة على نبيّه دخل السيّد في صميم الموضوع فقال:

أمّا بعد، فإنّه لا حياة لهذه الأمّة إلّا باجتماع آرائها، وتوحيد أهوائها بجميع مذاهبها وشتّى مشاربها على إعلاء كلمتها بإعلان وحدتها في‌بنيان مرصوص يشدّ بعضه أزر بعض وجسم واحد إذا شكا منه عضو أنّت سائر الأعضاء حتّى ليكون المسلم في المشرق هو نفسه في المغرب عينه ومرآته، دليله ومشكاته، لا يخونه، ولا يخدعه، ولا يظلمه، ولا يسلمه.

بذلك يكون المسلمون أمّةً واحدةً، وبه نكون خير أمّة أُخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتعتصم بحبل الله ولا تتفرّق، كالذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، واختلفوا بعدما جاءتهم البيّنات، وتنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم، فهم ليسوا من رسول الله في شيء، وليس رسول الله منهم في شيء.

فالحذر، الحذر من هذا الخطر، وأيّ خطر أدهى من أن تبقى الفِرقة فِرَقاً، والوحدة مزَقاً، والألفة أشتاتاً، والنفوس أمواتاً، وقد صحّ عن رسول الله أنّه قال: «الدين

التصيحة»، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين»[١].

ومن النصح توحيد كلمة المسلمين، و﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[٢] فلا تقولوا: «نحن سنّة وشيعة» بل قولوا: «نحن مسلمون»، فالشيعة والسنّة فرّقتهما السياسة وتجمعهما السياسة. أمّا الإسلام فلم يفرّق ولم يمزّق، الإسلام يجمع ويوحّد، وحّدهما: بأشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمّداً رسول الله، وأنّ القرآن كتاب الله، وجمعهما بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وبصوم رمضان، وحجّ البيت الحرام، بإحياء ما أحياه الكتاب والسنّة وإماتة ما أماتاه، بتحقيق ما حقّقاه، وإبطال ما أبطلاه.

ولا فرق بين السنّة والشيعة إلّا كالفرق بين مذهب من المذاهب الأربعة، ولكلّ مذهب من هذه المذاهب مفاهيم مستفادة من كتاب الله وسنّة رسوله، «ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد، ومن اجتهد فأصاب فله أجران»[٣].

ذلك هو الإسلام السمح في محجّته البيضاء، وشريعته السهلة السمحاء، فليكن المسلمون مسلمين كما أراد الإسلام؛ سيراً على محجّته والتزاماً بكتابه وسنّته.

أيّها المؤمنون، إنّكم مدعوّون بحكم الإسلام وحكم القرآن إلى وحدة لا تنفصم عروتها، وألفة لا يستباح ذمارها، فإلى الوئام، إلى الوحدة تتسلّقون بها معارج الشرف، وتطاولون أعراف المجد، وتستجيبون إلى نداء الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[٤].

عن هذه الخطبة يقول محمّد كزما في كتابه الضاحية الجنوبية:

«ففي السنة ذاتها ـ ١٩٢١ ـ تحدّث الأهلون في الضاحية بكلّ فخر واعتزاز عن

---

١. الأمالي للطوسي: ٨٤، ح ١٢٥؛ بحار الأنوار ٢٧: ٦٧، ح ٢؛ صحيح مسلم ١: ٧٤، ح ٩٥؛ مجمع الزوائد ١: ٨٧ بتفاوت يسير في بعض المصادر.

٢. الأنبياء (٢١): ٩٢؛ المؤمنون (٢٣): ٥٢.

٣. صحيح البخاري ٦: ٢٦٧٦، ح ٦٩١٩؛ كنز العمّال ٦: ٧، ح ١٤٥٩٧.

٤. الأنبياء (٢١): ٩٢.

الخطاب التوحيدي الذي ألقاه المجتهد السيّد عبدالحسين شرفالدين في الجامع العمري الكبير بعد أن أمّ جماهير المصلّين ودعا فيه إلى الأُلفة، وتوحيد الصفّ الإسلامي، فظهر التجاوب معه من جموع المصلّين المسلمين وارتفع نداء «الله أكبر» فتجاوبت به أنحاء بيروت ولبنان، خصوصاً وأنّه ختم بالدعوة إلى الوحدة الوطنيّة بين المسلمين والمسيحيّين.

فقال حرفياً: إنّ لكم في الوطن الذي ارتضيتموه سكناً ودولةً شركاء فيه فيجب أن تطبّقوا عليهم تعاليم دينكم، وسنّة نبيّكم، ونصّ القرآن العظيم في آيته الكريم: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1] صدق الله العظيم. فلا مندوحة إذن إلّا أن تعيشوا معهم إخواناً متحابّين متعاونين».

ويتابع كزما فيقول:

«والواقع أنّي لمّا اجتزت عتبة الشباب واندفعت في الحقلين الوطني والثقافي ووقفت على سيرة هذا المجتهد المصلح الداعي إلى الوحدة الوطنيّة أكبرته وصرت أسعى إليه في قلب مدينة صور، وأُفيد من مجالسه على الرغم من ميلي الفكري إلى العلمانيّة وتجنّبي معاشرة أكثر رجال الدين، والدخول معهم في المناقشات، وكذلك كنت معجباً بالعلّامة السيّد محسن الأمين والشيخ أحمد عارف الزين اللّذين كانا يتردّدان على الضاحية الجنوبيّة في الشتاء والربيع، وعلى كيفون ـ الملقّبة بالبرج العالي ـ في الصيف وينزلان ضيفين مكرمين على بعض الوجهاء فيهما. فهؤلاء السادة العلماء ليسوا رجال دين فحسب، بل هم رجال علم وعمل وثقافة ووطنيّة وأخلاق.

وعن نظرته للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة جاء في كراس أصدره مكتب العقيدة والثقافة في حركة «أمل» ـ إقليم الجنوب ـ ما نصّه الحرفي:

١. المائدة (٥): ٨٢.

نستطيع القول أنّه لم يخل عصر إلّا وقدّم فيه علماء الشيعة طرحاً للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة، كما أنّ طروحات قدّمت من قبل حكّام أو حكومات شيعيّة. وقد اختلفت أساليب الطرح. وتميّز أُسلوب الإمام شرف‌الدين أنّه وقف قلمه على هذا الأمر تقريباً، ذلك أنّه: «تطلّع منذ شرخ الشباب، إلى سبيل سويّ يوقف المسلمين على حدّ يقطع دابر الشغب بينهم، ويكشف هذه الغشاوة عن أبصارهم؛ لينظروا إلى الحياة من ناحيتها الجديّة، راجعين إلى الأصل الديني المفروض عليهم، ثمّ يسيروا معتصمين بحبل الله جميعاً، تحت لواء الحقّ إلى العلم والعمل، إخوة بررة، يشدّ بعضهم أزر بعض»[1]، مؤمناً «أنّ الطائفتين ـ الشيعة والسنّة ـ مسلمون يدينون حقّاً بدين الإسلام الحنيف، فهم فيما جاء الرسول به سواء، ولا اختلاف بينهم في أصل أساسي يفسد التلبّس بالمبدإ الإسلامي الشريف، ولا نزاع بينهم إلّا ما يكون بين المجتهدين في بعض الأحكام؛ لاختلافهم في ما يستنبطونه من الكتاب والسنّة، أو الإجماع أو الدليل الرابع، وذلك لا يقضي بهذه الشقّة السحيقة، ولا بتجسّم هذه المهاوي العميقة»[2].

ولكنّه وهو يدعو إلى التقريب، وعقد عليه بعضاً من كتبه فالمراجعات خصّصه لشؤون الإمامة، ووجهات النظر فيها؛ «لأنّ أعظم خلاف وقع بين الأُمّة اختلافهم في الإمامة، فإنّه ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينيّة مثل ما سلّ على الإمامة، فأمر الإمامة إذن من أكبر الأسباب المباشرة لهذا الاختلاف»[3].

«وقد فرضنا على أنفسنا أن نعالج هذه المسألة بالنظر إلى أدلّة الطائفتين، فنتفهّمها فهماً صحيحاً من حيث لا نحسّ إحساسنا المجلوب من المحيط والعادة والتقليد، بل نتعرّى من كلّ ما يحوطنا من العواطف والعصبيّات، ونقصد الحقيقة من طريقها المجمع على صحّته»[4].

---

١. راجع الموسوعة ج ١، المراجعات: ٣ في مقدّمة المصنّف.

٢ ـ ٤. المصدر: ٥.

وقد تقدّم للجدل في أمر الإمامة بكلّ ثقة واطمئنان واستعداد للنظر في كلّ دليل قاطع، يقنعه أنّ القربة لله يقتضي تعديل خطّه «ولو سمحت لنا الأدلّة بمخالفة الأئمّة من آل محمّد، أو تمكّنا من تحصيل نيّة القربة لله سبحانه في مقام العمل على مذهب غيرهم، لقصصنا أثر الجمهور؛ وقفونا أثرهم، تأكيداً لعقد الولاء، وتوثيقاً لعرى الإخاء، لكنّها الأدلّة القطعيّة تقطع على المؤمن وجهته، وتحول بينه وبين ما يروم»[١].

كما أنّه‌ رحمه الله دخل الجدال ليس بقصد عدول الشيعة عن مذهبهم، ولا على عدول السنّة عن مذهبهم بل بقصد لمّ الشعث وانتظام عقد الاجتماع.

وكان كتابه الفصول المهمة في تأليف الأمّة معقوداً بكامله على الاعتناء باتّحاد التشيّع والتسنّن، فقسّمه على فصول:

الفصل ١ ـ بما جاء في الكتاب والسنّة من الحضّ على الاجتماع والتنديد بأهل التفريق والنزاع.

الفصل ٢ ـ في معنى الإسلام وفي أخوّة أهل الشهادتين والصوم والصلاة والحجّ والزكاة.

الفصل ٣ ـ حكم صحاح أهل السنّة باحترام أهل الأركان الخمسة، وحرمة دمائهم وأعراضهم وأموالهم.

الفصل ٤ ـ بعض من نصوص الأئمّة عليهم السلام في الحكم بإسلام أهل السنّة.

الفصل ٥ ـ في صحاح السنّة الحاكمة على أهل الأركان الخمسة بدخول الجنّة.

الفصل ٦ ـ بعض من فتاوى علماء أهل السنّة بإيمان أهل الأركان الخمسة كافّةً.

الفصل ٧ ـ في بشائر السنّة للشيعة ممّا يحكم بفلاحهم في الدنيا وسعادتهم في اليوم الآخر.

الفصل ٨ ـ في من تأوّلوا من السلف.

---

١. راجع الموسوعة ج ١، المراجعات: ١٤، المراجعة ٤.

الفصل ٩ ـ في من أفتى بكفر الشيعة.

الفصل ١٠ ـ في ما نسب إلى الشيعة.

الفصل ١١ ـ في الردّ على نواصب العصر.

الفصل ١٢ ـ في سبب التباعد بين الطائفين.

ومن مبدأ معالجة الأمور بالنظر إلى أدلّة الطائفتين قدّم أبو هريرة والنصّ والاجتهاد وإلى المجمع العلمي العربي بدمشق من حيث هي النظرة الشيعيّة إلى موضوعات هذه الكتب. انتهى كلام كراس حركة أمل.

كلّ ما وضع بين مزدوجين هو من كلام الإمام شرف الدين.

بلاغته وفصاحته

عن بلاغته يروي الشيخ عبدالحميد الحرّ في كتابه الآنف الذكر[١] فيقول:

«والمعروف عنه أنّه في إحدى رحلتيه إلى أرض الكنانة وقف مرتجلاً في محفل من محافلها الكبيرة فبدأ خطابه البليغ بقوله:

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحمُ   فلا مشت بي في درب العلى قدمُ

فدوّت القاعة بالتصفيق من كلّ جانب؛ إعجاباً بهذا الاستهلال، وقد شعر السيّد من الحاضرين بأنّهم قد فهموا أنّ البيت الشعري هو له فقال:

رحم الله شاعرنا، شاعر أهل البيت السيّد حيدر الحلّي حيث يقول:

إن لم أقف حيث جيش الموت... إلى آخره.

فدوّت القاعة بالتصفيق مرّةً ثانيةً كالأولى إعجاباً وإكباراً.

وبعد أن جلجل صوته بالحاضرين وملأ أسماعهم وعقولهم بما انتظم في بيانه من روعة وجمال وإبداع مالت الأديبة المشهورة مي زيادة على أذن من كان بجوارها من الحفل وقالت ـ بعد أن رأت السيّد يعبث بخاتم من الفضّة كان بإصبعه أثناء

١. تقدّم في ص ٢٧١ عن كتابه المسمّى بالإمام السيّد عبدالحسين شرف الدين قائد علم وفكر ونضال.

خطابه ـ: «ما أدري أيّهما أطوع للسيّد من الآخر؟ خاتمه لبنانه أم بلاغته للسانه؟».

هكذا كان يسيطر بكلامه وخطبه على أذهان سامعيه، ويهيمن على أفكارهم.

وبجانب هذه الفصاحة الساحرة والقوّة البيانيّة النادرة كان يتمتّع بلباقة أخّاذة، ولياقة ممتازة؛ إذ المعروف عنه أنّه عندما انتهى من إحدى خطبه الارتجاليّة في أحد محافل القاهرة أيضاً، والذي كان مقاماً في أحد مساجدها تقدّمت إليه كاتبةٌ مشهورةٌ، راغبةً في مصافحته ـ ولعلّها السيّدة فاطمة اليوسف صاحبة مجلّة روز اليوسف؛ إعجاباً وتقديراً لما جاء في خطبته من دعوة وحثّ إلى لمّ الشعث، وجمع الصفّ، وتوحيد الكلمة ـ فمدّ يده إليها مصافحاً شاكراً لها عواطفها الصادقة، ولكنّه كان قد وضع عباءته على كفّه قبل أن يلامس كفّها... فظهر على ملامح الأديبة الكبيرة عدم الرضى، وقد أدرك السيّد سرّ ذلك فقال لها معتذراً: إنّي في المسجد وعلى وضوء وفي رأي بعض المذاهب الإسلاميّة أنّ لمس يد المرأة مباشرةً يكون ناقضاً للوضوء لهذا فعلت ما رأيت.

عند ذلك تهلّل وجه الأديبة، وابتسمت شاكرةً للسيّد هذا العذر الشرعي.

وقد استعان سيّدنا بموهبته الخطابيّة النادرة في تحسيس الرأي العامّ العاملي للمطالبة بحقوقه والوقوف في وجه الإقطاع والاستعمار ـ وبها استطاع أن ينهض بحملته الإصلاحيّة الكبيرة ويجمع النفوس إليه ويخضع العقول لآرائه وأفكاره التي تبنّاها الجيل العاملي وتابع خطاها حتّى وقتنا الحاضر».

وعن بلاغة الإمام شرف‌الدين كتب العلّامة السيّد محمّد صادق الصدر في مقدّمة كتاب النصّ والاجتهاد: «تمتاز رسائله في مراسلاته بالبلاغة، وشرف الهدف... ورسالته المطوّلة إلى الملك حسين ـ بن عليّ ـ بعد ذهاب ملكه من أبلغ ما كتب العرب من رسائل»[1].

وفي السياق نفسه يضيف السيّد الصدر: «كان نثره فصيح اللفظ، مشرق الديباجة،

---

١. النصّ والاجتهاد: ٢٤ ـ ٢٥، مقدّمة السيّد محمّد صادق الصدر.

متقن السبك، يمسك بعضه بعضاً، ولا يستطيع الكاتب الفذّ مهما أُوتي قوّةً في البيان، أن يحذف لفظةً، أو يضع محلّها أُخرى»[١].

وعن خطبه يقول الصدر: «تمتاز خطاباته بقوّة التعبير، ودقّة التصوير، وإشراق الديباجة، على أنّه لا يخطب إلّا مرتجلاً، ولا يمنعه الارتجال من تركيز الفكرة، وإبراز المعاني في غاية الفصاحة»[٢].

وقد جمع السيّد عليّ شرف‌الدين ـ ابن عمّ الإمام وسكرتيره الخاصّ ـ بعض رسائله وخطبه، نثبت منها كتاباً أرسله إلى ولده السيّد جعفر، حيث كان يزور الجالية العامليّة في أفريقيا الغربيّة في سبيل بناء صرح الجعفريّة، وذلك في رجب سنة ١٣٧٥، و٧ شباط سنة ١٩٥٦ وهي ما يلي نصّه:

«ولدي ومعتمدي، ومن أرجوه ليومي وأدّخره لغدي، أبا محمّد، يا أخا الصرح الممرّد، مدينة العلم وحاضنة الأفذاذ، من أفلاذ الأمّة، في كلّ خلف إن شاء الله.

عزّ عليّ يا بنيّ ركوبك الهواء، وعروجك إلى الجوزاء، وأعزّ من ذلك أن أرخص منك ماء الحياة، وأكلّفك بالسؤال، والسؤال ذلّ ولو: أين الطريق؟

نعم هو ذلّ إلّا أن يكون في سبيل الله ورسوله والأئمّة والأمّة، لمشروعك هذا الذي أصحرت وأبحرت، ثمّ ركبت منه الريح في سبيله، فإنّه عزّ وأيّ عزّ؛ ولذلك آثرتك به، وغامرت بك وراءه.

كتبك المرسلة من السنغال والغينة وسيراليون وشاطئ العاج أمامي أشمّ بها عرفك، وأستاف أنفاسك فتروي أوامي، فإذا أنا ريّان بها، وبعواطف أبنائنا الكرام، من احتفال بك وإقبال على مشروعك، فتحيّةً لفرسان الجالية الغالية، يتنافسون في البناء والعمران، ويحرزون السبق في حلبة هذا الميدان حتّى أصبح وطنهم، وخصوصاً عرينهم في الجنوب يتّسم بطابعهم، تتقرّأ ذلك في معاهد شيّدوها،

---

١. المصدر: ٢٦.

٢. المصدر: ٢٦ ـ ٢٧.

ومساجد عمروها، ومنائر رفعوها، وبيوت عمروها، وأرحام وصلوها.

أولئك أبنائي فجئني بـمثلهم إذا جمعتنا يا فلان المجامعُ».

وثيقتان من مكتبة وذاكرة الشيخ العلايلي

منذ فترة وجيزة زرت العلّامة الشيخ عبدالله العلايلي زيارة تـفقّد ومـجاملة، لا زيارة عمل ودار حديث «رمضاني» تنوّع ثماراً وتقلّب وجوهاً، إلى أن سألته عن صديقه الراحل العلّامة السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، فعلت وجهه مسحةٌ مـن الجدّ ممزوجةٌ بالبشر، وأصلح من جلسته، ثمّ مضى يروي معدّداً مناقب العلّامة شرف‌الدين، متوقّفاً عند المحطات المضيئة في سيرته وفكره وعلمه، مؤكّداً أنّه كان زعيم الوطنيّين الاستقلاليّين في لبنان، وداعـيةً للـوحدة السـوريّة، وإمـام المصلحين الإسلاميّين، وشيخ دعاة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة.

ولم يشأ العلايلي أن ينهي حديثه عن الإمام شرف‌الدين قبل أن يزوّدني بـوثيقة تضمّنت فقرة من خطاب كان رثى فيه العلّامة شرف‌الدين في أربعينه، فجاءت آية في البلاغة، واختزلت في جملها القليلة صورة السيّد الراحل في وجدان الشيخ الجليل أمدّ الله بعمره.

جاء في تلك الفقرة قول العلايلي:

في العلم حدّث عن البحر ولا حرج، وفي التقوى لعلّها اتّخذت من قلبه محرابها، ومن ضميره هيكلها.

كان الوطنيّة يوم كانت آلاماً وتضحيات حمراء.

وكان النزاهة يوم كانت حكايةً تروى.

وكان الفكر الحرّ النيّر يوم كانت حرّيّة الرأي سبيلاً إلى الأعواد.

وكان الصراحة المجلجلة الهـادرة يـوم كـان الهـمس الرعـديد عـنوان الجـرأة والاستبسال.

مجلّة الشراع، العدد ٢٧٩، الصادر في تموز ١٩٨٧

أضواء على مؤتمر وادي الحجير الآفاق والحدود

تمهيد

مؤتمر وادي الحجير، في خطابه السياسي والتأريخي يستحضر في كيانه وشخصيّته المعنويّة والحضوريّة، وبما اشتمل عليه من العلماء الأعيان والثوّار يستحضر شخصيّة أهل البيت عليهم السلام، والشهيد الأوّل والثاني ـ كما يستحضر شخصيّة أبي ذر الغفاري داعية الحقّ ضدّ الظلم والطغيان السلطوي ـ هذا الحشد الحضوري للدعوة العلويّة ودعاتها ضدّ انواع التسلّط والظلم اجتمعت وتآلفت في مؤتمر وادي الحجير، فتعاضدت فيه قضايا المسلمين وما تمثّله من مسائل تتجسّد في مضامينها اعتبارات الإسلام والعروبة بوجه سياسة التقسيم والتجزئة الاستعماريّة الفرنسيّة المعتمدة في المشرق الإسلامي، فالمؤتمرون في الحجير وطّنوا أنفسهم على الجهاد والثورة ضدّ الصليبي الجديد الحاقد، حاملين تجربة ومعاناة العالم والوجيه والثائر، جملة طاقات وظّفت لصالح الثورة الإسلاميّة والجهاد ضدّ الفرنسيّين الغاصبين، في وقفة حسينيّة مشرقة، وبرهان ساطع على المسار الوحدوي في جبل عامل بين كافّة الفئات والطبقات، فالكلّ ينادي يحدوه الأمل والجهاد والهمّة العلويّة في صفوف متراصّة كما يقضي الواجب الإسلامي وكما تقضي التجربة العامليّة، إنّها سنّة الجهاد والثورة على الأرض العامليّة ضدّ الطغاة.

ومع شكرنا للذين كتبوا في هذا المجال والبحث، فنحن لا ندّعي التصدّر والفرادة في بحثنا المتواضع هذا، بقدر ما نريد أن نعمّم الفائدة؛ لأنّ مؤتمر وادي الحجير مؤتمر ومنتدى فكري وسياسي، ومدرسة تعليم ناهيك عن أنّه موقف وسلاح وكلمة حقّ أمام سلطان جائر ومستعمر غاصب.

١ ـ الظروف السياسيّة للمؤتمر، الظرف العامّ

انتهت الحرب العالميّة الأُولى ـ ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ـ بهزيمة السلطنة العثمانيّة، فنشأ وضع سياسي جديد على الساحة الشرق أوسطيّة خاصّةً بعد كشف اتّفاقيّة سايكس بيكو الاستعماريّة في العام ١٩١٦، أثر اندلاع الثورة البلشفيّة الروسيّة عام ١٩١٧، فكشرت كلّ من فرنسا وانكلترا عن أطماعهما لاقتسام تركة الرجل المريض، وقام مارك سايكس صاحب الاتّفاقيّة المشهورة يصرّح داخل باريس بالذات: «إنّ عالم ما قبل الحرب قد مات ولكن عالم ما بعد الحرب لم يولد»[١]، فتنكّرت الاتّفاقيّة لكلّ العهود والمواثيق مع الشريف حسين قائد ـ الثورة العربيّة ـ كما فشلت جهود الأمير فيصل إلى مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٩، حيث كان الشعور الاستعماري الفرنسي والإنكليزي فاتراً تجاه المطالب العربيّة، وفي مقدّمتها الاستقلال، وقد عبّر فيصل عن استيائه من المستعمرين بقوله: «إنّ انتداباً فرنسيّاً يعتبره الأهلون موتاً وهلاكاً للأمّة، فالانتداب يعني مقدم المستعمرين الفرنسيّين والجنسيّة الفرنسيّة كما أنّه يعني السيطرة الفرنسيّة»[٢].

وهكذا توالت الأحداث انتداب على سوريّا ولبنان والعراق وفلسطين، وصدور وعد بلفور المشؤوم سنة ١٩١٧، وولادة المشروع الاستيطاني الصهيوني، ثمّ الإنذار المباشر الذي وجّهه الجنرال غورو الفرنسي للملك فيصل، الذي أعقبه بغزو دمشق متنكّراً بذلك؛ للنداءات الدوليّة والإقليميّة والوطنيّة، فواجهه المسلمون العرب رغم تفاوت القوى، فكانت معركة ميسلون في ٢٤ تموز

١. الأُستاذ مسعود ضاهر، تأريخ لبنان الاجتماعي ١٩١٤ ـ ١٩٢٦، دار الفارابي، بيروت الطبعة الأُولى ١٩٧٤ ص ٢٩.

٢. الأُستاذ زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط، وولادة دولتي سوريّا ولبنان، دار النهار بيروت طبعة ٢ ١٩٧٧ ص ١٢٢.

عام ١٩٢٠[1]، هذه الأحداث المتتالية التي قام بها غورو ومن بعده، ويغفان وساري أدّت إلى انتفاضات شعبيّة داخل سوريّاً ولبنان، فقد اعترف الفرنسيّون: «بأنّ سوريّا أصبحت فرنسيّةً بقوّة السلاح»، أمام هذا الواقع المرير كان لابدّ للثورة أن تشتعل، وللمؤامرات أن تعقد تنديداً ومناهضةً للانتداب الفرنسي، فكثرت الاغتيالات السياسيّة في القادة الفرنسيّين وأذنابهم المحلّيّين المتعاطفين معهم، كما انتشرت عصابات الثوّار، وكان أبرزها في لبنان والسبّاقة فيه عصابة أدهم خنجر، وصادق الحمزة، ومحمود بزي[2]، فجنّ جنون المستعمر وكثرت فتنه وأضاليله.

٢ ـ الظروف السياسيّة العامليّة المباشرة للمؤتمر

رفض العامليّون الانتداب منذ إعلانه على لسان غورو في ٣١ آب سنة ١٩٢٠ كما رفضوا مقرّرات سايكس ـ بيكو سنة ١٩١٦ وكافّة المقرّرات السياسيّة الاستعماريّة، ولكن يكتفوا بالرفض بل حاربوا أيضاً بالكلمة والبندقيّة، ومعارك أدهم خنجر، وصادق الحمزة في عمليّة القنيطرة[3] والخردلة والمصيلح مشهورة، هؤلاء الثوّار، تعاونوا مع كافّة الحركات والانتفاضات الشعبيّة المقاومة للاستعمار في فلسطين، أو سوريّا ولبنان، فكانوا في البقاع مع حركة ملحم قاسم، وآل جعفر، ودندش، وحمادة، وعشائر الجيش الوطني في بعلبك والهرمل ضدّ الفرنسيين، والموالي للوحدة السوريّة، وإذا كان هناك من دواع مباشرة ومسوّغات عمليّة لمؤتمر وادي الحجير، فإنّها على علاقة بالمسائل والقضايا

١. زين زين، المصدر نفسه ص ١٦٩ ـ ١٧٦، راجع أيضاً الأستاذ. وجيه كوثراني في الاتّجاهات الاجتماعيّة السياسيّة في جبل لبنان، والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠ معهد الإنماء العربي ط ٣، ١٩٨٢ ص ٣٤٠.

٢. مسعود ضاهر تأريخ لبنان الاجتماعي مصدر سابق ص ٤١.

٣. في ٢٢ حزيران ١٩٢١ جرت محاولة في القنيطرة لاغتيال الجنرال غورو؛ حيث قتل فيها مرافقه الكابتن «مورنه». راجع مسعود ضاهر تأريخ لبنان الاجتماعي ص ٨١ مصدر سابق.

التي سبقتها[١] وإن كانت التحرّشات الفرنسيّة المفتعلة في عين إبل، ودير ميماس، وغيرها من المناطق المسيحيّة، هذه الفتن والنعرات الطائفيّة التي أثارتها الحملة الإعلاميّة الفرنسيّة المسعورة بحقّ الثوّار المجاهدين قد حصرت أعمال التخريب والاغتيالات بالانتفاضة الشعبيّة ضدّ الاحتلال؛ للفصل بينها وبين جماهيرها من ناحية، ولدبّ النعرات الطائفيّة من ناحية أُخرى[٢] في صفوف الطوائف لخدمة المصالح الفرنسيّة والمشاريع الاستعماريّة تحت شعار«فرّق تسد»، فمسألة عين إبل وما نجم عنها من اتّهامات بحقّ المجاهد محمود بزي ما هي إلّا تلفيقات فرنسيّة لتشويه العمل الجهادي في جبل عامل وما روته لسان الحال ومجلّة البشير والإعلام المتواطئ مع الاستعمار ما هذه إلّا مآرب رخيصة وانتهازيّة دنيئة ضدّ الوطنيّين الأحرار[٣].

هذه الأسباب والعوامل على الأرض العامليّة دفعت العلماء والقادة السياسيّين بأن يتلاقوا ويتشاوروا لتوظيف الطاقات والاطّلاع على أحوال البلاد ومتابعة الجهاد ضدّ الفرنسيّين؛ وللتدارس في جملة التطوّرات والقضايا المستجدّة على الساحة العامليّة، فوجّهت الدعوة للعلماء والأعيان والمفكّرين لعقد مؤتمر عاملي من أبناء الشيعة على رأس نهر الحجير ـ وهو مكان يتوسّط البلاد العامليّة ـ واقع على بعد خمسة عشر ميلاً من النبطيّة لجهة الجنوب، وعيّن له يوم السبت في ٥ شعبان سنة ١٣٣٨هـ و٢٤ نيسان سنة ١٩٢٠م»[٤] ولأهميّة المؤتمر ومكانته وظروفه السياسيّة

---

١. لقد فصّلنا هذه الأُمور بالوثائق والمصادر التأريخيّة، راجع بحوثنا في هذه المواضيع على صفحات العهد ـ حيث كان التعاون قائماً مع السلطان باشا الاطرش، ومع عزّ الدين القسّام في ثورته الأُولى عام ١٩٢٠ وكافّة حركات التحرّر آنذاك ـ الباحث.

٢. محمّد جابر آل صفا، تأريخ جبل عامل ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

٣. راجع البشير ١١ أيلول ١٩١٩. راجع أيضاً رسالة الياس صادر، ثورة الشيعة سنة ١٩٢٠، حيث يعطينا تفصيلات مهمّة عن علاقة عين إبل بالفرنسيّين.

٤. محمّد جابر آل صفا، تأريخ جبل عامل ص ٢٢٦.

الهامّة هبّ كبار العلماء والزعماء والأعيان والثوّار وغالبيّة السواد الأعظم من مدن وقرى جبل عامل، فتمثّلت فيه بلاد بشارة الشماليّة والجنوبيّة في موقف وحدوي ضدّ المستعمر الفرنسي الغاصب[١].

٣ ـ الدور العلمائي في مؤتمر وادي الحجير

العلماء القادة الأبرار في كلّ ساحة من ساحات النزال، فجبل عامل لا زال يشهد بمواقف أبي ذر الغفاري ضدّ التسلّط الأموي، وللشهيد الأوّل والثاني ولكافّة العلماء الرافضين لتيار الظلم والاستعمار وأذنابه على الساحة العامليّة، من هنا كان العلماء في مقدّمة المدعوّين والسبّاقين للدعوة واستنهاض الأُمّة ضدّ الاستعمار الفرنسي[٢].

واستجابة لواجب الأُمّة بهذا الظرف العصيب، وخدمة للشعب وللحرّيّة فقد حضر المؤتمر كلّ من السادة العلماء: السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، وأمين سرّه السيّد عليّ شرف‌الدين[٣]، والسيّد عبدالحسين نور الدين، والسيّد عبدالحسين محمود، والشيخ حسين مغنية، والشيخ موسى قبلان، والشيخ يوسف آل فقيه والشيخ حبيب مغنية، والشيخ حسين سليمان، ومن الزعماء السياسيّين والوجهاء كامل بك الأسعد، وعبداللطيف الأسعد، ومحمّد التامر، ومحمود الفضل، والحاجّ إسماعيل خليل، والحاجّ عبدالحسين بزي، وعبدالحميد بزي، والحاجّ خليل عبدالله، وسعد الدين فرحات، وتوفيق حلاوة، وحسن مهنا، ومحمود مراد، ومن

---

١. منذر جابر، مؤتمر وادي الحجير وآثاره السياسيّة، رسالة كفاءة من الجامعة اللبنانيّة، كلّيّة التربية بيروت ١٩٧٣، رسالة غير منشورة ص ٦٢ ـ ٦٣.

٢. الشيخ محمّد جعفر آل إبراهيم، المقاومة الإسلاميّة وأصالة الجهاد في تأريخ جبل عامل، المنطلق العدد ٢٩، محرّم سنة ١٤٠٦هـ، ت ١ ١٩٨٥ ص ١٩ ـ ٢١.

٣. أحمد إسماعيل، من أحداث ١٩٢٠ في جبل مؤتمر وادي الحجير، العرفان م ٧٥ العددان ١ و٢، آذار ونيسان ١٩٨٧ ص ٩١.

المفكّرين والأدباء: الشيخ أحمد رضا، والشيخ سليمان ظاهر، والشاعر والأديب محمّد عليّ الحوماني، والمؤرّخ محمّد جابر آل صفا، ومن الثوّار القادة: أدهم خنجر، وصادق الحمزة، ومحمود بزي[١]. بهذا الحشد الفكري والسياسي والجهادي وقف جبل عامل وقفته الحسينيّة الرافضة ضدّ الانتداب الفرنسي ودعاته دعماً لقضيّة الحرّيّة والإنسان، والوحدة العربيّة والإسلاميّة[٢]. ويقول الدكتور عبدالله صفا بأنّ مؤتمر وادي الحجير تلبية للدعوة العربيّة ضدّ الفرنسيّين[٣]. ويتحدّث عنه السيّد جعفر شرف‌الدين بقوله:

«ومؤتمرالحجير حديثه ذوشجون، يذكر كلّما ذكر التنكّر للحقّ الذي تجهمّت له نفوس أقوام...، هوذا مؤتمر وادي الحجير الذي بيّض صفحة جبل عامل في تأريخ العزّة العربيّة، فكانت فخراً للحياة الحرّة...»[٤]. لقد خرج بمقرّرات جماعيّة، مؤيّدة للوحدة ومناهضة للاستعمار الفرنسي من هذه المقرّرات «أنّ المؤتمرين قرّروابالإجماع انضمامهم للوحدة السوريّة، والمناداة بجلالة الملك فيصل ملكاً على سوريّا، ورفض الدخول تحت حماية أوانتداب الفرنسيّين» كما انتخب السيّد العلّامة عبدالحسين شرف‌الدين، والسيّد عبدالحسين نور الدين للسفر إلى دمشق، لرفع القرار للحكومة السوريّة. لقد كان المؤتمر ضربةً قاصمةً للمستعمر الفرنسي، وخطوةً ثابتةً في طريق الوحدة، قطع الطريق على الفتنة عندما نادى بحصانة المسلمين والمسيحيّين على السواء، وطالب بتحقيق الأمن

١. أحمد رضا، مذكّرات للتأريخ مجلّة العرفان م ٣٢ ج ٧ ص ٧٣٤.

٢. عليّ عبّاس حرقوص، حاروف في النصف الأوّل من القرن العشرين، رسالة تأريخ دبلوم دراسات عليا ـ الجامعة اللبنانية ـ غير منشورة ١٩٨٧، ص ٢٧ راجع أيضاً حسن محمّد سعد، جبل عامل بين الأتراك والفرنسيّين، ص ١١٠.

٣. عبدالله حنا، القضية الزراعيّة والحركات الفلاحيّة في سوريّا ولبنان، دار الفارابي بيروت ١٩٨٧ ص ٣٦٨.

٤. كلام السيّد جعفر شرف‌الدين مقتضب اقتبسنا منه هذه المقاطع، راجع أحمد إسماعيل مؤتمر وادي الحجير مصدر سابق العرفان م ٧٥ ص ٩٣.

والعدالة والحرّيّة لجميع المواطنين، وبهذا يكون المؤتمر قد أفشل مخطّطات الدسّ والافتراء والتجنّي التي حاكها المستعمر ضدّ الثوّار والعامليّين، وأعطى براءته الواضحة من كلّ أعمال التخريب والتحرّشات بحقّ المجاهدين[١]. لقد كانت وقفة العلّامة السيّد عبدالحسين شرف‌الدين لا تقلّ أهميّة عن وقفة المرجع العلّامة السيّد الشيرازي في العراق ضدّ المستعمر الإنكليزي عام ١٩٢٠، حيث تذكر المصادر التأريخيّة الموثوقة بأنّ السيّد عبدالحسين شرف‌الدين كان العضو الأبرز وقطب رحى المؤتمر[٢]. ويمكن أن نتبيّن ذلك من خلال وقفاته الثوريّة داخل المؤتمر بنفسه حيث قال في كتابه صفحات من حياتي مايلي: «وفي اليوم الموعود كان وادي الحجير يستقبل ضيوفه من صفوة علماء جبل عامل وأُسوده ووجهائه وأعيانه، وكان يضيق بالرايات، ويدوّي بالهتافات، وكأنّما «عاملة» بعثت من جديد.

أقبلناوالجمع كامل مستتب، وانحزنا إلى صفّ العلماء والزعماء، نداولهم الرأي، ثمّ وقفت في ذلك الجمع المشهود، وتكلّمت في الأزمة ووسائل تفريجها من العراقيل التي تخذل قضيّتنا، وتدلّ على عدم كفايتنا لما نطلبه، ثمّ أقسمت اليمين، وأخذتها على العلماء والزعماء أن نتضامن على حفظ الأمن والحرص على سلامة النصارى بوجه خاصّ...»[٣].

للحوماني أقوال مشهودة في مؤتمر وادي الحجير ذات دلالة واضحة على أهميّة

---

١. محمّد جابر آل صفا، تأريخ جبل عامل، ص ٢٢٦، كما فاتنا أن نذكر حضور الشيخ عزّ الدين عليّ عزّ الدين، المصدر نفسه ص ٢٢٦.

٢. محمّد عليّ الحوماني ـ مجلّة العروبة ـ م ١ عدد ٢٠، عام ١٩٣٤ الصادر في ١٥ رمضان ١٣٥٢ هـ ٢٢ كانون الأوّل ١٩٣٤. راجع زاهية قدورة تأريخ العرب الحديث، بصدد فتوى الشيرازي، دار النهضة العربيّة ١٩٧٥ ص ١٣٧.

٣. أحمد إسماعيل، من أحداث ١٩٢٠ في جبل عامل، العرفان م ٧٥ ١٩٨٧ العددان ١ و ٢، مصدر سابق ص ٩٦.

الزعامة الدينيّة وتلاقيها مع الزعامة السياسيّة. في هذا المؤتمر الوحدوي يقول الحوماني مخاطباً السيّد عبدالحسين شرف‌الدين: « هل أحسست من هذه الجموع آنذاك من يردّ لك كلمة أو يعصي لك أمراً؟ كلّهم كان مذعناً خاضعاً بين يديك، يتّخذ قولك الحدّ الفاصل بين الحقّ والباطل. ولو شئت أن ترمي بهم في البحر لما عصو لك أمراً...»[1]. ومن خلال هذا الخطاب السياسي تبرز مكانة وأهميّة العلماء، ودور السيّد عبدالحسين شرف‌الدين في توجيه مسار الثورة والجهاد ضّد المستعمر الفرنسي[2].

وفي مديح آخر يقول الأديب الحوماني: «لقد شهدته بنفسي ورأيت كلّ عالم وزعيم ورده دون أن يحسّ الحضور بوروده لكثرة ما ازدحم فيه من الخلق، حتّى إذا أوشكت ركابك أن تحلّ به، حسبنا أنّ الأرض قد تزلزلت والسماء أطبقت علينا، ولمّا تكشف هذا الرهج المعقود فوق الوادي برزت من تحته كالبدر ينشقّ عنه الغمام ليلة تمّه، وإذا بالقسطل المعقود فوقك تثيره سنابك الخيل المحدقة بك، وإذا بالرعود القاصفة تبعثها البنادق والحراب المشرعة حولك، لم يبق في الوادي فرد لم يهرع إلى استقبالك ويتشوّف إلى ركبك، ولمّا جلست في خيمة العلماء حفّوا بك، وتهافت الحفل المحشود عليك، كلّهم يحدق بك ويستمع إليك، وأنت مندفع تخطب كالسيل، تبعث في نفوسهم الحميّة، وتحرضهم على الجهاد في سبيل الحقّ»[3].

---

١. منذر جابر، مؤتمر وادي الحجير، رسالة كفاءة، ١٩٧٣ الجامعة اللبنانيّة ص ٣٦، راجع أيضاً مجلّة الباحث العددين عشرين وواحد وعشرين السنة الرابعة ص ١٠٣.

٢. حول دور العصابات والجهاد ضدّ الفرنسيّين، راجع أمين سعيد، الثورة العربيّة الكبرى، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة بدون تأريخ ص ١٠٦ وما بعدها، وراجع أيضاً سليمان موسى، الحركة العربيّة الطبعة الثانية، دار النهار بيروت ١٩٧٧ ص ٥٢٩، وهاني فرحات الثلاثي العاملي في عصر النهضة الدار العالميّة ١٩٨١ ص ٤١.

٣. أحمد إسماعيل، أحداث ١٩٢٠، ومؤتمر وادي الحجير، العرفان م ٧٥ / ١٩٨٧، مصدر سابق العددان ١ و ٢ ص ٩٦، راجع أيضا العروبة العدد عشرون ١٩٣٤ لصاحبها محمّد عليّ الحوماني.

هذه الحرارة في الانفعال والحماس والتقدير للزعامة الدينيّة المتمثّلة بشخصيّة السيّد عبدالحسين شرف‌الدين تعطينا صورةً واضحةً عن دور العلماء الفعّال في إدارة الثورة، والمقاومة الإسلاميّة ضدّ الانتداب الفرنسي، وتقطع دابر ألسنة الشحّ، وتبتّر الأقلام المأجورة، وتدحض الأعلام المضادّ؛ لأنّ الحقّ لا يؤخذ إلّا من مصادره والأحداث لا تروى إلّا على ألسنة الثقة والمعاصرين وأرباب الكلمة المسؤولة بعيداً عن التأويلات والتخرّصات وأوهام الأضاليل والانتهازيّين، فيختلقون البهتان الممزوج بالسمّ و العسل، ويبالغون في تزيينها للناس كما يزيّن لهم الشيطان أعمالهم.

ويؤكّد السيّد عليّ شرف‌الدين أمين سرّ السيّد عبدالحسين شرف‌الدين في رسائل ومسائل أنّ السيّد عبدالحسين شرف‌الدين قال ـ للمؤتمرين في جبل عامل الكثير ومن خلال المؤتمر نقتبس من أقواله ـ:

«ألا وإنّ جبل عامل بعد هذا المؤتمر بين أمرين: إمّا عزّ لا تنفصم عروته ولا تقرع مرّته، أو ذلّ تتهاوى معه كواكب السعد، وتقوّض به سرادق المجد.

فإن نبذتم الأهواء الشخصيّة، وآثرتم شرف القضيّة، فستكونون في حرز لا يفصم، وتكون بلادكم في حمى لا يقحم، أمّا إذا غلبكم الهوى فلتكوننّ مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، أمام قوّة العدوّ، وشدّة الفتن، وتظاهر الزمان.

فوّتوا على الدخيل الغاصب ـ برباطة الجأش ـ فرصته، واخمدوا بالصبر الجميل فتنته؛ فإنّه والله ما استعدى فريقاً على آخر إلّا ليثير الحرب الأهليّة، ويشعل الفتنة الطائفيّة، حتّى إذا صدق زعمه، وتحقّق حلمه استقرّ في البلاد تعلّة حماية الأقليّات.

ألا وإنّ النصارى إخوانكم في الله، وفي الوطن، وفي المصير، فأحبّوا لهم ما تحبّونه لأنفسكم، وحافظوا على أرواحهم وأموالهم، كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم، وبذلك تحبطون المؤامرة، وتخمدون الفتنة، وتطبّقون تعاليم دينكم وسنّة

نبيّكم، إنّ هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية ويأبى إلّا الاستقلال التامّ الناجز»[١].

ولأهميّة هذا الموقف الشجاع ضدّ الفرنسيّين أدرك الفرنسيّون خطر الكارثة عليهم من العلماء، فزحفوا بآلياتهم العسكريّة على بلدة المجاهد السيّد عبدالحسين شرف‌الدين ـ شحور ـ الصامدة، فأحرقوا بيته، ونكّلوا بأُسرته وعائلته، ونهبت مكتبته، وما زادته هذه الحوادث إلّا إيماناً وصلابةً وهجوماً على المستعمرين فراح يطاردهم أينما كان، وارتحل في جبل عامل أو في غيره.

إنّه الجهاد والواجب الرسالي ضدّ المستعمر[٢]، وبهذا الموقف العلمائي الذي سجلّه العامليّون ضدّ مشاريع التجزئة والتفتيت رغم الإغراءات الاستعماريّة المزيّفة تحت اسم الوصاية والحماية والانتداب، ما كانت لتنطوي على العامليّين، فحاربوا مشروع التقسيم كما حاربوا الفتن والنعرات الطائفيّة التي أوغل المستعمر الفرنسي في نشرها بين المواطنين، وحضنوا المسيحيّين كحضانتهم لأبناء طائفتهم، فالكلّ واحد يحمي جبل عامل، لا فرق بين طائفة وأُخرى، كما نصّ بذلك خطاب السيّد عبدالحسين شرف‌الدين، وكما وقفت مدينة «النبطيّة» أثناء استقبالها للنصاري الفارّين من «جديدة مرجعيّون» في ٨ كانون الثاني عام ١٩٢٠[٣]، إنّها وقفات عامليّة جبّارة ضدّ المستعمر الصليبي الفرنسي الحاقد أفسدت عليه مخطّطاته وتحرّشاته، فالسيّد عبدالحسين شرف‌الدين كان مفوّضاً عامليّاً بكلّ مقاطعاته الشماليّة والجنوبيّة من بلاد بشارة، فكلامه كلام العلماء والأعيان والوجهاء السياسيّين، وكلام السواد الأعظم، ولا نغالي بذلك بعد قراءتنا لنصوص الأديب الحوماني، ومن خلال تفويض المؤتمر له، هذا العمل كان الأسّ الرئيس في مسألة

---

١. من دفتر الذكريات الجنوبيّة للسيّد جعفر شرف‌الدين. الدكتور هادي فضل الله الفكر الديني والسياسي لدى السيّد عبدالحسين شرف‌الدين ٢٢، راجع أيضاً العرفان م ٧٥ العددين ١ و٢ ص ٩٧ [وأيضاً تقدّم في ص١٧٨ ـ ١٧٩ من هذا المجلّد].

٢. المصدر نفسه أحمد إسماعيل، أحداث ١٩٢٠ ومؤتمر وادي الحجير العرفان م ٧٥ ص ١٩ ـ ٩٠.

٣. محمّد جابر آل صفا تأريخ جبل عامل، ص ٢٢٧.

المقاومة الإسلاميّة في مطلع القرن، ولا أُريد أن أدخل في متاهات التسميات مقاومةً وطنيّةً وغيرها فالكلّ ضدّ العدوّ.

إنّ دور العلماء ضدّ الفرنسيّين هو دور واحد سواء في مؤتمر وادي الحجير أو في خارجه[1].

فهذا الشيخ أحمد رضا أُبعد عن بلدته النبطيّة بسبب مهاجمته ومقارعته الانتداب الفرنسي سنة ١٩٢٠، وقد واجه المستعمرين بكلّ جرأة ودونما خوف، ومن أقواله أمام الكولونيل الفرنسي «شاربنتيه» عندما استدعاه هذا الأخير مع أخيه في الجهاد الشيخ سليمان ظاهر، بسبب تأييدهما القضيّة العربيّة ضدّ الفرنسيّين، أجاب الشيخ أحمد رضا بكلّ اعتزاز و فخر على «شاربنتيه» بعد أن اتّهمه بالنصرة للعرب وحذّره من معاداة فرنسا، أجابه الشيخ أحمد: «نعم إنّنا نؤيّد حكومة الشام العربيّة ونعمل لها، فنحن لاننكر بأنّنا عرب قبل كلّ شيء، وأنّنا سوريّون نحبّ وطننا، وآمالنا كلّها استقلاليّة بحتةً، ولنا بذلك الفخر، نعم إنّنا ونحن شعب عربي سوري نتمنّى أن تكون حكومتنا عربيّةً سوريّةً، هل ترضى أنت الفرنسي أن يحكمك غير الفرنسيّين؟...»[2].

ويتابع الشيخ أحمد رضا ليكرّس دور الطائفة الشيعيّة في مقارعة الاستعمار الفرنسي فيقول إنّ الطائفة الشيعيّة أظهرت ميلها الاستقلالي فبايعت الأمير فيصل، ولكن هذا الحقّ وهو حقّ حرّيّة المعتقد والمبدإ، لم يرض الحكومة وأتباعها فبالغوا في الأمر، ونسبوا كلّ ما جرى على نصارى جبل عامل إلى الشيعة.

وردّاً على موقف غورو في «دير البلند» حيث مدح فيه الصليبيّين بناة الدير الذي قاوم، يقول الشيخ أحمد رضا: «لست أدري ماذا أراد حضرة الجنرال بهذا التبجّح

---

١. المصدر نفسه ص ٢٢٦، من أراد التوسّع في دور العلماء والمجاهدين في مؤتمر وادي الحجير، راجع عبدالله حمود، في مقالة حول السيّد عبدالحسين شرف‌الدين رجل الفكر والجهاد، المنطلق العدد التاسع جمادي الأُولى ١٤٠٠هـ ص ٥١ وما بعدها.

٢. أحمد رضا، العرفان مجلّد ٣٣ ص ٢٥٢.

للصليبيّين!!؟ هل جاء ليتمّم ما بدأ به الصليبيّون من اغتصاب هذه الأقطار من أيدي أهلها. فإن كان ذلك فهو يثير حفائظ العرب في هذا الشرق المنتدب عليه، وهم لا ينسون جهاد آبائهم في ذودهم الصليبيّين عن وطنهم...»[١].

وما ينطبق على دور الشيخ أحمد رضا والعلماء المسلمين ضدّ الصليبيّين الفرنسيّين الجدد ينطبق عمليّاً في معرض الإثبات، والقول على الشيخ سليمان ظاهر وسائر العلماء العامليّين، فهو يعتبر أنّ الانتداب بدعة استعماريّة، هدفها امتصاص خيرات البلاد وإفقارها، وطمس حريّاتها بالحديد والنار، وله في ذلك أسفار كثيرة، ومقالات توضّح فكرته وأهدافه ومحاربته للفرنسيّين بالتوعية والثورة ضدّهم.

وله أشعار يخاطب فيها لويد جورج منها:

فقل للويد جورج أضعت عهداً   لقوم آثروك على القريبِ
زعمتم أنّ ما أملاه بيكو   وسايكس محوه أحد الذنوبِ
فأرخصتم على السوم البرايا   وتاجرتم بأرواح الشعوبِ[٢]

وحديثنا عن دور العلماء ضدّ الفرنسيّين يحتاج إلى مجلّدات فالجميع كان له دور المحاربة والمعارضة وتنوير الساحة، بدليل تأييدهم وحضورهم مؤتمر وادي الحجير، ومن لم يسعفه الحظّ في الحضور كان من المؤيّدين دونما معارضة، فالوقفة العلمائيّة المشرّفة في البشارتين الشماليّة والجنوبيّة دليل ساطع على حضوريّة الجهاد العاملي بطابعيه الإسلامي والعربي ضدّ المستعمر الصليبي الجديد، وما استشهادنا ببعض المواقف إلّا تدليلاً على صحّة ما نقول.

جريدة العهد العدد ٢٧٧ / ١٣ تشرين الأوّل / ١٩٨٩
والعدد ٢٧٨ / ٢٠ تشرين الأوّل ١٩٨٩

---

١. أحمد رضا، مجلّد ٣٢ ص ٣٥٩ للتوسّع، راجع هاني فرحات الثلاثي العاملي ص ٥٣.
٢. العرفان مجلّد ٣٣ ص ٩٤٤، راجع أيضاً هاني فرحات الثلاثي العاملي في عصر النهضة، الدار العالميّة ص ١٢٥-١٢٧.

نظرة في الجذور التأريخيّة للمقاومة الإسلاميّة

قتال من أجل العقيدة

الأُمّة الثائرة تارةً تقاتل بدافع من عقيدتها ومبدئها، وأُخرى تقاتل بدافع من مصلحتها دون أن يكون للعقيدة ـ أي دور في حركة نضالها ـ، وعلى أرض الجنوب في جبل عامل هناك أُمّة تقاتل عدوّاً منذ أعوام خلت، وما زالت حتّى الآن تدفع الأثمان الغالية في هذه المعركة التي تخوضها ضدّ هذا العدوّ الذي أحرق الأرض والإنسان معاً.

والسؤال الذي يطرح نفسه أنّه ما هي حقيقة هذه الأُمّة وجذورها، لنكشف ونستكشف من خلالها حقيقة المقاومة وجذورها؟

أوّلاً: ببساطة وسطحيّة أم بعمق وموضوعيّة؟ لم نجد ولم نر حتّى الآن عقيدة تسود الحياة في جبل عامل سوى عقيدة الإسلام وشريعته، ومعالم هذه العقيدة تتجلّى لكلّ ناظر حينما يدخل إلى القرية أو المدينة، ويرى المآذن الشامخة في عنان السماء، والنوادي الحسينيّة الثابتة في حضن كلّ بلدة الضاربة قواعدها في تخوم الأرض منذ ألف عام، ويرى سلوكيّة الإنسان في هذه الأرض، لا تنفصل في خصوصيّاتها ولا تبتعد بعموميّاتها عن مبادئ هذه العقيدة وأحكام شريعتها.

ثانياً: ومن العناوين المبدئيّة الأُولى في عقيدة الإسلام رفض الظلم بكلّ أشكاله، ويدعو إلى مواجهته مهما استلزمت من بذل وتضحية، ومهما كانت هويّة الظالم ونوعيّته ـ أي مسلماً كان أم علمانيّاً ـ لذلك كان للأُمّة في جبل عامل ـ بشكل خاصّ وفي لبنان بشكل عامّ ـ تأريخ طويل وكبير حافل بالثورات والنهضات ضدّ الظالمين، سواء على من حمل منهم هويّة الإسلام أم غيرها في مواجهة ظلم الدولة العثمانيّة.

في مواجهة ظلم الدولة العثمانيّة

ففي حوالي سنة ١٩١٣ م كانت الأمّة في جبل عامل حاضرةً بكلّ قوّتها وسلاحها بكلّ كوادرها ورجالاتها، علماء ومتعلّمين، أساتذة وفلّاحين، وهي تقف في وجه الدولة العثمانيّة المسلمة؛ نظراً لظلمها وجورها، وإجحافها في حقوق الأمّة في جبل عامل، واستمرّت المواجهة ضدّ الدولة العثمانيّة رغم محاولات الخنق وممارسات القمع والإرهاب، ورغم المجازر والجرائم التي تمثّلت بالتصفيات والإعدامات العلنيّة التي قامت بها الدولة العثمانيّة على رؤوس الأشهاد؛ لإسكات الصوت العاملي الصادق الذي كان يطالب بحلول العدالة مكان الظلم والمساواة محلّ التمييز. ولقد كان العمود الفقري للنهضة ضدّ الدولة العثمانيّة العميد السياسي والديني للمسلمين في لبنان السيّد عبدالحسين شرف‌الدين ـ رضوان الله عليه ـ فتحمّل مع الأحرار كلّ أعبائها وعنائها وقساوتها، من اعتقال وطرد وتشريد.

في مواجهة الغزاة الفرنسيّين

وانكفأت الدوله العثمانيّة من جبل عامل، وحلّ مكانها الجيش الفرنسي البغيض، وابتلي المسلمون عامّةً وفي عامل بشكلّ خاصّ، بفساد الفرنسيّين وظلمهم في شتّى المجالات؛ لذلك عقد العامليّون العزم من جديد، واستأنفوا حالة المقاومة والمواجهة معهم على غرار السابق، بهدف تحرير الأرض والإنسان من نير استعمارهم واستعبادهم، وعاد رأس الحربة وساعد المقاومة السيّد عبدالحسين شرف‌الدين إلى الواجهة من جديد، حتّى اشتعلت بمواقفه الجهاديّة نيران الثورة، فغلت القلوب بزفيرها، وحمي الوطيس بلهيبها، والدماء بأوارها، وبدأت المقاومة بمعنويّة عالية وبروحيّة مستميتة، وكان لصادق حمزة وأدهم خنجر وإخوانهما الأبطال صولات وجولات ـ هؤلاء الذين يعتبرهم التأريخ الماروني اللبناني لصوصاً وقطّاعاً للطرقات ـ إلى أن شعر الفرنسيّون وأدركوا بأنّ الأرض في عامل ولبنان لا يمكن أن تحملهم وتستسيغهم قطّ؛ لأنّ أخلاقهم تتناقض مع أخلاق أهل الأرض في عامل،

وعقائدهم تختلف عن عقيدتهم، ولغتهم مضادّة للغتهم، ووجودهم معاكس لوجودهم.

لذلك توجّه الفرنسيّون بدافع الانتقام والثأر من الأُمّة نحو دار المجاهد السيّد عبدالحسين شرف‌الدين رمز النهضة، وعنوان المقاومة؛ لا عتقاله وإعدامه، لكن بحراسة الله استطاع السيّد أن يخرج من قريته ويبتعد عن الأنظار، خصوصاً بعد ما قرّر الفرنسيّون قمع النهضة بكلّ الوسائل والأساليب، حتّى ولو أدّى ذلك إلى إيقاع المجازر بحقّ المسلمين في عاملة.

خرج من عاملة ونفسه توّاقة للعودة إليها سريعاً. خرج منها حفاظاً على أهلها من الذبح من محتلّ متغطرس بالإجرام وسفك الدم، يكره الإنسان والكتاب والحرّيّة، وأكبر دليل على ذلك حينما اقتحموا داره في قريته فأحرقوا مكتبته بأسرها، وانحدروا نحو مدينة صور إلى بيته أيضاً فأحرقوا مكتبته الثانية التي حوت عصارة حياته الفكريّة؛ حيث كانت تحوي ما يقرب العشرين مؤلّفاً مخطوطاً جاهزاً للطباعة.

وتغييب السيّد شرف‌الدين ـ رضوان الله عليه ـ عن الأرض وإبعاده عن الأُمّة، زادها صلابةً وتصميماً واندفاعاً في معترك صراعها ومقاومتها للاحتلال الفرنسي، حتّى استطاعت أن تجبره كرهاً وقسراً أن ينسحب جارّاً وراءه أذيال الخيبة والذلّ والمسكنة.

وفي غضون تلك الأيّام أرسل الملك فيصل الهاشمي هديةً للسيّد شرف‌الدين رحمه الله يُعبّر فيها عن مدى سروره وتأييده للثورة والمقاومة، فأجاب السيّد رحمه الله بعدما ردّ الهدية ـ وهي عبارة عن خمسة آلاف دينار من الذهب ـ بقوله: «نحن لم نثر على القوم من أجل المال، ولكنّها عقيدة دينيّة نستجيب لها كلّما خشينا على تراث محمّد أن يصاب...».

وبعد رحيل العثمانيّين والفرنسيّين أُصيبت الأُمّة بظالم جديد سلب ثروتها، ونهب خيراتها، وحكمها بالحديد والنار، وحاول مراراً وتكراراً أن يسلخها عن رسالتها، وأن يقطعها عن عقيدتها، ولكن ما استطاع لذلك سبيلاً [إنّهم الموارنة، الحكّام الجدد].

جريدة العهد، بيروت، الجمعة ١٩ رجب ١٤٠٩

إطلالة على جذور المقاومة في جبل عامل

رجال الدين ودورهم في عمليّة المقاومة في جبل عامل

منذ فجر البشريّة، تعيش الأمم ضمن وحدات اجتماعيّة وحدود متعارف عليها دوليّاً، بحيث لا يحقّ لأحد تجاوز هذه الحدود بالقوّة؛ لأنّ في ذلك انتهاك لكرامة الجماعة المتواجدة ضمن تلك الحدود، والمتعارف عليها باسم «الدولة».

وجبل عامل ـ جنوب لبنان ـ هو جزء من دولة اسمها لبنان، تعيش فيه جماعات بشريّة تنتمي غالبيّتها إلى الطائفة الإسلاميّة الشيعيّة؛ ولعلّ مردُّ ذلك وحسب ما يروي لنا التأريخ: أنّ قبيلة تدعى «عاملة» وهي مسلمة، استوطنت تلك الجبال لجودة مناخها وهضابها ومياهها، فأُطلق على تلك المنطقة اسم «جبل عامل» نسبةً إلى تلك القبيلة «عاملة».

وأكبر شاهد على ما نقول هو ما تراه العين عند دخولك أيّة قرية حيث تشاهد المآذن الشامخة، وتسمع أصوات الله أكبر، أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّداً رسول الله، تتردّد في كلّ مكان من القرى.

وبرغم الأكثريّة الإسلاميّة في «جبل عامل» فإنّ هذه الأكثريّة عاشت ومنذ عدّة قرون شتّى أنواع الظلم والاستغلال والقهر.

ففي حوالي سنة ١٩١٣ م كانت الأمّة في جبل عامل حاضرةً بكلّ رجالاتها علماء ـ رجال دين ـ ومتعلّمين وأساتذة وفلّاحين، فوقفت في وجه الدولة العثمانيّة؛ نظراً لظلمها وجورها في حقوق الأمّة في «جبل عامل» واستمرّت المواجهة ضدّ الدولة العثمانيّة، رغم محاولات الخنق وممارسات القمع والإرهاب، ورغم المجازر والجرائم التي تمثّلت بالتصفيات والإعدامات التي قامت بها الدولة العثمانيّة بحقّ المواطنين المسلمين العزّل من السلاح؛ وذلك

لإسكات صوتهم الذي كان يطالب بحلول العدالة والمساواة مكان الظلم والتمييز.

وكان لرجال الدين الدور الكبير في قيادة حركة الثورة، والتمرّد ضدّ حركة الظلم والحرمان، وكان السيّد الجليل عبدالحسين شرف‌الدين من أوائل الذين وقفوا أمام الحكم العثماني، ثمّ الحكم الفرنسي حيث كان له مع الفرنسيّين سجال فيه كرٌّ وفرٌّ.

فبعد قدوم الفرنسيّين إلى جبل عامل عام ١٩١٨ م أخذ الحكم الفرنسي ينكل بالسكّان، ويفرض عليهم ضرائب تفوق إنتاجهم، ولم يراع في ذلك حالة الجوع والضعف التي كانت مستشريةً آنذاك، بل زاد المسلمين في جبل عامل جوعاً وذلاً من خلال المعاملة السيّئة التي كان يمارسها بين السكّان.

ولم يع الفرنسيّين حقيقةً مهمّةً في «جبل عامل»، وهي العقيدة والفطرة الإسلاميّة التي تمثّل عند الفرد المسلم النواة المقدّسة التي لا يرضى أبداً أن يمسّها أحد بسوء.

وعندما نهض السيّد عبدالحسين شرف‌الدين لمقاومة الحكم الفرنسي وقف معه عدد كبير من رجالات وعلماء جبل عامل؛ لأنّهم وجدوا فيه الروح الإسلاميّة التي تقاوم من أجل الوصول إلى الحرّيّة والرفعة والكرامة، فساندوه، لكنّ الفرنسيّين المحتلّين أذاقوا السيّد شرف‌الدين ألوان القهر والتنكيل، وتعرّضوا لأتباعه ومؤيّديه ممّا جعله يترك جبل عامل نحو سوريّا فالأُردن فمصر ثمّ لبنان، وخلال إبعاد السيّد شرف‌الدين قامت حركات ثوريّة إسلاميّة، تحمل الإسلام الفطري، كحالة مقاومة ضدّ الظلم الفرنسي الممارس على المسلمين في «جبل عامل» فكانت هناك حركة صادق الحمزة، وأدهم خنجر اللذين أذاقا الاحتلال الفرنسي مرارة العيش والحياة، وبقيا يقارعانه حتّى أعدم أدهم، ونفي صادق خارج لبنان، ولم يخمد رجال الدين بل استمرّوا بتأجيج حمى الثورة والنار ضدّ الحكم الفرنسي القابض على لبنان وجنوبه قبضة الذئب على رقاب النعاج.

مجلّة الفجر، العدد ١٤، صفر ١٤١٠ / أيلول ١٩٨٩

مترجموه

ترجمه العلّامة المحقّق الحجّة الثبت الشيخ آقا بزرك الطهراني ﷺ في القسم الثالث من نقباء البشر ص١٠٨٠ وما بعدها فقال:

السيّد عبدالحسين بن السيّد يوسف بن السيّد جواد بن السيّدإسماعيل بن السيّد محمّد[1] بن السيّد إبراهيم الملقّب بشرف‌الدين الموسوي العاملي من كبار علماء المسلمين، وعباقرة الشيعة في هذا العصر.

مرّت الإشارة عند ذكر السيّد حسن الصدر[2] إلى أنّ آل شرف‌الدين وآل صدرالدين فرعان من أصل واحد، وغصنان من دوحة واحدة. وقد ظهر فيهما منذ السنين المتطاولة أساطين الدين، وأكابر الفقهاء، وأئمّة العلم. ولا تزال آثارهم ومآثرهم الجليلة غرّة ناصعة على جبين الدهر، ووسام شرف يتوارثه الخلف عن السلف. وقد فتح المترجم له لأسرته صفحةً جديدةً، وأضاف إلى مجدها بمفرده ما تقصر عن حيازة مثله الجماعة. فهو تأريخ حافل، ومأثرة تباهي به الأواخر الأوائل، وحقّ له أن يتمثّل بقول القائل:

وإن تك قد طابت أوائل أُسرتي فإنّي بحمد الله مبدأ سؤددِ

ولد في الكاظميّة سنة ١٢٩٠، ونشأ على أبيه، فتعلّم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم، ثمّ هبط النجف الأشرف، فحضر على الشيخ حسن الكربلائي والشيخ محمّد طه نجف، والشيخ محمّد كاظم الخراساني، وشيخ الشريعة الأصفهاني،

---

١. سها هنا فحذف اسم محمّد الأوّل بن شرف‌الدين [راجع تكملة أمل الآمل ٢٥٦، الرقم ٢٢٢].

٢. نقباء البشر ١: ٤٤٥، الرقم ٨٧٣.

ولازم حلقات دروسهم في الفقه والأصول، والحكمة والكلام، والتفسير والحديث، وغيرها حتّى سطع نجمه في الأوساط العلميّة، ورمق بعين الإعجاب والتقدير من قبل مشايخه الأجلّاء، وغيرهم من الأعلام.

وفي سنة ١٣٢٢ عاد إلى جبل عامل مزوّداً بإجازات الاجتهاد، واستقبله أهل بلاده والتفّوا حوله، فكان إمامهم المقدّم، ومرجعهم الجليل، وكان لصفاته الإنسانيّة من خلقه الرفيع وتواضعه الجمّ، ورحابة صدره، وعطفه وشفقته، وما هنالك من أصول الملكات، وجميل السجايا ما يحبّبه لعارفيه، ويرفعه في نظر جلّاسه وزوّاره، ويحلّه المكانة اللائقة به في نفوس الناس.

ولم يقصر جهده على العمل في نشر الأحكام، وهداية الأنام، بل كان قائداً موجّهاً، ومصلحاً اجتماعيّاً، وزعيماً وطنيّاً، وكان يوالي بذل الجهد من أجل خدمة مجتمعه، وإصلاح شؤونه، وقد ضحّى في هذا المجال بكلّ غال نفيس، كما خاض ميدان النضال ضدّ الحكّام الأجانب في عهدي الأتراك والاحتلال، وعرّض نفسه وأهله للمخاطر، حتّى صدر الحكم باغتياله، وهوجمت داره، وأُحرقت مكتبته، وأُتلفت فيها مؤلّفاته المخطوطة، وهكذا عمل في مختلف الميادين الإصلاحيّة، والحركات السياسيّة والوطنيّة، وكان في جميع ذلك من قادة الفكر، وزعماء الرأي، كما يشهد به تأريخ جبل عامل الحديث.

وكان من أكبر دعاة الوحدة الإسلاميّة، والتقريب بين المذاهب، وقد دعا إلى توحيد الصفّ وجمع الكلمة، وجنّد لذلك كلّ قابليّاته وامكانيّاته، وكان أوّل تآليفه في هذا الموضوع كتابه الجليل الفصول المهمّة في تأليف الأمّة، وقد فرغ من تأليفه في سنة ١٣٢٧، وهو من ذلك التأريخ حتّى آخر أيّامه كان يولي هذا الموضوع أكثر اهتمامه، ويسعى له سعياً حثيثاً، وفي سنة ١٣٢٩ هبط مصر، فاجتمع بعلمائها الأعلام، وعلى رأسهم العلّامة المنصف الشيخ سليم البشري ﷺ، شيخ الأزهر الشريف يومئذ، وعقدت بينهما اجتماعات متوالية، بحثا فيها أمّهات المسائل الخلافيّة في الكلام والأصول، واتّفقا على أن يضعا اللبنة الأولى لبناء الوحدة

الإسلاميّة؛ ليكون لهما شرف فتح هذا الباب، فتبودلت بينهما الرسائل العلميّة على شكل سؤال وجواب، وكان من نتائج ذلك العمل الطيّب كتابه «المراجعات».

ولمّا طغى سيل المدنيّة الغربيّة، واتّجهت جموع الناس إلى المدارس الحديثة التي لا تعني بالتربية الدينيّة، إن لم نقل تضعفها وتعدمها بالمرّة، فكّر في انقاذ من يمكنه انقاذه من هذه الهوة العميقة، ولمّا رأى أنّه لا يستطيع أن يوقف هذا التيار، أو يصدّ الناس عنه، قرّر فتح مدارس للبنين والبنات، تحفظ لهم عقائدهم، وتضمن لهم التربية الدينيّة إلى جانب التربية الزمنيّة وهكذا كان.

فقد شيّد المدرسة الجعفريّة التي نمت وتوسّعت وصارت الكلّيّة الجعفريّة، وذلك مشروع جليل، وعمل جبّار بنّاء، لا يتمّه إلّا الواعون والنابهون من العلماء.

وبالرغم من مرجعيّته واشتغاله بالخدمات المختلفة، وابتلائه بقضاء حوائج الناس لم يفته الأخذ بحظّه في عالم التأليف، بل تفوّق فيه على من تفرّغ له وانصرف إليه، فقد أفرغ في بوتقة التأليف عشرات الكتب القيّمة الرصينة، وقد حباه الله بمزايا كريمة، وخصّه بألطاف عديدة، وفضّله على كثير ممّن خلق تفضيلاً، فقد امتاز بذكاء خارق، وذهن وقّاد، وحيويّة متدفّقة، وتفوّق بسلامة الذوق، وبعد النظر، وقوّة العارضة، وكان له في الكتابة أسلوب خاصّ تميّز به عمّن سواه، واختصّ بالدراسات الشيعيّة، فوقف نفسه وقلمه لها، وغربل تأريخ الإسلام غربلةً دقيقةً، ميّز فيها غثّه من سمينه، ونخل حوادثه ووقائعه صغيرةً وكبيرةً فعرف الصحيح من المزيّف، والحقيقة الثابتة من الوهم والخيال، وقرأ الأحاديث المرويّة عن النبيّ ﷺ وأصحابه وأهل بيته عليهم السلام بأجمعها ممّا رواه الفريقان قراءة ضبط واتقان، حتّى كاد أن يستظهرها كلّها، ولقد أبان أموراً، وكشف حقائق لم يكن ليعرفها الكثير من العلماء، لو لم يبعثها قلمه الحرّ النزيه.

ورابط بعد ذلك على حدود الإسلام، حارساً أميناً للدين، وحساماً مشهوراً على رقاب المنحرفين، وجنديّاً مخلصاً يردّ عنه كيد أعدائه، ويوجّه النصح والإرشاد

إلى الضالّ والمغالط من أبنائه، وقد أدّى رسالةً عظيمةً قد يعجز عن تأديتها جيل بكامله، وأمّة بمجموعها.

وقد يرى البعداء من القرّاء مبالغةً في هذا القول، أو إغراقاً في الإطراء، ولكنّ الذين عرفوا المترجم له، وقرأوا كتبه يعلمون ما يقول جيّداً، ويعترفون به بإذعان، ولا أكون مبالغاً إذا قلت بأنّ المذهب الجعفريّ على ما هو عليه من حقّ وظهور ووضوح مدين للمترجم له، فقد نشره من جديد بأسلوب العصر، وخدمه بكلّ ما أُوتي من براعة وعبقريّة، فأظهر الحقّ، وأزهق الباطل، فنصره اللّه على أعدائه نصراً كبيراً، وفتح له فتحاً مبيناً ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[1] فهنيئاً له، وشكر اللّه سعيه، وأجزل أجره.

لقد كان المترجم له مأثرة من مآثر الوقت، وآية كبرى ازدهى بها العصر الحاضر، وحسب هذا القرن مفخرة أن ينبغ فيه مثل هذا العبقري الفذّ، وحسب عاملة أن تقلّ باحتها علماً خفّاقاً للدين، وسيفاً مشهوراً للهدى مثله من بقايا العترة الطاهرة عليهم السلام فلقد فاق أقرانه بثروة علميّة طائلة، وقوّة في العارضة وفلج في الحجّة، ورصانة في الأسلوب، وجودة في السرد، واهتداء إلى المغازي الشريفة، والدقائق البعيدة المرمى، والغايات الكريمة.

فماذا يقول الواصف فيه؟ أهو مجتهد فاضل؟ أم متكلّم بارع؟ أم فيلسوف محقّق؟ أم أُصولي ضليع؟ أم مفسّر كبير؟ أم محدّث صدوق؟أم مؤرّخ ثبت؟ أم خطيب مصقّع؟ أم باحث ناقد؟ أم أديب كبير؟! نعم هو كلّ ذلك.

أضف إليه أنّه ذلك المجاهد الدائب على المناضلة دون الدين، والمكافح المتواصل دفاعه عن المذهب الحقّ، تشهد له بذلك كلّه المحابر والمزابر، والكتب والدفاتر، والخطب والمنابر، وأعماله الناجعة، ومحاضراته البديعة، وحجاجه الدامغ.

وقد كانت بداية صلتي به في حلقة شيخنا الخراساني، ثمّ توثّقت بواسطة خاله الحجّة السيّد حسن الصدر ـ الذي لم يكن بيني وبين أحد من الصلة والأُخوّة مثل

---

١. الحديد (٥٧): ٢١.

ما كان بيننا حتّى سبقني إلى لقاء الله ـ وبعد عودته إلى بلده كانت العلاقة محفوظة، وكانت الرسائل متبادلة بيننا في مواضيع علميّةً وتاريخيّةً أحياناً، وعندما وقفت على كتابه المخطوط بغية الراغبين في مكتبة خاله الحسن، أبديت عليه بعض الملاحظات، وكتبت بعض التعاليق، وقد جمعها أخي الحسن‏ رحمه الله وبعثها إليه دون علمي، وقد تلقّيت منه على أثر ذلك رسالةً خاصّةً، تضمّنت الكثير من لطفه وأدبه النفسي، وبدأت بيننا صفحة جديدة، وتوثّقت الصلة أكثر من ذي قبل. وفي سنة ١٣٥٦ تشرّف لزيارة العتبات المقدّسة، وحلّ في النجف بدار ابن خالته الحجّة المرحوم الشيخ محمّدرضا آل ياسين ولا أزال أتذكّر حتّى الآن ساعة ورودي عليه، فقد كان يتصدّر المجلس، ويحفّ به كبار المجتهدين من العرب والعجم، وما إن وقعت عينه عليّ حتّى عرفني، رغم فراقنا أكثر من ثلاثين سنة، ووثب كالأسد واستقبلني خارج الغرفة ممّا لفت أنظار الحاضرين، وحمل البعض ممّن لم يكن يعرف صلتنا الوثيقة على الاستفسار عمّا اعتبره مبالغةً. ولمّا كتب الله لي حجّ بيته الحرام للمرّة الأولى في سنة ١٣٦٥ عدت إلى مصر فسوريّا ولبنان، وزرته في صور فتألّم للمفاجأة، وكان يرغب في إخباره مسبقاً ليقوم بما هو أهله وتقتضيه شهامته وأُخوّته من استقبال ونحوه، ممّا لم أعتد عليه طوال عمري، وفي تلك السفرة أطّلعت على آثاره المخطوطة، وما تمكّن من إعادته من مؤلّفاته التي تلفت في حادثة إحراق داره، وإجازاته في الاجتهاد من معظم مشايخه، ولم تزل الصلة تزداد بمرور الأيّام وثوقاً حتّى انتقل إلى رحمة الله، وتكاد مراسلاتنا خلال السنين الأخيرة تؤلّف مجلّداً.

وأرى أنّ الواجب يحتم عليّ، والمترجم له راقد في طيّات الثرى بجوار جدّه عليّ‏ عليه السلام، وأنا على أهبة السفر وجنح المسير، أكتب هذه السطور ويدي ترتعش أن أعترف له بالفضل العميم، وحسن الإخاء وصدقه، فهو من الأفراد الذين استمرّت صلات الودّ بيني وبينهم أكثر من نصف قرن، ولم تختلف سيرتهم عن سريرتهم، ولم تشب أُخوّتنا شائبةً، ورأيت منهم كلّ لطف وإكرام، ومثل هذه

الأُخوّة جديرة بالتقدير قمين بالخلود، وقد أشرت إلى كلّ منهم خلال ترجمته، كالسيّد حسن الصدر، والشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء، والسيّد حسين البروجردي[١]، والشيخ محمّد رضا آل ياسين، وغيرهم رحمهم الله وأجزل مثوبتهم.

قضى المترجم له حياة حافلةً بجلائل الأعمال، وعظيم المواقف، وخدمة الدين، حتّى انتقل إلى رحمة الله في بعض مستشفيات بيروت، يوم عاشر جمادي الثانية سنة ١٣٧٧، فخسر به المسلمون المؤمنون عظيماً من زعماء الطائفة، وعميداً من أكبر رجال الأمّة، وبطلاً من أشهر الأبطال، ورجلاً من أندر الرجال، وقد بقي مكانه شاغراً، وأحدثت وفاته في الدين ثلمة لا تزال تنتظر من يملأها، وقد نقل جثمانه الشريف إلى بغداد بالطائرة، يصحبه بعض أنجاله، ورهط من رجال لبنان البارزين، بعد أن شيّع في بيروت تشييعاً رسميّاً، وحمل على الرؤوس من بغداد إلى الكاظميّة، فدام تشييعه خمس ساعات، وجرى له من التعظيم والإجلال ما يليق بمقامه الرفيع، وخدماته الجليّ، ومواقفه المشهورة، ثمّ جرى له في كربلاء مثل ما جرى في بغداد والكاظميّة، واكتست النجف ثياب الحداد، وشمل طبقات

١. هو السيّد حسين بن السيّد عليّ بن السيّد أحمد بن السيّد عليّ نقيّ بن السيّد جواد ـ أخي بحر العلوم الطباطبائي ـ بن السيّد مرتضى بن السيّد محمّد بن عبدالكريم بن مراد بن شاه أسد الله بن جلال الدين بن الحسن بن مجد الدين بن قوام الدين بن إسماعيل بن عبّاد بن أبي المكارم بن عبّاد بن أبي المجد بن عبّاد بن عليّ بن حمزة بن طاهر بن عليّ بن محمّد بن أحمد بن محمّد بن أحمد بن إبراهيم طباطبا ابن إسماعيل بن إبراهيم الغمر بن الحسن المثنّى بن الإمام الحسن عليه السلام.

أسرته من أسر العلم الجليلة، ولد في بروجرد سنة ١٢٩٢، وهاجر إلى النجف الأشرف وحضر هناك حتّى تبحّر في الفقه والأصول والرجال وطبقات المحدّثين والرواة، ثمّ عاد إلى بروجرد، واشتغل بالتدريس والتصنيف ولمع اسمه، واتّجهت الأنظار إليه، ثمّ طلب منه جمع من علماء قمّ وطلّابها أن يحلّ بينهم، فأجابهم ووردها وتمهّدت له الأمور، وبعد وفاة آية الله السيّد أبو الحسن الأصفهاني رجع أكثر الناس إليه، فكان أكبر زعماء الدين، وأشهر مراجع التقليد، وصار يعيل أكثر من أربعة آلاف طالب في قمّ، كما قام بمهمّة كبيرة لسائر طلّاب العلم في النجف الأشرف وكربلاء والكاظمين وسامرّاء وغيرها من البلدان العلميّة، وله مؤلّفات كثيرة، توفّي سنة ١٣٨٠. انتهى ملخّصاً عن نقباء البشر ج ٢ ص ٦٠٥ وغيره [ولمزيد الاطّلاع على ترجمته راجع زندگانى آيةاللّه بروجردي لمؤلّفه عليّ الدواني، وزندگى آيةاللّه بروجردي لمؤلّفه واعظزاده الخراساني].

العلماء حزن عظيم، واستقبله الوجوه والزعماء وسائر الناس إلى منتصف طريق كربلاء، وحمل الجثمان على الرؤوس من مدخل المدينة، وأمامه المواكب الشعبيّة بأناشيدها الشجيّة، ودموعها السخيّة، وأعلامها السود، وأغلقت الأسواق والشوارع وهكذا، حتّى أودع في مقرّه الأخير، في الحجرة المجاورة لمقبرة السيّد كاظم اليزدي من جهة الجنوب من الصحن الشريف، وأُقيمت له الفواتح في مختلف البلاد الإسلاميّة، واستمرّت ليالي وأيّاماً، وقد أبّنه العظماء والعلماء ورجال الفكر، كما أُقيمت له حفلات التأبين في النجف وكربلاء والكاظميّة وبغداد وغيرها من مدن العراق، وفي طهران وأصفهان وغيرهما من بلاد إيران والهند والباكستان وسوريّا ولبنان وغيرهما، ويكاد ما رثّي به من القصائد والكلمات وأقوال الصحف في كلّ هذه البلاد يؤلّف المجلّدات.

وكان له عدّة أولاد توفّي كبيرهم السيّد محمّد عليّ مؤلّف شيخ الأبطح سنة ١٣٧٢، بعد أن ابتلى بمرض الأعصاب، وظلّ أسير داره أكثر من عشرين سنةً، وله أولاد.

الثاني: السيّد صدرالدين مؤلّف هاشم وأُميّة،وحليف مخزوم وغيرهما.

الثالث: السيّد محمّد رضا صاحب رواية الحسين، و١٤يوماً في المغرب وغيرهما.

الرابع: السيّد جعفر نائب صور في البرلمان اللبناني.

وله غيرهم ممّن لم نرهم ولم نعرف أسماءهم، والكلّ أهل أدب وفضل وشعر وشرف[١]. انتهى ملخّصاً.

وقد ذكر أسماء مؤلّفاته على سبيل التفصيل، وهو ما وقفت عليه قبلاً[٢].

وترجمه العلّامة المحقّق الشيخ محمّد علي الخياباني في ج ٢ من ريحانة الأدب[٣]، وهو بالفارسيّة.

---

١. نقباء البشر ٣: ١٠٨٦ـ١٠٨٨.

٢. في بغية الراغبين، فصل مؤلّفاتي.

٣. ريحانة الأدب ٣: ١٩٤ـ١٩٦.

وترجمه الفقيه العلّامة الشيخ محمّد حرز[1] في كتابه معارف الرجال ج ٢ ص ٥١ وما بعدها، وقال من جملة كلامه عنه ما يلي:

قرأ مقدّمات العلوم، وصار من أهل الفضيلة البارزين الذين لهم ولع بالتدريس، وأخذ يظهر ويسمو في تقدّمه بدراسة العلوم العقليّة والنقليّة. حتّى أصبح يحضر أبحاث العلماء الأكابر والمدرّسين الأعاظم في النجف الأشرف وسامرّاء، سافر إلى مصر في حدود سنة ١٣٣٠، وكان فيها موضع إعجاب وتقدير وتكريم لعلمه الغزير، وأدبه الواسع، ومناظراته القيّمة مع بعض العلماء في الأزهر.

ولمّا استقرّت به الدار في الجبل، اجتمعت عليه الوجوه والرؤساء، وسعى بالجمعيّات الخيريّة، وبنى مسجداً جامعاً في صور وأسّس مدرسةً دينيّةً علميّةً، ثمّ أسّس مدرسةً لإنقاذ فتيات المسلمين، ولكي يتعلّمن العلوم في ضمن تعاليم الإسلام.

وهو اليوم الرجل الأوّل في مصره، بل وعصره في تحقيقاته العلميّة، ومؤلّفاته الجليلة في مختلف العلوم والردود، سيف مصلت في وجوه المنحرفين والمعاندين والملاحدة. انتهى ملخّصاً.

وترجمه خاله الإمام الحجّة السيّد حسن الصدر، في ج ١ من كتابه تكملة أمل الآمل ص ٢٥٦، ولنلخّص ذلك بما يلي:

عالم فاضل محقّق مدقّق، ذو فضل واطّلاع، وغور في تحقيق الحقائق، كامل في أكثر الفنون الإسلاميّة، أحد المراجع في الدين اليوم، له مصنّفات حسنة، ومؤلّفات نافعة، مروّج للدين، نافع للمؤمنين، سكن صور ـ من بلاد بشارة ـ وله آثار في إحياء الدين، حسن التحرير للمطالب العلميّة، كان تحصيله في النجف على

١. ذكره السيّد في التكملة فقال: عالم فاضل كامل أديب متبحّر في جميع العلوم العقليّة والنقليّة، حسن المحاضرة، حلو المفاكهة والمناظرة، متضلّع في السير والتواريخ وأيّام العرب ووقائعها، حافظ لأخبار العلماء.. ولد في النجف سنة ١٢٧٣ وقد تخرّج عليه كثير من أهل العلم، وله مؤلّفات كثيرة. توفّي سنة ١٣٦٥. انتهى ملخّصاً عن ماضي النجف وحاضرها ج ٢ ص ١٦٦.

علمائها الفقه والأُصول، وله فيها كتابات صدّقها جماعة من الأعلام، وشهدوا له بالاجتهاد والكمال، وقد طبعت بعض مؤلّفاته، زاد الله في توفيقه.

وهو من أُسرتنا وأرحامنا، وابن شقيقتنا، كثّر الله في العلماء أمثاله.

وقد طبع من مؤلّفاته مقدّمة كتاب المجالس الفاخرة في مآتم العترة الطاهرة، وهذا الكتاب يشتمل على أربعة مجلّدات، وهو من أجلّ كتب الإماميّة، شحنه بالتحقيقات والتنبيهات بما لم يسبقه إليها أحد. فيها ترويج لطريقة الأئمّة الهادين، وحقيقة ما عليه شيعتهم المؤمنين.

والفصول المهمّة في تأليف الأمّة. وله كتاب سبيل المؤمنين، وقد أخرج صاحب مجلّة العرفان لمعة منه في وجوب مودّة أهل البيت، ومقالة في عصمة أهل البيتﷺ بنصّ الكتاب، وأخرج في الجزء السابع من المجلّد الخامس بيانه في أنّ الصلاة على أهل البيت فريضة، وهذا الكتاب يشتمل على ثلاثة مجلّدات في إمامة أئمّتنا الاثني عشرﷺ وأحوالهم ومناقبهم، لا نظير له في موضوعه.

وله كتاب بغية الراغبين في أحوال آل شرف الدين، وهو كتاب ممتّع في تواريخ هذه الأُسرة الكريمة، وفروعها الطاهرة، وربما نقلنا عنه بعض الكلمات في تراجم بعض أعلام أُسرتنا، ﷺ. فلاحظ.

وله كتاب شرح التبصرة على سبيل الاستدلال، خرج منه كتاب الطهارة، وكتاب القضاء والشهادات، وكتاب المواريث.

وتعليقة على استصحاب رسائل الشيخ، ورسالة في منجّزات المريض استدلاليّة.

وكتاب النصوص الجليّة في إمامة العترة الزكيّة، يشتمل على ثمانين نصّاً: أربعين ممّا أجمع المسلمون على صحّته، وأربعين ممّا انفردت به الإماميّة.

كتاب تنزيل الآيات الباهرة في فضائل العترة الطاهرة مجلّد واحد، يشتمل على مائة آية نزلت فيهم بحكم الصحاح المجمع على صحّتها.

تحفة المحدّثين فيمن أخرج عنه الستّة من المضعّفين.

تحفة الأصحاب في حكم أهل الكتاب.

الذريعة إلى نقض البديعة ـ أي بديعة النبهاني ـ.

المناظرات الأزهرية. والمباحثات المصرية[1].

مختصر الكلام في مؤلّفي الشيعة من صدر الإسلام، خرج منه مجلّد واحد نشرت عنه مجلّة العرفان في مجلّداتها: الأوّل والثاني والثالث.

رسالة بغية الفائز في نقل الجنائز، نشرت العرفان جلّها.

رسالة بغية السائل عن لثم الأيدي والأنامل. فيها أربعون حديثاً من طرقنا، وأربعون حديثاً من طرق غيرنا.

زكاة الأخلاق نشرت العرفان لمعاً منها. الفوائد والفرائد، الأساليب البديعة في رجحان مآتم الشيعة وهو كتاب جليل.

وله ترجمة مختصرة في مقدّمة الطبعة الثانية من كتابه مقدّمة المجالس الفاخرة، بقلم العلّامة السيّد نور الدين الميلاني دام ظلّه[2]، ونقتطف منها مايلي:

أمّا المؤلّف فهو أشهر من أن يذكر، وأظهر من أيّ تعريف، وأكبر من أيّ معرّف، وقد ملأ النفوس غبطةً وعظمةً بمؤلّفاته وآثاره وحركاته.

كان ـ رضوان الله عليه ـ من أقطاب الأمّة علماً وعملاً، تعوّل عليه في شدائدها، وتركن إليه في أمورها، وكان ـ قدّس الله تربته ـ «مفيد» وقته، و«مرتضى» عصره، والواقع أنّه المفيد والمرتضى طيلة أيّامه المأسوف عليها.

عاش عزيز البلاد عظيماً عند الخلق والخالق، لأدائه مطلوبهما، والقيام بواجبهما، والجهاد في سبيلهما، ونضاله معانديهما، ومواقفه الجبّارة ضدّ الكفرة والفسقة وأذنابهما، غير مبال منهم مهما بلغ به الأمر وكلّفه حتّى آخر ساعة من عمره الشريف. انتهى.

---

١. وهو الذي غيّر باسم المراجعات.

٢. هو ابن المرجع الكبير السيّد هادي الميلاني، ولد سنة ١٣٣٦ وتخرّج على أبيه وعدّة من الأعلام، وبعد انتقال أبيه إلى مشهد قام مقامه في كربلاء، فكان من علمائها المبرّزين، يرجع إليه في الأمور العامّة والفتق والرتق، ثمّ انتقل إلى مدينة الريّ قرب طهران، وله فيها الآن مكانته المرموقة أيّده الله.

وله أيضاً ترجمة مطبوعة في كتاب المجالس الفاخرة، وهي من تقديم فضيلة السيّد محمّد بحر العلوم حفظه الله، و نقتطف منها ما ملخّصه:

شبّ السيّد في كنف والده، ينتهل من نمير المعرفة في حدود علوم العربيّة، والمنطق والبلاغة وسطوح الفقه والأصول، ثمّ أرسله أبوه إلى العراق لإكمال دراسته، وكان له من ذكائه واجتهاده ما ساعده على المضيّ في الانتهال العلمي في مدرسة النجف العلميّة، وشقّ طريقه على يد أساتذة فطاحل.

ومرّت عليه مرحلة كان يتنقّل خلالها في رياض العلم والفضل والأدب، حتّى إذا ما استوفى نصيبه من هذه المناهل العلميّة والأدبيّة، كان من أولئك الغالية الذين لمع نجمهم في الأوساط الدينيّة بمكانته العلميّة.

وعاد بعد هذه الحصيلة الثرّة إلى جبل عامل، وملء إرادته الفتوّة والحيويّة الكاملة، واستقبل استقبالاً رائعاً، وحطّ فيها موفور الكرامة، رفيع المقام.

وما أن استقرّ به المكان حتّى بدأ يعمل ويخطط لأمّته كأيّ مصلح عظيم، يرعى الجانب العلمي، كما دعم الجانب الاجتماعي والسياسي، وكانت له مواقف مشهودة، سجّلها التأريخ بكلّ إكبار وتقدير:

ففي الجانب العلمي، نظّم في صور الدراسة العلميّة، وهذّبها من كلّ ما يعرقل سيرها.

ثمّ كان على اتّصال مستمرّ بالبحث والمطالعة، والكتابة والمناظرة، وكانت حصيلة تلك الجهود العلميّة مجموعة كبيرة من المؤلّفات القيّمة وصلت إلى عالم الطباعة.

أمّا الكتب التي منيت المكتبة العلميّة بخسارتها فهي لا تعوض، فقد بلغت ما يقارب العشرين.

ثمّ أسّس مدارس لتهذيب النشء وتثقيفهم ثقافةً دينيّةً وعلميّةً، على مستوى ابتدائي وإعدادي، للذكور منهم والإناث.

أمّا في الجانب السياسي والاجتماعي، فقد كان السيّد؛ مثال القائد المصلح، الذي يحاول أن يبني لأمّته كياناً، فقارع من أجل هذه الغاية الاستعمار الفرنسي، وقد لاقى من جرّاء ذلك الأمرّين: عبّرت مواقفه البطوليّة عن إخلاص وطني،

وإيمان وثيق بالمعركة المصيريّة التي دارت رحاها سجالاً.

وشاهدت صور أنواعاً من الضيم والأذى، والمحاولات الفتّاكة بزعيمها الروحي ممّا اضطرّه ترك مدينته متّجهاً إلى دمشق.

وعند ما شعر المستعمرون بخيبة الأمل أحرقوا مكتبته، وأباحوا داره للسلب والنهب.

ولم يدم بقاء السيّد طويلاً في دمشق، فقد ضاق الفرنسيّون به ذرعاً؛ إذ عرفت فيه الشام عالماً وزعيماً ومجاهداً، وكانت معركة ميسلون نهاية بقائه في دمشق، فلجأ إلى مصر، ثمّ قصد فلسطين؛ ليكون على مقربة من بلده، يواصل منها جهاده.

وبعد جهاد مرير عاد السيّد إلى بلاده، وكان يوم عودته مشهوداً. ولعلّ جبل عامل لم يشهد يوماً كهذا اليوم يحشر فيه الجبل من جبله وساحله في بحر من الناس، يموج بعضه فوق بعض، وتطفو فوقه الأعلام رفّافة بالبشر، منحنية بالتحيّة والهتاف، بجلجلة كجلجلة الرعد في أذن الجوزاء.

وإلى جانب هذا كلّه كانت للمغفور له سفرات وزيارات، وكان فيها موضع حفاوة واحترام؛ لما له من مكانة علميّة، ومنزلة روحيّة كبرى.

وفي يوم الإثنين ٨ جمادى الثانية عام ١٣٧٧ لبّى نداء ربّه، فتنطفئ تلك الشعلة الوهّاجة، ويخمد ذلك الضوء، ويدفن إلى جنب جدّه الإمام عليّ عليه السلام في النجف الأشرف، ولكن صدى تلك الشخصيّة اللامعة لم تنطمر. فذكراه باقية حيّة مع مؤلّفاته الإسلامية القيّمة ودورهُ الجهادي سيبقى درساً نافعاً للأجيال، يترسّم آثاره كلّ مسلم غيور، لا يرضى الهوان لعقيدته. انتهى.

وله ترجمة في مقدّمة كتابه مؤلّفو الشيعة في صدر الإسلام، وهي بقلم السيّد أحمد الحسيني[1]، ونقتطف منها ما يلي:

إنّ الإمام الحجّة السيّد عبدالحسين شرف‌الدين غنيّ عن الترجمة له، والإشادة بذكره، والتعريف بمكانته البارزة بين كبار العلماء، ومشاهير المؤلّفين المكثرين

١. هو السيّد أحمد بن عليّ بن حسين الأشكوري الحسيني فاضل أديب، وكاتب محقّق متتبّع، ولد في النجف الأشرف سنة ١٣٥٠، له رغبة شديدة في التأليف والنشر وإحياء المخطوطات.

المجيدين؛ ذلك لما له من المكانة العلميّة السامية في الأوساط المثقّفة، والمنزلة العظمى بين المجاهدين الذين نذروا أنفسهم لخدمة الدين والوطن والشعب.

إنّ المواقف الحاسمة التي وقفها الإمام شرف‌الدين ،والدفاع المذهبي الذي، قضى حياته الغالية فيه ممّا يبعث في النفوس الفخر والاعتزاز به، والإقبال إلى قراءة واستيعاب ما أنتجه قلمه السيّال المتدفّق بالبحث العلمي المجرّد عن شوائب العصبيّة، والبعيد عن إنكار الحقّ والحقيقة، والمتجنّب عن الانحراف عن طريق الصواب.

والجهاد الوطني الذي قام به ضدّ الاستعمار الفرنسي الغاشم؛ للمحفظ على كيان بلاده وأبناء أُمّته، واسترداد حقوقهم الضائعة، وقطع الأيدي العابثة في طول البلاد وعرضها.

هذا الجهاد المنبعث عن العقيده الراسخة بلزوم حفظ النفوس البشريّة البريئة، واليقظة التامّه للذبّ عن مصالح البلاد، والحصول على خيراتها لصالح أبنائها، لا لصالح المستعمرين المسيطرين بقوّة النار والسلاح...

هذا النوع من الجهاد المقدّس كان ولا يزال يلهج به الناس مصحوباً بذكر الإمام شرف‌الدين قدّس الله نفسه الزكيّة.

والجهود الجبّارة المشكورة التي بذلها الإمام شرف‌الدين في سبيل تثقيف أبناء وطنه بالثقافة الدينيّة الخليطة بالثقافة العصريّة، والمدارس التي سعى في تشييدها، من ابتدائيّة ومتوسّطة وثانويّة القائمة الآن لخير دليل على مدى سعي الإمام في الأخذ بأيدي الناس، وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن هاوية الأُميّة إلى أوج الثقافة، ومن شقاء عدم المعرفة إلى سعادة العرفان.

كلّ هذه العوامل المختلفة سببّت تعرّف كافّة الطبقات بالسيّد شرف‌الدين، والنظر إليه بعين الإكبار والاحترام، والإقبال على مؤلّفاته القيّمة، ومقالاته العلميّة إقبالاً منقطع النظير.

ولست بمبالغ إذا قلت: إنّ الإمام شرف‌الدين هو الوحيد بين علماء الشيعة الإماميّة في كثرة طبعات مؤلّفاته، وانتشارها انتشاراً هائلاً بين الناس. انتهى ملخّصاً.

خاتمة

ولنذكر عن خاتمة حياته تحت هذا العنوان كلمةً للعلّامة المفضال الشيخ محمّد جواد مغنية عليه الرحمة[1] وهي في ص ٢٦٨ من كتابه الإسلام مع الحياة، فقد ذكر هناك كلمة تقريظ منه ﷺ لبعض كتاباته وقال:

وقد أراد الله لهذا السيّد ـ وهو على وشك اللحاق به ـ أن يختم حياته بمكرمة دونها المكرمات وصالح الأعمال، واختم بها هذا الكتاب؛ لأنّها من موضوعه في الصميم، وليكون ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[2]. وقد جاءت هذه المكرمه حجّةً بالغةً، ودليلاً قاطعاً على أنّ الدين ورجاله الحقيقيّين الشرفاء هم في خدمة الشعوب والصالح العامّ، لا في خدمة الإقطاع والاستعمار.

قبل أن يتمرّض السيّد مرضه الأخير بأيّام زار لبنان شاه إيران. ولدى وصوله إلى بيروت أرسل وفداً من حاشيته إلى مدينة صور يرجو السيّد أن يزور الإمبراطور، وقيل له: إنّ الغاية من الزيارة تأييد الشيعة وإعزاز الطائفة؛ لأنّ الشاه هو الملك الشيعي الوحيد بين الملوك والرؤساء، ولكن السيّد أدرك أنّ الهدف الأوّل تدعيم مركز الشاه في العالم الإسلامي، وبخاصّة إيران بعد أن ضعف بسبب حلف بغداد.

فقال للوفد: إنّي أبرأ إلى الله من كلّ من يمتّ إلى الاستعمار وحلف بغداد بسبب كائناًمن كان.

فقال الوفد: إنّ الإمبراطور يريد أن يقدّم مساعدةً ماليّةً كبرى لكلّيّتكم الجعفريّة.

فأجاب السيّد بأنّ الأمر يعود إلى الدين والمبدإ لا إلى المال والحطام، ولا إلى التشيّع والتسنّن.

---

١. هو الشيخ محمّد جواد بن الشيخ محمود بن الشيخ محمّد مغنية، عالم فقيه وبحّاثة، محقّق واسع الاطّلاع، وكاتب جيّد القلم، وأديب كامل، ولد سنة ١٣٢٢، وقد انكبّ على التأليف في نصرة الدين والمذهب، فصدر له ما يقارب الخمسين كتاباً في مواضيع مختلفة، وكلّها نافعة وجيّدة، توفّي سنة ١٤٠٠.

٢. المطفّفين (٨٣): ٢٦.

وحين عدته وهو على فراش الموت قال لي: ما رأيك في رفضنا زيارة الملك؟

فقلت له: أدّيتم رسالة الدين، ومثّلتم سيّد المرسلين، ورفعتم من شأن أُمّته. انتهى.

وقد شاءت أمانة وضمير القائمين بنشر الكتاب أن يحذفوا منه هذه الكلمة في الطبعات التالية، كما فعل قبلهم القائمون بطبع كتاب ملوك العرب لأمين الريحاني، حيث حذفوا من الطبعة الرابعة وصفه ومدحه العظيم للإمام السيّد حسن الصدر🔺 لكن عذر هؤلاء أنّهم مسيحيّون مارونيّون، فصعب عليهم أن يمدح عالم من علماء المسلمين بهذا المدح من مسيحي ماروني، لكن ما عذر القائمين بطبع كتاب الشيخ مغنية وحذفهم لذلك؟

وقد كان لهذا الموقف الشريف أعظم الإكبار والتقدير من جميع الطبقات، لا سيّما الوطنيّين المخلصين، واستفاضت جميع الصحف في لبنان بنشر ذلك في عناوين صفحاتها الأُولى بمنتهى المدح والإطراء.



قصّة الجعفريّة

ولنذكر بهذه المناسبة ما هو تحت عنوان قصّة الجعفريّة في آخر كتاب الإسلام دين وحياة [1] ج٦، ص٢٦٥ وما بعدها وهو ما يلي:

الإمام شرف‌الدين يقلّب المقاييس ٢، فتصبح الأُسطورة على يديه واقعاً مَشـعاً [2] والرمال العطشى صرحاً ممرّداً نديّاً وبيت سكناه المرهون.

بداية الحكاية:

والحكاية نفسها غريبة مثيرة لا كالحكايات، فكلّ مؤسّسة في لبنان ـ على ما نعرف ـ تبتدئ بجمعيّة، وتنتهي إلى فرد، إلّا الجعفريّة، فقد ابتدأت بفرد، وانتهت إلى جمعيّة.

وكذلك كلّ بطولة أصيلة يحقّقها بطل، وتنتفع بمعطياتها أُمّة.

إلّا البطولات المستضعفة، فتحقّقها جماعات أو جـمعيّات، ويسـتثمرها طـفيلي واحد أو طفيليّات.

وحكاية الجعفريّة بكر في الحكايات؛ لأنّها بكر في دنيا المعجزات.

---

١. كتاب مدرسي ألّف وطبع برعاية وإشراف المرجع الإسلامي الأكبر الإمام السيّد محسن الحكيم‌ؒ، وتـحقيق العلّامة الجليل الرئيس السيّد موسى الصدر أعاده الله سالماً إن شاء الله.

٢. مَشعاً: سار سيراً سهلاً. راجع المعجم الوسيط: ٨٧١، «م. ش. ع».

الإمام في الساح

كان جبل عامل عامّةً وصور ومنطقتها خاصّةً في محنة، حين أطلق الإمام شرف‌الدين صيحته، وقال كلمته، وحقّق أُمنيّته، فبدا من الطبيعي أن يبتدئ الصراع رهيباً، ثمّ يحتدم، ثمّ تنحسر المعركة عن مثل ما انحسرت عنه واقعة الخندق، حين «برز الايمان كلّه، إلى الشرك كلّه»[1].

تلك معركة علويّة ربّانيّة فاصلة، وهذه معركة علويّة إيمانيّة حاسمة، استمدّت سماتها وخصائصها من وثبات عليّ عليه السلام، وثباته على الحقّ.

ولا غرابة في ذلك، فالإمام حفيد عليّ وشبل عرينه، وثمالة الذؤابة الهاشميّة الصافية التي ما اعتراها على الزمن ذبول، ولن يعتريها ما دام أصل شجرتها ثابتاً وفرعها في السماء.

أجل، انبرى سماحته للسلاح بلا سلاح إلّا سلاح الإيمان بالله، وبعزيمته التي لا تفلّ، وبالنخبة من صحبه وذويه الذين عاهدوا الله وعاهدوه أن يشدّوا من أزره، ويفدّوه بالنفس والنفيس.

ولكنّ الأمل عريض، والغاية بعيدة، والوصول إليها لا تكفيه أريحيّة الأريحيّين مهما بلغت خصوصاً وهم نخبة قلائل، فوقع العجز المادّي بالميزانيّة أوّل ما وقع عام انبثاق النواة نواة الكلّيّة، وكان ذلك سنة ١٩٣٨.

ثمّ وقعت الحرب العالميّة الثانية، واكتوى العالم بنارها وأوارها، وعطّلت المشاريع ـ كبيرها وصغيرها ـ وحبست الإنسانيّة أنفاسها جزعاً من الغزو الهتلري الكاسح، ولم يعد من همّ أيّ إنسان سوى نفسه وإدامه، إلّا الإمام الذي بقي يرعى الوليد البكر وسط الزعازع بعينيه وأصغريه، وكلّ ما وصل إلى يديه من خاصّ وعامّ، حتى وضعت الحرب أوزارها، فراح يسعى جاهداً الى زيادة صفوف الكلّيّة ـ

---

١. بحار الأنوار ٢٠: ٢١٥، ح٢.

النواة التي بدأت بغرفتين في بيته، ثمّ بثالثة، ثمّ انتقلت قبيل الحرب ـ إلى بناء كان قد شيّده خصيصاً لاستقبالها، يقوم على بوّابة صور مكان التلال الرمليّة الكثيفة.

وكم شوهد سماحته يرفع الرمال بنفسه على منكبيه أثناء مباشرة العمل، ليثير في نفوس الرافعين من عمّال ومؤمنين متطوّعين حميّة الجهاد في سبيل اللّه، ورفع دعائم العلم الموصل إلى اللّه فولدت المدرسة الجعفريّة هناك، لبنةً لبنةً، غرفةً غرفةً، فوق طابق أرضي، مؤلّف ستة من مخازن.

إدارة الجعفريّة

وكان لابدّ من اعتماد أحد حواريي الإمام الأكفّاء، للنهوض بالنواحي الإداريّة والثقافيّة والتوجيهيّة، فانبرى نجله السيّد جعفر، وكان الإمام‌﷬ قد هيّأه للعبء الكبير منذ صغره، فراح يرعى الكلّيّة النواة تعليماً وإدارةً وتوجيهاً، واقفاً عليهانشاطه وشبابه وغيرته، صارفاً كلّ وقته وجهده، حتّى أنّه ضحّى بالسنتين الباقيتين من تخصّصه في سبيل احتضان الجعفريّة، والسير بها صوب غايتها البعيدة التي أرادها له الإمام، الكلّيّة الثانويّة الكبرى.

الجعفريّة ومحنة فلسطين

وما إن أطلّ شهر أيار من عام ١٩٤٨ عندما حلّت كارثة فلسطين، حتّى تدفق آلاف النازحين، من أشقّائنا الفلسطينيّين إلى صور، فما كان من السيّد جعفر إلّا أن فتح لهم أبواب الجعفريّة، دون قيد أو شرط يأوون إليها في ليلهم ونهارهم، ويجدون فيها كلّ ما يخفّف عنهم من هول الكارثة وذلّ التشرّد، وجنّد نفسه وطلّابه ومعلّميهم وشبيبة صور المناضلة لخدمتهم واستقرارهم، واستمرّ الإيواء والخدمات شهوراً، حتّى استطاعت الحكومة أن تؤويهم في خيام وبيوت على مداخل صور.

النادي والمسجد

ثمّ تسامق بإزائها نادي الإمام جعفر الصادقعليه السلام، وخصّص لإقامة شعائر اللّه، وإحياء المواسم الدينيّة الاجتماعيّة والتوجيهيّة المختلفة. وما عتم المسجد الجعفري الخاصّ بطلّاب الجعفريّة أن قامت دعائمه، وقامت فوقه غرف أُخرى تتمّم المدرسة بكامل صفوفها، حتّى بلغت الشهادة التكميليّة «البريفه» سنة ١٩٤٧.

دور المهاجرين الأماجد

ولمّا ضاقت الجعفريّة على رحبها بأبناء صور، ومنطقة صور، العطاشى إلى العلم التوّاقين إلى المعرفة.

ولمّا أصبح أمل الإمام على أشدّه من الاختمار والتحفّز، ليتجسّد كـلّيّةً كبرى، ويتبلور صرحاً ممرّداً، يرتدّ الطرف عنه، وتهفو إليه أفئدة التائهين من أبناء الجبل المحروم.

ولمّا أصبحت مشاريع الإمام العلميّة والدينيّة، ومواقفه البطوليّة حديث المقيمين والمهاجرين، أرسل هؤلاء يلتمسون من سماحته أن ينفذ إليهم بعثةً أو وفداً عنه، إيماناً منهم بروعة تلك المشاريع والمواقف، وإسهاماً في تدعيمها، ولا غرو، فالمهاجر العاملي كان ولا يزال يكبر الجهاد والبذل والتضحيات.

الرحلة الأفريقيّة الأُولى

وتجاوباً مع هذا النداء، أنفذ إليهم نجليه السيّد صدرالدين والسيّد جعفر في مطلع عام ١٩٥٠، فعادا بعد أن لمسا من المهاجرين اندفاعاً أريحيّاً فريداً، وتنافساً شديداً في التبرّع بل في التبرّك بمؤازرة الإمام ومساعدته على تحقيق الأمل الضخم، عادا بعد طواف عريض بعيد في مجاهل القارّة السوداء، بما أقرّ عينَ الإمام، وكان العمل في تشييد الصرح الجعفري الكبير، قد سبقهما منذ أن أرسلا

أوّل تحويل مالي، وبعد أن وضعت للصرح التصاميم الفنيّة الحديثة، التي تبرّع بها المهندس الكبير سعيد حجّال.

بناية المهاجر

وهكذا راحت مداميك الكلّيّة تبرز للعيون المبهورة، وما عتمت الكثبان الرمليّة الرابضة جنوبي المدرسة الجعفريّة أن زالت رويداً رويداً وما هو إلّا عام واحد، حتّى كان الصرح الكبير يحتمل بناؤه بطوابقه الثلاثة، وجناحيه الاثنين وبرجه الشامخ.

إلّا أنّ قيمة التبرّعات ـ على وفرتها ـ لم تكن لتتساوى مع وفرة تكاليف الصرح ومتطلّباته، فشدّ الإمام نفسه الركاب إلى بيروت، حيث الإخوة العامليّون الأغنياء نفساً ومالاً، وما هي سوى أيّام معدودات حتى عاد بما أنجز به الضروري من مستلزمات الصرح، وبقي الكثير بلا إنجاز، ولكن ذلك لم يحل دون افتتاح الكلّيّة.

مصنع الأجيال

وما إن أطلّ عام ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ حتّى كانت أبواب الكلّيّة العتيدة تشرع لاستقبال وفود الطلّاب ـ من أبناء المقيمين والمهاجرين ـ أُولئك الذين أسهموا في إخراج الحلم إلى دنيا الحقيقة، وكان لهم شرف إرساء قواعده، الأمر الذي جعل الإمام يعمد إلى تخليد هذه المأثرة، فأسمى الصرح «بناية المهاجر» ووقفها على تعليم أبناء الأمّة جيلاً بعد جيل «إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها»[1].

وأثبت ذلك على لوحة رخاميّة مثبتة في قاعة مدخل البناية، ناطقة بما يلي:

---

١. كما ورد في الخبر راجع: عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٣٠، باب ٣٥، ح ١؛ تحف العقول: ٣٠٦؛ بحار الأنوار ١٠: ٣٥٣ و ٣٦١ و ٢١: ٢٠٥.

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله ربّ العالمين

وفّقني الله ـ سبحانه ـ لبناء هذا الصرح سنة ١٣٧٠ هجريّة، وقد أسميته: «بناية المهاجر»، اعترافاً منّي بفضل أبنائي الأعزّاء في أفريقيا الغربيّة، ثمّ وقفته معهداً علميّاً لناشئتنا الحبيبة في كلّ خلف من هذه الأمّة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

عبدالحسين شرف‌الدين الموسوي

الرحلة الأفريقيّة الثانية

إلّا أنّ هذا المشروع الضخم ضخامة الحاجة إليه، كان لا يزال بحاجة إلى ضروريّات جمّة، وتجهيزات علميّة وفنيّة كثيرة، وعلى الأخصّ إلى ريع ثابت يردّ عن الكلّيّة غائلة العجز المادّي المرتقب لمشروع إنساني كهذا المشروع، فأنفذ ابنه السيّد جعفر ثانيةً إلى أفريقية الغربيّة عام ١٩٥٤، حاملاً نداءه الشهير للمهاجرين الذين ضربوا المثل الأعلى في البذل والعطاء، فأقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير، سيّما وقد رأوا أموالهم قد انقلبت بنياناً شاهقاً، وزرعت في الأرض الموات، لتتفجّر نباتاً طيّباً، وتتسلسل نميراً عذباً يسقي العطاش وينقع غلّة المحرومين.

وهكذا عاد ابنه بما سدّ الديون المتراكمة، وأنجز ما تبقّى حتّى خاتمة الصرح التي تبرز تاجاً على هامّته، إلّا أنّه لم يسدّ الديون المقبلة، ولا استطاع أن يقيم ريعاً ثابتاً للكلّيّة، وراحت الديون تتراكم من جديد، والكلّيّة تسير ببطء مادّي شديد سيراً لا يتناسب مطلقاً والخطوات العلميّة الثابتة، والنجاحات المتصاعدة في الامتحانات الرسميّة، يحقّقها طلّاب الكلّيّة، وطالبات إعداديّة البنات، بمختلف الشهادات الابتدائيّة بفرعيها، والتكميليّة بفرعيها، والبكالوريا بفرعيها، مع فرع «المتريكلاشن» الخاصّ بالطلّاب الفلسطينيّين الذين سجّلوا

ـ من جرّاء تلك النجاحات ـ تدفّقاً ملحوظاً للانتساب إلى الكلّيّة ممّا أكسبها وإعداديّة البنات سمعةً عاطرةً لدى وزارة التربية الوطنيّة اللبنانيّة، وعند مختلف طبقات الشعب.

الرحلة الأفريقيّة الثالثة

هذا التباعد الكبير بين المستوى المادّي والمستوى العلمي، أهاب بالإمام المؤسّس إلى أن يلجأ مرّةً ثالثةً وأخيرةً إلى المهاجر العاملي، وهو المؤمّل في الشدائد، والمأمول الوحيد للمشاريع الخيريّة الإنسانيّة، فكيف بالجعفريّة وهي إحدى منجزاته الكبرى، ومرتكز أريحيّاته التي لا تعدّ؟

وها هو الإمام يوفد عام ١٩٥٦ محطّ رجائه الدائم، ومناط أمله نجله المرتجى السيّد جعفر، فينهض بالعبء كعادته، ويروح يطوف بأفريقية الغربيّة ضارباً الرقم القياسي في التنقّلات والأسفار عبر أرجاء أفريقيا، ومجاهيلها الخطيرة، متحمّلاً العنت والإرهاق في سبيل الجعفريّة، هذاالولد المارد للإمام العظيم الذي يجب أن يستمرّ في البقاء، ويجب أن ينتصر على المحن والصعاب مهما كانت، فالقضيّة لم تعدّ قضيّة مشروع علمي جبّار وحسب، ولم تعدّ قضيّة جيل برمّته، يحفظ من الضياع والجهل والتشرّد، بل أصبحت قضيّة شعب بكامله وانتصارها انتصار الشعب، وحرّيّة الشعب، وحفظ الدين والديّانين، وولادة جيل جديد تنطلق أفواجه من الجعفريّة، عاماً بعد عام جيل مؤمن بربّه ووطنه وأمّته.

عاد رسول الإمام رئيس الكلّيّة مظفّراً، فأتمّ تجهيزات الكلّيّة، ونواقصها، ممّا جعل الإمام المؤسّس يطمئنّ لأوّل مرّة إلى مستقبل زاهر للكلّيّة، بما تحقّق لديه من همّة نجله، وتفانيه الدائب ـ من قبل ومن بعد ـ في سبيل رعاية المشروع وتطويره، وتكريساً لهذا الجهد الجاهد، من النجل المجاهد، وتبريكاً له، أثبت سماحته كلّ ذلك على لوحة رخاميّة مثبتة في قاعة مدخل الكلّيّة الجديدة تبقى درساً للأجيال.

بسم اللّه الرحمن الرحيم
الحمد للّه ربّ العالمين

وفّقني اللّه تعالى إلى إنشاء هذه المدرسة سنة ١٣٥٧ هجريّة، وقد انبرى للنهوض بأعبائها ولدي جعفر، فصرف إليها عزائمه ناصحاً، وآثرها على نفسه مخلصاً، حتّى سما بها ـ والحمد للّه ـ إلى مصافّ المعاهد الراقية. فقرّت عيني وعين الأمّة بنهضته، وفّقه اللّه لما يوجب له الأجر وحسن الذكر مدى الدهر.

عبدالحسين شرف‌الدين الموسوي



بناية المهاجر

شادها «كلّيّة» وثّابة

للشاعر الكبير بولس سلامة، أنشدها ولده في حفلة أقيمت في ٢٥ حزيران ١٩٥٢ في الجعفريّة:

«صور» أم البحر حيّيت ثراها   والخضمّ الأزرق الساجي فتاها
وتحيّيها خصيبات الرؤى   كلّما غالب مجذاف مياها
صمدت للفاتح الضخم ولم   يستطب أبّهة الموت سواها
أنفس القرمز في شطآنها   ما سقته أخت صيدا من دماها
مبزغ الأنوار والدنيا دجى   لم يفارق مقلة الدهر سناها
فإذا ما شحبت أضواؤها   أو تراخت لانطفاء مقلتاها
جاءها من آل طه «سيّدٌ»   فدعا الشمس فلبّت مذ دعاها
شاد فيها للمعالي «معهداً»   فعروس الفكر ماست في حلاها
شادها «كلّيّة» وثّابة   حيث تلقي طرفها تجري خطاها

أينما لاحت لطّه راية | جاءها جبريلهُ يحمي حماها
علم «الصادق» يزهو فوقها | فالعظيم الجدّ والمجد نماها
كعبة العلم «عليّ» بابها | وحسين» وأخوه جانباها
أرج «الزهراء» في أجوائها | فعلى الجدران شيء من شذاها
سرّها نبل «الحفيد» المرتجى | رافعاً في جبهة الدهر لواها
طالبيّ لم يخيّب مأملاً | للعلى بل زاد فوق الجاه جاها
تخشع الأقطاب إجلالاً له | فإذا تذكره تحني الجباها
صيته الفوّاح في «عاملة» | يبعث الأشواك ورداً في رباها
أصبحت «صور» به أمّ القرى | بورك النسر الذي يحمي قراها
فجناح البذل جود وهدى | وجناح الذود يرمي من رماها
عجبت من عزمه «كليّة» | ساءلت أحجارها كيف ابتناها
شادها من جبهة الليث ومن | مهجة الصخر وبالعزّ كساها
نثر النسر عليها ريشه | فاشتكت أضلاعه ممّا دهاها
شيمة من جدّه نعرفها | يا لنفس بؤسها كلّ غناها
يهب المال «عليّ» جائعاً | ويرى «الزهراء» غاضت وجنتاها
يا لها من شمعة ذائبة | أوشكت تنهدّ لولا «حسناها»
عترة الأطهار هل من مؤمن | يدخل الجنّة إلّا في رضاها؟
كلّ شهم عزّه من عزّها | وشعاع الهدي من بعض هداها
إن يكن في القلب ظلّ من تقى | يبذل الأنفس والمال فداها
أترى كفّ الوفاء انقرضت | أم أتى الشكّ عليها فثناها
إنّما أحمد في أبنائه | فالذي والاهمُ والى الإلها
شرفاً «عبدالحسين» المرتقى | من صروح العلم والدين ذراها
تملأ المنبر عزّاً وسنىً | وكذاك الشمس تهدي من يراها

كـادت الأعـواد مـن نشـوتها تـلبس الخـضرة ذكـراً لصـباها
أو تـعيد الغـضّ مـن أوراقـها كـلّما «العـلّامة» السـبط أتـاها
أصـيداً يـعتمد السـيف الذي بسـليل الضـيغم الزارّ بـاهى
أيّـها السـيّد هـلّا ذكـرت أمسك المـئناف أقـزام تـباهى
يوم لم تركع عـلى الضـيم وقـد راح سوط الذلّ يستاق الشـياها
عرضت «للأسد» البادي الطوى طـيّبات مـغريات فأبـاها
أحرقوا «خدرك» والنـار محت من معين العـلم أسـفاراً رواهـا
كـانت النـيران لمّـا أضـرمت ألسـناً تـدعو عـليهم وشـفاها
لا يـبيد الظـلم إلّا نـفسه كـبنات العـهر يـفنيها هـواهـا
لا يموت الفضل مـهما جـلجلت صولة الظـلّام واشـتدّت رحـاها
قـتلوا جـدّك بـالطفّ فـما بـقيت أمسـية إلّا شـجاها
وتـواروا كـخفافيش الدجـى طـلع الصـبح عـليها فـمحاها

بولس سلامة

سيّد وصَرْح

من كلمة ألقاها العلّامة الشيخ عبدالله العلايلي في حفلة أُقيمت في الجعفريّة في ٢٥ حزيران ١٩٥٢:

أنت تعتصر زيتاً ليتحوّل نوراً، وهم يعتصرون يبساً ليصير دخاناً، وبينهما تقوم حكاية الحقّ و الباطل، الصدق والكذب، الماء والسراب.

ومن هذا الزيت زيتك الذي اعتصرته يداك، أنا أسكب قطرات في مصابيح الطريق.

عند هذا الصرح الممرّد ـ الكلّيّة الجعفريّة ـ أقف متحدّثاً، ليس لأصغي عليه، بل لآخذ منه، وليس لأُعطي ـ فحسبك من المحراب أن تُقبل فيه ـ وإنّما لأتبتّل بمثل ترتيلة المؤمن الذي يرفع فيها قلبه بخوراً، ويمسح بقدسها جبينه، فيطيب عبقاً، ويفيض نوراً.

أقول: عند هذا الصرح الممرّد ولكن ليس من قوارير؛ لأنّه ليس من ملاعب الفتنة، الفتنة التي تملأ علينا الدروب، وتمسح الوطن أرضه و سماءه بالخطوب.

لا، إنّه ليس من قوارير؛ لأنّه ليس من محيكات الرياء، وكبير أمرها أن تخدع لا أن تصنع، وكلّ شأنها أن تبور لا أن تبقى.

هذا صرح في حنيّة منه عقل أو استشراف لعقل وفي حنيّة منه تقوى أو نزوع لتقوى، وفي غير هيكلهما لم تكن ولادة إنسان جاء على يد الله.

وبحسب هذا الصرح أنّني أشمّ في أعراف مواليده هذا العبق.

أصدُرُ ولست أصدر عن فتون، على أنّني في غنية عن هذا الاستدراك، فسماحة السيّد الذي أعطانا من قلبه ـ يوم أعطى ـ يحمل على الفتنة، ولكنّ الفتنة في حكمتها في معنى فضيلتها.

وليس كلّ حكمة تفتن، وإنّما هي فقط التي تجيء في حساب الحكمة معنى الحكمة .... .

لوحات رخاميّة تذكاريّة مثبتة في مدخل الكلّيّة الجعفريّة، تؤرّخ لها وله

١ . الكلّيّة الجعفريّة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله ربّ العالمين، وفّقني الله تعالى إلى إنشاء هذه المدرسة سنة ١٣٧٥ هجريّة، وقد انبرى للنهوض بأعبائها ولدي «جعفر» فصرف إليها عزائمه ناجحاً، وآثرها على نفسه مخلصاً، حتّى سما بها إلى مصافّ المعاهد الراقية، فقرّت عيني وعين الأُمّة بنهضته، وفّقه الله لما يوجب له الأجر وحسن الذكر مدى الدهر.



عبدالحسين شرف‌الدين الموسوي

٢ . بناية المهاجر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد الله رب العالمين، وفّقني الله سبحانه لبناء هذا الصرح سنة ١٣٧٠ هجريّة، وقد أسميته «بناية المهاجر» اعترافاً بفضل أبنائي الأعزّاء، في أفريقيا الغربيّة، ثمّ وقفته معهداً علميّاً لناشئتنا الحبيبة في كلّ خلف من هذه الأمّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أمّا رائع هندسته فتفضّل من المهندس الكبير سعيد حجّال.

عبدالحسين شرف‌الدين الموسوي

٣ . آية الله الإمام المجاهد السيّد عبدالحسين شرف‌الدين :

بنى هذا الصرح الممرّد لناشئة الأُمّة جيلاً بعد جيل، وأنشأ كثيراً غيره من بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

أنتج بضعة عشر سفراً في الإمامة والنقد والحديث والكلام، والدعوة إلى الوئام والسلام.

دوّى صوته الرافع في كلّ حدث خطير، مرّت به دنيا الإسلام والأُمّة العربيّة، وأسهم في نهضاتها التحريريّة والإصلاحيّة.

كافح المستعمرين والطغاة في سبيل الله وعباده، ونفي وشرّد وأُحرقت داره ومكتبته، وصيح في حجراته نهباً.

وقف نفسه لخدمة الشعب، فكان محجّةً في القضاء والفتوى، وملاذاً تهفو إليه قلوب المعذّبين والمستضعفين مدى نيّف وخمسين عاماً في مدينة صور.

قبضه الله إليه عن سبعة وثمانين عاماً، يوم الإثنين تاسع جمادي الثانية سنة ١٣٧٧، الموافق ٣٠ كانون الأوّل سنة ١٩٥٧، فاهتزّ الشرق للنبإ الفاجع، ونقل جثمانه الطاهر بوصيّة منه قدس الله سرّه إلى النجف الأشرف، بجوار جدّه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، مخلفاً حسرةً لا تنقضي، وثلمةً لا تسدّ.

٤ . ذكرى الرحلة الأُولى في سبيل بناء الجعفريّة

أوفد آية الله الإمام شرف الدين ولديه: العلّامة السيّد صدرالدين، ورئيس الجعفريّة السيّد جعفر إلى أبنائه الميامين في أفريقيا الغربيّة في مطلع سنة ١٩٥٠، فزوّدا بتبرّعات كريمة أتاحت له بناء هيكل هذا الصرح ممهوراً بأريحيّاتهم، «أُولئك أبنائي فجئني بمثلهم».

٥ . ذكرى الرحلة الثالثة

الرحلة الثالثة التي قام بها رئيس الكلّيّة الجعفريّة السيّد جعفر عبدالحسين شرف‌الدين سنة ١٩٥٦ ميلاديّة، استئنافاً لرحلتين قام بهما من قبل إلى أفريقيا الغربيّة، موفداً من قبل أبيه الإمام لأبنائه الميامين المغتربين في شتّى أنحائها، مستعيناً على تكامل هذا الصرح، المسمّى باسمهم «بناية المهاجر»، وإرساء قواعد هذه الكلّيّة الغنيّة بأريحيّاتهم.

جزى الله المستجيبين لنداء الأُمّة والوطن من مهاجرين ومقيمين خير جزاء المحسنين.



٦ . ذكرى تأسيس الجمعيّة الخيريّة الجعفريّة

أنشأها سماحة الإمام السيّد عبدالحسين شرف‌الدين في ربيع الأوّل سنة ١٣٧٦هـ، تشرين الأوّل سنة ١٩٥٦ م من رجالات الخير والإصلاح الذين ساعدوه في تحقيق مشاريعه الدينيّة والاجتماعيّة والثقافيّة.

وأقام هذه الجمعيّة على ولاية الأوقاف التي أنشأها في صور وإنمائها وإكمال ما رسمه من مشاريع، لله فيها رضى وللأُمّة فيها صلاح. وفّقها اللّه للعمل بهداه، والسير على خطاه.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

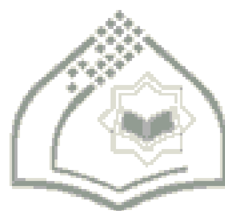
سيّدان صدريّان



السيّد موسى الصدر

الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر

وشقيقته بنت الهدى الصدر



السيّد موسى الصدر

«بقلم الأستاذ محمّد شعيتو»[1]

السيّد موسى الصدر: هو ابن السيّد صدرالدين بن السيّد إسماعيل بن السيّد صدرالدين محمّد بن السيّد صالح شرف‌الدين، من جبل عامل في جنوب لبنان.

ولد السيّد صالح شرف‌الدين في قرية شحور ـ قضاء صور ـ سنة ١١٢٢، وأقام فيها، وكان عالماً دينيّاً جليلاً، وكان يملك مزرعة اسمها شدّ غيث، بالقرب من معركة، وفي هذه المزرعة ولد ابنه السيّد صدرالدين.

تعرّض السيّد صالح لاضطهاد أحمد الجزّار في إطار حملة الجزّار الشاملة باضطهاد علماء المسلمين في جبل عامل فأقدم جنود الجزّار على قتل ابنه الأكبر السيّد هبة‌الله ـ وكان في الحادية والعشرين من عمره ـ أمام بيت والده في شحور وبحضوره، ثمّ اعتقلوا السيّد صالح وبقي تسعة أشهر في معتقله في عكّا، إلى أن تمكّن من الفرار إلى العراق، حيث أقام في النجف الأشرف.

تبع السيّد صالح إلى النجف الأشرف أخوه السيّد محمّد الذي ألحق به زوجته وولديه السيّد صدرالدين والسيّد محمّد عليّ.

---

١. ولد في قرية الطيرة قرب بنت جبيل، وهو مجاز بالحقوق، شغل عدّة مناصب في الحكومة اللبنانيّة أدارها بكلّ جدارة وكفاءة، وهو الآن مدير عامّ في التنظيم المدني، وأمين عام للمجلس الإسلامي الشيعي، ويعمل فيه بكلّ اندفاع وإخلاص.

صار السيّد صدرالدين من جهابذة علماء الدين، وتزوّج ابنة المجتهد الأكبر الشيخ كاشف الغطاء، ثمّ نزح إلى أصفهان، وأنجب خمسة علماء دين، أصغرهم السيّد إسماعيل الذي ترك أصفهان وأقام في النجف الأشرف، وعرف باسم السيّد الصدر نسبةً لأبيه، وانعقدت له المرجعيّة العامّة للشيعة، إلى أن توفّي سنة ١٣٣٨ تاركاً أربعة أولاد صاروا علماء دين:

أوّلهم: السيّد محمّد مهديّ، صار أحد مراجع الدين الكبار في الكاظميّة، شارك في الثورة العراقيّة مع ابن عمّه السيّد محمّد الصدر الذي تولّى رئاسة الوزارة في العراق، وكان أحد قادة الثورة العراقيّة الكبار.

ثانيهم: السيّد صدرالدين[١] والد السيّد موسى الصدر، قاد في شبابه حركةً دينيّةً تقدّميّةً، وارتبط اسمه بالنهضة الأدبيّة العراقيّة، ثمّ هاجر إلى إيران وتوطّن خراسان، ثمّ استدعاه المرجع العامّ الشيخ عبدالكريم اليزدى ليقيم معه في قمّ معاوناً له في إدارة الحوزة الدينيّة، وصار أحد أركان الحوزة الكبار، ومرجعاً معروفاً، وتوفّي سنة ١٩٥٤.

---

١. وقد ترجمه العلّامة المحقّق الشيخ آقا بزرك الطهراني ﷺ في نقباء البشر ج ٣ ص ٩٤٣ وما بعدها فقال ما ملخّصه:

فقيه جليل، وعالم كبير، ولد سنة ١٢٩٩، وبعد وفاة والده سافر إلى إيران فزار الإمام الرضا ﷺ وجاور القبر الشريف قرب عشر سنين متفرّقةً، اشتغل فيها بالتدريس والإرشاد والإصلاح، وأصبح في عداد علماء المدينة، وتخرّج عليه كثير من أهل الفضل والعلم خلال تلك المدّة، ثمّ هبط قمّ برغبة الشيخ عبد الكريم الحائري، فاشتغل بالتدريس والإفادة، وصار من أئمّة الجماعة، وكان يرقى المنبر للوعظ والإرشاد، فتستفيد منه الخاصّة قبل العامّة، ولم يطل مكثاً بل سافر أيضاً إلى مشهد الرضا ﷺ للزيارة، ولمّا كانت للناس هناك معرفة سابقة به، التفّوا حوله والتمسوا منه البقاء فأجابهم، وأخذ يقيم الجماعة في مسجد گوهر شاد المشهور، وكان مجلس درسه غاصّاً بأهل الفضل، وأحبّته القلوب، وأقبلت عليه النفوس.

وفي تلك الأيّام، كان الحائري زعيم الحوزة العلميّة في مدينة قمّ رهن عوارض الشيخوخة، وكان يخاف على جهوده من الضياع والانهيار، إذا تفرّق الطلّاب بعده، وكان من الذين يعتمد عليهم في ذلك، ويرى فيهم اللياقة ←

نشأته وعلومه

ولد السيّد موسى الصدر في ٥ آذار سنة ١٩٢٨ في مدينة قمّ، وتلقّى علومه الابتدائيّة والثانويّة، كما تلقّى دراساته الدينيّة على عدّة من أساتذة حوزتها.

← والكفاءة لتلقّي الزعامة الروحيّة، وحفظ نظام الهيئة العلميّة: السيّد محمّد الحجّة ـ وكان في قمّ يومئذ ـ والمترجم له، فأمر بعض تجّار قمّ بالاتّصال بالمترجم له، ونقله من خراسان إلى قمّ، وهكذا كان، فقد استجاب المترجم له وهبط قمّ، وقرّت به عين الحائري، وجعله مع السيّد محمّد الحجّة محلّ اعتماده وثقته، يستعين بهما على أعماله الجليلة، ويستشيرهما في مهمّاته، حتّى انتقل إلى رحمة الله، بعد أن جعلهما وصيّين من قبله.
نهض المترجم له وزميله المذكور بأعباء الزعامة، وتولّيا إدارة الأمور، وحفظ نظام الهيئة العلميّة بلباقة [أي مع أستحكام وحذاقة. راجع المعجم الوسيط: ٨١٣، «ل. ب. ق».] ورصانة [أي مع استحكام وإكمال. راجع المعجم الوسيط: ٣٤٩، «ر. ص. ن».]، وانضمّ إليهما السيّد محمّد تقي الخوانساري، فكان هؤلاء الثلاثة دعامة الحوزة وحصنها، وقادتها وموجّهيها، وقد عملوا بإخلاص وتضحية فوزّعوا الأعمال والمسؤوليّات والمهامّ والنفقات، فتعهّد كلّ واحد بشيء وأخذه على عاتقه، غير أنّ الرأي في كلّ الأعمال كان موحّداً ومدروساً من قبل الجميع.
وهكذا حتّى حلّ قمّ الزعيم الديني الأكبر السيّد البروجردي، فأجمع الكلّ على إناطة الأمور به، وإيكالها إليه، وهكذا بدأ المترجم له بتقديم مكان صلاته له، وآثر الانزواء.
وقد لقي بعد وفاة الحائري ـ مع زميله المذكور [عنى به آية الله العظمى السيّد محمّد الحجّة ﷺ.] ـ كثيراً من المصاعب والمشاقّ، فقد اتّجهت نيّة حكومة إيران يومئذ إلى تبديد نظام الهيئة العلميّة في قمّ، وتفريق شمل الطلّاب، فألقي القبض على الطلّاب زرافات ووحداناً، وفرض نظام التجنيد الإجباري عليهم، وشدّد فيه كثيراً، إلى غير ذلك من المشاكل، غير أنّ المترجم له كان يلقي كلّ ذلك برباطة جأش، ويعالجه بحنكة، ويهدّئ الثائرين، ويوصيهم بالصبر، حتّى استطاع أن يعيد الأمور إلى حالتها السابقة، وكانت له مواقف يعرفها طلبة قمّ جيّداً، ولا تزال تذكر بإعجاب.
رجع الناس إلى المترجم له في التقليد بعد وفاة الحائري ـ كما رجعوا إلى زميله الحجّة المذكور ـ وطبعت رسالته العمليّة، وأصبح من زعماء العلم، ومراجع الدين، وكبار المدرّسين، وكان يدرّس في الفقه والأصول، فيحضر درسه على ما سمعته ما يقرب من (٤٠٠) طالب، وكانت له في تشويقهم أساليب جميلة، وقد تخرّج عليه بعض أجلاء رجال الحوزة العلميّة في قمّ.
وقد أجاز تقليده وأرجع إليه احتياطاته أبو زوجته السيّد آغا حسين القمّي ﷺ ومن يعرف القمّي وشدّة ورعه جيّداً يعلم أنّه قلّ ما اطمأنّ إلى أحد أو اعتمد عليه، وأنّه لم يكن يتسرّع في شيء، أو ينطق بكلمة ما لم يتأكّد، ويتّضح له صحّة رأيه بالضرورة. ←

تابع دراسته الجامعيّة في كلّيّة الحقوق في جامعة طهران، وحاز على الإجازة في الحقوق.

→ وقد عرف بصفات ميّزته عن الكثيرين من معاصريه، وليس ذلك غريباً عليه، فبيته كريم، وجدّه ووالده وإخوته كلّهم على تلك الشاكلة.

وكان فقيهاً متضلّعاً، وأديباً بارعاً، وورعاً تقيّاً، وكان مخلصاً في أعماله وأقواله، وينزع للإصلاح كثيراً، فعندما سكن أوّلاً مشهد الرضا عليه السلام كانت يومذاك فتن ومعارك تسرّبت إلى صفوف العلماء، فكان المترجم له العامل الوحيد لتوحيد صفّ رجال الدين، والقضاء على كلّ ما حدث بينهم من اختلافات، وحدث مثل ذلك في قمّ أيضاً، فتلافاه المترجم له فقبره في مهده، وكان كثير التواضع، يجالس سواد الناس، ويبدأ من لقيه بالسلام، وظلّ كذلك بعد أن رجع الناس إليه في التقليد، وأصبح من أكابر العلماء، والمدرّسين، فلم تتبدّل عاداته، ولم تتغيّر أخلاقه؛ ولذلك كانت له مكانة سامية جدّاً في نفوس الجميع، ولعلّ أكبر دليل على إخلاصه، هو تكتّمه في أكثر أعماله، إلّا ما كان ظاهراً للعيان كتشييد المدارس والمساجد، وإنارة بعض الأماكن المقدّسة، وتقديم الرواتب والمخصّصات لطلّاب العلم والمحتاجين، فقد ترك من الباقيات الصالحات كثيراً في مشهد الرضا عليه السلام وقمّ وغيرهما ...

وكان يحبّ كلّ الناس، ويشعر بآلامهم وآمالهم، ويستمع إلى الآراء والشكاوى والمشاكل بنفسه، ويحلّ ما استعصى بأنجع الأساليب وأشدّ الطرق اختصاراً. لم يسمع منه أنّه دعا إلى نفسه، أو ادّعى لها أكثر من قدرها، كما لم تسمع منه مقالة سوء في أحد من معاصريه، كان يمدح كلّ العلماء و يوثّقهم، ويثني على من يذكر عنده بالخير، ويقدّم الغير على نفسه دائماً، ويحمل الناس على الاعتقاد وحسن الظنّ بالجميع، ولم يدّخر وسعاً في كلّ عمل يظنّ أنّه يعود على الإسلام والمسلمين بفائدة.

عرفته من عشرات السنين، من طريق والده وابن عمّه السيّد حسن الصدر [سها في تعبيره عنه بابن عمّه والصواب أنّه خاله حفيد عمّ أبيه. «ع»] اللذين كانت لي بهما وبغيرهما من رجال أسرته أوثق الصلات، فلم أسمع منه ولا عنه ما يعاب عليه مطلقاً؛ ولذلك فهو في نظري من الرجال القلائل الذين يحقّ للتأريخ أن يخلّد ذكرهم وأعمالهم.

انتقل إلى رحمة الله بعد مرض قلب لازمه سنين كثيرة، منعه خلالها من التدريس وإمامة الصلاة لكن أخلاقه لم تتبدّل، بل ظلّ والابتسامة مرتسمة على شفتيه، والخلق العالي من دأبه، وذلك يوم ١٩ ربيع الثاني سنة ١٣٧٣، فخسر به الإسلام أحد رجاله، والعلم أحد أبطاله، وكان يومه مشهوداً في قمّ، فقد بكته طبقات الناس، وفجع به القريب والبعيد، وخسر به طلّاب العلم دعامة كبيرة، وصلّى عليه السيّد البروجردي، وخلفه الألوف من أهل العلم والتقوى، ودفن في بقعة العلماء، في رواق حرم فاطمة ابنة الإمام الكاظم عليه السلام بجوار قبر الشيخ عبد الكريم الحائري، وأقيمت له الفواتح ومجالس العزاء في قمّ وطهران وخراسان وغيرها من مدن إيران، وفي النجف وكربلاء والكاظميّة وغيرها من مدن العراق، وفي سوريّا ولبنان وبعض الممالك الإسلاميّة، ورثاه كثير من الشعراء بالعربيّة والفارسيّة، وأصدر بعض فضلاء قمّ ذكرى له بالفارسيّة، بمناسبة مرور سنة على وفاته. ←

أتقن اللغة العربيّة مضافاً إلى الفارسيّة، وألمّ بالفرنسيّة والإنكليزيّة.
صار أُستاذاً محاضراً في جامعة قمّ الدينيّة.

← ترك ثروةً علميّةً ضخمةً في الفقه والأُصول والتأريخ والأدب والكلام والعقائد والحديث والأخلاق.
وخلّف ولديه الجليلين، السيّد رضا الصدر، والسيد موسى الصدر، فالأوّل يقيم الجماعة في قمّ، وسافر الثاني إلى صور بلبنان، للقيام بالوظائف هناك. انتهى [نقباء البشر ٣: ٩٤٣ـ٩٤٩، الرقم ١٤٣٥].
وترجمه العلّامة المتتبّع الشيخ محمّد عليّ الخياباني عليه الرحمة في ريحانة الأدب ج ٢ ص ٤٦٥ فقال ما تعريبه:
هو حامل لواء العلم والأدب، وجامع شرف الحسب والنسب، فقيه أُصولي محدّث، رجالي محقّق مدقّق، عميق النظر، دقيق الفكر، أديب أريب، شاعر ماهر، له اليد الطولى في العلوم العربيّة والفنون الأدبيّة، وهو أحد مراجع هذا العصر وزعمائه، له المنزلة العليا في مكارم الأخلاق، والكمالات النفسيّة، إلى آخره [ريحانة الأدب ٣: ٤٢٧].
وترجمه الفاضل المتتبّع الشيخ محمّد شريف الرازي في موسوعته گنجينة دانشمندان الفارسي ج ١ ص ٣٢٦ وما بعدها، ونقل في ص ٣٣١ كلام العلّامة الورع الشيخ عبّاس القمّي ﷺ في حقّه، وذلك في كتابه منتهى الآمال [٢: ٤١٤، الفصل السادس من الباب التاسع] وهو ما ملخّصه:
حجّة الإسلام سيّدنا السيّد صدر الدين نزيل مشهد الرضا ﷺ أحد زعماء الشريعة بتلك الديار، وفرع الشجرة الزكيّة، وخلاصة السلسلة المصطفويّة، وطراز العصابة العلويّة، المنتسب أشرف نسب علا عنصره، وأحسب حسب غلا جوهره، النسب النابت بطينة المجد الثابت بطيبة ونجد، سيّدنا السيّد صدر الدين، لا زالت شموس المفاخر بوجوده طالعة، وأقمار المآثر بسعوده طالعة. انتهى.
وقد أورد بعد ذلك نسبه بكامله.
وعقّب بعد ذلك الشيخ محمّد شريف الرازي فقال:
كان والله أباً رحيماً، رؤوفاً كريماً، وسيع الصدر، رفيع القدر، عظيم المنزلة، قلّ في الماضين مثله، وشذّ في الباقين عِدْله، فضائله لا تحصى، وخصائصه لا تنسى، ولعمري لا أنسى ألطافه الكريمة، وأياديه الجميلة، ومحاضره اللطيفة، وكأنّي به يسلّم على كلّ من يلاقيه في بحبوحة رئاسته من مسافة بعيدة؛ لكثرة تواضعه وهضم نفسه، كان والله تاركاً لهواه، مطيعاً لأمر مولاه، صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، متواضعاً لأهل الدين، ساعياً لأُمورهم، قاضياً لحوائجهم، مديراً مدبّراً في الحوزة العلميّة، وكان مشوّقاً للطلّاب والمحصّلين، مواظباً لأوضاعهم، مراقباً لأحوالهم، فلعمري عندما هاجرت من بلدتي الريّ إلى قمّ لم يكن لي كفيل يرعاني، فكان هو والله يأتيني ويتفقّدني، ويعطيني الشهريّة ويوصيني بأن لا يطّلع عليها أحد.
كان والله رجلاً عارفاً، بارعاً، ورعاً، سخيّاً، حليماً، صابراً، مجتهداً، مواسياً، وفي حلمه يقول القائل:

كفاك حلمك عن كلّ الكمال وقد ... حويت كلّ المزايا حالة الصغرِ ←

. . . .

← ولمّا نزل آية الله البروجردي في بلدة قمّ سبق من أقرانه إليه في المواساة له، وتقديم مكانه إليه والإيثار له، والاعتزال من الرئاسة والزعامة، وكان يقول ويتلو:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [گنجينة دانشمندان ١: ٣٢٢. والآية في سورة القصص (٢٨): ٨٣].

وترجمه الشيخ محمّد حسين ناصر الشريعة [كان من أفاضل أهل العلم، له تضلّع قويّ في التأريخ الإسلامي والأدبيّات والرجال، قليل النظير في ذلك، ولد في قمّ سنة ١٣١٢، وكان تقيّاً معروفاً بطيب ذاته وصفاء نفسه توفّي سنة ١٣٧٩. انتهى ملخّصاً عن مقدّمة تأريخ قمّ.] في تأريخ قمّ ص ٢٧٢، وأثنى كثيراً على صفاته وأخلاقه ومآثره ومزاياه.

وله ترجمة بقلم بعض الأعلام من أرحامه [هو العلّامة الفذّ السيّد محمّد بن السيّد محمّد صادق المتقدّمة ترجمته آنفاً. (تقدّمت في ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩)]. وهذه الترجمة لم تنشر بعد ونقتطف منها ما يلي:

أفكاره الاجتماعيّة إبّان شبابه: عاصر ﷺ مجتمعه الذي كان يعاني من الانحطاط والمشاكل والانحراف والفساد، فأثّر ذلك في نفسه، وآسفه كأيّ واعٍ كريم، حرّ الضمير، ووجد أنّ من واجبه أن يبادر في حدود إمكاناته لإزالة ذلك، أو تقليله والتخفيف من أثره عسى أن يرى المجتمع نتيجةً لجهوده، وجهود أمثاله من الواعين المنفتحين بعض النتائج الطيّبة التي تسرّه.

ومن ثمّ كان يعيش في تلك الفترة على مستوى الأحداث الاجتماعيّة، والمشاكل الطارئة، يكوّن لكلّ منهما رأياً ويجد لها حلّاً، وينشر ما يتوصّل إليه من نتائج وآراء في الصحف والمجلّات النافذة المفعول في ذلك الحين، أو ينظّمها في قصائد أو أبيات حماسيّة لاهبة؛ لكي يتلوها على أصحابه؛ أو لكي تأخذ طريق النشر.

كما أنّه قد يزيد على ذلك، فيقوم بتأليف الكتب المبسّطة السهلة؛ لتصل المطالب الحقّة، والمفاهيم الإسلاميّة الصحيحة إلى الشباب المتعطّش إلى الثقافة، التوّاق [التوّاق إلى الشيء: المشتاق إليه. راجع المعجم الوسيط: ٩٠، «ت. ا. ق».] إلى كنوز الإسلام، ومن هنا يفترض المؤلّف أن تدرّس هذه الكتب في المدارس، وذلك ككتابه مختصر تأريخ الإسلام، ورسالة الحقوق التي اقتبسها من كلام الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام.

ومن هنا كان ﷺ من المنشّطين [تنشّط للعمل: تهيّأ له وأقبل عليه. راجع المعجم الوسيط: ٩٢٢، «ن. ش. ط».] لمجلّة العرفان ومؤيّديها في السنوات الأولى من صدورها حتّى وجدنا صاحب العرفان يقول في تأبينه معترفاً بجميله: فإنّ العرفان مدينة له، لا سيّما حينما كان شابّاً، أي في أوّل نشأته وطلبه للعلم، فقد كان ←

انتقل سنة ١٣٧٤ إلى النجف الأشرف، وبقي فيها عدّة سنين، حضر خلالها في الفقه والأُصول على كبار مراجع الدين، كالسيّد محسن الحكيم، وأبي القاسم الخوئي وغيرهما.

← من مؤازري العرفان، وله في المجلّدين الثاني والثالث عدّة مقالات أكثرها بتوقيعه الرمزي «ص. ن» يعني صدر الدين.

وتواجه إذ نطالع أبحاثه المنشورة الروح الإجتماعيّة العالية، والفكر التجديدي الإسلامي، والنقد البنّاء، والتوجيه الدقيق، والذوق السليم، فنراه يعرض إلى موضوع قراءة الجرائد والمجلّات، والمكاتب ـ يعني المدارس ـ وأقسامها: والزوجة في الإسلام، وعليّ والسياسة، ولعلّه أوّل من كتب في هذا الموضوع الهامّ، وقد وقّعه بتوقيعه الصريح.

ولعلّنا نستطيع أن نحمل فكرةً واضحةً عن اتّجاه تفكيره لو عرضنا لتلخيص رأيه في الموضوعين الأوّلين المشار إليهما.

أمّا بالنسبة إلى تأييده لفكرة تأسيس المدارس فإنّه يقول في مفتتح كلامه: ليس الغرض تقسيم المكاتب من حيث الإصلاح من الابتدائيّة والرشديّة والإعداديّة وغيرها، بل تقسيمها من حيث المؤسّس لها فنقول: هي على ثلاثة أقسام: رسميّة، أجنبيّة، أهليّة.

ولا ننكر أنّ الأقسام الثلاثة تتضمّن سعادة البشر، وتنوير الأفكار، ولكنّنا نقول: إنّ الأهليّة منها أتمّ فائدةً، وأعمّ نفعاً من أُختيها ؛ وذلك لوجود معايب ونقائص سياسيّة وأخلاقيّة ودينيّة فيها دون الأهليّة. إلى أن يقول في آخر المقال: أقول: وأُوجّه خطابي إلى أبناء قومي الفرقة الجعفريّة: مالكم تكاسلتم وتغافلتم عن هذا الأمر المشروع، وفاز به غيركم؟ فأين الحميّة العربيّة والعاطفة الإسلاميّة؟

ياقوم: إنّ جهلنا وعدم وجود مكاتب أهليّة لنا أنزلنا إلى هذا الانحطاط.

دع عنك سائر حقوقنا المهضومة والامتيازات التي فاز بها غيرنا وحرمناها.

أقول: كأنّه ـ قدّس الله روحه ـ كان ينظر في ضمير الغيب إلى شباب العصر الحاضر، ومجتمعه المتميّع أخلاقيّاً، الفارغ عقائديّاً، الناتج بالضبط عن نقاط الضعف التي أشار إليها، والتي جاهد المستعمر في ترسيخ جذورها، وتعميم آثارها.

أمّا بالنسبة إلى قراءة الصحف والمجلّات فإنّه يقول: الجرائد والمجلّات الحرّة من أقوى عوامل الرقيّ والعمران وأسباب التمدّن والحضارة، وخير دليل إلى طريق الإصلاح.

ويستنتج من مجموع أجوبته أنّه يميل إلى ذلك القسم من المجلّات الدينيّة الأخلاقيّة التي تترفّع عن الكذب والإسفاف، وتدعو إلى العدل الإسلامي، والنهج المستقيم.

مؤلّفاته

وضع المؤلّفات الآتية:

١ ـ الإسلام وثقافة القرن العشرين.

٢ ـ الإسلام والتربية المدنيّة.

٣ ـ الإسلام والعبادات.

٤ ـ الإسلام والتطوّر.

٥ ـ تأمّلات حول بعث تعاليم الإسلام.

٦ ـ الإسلام والمرأة.

٧ ـ المعاملات الجديدة في ضوء الفقه الإسلامي.

كما وضع مقدّمات طويلة للمؤلّفات الآتية.

تاريخ الفلسفة الإسلاميّة للبروفسور الفرنسي هنري كوربان.

القرآن الكريم والعلوم الطبيعيّة للمهندس يوسف مروّة.

فاطمة الزهراء للأديب سليمان كتّاني، وهذا الكتاب نال جائزة أحسن كتاب عن فاطمة الزهراء عليها السلام.

وألقى مئات المحاضرات في الجامعات والمعاهد العلميّة اللبنانيّة، وفي الندوات اللبنانيّة، والمؤسّسات والمراكز الدينيّة والثقافيّة والاجتماعيّة الإسلاميّة والمسيحيّة، وفي مؤتمرات البحوث الإسلاميّة، وهي تحتوي على مواضيع مختلفة: دينيّة، تربويّة، ثقافيّة، اجتماعيّة، وطنيّة، قوميّة، إنسانيّة.

قدومه إلى لبنان

قدم لبنان ـ أرض أجداده ـ أوّل مرّة سنة ١٩٥٥ ـ ١٣٧٤ ـ فتعرّف على أسرته في صور، وحلّ ضيفاً في دار كبيرهم حجّة الإسلام، والزعيم الديني السيّد عبدالحسين شرف الدين الذي تعرّف إلى مواهبه ومزاياه، وصار يتحدّث عنه في

مجالسه بما يوحي بجدارته لأن يخلفه في مركزه بعد وفاته.

وبعد أن توفّي حجّة الإسلام السيّد عبدالحسين شرف‌الدين كتبت صور رسالةً إليه في قمّ تدعوه إليها[1].

وهكذا قدم لبنان في أواخر سنة ١٩٥٩ ـ أوائل سنة ١٣٧٩ ـ وأقام في مدينة صور.

نشاطاته قبل إنشاء المجلس الإسلامي

بدأ السيّد الصدر الرعاية الدينيّة والخدمة العامّة في صور، موسّعاً نطاق الدعوة والعمل الديني بالمحاضرات والندوات، ومتجاوزاً سلوك الاكتفاء بالوعظ الديني إلى الاهتمام بشؤون المجتمع، وتحرّك في مختلف قرى جبل عامل، ثمّ في قرى منطقة بعلبك والهرمل، يعيش حياة سكّانها ومعاناتهم من التخلّف والحرمان، ثمّ تجوّل في باقي المناطق اللبنانيّة، متعرّفاً على أحوالها ومحاضراً فيها، ومنشئاً علاقات مع الناس من مختلف فئات المجتمع اللبناني وطوائفه، وداعياً إلى نبذ التفرقة الطائفيّة، باعتبار أنّ وظيفة الدين هي الاستقامة الأخلاقيّة، وأنّ الأديان واحدة في البدء والهدف والمصير، وداعياً أيضاً إلى نبذ المشاعر العنصريّة، وإلى تفاعل الحضارات الإنسانيّة، وإلى مكافحة الآفات الاجتماعيّة والفساد والإلحاد.

وشارك مع الحركة الاجتماعية في عشرات المشاريع الاجتماعيّة، وساهم في العديد من الجمعيّات الخيريّة والثقافيّة، وأعاد تنظيم جمعيّة البرّ والإحسان[2] في صور وتولّى نظارتها العامّة، وجمع لها تبرّعات ومساعدات أنشأ بها مؤسّسة إجتماعيّة لإيواء وتعليم الأيتام وذوي الحالات الاجتماعيّة الصعبة، ثمّ أنشأ

١. وجّه الكتاب إليه أخي السيّد جعفر بتشجيع منّي حيث كنت آنذاك في قمّ وكتبت له في هذا الموضوع، وتمّ الرأي على ذلك.

٢. أسّس هذه الجمعيّة في صور أخي السيّد جعفر ونخبة من المؤمنين سنة ١٣٦٧، الموافقة لسنة ١٩٤٨، وكان رئيسها حتّى سنة ١٣٨١، ومن ثمّ وضعها بتصرّف السيّد موسى مع بقيّة مشاريعه.

مدرسةً فنيّةً باسم «مدرسة جبل عامل المهنيّة» وأنشأ مدرسةً فنيّةً عاليةً للتمريض، وكذلك مدرسةً داخليّةً خاصّةً للبنات باسم «بيت الفتاة».

وسافر إلى عدّة بلدان عربيّة وإسلاميّة وأفريقيّة وأُروبيّة مساهماً في المؤتمرات الإسلاميّة، ومحاضراً ومتفقّداً أحوال الجاليات اللبنانيّة والإسلاميّة، ودارساً معالم لحياة الأروبيّة، ومتّصلاً بذوي الفعّاليّات والنشاطات الإنسانيّة والإجتماعيّة والثقافيّة.

وبعد أن وقف على أحوال الطائفة الإسلاميّة الشيعيّة ومناطقها ومؤسّساتها في لبنان ظهرت له الحاجة إلى تنظيم شؤون هذه الطائفة، باعتبار أنّ لبنان يعتمد نظام الطوائف الدينيّة، وأنّ لكلّ من الطوائف الأُخرى تنظيماً يختصّ بها، وكان قد أنشئ بالمرسوم الاشتراعي رقم ١٨ تأريخ ١٩٥٥/١/١٣ تنظيم خاصّ بالطائفة الإسلاميّة السنيّة يعلن استقلالها، وأنش بعده بالقانون الصادر بتأريخ ١٩٦٢/٧/١٣ تنظيم خاصّ بالطائفة الدرزيّة، بحيث بقيت الطائفة الإسلاميّة الشيعيّة وحدها دون تنظيم.

فأخذ يدعو إلى إنشاء مجلس شؤون هذه الطائفة أُسوةً بالطوائف الأُخرى، ولقيت دعوته معارضةً من بعض الزعماء السياسيّين في الطائفة، ومن بعض القوى خارجها، واستمرّ متابعاً هذه الدعوة سنوات، وفي مؤتمر صحفي عقده في بيروت ـ بتأريخ ١٩٦٦/٨/١٥ ـ عرض آلام الطائفة ومظاهر حرمانها بشكل علمي مدروس، ومبنيّ على إحصاءات، وبيّن الأسباب الموجبة للمطالبة بإنشاء هذا المجلس، وأعلن أنّ هذا المطلب أصبح مطلباً جماهيريّاً تتعلّق به آمال الطائفة.

وأثمرت الدعوة نتائجها بإجماع نوّاب الطائفة الإسلاميّة الشيعيّة على تقديم اقتراح قانون بالتنظيم المنشود، أقرّه مجلس النوّاب بالإجماع في جلسة ١٩٦٧/٥/١٦، وصدّقه رئيس الجمهوريّة بتأريخ ١٩٦٧/١٢/١٩، وبمقتضاه أنشئ المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، ليتولّى شؤون الطائفة ويدافع عن

حقوقها، ويحافظ على مصالحها ويسهر على مؤسّساتها، ويعمل على رفع مستواها، ونصَّ القانون المذكور على أن يكون لهذا المجلس رئيس يمثّله ويمثّل الطائفة، ويتمتّع بذات الحرمة والحقوق والامتيازات التي يتمتّع بها رؤساء الأديان.

انتخابه وولايته

بتأريخ ١٩٦٩/٥/٢٣ انتخب أوّل رئيس للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، وكانت ولاية الرئيس محدّدة قانون إنشاء المجلس بستّ سنوات؛ ونظراً لكون ولاية رؤساء الطوائف الأُخرى تمتدّ مدى الحياة، فلقد جرى تعديل مدّة ولاية رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، بحيث أصبحت لغاية إتمامه الخامسة والستّين من العمر، وتمّ هذا التعديل وفقاً للأُصول بعد موافقة الهيئة العامّة للمجلس بالإجماع بتأريخ ١٩٧٥/٣/٢٩.

برنامجه

أعلن برنامج عمله لتحقيق أهداف المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في خطاب ألقاه يوم انتخابه، وفي كلمته الترحيبيّة برئيس الجمهوريّة اللبنانيّة عندما قدم لتهنئته بتأريخ ٦٩/٥/٢٩، وفي البيان الأوّل الذي أصدره بتأريخ ١٩٦٩/٦/١٠. يتضمّن هذا البرنامج الخطوط الرئيسيّة الآتية:

١ ـ تنظيم شؤون الطائفة وتحسين أوضاعها الاجتماعيّة والاقتصاديّة.

٢ ـ القيام بدور إسلامي كامل، فكراً وعملاً وجهاداً.

٣ ـ عدم التفرقة بين المسلمين، والسعي للتوحيد الكامل.

٤ ـ التعاون مع الطوائف اللبنانيّة كافّةً، وحفظ وحدة لبنان.

٥ ـ ممارسة المسؤوليّات الوطنيّة والقوميّة، والحفاظ على استقلال لبنان وحرّيّته وسلامة أراضيه.

٦ ـ محاربة الجهل والفقر والتخلّف والظلم الاجتماعي والفساد الخلقي.

٧ ـ دعم المقاومة الفلسطينيّة، والمشاركة الفعليّة مع الدول العربيّة الشقيقة لتحرير الأراضي المغتصبة.

سعية لحماية جنوب لبنان وصمود أهله.

صادفت الأشهر الأُولى من بداية ولاية السيّد الصدر اعتداءات إسرائيليّة على منطقة الحدود الجنوبيّة التي تقطنها كثافة شيعيّة، فقاد حملة مطالبة السلطات اللبنانيّة بتحصين قرى الحدود، وتسليح أبناء الجنوب، وتدريبهم للدفاع، ووضع قانون خدمة العلم، وتنفيذ مشاريع انمائيّة في المنطقة، وذلك إلى جانب قيامه بحملة توعية حول الأخطار التي تهدّد الجنوب، مع دعوة اللبنانيّين؛ لعدم النزوح من قراهم الحدوديّة، ولمجابهة الاعتداءات الإسرائيليّة.

وتحت ضغط هذه الحملة اتّخذت الحكومة اللبنانيّة قراراً بتأريخ ١٩٧٠/١/١٢، بوضع خطّة عامّة لتعزيز أوضاع منطقة الحدود اللبنانيّة.



تحرّكه الشعبي لإنقاذ الجنوب

إنشاء مجلس الجنوب

تابع السيّد الصدر بمحاضراته في المناطق اللبنانيّة كافّةً يطرح وضع الجنوب على المستوى الوطني العامّ معبّئاً المجتمع اللبناني بأسره؛ ليتحرّك باتّجاه إنقاذ الجنوب.

وعلى أثر العدوان الإسرائيلي بتأريخ ١٩٧٠/٥/١٢ على القرى الحدوديّة الجنوبيّة الذي ألحق خسائر جسيمة بأرواح المواطنين الأبرياء وممتلكاتهم، وتسبّب بنزوح أكثر من خمسين ألف مواطن من ثلاثين قرية حدوديّة، بادر السيّد الصدر بتأريخ ١٩٧٠/٥/١٣ إلى دعوة الرؤساء الدينيّين في الجنوب من مختلف الطوائف، فأسّس معهم هيئة نصرة الجنوب، التي أولته رئاستها، وأولت نيابة الرئاسة للمطران أنطونيوس خريش ـ بطريرك الطائفة المارونيّة فيما بعد ـ وتبنّت هذه الهيئة مطالب الصدر من أجل حماية الجنوب.

ثمّ دعا إلى إضراب وطني سلمي شامل لمدّة يوم واحد من أجل الجنوب، وتجاوب كلّ لبنان مع هذه الدعوة، ونفّذ الأضراب الشامل بتأريخ ١٩٧٠/٥/٢٦، واعتبر حدثاً وطنيّاً كبيراً.

واجتمع مجلس الجنوب في مساء اليوم ذاته، فأقرّ تحت ضغط التعبئة العامّة مشروع قانون وضع أفكار الصدر موضع التنفيذ، ويقضي بإنشاء مؤسّسة عاملة تختصّ بالجنوب مهمّتها تلبية حاجات منطقة الجنوب، وتوفير أسباب السلامة والطمأنينة لها، وصدّر هذا القانون بتأريخ ١٩٧٠/٦/٢، وسنداً له أنشئ مجلس الجنوب، وربط برئاسة مجلس الوزراء، وتأمّنت لهذا المجلس واردات بلغ مجموعها لغاية منتصف سنة ١٩٨٠، أكثر من مائتي مليون ليرةً لبنانيّةً، خصّصت لتعزيز

صمود الجنوبيّين، وللتعويض عن أضرار الاعتداءات الإسرائيليّة، وللإنفاق على مشاريع وخدمات عامّة في الجنوب.

حركته من أجل المحرومين

مع استمرار الاعتداءات الإسرائيليّة على جنوب لبنان في سنة ١٩٧١ وما يليها، استمرّ الصدر حاملاً لواء الدفاع عن هذه المنطقة، ومعلناً أنّ إنهيارها يعني انهيار لبنان، ومؤكّداً مطالبته بالتجنيد الإجباري، وتعميم الملاجئ، وتحصين القرى، وتأمين وسائل الدفاع الحديثة.

إلى جانب مطالبته هذه قاد حملة مطالبة السلطة اللبنانيّة بتنمية المناطق المحرومة، إلغاء التمييز الطائفي وإنصاف الطائفة الإسلاميّة الشيعيّة في المناصب الوزاريّة، والوظائف العامّة، وموازنات المشاريع الإنمائيّة.

أنكر العهد الجمهوري الجديد في لبنان ـ عهد الرئيس فرنجية الذي بدأ في أيلول سنة ١٩٧٠ ـ على المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى ورئيسه حقّهما القانوني في تعاطي الشؤون العامّة، فتجاهلت الدولة هذه الحملة.

أعلن الصدر بتأريخ ١٩٧٤/٢/٢ معارضته للحكّام المسؤولين في لبنان؛ لأنّهم يتجاهلون حقوق المحرومين وواجب تعمير المناطق المتخلّفة، ويهدّدون بسلوكهم أمن الوطن وكيانه.

صعّد الصدر حملته من أجل المحرومين بمهرجانات شعبيّة عارمة، كان أضخمها مهرجان بعلبك بتأريخ ٧٤/٣/١٧، ومهرجان صور بتأريخ ٧٤/٥/٥، اللذين ضمّ كلّ منهما أكثر من مائة ألف مواطن، أقسموا مع الصدر على أن يتابعوا الحملة، وأن لا يهدأوا إلى أن لا يبقى محروم في لبنان أو منطقة محرومة.

وهكذا ولدت حركة المحرومين التي رسم مبادأها الصدر بقوله: «إنّ حركة المحرومين تنطلق من الإيمان الحقيقي بالله وبالإنسان وحرّيّته الكاملة وكرامته، وهي ترفض الظلم الاجتماعي ونظام الطائفيّة السياسيّة، وتحارب بلا هوادة

الاستبداد والإقطاع والتسلّط وتصنيف المواطنين، وهي حركة وطنيّة تتمسّك بالسيادة الوطنيّة، وبسلامة أرض الوطن، وتحارب الاستعمار والاعتداءات والمطامع التي يتعرّض لها لبنان».

إثر المهرجانات اهتمّت قيادة الجيش اللبناني بالمطالب، فشكّلت بتاريخ ٧٤/٦/٢٠ لجاناً مشتركةً من اختصاصيّين في الجيش، واختصاصيّين انتدبهم الصدر لدراسة المطالب، وعددها عشرون مطلباً، ولتحديد وسائل تنفيذها وضعت هذه اللجان تقارير عن بعض هذه المطالب بقيت دون نتيجة، فتابع الصدر بنداء وجّهه علماء المسلمين الشيعة إلى السلطة بتاريخ ٧٤/٨/٤، بتأييد حركة المطالبة والتحذير من مغبّة الاستمرار في إهمال المطالب أو تمييعها، وباجتماعات عقدها مع شخصيّات البلاد، ورؤساء الطوائف والأحزاب، وبحوار مع نخبة من المفكّرين اللبنانيّين من مختلف الطوائف انتهى بوثيقة وقّعها ١٩٠ مفكّراً بإقرار هذه المطالب، ثمّ دعا إلى اجتماع عقدته الهيئة العامّة للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى بتاريخ ٧٤/٩/١٣، وهي تضمّ أكثر من ألف شخص، هم علماء الطائفة ونوّابها، وكبار موظّفيها في الدولة، ونخبة من أبنائها المجلّين في مختلف النشاطات والفعاليّات السياسيّة والاجتماعيّة والمهنيّة والاقتصاديّة والفكريّة. فأقرّت هذه الهيئة بالإجماع التأييد المطلق للسيّد الصدر في جهاده الوطني من أجل المطالب، واستنكار موقف الدولة اللامبالي منها، وتفويضه باتّخاذ كافّة الخطوات في سبيل تحقيق هذه المطالب.

وحدث على أثر ذلك أن استقالت الحكومة، وقامت حكومة جديدة تعهّدت بموقف إيجابي من المطالب. إلّا أنّه لم ينقض على حكمها سوى أشهر قليلة حتّى قدّمت استقالتها بتاريخ ٧٥/٥/١٥ تحت وطأة حادث مقتل النائب السابق معروف سعد، وحادث أتوبيس عين الرمانة، اللذين كانا الشرارة لاندلاع الحرب اللبنانيّة فيما بعد، وأعلن رئيس تلك الحكومة رشيد الصلح في بيان تلاه بالتأريخ المذكور في مجلس النوّاب أسباب الاستقالة، وقد تضمّنت حسب البيان: أنّ

الامتيازات الطائفيّة التي تشكّل أساس النظام السياسي اللبناني تحوّلت إلى عائق يمنع أيّ تقدّم، ويحول دون المساواة الحقيقيّة بين المواطنين بما يقضي على الحرمان، ويرفع من مستوى المناطق المحرومة.

دوره في إنشاء أفواج المقاومة اللبنانية «أمل»

في خطاب ألقاه الصدر بتأريخ ١٩٧٥/١/٢٠ ـ بمناسبة ذكرى عاشوراء دعا المواطنين اللبنانيّين إلى تشكيل مقاومة لبنانيّة تتصدّى للاعتداءات الإسرائيليّة وللمؤامرات، التي تدبّرها إسرائيل لتشريد اللبنانيّين من أرضهم؛ لأنّ الدفاع عن الوطن ليس واجب السلطة وحدها، وإذا تخاذلت السلطة فهذا لا يلغي واجب الشعب في الدفاع.

وفي مؤتمر صحفي عقده الصدر بتاريخ ١٩٧٥/٧/٦ أعلن ولادة أفواج المقاومة اللبنانيّة «أمل» وقدّمها بأنّها «أزهار الفتوّة والفداء ممّن لبّوا نداء الوطن الجريح .الذي تسترّت إسرائيل بالاعتداء عليه من كلّ جانب وبكلّ وسيلة».

وأوضح أنّ شباب أمل هم الذين استجابوا لدعوته من أجل حماية الوطن وصيانة كرامة الأمّة، عندما وجّه لهذه الغاية دعوته إلى اللبنانيّين جميعاً بتأريخ ١٩٧٥/١/٢٠، في الأيّام التي بلغت فيها الاعتداءات الإسرائيليّة على الجنوب ذروتها، ولم تقم السلطات المسؤولة بواجبها الدفاعي عن الوطن والمواطنين.

وبرهن شباب أمل على أرض جنوب لبنان عن مواقف بطوليّة في عدّة معارك مع العدوّ الإسرائيلي ـ معركة الطيّبة مثلاً ـ وسقط منهم شهداء في الهجمات الإسرائيليّة المتكرّر على الجنوب، وكان لهم فضل كبير في منع صهينة القطّاع الحدودي، وفي تثبيت المواطنين في قراهم الجنوبيّة.

إنجازاته في المشاريع وتمليك عقارات الأوقاف

في بدء ولايته عمل على تأمين مقرّ للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في بناء

لائق يتألّف من أربعة طوابق، ويقوم على عقار مساحته ٦٤٧٥ متراً مربّعاً، ويحتوي على قاعات واسعة للاجتماعات العامّة، ويقع في محلّة الحازميّة بضاحية بيروت الشرقيّة الجنوبيّة. سجّلت ملكيّة هذا العقار باسم أوقاف الطائفة الإسلاميّة الشيعيّة.

كما عمل على تمليك أوقاف الطائفة عقاراً ثانياً في ضاحية بيروت الغربيّة الجنوبيّة ـ محلّة خلدة ـ مساحته ۷۹۰٤ متراً مربّعاً، ويقوم عليه بناء مؤلّف من سبع طوابق، أطلق عليه اسم مدينة الزهراء الثقافيّة والمهنيّة، تستعمله مؤسّسات الطائفة.

وأمّن لمشاريع المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الانتفاع من قطعة أرض مساحتها ١٥٣٤ متراً مربّعاً من مشاعات الغبيري في ضاحية بيروت الغربيّة الجنوبيّة، ـ محلّة الجناح ـ وأنشأ عليها مستشفى الزهراء التابع للمجلس.

وحقّق شراء ١٩٠ ألف متر مربّع من الأراضي في الوردانيّة ـ طريق صيدا، بيروت ـ لتشييد مؤسّسات اجتماعيّة وثقافيّة ومهنيّة عليها، وسجّل ملكيّة هذه الأرض باسم أوقاف الطائفة.

كما حقّق لجمعيّة البرّ والإحسان في صور التي يتولّى نظارتها العامّة، وهي من مؤسّسات الطائفة ذات المنفعة العامّة شراء ٩٠٠ ألف متر مربّع في اللبوة ـ بعلبك ـ لإنشاء مدرسة فنيّة زراعيّة ومشاريع أخرى عليها.

وعمل على توسيع منشآت وتجهيزات جمعيّة البرّ والإحسان في صور؛ تحقيقاً لتوسيع المؤسّسات المهنيّة التابعة لها؛ ولإنشاء المدرسة الفنيّة العالية للتمريض التي استحدثها.

وأقام مبرّة الإمام الخوئي لرعاية أبناء الشهداء في برج البراجنة وبعلبك والهرمل.

كما أقام مراكز صحيّة في برج البراجنة وحيّ السلم ـ ضاحية بيروت الجنوبيّة ـ وفي صور.

وتقدّر قيمة هذه العقارات والمنشئات والتجهيزات بأكثر من مائة مليون ليرة لبنانيّة.

موقفه من الحرب الداخليّة في لبنان

فور انطلاق الشرارة الأُولى لهذه الحرب بتأريخ ١٩٧٥/٤/١٣ بادر إلى بذل المساعي الحميدة والجهود لدى مختلف الفرقاء لخنق الفتنة وتهدئة الوضع، ووجّه نداءً عامّاً نشر بتأريخ ١٩٧٥/٤/١٥ حذّر فيه من مؤامرات العدوّ، ومخطّطات الفتنة، ودعا اللبنانيّين لحفظ وطنهم وفي قلبه مكان الثورة الفلسطينيّة، وناشد الثوّار الفلسطينيّين لحفظ قضيّتهم التي جعلت لها من قلب لبنان عرشها.

وبادر الصدر إلى دعوة عدد كبير من نخبة المفكّرين وممثّلي الفعاليّات اللبنانيّة، اجتمع منهم ٧٧ شخصاً في مركز المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى بتأريخ ٧٥/٤/١٨، وشكّلوا من بينهم لجنة دعيت «لجنة التهدئة الوطنيّة» اجتمعت فوراً بممثّل المقاومة الفلسطينيّة، وباشرت مهمّتها لتهدئة الأوضاع، وتحديد أسباب المحنة، ووضع الحلول الآنيّة والبعيدة المدى، مسترشدةً بتوجيهات السيّد الصدر القاضية بوجوب المحافظة على تعايش الطوائف اللبنانيّة، واعتماد الحوار والوسائل الديمقراطيّة؛ سبيلاً لتحقيق الإصلاحات السياسيّة والاجتماعيّة، ورفض القهر الطائفي، ووجوب المحافظة على التعايش اللبناني الفلسطيني، وصيانة الثورة الفلسطينيّة.

ولمّا استمرّ القتال واستقالت الحكومة بتأريخ ٧٥/٥/٢٦، وظهرت صعوبات في وجه قيام حكومة جديدة الأمر الذي هدّد بخطر انقسام الوطن اعتصم الصدر بتأريخ ٧٥/٦/٢٧ في مسجد الصفا ببيروت، متعبّداً وصائماً، وأعلن: «نعتصم لنفرض على المواطنين الاعتصام عن السلاح الذي يستعمل ضدّ اللبنانيّين والإخوان، إنّنا نريد أن نخنق صفحة العنف بصفحة العبادة والاعتصام والصيام، فالسلاح لا يحلّ الأزمة، بل يزيد في تمزيق الوطن». وطالب بالإسراع في إيجاد حكومة وطنيّة تعيد السلام، وتقيم المصالحة الوطنيّة على أُسس واضحة، يعاد بناء الوطن عليها، وتلبّي مطالب المحرومين، ولقيت خطوته تأييداً شاملاً في الوسائط

الدينيّة لدى مختلف الطوائف والأوساط الشعبيّة والسياسيّة، وتآلفت حكومة جديدة بتأريخ ٧٥/٧/١، فأنهى اعتصامه بعد أن تلقّى وعداً بتبنّي المصالح المطروحة والعمل على تنفيذها. وسارع إلى منطقة بعلبك الهرمل؛ ليعمل على فكّ الحصار عن قرية القاع المسيحيّة، وتهدئة الأوضاع في المنطقة.

كانت نظرته إلى الحرب اللبنانيّة منذ بدايتها حسب قوله ـ في جلسة عقدها المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى بتأريخ ١٩٧٥/٩/١٣ ـ: «إنّ انفجار الوضع اليوم يؤدّي إلى سقوط لبنان، وتحجيم المقاومة الفلسطينيّة، وإلحاق الضرر الكبير بسوريّة، والقضيّة العربيّة، وهو لمصلحة العدوّ الإسرائيلي» ولذا ألحّ منذ البدء في الدعوة إلى المصالحة الوطنيّة على أُسس جديدة للوطن، تحقّق العدالة الاجتماعيّة، ومعالجة الحرمان، وتصون جنوب لبنان، وكانت مطالبته بالأُسس الجديدة للوطن منطلقةً من نظرة عبّر عنها في الجلسة المشار إليها بقوله: «لم يتّفق اللبنانيّيون منذ الاستقلال، وعند قرار تأسيس لبنان الكبير على المبادئ الوطنيّة الأساسيّة، فاجتنبوا بالمجاملات، واستعمال الكلمات ذات المعاني المتعدّدة، وباختيار أنصاف الحلول لمشاكلهم، حتّى كاد أن لا يحسّ بوحدة الشعب اللبناني».

دعا لإقامة حوار لبناني مهّد له بمبادرته التي حقّقت بتأريخ ٧٥/١٠/٤، عقد مؤتمر قمّة للرؤساء الدينيّين لمختلف الطوائف اللبنانيّة، نتج عنه التأكيد على وجوب استمرار تعايش الطوائف في لبنان، والدعوة إلى الحوار ووقف القتال، وتبنّي مطلب تحقيق العدالة الاجتماعيّة، وإنصاف المحرومين، والتمسّك بالسيادة الوطنيّة، ورفض التقسيم، ودعم القضيّة الفلسطينيّة.

بتأريخ ٧٥/١١/٢٧ أعلن ورقة عمل للحوار الوطني متضمّنةً مقترحات محدّدة للإصلاحات المنشودة في شتّى الحقول، وعندما نادى رئيس الجمهوريّة، ورئيس الوزراء بتأريخ ٧٥/١١/٣٠ بالمصالحة الوطنيّة سارع إلى التأييد.

ولمّا وقعت مجزرة السبت الأسود بتأريخ ٧٥/١٢/٦، وقتل فيها حوالي مائتي

شخص من أبناء الطائفة الإسلاميّة الشيعيّة، فيما كانوا بأعمالهم في منطقة مرفأ بيروت، وأُحرقت بتأريخ ٧٥/١٢/١١ ـ وبعده ـ مساكن المسلمين الشيعة، وهجّروا من حارّة الغوارنة وسبنيه ورويسات الجديدة وعين ياقوت والزلقاء، الواقعة ضمن مناطق ذات أكثريّة مسيحيّة، وظهرت بوادر للتدخّل الإسرائيلي في لبنان، مع إقدام إسرائيل على إزالة الشريط الحدودي في بعض المواقع، ودخول جيشها الأراضي اللبنانيّة، وقيام طيرانها بتأريخ ٧٥/١٢/٢ بالقصف الجوّي الواسع الذي أدّى إلى تقديم لبنان شكوى إلى مجلس الأمن، في هذه الظروف أعلن في خطبة له في صور بتأريخ ٧٥/١٢/٢١: «إنّ ملامح تقسيم الوطن قد برزت»، وحذّر من مخاطر إقامة إسرائيل جديدة في لبنان، وتصفية القضيّة الفلسطينيّة، والاعتداء الإسرائيلي على الجنوب، ودعا للتدريب وحمل السلاح دفاعاً عن النفس والوطن، ومنعاً للتقسيم، وشدّد على وجوب حماية الأقليّات من الطوائف الأُخرى المقيمة في مناطق إسلاميّة، محذّراً من الاعتداء والانتقام من الأبرياء، وإلى جانب ذلك استمرّ يوجّه النداءات لوقف القتال، وإعادة النظام والسيادة الوطنيّة، وللعودة إلى الحوار والتلاقي.

شارك في اجتماعات القمّة الإسلاميّة التي تكوّن من رؤساء الطوائف الإسلاميّة، ورئيس الوزراء، وبعض كبار الشخصيّات الإسلاميّة السياسيّة، والتي رفضت الحكومة العسكريّة المعيّنة بتأريخ ٧٥/٥/٢٣، ورحّبت بالمبادرة السوريّة الّتي أدّت إلى الوثيقة الدستوريّة التي أعلنها رئيس الجمهوريّة بتأريخ ١٩٧٦/٢/١٤. اعتبر الوثيقة الدستوريّة مدخلاً للسلام النهائي في لبنان وأرضيّةً للوفاق الوطني، وأنّ كلّ تعديل لها يجب أن يتمّ بالطرق الديمقراطيّة، والحوار الهادئ في المستقبل، وعلى هذا الأساس استمرّ بتأييد الوساطة السوريّة الرامية إلى إنهاء الحرب، وإجراء مصالحة وطنيّة، وشجب بشدّة استئناف القتال في أواخر آذار سنة ١٩٧٦، وتوسيع رقعته في الجبال.

بذل جهوداً لإزالة سوء التفاهم بين المقاومة الفلسطينيّة وبين سوريّة، وتحمّل لهذه

الغاية مخاطر الانتقال مراراً إبّان المعارك بين بيروت ودمشق، وأمّن اللقاء بين الرئيس الأسد ورئيس منظّمة التحرير الفلسطينيّة بحضوره وإسهامه في إنجاح المحادثات بتأريخ ٧٦/٥/٦، الأمر الذي أسهم في تأمين انعقاد مجلس النوّاب اللبناني بتأريخ ٧٦/٥/٨، حيث تمّ انتخاب رئيس الجمهوريّة الجديدة، وتحقّق بذلك استمرار السلطة الشرعيّة اللبنانيّة، واستأنف هذه الجهود خلال شهري حزيران وتموز سنة ١٩٧٦، عندما اهتزّت العلاقات مجدّداً بين الطرفين.

عارض بشدّة أعمال الجبهتين المتحاربتين في لبنان في إنشاء إدارات محليّة تابعة لهما بديلةً عن الإدارات الرسميّة، وندّد بهذه الأعمال في بيانه بتأريخ ٧٦/٤/٢٧، معتبراً هذه الأعمال أنّها تمهيد لتقسيم الوطن، وناعتاً القائمين بها أنّهم انفصاليّون، وانتقل إلى بعلبك بتأريخ ٧٦/٧/٢٣ يعمل على إحياء الإدارات الرسميّة في محافظة البقاع ولبّى المحافظ دعوته ابتداءً من تأريخ ١٩٧٦/٨/٧، حيث عاد إلى مزاولة وظيفته، وأُعيد سير دوائر المحافظة.

سعيه لإنهاء الحرب الداخليّة في لبنان

أدرك أنّ إنهاء الحرب في لبنان يتطلّب قراراً عربيّاً مشتركاً، وأنّ هذا القرار يجب أن يسبقه وفاق عربي، فانتقل إلى دمشق بتأريخ ٧٦/٨/٢٣، ومنها إلى القاهرة بتأريخ ٧٦/٩/٢، عاملاً في تنقية الأجواء بين البلدين، وتوحيد موقفيهما من حرب لبنان من أجل إنهائها، واستمرّ لغاية ٧٦/١٠/١٣، متنقّلاً بين هذين البلدين، وبين السعوديّة والكويت، ومتّصلاً برئيس الجمهوريّة اللبنانيّة الجديد، وبالمقاومة الفلسطينيّة، ساعياً مع الملوك والرؤساء والمسؤولين العرب؛ لتحقيق تضامن عربي ينهي حرب لبنان، وأثمرت هذه المساعي مع مساعي مسؤولين عرب، وانتهت بانعقاد مؤتمر قمّة الرياض بتأريخ ١٩٧٦/١٠/١٦، الذي تلاه مؤتمر قمّة القاهرة بتأريخ ٧٦/١٠/٢٥، وفيهما تقرّر إنهاء الحرب اللبنانيّة، وفرض ذلك بقوات الردع العربيّة.

مع دخول قوات الردع العربيّة دعا إلى الخروج من أجواء الحرب، والالتفاف حول الشرعيّة اللبنانيّة، والتمسّك بوحدة لبنان الواحد، وصيانة كيانه واستقلاله، وإعادة بناء الوطن ومؤسّساته، وأعلن بتأريخ ١٩٧٧/٥/١١، ورقة عمل بمقترحات الإصلاحات السياسيّة والاجتماعيّة، والمبادئ الأساسيّة لبناء لبنان الجديد، متمسّكاً بصيغة التعايش بين طوائفه الدينيّة، ونادى بفصل الأزمة اللبنانيّة عن أزمة الشرق الأوسط، وبوضع اتّفاق بديل لاتّفاق القاهرة في تنظيم العلاقات بين الدولة اللبنانيّة والمقاومة الفلسطينيّة، ودعا الحكومة اللبنانيّة لاتّخاذ مواقف حازمة ممّن يعرقلون مسيرة السلام والوفاق.

سعيه لإنقاذ جنوب لبنان

لم تدخل قوات الردع العربيّة جنوب لبنان، ولم تتمكّن السلطة اللبنانيّة من بسط سيادتها على هذه المنطقة، فانتقل إليها صراع الفئات والقوى التي كانت تتصارع على الأراضي اللبنانيّة الأُخرى قبل دخول القوات المذكورة.

واشتدّت محنة جنوب لبنان، وباتت هذه المنطقة مسرحاً لأحداث خطيرة تهدّد مصيرها، فيما كان الصدر يتابع مساعيه مع المسؤولين والقيادات في لبنان ورؤساء بعض الدول العربية، ويرفع صوته في الخطابات والأحاديث الصحفيّة والمناسبات، ابتداءً من أواخر سنة ١٩٧٦، وطيلة سنة ١٩٧٧، وفي أوائل سنة ١٩٧٨؛ محذّراً من كارثة في جنوب لبنان، ومن خطر تعريضه للاحتلال الإسرائيلي، ولمؤامرات التوطين؛ وداعياً لتحقيق السلام في هذه المنطقة؛ ولإعادة سلطة الدولة اللبنانيّة عليها.

ولمّا حصل الاجتياح الإسرائيلي لهذه المنطقة بتأريخ ١٩٧٨/٣/١٤، واستقرّ الاحتلال الإسرائيلي في الشريط الحدودي من جنوب لبنان قام بجولة جديدة على الدول العربيّة، يعرض خلالها على الملوك والرؤساء العرب واقع الأوضاع في هذه المنطقة، مطالباً بإبعاد لبنان عن ساحة الخلاف العربي، ويعقد مؤتمر قمّة

عربي محدود يعالج قضيّة جنوب لبنان، ويعمل على إنقاذه، وبعد أن زار لهـذه الغـاية سـوريّا والأُردن والسـعوديّة والجـزائـر، ثـمّ انـتقل إلى لـيـبيا بـتأريخ ١٩٧٨/٨/٢٥.

إخفاؤه في ليبيّا

وصل إلى ليبيّا في التأريخ المذكور يرافقه فضيلة الشيخ محمّد يعقوب، والصحفي الأُستاذ عبّاس بدرالدين في زيارة رسميّة، وحلّوا ضيوفاً على السلطة الليبيّة في فندق الشاطئ بطرابلس الغرب.

وكان قد أعلن قبل مغادرته لبنان أنّه مسافر إلى ليبيّا من أجل عقد اجتماع مع العقيد معمّر القذّافي.

أغفلت وسائل الإعلام الليبيّة أخبار وصوله إلى ليبيّا ووقائع أيّام زيارته لها، ولم تشر إلى أيّ لقاء بينه وبين العقيد القذّافي، أو أيّ من المسؤولين الليبيّين الآخرين، وانقطع اتّصاله بالعالم خارج ليبيا على خلاف عادته في أسفاره، حيث كان يكثر من اتّصالاته الهاتفيّة يوميّاً بأركان المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان وعائلته.

شوهد في ليبيا مع رفيقيه لآخر مرّة ظهر يوم ١٩٧٨/٨/٣١.

بعد أن انقطعت أخباره مع رفيقيه، وأُثيرت ضجّة عالميّة حول اختفائه مـعهما.

أعلنت السلطة الليبيّة بتأريخ ٧٨/٩/١٨: أنّهم سافروا من طرابلس الغرب مساء يوم ٧٨/٨/٣١ إلى إيطاليا على متن طائرة «أليطاليا».

وجدت حقائبه مع حقائب فضيلة الشيخ محمّد يعقوب في فندق «هوليداي أن» في روما.

أجرى القضاء الايطالي تحقيقاً واسعاً في القضيّة، انتهى بـقرار اتّـخذه المـدّعي العامي الاستئنافي في روما بتأريخ ٧٩/٦/١٢ بحفظ القضيّة بـعد أن ثـبت أنّ الصدر مع رفيقيه لم يدخلوا الأراضي الايطاليّة، وتضمّنت مطالعة نائب المـدّعي العام الايطالي المؤرّخة في ١٩٧٩/٥/١٩ الجزم بأنّهم لم يغادروا ليبيا. إنتهى.

الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر

«الشهيد الثالث»

نبذة عن حياته العلميّة وآثاره

إنّه ـ الشهيد الثالث ـ السيّد محمّد باقر بن السيّد حيدر بن السيّد إسماعيل بن السيّد صدرالدين محمّد بن السيّد صالح بن السيّد محمّد بن السيّد شرف‌الدين إبراهيم، فقد ولد في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٣٥٣، وأُصيب وهو طفل صغير بفقد المقدّس أبيه[1]،

---

١. وبعد وفاته كتب عنه بعض الأعلام ـ العلّامة الفقيه الحجّة الشيخ محمّد تقيّ صادق عليه الرحمة والرضوان ـ ترجمةً مفصّلةً، نشرت في العدد ٤٢ من السنة الثانية من مجلّة الغريّ، ولنذكرها بنصّها، وهي مايلي: **ترجمة حجّة الإسلام السيّد حيدر آل الصدر:** أُسرته الكريمة، مولده ومنشؤه، ثروته العلميّة، شخصيّته الأدبيّة، مؤلّفاته القيّمة، مشايخه وتلاميذه، أخلاقه وتقواه، صدى وفاته وأثره السيّء في النفوس. **آل الصدر** أُسرة كريمة عريقة في المجد، سابقة في الشرف، أضافت إلى شرف النسب اللامع، والقرب من رسول الله ﷺ شرف السبق بالعلم والعمل والكمال والفضيلة، فهي مشرق أنوار الفقاهة، ومطلع شموس المعارف، غنيّة بشهرتها الواسعة عن التعريف. أُسرة ملكت أعناق الحمد، وانقادت لايمانها صعاب المعالي، فإذا هي المثل الأعلى لكلّ كمال، والمرجع العامّ لكلّ فضيلة، ما زالت ولا تزال في كلّ عصر، تقدّم من أبنائها إلى مستوى النبوغ، وتنظم منهم في مصاف التفوّق والتفرّد أعلاماً وأفذاذاً أوحديّين فضلاً وشرفاً وكمالاً ونبلاً، وإنّ من أُولئك الأعلام الذين ملأوا الأسماع والأبصار والأفئدة عظمةً وجلالةً: آية الله **السيّد إسماعيل الصدر** ذلك الإمام العلم المفرد، الذي انتهت إليه الزعامة الدينيّة في القرن الرابع عشر على أثر وفاة أُستاذه الأعظم، كعبة الإسلام، وحسنة الأيّام، آية الله الشيرازي، المتوفّى سنة ١٣١٢. ←

وحرم من عطفه وكنفه، ولكنّ الله سبحانه حباه بعطف أمّ برّة تقيّة شريفة، هي بنت حجّة الإسلام الشيخ عبدالحسين آل ياسينﷺ، فحدبت عليه بعطفها ورعايتها، فأرضعته لبان التقوى ومكارم الأخلاق، وربّته على الخير والإيمان .

← ولقد كانت الأبصار طامحةً إليه من ذي قبل، لتفوّقه وسبقه سبقاً بعيداً في مواهبه السنيّة، ومنتوجات أفكاره الثاقبة، وروائع تنبيهاته الرشيقة، في علمه الجمّ، وتبحّره الفذّ، وعواطفه الشريفة، وأخلاقه العالية، في زهده وورعه، حتّى لقد كان ينفر من الناس، وهم يتثالون عليه في المرجعيّة والتقليد، ويفرّ من بين يديهم فرار الزئبق من اليد، فينثره يمنةً ويسرةً، زهداً بهذه الحياة، وخلوداً إلى الوحدة، ورغبةً في الانزواء والانقطاع للعبادة والتدريس شأن أولياء الله المخلصين، وإنّ أكرم موهبة اصطفاها الله له أن خصّه بأنجال كرام، آيات علم، ومصابيح هدى، وأعلام فضل، تزدان بهم الصدور، وتشرق بأنوارهم النوادي، يمثل بعضهم بعضاً خَلقاً وخُلقاً وسمتاً وهدياً، كلاماً تقرأه دائرة معارف، ونهج بلاغة، وقلم حكمة وفلسفة وتحقيقاً، وإنّ منهم المرحوم الحجّة المترجم.

مولده ومنشأه: ولد في سرّ من رأى، دار هجرة أبيهﷺ سنة ١٣٠٩، وإنّ ملامح النبوغ والذكاء تتجلّى في أسارير وجهه، وأنوار الفطنة والنباهة تتدفّق من جوانبه، وهناك في تلك التربة الزاهرة، والجوّ الصافي، والهواء الطلق، نشأ منشأ كريماً يتناسب ومواهبه الفطريّة، حتّى إذا بلغ الخامسة من عمره، هاجر به والده الكريم إلى الكاظميّة، فكربلاء المشرّفة، وعني بتربيته تربيةً علميّةً صالحةً منتجةً، يتعهّده في كلّ أحايينه، فيحسن له الرقابة، وينعم له النظر والرعاية، ويغذّيه التغذية الصحيحة، إلى أن نما ريّان النفس بالأخلاق العذبة، مفعم القلب بالملكات الشريفة.

وإنّ من كانت له تلك المواهب الشذيّة، والاستعدادات الفطريّة، والمميّزات القيّمة، ثمّ أتيح له مدرسة خصبة تحضنه، ومعلّم حكيم يرعاه بطرف ساهر، ويتعهّده بالأغذية الملائمة لمواهبه الفذّة إلى أن نشأ واشتدّ ساعده، لحري أن لا يدع لحسن الثناء، وكريم الحمد، والعبقريّة اللامعة، والنبوغ المتفوّق، أحداً أولى بها منه.

وكذلك كانﷺ فلم يتمّ العقد الثاني من عمره حتّى نبغ وتفرّد وأرهف فكره المتوقّد لتذليل صعاب المعالي، ونصب نفسه الطموحة لاقتناص شوارد المجد، وتسابقت إليه الإشارات بالتفوّق والتفرّد بالفضل والفضيلة، وانعقدت عليه خناصر الآمال للمستقبل، وشخصت أنظار الرجاء الصادق لأن يكون علمه المفرد ومرجعه الوحيد.

ولقد كان من مميّزاته الوحيدة أنّه منذ استقبل بالرغبة والنشاط طلب العلوم، وانبعث لا يلوي على شيء شوقاً إلى مناهله العذبة إلى أن أصبح علماً من الأعلام، ما وهن عزمه ولا فترت همّته عن الجدّ فيه طلباً وتفكيراً ومذاكرةً وتدريساً، ولقد اتّفق في عصره حوادث تذهل المرء عن نفسه، وانقلابات فجائيّة هائلة مترامية الأطراف، تلتهب ←

ثمّ ابتدأ بالدرس والتحصيل، وظهرت عليه مخايل النجابة والفطنة من أوّل نشأته ،

← بها الآفاق ناراً، والنفوس عداوات وشحناء، وتحزّبات ذات اليمين وذات الشمال، فكانت هي نقطة التفكير واللهجة العامّة في الحديث، وهو ﷺ في معزل عن ذلك.

وكان ينفّس بالثانية من أوقاته أن يصرفها في ما لا يعنيه، وإنّما هـو منغمس في الجدّ والاجتهاد والتفكير في المسائل العلميّة حلّاً وعقداً، ونقضاً وإبراماً، ولا يجلس مجلساً إلّا ويستميله إليه حديثاً مهما كان ولعاً بغيرها.

ثروته العلميّة وشخصيّته الأدبيّة: يعجز القلم مهما كان قديراً ماهراً في فنّ التصوير أن يجيء بصورة تمثّل تلك الشخصيّة الكبيرة، وتلك الثروة العلميّة الخصبة، تراه حيث يندفع في تحرير مسألة فقهيّة أو حلّ مشكلة أصوليّة مصباحاً يتوقّد بيّنات وبراهين، وينابيع تتدفّق آيات محكمةً وحججاً نيّرةً، وإنّه مع تخلّيه للبحث في العلوم الفقهيّة والأصوليّة، يتحلّى بذوق عالٍ في الآداب، يقرّب إليه البعيد، ويخوّله الرأي السديد، وفكر دقيق في المسائل الحكميّة والمطالب العقليّة، ولا يتّفق ذلك مجتمعاً مع حفظ التوازن إلّا للأوحد الذي يحمل لكلّ علم وفنّ من هذه الفنون نفساً خاصّةً وقلباً ألمعيّاً يتناسب وإيّاه.

فهو في الفقه بذوق رشيق وسليقة معتدلة تصله بالعرف العامّ في تفهّمه لحن الخطاب، وتعرّفه النكت الخفيّة في السؤال والجواب، وفي المعقول بفكر دقيق متغلغل في البحث، يشقّ شقّاً متّكلاً على نفسه، ولا يقتفي به أثر شخص أيّاً كان، ولا يصغي لظاهر كلام، أو مدلول لفظ، أو لحن خطاب، كلّا ولا يأنس بألحان الخيال الجبّار، وسحر المنطق الدقيق، وليس بالسهل على النفس أن تنطبع في كلّ حال بما يناسبها.

ولقد كان السيّد المترجم ﷺ جامعاً ذلك الجمع وهو في كلّ فنّ ينفصل عن نفسه، ويتجرّد عن ذاته في الفنّ الآخر، حتّى كأنّه ليس من ورده ولا صدره، غير أنّ الأيّام الجائرة ضنّت به على الهيئة العلميّة، فقاطعته السير قبل الوصول، وضيّقت الخناق على قلمه، فكانت منتوجاته قليلةً، وإن كان قليله لا يقال له قليل.

مؤلّفاته القيّمة: لقد ظهر من رشحات قلمه العلمي حاشية على الكفاية، رسالة في المعاني الحرفيّة، رسالة تبعّض الأحكام لتبعّض الأسباب، رسالة في الوضع وأقسامه، رسائل أُخرى فقهيّة ممتعة، كان ينوي أن ينتهي بها إلى دورة كاملة، فحال القضاء دون ذلك.

مشايخه: لا شكّ أنّه كان يُتحرّى له ويتحرّى هو لنفسه أعلام الفضيلة وأفذاذ العلم والكمال من المدرّسين، فيختارهم له أساتذة.

ولقد حضر السطوح على العلّامة المفضال السيّد حسين الفشاركي، وتلمّذ في البحوث الخارجيّة في كربلاء على العلّامة الكبير، واحد عصره، وفريد دهره، آية الله الشيخ عبد الكريم اليزدي أيّام إقامته في كربلاء.

وإنّه في خلال ذلك يلتمس الحقائق الراهنة، ويحتسي المعارف الشذيّة كؤوساً دهاقاً، وارداً وصادراً عن موارد ←

فدرس المقدّمات معتمداً أكثرها على نفسه.

ودرس سطوح الفقه والأُصول على أخيه الحجّة السيّد إسماعيل، وقد ذكر عن أخيه

← آية الله والده المتدفّقة تحقيقاً ودقّةً وتصديقاً. حتّى إذا اختار [الله] له دار المقام ومرافقة الأبرار، استقبل هو البحث والتدريس بمختلف أنواعه، وتفرّغ للإفادة تدريساً ومذاكرةً، ولقد تلمّذ عليه عدد غير قليل من أفاضل العرب والعجم، فألمسهم الحقائق وانتجع لهم الفضيلة من أقرب طرقها، بقوّة برهانه وعذوبة بيانه، وما عرفه أحد ثمّ بارحه إلّا ونفسه مفعمة به إكباراً وإعظاماً وإعجاباً بفضله الجمّ، وأخلاقه الكريمة، وورعه وتقواه.

أخلاقه وورعه: لقد كان آية بليغة في الأخلاق الفاضلة، والصفات الكريمة، تلقاه وهو بتلك المكانة العلميّة السامية، وبذلك الرداء الجميل من الشرف والمجد، طلق المحيّا، باسم الثغر، رقيق الحواشي، نديّ الحديث، طريّ الأُسلوب، ليّن العريكة، يتواضع للصغير حتّى كأنّه بعض سمرائه، ويتصاغر حتّى كأنّه دون نظرائه، ولكمال آدابه ومحاسن أخلاقه يُري طرفَه في المذاكرات العلميّة ـ الذي هو يُفهمه ويُشعِره بضالّته المنشودة ـ أنّه يفهم منه الحقيقة، ويستعين به على الوصول إليها.

ذلك الخلق الكريم لا يتذوّقه ولا يتعرّفه إلّا الأولياء الذين راضوا أنفسهم رياضةً ذلّلت لها كلّ صعب، وشاؤوا بها عن عالم المزاعم والخيال، إلى عالم العقل والمثال، إلى ما هنالك من أخلاق كريمة، وصفات محمودة موروثة له لا عن كلالة وحدّته وأقامته مكاناً عليّاً في نفوس محبّيه وشانئيه.

وأمّا تقواه وورعه فأمران نشآمعه، واصطحباه منذ نعومة أظفاره، ولازماه ملازمة الأمر الذاتي.

ويتعرّف منه الجليس لأوّل نظرة يتوجّه بها إليه ويتحسّس بها قلبه بنزوله منه منزلة الهيبة والإكبار، وذلك وسام شرف وعزّة اختصّ به الله عباده المخلصين الذين أفرغوا نفوسهم، وشخصوا بأبصار أفئدتهم إليه خاشعين، فجزاهم لذلك أن جعل أفئدة الناس تهوي إليهم، وتستشعر لهم الهيبة في نفوسهم، وما التقوى والورع إلا ملكات نفسيّة تبعث في الجوارح الخشوع والاستكانة لباريها، وترسل فيها النشاط في طلب مراضيه، والفوز بالقرب منه، ولذلك مناح شتّى، يلتقيان في الغاية، والمرء ميسّر لما خلق له.

وفاته: في ليلة الخميس ٢١ جمادى الأُولى سنة ١٣٥٦، في الكاظميّة اختار الله له دار آبائه ومنازل أحبّائه، فلبّى داعيه طاهر الأردان، نقيّ الذيل، مجاهداً في سبيل العلم، شهيداً بسهام أخطاء بعض الأطبّاء الذين لا يرقبون في النفوس البريئة والقلوب الزكيّة إلّاً ولا ذمّةً.

وما إن أصبح الصباح حتّى ماجت الكاظميّة بأهلها، وسالت العيون دموعاً، وتطايرت القلوب حسرات، وصرخت نياحاً بأذن الخافقين زمازم، فلا ترى إلّا صارخاً ولادماً. ←

المترجم له ما يدلّ دلالةً واضحةً على نبوغه المبكر، وهو أنّه حينما كان مشغولاً بدراسة مبحث الضدّ من كتاب المعالم اعترض على صاحب المعالم الذي يرى أنّ ترك أحد الضدّين مقدّمةٌ للآخر، اعترض بأنّ ذلك يستلزم الدوران ، فكان

← وشاركتها في الجزع والدهشة النجف الأشرف بسائر طبقاتها، وطفق الناس من الكاظميّة وبغداد تتدفّق كالسيل لتشييع جثمان الفقيد، فحمل النعش على الأعناق والأنفاس هافتة والأصوات خرساء إلّا بالتهليل والتكبير، والقلوب تكاد تتخلّع وجداً ولوعةً.

وساروا بالنعش حاسرين عن رؤوسهم، لاطمين صدورهم إلى أن انتهوا إلى الصحن الشريف وهناك تقدّموا للصلاة عليه، واصطفت الجماهير، ثمّ دفنوا الجسد الطاهر في البقعة المباركة في رواق الكاظمين عليهما السلام إلى جنب أبيه قدّس الله سرّهما.

وانفضّ الجميع راجعين يصفقون كفّاً بكفّ أسفاً، ويجرون الدموع دماً، وأُقيمت له الفواتح المعظّمة المكتظّة بسائر الطباقات. انتهى.

وترجمه في القسم الثاني من نقباء البشر ص ٦٨٣ وما بعدها، وأثنى عليه بما هو أهله ومحلّه، وله ترجمة في أعيان الشيعة ج ٢٩ ص ٧ [أعيان الشيعة ٦: ٢٦٤].

وأعقب نجلين كريمين: **السيّد الشريف إسماعيل، وصنوه الشريف محمّد باقر الشهيد الثالث** ـ قدّس الله روحيهما ـ كما أعقب أيضاً بنتاً واحدةً، هي الشهيدة السيّدة آمنة الملقّبة ببنت الهدى، وتأتي ترجمتها بعد أخويها.

أمّا السيّد إسماعيل بن السيّد حيدر بن السيّد إسماعيل بن السيّد صدر الدين محمّد بن السيّد صالح بن السيّد محمّد بن السيّد شرف الدين إبراهيم، فقد كان من الأعلام المبرّزين، والفقهاء المحقّقين، يشار إليه في الأوساط العلميّة بالبنان، كما يشار إليه بمكارم الأخلاق والورع والصلاح والفضائل النفسيّة.

كتب ترجمته شقيقه الشهيد الإمام السيّد محمّد باقر الصدر ـ قدّس الله روحه ـ وهي مايلي:

كان رحمه الله آية في الذكاء، والفطنة، وحضور الذهن، وسرعة الانتقال، ومن الأفذاذ [الفذّ: الفرد، والمتفرّد في مكانته أو كفايته. راجع المعجم الوسيط: ٦٧٨، «ف. ذ. ذ».] في خلقه وتواضعه وطيب نفسه، وطهارة روحه، ونقاء ضميره، وامتلأ قلبه بالحبّ والخير لجميع الناس، رافقته أكثر من ثلاثين سنةً كما يرافق الابن أباه، والتلميذ أُستاذه، والأخ أخاه في النسب، وأخاه في الآمال والآلام، وفي العلم والسلوك، فلم أزدد إلّا إيماناً بنفسه الكبيرة، وقلبه العظيم، الذي وسع الناس بحبّه، ولكنّه لم يستطع أن يسع الهموم الكبيرة التي كان يعيشها من أجل دينه وعقيدته ورسالته فأسكتت هذا القلب الكبير في وقت مبكّر.

كنت أراه وهو في قمّة شبابه منكبّاً على التحصيل والعلم، لا يعرف طعم النوم في الليل إلّا سويعات، ولا شيئاً من الراحة في النهار، مكدوداً باستمرار، متنامياً باتّصال يزداد علماً يوماً بعد يوم.

←

جواب السيّد إسماعيل عليه الرحمة: إنّ هذا ما أشكل به صاحب الكفاية على صاحب المعالم.

← وهو إلى جانب ذلك مكدود في العبادة والالتزامات الدينيّة التي تنمّيه روحيّاً ونفسيّاً، والتي وصل بسببها في السنوات الأخيرة من إقامته في النجف الأشرف إلى درجة عالية من الصفاء والروحانيّة.

ولد ﷺ في الكاظميّة، في ١٠ رمضان سنة ١٣٤٠، وترعرع [ترعرع: أي نشأ في كنف والده. راجع المعجم الوسيط: ٣٥٣، «ر.ع. ر.ع».] في كنف والده، وقرأ بعض المقدّمات عليه، وقرأ السطوح على جماعة، كعمّه الإمام السيّد محمّد جواد الصدر، والحجّة الميرزا عليّ الزنجاني.

وبعد أن أكمل السطوح، تأهّب للهجرة إلى النجف، وقد بلغ درجةً عاليةً من الفضل، أكبر نسبيّاً بكثير من مستوى دراسته السطوح؛ لما يتمتّع به من ذكاء ونبوغ وجدّ.

ولا أنسى أنّه ألّف قبل هجرته إلى النجف رسالة في طهارة أهل الكتاب، و رسالة في حكم القبلة للمتحيّر، وهما تدلّان على نضجه العلمي، ودقّة واستيعاب لا يصل إليهما عادةً إلّا من طوى مرحلةً من بحث الخارج بجدّ وكفاءة.

وقد اطّلع وقتئذ على الأولى منهما فقيه آل ياسين آية الله الشيخ محمّد رضا آل ياسين، فأعجب بما اطّلع عليه، وذكر أنّ هذا بوادر الاجتهاد.

وحينما هاجر إلى النجف الأشرف حضر بحثه وأبحاث آيات الله: الشيخ محمد كاظم الشيرازي، والسيّد محسن الحكيم، والسيّد عبد الهادي الشيرازي، والسيّد أبوالقاسم الخوئي، والشيخ مرتضى آل ياسين، وقد أُجيز بإجازة الاجتهاد من السيّد عبد الهادي الشيرازي، والشيخ مرتضى آل ياسين.

وكتب آية الله الحكيم بشأنه في جواب جماعة يسألونه عن حاكم شرعي يرجعون إليه في مرافعاتهم يشهد بأنّه حاكم شرعي نافذ الحكم.

وقد برهن عن نتاج فقهي جليل في تلك الفترة، وهو كتابة شرح استدلالي موسّع لكتاب بلغة الراغبين في فقه آل ياسين، وهو الرسالة العمليّة لآية الله الشيخ محمّد رضا آل ياسين ﷺ.

وقد شرح هذا المتن الفقهي في عدّة مجلّدات تربو على آلاف الصفحات، وهو شرح يدلّ على مرتبة عالية من الاجتهاد والفقاهة وسعة الاطّلاع.

وقد شرع ﷺ في تدريس الخارج، وحضر عليه جماعة من الطلبة نصف دورة كاملة من الأُصول الخارج.

وقد انقطع تدريسه هذا برجوعه إلى الكاظميّة حوالي سنة ١٣٨٠، حيث أصبح هناك محور العلم والدين، ومركزاً لزعامتها الدينيّة.

وقد بدأ في الكاظميّة ببحث في التفسير كان يحضره أكثر من مائة من الجامعيّين والمثقّفين، إضافةً إلى تدريساته الأُخرى في الفقه والأُصول، لعدد من علماء المنطقة في الكاظميّة وبغداد.

←

وبعد أن فرغ من المقدّمات والسطوح في مدينة الكاظميّة، هاجر سنة ١٣٦٧ إلى النجف الأشرف ـ وهو لم يبلغ الرابعة عشرة ـ وحضر دروس السطح العالي

→ وقد ازدهرت الحياة العلميّة وأساليب العمل الديني والتبليغ على يده ازدهاراً كبيراً، وكان ﷺ يكلّف نفسه فوق ما تكلّف عادةً، فهو المتهجّد المتعبّد الذي يقبل على عبادته إقبالاً عظيماً، وهو المدرّس الذي يبذل من الجهد في تدريسه الشيء الكثير، وهو المسؤول الديني الذي يمارس مسؤوليّاته ويتفاعل معها بكلّ وجدانه وهمّته.

كان ـ كما يعلم الله ـ في عناء مستمرّ، ورغم كلّ الأتعاب والجهود كان من أحسن خلق الله استقبالاً للناس، ومن أوسعهم صدراً في المعاملة معهم، حتّى اختار الله له جواره في ٦ ذي الحجّة سنة ١٣٨٨.

خلّف عدداً كبيراً من المؤلّفات التي تمثّل بمجموعها تركةً علميّةً من أنفس التركات، وهي كما يلي:

١ ـ شرح فقهي استدلالي موسّع لكتاب بلغة الراغبين يحتوي على عدّة مجلّدات، وهو أهمّ إنتاج علمي له.

٢ ـ تعليقة على الكفاية في الأصول، ضمّنها آراءه ومناقشاته بصورة موسّعة.

٣ ـ تعليقة عمليّة على العروة الوثقى مع إشارات إجماليّة إلى الدليل أحياناً.

٤ ـ تعليقة على كتاب التشريع الجنائي الإسلامي لعبد القادر عودة [للاطّلاع على ترجمته راجع الأعلام للزركلي ٤: ٤٢]، قام منها بإبراز رأي الفقه الجعفري في المسائل التي تعرّض لها الكتاب، طبع منها الجزء الأوّل.

٥ ـ محاضرات في تفسير القرآن، طبع منها الجزء الأوّل.

٦ ـ شرح رسالة الحقوق للإمام عليّ بن الحسين عليه السلام.

٧ ـ تقريرات السيّد الخوئي في الأصول.

٨ ـ تقريرات السيّد الخوئي في الطهارة.

٩ ـ تقريرات المذكور في المكاسب.

١٠ ـ رسالة في قاعدة الفراغ والتجاوز.

١١ ـ شرح لكتاب النكاح من العروة الوثقى.

١٢ ـ تعليقة على الجزء الثاني من شرح اللمعة.

١٣ ـ رسالة في حكم التزاحم بين الحجّ والنذر.

١٤ ـ رسالة في تشخيص المدّعي والمنكر.

١٥ ـ رسالة في بيع الصبيّ وأحكامه.

١٦ ـ رسالة في أسباب اختلاف المجتهدين.

←

على السيّد محمّد الروحاني[١]، وحضر عليه دروس الخارج في الأُصول أيضاً.

← ١٧ ـ مستدرك أعيان الشيعة يحتوي على ملاحظات على الكتاب المذكور.

١٨ ـ تعليقة عمليّة على كتاب بلغة الراغبين.

١٩ ـ تقرير البحث الفقهي للإمام الفقيه الشيخ محمّد رضا آل ياسين ﷺ.

٢٠ ـ فوائد في الفقه والأُصول.

٢١ ـ فصل الخطاب في حكم أهل الكتاب.

٢٢ ـ رسالة في معنى العدالة، وأُخرى في حدّ الترخّص للمسافر.

٢٣ ـ رسالة في قبلة المتحيّر.

٢٤ ـ رسالة في صلاة الجمعة.

٢٥ ـ رسالة في اللباس المشكوك.

٢٦ ـ رسالة عمليّة في فروع العلم الإجمالي. انتهى.

وله ولدان: السيّد حيدر، والسيّد حسين.

أمّا السيّد حيدر، فقد ولد في ٢١ المحرّم سنة ١٣٦٨ وهو من رجال النجابة والديانة، يشتغل بالعمل التجاري.

وأمّا السيّد حسين، فولد في ٢٧ ربيع الثاني سنة ١٣٧٢، ودرس أوّلاً في مدارس النجف وبغداد، وبعد ذلك انتقل إلى النجف الأشرف لتلقّي العلوم الدينيّة هناك، ودرس على نخبة من فضلاء حوزتها.

ولمّا توفّي والده ﷺ رجع إلى الكاظميّة خلفاً له، مؤيّداً من المراجع العظام، وهو يشتغل الآن بالتدريس والمحاضرات الدينيّة والوظائف الشرعيّة، معروف بهديه وسمته وسموّ أخلاقه ونفسيّته، وبهذا نال كلّ هيبة وإجلال وتقدير في نفوس مختلف الطبقات، وهو يؤمّ الجماعة في الصحن الكاظمي المطهّر، وهي أفخم الجماعات هناك.

له من المؤلّفات:

١ ـ شرح التبصرة

٢ ـ شرح قسم من المختصر النافع

٣ ـ شرح معالم الأُصول

٤ ـ كتاب في التوحيد

٥ ـ كتاب في الصوم

٦ ـ كتاب في الأخلاق

وكلّها نافعة وجيّدة تدلّ على مكانته في العلم والفضل وفّقه الله تعالى.

وهو إلى الآن لم يعقب.

ثمّ صار يحضر دروس الخارج العالية ـ وهو لم يبلغ الخامسة عشر ـ فحضر بحث فقيه عصره خاله الشيخ محمّد رضا آل ياسين، وكان يتّفق أن يطلب الشيخ من طلّابه التأمّل في حلّ بعض المشكلات العلميّة لليوم التالي، فيكون الوحيد الذي يأتي في اليوم التالي بالحلّ المطلوب الذي يرضى به الشيخ، ويقرّره في مجلس البحث، وهو حينئذٍ لم يزل في أواسط العقد الثاني.

وحسبك أن تعلم أهمّيّة هذا الأمر من كون بحث الشيخ مقصوراً على نخبة من الأفاضل والعلماء، وكان له منزلة رفيعة في الحوزة العلميّة الشريفة، وكان الشيخ يظنّ أنّ حضور المترجم له في درسه هو عن رغبة شخصيّة في حضور درس خاله، لكن لمّا رأى منه ما رأى من العبقريّة العلميّة علم أنّ ذلك خلاف ما يظنّ.

وحضر أيضاً دروس الإمام السيّد أبو القاسم الخوئي في الفقه والأُصول في دورات متعدّدة.

كما حضر مجلس درس خاله الإمام الشيخ مرتضى آل ياسين[١].

ودرس الفلسفة على الحجّة المتبحّر الشيخ صدر البادكوبي[٢]، وقد مكّنته مكانته العلميّة وإبداعه الواسع، أن يستهوي العلماء وطلّاب العلم.

ويكفي أنّ العلّامة الفقيه الحجّة الشيخ عبّاس الرميثي[٣] عليه الرحمة حينما كان

---

١. ولد في قمّ سنة ١٣٣٦، وهاجر إلى النجف الأشرف. ودرس على كبار أعلامها، ونال مرتبةً ساميةً في العلم والفضل، ثمّ استقلّ بالبحث والتدريس، وهو الآن أحد الأعلام المدرّسين المعروفين يمتاز بورعه وأخلاقه وحسن سمته.

١. راجع ترجمته في ماضي النجف وحاضرها ٣: ٥٣٤ ـ ٥٣٥ الرقم ٧.

٢. ولد سنة ١٣١٩ في إحدى قرى بادكوبا، وهاجر إلى النجف الأشرف، وحضر البحوث العالية على كبار مراجعها، حتّى أصبح مدرّساً في الفقه والأُصول والعلوم الفلسفيّة، ومن كبار مدرّسيها المرموقين، ربّى جيلاً، وكان من أعضاء حلقات الفتيا للمراجع، توفّي سنة ١٣٩٢.

٣. هو أحد أعلام النجف الأشرف المعروفين، ومدرّسي حوزتها، عرف بسعة العلم والأخلاق الفاضلة، والتقى والورع، وبهذا نال مقاماً مرموقاً في جميع الأوساط، توفّي سنة ١٣٧٩.

يعلّق على رسالة المرجع الديني الكبير الشيخ محمّد رضا آل ياسينﷺ المسمّاة بـ: بلغة الراغبين، طلب من المترجم لهﷺ مشاركته في المتطلّبات العلميّة لهذا التعليق؛ إيماناً منه بشخصيّته ومكانته العلميّة، وقد لبّى رغبة الشيخ المذكور فحضر لديه، واستمرّت بينهما المباحثة حول عبارات الرسالة المذكورة، وأخذت مواهب السيّد تتألّق وتتجلّى بوضوح، وفي تلك الفترة قال له الشيخ الرميثي المذكور: إنّ التقليد عليك حرام، وكان ذلك سنة ١٣٧٠، وعمرهﷺ في حوالي السابعة عشر.

كما أنّه في تلك الفترة كان يسجّل ما يستقرّ عليه رأيه في نهاية البحث، كتعليقته على بلغة الراغبين، ولا تزال التعليقة التي كتبها مع الإشارة إلى الدليل موجودة حتّى الآن.

وفي سنة ١٣٦٩ بدأ بكتابة دورة في علم الأُصول، تمثّل مبانيه واجتهاده الخاصّ في القواعد الأُصوليّة، وسمّى الدورة بـ: غاية الفكر، وقد طبع منه جزء واحد، وفيه كثير من النكات العلميّة والمباني التي بقي السيّد يتبنّاها حتّى استشهاده.

وهكذا بدأ هذا النجم يتألّق في سماء العلم حتّى أصبح أحد الأعلام الكبار الذين يمثّلون الحوزة الشريفة، وذاع اسمه في الأوساط العلميّة، وعرف بالتحقيق والتدقيق وأصالة الرأي، وغزارة المادّة، وعمق التفكير، واعتراف له بالمنزلة العلميّة والموهبة العقليّة والملكة النادرة الأعلام من أساتذته ومعاصريه، وفي ١٢ جمادى الثانية سنة ١٣٧٨ شرع في تدريس بحث الخارج، وتشكّلت حوله حوزة مهمّة يحتوي أكثرها على النخبة من فضلاء أهل العلم، وصار ﷺ يفيض عليهم من علمه، ويغدق عليهم من جواهر كنوزه.

وقد تربّع على منصّة التقليد، وتسلّم زمام أُمور المرجعيّة، ورجع إليه الكثيرون بالتقليد من كثير من أنحاء العالم الإسلامي، وصارت تجبى إليه الحقوق والأُموال، وشرع ينفقها على مستحقّيها من طلّاب العلوم وغيرهم، وصار يعدّ من كبار مجتهدي العالم الإسلامي.

وبرز اسمه كغيره من كبار الأئمّة والمراجع، وتتّسم مكانته الدينيّة والاجتماعيّة أنّها عميقة وقويّة في نفوس مقلّديه ومحبّيه، وهذا العمق نشأ من خصائص تميّزت بها شخصيّته.

وحسبك أن تعلم أنّ رسالته العمليّة طبعت بعد طلب شديد من كبار علماء بلاد مقلديّه، ملزمة بحجج شرعيّة تضطرّه إلى فعل ذلك، لحاجة مقلّديه إلى معرفة فتاواه، وتعلم أهميّة رسالته أنّها بيعت من قبل الكتبيّين، ونفدت كلّها خلال شهر واحد عند طبعتها الأُولى.

ولعلّها هي الرسالة العمليّة الوحيدة التي نفدت بالبيع.

ويضاف إلى مقامه السامي في الفقه والأُصول تضلّعه القويّ وقدمه الراسخة في الفلسفة والاقتصاد، ويبني شموخه فيهما كتاباه الجليلان ـ فلسفتنا واقتصادنا ـ اللذان كان لهما أعظم وقع عند الخبراء وأهل الاختصاص في هذين الفنّين، وستقف فيما بعد على بعض الشهادات فيهما.

وقد ضمّ إلى سعته في العلم سعةً في الصدر، وإلى سمّوه في المعرفة سموّاً في الأخلاق، فترى بين جنبيه نفسيّة أبيه وجدّه عليهما الرحمة والرضوان في التواضع والتحبّب إلى الناس، والبعد عن الترفّع والغرور والأنانيّة، وبهذا نال كلّ هيبة وتجليل وتقدير.

وله مؤلّفات كثيرة، استطاع أن يقوم في عدّة منها بألوان من التجديد والإبداع، جعلت منه مناراً فكريّاً شامخاً في كلّ مجالات المعرفة التي عالجها من فقه وأُصول وعقائد وفلسفة واقتصاد وتأريخ ومنطق.

فمن تجديداته أنّه جدّد لأوّل مرّة مفهوم المذهب الاقتصادي في الإسلام، مميّزاً له عن النظام الاقتصادي، وعن علم الاقتصاد، ثمّ استخرج على أساس ذلك مذهباً اقتصاديّاً كاملاً على أساس الإسلام.

ومن تجديداته أنّه أعاد دور الشيخ المفيد والطوسي والعلّامة وأمثالهم في القيمومة على أفكار العصر كلّها، فإنّ علماء المسلمين لم يكونوا فقط يستوعبون الجانب العقائدي من أفكار عصرهم كلّها، بل كانوا قيّمين عليها، وقد تجلّت هذه القيمومة كأوضح ما تكون في سيّدنا المترجم له، وهو يتناول كلّ فلسفات عصره بالبحث والتمحيص بروح مهيمنة بنّاءةً.

وناهيك بحثه في المادّيّة الجدليّة، والمادّيّة التأريخيّة، ونظريّة الاحتمال، وغير ذلك من مقولات الفكر العالمي الحديث.

ومن تجديداته أنّه وضع كتباً دراسيّةً جديدةً في أُصول الفقه، مجسّداً فيها أحدث وأعمق أفكار هذا العلم بمنهج العصر الحديث للكتب الدراسيّة، مراعياً أحدث الشروط الفنيّة في التعليم بكلّ ما يستدعيه ذلك من تغيير واسع في تنسيق الأبحاث، وهو أمر يعرف الخبراء أنّه لايتاح إلّا لمن كان هذا العلم بيده كالعجينة المطواع، تحولّها يداه كيف شاء!...

ومن تجديداته في نطاق الاستدلال الفقهي أنّه حوّل الاستظهار من الدليل إلى حقيقة موضوعيّة قابلة للتفسير والتعليل، بعد أن كان مسألةً ذاتيّةً يدّعيها هذا وينكرها ذاك، دون أن يجد صيغة موضوعيّة للبحث.

فإنّ مترجمنا الشهيد يربط كلّ ظهور بنكاته ومناسباته وخلفيّاته وبهذا يزول أيّ غموض، ويتحوّل أهمّ جانب في الاستدلال الفقهي إلى عمل موضوعي.

ومن تجديداته الكبرى اكتشافه المنطقي الحاسم لوحدة الأُسس المنطقيّة التي يقوم عليها الإيمان بالله والعلم بكلّ ما في العلم من قوانين وحقائق، وأنّه لا يمكن قبول العلم ورفض الإيمان؛ لأنّ الأساس المنطقي واحد، وقد تمّ هذا الاكتشاف من خلال دراسة مضنية، استمرّت حوالي عشر سنين، وتمخّضت عن كتاب «الأُسس المنطقيّة للاستقراء»، وقد بهرت العلماء والمفكّرين، حتّى كتب أشخاص من قبيل الدكتور زكي نجيب

محمود يرجّح ترجمة ذلك إلى اللغة الإنكليزيّة، ليقرأ الإنكليز ما لم يسمعوه على حدّ تعبيره.

ومن تجديداته إدخاله نظرية الاحتمال بعد أن اكتشف وحدّد مسيرها المنطقي على جملة من العلوم، وقام بتطبيقات جديدة لها في علم الرجال وغيره، ويمكن التعرّف على نموذج من ذلك في كتاب مشايخ الثقات.

وأمّا في علم الأُصول فهو يعتبر مدرسةً جديدةً بمعالمها وأفكارها، وعمق تحليلها للقضايا الأُصوليّة، حتّى إنّ أفاضل تلامذته يصرّحون بأنّهم لايجدون المصادر والمراجع التي يحضرونها لبحثه الأُصولي؛ لما يغلب عليه من إبداع وتجديد يجعله يمثّل طفرةً واسعةً بالنسبة إلى جلّ تلك المصادر.

وأمّا مؤلّفاته فإنّها تمتاز بالعمق والإحاطة، وقد نالت موقعاً كبيراً في العلوم العربيّة والإسلاميّة، وقد بلغ بعضها من الموقع والأهميّة أن صارت تدرّس في عدّة من الجامعات في البلاد العربيّة، وهي فلسفتنا واقتصادنا؛ وهو أدّل دليل على بلوغهما المحلّ الأسمى في موضوعيهما، فضلاً عن رواجهما دراسيّاً في الحوزات العلميّة، وإليك أسماء ما طبع منها:

١ ـ الفتاوى الواضحة، وهي رسالته العمليّة، وقد جاءت بلغة العصر وأُسلوبه، بحيث يسهل على كلّ مقلّد مثقّف تفهّمها واستيعابها.

٢ ـ تعليقة عمليّة على منهاج الصالحين، وهي الرسالة العمليّة للإمام السيّد محسن الحكيمﷺ.

٣ ـ بحوث في شرح العروة الوثقى، طبع منه أربعة أجزاء، وهو يريك فقاهته المعتدلة وقوّة تفقّهه وتدقيقه ومتانته وعمق تفكيره.

٤ ـ نظرة عامّة في العبادات.

٥ ـ الصيام في شهر رمضان.

٦ ـ موجز أحكام الحج.

٧ ـ الطريق إلى بيت الله.

٨ البنك اللاربوي في الإسلام، أُطروحة فقهيّة واقتصاديّة، تعبّر عن مدى ما يتمتّع به من استيعاب فقهي، وتفهّم تامّ لظروف الحياة الحديثة وأنظمتها.

٩ ـ الأسس العامّة للبنك في المجتمع الإسلامي.

١٠ ـ تعارض الأدلّة الشرعيّة.

١١ ـ لمحة فقهيّة عن دستور الجمهوريّة الإسلاميّة.

١٢ ـ موسوعة فقهيّة، صدر منها الجزء الأوّل.

١٣ ـ غاية الفكر في علم الأصول، يقع في عشرة أجزاء، وهو عبارة عن تحقيق للمطالب الأُصوليّة التي تلقى في الأبحاث العالية، ولم يطبع منه سوى الجزء الخامس.

١٤ ـ المعالم الجديدة في الأصول، يقع في أربعة أجزاء.

١٥ ـ دروس في علم الأصول، يقع في أربعة أجزاء.

١٦ ـ مباحث الدليل اللفظي.

١٧ ـ فلسفتنا.

١٨ ـ الأسس المنطقيّة للاستقراء.

١٩ ـ اقتصادنا.

٢٠ ـ صورة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي.

٢١ ـ ماذا تعرف عن الاقتصاد الإسلامي.

٢٢ ـ خطوط تفصيليّة عن اقتصاد المجتمع الإسلامي.

٢٣ ـ الإسلام يقود الحياة، يقع في ستّة أجزاء.

٢٤ ـ المرسل، الرسول، الرسالة.

٢٥ ـ بحث حول الولاية.

٢٦ ـ المدرسة الإسلامية «الزهراء» عليها السلام: يقع في جزءين.

٢٧ ـ بحث حول الولاية.

٢٨ ـ بحث حول المهدي عليه السلام.

٢٩ ـ خلافة الإنسان، وشهادة الأنبياء.

٣٠ ـ منابع القدرة في الدولة الإسلامية.

٣١ ـ الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية.

٣٢ ـ فدك في التأريخ، وهو أوّل كتاب طبع من مؤلّفاته رحمه الله، وفيه دراسة وتحليل لقضيّة غصبه من الزهراء عليها السلام ذات أهميّة من الناحية التشريعيّة والعقائديّة، ترجم وطبع باللغة الأُوردية.

٣٣ ـ محاضرات في تفسير القرآن الكريم، صدر منه أربعة عشر جزءاً.



استشهاده

قتله الحكم العراقي وشقيقته السيّدة آمنة المشهورة بـ«بنت الهدى» في ٢٤/ جمادي الأُولى سنة ١٤٠٠ هـ. فاندكّ بمصرعه رضوان الله عليه طود من العلم شامخ، وفقدت الأُمّة بذلك مرجع العصر وعلّامته العظيم، الذي تضنُّ بمثله الأحقاب.

وقد ذهل العالم الإسلامي وصعق للجريمة النكراء، فأعرب عن استنكاره بكلّ وسيلة، وقد أُصيب الإسلام في الصميم من قلبه وفكره معاً.

وهاك بعض أصداء هذا الحدث الجلل الخطير.

بيان قائد الأُمّة الإمام الخميني
في نعي شهيد الإسلام آية الله السيّد محمّد باقر الصدر[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّا لله وإنّا إليه راجعون

تبيّن ـ ببالغ الأسف من خلال تقرير السيّد وزير الشؤون الخارجيّة، والذي تمّ التوصّل إليه عن طريق مصادر متعدّدة، وجهات مختصّة في الدول الإسلاميّة، وحسبما ذكرت التقارير الواردة من مصادر أُخرى ـ أنّ المرحوم آية الله الشهيد السيّد محمّد باقرالصدر وشقيقته المكرّمة المظلومة ـ والتي كانت من أساتذة العلم والأخلاق، ومفاخر العلم والأدب ـ قد نالا درجة السعادة الرفيعة، وذلك بصورة مفجعة.

فالشهادة ميراث ناله أمثال هذه الشخصيّات العظيمة من أوليائهم، والجريمة والظلم أيضاً ميراث يناله أمثال هؤلاء جناة التأريخ من أسلافهم الظلمة.

فلا عجب لشهادة هؤلاء العظماء، الذين أمضوا عمراً من الجهاد في سبيل الأهداف الإسلاميّة على يد أشخاص جناة قضوا حياتهم بامتصاص الدماء والظلم. وإنّما العجب هو أن يموت مجاهدو طريق الحقّ في الفراش دون أن يلطّخ الظلمة الجناة أيديهم الخبيثة بدمائهم.

ولا عجب أن ينال الشهادة المرحوم الصدر وشقيقته المظلومة، وإنّما العجب أنّ تمرّ الشعوب الإسلاميّة، وخاصّةً الشعب العراقي النبيل، وعشائر دجلة والفرات وشباب الجامعات الغيارى، وغيرهم من الشبّان في العراق، على هذه المصائب الكبرى التي تحلّ بالإسلام وأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله دون أن تأبه لذلك.

---

١. مجلّة المنطلق اللبنانيّة، العدد العاشر، شعبان سنة ١٤٠٠هـ.

والأعجب من ذلك هو أن يكون الجيش العراقي وسائر القوى النظاميّة آلةً بيد هؤلاء المجرمين فساعدوهم على هدم الإسلام والقرآن الكريم.

إنّني يائس من كبار القادة العسكريّين، ولكنّني لست يائساً من الضبّاط والجنود، وما أتوخّاه منهم هو إمّا أن يثوروا أبطالاً وينقضّوا على أساس الظلم، كما حدث في إيران، وإمّا أن يفرّوا من معسكراتهم.

وأنا غير يائس من العمّال وموظّفي حكومة البعث المغتصبة، وآمل أن يضعوا أيديهم بأيدي الشعب العراقي، وأن يزيلوا هذا العار عن بلد العراق.

أرجوه تعالى أن يطوي بساط ظلم هؤلاء الجناة، وها إنّني أعلن الحداد العامّ ثلاثة أيّام اعتباراً من يوم الأربعاء الثالث والعشرين من نيسان.

كما أعلن يوم الخميس عطلةً عامّةً، وذلك تكريماً لهذه الشخصيّة العلميّة، ولهذا المجاهد الذي كان من مراجع الدين والمفكّرين المسلمين.

وأرجو الخالق تعالى أن يعوّضنا عن هذه الخسارة الكبرى... والعظمة للإسلام والمسلمين، والسلام على عباد الله الصالحين.

روح الله الموسوي الخميني

تقرير عن سيرة حياته

مرجعيّته

تميّز القائد الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ بكونه يمثّل أُنموذجاً جديداً للمرجعيّة الإسلاميّة الواعية، والمؤهّلة لقيادة الأُمّة فكريّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً.

وقد بدأت مرجعيّته بالتركّز والامتداد في أواخر مرجعيّة المغفور له آية الله العظمى محسن الحكيم، وبرزت إلى الأُمّة بعد وفاته سنة ١٩٧٠.

ولأجل ذلك فقد ارتفعت أسهم هذه المرجعيّة لدى الشباب المثقّف الواعي والجامعي في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

وقد حرص المرجع الشهيد على تغذية التيّار الإسلامي الواعي في الأُمّة بشتّى الوسائل، وكان يعطي الأولويّة في صرف أموال الحقوق الشرعيّة ـ الخمس ـ لهذا السبيل، كإنشاء المكتبات العامّة، وإنشاء المراكز الإسلاميّة، كمثل على ذلك إذنه بصرف الحقوق لشراء مركز في لندن، واستئجار مركز في باريس.

وعندما نضجت الظروف للتحرّك السياسي، ولتغيير الوضع السياسي الفاسد، بعد الثورة الإسلاميّة المباركة في إيران ـ بقيادة الإمام الخمينيّ‏ـ برزت مرجعيّة الشهيد بوصفها المرجعيّة المؤهّلة في العراق، والقادرة على قيادة الصراع السياسي على خطى الثورة الأُمّ في إيران.

وقد اتّخذ المرجع الشهيد ـ رضوان الله عليه ـ سلسلة من الخطوات الرائدة على هذا الصعيد هزّت العراق من أقصاه إلى أقصاه، وأثارت الرعب لدى الجهاز الحاكم، فأقدم تحت حالة الخوف الهستيري التي أصابته على إعدام القائد توهّماً منه بإمكانيّة القضاء على المسيرة التي أطلقها.

وكتبت مجلّة المنطلق أيضاً مقالةً بقلم هيئة التحرير في ص ٢٧ وما بعدها تحت عنوان «آية الله الصدر قائداً مجاهداً»:

إنّ من يؤرّخ للوعي الإسلامي المعاصر، لابدّ أن تستوقفه بالضرورة ظاهرةٌ متميّزةٌ اسمها السيّد محمّد باقر الصدر.

فلقد ترك هذا القائد المجاهد بصماته بوضوح على مسيرة العمل الإسلامي، ولعقدين من السنين في العراق، والعديد من أقطار العالم الإسلامي إلى أن توّج الله حياته بالشهادة، فكان رائداً في مماته، كما كان رائداً في حياته.

ويمكن لنا لو أردنا تناول دور القائد الجهادي أن نقسّم حياته إلى مراحل ثلاث:

١. مرحلة النشأة وتحديد الاتّجاه.

٢. مرحلة التوعية الفكريّة.

٣. مرحلة الصراع السياسي.



وسنتحدّث عن كلّ منها ببعض التفصيل.

١. مرحلة النشأة وتحديد الاتّجاه

أبصر السيّد محمّد باقر الصدر النور ونشأ في بيت علمي عريق، وضمن حاضرة علميّة إسلاميّة كبرى «النجف» يتوافد إليها الطلبة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

وكان خياره في الحياة أن يسلك طريق التحصيل العلمي الديني.

ويثبت الطالب النابغة في هذا الحقل كفاءةً فريدةً، فيحرز رتبة الاجتهاد المطلق خلال فترة زمنيّة قياسيّة، ويفتح ذلك أمامه فرصاً واسعةً لممارسة التأثير الاجتماعي، واضعاً في حسابه، أو مستفيداً من الثقل الاجتماعي الديني للحوزة العلميّة، ولمجتهديها بين صفوف الجماهير.

ويدرك السيّد محمّد باقر الصدر منذ البداية ـ أو في مرحلة متقدّمة على الأقلّ، وكما يتّضح من مواقفه وأقواله ـ أنّ المسلم الواعي، والعالم الديني بالذات،

وبالأخصّ في مثل هذا العصر ـ والظروف التي يعيشها العالم الإسلامي المجزّأ إلى كيانات، والخاضع للنفوذ الاستعماري ـ يتحمّل مسؤوليّةً كبرى تجاه مجتمعه وأُمّته، وأنّ الحوزة العلميّة ومرجعيّة المسلمين لابدّ أن تمارس دوراً قياديّاً جديداً على صعيد العراق والعالم الإسلامي يختلف عن دورها التقليدي السائد، فتنضاف إلى إيجابيّاتها القائمة كالاستقلاليّة عن السلطات الظالمة... إيجابيّةُ التحرّك السياسي والقيادة السياسيّة... أي: إيجابيّة التحوّل من الدور السياسي السلبي إلى الدور السياسي الإيجابي.

ونلمس هذا التوجّه لدى السيّد محمّد باقرالصدر في حديث لاحق له عن حركة الاجتهاد واتّجاهاتها المستقبليّة، حيث يؤكّد على ضرورة تحوّلها من حركة معزولة اجتماعيّاً، إلى حركة مجاهدة تستهدف تقدّم الإسلام ككلّ، وتعتبر أنّ رسالتها هي توعيّة الأُمّة على ضرورة تطبيقه في كلّ مجالات حياتها.

ويأتي انقلاب تموز ـ ١٩٥٨ ـ الذي أطاح بالنظام الملكي، وما حصل بعده من تطوّرات؛ ليدخل العراق في جوّ من اللا استقرار السياسي، ويهزّ ذلك قطّاعاً غير قليل من أبناء الأُمّة، ومن علماء المسلمين بالذات، وتتلاقى إرادة بعض المتحمّسين منهم على ضرورة العمل الإيجابي لتغيير الواقع السياسي والاجتماعي الفاسد؛ لأنّ الاكتفاء بردود الفعل السلبيّة تجاه الأحداث يجعل القوى الإسلاميّة عاجزةً باستمرار عن قطف ثمار مواقفها، ولا زالت نتائج انتفاضة ـ ١٩٢٠ ـ الجهاديّة التي قادها العلماء ضدّ الغزو الإنكليزي للعراق ماثلةً للأذهان.

ويتدارس المتلاقون ظروف التحرّك المطلوب وشروط نجاحه، واضعين في اعتبارهم طبيعة النفوذ الاستعماري في العراق وغيره من أنحاء العالم الإسلامي، هذا النفوذ الذي يرى في الاتّجاه السياسي الإسلامي الواعي عدوّه الأوّل، ومن هنا حرصه الشديد على منع انتشار الوعي بين المسلمين، ومنع قيام الحركات الإسلاميّة الهادفة بشتّى الطرق والأساليب.

وواضعين في اعتبارهم أيضاً تجاوب قوى الرفض الإسلاميّة السياسيّة والجهاديّة، ونجاحاتها وثغراتها.

ويتّفق الرأي على أنّ خلق قوّة سياسيّة إسلاميّة تسعى لاستلام الحكم لابدّ أن يسبقه نشر التوعية الفكريّة، وتجذير خطّ إسلامي هادف تلتفّ حوله الطليعة المسلمة.

ومن الطبيعي أن يكون السيّد محمّد باقر الصدر بموقعه العلمي، وبما يملكه من وعي متقدّم، وكفاءات متميّزة في صلب هذا التوجّه، بل عقله المفكّر، وقلبه المحرّك والنابض.

٢. مرحلة التوعيّة الفكريّة

استهدفت التوعيّة الفكريّة تحقيق هدفين:

١. بناء طليعة إسلاميّة واعية من العلماء والشباب المثقّف.

٢. خلق مناخ وعي إسلامي عام.

وقد كان للقائد الشهيد الدور الريادي الأوّل في هذا المجال؛ حيث عمل رضوان الله عليه ضمن الحقول التالية:

أ) التوفّر على تقديم أُطروحة فكريّة متكاملة عن الإسلام عقيدةً ونظاماً، وبصيغة عصريّة تثبت أحقّيّته من جهة، كما تقدّمه للأُمّة والعالم بوصفه البديل الجاهز عن النظامين المعاصرين ـ الرأسمالي والاشتراكي ـ خاصّةً بعد أن بدأت بوادر إفلاسهما.

وقد أنتج السيّد الصدر في هذا الاتّجاه عدداً من الدراسات الكبرى والرائدة، مثل فلسفتنا، واقتصادنا، والبنك اللاربوي في الإسلام.

وقد أصبحت كتبه موضوعاً للتدريس والمذاكرة في حلقات الشباب الجامعي، وفي المساجد والنوادي، ضمن العراق وغيره، كما تلقّفها الإسلاميّون بتلهّف على امتداد العالم الإسلامي.

ب) القيام بدور أساسي في أنشاء وتوجيه جماعة العلماء في النجف الأشرف،

هذه الجماعة التي ضمّت كوكبة من العلماء المجاهدين، واستفادت من الغطاء الذي وفّرته مرجعيّة المغفور له آية الله السيّد محسن الحكيم؛ لتقوم بنشاط مكثّف لتوعية الأمّة، وإعطائها صورةً جديدةً عن العالم الديني، وكانت إحدى وسائلها المهمّة مجلّة «الأضواء» الإسلاميّة الهادفة، التي صدرت لمدّة ستّ سنوات، وسدّت فراغاً كبيراًعلى صعيد الإعلام الإسلامي المستقلّ آنذاك.

ج) تقديم صورة جديدة عن المرجعيّة الإسلاميّة الواعية المجاهدة إلى الأمّة، مع ما يترتّب على ذلك من زيادة ربط المرجعيّة بالأمّة وبالطلائع الشابّة والمثقّفة بالأخص، وبالتالي ممارسة دورها القيادي الجماهيري بشكل أفعل وأشمل.

د) إحداث هزّة داخل الحوزة العلميّة الدينيّة ... وإحداث نمط تجديدي في مناهج وأسلوب الدراسة فيها، وممّا يؤهلها لتخريج نماذج قياديّة واعية من العلماء المجاهدين.

وآتت جهود القائد وإخوانه من الروّاد المجاهدين ثمارها، وانتشر المدّ الإسلامي الواعي في أنحاء العراق بأسره، كما وصل إشعاعه إلى العديد من أقطار العالم الإسلامي، وأصبح آية الله الصدر وكتبه رمزاً لهذا المدّ الواعي.

وأحسّ الاستعمار بالخطر على مصالحه في العراق أمام زحف تيّار الوعي الإسلامي، وقوّة الحركة الإسلاميّة، فعمل على التخلّص من نظام عبدالرحمن عارف[1] الضعيف ؛ ليجيء بحزب البعث إلى الحكم في تموز سنة ١٩٦٨.

وبعد أشهر من الوصول إلى السلطة فقط، بدأت عمليّة ردّ الحساب للمستعمر، فكانت الهجمة القمعيّة على الحوزة العلميّة في النجف سنة ١٩٦٩، وما رافقها من اعتقال وتشريد وتنكيل لمئات العلماء والمجاهدين.

وتستمرّ هذه الحملة الشرسة لتتوج بإعدام العلّامة المجاهد الشيخ عارف البصري

---

١. هو شقيق عبدالسلام عارف، منح رتبة لواء، وعيّن نائباً لرئيس الأركان، فرئيساً للجمهوريّة بعد مصرع أخيه إلى أن نحّي وقت الانقلاب سنة ١٣٨٨.

مع أربعة من إخوانه العلماء والمجاهدين سنة ١٩٧٤.

وقد نال القائد الشهيد من هذه الحملة نصيبه الأوفى فتعرّض للاحتجاز والاعتقال والتهديد أكثر من مرّة، كما مورس معه أُسلوب الإغراء في مرّات أُخرى، ولكن دون أن يفتّ ذلك من عضده، فتابع دوره الجهادي الاعتيادي، وازدادت مرجعيّته الرائدة مع الأيّام رسوخاً وتركيزاً.

٣. مرحلة الصراع السياسي

وجاءت سنة ١٩٧٩ لتحمل معها الحدث العظيم الذي هزّ العالم بأكمله، وانتصرت الثورة الإسلاميّة المباركة في إيران، بقيادة آية الله الإمام الخميني﴿رحمه الله﴾.

وطبيعي أن ينعكس هذا الحدث بعمق على العالم الإسلامي عموماً، وعلى العراق البلد المجاور بالأخصّ.

وتشهد مسيرة الوعي الإسلامي في العراق كغيره من أقطار المسلمين قفزة نوعيّةً وكميّةً بارزةً، ويمتدّ إشعاع الثورة الإسلاميّة المباركة في إيران ليشمل كلّ بيت من بيوته.

ويدرك القائد الشهيد أن الظروف الموضوعيّة قد أصبحت مهيّئةً للانتقال إلى مرحلة الصراع السياسي مع السلطة من أجل إسقاطها تمهيداً لإقامة حكم الإسلام.

ويستند القائد ـ كما يبدو في اتّخاذ قراره والخطوات المترتّبة عليه ـ إلى فهم دقيق لطبيعة النظام العراقي القائمة على البطش والإرهاب، وكبت الحريات السياسيّة ـ وهذه حال كلّ نظام مرتبط يفتقر إلي التأييد الشعبي، ويعتمد بقاؤه على استمرار الإسناد الخارجي من قبل أسياده ـ ثمّ إلى فهم طبيعة المجتمع بفئاته المختلفة، والذي أثّرت عهود الاضطهاد السياسي المتتالية، فضلاً عن غياب العمل السياسي الجماهيري، على سرعة استجابته لنداء التغيير السياسي، وإن كان مهيّأً وقابلاً للثورة مع توفّر أداة وشروط التحريك الثوري؛ إذ يتزايد وعيه لحقيقة

النظام، وتتصاعد نقمته ضدّه يوماً بعد يوم، خاصّةً مع ازدياد ممارساته القمعيّة، وضلوعه بشكل أوضح في المخطّطات الاستعماريّة التآمريّة على الإسلام ودولة الإسلام.

كما يتزايد الالتفاف الشعبي من جهة ثانية حول البديل الإسلامي، الذي تطرحه المرجعيّة الواعية، والطلائع المجاهدة، ويتأكّد إيمان الشعب العراقي المسلم بهذا البديل، وهو يرى بدايات تطبيقه على أرض إيران الثورة؛ لذلك وضمن هذا الفهم، فقد توجّه القائد الشهيد إلى تحقيق الأمور التالية:

١ ـ كسر حاجز الخوف الإرهابي الذي أقامته السلطة في وجه كلّ عمل سياسي جماهيري يعارضها، أو لا يتّفق وسياستها، كانت خطوة البداية في هذا المجال مع انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، بإعلان القائد عن تعاطفه والتحامه معها، ووراء قيادتها على رغم معارضة السلطة الشديدة لمثل هذا التوجّه.

وقد أرسل القائد الشهيد أكثر من برقيّة تأييديّة إلى قائد الأُمّة الإمام الخميني﴿﴾ كما أعدّ دراسة بعنوان: لمحة فقهيّة عن دستور الدولة الإسلاميّة في إيران، يهاجم في مقدّمتها النظام العراقي بشكل شبه سافر حيث يقول:

وهذا النور الجديد الذي قدّر للشعب الإيراني أن يحمله إلى العالم، سوف يعرّي أيضاً تلك الأنظمة التي حملت اسم الإسلام، زوراً بنفس الدرجة التي تدين بها الأنظمة التي رفضت الإسلام.

٢ ـ ويتّصل بإعلان التلاحم مع الثورة الإسلاميّة في إيران، ومبايعة قائدها الإمام الخميني تحقيق أمر آخر، وهو تصعيد الروح الثوريّة لدى الشعب العراقي المسلم عبر دفعه إلى تمثّل هذه الثورة، وإلفاته إلى قدرة الشعب الأعزل المتسلّح بالإيمان على إلحاق الهزيمة المنكرة بأعتى أسلحة الفتك والدمار.

٣ ـ البدء في ممارسة العزل السياسي ضدّ السلطة ومن يتّصل بها، عبر إصدار الفتوى علناً بحرمة الانتماء إلى حزب البعث [illegible]، ثمّ حرمة الصلاة وراء المرتزقة الذين دفعتهم مخابرات السلطة لإقامة الصلاة في المساجد، توهّماً منها

بإمكانيّة تطويق الوظيفة الجهاديّة للمسجد، وانتزاع هذا السلاح التعبوي الهامّ من أيدي المجاهدين.

٤ ـ التصريح الشرعي ببدء العمليّات الجهاديّة المسلّحة ضدّ أجهزة النظام ورموزه، من أجل إرباكه وإضعافه من الداخل، وتكسب هذة الخطوة أهميّتها من ملاحظة نتائجها المترقّبة في شلّ القبضة القمعيّة للسلطة تدريجيّاً ممّا يجعلها عاجزةً عن الوقوف في وجه حركة الجماهير المسلمة المتصاعدة.

وتصاب السلطة بالذهول والخوف، وتمارس أنواع المضايقات على القائد، وعلى المجاهدين الإسلاميّين، فيفصح سماحته عن رغبته في مغادرة العراق أوّلاً كتعبير إعلامي عن احتجاجه على مضايقات السلطة. ثمّ من جِهة ثانية كي يتاح له المجال أكثر لقيادة الحركة الإسلاميّة المعارضة، وتوجيهها من الخارج أمام صعوبة قيامه بذلك وسط مناخ الحصار الشديد في الداخل.

ويرسل قائد الأمّة الإمام الخميني برقيةً إلى القائد الشهيد يتمنّى عليه فيها البقاء في العراق على رغم كلّ المضايقات، فيلزم سماحته بالبقاء، وتحقّق الخطوة دورها الإعلامي، وتتقاطر الوفود الشعبيّة إلى داره في النجف من مختلف أنحاء البلاد، معلنةً مبايعتها له قائداً للمسلمين في العراق، ويلجأ زبانية البعث كعادتهم إلى لغة الإرهاب والقمع، فيعمدون إلى اعتقال عدد كبير من أعضاء الوفود ثمّ يتبعون ذلك باعتقال سماحة القائد الشهيد لفترة قصيرة، كوسيلة للابتزاز والضغط، توهّماً منهم بإمكانيّة ثنيه عن موقفه، ثمّ يضطرّون أمام الخوف من غضبة الجماهير للإفراج عنه، وتعود الوفود الشعبيّة إلى التقاطر من جديد.

وأمام فشل السلطة في مجابهة الالتفاف الجماهيري العلني المتعاظم حول القائد، وخشيتها من نتائج ذلك، تعمد إلى فرض الإقامة الجبريّة عليه في منزله.

وتشهد هذه الفترة أحداثاً وتطوّرات هامّة على صعيد المواجهة بين دولة الإسلام في إيران، وبين القوى الاستعماريّة، وعلى رأسها الولايات المتّحدة الأميركيّة ويتحوّل النظام العراقي في التخطيط الاستعماري إلى رأس الحربة المباشر ضدّ

إيران، وتتّفق إرادة كلّ من بريطانيا صاحبة النفوذ الأساسي فيه، مع إرادة الولايات المتّحدة الأميركيّة على دعمه وإسناده، مقابل ضلوعه بالدور التخريبي ضدّ الدولة الإسلاميّة.

ويترافق ذلك مع تصاعد الثورة الإسلاميّة في العراق، وشمولها لمختلف أنحائه، وقدرتها على توجيه ضربات عسكريّة مباشرة لبعض أركان النظام.

ويسيطر الارتباك على السلطة، وتأتيها النصيحة من أسيادها بضرورة التعلّم من الدرس الإيراني، وسرعة استباق الأمور قبل فوات الأوان، وذلك بالتعامل مع المدّ الإسلامي وقيادته بأقصى درجات الشدّة.

وينصبّ الحقد البعثي على قائد الثورة الإسلاميّة في العراق، فيعتقل من بيته في ساعة متأخّرة من الليل، ويؤتى به إلى بغداد، حيث يخيّر بين أمرين لا ثالث لهما إمّا التراجع عن خطّه الجهادي، وإعلان التبرّي من الحكم الإسلامي في إيران وإمّا مواجهة الإعدام.

ويأبى شرف القائد والتزامه الجهادي أن يختار على الشهادة بديلاً، معلناً بكلّ ثبات وإباء «إذا كان ضمير الشعب العراقي المسلم يحتاج إلى سفك دمي حتّى يتحرّك فإنّني على استعداد لذلك».

ويختتم حياته الحافلة بالجهاد والعطاء بأقصى درجات العطاء، ويبقى بعد استشهاده كما كان في حياته رمز الثورة اللاهب، وضميرها الملهم، والمحرّك إلى أن يندكّ عرش الطواغيت، ويأذن الله بنصره، وما يوم الظالمين ببعيد. انتهى.

شهيد الإسلام آية الله الصدر في دوره الإسلامي الفاعل[١]

قليلون هم الأشخاص الذين يمثّل مرورهم بالحياة نقلة جديدة في مجتمعهم أو أُمّتهم من خلال ما يقدّمونه من عطاء على مستوى الفكر والتربية والمعاناة، أو ما يرسمونه من خطوط عمليّة في طريق الهدف، وهؤلاء يستمرّون في الحياة ـ بعد موتهم ـ من خلال استمرار حركة العطاء، وحركة الخطّ من بعدهم.

لعلّ من أبرز هؤلاء في مرحلتنا هذه، شهيد الإسلام، آية الله المفكّر الإسلامي الكبير، السيّد محمّد باقر الصدر الذي تتمثّل ذكراه السنويّة الأُولى في ذكرى استشهاده.

ونحن هنا في محاولة لتقييم الدور الذي قام به في حياته القصيرة من خلال الخطوات العمليّة التي سارت حياته معها، وذلك من عدّة نقاط:

١ ـ مواجهته للفكر الماركسي من موقع الفكر الإسلامي العميق الممتدّ، بعد أن كانت الأساليب السياسيّة التقليديّة في وسائل الأعلام تتّخذ الوجه السطحي الذي يعتمد على التشهير، ممّا يوحي للفئات الأُخرى بالاحترام للماركسية بمقدار ما تمثّل أساليب نقدها من سطحيّة وابتذال. وبذلك استطاع الشهيد أن يحقّق في هذا الاتّجاه عدّة نتائج:

أ) الإيحاء بأنّ الإسلام أمين على فكر خصومه الفكريّين، فيعمل على أن ينقل وجهة نظرهم كاملةً غير منقوصة من موقع أمانة الفكر، والشعور بالقوّة أمام الفكر المضادّ.

ب) الإيحاء بأنّ الإسلام يملك الفكر الفلسفي والاقتصادي الذي يستطيع من

---

١. مجلّة الحكمة، العدد التاسع والعاشر، ص ١١ فما بعدها.

خلاله أن يواجه أفكار الآخرين من موقع الحوار الفكري، لا من موقع الشعارات العاطفيّة البرّاقة.

ج) التأكيد على الموقع الإسلامي المتميّز المستقلّ في مواجهته لمشاكل الحياة بحلول واقعيّة عمليّة أصيلة؛ ولذلك كان نقد الماركسيّة لا يمثّل تأييداً للرأسماليّة، بل كان يثير نقاط الضعف هنا بنفس القوّة التي يثير بها نقاط الضعف هناك من أجل إيضاح الحلّ الإسلامي الأفضل، وبذلك ابتعد عن الوقوع في حبائل الأساليب التي تعتمدها المخابرات المركزيّة الأميركيّة من توظيف نقد الماركسيّة إلى دعم للرأسماليّة باعتبارها تمثّل نظام العالم الحرّ.

د) توجيه الأبحاث الإسلاميّة للسيّد في هذا الاتّجاه، بعيداً عن الأساليب الانفعاليّة الساذجة؛ لهذا رأينا كيف انطلقت الدراسات اللاحقة، لتجعل من كتبه في الفلسفة والاقتصاد مصادر أساسيّةً لأفكارها وطروحاتها الفكريّة.

وقد حدّثنا بعض الثقات عن الفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي إعجابه بكتاب فلسفتنا عندما أطلعه عليه أحد أصدقائه؛ نظراً لما يتميّز به من عمق وأصالة، ولا يزال المثقفون في سائر أقطار العالم الإسلامي يقدمون على دراسة فلسفتنا واقتصادنا والأسس المنطقيّة للاستقراء، كمصادر أصيلة للفكر الإسلامي الجديد التي لا بديل عنها في ما ألّفه المؤلّفون في مواضيعه.

٢ ـ مواجهته للواقع اللاإسلامي الكافر والمنحرف بالخطّة العمليّة الشاملة للتغيير، فلم يكن مجرّد إنسان مفكّر يعيش في نطاق التنظير للآخرين، بعيداً عن حركة الحياة التغييريّة، بل كان يفكّر منذ بدايات انطلاقته الفكريّة في التخطيط لعمل إسلامي منظّم ينفتح على الحياة من موقع حالة الحياة إلى الطلائع الواعية التي تحمل الفكر والعمل بيد وتحمل الجهاد الإسلامي من أجل تحويل الفكر إلى واقع عملي يحكم الحياة بيد أُخرى؛ ولذلك فقد فكّر في إنشاء حركة إسلاميّة تنطلق من الأُسس الفكريّة الإسلاميّة الصحيحة من خلال الاجتهاد العميق، فانطلق في ثلّة من إخوانه يعمل في هذا الاتّجاه، وكتب آنذاك الأُسس الإسلاميّة للحركة من

أجل أن تبدأ من موقع الحكم الشرعي الصحيح، وقد عانى في سبيل ذلك الكثير الكثير من مجتمعه الذي كان ينظر نظرةً سلبيّةً إلى أيّ عمل إسلامي منظّم، انطلاقاً من أفكار خاطئة ناتجة عن ضيق الأُفق من جهة، وعن خلفيّات قلقة من جهة أُخرى. وقد استخدم الكثيرون هذا الاتّجاه في فكره وفي خطواته الإسلاميّة العمليّة سلاحاً يحاربونه به في صعوده الملحوظ نحو مركز المرجعيّة الإسلاميّة في نجف الأشرف، على أساس أنّ ذلك يمثّل تحرّكاً سياسيّاً لا يتناسب مع قداسة المرجعيّة في ما تمثّله من عزلة عن الاصطدام بالحكم والحاكمين.

وقد اختلفت الضغوط عليه في ذلك بمختلف الأساليب، ولكنّه كان يمتاز بمرونة فكريّة وعمليّة في التخلّص من نتائج هذه الضغوط فكان يستسلم لبعضها في ما لا يضرّ الخطّ الإسلامي الأصيل، كما حدث له في مجلّة «الأضواء» التي كان يصدرها جماعة العلماء في النجف الأشرف؛ لتكون الردّ الفكري الثقافي على المدّ الإلحادي الشيوعي بعد ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ في العراق، وكانت هذه المجلّة بإشرافه وبإشراف جماعة من إخوانه، وكان يكتب افتتاحيّتها تحت عنوان رسالتنا في الأعداد ١ ـ ٥؛ ولعلّ قراءة هذه الافتتاحيّات تعطي الفكرة الكاملة عن اتّجاهه الفكري في طريق التحرّك الإسلامي، كما تشير إلى علاقته بالخطّ الإسلامي الحركي آنذاك.

وقد امتنع تحت تأثير كثير من الضغوط عن كتابة الافتتاحيّة بعد ظهور علاقة الحركة الإسلاميّة بالمجلّة؛ ولكنّه كان يعطي الفكرة لبعض الكتّاب الإسلاميّين في أكثر مجالاتها بعد ذلك.

وقد بقيت علاقته بالحركة الإسلاميّة قويّةً، بالنظر إلى أنّ الطليعة الواعية الإسلاميّة من جماهير الحركة كانت تتغذّى من فكره، وكانت ترجع إليه في كثير من أفرادها بالتقليد؛ ولكنّه لم يكن في السنوات الأخيرة مرتبطاً بها ارتباطاً عضويّاً تنظيميّاً.

وربما كان يختلف مع بعض قادتها في أساليب العمل.

وربما كانت الخلافات تصل إلى حدّ التأزّم؛ ولكنّه كان يحترم فكر الكثيرين منهم، ولا يمنعه ذلك من رعاية الخطّ الأصيل العامّ للأسلوب الإسلامي الحركي في العمل؛ لأنّ القضيّة لديه كانت قضيّة فكر يؤمن به، وخطّ يسير عليه، ويريد للآخرين أن يسيروا عليه، وليس مجرّد حالة ذهنيّة تجريديّة طارئة.

وقد كان من بعض الجوانب التي كانت مثاراً للخلاف الفكري بينه وبين بعض قياداتها هو جانب انتماء طلّاب العلم الديني، وعلماء الدين إلى الحركة الإسلاميّة، فقد كان ﷺ يرى أنّ من الأفضل للعالم الديني أن لا ينتمي إلى تنظيم؛ ليكون الجميع في قيادته، حتّى إذا كان مؤمناً بفكر التنظيم وأُسلوبه في العمل؛ لأنّ الانتماء يحدّد له حركته، ويجعل الآخرين من المؤمنين في الموقع المقابل له ممّا يعطّل فاعليّته في خدمة الفكر الإسلامي والحركة الإسلاميّة؛ ولهذا أصدر في بعض المراحل حكماً بحرمة الانتماء للأحزاب الإسلاميّة على طلّاب العلم.

وكان من رأي بعض القيادات الإسلاميّة أنّ ابتعاد علماء الدين عن الدخول في التنظيم يجعل التنظيمات الإسلاميّة في عهدة أشخاص قابلين للانحراف من موقع عدم تخصّصهم بالثقافة الإسلاميّة، وعدم معرفتهم بأحكامها الأساسيّة، بينما يكون وجودهم في الداخل ضماناً لعدم الانحراف من جِهة، وأساساً لشرعيّة العمل من جِهة أُخرى.

وكانوا يرون أنّ السلبيّات تقف أمام الإيجابيات، بعد أن كان لكلّ عمل سلبيّاته وإيجابيّاته.

وقيل: إنّه جمّده، ولكن من الثابت أنّ المرحلة الأخيرة من حياته كانت تمثّل انسجاماً كبيراً مع الطليعة الإسلاميّة الواعية، التي كانت ترى فيه بحقّ القائد الإسلامي الحكيم المخلص لجهادها، المخضّب بالدم، المعطّر بالاستشهاد الذي كان هو القمّة في تجسيده للقائد الذي يتقدّم صفوف الشهداء من أجل الإسلام؛ ليكون الطليعة الرائدة لهم في الطريق المستقيم الطويل.

٣ ـ محاولته التخطيط للمرجعيّة وإخراجها من واقعها الحالي الذي يجعلها

مرجعيّة شخص يملك المؤهّلات العلميّة التي توصله إلى مركز القيادة، فتنطبع بطابعه في نطاق العلاقات والاتّصالات والأوضاع، ثمّ تعتبر كلّ وسائله ومشاريعه تركة شخصيّة لأهله من دون أن تبقى للمرجع الآخر، الأمر الذي يعقّد كثيراً من الأعمال الإسلاميّة، ويضيّع كثيراً من الجهود ويخلق حالة من الارتباك في العلاقات العامّة، التي قد تكون مرتبطة بالمرجع القديم في نطاق استمرارها مع المرجع الجديد، فقد كان الشهيد السعيد ﷺ يفكّر في أن تكون المرجعيّة مؤسّسةً تستمرّ كلّ علاقاتها ومشاريعها وأعمالها في الإطار العامّ، بحيث تكون الخصوصيّة في شخصيّة المرجع وطريقته في القيادة والعمل بينما يتحرّك في خطّ المؤسّسات التي يتحرّك فيها في الخطّ العامّ، وبذلك يجد المرجع الجديد كلّ شيء جاهزاً أمامه، فلا يبدأ من نقطة الصفر، بل من حيث انتهى أسلافه الآخرون.

ولا يزال هذا التفكير الذي يلتقي به الشهيد السعيد ـ مع الكثيرين من إخوانه العاملين ـ حلماً وفكرةً تنتظر الظروف الموضوعيّة للتحقيق.

٤ ـ إعداده الواعي المتكامل لشخصيّة العالم الديني الذي يعمل على تربيته، فقد كان طموحه أن يكون الجيل الجديد من علماء الدين المسلمين في جامعة النجف أو قمّ أو غيرهما من الجامعات الإسلاميّة نموذجاً فريداً في الثقافة الإسلاميّة، وفي الخطّ الواعي للتحرّك، فقد كان يرى أنّ التحديات المضادّة التي تواجه الإسلام والمسلمين تفرض على العاملين ـ الذين يتسلّمون مهمّة القيادة الفكريّة والروحيّة للأمّة ـ أن يكونوا في مستوى التحدّيات فيما يمثّلونه من علم واسع عميق في نطاق اختصاصاتهم، وفيما يمثّلونه من جهد دائب للسعي في تعزيز الإسلام في حركته الدائبة نحو تغييره الحياة على صورته.

وفي ضوء ذلك كان يدعو ويعمل على أن يدفعهم إلى التنوّع في الثقافة، والتعمّق فيما يتعلّمونه منها، كما كان يملأ نفوسهم وأفكارهم بالوعي الذي يجعل منها شيئاً متحرّكاً في أجواء الحياة، لا مجرّد شيء جامد في ذهن صاحبه، وكان يوجّههم أن يعيشوا المسؤوليّة بأعمق مشاعرها وحركيّتها، وقد استطاع أن يدفع إلى

الساحة بنماذج جيّدة تلتقي جميعاً في وعيها الرسالي وإن اختلفت في ما تملك من الثقافة والفكر.

٥ ـ محاولته الناجحة في تجديد الأُسلوب للدراسات الأُصوليّة والفقهيّة، وقد تمثّل ذلك في كتابه دروس في علم الأصول، الذي استطاع أن يعطي لكثير من الموضوعات الأُصوليّة عناوين جديدةً مستقلّةً كانت ضائعة في غمار أبحاث أُخرى، كما استطاع أن ينظّم هذه الموضوعات في تخطيط جديد يحتفظ للعلم بالعمق، وينطلق التوجّه نحو التجديد في المضمون والشكل. وقد كان يعمل على تبويب الفقه في أبواب جديدة، تختلف عن الأبواب المعروفة في الفهرسة الفقهيّة السابقة لعلم الفقه؛ تبعاً لتجدّد الحاجات الحياتيّة التي تقتضي وضع كلّ مسألة في موقعها الطبيعي من حاجة الإنسان.

هذه هي بعض الأدوار البارزة في حياته، ونحن نشعر بأنّ الحياة لو امتدّت به لاستطاع أن يحقّق الكثير الكثير في تطوير هذه الأدوار وتعميقها وتوسيعها، كما نشعر بأنّ على رفقائه وتلاميذه أن يجدّدوا ذكراه بالعمل على إعطاء هذه الأدوار امتداداً في حياة الإسلام والمسلمين؛ لأنّ ذلك هو السبيل الوحيد لبقاء اسم الشهيد السعيد حيّاً فاعلاً في امتداد المسيرة الطويلة للإسلام، في سبيل تحقيق الأهداف الكبيرة التي يرضاها الله ورسوله.

وإنّنا لنرجو ـ في هذا المجال ـ من الطاقات الحيّة الفاعلة التي تعمل في خطّ الشهيد السعيد أن لا تتجمّد أمام ذكراه كشخص، فتنفصل بذلك عن مسيرته، بل تحاول أن تنطلق من ذكراه كقضيّة؛ لأنّ عظمة الشهيد السعيد أنّه كان قضيّةً تتحرّك في شخص لتمتدّ إلى غيره فيما تمتدّ به القضايا في حياة الآخرين، وعلى ضوء ذلك فلا بدّ لهم أن يلتقوا عند القضايا الكبيرة التي عاناها في حياته فيتجاوز كثيراً من السلبيّات التي يمكن أن يتجاوزوها، ويتفاهموا على القضايا التي يمكن تجاوزها بالتأكيد على الإيجابيّات لتتحوّل السلبيّات ـ من خلال ذلك ـ إلى إيجابيّات فإنّ ذلك هو معنى الإخلاص لذكراه، وإنّ ذلك هو معنى الثأر الإيجابي

الواعي له. أن يتحرّك الإسلام حيث أرادوا له أن يقف ويتجمّد، وأن يتغيّر الواقع المنحرف من حيث أرادوا له أن يستمرّ، وأن يسقط حكم الطاغوت من حيث أراد لنفسه، وأراد له الآخرون أن يبقى.

إنّ الشهيد السعيد ليس شخصاً ينتمي إليه المنتمون بل هو رسالة ينطلق من خلالها الرساليّون؛ ولذلك فإنّهم يعيشون الانتماء إليه بقدر انطلاقتهم الرساليّة من خلال خطّه الأصيل.

وكلمة أخيرة نثيرها أمام ذكراه

لقد كانت حياة شهيدنا الكبير حياة حافلة متنوّعة في أحداثها وتطلّعاتها وخلفيّاتها وقضاياها الخاصّة والعامّة، ولابدّ أنّ هناك قصصاً صغيرةً أو كبيرةً يمكن أن تروى عن حياته، ولابدّ أنّ هناك جوانب غير واضحة من جوانب علاقاته واتّصالاته، ولابدّ أنّ هناك أفكاراً كان يسرّها إلى تلامذته وإخوانه، فلا بدّ من أن تتظافر الجهود على رواية كلّ ذلك، على كتابة كلّ ذلك، من أجل أن ننطلق في تحليل جديد شامل لحياته؛ لتكون درساً للعاملين في مستوى القيادة، وفي مستوى القاعدة، فإذا كانت لحياته خصوصيّات في حياته فقد ذابت كلّ الظروف الضاغطة التي كانت تمنع من إذاعة أسراره؛ لأنّ الجميع قد أصبح ملك الأمّة والإسلام، بقدر ما كان الشهيد السعيد ملكاً لأُمّته وإسلامه.

إنّنا نشعر بأنّ الفقيد لم يحصل الآن على كتابة شاملة مفصّلة، فلتكن ذكراه الأُولى هذه حافزاً على تسجيل كلّ ما نعرفه، ولا سيّما في ما يتعلّق بتفاصيل جهاده السياسي الإسلامي، في علاقاته بالقاعدة وبالقيادات الإسلاميّة، وبالحاكمين المنحرفين في صراعه المرير معهم، وتلك أمانة الإسلام في أعناق الجميع. انتهى ملخّصاً.

استشهاد الإمام السيّد محمّد باقر الصدر من منظور حضاري[1]

لقد كان السيّد الشهيد محمّد باقر الصدر ﷺ معلّماً ومفكّراً وقائداً؛ إذ كان مرجعاً للأمّة بكلّ ما لهذه الكلمة من مدلول إسلامي.

عاش طوال عمره الشريف في معاناة مع الواقع المؤلم الذي تعيشه الأُمّة الإسلاميّة.

عاش حياته متحدّياً كلّ أشكال الاستعمار وعملائه المحليّين، وأصدر حكم الإعدام على النظام العراقي العميل. ولفّ الحبل على عنق صدّام، ثمّ رحل إلى عالم الخلود تاركاً للمجاهدين شدّ الحبل وتضييق الخناق حتّى يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ومكتب لبنان الإعلامي لحزب الدعوة الإسلاميّة في العراق؛ إذ يصدر هذه الدراسة التحليليّة لظاهرة استشهاد هذا الوارث الكبير لرسالات الأنبياء، يأمل أن يساهم في إلقاء الضوء على بعض جوانب عظمته الفذّة، ودوره الفريد في تأريخ الصراع بين الحضارة الإسلاميّة والحضارة الاستعماريّة؛ لتتّضح أكثر معالم الطريق الذي تنتهجه أُمّتنا في سعيها لإقامة حكم الله في الأرض.

وفي ص ٣١ وما بعدها من الكتاب المذكور ما يلي:

الشهيد السعيد السيّد الصدر

نشأ السيّد الصدر ﷺ في النجف الأشرف، ولم يكتمل له من العمر عشرون سنة حتّى بلغ رتبة الاجتهاد.

كانت علامات النبوغ أبرز ما فيه، تخطّى المراحل الدراسيّة بعبقريّة منقطعة

١. عن كتيب أصدره مكتب لبنان الإعلامي لحزب الدعوة الإسلاميّة في العراق.

النظير، ودخل عامه السادس والعشرين والعراق على أعتاب موجة سياسيّة فكريّة تقودها الشيوعيّة في سنة ١٩٥٩، فماذا فعل ابن الستّة والعشرين عاماً؟ وضع منهجاً كاملاً لبناء الأمّة الإسلاميّة، يكون إنشاء الدولة الإسلاميّة فصلاً من فصوله، وتكون الدولة الإسلاميّة التي تحكم العالم كلّه خاتمة المطاف فيه. وضمن هذا المخطط تحرّك السيّد الشهيد في مسارين: فكري وتنظيمي.

تجلّى مساره الفكري في برنامج علمي طرح خلاله الإسلام كدين كامل، فيه العقيدة والنظام والمنهج، كحلقات ثلاثة منسجمة مع بعضها، وأكّد على كمال الإسلام من جِهة، وعلى أصالته واستقلاليّته من جِهة ثانية. بحيث لا يحتاج الإسلام إلى الاقتباس من الشرق أو الغرب، وأشار إلى تميّزه الكامل عنهما، وأفضليّته عليهما.

لقد كان منهجه الفكري في طرح الإسلام يتّسم بالأصالة والعمق والوضوح والشمول والهجوميّة، ولكلّ واحدة من هذه الصفات الخمس أهميّتها البارزة في كتاباته وبحوثه.

ولإيضاح الصفة الأخيرة ـ الهجوميّة ـ نقول: إنّه لم يطرح الإسلام كمبدإ في مصافّ المبادئ الأُخرى، أو مدرسة في مصافّ المدارس الأُخرى، كالرأسماليّة والماركسيّة، بل طرحه كمنهج صاحب أحقّيّة يستمدّها من أفضليّته الموضوعيّة والمصدريّة، وعلى هذا الأساس هاجم المدارس الفكريّة والاجتماعيّة الأُخرى ولم يقف منها موقف المقارنة السلميّة التي عقدها مفكّرون آخرون، كما أنّه لم يقف عند حدّ العلم فقط، بل كان دائماً يوحي من خلال الفكرة أنّ العلم للعمل، والمعرفة للتطبيق، ولا خير في علم لا يورث عملاً؛ ولذلك فإنّه إذ يؤسّس قواعد الفكر الإسلامي الحديث، إنّما يفعل ذلك مقدّمةً لقيام طليعة إسلاميّة تحمل الرسالة قدماً نحو تحقيق الهدف الأكبر تطبيق الإسلام.

وتلمس ذلك واضحاً في كلّ مؤلّفاته، بل من عنونة مؤلّفاته وأسماء كتبه. فعندما كتب في الاقتصاد ليدحض علميّاً الاقتصادين: الماركسي والرأسمالي، ويوضّح

الاقتصاد الإسلامي، لم يسمّ كتابه: الاقتصاد في الإسلام، بل أسماه اقتصادنا، اقتصادنا نحن الطليعة التي تحمل الإسلام وتسعى لإقامته واقعاً حيّاً. وهكذا أيضاً سمّى كتابه الآخر فلسفتنا إنّه يريد دائماً أن يربط بين الفكر الإسلامي وبين المسؤوليّة الإسلاميّة، فهو لا يرى أنّ الفكر الإسلامي كائن مجرّد نضعه أمامنا على الطاولة، ونخضعه للبحث العلمي، ونصدّر فيه لكتب ونعنونها: الاقتصاد في الإسلام، السياسة في الإسلام، العقيدة في الإسلام، المجتمع في الإسلام... إلى آخره.

إنّه اقتصادنا، وفلسفتنا ومجتمعنا، وهي رسالتنا التي نحملها للعالم.

كان ذلك في عام ١٩٥٩، وكان عمره الشريف ٢٦ سنة، وقد أوضح خلال سنتين فقط المعالم الأساسيّة، وبعض الملامح التفصيليّة للفكر الإسلامي فصارع الفكر الشرقي والغربي على السواء، وقدّم الإسلام كما يريده الله تعالى.

أمّا في المسار التنظيمي، فقد أقدم بمساعدة مجموعة من العلماء الأعلام على تأسيس حزب الدعوة الإسلاميّة، ووضع لبناته الأساسيّة وأصوله التنظيميّة والفكريّة لتختط كوادر الحزب على أساسها طريق العمل الإسلامي المبارك، حتّى نما الحزب وأصبح القوّة السياسيّة الرئيسيّة المعارضة للحكم القائم في العراق.

كانت الأُمّة في ذلك الوقت تمتلك حساسيّةً خاصّةً ضدّ الأحزاب، بسبب ما لمسته من الأحزاب غير الإسلاميّة، ولم يكن وعيها آنذاك يسمح لها بالتمييز بين الجانب النظري الايديولوجي في الحزب، وبين الجانب العملي التنظيمي منه، وكانت تجربة الحزب الإسلامي في العراق حديثة ومحاطة بتلك الحساسيّات.

ووقف شهيدنا الصدر‌ﷺ بين مسألتين متعارضتين:

المسألة الأُولى: ضرورة إنشاء الحزب الإسلامي باعتبار أنّ القيام بحمل رسالة الإسلام مشروع ضخم يستدعي حشد أكبر مقدار من طاقات الأُمّة، أي إنّه بحاجة إلى عمل جماعي، ولابدّ لهذا العمل أن لا يكون فوضى لا يضبطها ضابط، بل لابدّ أن تكون الأعمال منظّمةً والمسؤوليّات موزّعةً، والمهام مبرمجةً، فلا بدّ

إذن أن يكون العمل الجماعي المنظّم طريق إنجاز المسؤوليّة الإسلاميّة الكبرى.

المسألة الثانية: أنّ قطاعات من الأمّة ـ بسبب انخفاض وعيها السياسي ـ تملك حساسيّةً شديدةً نحو التنظيم الحزبي، وستقف حتماً موقفاً معادياً أو سلبيّاً على الأقلّ من الحزب الإسلامي، أضف إلى ذلك أنّ السلطة لا يروق لها إنشاء مثل هذا النشاط الذي يعني إنهاءها تماماً.

وتوفيقاً بين المسألتين اختار الإمام الشهيد أن تكون المرحلة الأُولى من عمل حزب الدعوة الإسلاميّة مرحلةً سريّةً؛ لتجنّب قمع السلطة المبكر، وتجنّب حساسيّة بعض أوساط الأمّة.

الإمام الشهيد والأساس الفكري للحركة الإسلاميّة في العراق

لقد وضع المرجع الشهيد بنفسه المعالم الأساسيّة والخطوط الرئيسيّة لحزب الدعوة الإسلاميّة لكي يشقّ مسيرته المباركة في تحقيق حكم الله في الأرض، فكان لشهيدنا الفضل الأكبر، ونصيب السبق في هذا الميدان؛ إذ لولا هذه الأسس الفكريّة لما استطاع حزب الدعوة أن يشقّ مسيرته اللاهبة بذلك الفكر الأصيل.

وإذا أردنا أن نذكر أمثلة على ذلك نقول: إنّ المرجع الشهيد هو الذي حدّد اسم الحزب «حزب الدعوة الإسلاميّة» وخطّط مراحل عمله، وأكّد على ضرورة السرّيّة في المرحلة الأُولى، وأشار إلى أنّ رسالته رسالة انقلابيّة وليست إصلاحيّة، وأوضح ضرورة التغيير الاجتماعي على أساس فكري، وأنّ التغيير لا بدّ أن يبدأ من الطليعة المجاهدة نفسها بتغيير ما بنفسها قبل مطالبة المجتمع بالتغيير، إلى غير ذلك من الأُسس الفكريّة التي بنى عليها حزب الدعوة الإسلاميّة كيانه.

كلّ هذه الأفكار أوضحها الإمام الشهيد في البحوث الفكريّة التي كتبها في النشرة المركزيّة لحزب الدعوة الإسلاميّة صوت الدعوة.

الشهيد الصدر بعد نجاح الثورة الإسلاميّة

يعنينا هنا أن نقيّم تحرّك الشهيد الصدر بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيـران، وذلك في مجالين:

المجال الأوّل: التجربة الإسلاميّة الجديدة في إيران.

المجال الثاني: الثورة الإسلاميّة في العراق.

المجال الأوّل: ترجع صلة الإمام الشهيد بالثورة الإسلاميّة في إيران إلى ١٦ سنة قبل انتصارها.

وينقل تلاميذه المقرّبون نماذج من العلاقة بينه وبين قائد الثورة الإسلاميّة الإمام الخميني، وتبادل وجهات النظر معه في مراحل مختلفة من هذه الثورة المباركة، وربّما كان الشهيد الصدر هو الوحيد الذي بعث للإمام الخميني في باريس ـ بعد خروج الشاه وتولّي بختيار السلطة ـ برسالة يعرب فيها عن اعـتقاده بـخطورة الفراغ السياسي في إيران بخروج الشاه، وأنّه ما لم يعد الإمام إلى إيران لملء هذا الفراغ، فسوف تسير الأُمور في غير الاتّجاه الذي تقتضيه مصلحة الإسلام.

وواكب الشهيد السعيد أحداث الثورة بعد الانتصار واستلام السلطة، وأرسل إلى قيادة الثورة ستّة بحوث من الفقه السـياسي التـطبيقي الحـديث الذي تـحتاجه التجربة الإسلاميّة الوليدة، وكان البحث الأوّل حول مشروع دستور الجـمهوريّة الإسلاميّة الذي استفيد منه لصالح الدستور الحالي والمطبّق في إيران.

لقد بدا واضحاً أنّ مساهمة الشهيد في وضع الأطر التنظيميّة للتجربة الإسلاميّة هو دور خطير يساهم به الشهيد العظيم، ولا يقلّل من خطره أنّه بدأ صغيراً، فكثير من الأشياء تولد صغيرةً ثمّ تكبر، ولا أحد يدري ما هو حجم الدور الذي سـيلعبه الإمام الصدر في هذه التجربة، ولكن بالتأكيد هناك من يدرك خطورة هذا الدور، وتكمن الخطورة في أنّ مساهمة رجال كـالسيّد الصـدر فـي تـخطيط التـجربة الإسلاميّة الجديدة، سوف يؤدّي إلى ارتفاع نسبة نجاحها، وسوف يـفتح أعـين

الشعوب الإسلاميّة الأُخرى، والعالم غير الإسلامي على التجربة. وهذه النتيجة هي التي ترعب الاستعمار الذي قرّر أن يقوم بدور السعي لإفشال التجربة، ليقول للمسلمين: «ها قد جرّبتم الإسلام في العصر الحديث ففشل، إذن كفّوا عن التمسّك به». وبهذا يأمن شرّهم ويضمن استمرار سيطرته عليهم.

إنّ الدور المستقبلي لآية الله الصدر يزداد خطورةً في المستقبل، إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ الدستور الإسلامي لايشترط في قائد الدولة أن يكون إيراني الجنسيّة، بل أن يكون مرجعاً يملك كفاءات القيادة. المسألة ـ بناءً على ذلك ـ خطيرة، ولابدّ من الخطر المستقبلي، والوقاية خير من العلاج.

والنتيجة: لأجل أن يقلّل الاستعمار من احتمالات فشلها لابدّ من قتل آية الله السيّد محمّد باقر الصدر.

المجال الثاني: على صعيد الثورة الإسلاميّة في العراق:

وجد الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر أنّ انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران قد أضاف للشروط الموضوعيّة لقيام الثورة الإسلاميّة في العراق عناصر جديدة تعجّل في اندلاعها وإذكاء شعلتها، فقيام دولة للإسلام في جوار العراق، يعطي أوّل ما يعطي الدعم المعنوي والإمداد الروحي للثورة في العراق. هذه الثورة التي تمّ الإعداد الفكري والتنظيمي لها سنوات طويلة، وذلك بحكم خصوصيّات العراق السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة التي تجعل الإعداد الفكري والروحي المتين للطليعة الثائرة شرطاً أساسياً للدخول في مرحلة الثورة الشاملة.

إنّ هذا الإمداد المعنوي ضرورة ملحّة لتعبئة جماهير الشعب العراقي، ودفعها للتلاحم مع الطليعة الثوريّة؛ إذ بدون هذا التلاحم تصبح مبادرة هذه الطليعة مغامرةً طائشةً، غير معلومة النتائج في ظلّ حكم يوقّع فيه صدّام على إعدام مائة إنسان قبل أن يرتشف قهوة الصباح.

وقد خلّف الإرهاب البوليسي الحاكم في العراق جوّاً من الخوف ـ لايوجد له مثيل في العالم ـ وهو خوف حقيقي له أسبابه الموضوعيّة، وليس تخوّفاً نابعاً

من طبيعة جبّانة، أي أنّ الإرهاب الذي مارسه الحكم في العراق لو مورس مع أيّ شعب آخر، لأحدث نفس النتائج وولّد نفس الرعب، فلقد استعمل صدّام من أساليب التعذيب وألوان القتل، ما لم تستعمله إسرائيل، ولا روسيا، ولا جنوب أفريقيا.

واجه الشهيد الصدر هذا الجوّ، فقرّر أن يكسر حاجز الخوف، وذلك بأن يضرب السلطة علناً، وفي موضع الألم الذي تشكو منه، فقام بمايلي:

١ ـ إصدار فتواه العلنيّة بحرمة الانتماء لحزب البعث الحاكم.

٢ ـ أعلن تأييده المطلق للثورة الإسلاميّة في إيران.

٣ ـ إصدار حكمه بإهدار دم أزلام السلطة وأعوانها، وأذن بصرف الحقوق الشرعيّة في الأعمال الجهاديّة وشراء السلاح.

وفي أثناء ذلك قام المجاهدون بتعبئة الرأي العامّ وتنظيم وفود لبيعة السيّد الشهيد في النجف الأشرف، وإعلان الولاء له، وكانت هذه الخطوة بتوجيه منه رضوان الله عليه. وبدأ حاجز الخوف بالتصدّع، ولاحت في الأفق بوارق أمل، وبدأ الناس بالتظاهر في الشوارع، وخصوصاً بعد اعتقاله الأوّل، ولاحظت السلطة أنّ الشارع قد تحرّك بسبب اعتقاله، وخشيت سوء العاقبة، فسارعت إلى إطلاق سراحه.

وفي هذه الأثناء كانت عمليّات المجاهدين قد بدأت على شكل نسف مؤسّسات السلطة واغتيال بعض رجالها، وكان المجاهدون يستخدمون في هذه العمليّات أضعف الإمكانات، وأقلّ الوسائل بسبب صعوبة الحصول على المعدّات اللازمة لهذه الأعمال.

عناصر القوّة في التجربة القادمة

إنّ التجربة الإسلاميّة القادمة في العراق سيكون لها من عناصر القوّة ما يضمن لها درجةً عاليةً من النجاح ؛ ذلك أنّ الثورة الإسلاميّة في العراق، يحرّكها حزب ويقودها مرجع، والحزب استقى أفكاره بالأساس من هذا المرجع فأصبح المرجع والحزب كلّاً متجانساً قادراً على إدارة التجربة الإسلاميّة بكفاءة.

وقد تبيّن لنا أنّ آية الله السيّد محمّد باقر الصدر ليس قائداً للثورة الإسلاميّة في العراق بالمعنى الشائع للقيادة في العالم الثالث، بل هو رأسها الفكري والسياسي والتنظيمي وهو المفصل الفكري المتحرّك الذي يضمّن نجاح التجربة الحضاريّة الجديدة، ولذا فليس من السهل استبداله بقائد آخر، كما يحصل في ما يسمّى بثورات دول العالم الثالث.

فالسيّد الصدر قائد تجربة حضاريّة؛ ولذلك فهو يمثّل قيمةً حضاريّةً، وبقاؤه يعطي للتجربة عمقها وبعدها الحضاري.

والنتيجة: لأجل أن يقلّل الاستعمار احتمالات نجاح التجربة الحضاريّة الإسلاميّة الجديدة، ويزيد من احتمالات فشلها، لابدّ من قتل المرجع والمفكّر الكبير السيّد الصدر.

وهذه هي نفس النتيجة التي توصّلنا إليها لدى تقييمنا للسيّد الصدر على صعيد الثورة الإسلاميّة في إيران.

... وهكذا كان ...

وقتل السيّد الصدر لإفقاد التجربة الحضاريّة الإسلاميّة عنصراً مهمّاً من عناصر نجاحها، عساها تضعف وتتعثّر، ويتمكّن الاستعمار من تكييف العقبات أمامها لأجل أن تفشل، وتدرك الشعوب الإسلاميّة أخيراً أنّ تطبيق الإسلام لم يكن هدفاً يستحقّ كلّ هذه التضحيات.

فإعدام السيّد الصدر إذن كان جولةً هامّةً من جولات الصراع بين الحضارة الاستعماريّة، والحضارة الإسلاميّة، ولم يكن هدفاً سياسيّاً، بل كان ظاهرةً حضاريّةً، كقانون تأريخي: أنّ الأشخاص الذين يشكّلون ظاهرةً حضاريّةً لا يمكن أن يموتوا.

الأنبياء لا يموتون ؛ لأنّهم تركوا رسالتهم، والعلماء ورثة الأنبياء، فهم أيضاً لا يموتون.

وهل يموت الذي علّم الناس كيف يحيون برسالة الله ولرسالة الله؟

وإذا كان الشهيد الأوّل والشهيد الثاني أحياء بعلمهما الذي ورّثاه، فهل يموت السيّد الصدر وقد ورّث علماً ومنهجاً وحركةً؟

وهل يموت الصدر وقد قدّم روحه فداءً لرسالته، وفاض دمه الزكيّ ليروي تربة العراق التي أُريق عليها دم جدّه سيّد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام؟

ترى هل مات الحسين عليه السلام أم بقي على مدار التأريخ مشعل هداية لكلّ المجاهدين الأحرار؟

فكذلك السيّد الصدر الذي استشهد على نهج الحسين عليه السلام، فهو لن يموت بل سيبقى مشعلاً ينير الطريق للمجاهدين، وسيبقى دمه الزكيّ حيّاً دافقاً يبعث الروح في الأُمّة التي ابتليت بيزيد العصر صدّام التكريتي، ولسوف تنبعث حركة التوّابين من طوابير الضالعين في ركاب السلطة الحاكمة في العراق.

إنّ دم الشهيد الصدر وما يحدثه من أثر في ضمير الأمّة، لهو أحد الضمانات الموضوعيّة لانتصار الحركة الإسلاميّة في العراق.

أمّا الضمانتان الأُخريان فهما:

أ ـ طبيعة الخطّ الفكري للحركة الإسلاميّة في العراق.

ب ـ قافلة الشهداء التي قدّمتها هذه الحركة.

فالخطّ الفكري للحركة الإسلاميّة في العراق، والذي أسّسه المرجع الشهيد، سواء على مستوى الفكر الإسلامي العامّ متمثّلاً في اقتصادنا وفلسفتنا وباقي كتبه أو في أفكاره العمليّة التي قامت عليها الحركة الإسلاميّة. هذا الفكر بشقيّه يمتاز بأنّه الفكر الوحيد المطروح في الساحة العراقيّة؛ ولذا فإنّ الجوّ الإسلامي في العراق لا يشكو من تعدّد التيّارات الفكريّة، وتشعّب المدارس الإسلاميّة، فمدرسة المرجع الشهيد هي السائدة في النظريّة والتطبيق وهي التي تمسك بزمام الساحة. انتهى ملخّصاً.

وقد ذكر في ص ١٤٩ وما بعدها نماذج من البحوث الفكريّة التي كتبها مترجمنا الشهيد الثالث في صوت الدعوة، وهي النشرة المركزيّة لحزب الدعوة الإسلاميّة.

السيّد الصدر شهيد الفكر والقضيّة[١]

السيّد الصدر شخصيّة عظيمة، منقوشة في ذاكرة التأريخ، وهي لذلك خالدة أبد الدهر، ولن يطويها النسيان مهما طال الزمان؛ لأنّ عطاءات الشهيد الفكريّة والجهاديّة أضحت منطلقاً للأجيال الحاضرة والمقبلة.

فالسيّد الصدر كان قضيّةً ورمزاً وإطاراً للمسيرة الإسلاميّة الصاعدة، وهو مصدر إلهام لكلّ من يقارع قوى الكفر، ويتصدّى لها بالفكر والسلاح.

وعلى هذا الأساس بات هذا المفكّر العملاق قضيّةً دائمةً وساخنةً، تتجدّد في كلّ عام يمرّ على ذكرى شهادته الأليمة.

في مطلع الأربعينات قدم النجف الأشرف فتىً يافع في بدايات العقد الثاني من عمره، لم يثر قدومه انتباه طلبة العلم هناك؛ إذ لم يكن يتصوّر أحد أنّ هذا الفتى سيفجّر ثورةً في ميادين العلم والفلسفة والفكر، ويبني مدرسةً جديدةً في أساليب البحث والنقد والحوار البنّاء، ترث المدرسة التقليديّة التي حالت دون تطوّر آلة الفكر الإسلامي؛ لتكتسح المبادئ والأفكار الوضعيّة الهشّة، وتتبوّأ المكانة المشرّفة من بين المدارس الفكريّة الأُخرى.

لكن سرعان ما تفتّقت عبقريّة الشهيد، وانطلقت مواهبه المدهشة من خلال حواراته القيّمة مع أساتذة الحوزة العلميّة، ومدرّسيه هو بالخصوص، فأدرك هؤلاء منزلة الصدر الرفيعة، وموهبته المفرطة التي قلّما أنجب التأريخ مثلها.

لقد أضفى الشهيد الصدر لوناً جديداً على أُسلوب مقارعة الأفكار الوافدة، أو المستوردة من الشرق والغرب، بحيث أخفق الأعداء في مواجهته؛ لأنّهم لم يألفوا

١. عن مجلّة الوحدة الإسلاميّة الطهرانيّة، العدد ٨٦، بمناسبة ذكرى استشهاده السابعة.

هذا النمط من الدفاع عن المعتقدات الإسلاميّة الرصينة.

ولم يقتصر اهتمام المفكّر الشهيد في مجال واحد من مجالات العلم والثقافة والدين، بل زجّ فكره وقلمه في شتّى المجالات والحقول، وأبدع كلّ الإبداع في صياغة الأُسس والموازين التي تتحكّم في أُصول التفكير والاستنتاج.

وبقدر ما تولّى السيّد الصدر مهمّة الدفاع عن العقيدة الإسلاميّة والذود عنها بوجه الهجمات الفكريّة المضادّة، وبقدر اهتمامه لرفع شأن الإسلام ودحض المبادئ والنظم الوضعيّة المتهافتة، بقدر كلّ ذلك كان الشهيد يحتضن معاناة الأُمّة، ويتصدّى لمأساة الشعب العراقي المقهور بصدره الرحب الذي وسع جميع آهات وزفرات المعذّبين في العراق الجريح.

ولم يفتر هذا المفكّر العملاق لحظةً واحدةً في حياته، حيث كانت كلّ سنوات عمره عطاءً ثرّاً، وجهاداً متواصلاً حتّى لحظات استشهاده الأخيرة.

والمعروف عن السيّد الصدر عليه الرحمة أنّه لم يتفرّغ للجوانب الفكريّة والعقائديّة والحوزويّة فقط، بل استوعب الجوانب الإنسانيّة والاجتماعيّة من حياة المجتمع؛ لكون الجوانب الأخيرة ليست بأقلّ أهميّة من الأولى، نظراً لأنّها تتعلّق بواقع الأُمّة المعاش، فقد وصل السيّد الشهيد إلى قناعة تامّة بأنّ تلك المرحلة تستوجب القيام بموقف صارم ينسجم مع الظروف الطارئة في حياة الجماهير المسلمة في العراق، ولكي يتيح هذا الموقف الشجاع للفكر الإسلامي بإطاره الجديد الاستمرار والرسوخ؛ لأنّه يصبح في هذه الحالة فكراً منسجماً مع القضيّة، وممتزجاً بالمحنة، ولم يكن في يوم من الأيّام ترفاً فكريّاً خارجاً عن نطاق الحياة اليوميّة للجماهير.

ولد الشهيد الصدر في مدينة الكاظميّة من أُسرة عريقة معروفة بالعلم والتقوى، حيث عاش في بداية حياته يتيماً فقيراً، ما لبث أن انتقل إلى النجف مدينة العلم الشامخة؛ إذ بدا عليه النبوغ المبكّر، فألّف أوّل كتبه وعمره لا يتجاوز السبعة عشر عاماً، ونال درجة الاجتهاد وهو في نهاية العقد الثاني من عمره الشريف.

وكان الإمام الصدر يتلقّى العلوم ذاتياً؛ إذ لم يكن كغيره من الطلبة الذين يعتمدون على الأُستاذ في حصولهم على المعلومات، وإنّما كان يتابع قراءة الكتب دون الرجوع إلى المدرّسين، إلّا في بعض الحالات النادرة، فمثلاً كان يطالع كتب الفلسفة أمام أُستاذه، ثمّ يسأله عمّا أشكل عليه.

وقلّما شهد التأريخ على امتداده موهبةً عاليةً كالتي تميّز بها السيّد الصدر، وأدّت إلى هذا النتاج الفكري الهائل من الأُطروحات، والحلول للمشاكل، والمعضلات التي تزخر بها الإنسانيّة.

وقد اتّسمت طروحات الإمام الشهيد بالشموليّة والعمق والأصالة والحيويّة؛ ولذا فقد لقيت تلك الطروحات رواجاً واسعاً في أوساط المثقّفين وغيرهم، فأقبلوا على دراستها بشغف وشوق شديدين.

ورغم هذا الإقبال المنقطع النظير على كتب الصدر وأفكاره الأصيلة، إلّا أنّ العالم ما يزال يجهل الكثير عن هذه الشخصيّة العظيمة، وما قدّمته للبشريّة من حلول ناجعة لمختلف القضايا والمسائل.

شخصيّة متواضعة ومواقف صلبة

كان الصدر الشهيد إلى جانب علمه الغزير وعبقريّته الفذّة متواضعاً إلى حدّ لا يوصف، كما لم ير طيلة حياته متوتّراً وإنّما كانت البسمة دوماً تعلو وجهه المشرق، علاوةً على احترامه لجميع أفراد الناس، كباراً وصغاراً، المرموقين منهم والعاديّين.

وأيضاً كان السيّد يتقبّل أيّ سؤال يوجّه إليه، وفي أيّ وقت، وأجوبته تكون بالطبع مفصّلةً ومركّزةً، ولو كان في تلك اللحظة مرهقاً أو متهكاً.

ونجحت أفكار ومواقف الإمام الصدر في استقطاب طبقات المجتمع كافّةً، وبالأخصّ الطبقة الواعية من الشباب الجامعي والمثقف، الذين اكتشفوا فيه الأمل المنشود، والمشعل الذي ينير طريق الأجيال المقبلة؛ لما قامت به أفكاره من دور

فاعل في رسم خطوط المستقبل على أساس الإسلام دون سواه من المبادئ والنظم الوضعيّة الواهية.

أمّا المستضعفون فقد سحرتهم شخصيّة الشهيد ومزاياه الحميدة؛ ولكونه شعلة متّقدة من الرفض والتحدّي والمقاومة الصلبة. إضافةً لتبنّيه محنة المسلمين في العراق.

مع كلّ هذه العطاءات والجهود الجمّة لم ينج الإمام الصدر من الحملات المسعورة التي استهدفت إسقاطه من أعين الجماهير، وكان لتلك الحملات دوافع سياسيّةً وشخصيّةً، غير أنّ الشهيد مضى في طريقه القويم غير ملتفت إلى أراجيف المنافقين والحسّاد حتّى لقي ربّه صابراً محتسباً، وأضحت تعاليمه وأفكاره مناراً لكلّ الثائرين والمجاهدين.

الشهيد الصدر في مواجهة الحكومات المنحرفة

تأريخ شهيدنا الغالي السيّد الصدر في كلّ أفكاره النيّرة ومواقفه الحازمة يرتبط بالتأريخ السياسي المعاصر للعراق الحافل بالأحداث والخطوب. وهو ولا ريب انعكاس طبيعي لتطلّعاته الرساليّة المبكّرة، ونتيجة منطقيّة لنظراته المسؤولة والثاقبة.

فمراجعة ولو سريعةً لتلك الحقبة من تأريخ هذا البلد وبالتحديد الفترة الممتدّة ما بين أواخر عقد الخمسينات وأوائل هذا العقد، حيث استشهاده رضوان الله عليه تفي للوقوف على سجلّ هذا الرجل العظيم الحافل بالأفكار القيّمة، والمواقف الملتزمة.

ويمكن ربط التحرّك السياسي للشهيد الصدر بالمرحلة التي أعقبت انقلاب الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ في العراق، والذي أدّى إلى سقوط النظام الملكي، وقيام ما سمّي بالنظام الجمهوري في هذا البلد. فقد أعقب هذا التأريخ مباشرة موجة من الغوغاء السياسيّة، رافقتها أجواء ملبّدة بالأفكار المسمومة والملحدة.

بعد أن استشرى المدّ الماركسي بمفاهيمه الملحدة وتوجّهاته المتحلّلة في أوساط الأمّة، مستهدفاً مسخ شخصيّتها الإسلاميّة، وحرفها عن قيمها الرساليّة.

وفي كلّ تلك الأجواء الضاغطة، كان على الشهيد الصدر أن يمارس وظيفته الشرعيّة، وواجبه كعالم دين ملتزم فبادر رضوان الله عليه إلى توجيه جهود المخلصين من العاملين على الساحة الإسلاميّة في العراق، من علماء ومثقّفين رساليّين، وشباب مؤمن، وكان من ثمرات جهوده الخيّرة هذه تأسيس جماعة العلماء في عام ١٩٥٩؛ لتضطلع بدور فعّال ومؤثّر في نشر الفكر الإسلامي، والتصدّي للأفكار الدخيلة والمستوردة، فكانت مجلّتها «الأضواء» وبعض افتتاحيّاتها المعنونة رسالتنا بقلم الشهيد السعيد نفسه الرصاصة الموجّهة إلى صدور أولئك المنحرفين، والشوكة في عيون الملحدين، وشعر الشهيد الصدر خلال هذا المقطع الزمني الحسّاس من تأريخ الأمّة في العراق بوجود فراغ فكري لابدّ من تغطيته بأسرع وقت، فقام وخلال فترة زمنيّة قياسيّة في التأليف والكتابة بترجمة أفكاره السياسيّة والفلسفيّة والاقتصاديّة في كتابين قيّمين هما: فلسفتنا واقتصادنا ناقداً فيهما ومعرّياً المذهبين الوضعيّين ـ الرأسمالي والاشتراكي ـ ليكونا بذلك مادّة الحركة الإسلاميّة في العراق، وسلاحها الفكري والسياسي في مواجهة الأفكار الماديّة الوضعيّة.

وفي شباط من عام ١٩٦٣ تمكّن البعثيّون، وبمساعدة أميركيّة بريطانيّة من السيطرة على مقاليد الأمور في العراق حيث بدأوا بحملات مسعورة على العلماء الأعلام، وفي مقدّمتهم شهيدنا السعيد السيّد الصدر، فكان لابدّ من مواجهة مدروسة للتصدّي لهذه الحملات الظالمة، فأخذ يركّز أكثر على نشاطه الحوزوي، رافداً الحوزة العلميّة في النجف الأشرف بالمزيد من عطاءاته الفكريّة والعلميّة، طارحاً الفكر الإسلامي بلغة معاصرة مجيباً عن كلّ ما يراود الشباب الرسالي من أسئلة.

وفي هذه المرحلة من تأريخ العراق بدأ التيّار القومي الذي تمثّل بالبعثيّين

والقوميّين العرب بطرح نفسه كبديل للرأسماليّة والماركسيّة، مستفيداً من تناقضاتهما المعروفة، باعتباره فكراً اشتراكيّاً عربيّاً. فبادر شهيدنا الصدر بشجاعته المعهودة، ومنهجيّته المعروفة إلى نقد ما سمّي في حينه بالاشتراكيّة العربيّة نقداً علميّاً لاذعاً، كما ورد في مقدّمة «اقتصادنا» الطبعة الثانية.

الشهيد الصدر وهموم المرجعيّة الدينيّة

جاء البعثيّون إلى السلطة مرّةً ثانيةً في انقلاب عسكري مشبوه، وذلك في تموز عام ١٩٦٨، ولم تمض على انقلابهم المشؤوم هذا سنةً واحدةً حتّى بدأوا حرباً شعواء على المرجعيّة الدينيّة التي كانت ممثّلةً بآية الله العظمى المرجع الراحل السيّد محسن الحكيم ـ رضوان الله عليه ـ، وقد كانت هذ الحرب المخطّطة سلفاً إيذاناً بضرب الحوزة العلميّة وتصفيتها، كما رآها الشهيد أحسّ بها في حينه ممّا حدا إلى مواجهة هذا المخطّط الخبيث؛ وذلك بانصرافه إلى الحوزة وشؤونها إدارةً وتنظيماً وتوجيهاً، مع توكيده على تطعيم هذه الجامعة بشباب مثقف، وإضافة بعض الدروس الجديدة؛ لأنّ سماحته كان يعتقد أنّ النهج التقليدي في التربية الدينيّة إنّما يعني، ـ وإلى حدّ بعيد ـ بالطرح الفردي البعيد عن طموحات الرسالة وتطلّعاتها في السيادة والتصدّي لمناحي الحياة كافّةً.

والشهيد الصدر قد جسّد تلك التطلّعات والرؤى في مفهومه المجدّد وتصوّره الرشيد للمرجعيّة الدينيّة. فقد اعتبرها الإطار العامّ الذي لابدّ أن تصب فيه جميع الطاقات الإسلاميّة، من علماء وكوادر رساليّةً وتجمّعات وأحزاب إسلاميّةً باعتبارها القيادة الموجّهة نحو الأهداف السامية للمجتمع. وهو ما نجده مفصّلاً في بحثه القيّم: المرجعيّة الصالحة.

فالشهيد الصدر كان يرى في المرجعيّة القيادة الفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة للأمّة، وليس مجرّد هيكل لممارسة بعض المهامّ الجزئيّة والهامشيّة.

فهي كما عبّر عنها ـ رضوان الله عليه ـ في بحثه الموسوم «لمعة فقهيّة تمهيديّة عن

دستور الجمهوريّة الإسلاميّة»: «قضيّة اجتماعيّة موضوعيّة في الأُمّة تقوم على أساس الموازين الشرعيّة العامّة، وهي المعبّر الشرعي عن الإسلام، والمرجع هو النائب العامّ عن الإمام من الناحية الشرعيّة».

لهذا كان الشهيد السعيد موضع عدم رضى الحاكمين المتسلّطين بالقوّة والجبروت، وحسد بعض المتخاذلين من المحسوبين على علماء الدين.

الشهيد يتحدّى البعث

ومرّةً ثانيةً يرفع الاستكبار العالمي احتياطيّه المعروف حزب البعث العفلقي إلى دست السلطة من جديد في عراق المقدّسات، بعد أن شهد تنامياً سريعاً في الوعي الإسلامي في أوساط الأُمّة، خاصّةً الشباب النخبة المثقّفة في المجتمع العراقي؛ ولهذا شهد الإسلام في هذا البلد ممثّلاً بعلمائه الأعلام وقواه الإسلاميّة الناهضة مواجهةً حاميةً مع هذا الحزب وأجهزته القمعيّة، وكان للسيّد الشهيد الدور البارز في هذه المواجهة التأريخيّة والحضاريّة، وفي الأحداث والمواقف التالية ما يؤيّد ذلك ويثبته:

[١] ـ ممارسة البعثيّين في بداية تسلّطهم المفروض على العراق حرباً نفسيّةً مركّزةً على شخص شهيدنا العزيز، وكان لبعض المندسّين ووعّاظ السلاطين دور معروف في هذا المجال.

فقد شرع هؤلاء المشبوهون والحاقدون بالتشهير في إمكانات السيّد الشهيد العلميّة وقدراته الفكريّة خاصّةً، وأنّ الشهيد الصدر كان قد أبدى موقفاً حازماً من عمليّات التسفير الجماعي للعراقيّين إلى إيران، والتي بدأها النظام البعثي بها عام ١٩٧٠ منذّداً بها، داعياً المتصدّين للمرجعيّة في العراق آنذاك المطالبة بالتنديد بها وإيقافها، خاصّةً وأنّ النظام الحاكم شمل في حملة التهجير هذه طلبة الحوزات العلميّة، وهو الهدف الأساس للنظام وديدنه الدائم.

[٢] ـ تنديد السيّد الشهيد بالحرب ضدّ المسلمين الأكراد؛ حيث امتنع عن إعطاء

فتوى في محاربة هذه الفئة المستضعفة من أبناء العراق، بعد أن طلب منه البعثيّون ذلك، بل حرّم على كلّ ضابط وجندي المشاركة الفعليّة في هذه الحرب المشبوهة، مؤكّداً في حينه على ضرورة التخلّص من هذا المأزق الشرعي.

[٣] ـ في عام ١٩٧٢ كان النظام البعثي في العراق يواجه أوضاعاً خطيرةً تنذر بالانفجار من تصاعد النقمة الشعبيّة إلى الأوضاع الاقتصاديّة والعسكريّة المتدهورة، محاولين كسب تأييد السيّد الشهيد بهدف استدراك وضعهم المتزلزل، فأرسلوا إلى سماحته عضو القيادة القوميّة لحزبهم آنذاك المدعوّ زيد حيدر، لكنّه ما لبث أن عاد خائباً يجرّ أذيال الانكسار والهزيمة بعد واجهه الشهيد السعيد بحزم ورباطة جأش عظيمين، ممّا اضطرّ النظام الغاشم إلى اعتقاله، ومن ثَمّ أُرغم صاغراً تحت ضغط الجماهير وسخطها على إطلاق سراحه.

[٤] ـ أثر الانتفاضة الجماهيريّة العارمة التي واجهها النظام البعثي في بغداد عام ١٩٧٧ بعد أن حاول منع المسلمين من إحياء ذكرى أربعينيّة سيّد الشهداء عليه السلام، طلب هذا النظام من شهيدنا الصدر إرسال برقيّة تأييد للممارسات القمعيّة والوحشيّة التي اقترفها النظام في حينه بحقّ المشاركين في هذه المناسبة، إلّا أنّ سماحته بادر وبذكائه المعهود وشجاعته المعروفة بإرسال برقيّة إلى رأس النظام آنذاك البكر، يحثّه فيها على ضرورة احترام الشعائر الإسلاميّة وعقائد المسلمين ممّا حدا بصبية النظام إلى اعتقاله، ومن ثَمّ أفرجوا عنه مرغمين صاغرين.

الشهيد الصدر مفجّر الثورة الإسلاميّة في العراق

لقد كان الشهيد الصدر وجماهير المسلمين كافّةً في العراق يترقّبون بحرارة وأمل كبيرين انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران بقيادة الإمام الخميني رحمه الله، معتبرين هذا الحدث العظيم في دنيا المسلمين نقطة انعطاف تأريخيّة وحاسمة في مواجهة الطواغيت والمستكبرين، وهو ما عبّر عنه السيّد الشهيد في برقيّته التأريخيّة إلى سماحة قائد الأُمّة الإمام الخميني الكبير: «وإنّا إذ نتطلّع إلى المزيد من انتصاراتكم

الحاسمة نضع كلّ وجودنا في خدمة وجودكم الكبير، ونبتهل إلى المولى سبحانه وتعالى أن يديم ظلّكم، ويحقّق أملنا في ظلّ مرجعيّتكم وقيادتكم».

وفي الوقت نفسه أخذت الجماهير المسلمة في العراق تعبّر عن مشاعرها الجيّاشة وغبطتها بانتصار الإسلام في إيران من خلال الوفود الشعبيّة التي بدأت تتقاطر زرافات زرافات على بيته الشريف في النجف الأشرف، من مختلف المدن والقصبات العراقيّة، ممّا أثار القلق والرعب في صفوف حكّام بغداد، فقاموا باعتقال سماحته في حزيران عام ١٩٧٩، وأفرج عنه بعد ذلك تحت ضغط شعبي هائل ليفرضوا عليه الإقامة الجبريّة، وفي هذه الأثناء أصدر الشهيد الصدر فتواه الشهيرة بتحريم الانتماء إلى حزب البعث الحاكم ممّا أثار ضغينة البعثيّين، وزاد من تخبّطهم في مواجهة الهيجان الشعبي، فصعّدوا من ممارسة قمعهم وإرهابهم للجماهير خاصّةً بعد تنحية البكر، وتسلّط صدّام على مقاليد الأمور في تموز عام ١٩٧٩.

وفي خضمّ تلك الظروف الإرهابيّة والأجواء القمعيّة كثّف الشهيد الصدر في المقابل من تحرّكه على الساحة كمرجع وثائر، ليوجّه بذلك طاقات الأمّة من علماء مجاهدين، ومثقّفين رساليّين، ومؤمنين مضحّين؛ ليضع الجميع في مواجهة حاسمة مع النظام الصليبي الحاقد في العراق، فمن نداءاته الثوريّة إلى أبناء شعبه: «فعلى كلّ مسلم في العراق، وعلى كلّ عراقي خارج العراق أن يعمل كلّ ما بوسعه، ولو كلّفه ذلك حياته من أجل إدانة هذا النظام؛ لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب، وتحريره من العصابة اللاإنسانيّة، وتوفير حكم فذّ شريف يقوم على أساس الإسلام».

ولم يستثن الشهيد أحداً من الشعب العراقي في هذه المواجهة، ولم يحدّد نهضته بإطار مذهبيٍّ معيّن، أو قومي محدّد؛ وذلك ليسقط من يد السلطة المتفرعنة، ورقة الطائفيّة البغيضة والعنصريّة المقيتة التي كانت تريد أن تستغلّها في خضم الصراع الدائر بينها وبين أبناء الصدر الأبطال، فهو يخاطب شعبه بالقول: «أيّها الشعب

العظيم، إنّي أُخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك، بكلّ طوائفك وفئاتك، بعربك وأكرادك، وبسنّتك وشيعتك؛ لأنّ المحنة لا تخصّ مذهباً دون آخر، ولا قوميّةً دون أُخرى...».

ولم يحدّ من عزم الشهيد كلّ محاولات التهديد والترغيب، وحملات البطش والإرهاب بحقّ أبناء الحركة الإسلاميّة بل زاده ذلك إيماناً وعزيمةً على مواصلة الدرب وتحقيق الظفر؛ لأنّ الشهيد الصدر في موقفه هذا كان يعبّر بحقّ عن مظلوميّة الأُمّة وتطلّعاتها، باعتباره مسؤولاً من الناحية الشرعيّة كمرجع وثائر، وهو يقول بهذا الخصوص: «وإنّي أعلم أنّ هذه الطلبات سوف تكلّفني غالياً، وقد تكلّفني حياتي، ولكن هذه الطلبات ليست طلب فرد، لكنّها إرادة أُمّة وطلبات أُمّة ومشاعر أُمّة».

وهكذا واصل شهيدنا الصدر نهجه الجهادي، ومنهجه الرسالي الرافض لنظام الكفر والعمالة حتّى آخر لحظة من حياته الشريفة، كان ثمنها أن ضرّج بدمائه الزكيّة شهيداً هو وأُخته المظلومة بنت الهدى بعد اعتقال دام ثلاثة أيّام؛ ليكون بذلك الأُسوة لكلّ المجاهدين، والنموذج لجميع الثائرين، فيا لها من مكرمة إلٰهيّة لسيّدنا الشهيد، ويا لخزي الدنيا وعذاب الآخرة لقتلته المجرمين.

الشهيد الصدر وموقفه من الثورة الإسلاميّة في إيران

على الرغم من الجوّ الإرهابي الخانق، والممارسات البعثيّة القمعيّة أعلن السيّد الشهيد إسناده المطلق للثورة الإسلاميّة بقيادة الإمام الخميني ، فنشوته ـ رضوان الله عليه ـ بانتصار هذه الثورة المباركة لا يمكن أن توصف؛ ولعلّ في برقيّاته المرسلة إلى سماحة الإمام ، وبياناته التي أصدرها ـ رضوان الله عليه ـ قبل انتصار الثورة الإسلاميّة وبعدها ما قدّمه من بحوث، كلّها تشير إلى هذا التأييد والإسناد، أليس هو القائل: «ذوبوا في الإمام الخميني كما ذاب هو في الإسلام»؟، وهل غيره من المتصدّين لشؤون المرجعيّة في العراق باتوا أكثر منه

وضوحاً وجرأةً عندما بعث ـ رضوان الله عليه ـ برقيّته التأريخيّة إلى سماحة الإمام الخميني، وهو رهن الاحتجاز، وليس للإنسان إلّا بمقدار ما يعطي، ولقد أعطيتم من وجودكم وحياتكم وفكركم ما يجعلكم مناراً عظيماً على مدى الأجيال.

أُنظر إلى أحاسيسه الجيّاشة والصادقة وهو يهنّئ قائد الأُمّة أمل المستضعفين الخميني العظيم بمناسبة انتصار الثورة الإسلاميّة: «إنّي أكتب إليكم في هذه اللحظة الحاسمة من تأريخ أُمّتنا الإسلاميّة لأعبّر عن اعتزاز لا حدّ له بما حقّقه المسلمون من انتصار باهر بقيادتكم الرشيدة».

ذلك في الواقع ما هو إلّا نزر يسير من مواقف هذا الرجل المضحّي العظيم من الثورة الإسلاميّة، فالصدر الشهيد كلّه عواطف جيّاشة، ومشاعر فيّاضة للثورة الإسلاميّة قيادة وجماهير.



استراتيجيّته السياسيّة في العمل الإسلامي

بقلم تلميذه السيّد كاظم الحائري[١]

إنّ الأُستاذ الشهيدﷺ مرّ بأدوار عديدة في عمله الإسلامي، والتطوّر المشهود في أساليب عمله يرجع إلى عدّة أسباب:

١ ـ أنّ العمل المتكامل في فترة طويلة نسبيّاً من الزمن، بطبيعته يتطلّب المرحليّة والتطوّر والتغيّر بمرور الزمن، بمعنى أنّ ما يصحّ من العمل في مرحلة منه قد لا يصحّ في المرحلة المسبقة، والعكس هنا ـ أيضاً ـ صحيح.

٢ ـ أنّ تبدّل العوامل الخارجيّة الذي قد لا يكون من أوّل الأمر بالحسبان، يؤثّر لا محالة على طريقة العمل.

٣ ـ أنّ أصل النظريّة في أُسلوب العمل قد تنضج وتتكامل وتتطوّر في ذهن الإنسان بمرور الزمان، ممّا يؤثّر على أسلوب العمل ويؤدّي إلى تطويره.

إنّ أُستاذنا الشهيدﷺ أسّس في أوائل شبابه حزباً إسلاميّاً باسم «حزب الدعوة الإسلاميّة» وكان هذا في وقته تقدّماً ملحوظاً في الوعي السياسي، بالنسبة لمستوى الوعي المتعارف آنئذٍ في الحوزة العلميّة في النجف الأشرف، حتّى أنّ كثيراً من المتديّنين بالتديّن الجافّ آنذاك كان يرمي من ينتمي إلى حزب إسلامي ـ فضلاً عمّن يؤسّس حزباً إسلاميّاً ـ بالانحراف عن خطّ الإسلام الصحيح، وبالارتباط بالاستعمار الكافر، وكلّ من كان يدّعي ضرورة إقامة الحكم الإسلامي كان يُتّهم بمثل هذه الاتّهامات...

أمّا تأريخ تأسيسهﷺ لهذا الحزب، فهو عبارة عن شهر ربيع الأوّل من

١. من أبرز تلامذة الإمام الشهيد، وقد نشره في أوّل تقريرات أبحاث الفصول تحت عنوان أبحاث الأُصول بحث القطع [مباحث الأُصول ١: ٨٧ ـ ١٠٣].

سنة ١٣٧٧هـ، حسب ما قاله الحاجّ محمّد صالح الأديب ـ حفظه الله ـ، وهو يعدّ أحد أعضاء النواة الأولى، أو يُعدّ إحدى اللبنات الأوليّة لبناء صرح الحزب.

و ـ أيضاً ـ قال الحاجّ محمّد صالح الأديب: «إنّ السيّد الشهيد ﷺ خرج من التنظيم بعد تأسيسه إيّاه بحوالي أربع سنين ونصف أو خمس سنين».

وكانت قصّة خروجه من التنظيم على ما حدّثنا الحاجّ محمّد صالح الأديب ـ حفظه الله ـ، ما يلي: «كثر الكلام من قبل بعض المغرضين لدى المرحوم آية الله العظمى السيّد الحكيم ﷺ على الشهيد الصدر ﷺ بحجّة تأسيسه للحزب، أخيراً جاء «حسين الصافي» وهو رجل بعثيّ لئيم إلى المرحوم آية الله الحكيم وقال: إنّ السيّد الصدر وآخرين ممّن ذكر أسماءهم قد أسّسوا حزباً باسم حزب الدعوة الإسلاميّة، وبهذا سيهدمون الحوزة العلميّة، وبدأ يهدّد ويتكلّم ضدّ من أسماهم مؤسّسين للحزب، فنهره آية الله العظمى السيّد الحكيم وقال له: أفأنت أحرص على مصالح الحوزة العلميّة من السيّد الصدر؟!! ثمّ أخرجه من بيته بذلّ وهوان، ثمّ أرسل ـ رضوان الله عليه ـ أحد أولاده إلى السيّد الصدر ﷺ وقال له عن لسان والده: إنّ دعم كلّ الوجودات الإسلاميّة والأعمال الإسلاميّة هو من شأنك، وممّا ينبغي لك أن تقوم به، أمّا أن تحسب على جهة إسلاميّة معيّنة وحزب خاصّ، فهذا ممّا لا ينبغي لمن هو مثلك في المقام العلمي والاجتماعي الشامخ، والذي يجب أن يكون دعامة لكلّ الأعمال الإسلاميّة من دون التأطّر بإطار خاصّ.

قال السيّد الشهيد ﷺ: سأفكّر وأتأمّل في الأمر. وفي اليوم الثاني أرسل ﷺ رسالةً مفصّلةً إلى حزب الدعوة عن طريق الحاجّ محمّد صالح الأديب، وكانت خلاصة ما هو مكتوب في الرسالة بعد التأكيد الشديد على ضرورة استمراريّة عمل «حزب الدعوة الإسلاميّة» والإشادة الكبريّة بذلك: أنّ آية الله الحكيم طلب منّي أن لا أكون في التنظيم، وأنا أفهم أنّ هذا رأي إلزامي له، وعليه فأتوقّف الآن عن الانتماء إلى التنظيم، طالباً منكم الاستمرار بجدّ في هذا العمل، وأنا أدعمكم في عملكم الإسلامي المبارك».

انتهى ما أخذته من الحاجّ محمّد صالح الأديب حفظه الله.

وبعد ذلك مضت الأيّام والليالي إلى أن تصدّى السيّد الشهيد الصدرﷺ للمرجعيّة بالتدريج من بعد وفاة المرحوم آية الله العظمى الحكيم، وطرح أخيراً فكرته عن ضرورة الفصل بين جهاز المرجعيّة الصالحة والتنظيم الحزبي؛ بسبب أنّ المرجعيّة الصالحة هي القيادة الحقيقيّة للأُمّة الإسلاميّة وليس الحزب، وإنّما الحزب يجب عليه أن يكون ذراعاً من أذرع المرجعيّة وتحت أوامرها، والتشابك بين التنظيم الإسلامي والجهاز المرجعي يربك الأمور.

وما يدرينا لعلّ الأُستاذ الشهيدﷺ كان مؤمناً بهذه الفكرة منذ تأسيسه للحزب، وإن أجّل إبرازها للوقت المناسب، فلم يكن هناك تناقض بين المرحلتين من عمله.

وقد أنشأﷺ في بيته ضمن العشرة الأخيرة من سني عمره المبارك، مجلساً أُسبوعيّاً كان يضمّ عينة طلّابه، وكان يتداول معهم البحث في مختلف الأُمور الاجتماعيّة، والقضايا الأساسيّة، وكانت تطرح في هذه الجلسات الكثير من مشاكل المسلمين في شتّى أرجاء العالم، وكان يبرز لمن يحضر هذه الجلسات مدى تبني الأُستاذ الشهيد لتلبية حاجات المسلمين في كلّ مكان من البلاد الإسلاميّة وغيرها، وتفكيره الدائب في كلّ ما ينفع الإسلام والمسلمين، وتخطيطه الحكيم للحوزات العلميّة، ولملء الشواغر العلمائيّة في كلّ بلد يوجد فيه تجمّع إسلامي؛ ولإرشاد العاملين ضدّ الكفر والطاغوت في جميع البلدان، وتنشيط الحيويّة في المسلمين جميعاً، وما إلى ذلك. ولست هنا بصدد سرد الأبحاث التي كانت تدار في تلك الجلسات الأُسبوعيّة إلّا بالمقدار الراجع من تلك الأبحاث إلى ما نحن بصدده من بيان استراتيجيّتهﷺ في العمل السياسي، وهي ثلاث نقاط:

أوّلاً: موقفه من العمل المرحلي المعروف عن حزب الدعوة الإسلاميّة الذي تبنّاه هوﷺ عند تأسيس الحزب.

ثانياً: أُطروحته للمرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة.

ثالثاً: رأيه في مدى صحّة اشتراك الحوزة العلميّة في الأحزاب السياسيّة الإسلاميّة.

العمل المرحلي لحزب الدعوة الإسلاميّة

أمّا الأوّل: وهو العمل المرحلي لحزب الدعوة الإسلاميّة الذي تبنّاه هو ـ رضوان الله عليه ـ لدى تأسيسه للحزب، فالمعروف اليوم عن حزب الدعوة هو الايمان بمراحل أربع للعمل:

١ ـ مرحلة تكوين الحزب وبنائه، والتغيير الفكري للأمّة.

٢ ـ مرحلة العمل السياسي التي يتمّ بضمنها لفت نظر الأمّة إلى الأطروحة الإسلاميّة للحزب، ومواقفه السياسيّة، وتبنّيها لتلك المواقف، ودفاعها عنها.

٣ ـ مرحلة استلام الحكم.

٤ ـ مرحلة رعاية مصالح الإسلام والأمّة الإسلاميّة بعد استلام الحكم، ولكنّ الذي نقله الأستاذ ـ رضوان الله عليه ـ في تلك المجالس الأسبوعيّة لطلّابه، هي المراحل الثلاث كما هو مثبت في النشرات الأوّليّة للحزب، ولم يتعرّض للمرحلة الرابعة.

وعلى أيّة حال فقد تناول الأستاذ‏ هذا العمل المرحلي بالبحث ولم يكن غرضه من ذلك شجب أصل كبرى المرحليّة في العمل؛ فإنّها من أوّليّات العمل الاجتماعي، وقد طبّقها ـ رضوان الله عليه ـ فيما كتبه عن عمل المرجعيّة الصالحة. وإنّما الذي بيّنه في بحثه عن ذلك هو النقاش في مصداق معيّن بلحاظ الانتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية.

وخلاصة ما قاله بهذا الصدد هي: إنّنا حينما نعيش بلداً ديمقراطيّاً يؤمن باحترام الشعب وآرائه، ولا تجابههم السلطة بالتقتيل والتشريد بلا أيّ حساب وكتاب، ويكون بالإمكان افتراض حزب ما يبدأ عمله بتكوين بنية ذاتيّة بشكل سرّي، ثمّ يبدأ من مرحلة سياسيّة علنيّة، ومحاولة كسب الأمّة إلى جانبه، وجرّها إلى تبنّي تلك المواقف السياسيّة، ولكنّ الواقع في مثل العراق ليس هكذا، ففي أيّ لحظة تُحسّ السلطة الظالمة بوجود حزب إسلامي منظّم يعمل وفق هذه المراحل لتحكيم الإسلام، تقتل وتشرّد وتسجن وتعذّب العاملين وتخنق العمل في تلك

البلاد قبل تماميّة تعاطف الأُمّة معه وتحرّكها إلى جانبه، فما لم يصادف هناك تحوّل آخر دولي في العالم يقلب الحسابات ليس بإمكان الحزب أن ينتقل من مرحلته الأُولى إلى المرحلة الثانية.

قال﵀ هذا الكلام بحدود سنة ١٣٩٢ الهجريّة.

والذي تحقّق بعد ذلك في واقعنا المعاش هو انتصار المرجعيّة الصالحة في إيران بقيادتها للأُمّة الإسلاميّة الخاضعة لها، ولولا قيام الدولة المباركة في إيران بجهود الأُمّة ككلّ وبقيادة المرجعيّة الرشيدة المتمثّلة في الإمام الخميني﵀ لم يكن هناك معقل للإسلاميّين يلجأون إليه، ولم تكن أرض لهم ينطلقون منها في عملهم، ولكنّ الله تعالى قد منّ على العباد بهذه الدولة التي لولاها لما بقي حتّى اليوم في العراق مسجد للصلاة، أو مرقد لإمام معصوم، فضلاً عن بقاء عمل إسلامي منظّم فيه.



المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة

وأمّا الثاني: فقد بحث﵀ طيلة عدّة أسابيع أُطروحة لما أسماه «بالمرجعيّة الصالحة» ولما أسماه «بالمرجعيّة الموضوعيّة»، وأردف ذلك ببيان بعض المقترحات التي ينبغي أن تقوم بها المرجعيّة الصالحة، وبعد انتهائه من هذا البحث أمرني بكتابة كلّ ما جرى فيه، فامتثلت أمره وكتبت ما تلخّص في تلك الأبحاث، فأخذه الأُستاذ﵀ وأعاد هو بصياغته الخاصّة كتابة أبحاث المرجعيّة الصالحة، والمرجعيّة الموضوعيّة بقلمه الشريف، ولم يكتب المقترحات التي كان قد أردف البحث بها.

ونحن هنا نتعرّض أوّلاً لذكر ما كتبه بقلمه الشريف في ترسيم وضع المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة مع تغيير يسير لفظي كوضع بعض العناوين الجانبيّة في الأثناء، ثمّ نتعرّض لخلاصة المقترحات التي كان قد أردف البحث بها ولم يكتبها:

أمّا ما كتبه بقلمه الشريف فهو ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ أهمّ ما يميّز المرجعيّة الصالحة تبنّيها للأهداف الحقيقيّة التي يجب أن تسير المرجعيّة في سبيل تحقيقها لخدمة الإسلام، وامتلاكها صورةً واضحةً محدّدةً لهذه الأهداف، فهي مرجعيّة هادفة بوضوح ووعي تتصرّف دائماً على أساس تلك الأهداف؛ بدلاً من أن تمارس تصرّفات عشوائيّة، وبروح تجزيئيّة، وبدافع من ضغط الحاجات الجزئيّة المتجدّدة.

وعلى هذا الأساس كان المرجع الصالح قادراً على عطاء جديد في خدمة الإسلام، وإيجاد تغيير أفضل لصالح الإسلام في كلّ الأوضاع التي يمتدّ إليها تأثيره ونفوذه.



أهداف المرجعيّة الصالحة

ويمكن تلخيص أهداف المرجعيّة الصالحة رغم ترابطها وتوحّد روحها العامّة في خمس نقاط:

١ ـ نشر أحكام الإسلام على أوسع مدى ممكن بين المسلمين، والعمل لتربية كلّ فرد منهم تربيةً دينيّةً، تضمن التزامه بتلك الأحكام في سلوكه الشخصي.

٢ ـ إيجاد تيّار فكري واسع في الأمّة يشتمل على المفاهيم الإسلاميّة الواعية، من قبيل المفهوم الأساسي الذي يؤكّد بأنّ الإسلام نظام كامل شامل لشتّى جوانب الحياة، واتّخاذ ما يمكن من أساليب لتركيز تلك المفاهيم.

٣ ـ إشباع الحاجات الفكريّة الإسلاميّة للعمل الإسلامي، وذلك عن طريق إيجاد البحوث الإسلاميّة الكافية في مختلف المجالات الاقتصاديّة والاجتماعيّة، والمقارنات الفكريّة بين الإسلام وبقيّة المذاهب الاجتماعيّة، وتوسّع نطاق الفقه

الإسلامي على نحو يجعله قادراً على مدّ كلّ جوانب الحياة بالتشريع، وتصعيد الحوزة ككلّ إلى مستوى هذه المهامّ الكبيرة.

٤ ـ القيمومة على العمل الإسلامي، والإشراف على ما يعطيه العاملون في سبيل الإسلام في مختلف أنحاء العالم الإسلامي من مفاهيم وتجبيدُ ما هو حقّ منها، وإسناده وتصحيح ما هو خطأ.

٥ ـ إعطاء مراكز العالميّة من المرجع إلى أدنى مراتب العلماء الصفة القياديّة للأُمّة بتبنّي مصالحها، والاهتمام بقضايا الناس ورعايتها واحتضان العاملين في سبيل الإسلام.

ووضوح هذه الأهداف للمرجعيّة، وتبنّيها وإن كان هو الذي يحدّد صلاح المرجعيّة ويحدث تغييراً كبيراً على سياستها العامّة ونظراتها إلى الأُمور وطبيعة تعاملها مع الأُمّة، ولكن لا يكفي مجرّد وضع هذه الأهداف ووضوح إدراكها لضمان الحصول على أكبر قدر ممكن من مكاسب المرجعيّة الصالحة؛ لأنّ الحصول على ذلك يتوقّف إضافةً إلى صلاح المرجع ووعيه، واستهدافه على عمل مسبق على قيام المرجعيّة الصالحة من ناحية، وعلى إدخال تطويرات على أُسلوب المرجعيّة ووضعها العملي من ناحية أُخرى.

أمّا فكرة العمل المسبق على قيام المرجعيّة الصالحة فهي تعني أنّ بداية نشوء مرجعيّة صالحة تحمل الأهداف الآنفة الذكر تتطلّب وجود قاعدة قد آمنت بشكل أو بآخر بهذه الأهداف في داخل الحوزة وفي الأُمّة، وإعدادها فكريّاً وروحيّاً للمساهمة في خدمة الإسلام وبناء المرجعيّة الصالحة؛ إذ ما لم توجد قاعدة من هذا القبيل تشارك المرجع الصالح أفكاره وتصوّراته، وتنظر إلى الأُمور من خلال معطيات تربية ذلك الإنسان الصالح لها يصبح وجود المرجع الصالح وحده غير كاف لإيجاد المرجعيّة الصالحة حقّاً وتحقيق أهدافها في النطاق الواسع.

وبهذا كان لزاماً على من يفكّر في قيادة تطوير المرجعيّة إلى مرجعيّة صالحة أن

يمارس هذا العمل المسبق بدرجة ما، وعدم ممارسته هو الذي جعل جملة من العلماء الصالحين ـ بالرغم من صلاحهم ـ يشعرون عند تسلّم المرجعيّة بالعجز الكامل عن التغيير؛ لأنّهم لم يمارسوا هذا العمل المسبق، ولم يحدّدوا مسبقاً الأهداف الرشيدة للمرجعيّة، والقاعدة التي تؤمن بتلك الأهداف.

تطوير أُسلوب المرجعيّة

وأمّا فكرة تطوير أُسلوب المرجعيّة وواقعها العملي فهي تستهدف:

أوّلاً: إيجاد جهاز عملي تخطيطي وتنفيذي للمرجعيّة، يقوم على أساس الكفاءة والتخصّص وتقسيم العمل واستيعاب كلّ مجالات عمل المرجعيّة الرشيد في ضوء الأهداف المحدّدة.

ويقوم هذا الجهاز بالعمل بدلاً عن الحاشية التي تعبّر عن جهاز عفويّ مرتجل، يتكوّن من أشخاص جمعتهم الصدف والظروف الطبيعيّة لتغطية الحاجات الآنية بذهنيّة تجزيئيّة، وبدون أهداف محدّدة واضحة.

ويشتمل هذا الجهاز على لجان متعدّدة تتكامل وتنمو بالتدريج إلى أن تستوعب كلّ إمكانات العمل المرجعي، ويمكن أن نذكر اللجان التالية كصورة مثلى وهدف أعلى ينبغي أن يصل إليه الجهاز العملي للمرجعيّة الصالحة في تطوّره وتكامله:

١ ـ لجنة أو لجان لتسيير الوضع الدراسي في الحوزة العلميّة، وهي تمارس تنظيم دراسة ما قبل «الخارج»، والإشراف على دراسات الخارج، وتحدّد المواد الدراسيّة، وتضع الكتب الدراسيّة، وتجعل بالتدريج الدراسة الحوزويّة بالمستوى الذي يتيح للحوزة المساهمة في تحقيق أهداف المرجعيّة الصالحة، وتستحصل معلومات عن الانتسابات الجغرافيّة للطلبة، وتسعى في تكميل الفراغات وتنمية العدد.

٢ ـ لجنة للإنتاج العلمي، ووظائفها إيجاد دوائر علميّة لممارسة البحوث ومتابعة سيرها والإشراف على الإنتاج الحوزوي الصالح وتشجيعه ومتابعة الفكر العالمي

بما يتّصل بالإسلام، والتوافر على إصدار شيء كمجلّة أو غيرها، والتفكير في جلب العناصر الكفوءة إلى الحوزة أو التعاون معها إذا كانت في الخارج.

٣ ـ لجنة أو لجان مسؤولة عن شؤون علماء المناطق المرتبطة، وضبط أسمائهم وأماكنهم ووكالاتهم، وتتبّع سيرهم وسلوكهم واتّصالاتهم، والاطّلاع على النقائص والحاجات والفراغات، وكتابة تقرير إجمالي في وقت رتيب أو عند طلب المرجع.

٤ ـ لجنة الاتّصالات، وهي تسعى لإيجاد صلات مع المرجعيّة في المناطق التي لم تتّصل مع المركز، ويدخل في مسؤوليّتها إحصاء المناطق، ودراسة إمكانات الاتّصال بها، وإيجاد سفرة تفقديّة إمّا على مستوى تمثيل المرجع، أو على مستوى آخر، وترشيح المناطق التي أصبحت مستعدّةً لتقبّل العالم وتولّي متابعة السير بعد ذلك.

ويدخل في صلاحيّتها الاتّصال في الحدود الصحيحة مع المفكّرين والعلماء في مختلف العالم الإسلامي، وتزويدهم بالكتب والاستفادة من المناسبات كفرصة الحجّ.

٥ ـ لجنة رعاية العمل الإسلامي والتعرّف على مصاديقه في العالم الإسلامي، وتكوين فكرة عن كلّ مصداق وبذل النصح والمعونة عند الحاجة.

٦ ـ اللجنة الماليّة التي تعني بتسجيل المال وضبط موارده وإيجاد وكلاء ماليّين، والسعي في تنمية الموارد الطبيعيّة لبيت المال، وتسديد المصارف اللازمة للجهاز مع التسجيل والضبط.

ولا شكّ في أنّ بلوغ الجهاز إلى هذا المستوى من الاتّساع والتخصّص يتوقّف على تطوّر طويل الأمد، ومن الطبيعي أن يبدأ الجهاز محدوداً وبدون تخصّصات جدّيّة؛ تبعاً لضيق نطاق المرجعيّة وعدم وجود التدريب الكافي.

والممارسة والتطبيق هما اللذان يبلوران القابليّات من خلال العمل، ويساعدان على التوسيع والتخصّص.

وثانياً: إيجاد امتداد أُفقي حقيقي للمرجعيّة يجعل منها محوراً قويّاً تنصبّ فيه

قوى كلّ ممثّلي المرجعيّة والمنتسبين إليها في العالم؛ لأنّ المرجعيّة حينما تتبنّى أهدافاً كبيرةً وتمارس عملاً. تغييراً واعياً في الأمّة لابدّ أن تستقطب أكبر قدر ممكن من النفوذ؛ لتستعين به في ذلك وتفرض بالتدريج أو بشكل، وآخر السير في طريق تلك الأهداف على كلّ ممثّليها في العالم.

وبالرغم من انتساب كلّ علماء الشيعة تقريباً إلى المرجع في الواقع المعاش يلاحظ بوضوح أنّه في أكثر الأحيان انتساب نظري وشكلي لايخلق المحور المطلوب كما هو واضح.

وعلاج ذلك يتمّ عن طريق تطوير شكل الممارسة للعمل المرجعي، فالمرجع تأريخيّاً يمارس عمله المرجعي كلّه ممارسةً فرديّةً؛ ولهذا لاتشعر كلّ القوى المنتسبة إليه بالمشاركة الحقيقيّة معه في المسؤوليّة والتضامن الحادّ معه في المواقف، وأمّا إذا مارس المرجع عمله من خلال مجلس يضمّ علماء الشيعة والقوى الممثّلة له دينيّاً، وربط المرجع نفسه بهذا المجلس، فسوف يكون العمل المرجعي موضوعيّاً، وإن كانت المرجعيّة نفسها بوصفها نيابةً عن الإمام قائمةً بشخص المرجع، غير أنّ هذه النيابة القائمة بشخصه لم تحدّد له أسلوب الممارسة، وإنّما يتحدّد هذا الأسلوب في ضوء الأهداف والمصالح العامّة.

وبهذا الأسلوب الموضوعي من الممارسة يصون المرجع عمله المرجعي من التأثّر بانفعالات شخصه، ويعطي له بعداً وامتداداً واقعيّاً كبيراً؛ إذ يشعر كلّ ممثّلي المرجع بالتضامن والمشاركة في تحمّل مسؤوليّات العمل المرجعي، وتنفيذ سياسة المرجعيّة الصالحة التي تقرّر من خلال ذلك المجلس، وسوف يضمّ هذا المجلس تلك اللجان التي يتكوّن منها الجهاز العملي للمرجعيّة، وبهذا تلتقي النقطة السابقة مع هذه النقطة.

ولئن كان في أُسلوب الممارسة الفرديّة للعمل المرجعي بعض المزايا كسرعة التحرّك، وضمان درجة أكبر من الضبط والحفظ، وعدم تسرّب عناصر غير واعية إلى مستوى التخطيط للعمل المرجعي، فإنّ مزايا الأُسلوب الآخر أكبر وأهمّ.

ونحن نطلق على المرجعيّة ذات الأُسلوب الفردي في الممارسة اسم المرجعيّة الذاتيّة، وعلى المرجعيّة ذات الأُسلوب المشترك والموضوعي في الممارسة اسم المرجعيّة الموضوعيّة.

وهكذا يظهر أنّ الفرق بين المرجعيّة الذاتيّة، والمرجعيّة الموضوعيّة ليس في تعيين شخص المرجع الشرعي الواقعي، فإنّ شخص المرجع دائماً هو نائب الإمام، ونائب الإمام هو المجتهد المطلق العادل الأعلم الخبير بمتطلّبات النيابة، وهذا يعني أنّ المرجعيّة من حيث مركز النيابة للإمام ذاتيّة دائماً، وإنّما الفرق بين المرجعيّة في أُسلوب الممارسة.

وثالثاً: امتداداً زمنيّاً للمرجعيّة الصالحة لا تتّسع له حياة الفرد الواحد.

فلا بدّ من ضمان نسبيٍ لتسلسل المرجعيّة في الإنسان الصالح المؤمن بأهداف المرجعيّة الصالحة، لئلّا ينتكس العمل بانتقال المرجعيّة إلى من لا يؤمن بأهداف المرجعيّة الصالحة الواعية، ولابدّ أيضاً من أن يتهيّأ المجال للمرجع الصالح الجديد؛ ليبدأ ممارسة مسؤوليّاته من حيث انتهى المرجع العامّ السابق، بدلاً عن أن يبدأ من الصفر ويتحمّل مشاقّ هذه البداية، وما تتطلّبه من جهود جانبيّة، وبهذا يتاح للمرجعيّة الاحتفاظ بهذه الجهود؛ للأهداف وممارسة ألوان من التخطيط الطويل المدى.

ويتمّ ذلك عن طريق شكل المرجعيّة الموضوعيّة؛ إذ في إطار المرجعيّة الموضوعيّة لا يوجد المرجع فقط بل يوجد المرجع كذات ويوجد الموضوع، وهو المجلس بما يضمّ من جهاز يمارس العمل المرجعي الرشيد، وشخص المرجع هو العنصر الذي يموت، وأمّا الموضوع فهو ثابت ويكون ضماناً نسبيّاً إلى درجة معقولة بترشيح المرجع الصالح في حالة خلوّ المركز، وللمجلس وللجهاز ـ بحكم ممارسته للعمل المرجعي ونفوذه وصلاته وثقة الأُمّة به ـ القدرة دائماً على إسناد مرشّحه وكسب ثقة الأُمّة إلى جانبه.

وهكذا تلتقي النقطتان السابقتان مع هذه النقطة في طريقة الحلّ.

مراحل المرجعيّة الصالحة

وللمرجعيّة الصالحة ثلاث مراحل:

١ ـ مرحلة ما قبل التصدّي الرسمي للمرجعيّة المتمثّل بطبع رسالة عمليّة، وتدخل في هذه المرحلة أيضاً فترة ما قبل المرجعيّة إطلاقاً.

٢ ـ مرحلة التصدّي بطبع الرسالة العمليّة.

٣ ـ مرحلة المرجعيّة العليا المسيطرة على الموقف الديني.

وأهداف المرجعيّة الصالحة ثابتة في المراحل الثلاث، وفي المرحلة الأُولى يتمّ إنجاز العمل المسبق الذي أشرنا إليه سابقاً[١] إلى ضرورته لقيام المرجعيّة الصالحة. وطبيعة هذه المرحلة تفرض أن تمارس المرجعيّة ممارسةً أقرب إلى الفرديّة؛ بحكم كونها غير رسميّة ومحدودة في قدرتها؛ وكون الأفراد في بداية التطبيق والممارسة للعمل المرجعي، فالمرجعيّة في هذه المرحلة ذاتيّة وإن كانت تضع في نفس الوقت بذور التطوير إلى شكل المرجعيّة الموضوعيّة عن طريق تكوين أجهزة استشاريّة محدودة، ونوع من التخصّص في بعض الأعمال المرجعيّة.

وأمّا في المرحلة الثانية فيبدأ عمليّاً تطوير الشكل الذاتي إلى الشكل الموضوعي، لكن لا عن طريق الإعلان عن أُطروحة المرجعيّة الموضوعيّة بكاملها ووضعها موضع التنفيذ في حدود المستجيبين؛ لأنّ هذا وإن كان يولّد زخماً تأييديّاً في صفوف بعض الراشدين في التفكير، ولكنّه من ناحية يفصل المرجعيّة الصالحة من عدد كبير من القوى والأشخاص غير المستعدّين للتجاوب في هذه المرحلة، ومن ناحية أُخرى يضطرّها إلى الاستعانة بما هو الميسور لملء حاجة المرجعيّة الموضوعيّة.

بل الطريق الطبيعي في البدء بتحقيق المرجعيّة الموضوعيّة ممارسة المرجعيّة

---

١. راجع ما تقدّم في ص ٤٠٢.

الصالحة لأهدافها ورسالتها عن طريق لجان وتشكيلات متعدّدة بقدر ما تفرضه بالتدريج حاجات العمل الموضوعيّة وقدرات المرجعيّة البشريّة والاجتماعيّة، ويربط بالتدريج بين تلك اللجان والتشكيلات، ويوسّع منها حتّى تتمخّض في نهاية الشوط عن تنظيم كامل شامل للجهاز المرجعي.

ويتأثّر سير العمل في تطوير أُسلوب المرجعيّة وجعلها موضوعيّةً بعدّة عوامل في حياة الأُمّة فكريّةً وسياسيّةً، وبنوعيّة القوى المعاصرة في الحوزة للمرجعيّة الموضوعيّة، ومدى وجودها في الأُمّة، ومدى علاقتها طرداً أو عكساً مع أفكار المرجعيّة الصالحة، ولابدّ من أخذ كلّ هذه العوامل بعين الاعتبار والتحفّظ من خلال مواصلة عمليّة التطوير المرجعي عن تعريض المرجعيّة ذاتها لانتكاسة تقضي عليها، إلّا إذا لوحظ وجود مكسب كبير في المحاولة ـ ولو باعتبارها تمهيداً لمحاولة أُخرى ناجحةً ـ يفوق الخسارة التي تترتّب على تفتّت المرجعيّة الصالحة التي تمارس تلك المحاولة.

انتهى ما جرى على قلم أُستاذنا الشهيد لترسيم وضع المرجعيّة الصالحة والمرجعيّة الموضوعيّة، وقد طبع هذا البحث أكثر من مرّة، إحداها ما جاء في مجلّة صوت الأُمّة العدد الخامس للسنة الأُولى.

أمّا المقترحات التي كان قد أردف البحث بها ولم يكتبها

فنحن هنا نتعرّض إلى خلاصة من تلك المقترحات، وهي ما يلي:

١ ـ اقتراح إنشاء حوزات علميّة فرعيّة في المناطق التي تساعد على ذلك ترفد بها الحوزة العلميّة الأُمّ.

٢ ـ اقتراح إيجاد علماء في الفقه والأُصول والمفاهيم الإسلاميّة في سائر أصناف الناس، فليكن لنا من ضمن الأطبّاء علماء، ومن ضمن المهندسين علماء، وما إلى ذلك من الأصناف، ولا يشترط في هؤلاء العلماء التخصّص والاجتهاد في الفقه والأُصول، ويكون كلّ من هؤلاء مصدر إشعاع في صنفه، ويبثّ العلم والمعرفة وفهم الأحكام الشرعيّة، والمفاهيم الإسلاميّة فيما بينهم[1].

٣ ـ ربط الجانب المالي للعلماء والوكلاء في الأطراف بالمرجعيّة الصالحة، فلا يعيش الوكيل على ما تدرّ عليه المنطقة من الحقوق الشرعيّة، بل يسلّم الحقوق كاملةً إلى المرجعيّة، وتموّله المرجعيّة ليس بالشكل المتعارف في بعض الأوساط من إعطاء نسبة مئويّة من تلك الأموال كالثلث أو الربع، ممّا يجعل علاقة الوكيل

---

١. قال الشيخ محمّد رضا النعماني ـ حفظه الله ـ: «وقد بدأ السيّد الشهيد بتنفيذ هذه الفكرة ولو بشكل متواضع حين كبرت مرجعيّته وامتدّت؛ إذ بدأ يشجّع عدداً من الأطبّاء والمهندسين والأساتذة على دراسة الفقه والأُصول والمنطق وكافّة الموادّ الدراسيّة المقرّرة والمتعارفة في الحوزة العلميّة، وبنفس الوقت شجّع بعضهم على الانخراط في الحوزة العلميّة وترك تخصّصاتهم السابقة، وكان السيّد الشهيد يستهدف من تشجيع بعضهم على الانخراط في الحوزة العلميّة ما يلي:

١ ـ الإسراع في تربية علماء يملكون ثقافةً عصريّةً إلى جانب ثقافتهم الحوزويّة.

٢ ـ الارتفاع بالمستوى الاجتماعي للحوزة العلميّة؛ إذ أنّ وجود عناصر ذات مستوى رفيع في نظر المجتمع كالأطبّاء والمهندسين، سوف يغيّر من نظرة أُولئك الذين يحملون انطباعاً سلبيّاً عن الحوزة العلميّة» [مباحث الأُصول ١: ٩٩، التعليقة ١].

بالمرجعيّة سنخ علاقة عامل المضاربة بصاحب رأس المال، بل بشكل تغطية مصاريف الوكيل عن طريق عطاءين من قبل المرجعيّة:

الأوّل: راتب شهري مقطوع يكفل له قدراً معقولاً من حاجاته الضروريّة.

والثاني: عطاء مرن وغير محدّد يختلف من شهر إلى شهر، وقد لا يعطى في بعض الأشهر، وقد يضاعف أضعافاً مضاعفةً في بعض الأشهر، ويكون المؤثّر في تقليل وتكثير هذا العطاء عدّة أمور:

أحدها: احتياجاته بما هو إنسان أو بما هو عالم في المنطقة، فإنّها تختلف من شهر إلى شهر.

والثاني: مقدار ما يقدّمه للمرجعيّة من أموال وحقوق شرعيّة.

والثالث: مقدار ما يقدّمه للمنطقة من أتعاب وجهود.

والرابع: مقدار ما ينتج في تلك المنطقة من نصر للإسلام.

كما أنّ هذه الأمور الأربعة قد تؤثّر ـ أيضاً ـ في تحديد مقدار العطاء المتمثّل في الراتب المقطوع[1].

٤ ـ دعم المرجعيّة الصالحة لمكتب صالح ونظيف من بين المكاتب، وهي التي كانت تسمّى في النجف بـ«البرّانيّات»، بحيث يصبح ما يصدر من ذاك المكتب ممثّلاً في نظر الناس بدرجة خفيفة لرأي المرجعيّة، وفائدة ذلك: أنّ المرجعيّة

---

١. قال الشيخ محمّد رضا النعماني حفظه الله: «وفعلاً فقد نفّذ شهيدنا العظيم هذه الفكرة، ولم تبق مجرّد فكرة، فبعد أن تحسّن الوضع المالي للمرجعيّة بدأ السيّد الشهيد بإعطاء رواتب لوكلائه ولو بشكل محدود، وقد كانت لتنفيذ هذه الفكرة آثار إيجابيّة عظيمة، يمكن تلخيصها بما يلي:

١ ـ استقلال العالم استقلالاً تامّاً، فهو لم يعد بحاجة إلى محاباة أصحاب الأموال الذين كانوا يحوّلون العالم إلى أداة بأيديهم، وأصبح العالم ينفّذ إرادة المرجعيّة وما تتطلّبه مصلحة الإسلام.

٢ ـ بدأ الكثير من المدن والمناطق تطالب المرجعيّة بعالم يقيم لديها؛ إذ أنّ العقبة التي كانت تقف أمامهم هو الفقر والحاجة الماليّة لكثير من أهالي هذه المناطق؛ إذ لم تكن لديهم القدرة الماليّة على تغطية شؤون العالم الدينيّة، ومن الواضح للجميع الآثار السلبيّة التي تترتّب على عدم وجود ممثّل للمرجعيّة في المدن والمناطق» [مباحث الأصول ١: ١٠٠، التعليقة ١].

الصالحة قد تريد أن تنشر فكرةً سياسيّةً أو اجتماعيّةً، أو غير ذلك من دون أن تتبنّاها مباشرةً لمصلحةٍ في عدم التبنّي المباشر، أو تريد أن تفاوض السلطة في أمر من الأُمور بشكل غير مباشر، فذاك المكتب يتبنّى أمثال هذه الأُمور.

الحوزة العلميّة والتحزّب

وأمّا الثالث: وهو رأيه في مدى صحّة اشتراك الحوزة العلميّة في الأحزاب السياسيّة الإسلاميّة، فقد رسّم ـ رضوان الله عليه ـ في تلك الأبحاث الأُسبوعيّة خطوطاً ثلاثةً ذكر: أنّ اثنين منها خطّان ثابتان، وواحداً منها خطّ متحرّك:

الخطّ الأوّل: ضرورة الفصل بين جهاز المرجعيّة الصالحة والعمل الحزبي.

والخطّ الثاني: عدم البأس باشتراك طلّاب الحوزة العلميّة غير المرتبطين بجهاز المرجعيّة الصالحة في العمل الحزبي الإسلاميّ.

وهذان خطّان ثابتان.

الخطّ الثالث ـ وهو ما أسماه بالخطّ المتحرّك ـ : أنّ من كان عضواً في جهاز المرجعيّة الصالحة، وهو في نفس الوقت عضو في حزب الدعوة الإسلاميّة، ويكون انسحابه من صفوف الحزب مؤدّياً إلى إرباك الوضع في داخل الحزب يبقى محتفظاً بارتباطه بالحزب إلى حين ما يرى أنّ انفصاله لا يؤدّي إلى مثل هذا الارتباك، فعندئذٍ ينفصل عن الحزب.

وكان تأريخ تحديده ﷺ لهذه الخطوط الثلاثة بحدود أوائل سنة ١٣٩٣ الهجريّة.

وبعد هذا حينما اعتقلت السلطة الكافرة في العراق ثلّة من العلماء الأعلام، وثلّة من المؤمنين الكرام، وكان بضمنهم الشهداء الخمسة الشيخ عارف وصحبه، وكان بضمنهم أيضاً السيّد الهاشمي، وكنت أنا ـ وقتئذٍ ـ في إيران وأفرجت السلطة بعد ذلك عن جماعة منهم السيّد الهاشمي، وبقي جماعة آخرون في الاحتجاز أصدر الأُستاذ الشهيد ﷺ كلمته المعروفة التي ذكر فيها فصل الحوزة العلميّة كاملةً عن العمل الحزبي، وكان هذا بتأريخ ١٠/ شعبان ١٣٩٤ هـ.

وكتبت بعدئذٍ رسالةً إلى أُستاذنا الشهيد أستفسره فيها عمّا هو المقصود الواقعي عن هذه الكلمة فذكرت له: أنّ المحتملات عندي أربعة:

١ ـ أن يكون المقصود بهذه الكلمة لحاظ مصلحة في أصل ذكرها ونشرها كتقيّة ـ وعلى حدّ تعبير علماء الأُصول تكون المصلحة في الجعل ـ.

٢ ـ أن يكون المقصود بهذه الكلمة أُولئك العلماء والطلّاب المرتبطون بمرجعيّتكم وإن اقتضت المصلحة إبرازها على شكل العموم.

٣ ـ أن يكون المقصود بهذه الكلمة فصل طلّاب الحوزة العلميّة في العراق عن العمل الحزبي؛ درءاً للخطر البعثي الخبيث عنهم، الذي يؤدّي إلى إبادتهم.

٤ ـ أن يكون المقصود بها فصل جميع الحوزات العلميّة في كلّ زمان ومكان عن العمل الحزبي الإسلامي ـ وعلى حدّ تعبيرالأُصوليّين تكون القضيّة قضيّةً حقيقيّةً وليست خارجيّةً ـ وعلى الاحتمال الأخير يكون تعليقي على هذه الكلمة: أنّ هذا الإجراء سيؤدّي في طول الخطّ إلى انحراف الحركة الإسلاميّة الحزبيّة عن مسار الإسلام الصحيح نتيجةً لابتعادهم في أجوائهم الحزبيّة عن العلماء الأعلام.

فكتب لي ـ رضوان الله عليه ـ في الجواب: إنّي قصدت المعنى الأوّل والثاني والثالث، دون الرابع.

وكان هذا كلّه قبل انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران.

أمّا بعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران فقد عزم الأُستاذ الشهيد ﵀ على تصعيد معارضته لحكومة البعث في العراق، ونزوله إلى الميدان بشكل سافر نسبيّاً، وبهذا لم يبق مورد لمسألة الاهتمام بدرء الخطر البعثي الذي كان أحد ملاكات تلك الكلمة «أعني فصل الحوزة العلميّة عن العمل الحزبي»؛ فإنّ الحوزة العلميّة الواعية ستقع لا محالة وجهاً لوجه أمام السلطة الجائرة، والخطر محدق على أيّ حال. وفي هذا التأريخ جاء السيّد الهاشمي ـ حفظه الله ـ إلى إيران، وأخبرني بأنّ السيّد الأُستاذ بعث إلى أحد الوجوه البارزة آنئذٍ لحزب الدعوة الإسلاميّة، وقال له فيما قال: إنّ كلمتي التي أصدرتها حول انفصال الحوزة عن العمل الحزبي قد انتهى أمدها.

أقول: إنّي لا أفهم من هذا الكلام «انتهاء أمد هذه الكلمة» بالقياس إلى جهاز المرجعيّة الصالحة المفروض فيها أن تكون فوق الحركات والأحزاب، وتكون في موقع الأبوّة والقيادة للأمّة بجميع أجنحتها وأفرادها. وإنّما أفهم منه انتهاء أمد هذه الكلمة باعتبار المعنى الثالث من المعاني الثلاثة التي قصدها منها.

أساس الحكم

أمّا رأي الأستاذ الشهيد ﷺ حول أساس الحكومة الإسلاميّة في زمان غيبة المعصوم، فقد مرّ ـ أيضاً ـ بمراحل عديدة، فحينما أسّس حزب الدعوة الإسلاميّة كان يرى أنّ أساس الحكومة الإسلاميّة في زمن الغيبة هي الشورى، وهذا ما أثبته في ما كتبه لحزب الدعوة باسم «الأسس» مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1].

وبعد ذلك ترك هذا الرأي، وقال أخيراً بمبدإ ولاية الفقيه، تمسّكاً بالتوقيع المعروف عن الإمام صاحب الزمان ـ عجّل الله فرجه الشريف ـ : «أمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا فإنّهم حجّتي عليكم»[2]. وقد انعكس هذا الرأي في رسالتيه العمليّتين: الفتاوى الواضحة، والتعليق على منهاج الصالحين.

وقد بحثنا هذين المبدأين وهما مبدأ الشورى ومبدأ ولاية الفقيه في كتابنا أساس الحكومة الإسلاميّة بتفصيل.

وبعد انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران عدّل ﷺ رأيه في أساس الحكومة في زمن الغيبة، فقال بما يكون مزيجاً من الشوري وولاية الفقيه، على ما هو منعكس في بعض حلقات ما نشر عنه باسم الإسلام يقود الحياة. وقد بحثناه مفصّلاً في آخر كتابنا الذي في بحث اللُقطة[3].

١. الشورى (٤٢): ٣٨.

٢. كمال الدين: ٤٨٤، باب ذكر التوقيعات الواردة عن القائم ﷺ، ح ٤؛ وسائل الشيعة ٢٧: ١٤٠، الباب ١١، من أبواب صفات القاضي، ح ٩.

٣. مباحث الأصول ١: ٨٧ـ ١٠٣.

كلمة تلميذه السيّد كاظم الحائري

مجلّة الجهاد

كان سيّدي ومولاي أباً عطوفاً للأمّة الإسلاميّة، وكان طلّابه يحظون منه بعناية الأبوّة بشكل خاصّ، فقد كان يتحمّل منهم هفواتهم في النقاش العلمي، ويوضّح لهم الحقائق بكلّ هدوء ورحابة صدر، وكان يزقّهم العلم زقّاً، وكان يهتمّ بتربيتهم إسلاميّاً وخلقيّاً إلى جانب تنميتهم العلميّة. لم أر مثله في الأخلاق والسجايا الفاضلة، وفي الذكاء الخارق، ومن حمل هموم الإسلام والمسلمين، وفي اتّساع معلوماته الإسلاميّة أفقيّاً، وفي كلّ المجالات الإسلاميّة عموديّاً، وأبرز شاهد على سعة معلوماته وعمقها في شتّى الشعب الإسلاميّة، كتبه القيّمة التي كتبها في الفقه والأصول، وفي الفلسفة، وفي منطق الاحتمالات، وفي الاقتصاد الإسلامي، وفي شتّى المفاهيم الإسلاميّة، كان درسه ريّاً رويّاً عذباً هنيئاً، وكان محضره ملذّاً مفرّحاً مربّياً ممتّعاً. إنّه ﷺ لم تكن تعوزه إلّا فضيلةٌ واحدةٌ، وهي فضيلة الشهادة في سبيل الإسلام، وقد رزقها الله تعالى إيّاه على يد أشقى أبناء زمانه.

والله إنّ ألم فراقه وحرقة استشهاده لن يخرجا من قلبي ما دمت حيّاً، وسوف لن أتهنّأ بعده بشيء مدى الحياة إلى أن يختار الله لي اللحاق به.

سيّدي بكيتك حتّى ضجّ الأهل من بكائي، وسأجهد في سبيل تحقيق أهدافك العليا حتّى يراق دمي، وأتشرّف بلقياك في الجنّة شوقاً إلى شمّ أناملك الكريمة، وعلى الدنيا بعدك العفاء.

كان ﷺ يهدف بالنسبة لعلم الفقه التجديد في عدّة نواح:

١ ـ تعميق دراساته بنحو لم يسبق له مثيل، وقد وفّق لذلك بأروع صورة بالمقدار الذي درّسه أو ألّفه، ومنها كتابه القيّم بحوث في علم الفقه كتب وطبع في أربعة مجلّدات.

٢ ـ تبديل النزعة الفرديّة، والنظرة الموضوعيّة إلى النزعة الاجتماعيّة والنظرة

العالميّة في البحوث التي تتطلّب ذلك، وهاتان النزعتان أو النظرتان لهما الأثر البالغ في كيفيّة فهم القضايا الفقهيّة، وتنتهيان في كثير من الأحيان إلى فتاوى مخالفة. ـ فمثلاً أخبار التقيّة والجهاد تفهم في إحدى النظرتين بشكل، وبالنظرة الأُخرى بشكل آخر، وأدلّة حرمة الربا قد تفهم بإحدى النظرتين بشكل يمكن تحليل نتيجة الربا ببعض الحيل، وتفهم بالنظرة الأُخرى بشكل لا يؤدّي إلى هذه النتيجة، وما إلى ذلك من الأمثلة الواسعة في الفقه.

وقد وفّق لذلك أيضاً بالقدر الذي بحثه من الدراسات الفقهيّة.

٣ ـ توسيع أُفق البحث الفقهي لشتّى أبواب الحياة بالشكل المنسجم مع متطلّبات اليوم، وبنحو يتجلّى أنّ الفقه يعالج كلّ مناحي الحياة، ويواكب الوضع الاجتماعي البشري حتّى النهاية، وبشكل يتّضح أنّ البحث الفقهي متحرّك يواكب حركة الحياة، وليس ساكناً وجامداً على شكل واحد من الحياة كما قد يتصوّر.

وقد شرع ﷺ في تجسيد هذا الجانب في كتابه الفتاوى الواضحة إلّا أنّ استشهاده حال بينه وبين تكميل الكتاب، ولم يطبع منه إلّا المجلّد الأوّل.

٤ ـ كان ﷺ عازماً على أن يبحث فقه المعاملات بشكل مقارن بين فقه الإسلام والفقه الوضعي، كما يتجلّى أنّ الفقه الإسلامي هو الجدير بإدارة الحياة وإسعادها دون غيره، وقد حالت جريمة البعث بينه وبين اتحافنا بهذا البحث القيّم.

إنّ جرائم البعث العراقي كلّها من جانب، و جريمة قتله هذه النفس الزكيّة وإطفاءه هذا المشعل النيّر من جانب آخر.

اللّهمّ فرّق جمعهم، وشتّت شملهم وأرنا يا ربّ ذلّهم، وأذقهم شتّى ألوان الحرمان والعذاب والهوان في الدنيا قبل الآخرة. فإنّ صبرنا قد نفد، وقلوبنا تفتّتت، وأعراضنا قد هتكت، ورجالنا قد سجنوا وعذّبوا واستشهدوا.

اللّهمّ مولاي عاملهم بغضبك وانتقامك، ولا تعاملهم بصبرك وحلمك وأناتك إنّك سميع مجيب.

والسلام عليك يا سيّدي ومعلّمي ومرشدي سماحة آية الله العظمى السيّد محمّد باقر الصدر يوم ولدت ويوم استشهدت ويوم تبعث حيّاً.

لمحات من نبوغ الشهيد الصدر

للأشكوري «مجلّة الجهاد»

شخصيّة الشهيد الصدر أضحت مقرونة في ذهن كلّ من يعرفه بالمأساة، مأساة الدم المسفوك الذي لا زال يصرخ مطالباً بالثأر من أعداء الله...

ومأساة الاستكبار والتفرعن المستفحل في أرض العراق، ومأساة توقّف نشاط فكري وعلمي وجهادي لرجل علّقت الملايين عليه الآمال، وأنشدّت نحوه القلوب والأفكار.

ومن الصعب جدّاً أن يتحدّث الإنسان بلغة وبفكريّة مدروسة عن مسألة مؤطّرة بالألم والحسرة والمضاضة والفقدان.

إنّه ليعزّ عليّ والله أن أتحدّث عن شخصيّة اُستاذنا الشهيد في هذه الفترة التي أقلّ ما يقال عنها: أنّها فترة انتقام لدمه الطاهر، وللدماء الزكيّة التي سفكت في أرض الرافدين، وللدماء التي لا زالت تنزف على يد جلّاد العراق، على الحدود الغربيّة والجنوبيّة للجمهوريّة الإسلاميّة.

طلب منّي الإخوة أن أكتب عن جانب نبوغ شهيدنا الصدر، وأوضحوا لي أهميّة إماطة اللثام عن جميع جوانب شخصيّة هذا القائد الرائد، طلبوا منّي ذلك؛ لأنّهم يعلمون قربي من الشهيد، وتلمذتي الطويلة على يديه، وتعاوني معه في بعض شؤون الحوزة العلميّة في العراق، وأكّدوا عليّ أنّ ما استطيع أن أكتبه في حقل نبوغ الشهيد الصدر قلّما يجتمع في ذهن أحد غيري.

شكرت للإخوان حسن ظنّهم بي، ولبّيت الطلب مع علمي بعدم القدرة على الإلمام بجميع جوانب هذه المسألة، خاصّةً في هذه الفترة العصيبة الضيّقة، وكتبت هذا المقال الموجز الذي يراه القارئ بين يديه، آملاًأن ينتقم الله في القريب العاجل من قتلته، فيشفي صدورنا، ويذهب بذلك غيظ قلوبنا، لنعود مرّةً أخرى إلى دراسة

شهيدنا الصدر دراسةً أوفى وأعمق وأكمل.

جانب النبوغ في شخصيّة الشهيد الصدر نستقرئه في ثلاث نقاط:

١ ـ حركته الفكريّة المبكّرة.

٢ ـ ما قدّمه للمجتمع الإسلامي من أُطروحات فكريّة وعمليّة رائدة.

٣ ـ عقليّته الابتكاريّة التنظيريّة.

١ ـ نبوغ الإمام الشهيد في حركته الفكريّة المبكّرة

ألّف الشهيد كتاب فدك في التأريخ، وهو في الحادية عشرة من عمره، هذا الكتاب ينطوي على أعمق التحليلات التأريخيّة لمسألة فدك، كما يتضمّن بعض المسائل الفلسفيّة المرتبطة بإرث الأنبياء.

سئل السيّد الشهيد مرّةً عن سبب تأليفه هذا الكتاب التأريخي، أجاب: لقد ألّفت هذا الكتاب في مرحلة الصبا، وكنت أودّ أن يبقى لي من تلك المرحلة من العمر كتاب، فكان كتاب فدك في التأريخ.

اجتهد السيّد الصدر قبل بلوغه، ولم ينقل لنا تأريخ الاجتهاد ظاهرةً كهذه إلّا نادراً جدّاً، كما نقل عن اجتهاد العلّامة الحلّي[١] وابنه[٢] قبل بلوغهما[٣]، مع فارق كبير بين مستوى الفقه والأُصول في عصر العلّامة وعصر السيّد الصدر؛ إذ أنّ هذا المستوى تعمّق واتّسع تعمّقاً واتّساعاً كبيرين في عصرنا الراهن.

كتب الشهيد غاية الفكر وهو في السابعة عشرة من عمره، ويتضمّن دراسةً معمّقةً لأعقد مسائل العلم الإجمالي في علم الأصول، دراسةً لكتاب كفاية الأصول، وهو

---

١. راجع الفوائد الرضويّة: ١٢٦.

٢. راجع: روضات الجنّات ٦: ٣٣٨؛ الكنى والألقاب ٣: ١١٦.

٣. الظاهر أنّه لم يطّلع على اجتهاد جدّ والد شهيدنا المقدّس السيّد صدر الدين وعمّ أبيه السيّد محمّد عليّ الملقّب بآقا مجتهد؛ فإنّهما اجتهدا قبل البلوغ، فكان الأولى أن يستشهد بهما على ذلك فتكون هذه الميزة في حفيدهما بالأصالة والإرث.

أعمق كتاب دراسي اجتهادي في أُصول الفقه، لها قصّة ظريفة تنمّ عن نبوغه أيضاً. يقول السيّد الشهيد: عيّن لي ـ وأنا صبيّ ـ أُستاذ لتدريس هذا الكتاب، فحضرت عنده فترةً لم استفد خلالها منه شيئاً لضعفه في التدريس، فاضطررت أن أدرس هذا الكتاب بنفسي بالاستفادة ممّا كتب عليه من حواشٍ وشروح وتعليقات، وأنهيت الكتاب بهذا الشكل، وتلك مسألة عجيبة يفهمها من يعلم بمستوى هذا الكتاب وصعوبته وتعقيده وعمقه.

٢ ـ ما قدّمه للمجتمع الإسلامي من أُطروحات فكريّة وعمليّة رائدة

لقد كان السيّد الشهيد سابقاً لزمانه دوماً ـ إن صحّ التعبير ـ في طرح المسائل الفكريّة والعلميّة والعمليّة.

قدّم للمجتمع الإسلامي أُطروحة إسلاميّة شاملة تحدّى بها الأُطروحات الفكريّة الواردة من الشرق والغرب، وبذلك وقف كالطود الأشمّ أمام التيارات المنحرفة الكافرة. ووقى الجيل المسلم من الانهزام أمام هذه التيارات، وأعاد إلى القلوب الأمل، بل ملأها بالطمأنينة بقدرة الإسلام على قيادة البشريّة.

فكره التنظيمي

لم يكتف الإمام الشهيد بطرح كلمة «الله» في المجتمع، بل عمل على توجيه الأُمّة ودفعها على طريق هذه الكلمة.

وتجلّى الجانب الحركي من الإمام الشهيد في صور شتّى، كان أروعها اهتمامه المبكّر في تنسيق صفوف الواعين من أبناء الأُمّة، وجمع الطاقات المشتّتة، وتربيتها وتهذيبها ودفعها نحو عمل إسلامي منظّم قائم على أُسس فكريّة وعمليّة سليمة مدروسة تستوعب كلّ ما تحتاجه الجماعة المسلمة المتحرّكة نحو استلام دورها الذي أراده الله لها من تربية إسلاميّة، والتزام دقيق بتعاليم الرسالة، وفهم واعٍ للقضايا السياسيّة والاجتماعيّة، والاتّجاهات الفكريّة المعاصرة ومعالم المسيرة الإسلاميّة المتحرّكة.

وبقي الإمام الشهيد يواصل رعاية البذرة في إطار التنظيم وولاية الفقيه، حتّى استوعبت مختلف قطاعات الأُمّة، ونهضت بالقسط الأوفر من التوعية الجماهيريّة.

٣ ـ العقليّة الابتكاريّة التنظيريّة

شهيدنا الصدر ـ رضوان الله عليه ـ كان ذا عقليّة منظِّرة فذّة، فحين يتناول موضوعاً من الموضوعات يتناوله بكلّ أبعاده في إطاره الواسع والأرحب، ويدرسه في ذلك الإطار باعتباره جزءاً من أُطروحة عامّة شاملة، ويثري دراساته بابتكارات فكريّة لم يسبقه بها أحد، ثمّ يقدّم الأُطروحة الكاملة للمسألة التي يعالجها.

وفي ما يلي نماذج من مظاهر هذه العقليّة:

دوره في تطوير علم الأصول

من أجل أن لا أُدخل في هذا المقال الموجز تفاصيل تطوّر مسائل علم الأُصول، أقول: إنّ علم الأُصول مرّ بثلاث مراحل كما يذكر سيّدنا الأُستاذ في المعالم الجديدة للأصول.

الأوّل: مرحلة العصر التمهيدي، ويبدأ بابن أبي عقيل[١]، وينتهي بظهور الشيخ الطوسي.

الثاني: عصر العلم، ورائده الشيخ الطوسي، وينتهي بظهور الوحيد البهبهاني.

الثالث: عصر الكمال العلمي، وهو العصر الذي افتتحته في تأريخ العلم المدرسة الجديدة التي ظهرت في القرن الثاني عشر على يد الأُستاذ الوحيد البهبهاني، وتعاقبت في هذه المدرسة ثلاثة أجيال من النوابغ، وكان رأس الجيل الثالث المحقّق الكبير الشيخ الأنصاري الذي ارتفع بالعلم في العصر الثالث إلى القمّة التي

---

١. أبو محمّد الحسن بن عليّ بن أبي عقيل العمّاني فقيه متكلّم ثقة له كتب في الفقه والكلام، منها: كتاب المتمسّك بحبل آل الرسول، كتاب مشهور في الطائفة، وكتاب الكرّ والفرّ في الإمامة مليح الوضع، كان معاصراً للكليني، المتوفّى سنة ٣٢٨هـ. انتهى ملخّصاً عن رجال النجاشي [: ٤٨، الرقم ١٠٠] ص ٣٨ وغيره [وراجع الفهرست لشيخ الطائفة: ١٣٨، الرقم ٢٠٣].

كانت المدرسة الجديدة في طريقها إليه.

وهكذا نجد أنّ علم الأُصول يطوي كماله التدريجي منذ نهاية القرن الثاني عشر، ولم يشهد قفزة في التطوّر إلّا على يد مدرسة الإمام الشهيد الصدر.

وهذه القفزة ـ التي لا نستطيع في هذا المقال الموجز توضيح معالمها ـ أدّت بعلم الأُصول إلى أن يتطوّر تطوّراً مدهشاً حتّى لنستطيع أن نعدّ مدرسة الشهيد الصدر قد نقلت علم الأُصول إلى مرحلة رابعة.

وتمثّل الكتب الدراسيّة التي خلّفها السيّد الشهيد في هذا المجال تحت عنوان دروس في علم الأُصول في ثلاث حلقات جانباً من تطوّر هذا العلم، وتعكس بحوث في علم الأُصول المتبنّيات الحقيقيّة للإمام الشهيد في علم أُصول الفقه، وعلى نظريّاته وأساليبه واستدلاله بكامل أبعادها.

وضع الخطوط العامّة لحركة الاجتهاد في المستقبل

في مقال موجز ينتقد الإمام الشهيد اقتصار الذهنيّة الفقهيّة على المجالات الفرديّة، وانحسارها عن التطبيقات الاجتماعيّة.

ثمّ يذكر العوامل التأريخيّة لهذه الذهنيّة الفرديّة، ويمثّل كيفيّة تسرّب هذه الفرديّة إلى نظرة الفقيه إلى الشريعة، وإلى الدراسات الأُصوليّة والفقهيّة، ويرسم آفاق المستقبل لحركة الاجتهاد قائلاً:

«إنّ الانكماش الموضوعي يزول، والامتداد العمودي الذي يعبر عن الدرجة العالية من الدقّة التي وصل إليها الفكر العلمي، سيتحوّل في سيره إلى الامتداد الأُفقي؛ ليستوعب كلّ مجالات الحياة، وسوف يتحوّل الاتّجاه نحو تبرير التعامل مع الواقع الفاسد، وتقديم البديل الفكري الكامل عنه من وجهة نظر الإسلام، وسوف يمحي في مفهوم حركة الاجتهاد أيّ تصوّر ضيق للشريعة، وتزول من الذهنيّة الفقهيّة كلّ آثاره وانعكاساته على البحث الفقهي والأُصولي».

وهذه العبارة توضّح في الحقيقة ـ من جانب آخر ـ معالم مدرسة السيّد الصدر في علم الفقه.

أُطروحته في المنطق الاستقرائي

الحديث عن تفاصيل هذه الأطروحة بحاجة إلى بحث علمي مستقلّ. لكن الذي ينبغي أن نشير إليه، هو أنّ الإمام الشهيد اكتشف مدرسةً جديدةً في المنطق، هي مدرسة المنطق الذاتي.

وبيّن أُستاذنا الشهيد أُسس هذه المدرسة ومعالمها في كتاب الأُسس المنطقيّة للاستقراء، وتوصّل منها إلى منطقه اليقين في حساب الاحتمالات.

وأجدني ملزماً أن أنوّه بالجهود الجبارة التي بذلها الأُستاذ العلّامة السيّد كاظم الحائري في ركاب أُستاذنا الصدر على طريق اكتشاف النظريّة وإظهارها إلى حيّز الوجود.

أُطروحة التفسير المنهجي لحياة الأئمّة

في هذه الأُطروحة استخلص الشهيد الخطّ العامّ لحياة أئمّة آل البيت عليهم السلام باعتباره امتداداً لخطّ رسالة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله.

وضمن هذا الخطّ فسّر المواقف المختلفة للأئمّة عليهم السلام على ضوء الظروف الموضوعيّة التي عاصروها، وأوضح الأساس الواحد المشترك لهذه المواقف.

حياة أئمّة آل البيت عليهم السلام تناولها الكثيرون بالشرح والتحليل الدقيق، ولكنّي لا أعرف ـ فيما أعلم ـ باحثاً سبق الإمام الشهيد في وضع أُطروحة شاملة منسجمة متناسقة لكلّ أئمّة آل بيت عليهم السلام.

هذه الأُطروحة قدّمها الشهيد من خلال محاضرات ألقاها على طلّابه أيّام العطل الدراسيّة في الحوزة العلميّة. ومسجّلة على أشرطة، نأمل أن تخرج على شكل كتاب قريباً إن شاء الله.

أُطروحة تفسير التشيّع

كثير من كتب التأريخ تطرح مسألة التشيّع على أنّها ظاهرة طارئة، أو انحرافيّة في المجتمع الإسلامي.

والإمام الشهيد يبحث عن جذور الظاهرة في مقال موجز مكثّف، فوجدها تمتدّ إلى عصر الرسول القائد ﷺ نفسه، حيث رأى أنّ ظاهرة التشيّع تتجسّد في مجموعة من أصحاب الرسول ﷺ المتعبّدين الملتزمين بخطّ الرسالة، البعيدين عن كلّ اجتهاد أمام الكتاب والسنّة، ثمّ عرفت هذه المجموعة وخطّها ـ فيما بعد ـ بالشيع والتشيّع.

ثمّ درس مسألة استمرار الرسالة بعد رحلة القائد الأوّل ﷺ، وخلص من هذه الدراسة الموجزة إلى أنّ التشيّع يمثّل الاحتمال المنطقي الوحيد؛ لاستمرار خطّ الرسالة في المسير الذي أراده الله تعالى.

أُطروحة المهديّ المنتظر

وفيها وضع الشهيد إطاراً جديداً لدراسة المهديّ المنتظر عليه السلام.

لقد رأيت الدراسات حول المهديّ عليه السلام في تناول المسألة على مستوى السنّة، بينما عالج أُستاذنا رحمه الله هذه المسألة على ضوء الحقائق العلميّة، وفي إطار المسيرة العامّة للبشريّة، مجيباً عن كلّ الأسئلة المطروحة في مجال طول عمر المهديّ وظهوره ومجتمعه.

أُطروحة الخلافة والشهادة

وفيها يحدّد معالم خطّ الرسالات السماويّة، ودور النبيّ ﷺ والإمام والمرجع على هذا الخطّ، ويوضّح أنّ الجماعة البشريّة هي التي منحت ـ ممثّلة في آدم ـ خلافة الله في الأرض، وهي مكلّفة برعاية الكون وتدبير الإنسان، والسير في الطريق المرسوم للخلافة الربّانيّة.

أمّا حين يكون المجتمع غير قادر على ممارسة حقّه في الخلافة العامّة، نتيجة سيطرة نظام جاهلي طاغوتي؛ فإنّ النبيّ أو الإمام أو المرجع يتولّى رعاية هذا الحقّ في الحدود الممكنة، ويكون مسؤولاً عن تربية هذا القاصر وقيادة الأُمّة؛ لاجتياز هذا القصور، وتسلّم حقّها في الخلافة العامّة.

وأمّا إذا حرّرت الأُمّة نفسها ـ فخطّ الخلافة ينتقل إليها ـ فهي التي تمارس القيادة السياسيّة والاجتماعيّة، بتطبيق أحكام الله في الأرض، ويضحى دور النبّي أو الإمام أو المرجع هو دور الشاهد على الأمّة، أي دور صيانة الإنسان الخليفة من الانحراف، وتوجيهه نحو أهداف الخلافة.

وأكّد الإمام في أُطروحته هذه أنّ المرجع ليس شهيداً على الأُمّة فقط، بل هو جزء منها أيضاً، وعلى هذا الأساس يحتلّ موقعاً من الخلافة العامّة للإنسان على الأرض، وله رأيه في المشاكل الزمنيّة لهذه الخلافة وأوضاعها السياسيّة، بقدر ما له وجود في الأُمّة، وامتداد اجتماعي وسياسي في صفوفها.

أُطروحة الدستور الإسلامي

كتبها جواباً عن سؤال وجّهه إليه ثلّة من علماء لبنان، ورفعها الإمام الشهيد بتواضع منقطع النظير، وبإيمان راسخ بالولادة الإسلاميّة الجديدة في إيران قائلاً:

«إنّنا إذ نثمّن اهتمامكم المسؤول...

الأُطروحة المباركة التي رفع سماحة آية الله العظمى الخميني رايتها، فأنعش قلوب المسلمين جميعاً، وأنارت نفوسهم، نحاول فيما يلي أن نتحدّث إليكم ببضع كلمات بمستوى مفاهيم الإسلام، وافتراضات قابلة للتطبيق إسلاميّاً، مع التأكيد على أنّ هذا الإمام المجاهد الذي رفع هذه الراية، واستطاع أن يحقّق لها النصر المبين هو صاحب الكلمة العليا، وسيّد الموقف الفصل بشأنها، وكلّنا ثقة بأنّ نجاحه العظيم في تجسيدها وتطبيقها سوف لا يقلّ روعة عن جهاده العظيم في نسف الطاغوت، وإخراج إيران من ظلمات الطغيان».

ثمّ يقدّم الإطار العام لأُطروحة نظام الحكم الإسلامي على أساس خلافة الأُمّة، وشهادة المرجع وولايته وتقوم الأُطروحة على الأُسس التالية:

١ ـ لا ولاية بالأصل إلّا لله تعالى.

٢ ـ النيابة العامّة للمجتهد المطلق العادل الكفوء.

٣ ـ الخلافة العامّة للأُمّة على أساس الشورى.

٤ ـ فكرة أهل الحلّ والعقد تؤدّي إلى افتراض مجلس يمثّل الأُمّة، وينبثق عنها بالانتخاب.

أُطروحة التفسير الموضوعي

وهي مجموعة محاضرات ألقاها الإمام الشهيد على طلّابه أيّام عطلة الحوزة العلميّة.

وفيها يقسّم الموضوع إلى موضوعي وتجزيئي، ويوضّح أهميّة التفسير الموضوعي باعتباره عمليّة اكتشاف الإطار القرآني لكلّ مسألة من مسائل الكون والحياة.

ثمّ يقدّم نموذجاً للتفسير الموضوعي بالحديث عن المفهوم القرآني لتفسير حركة التأريخ.

ويخرج من دراسته للآيات الكريمة التي تتحدّث عن مسيرة البشريّة بنظريّة قرآنيّة عامّة، عن تطوّر الحركة البشريّة، ومستقبل اتّجاه هذه الحركة.

أُطروحة البنك اللاربوي

وهي جواب عن سؤال توجّهت به إليه اللجنة التحضيريّة لبيت التمويل الكويتي بشأن نظام لبنك إسلامي لاربوي.

وتبرز الذهنيّة التنظيريّة لأُستاذنا الشهيد في هذا الكتاب ابتداءً من صفحاته الأُولى، حيث يشير إلى أنّ التخطيط لبنك إسلامي لاربوي يمكن أن يكون على شكلين:

١ ـ أن يكون التخطيط لبنك لاربوي ضمن تخطيط شامل للمجتمع، أي: بعد أن تكون الجماعة المسلمة قد تسلّمت زمام القيادة الشاملة لكلّ مرافق المجتمع.

٢ ـ أن يكون التخطيط لبنك لاربوي مستقلاً عن سائر جوانب المجتمع، أي: مع افتراض استمرار الواقع الفاسد والإطار الاجتماعي اللاإسلامي للمجتمع.

ثمّ يقدّم أُطروحته على أساس التخطيط الثاني استجابةً لسؤال السائلين.

ويقول: لو كنّا نعالج الموضوع بروح الموقف الأوّل لكان لنا حديث غير هذا الحديث.

أُطروحة المرسل والرسول والرسالة

لم يشأ أُستاذنا الشهيد أن يطرح رسالته العمليّة دون تقديمها بموجز في أُصول الدين، وفي هذا الموجز تحدّث الشهيد عن المرسِل «الله» وعن الرسول «محمّد»ﷺ وعن الرسالة «الإسلاميّة».

وهذه الفصول الثلاثة تتميّز

أوّلاً: بارتباطها المنسجم الدقيق، الذي يؤدّي إلى ضرورة التعبّد بالأحكام المطروحة في الرسالة العمليّة.

وثانياً: باتّجاهها نحو مخاطبة أُولئك الذين تفاعلوا مع الفكر الحديث.

ثالثاً: بوضوحها وبمستواها المناسب للمثقف الاعتيادي الجامعي أو الحوزوي، وخلوّها من المصطلحات والتعقيدات مع الاحتفاظ بحقّ القارئ الأكثر تعمّقاً، وذلك بإيجاز بعض النقاط المعمّقة، وإحالة هذا القارئ بعد ذلك في التوسّع على كتب الشهيد الأُخرى كالأُسس المنطقية للاستقراء.

أُطروحته في العبادة

اختتم أُستاذنا الشهيد الجزء الأوّل من رسالته العمليّة الفتاوى الواضحة ببحث عن العبادة.

ودرس فيه «العبادة» ضمن إطار الحاجات الثابتة التي يواجهها الإنسان في جميع العصور.

وأوضح أنّ العبادة هي التعبير العملي لحاجة الإنسان إلى الارتباط بالمطلق.

ثمّ تحدّث عن الملامح العامّة للعبادات، وبذلك رسم الإطار لهذه المسألة الهامّة من المسائل الإسلاميّة.

ولم يفت الأُستاذ الشهيد أن يشير إلى الجانب الاجتماعي من العبادة، بعد أن تحدّث عنها باعتبارها مؤكّداً أنّ علاقة الإنسان بربّه صيغت في الشريعة الإسلاميّة بطريقة جعلت منها في أكثر الأحيان أداةً لعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان.

أُطروحة الاقتصاد الإسلامي

تحدّثنا عن اقتصادنا باعتباره جزءاً من الأُطروحة الشاملة التي قدّمها الأُستاذ الشهيد متحدّياً بها الأُطروحات الجاهليّة التي شاعت في العالم عامّةً بما فيه المجتمع الإسلامي المعاصر.

وهنا أُشير إلى أنّ هذه الأُطروحة تنطوي على جوانب رائقة الابتكار والتنظير.

فالجزء الأوّل من هذا الكتاب [اقتصادنا] تناول المادّيّة التأريخيّة والمدارس الاقتصاديّة المادّيّة بالنقد والتحليل بنظرة شموليّة عامّة وبطريقة لا تجد لها نظيراً في الكتب المشابهة.

ويمثّل الجزء الثاني قمّة القدرة التنظيريّة والابتكاريّة للإمام الشهيد، فقد انفرد في اكتشاف الأُسس العامّة للمذهب الاقتصادي في الإسلام، واستيعاب تفاصيله بالدراسة المعمّقة.

كما قدّم في ثنايا الكتاب نظريّات جديدة، فأثبت ـ على سبيل المثال ـ لأوّل مرّة ـ فيما أعلم ـ أنّ الرغبة هي أساس القيمة، خلافاً للماركسيّة التي اعتبرت العمل أساس القيمة، واكتشف أيضاً نظريّة ارتباط الملكيّة ـ في نهاية الشرط ـ بالعمل، وسواها من النظريّات التي اكتشفها بشكل رائع للغاية في إطار الفكر الاقتصادي الإسلامي.

ولا يفوتني أن أُشير إلى مقدّمة الطبعة الثانية لكتاب اقتصادنا، فهي تنطوي على إعطاء نظرة علميّة معمّقة عن حاجة العالم الإسلامي بشكل خاصّ إلى تطبيق الاقتصاد الإسلامي، والابتعاد عن المناهج الاقتصاديّة الكافرة؛ لانسجام هذا الاقتصاد مع الفكريّة والحضاريّة والنفسيّة للمسلمين.

ختاماً أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبّل من الأُمّة هذا القربان العظيم، ويسدّد خطاها على طريق الأهداف الكبرى التي ضحّى الإمام الصدر من أجلها، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

القائد الشهيد يحدّد معالم الثورة الإسلاميّة في العراق[1]

بسم الله قاصم الجبابرة

حركة المجاهدين في العراق...

انطلاقاً من مسؤوليّاتنا الشرعيّة في إيصال وصيّة الإمام الثائر الشهيد ـ محمّد باقر الصدر ـ إلى الأُمّة الإسلاميّة، تتشرّف حركتنا في أن تضع هذه الوصايا الخالدة بين أيديكم.

فبالعمل الدؤوب، وبالجهاد المتواصل، وبالكلمة الثائرة خطّ الإمام الصدر ثورتنا الإسلاميّة في العراق بدمه الطاهر الزكيّ، فكان بحقّ المشعل الوهّاج الذي ينير الدرب للأجيال الثائرة.

إنّ استشهاد الإمام الصدر هو ثورة برأسها؛ وذلك بما فرضه على الحركة الإسلاميّة قيادةً وقاعدةً من مسؤوليّات ومواقف إسلاميّة جديدة، وما أعطاه إيّاها من زخم ميداني دفع وسيدفع هذه الحركة المرابطة إلى مراحل متقدّمة في المسيرة الإسلاميّة الظافرة؛ ذلك لأنّه فتح مدرسةً رساليّةً لن يغلق بابها، ورسم خطّاً إسلاميّاً لن يندثر، فإنّ المؤمنين بهذا الخطّ لا يقدّسون الإمام الصدر بصفته الشخصيّة، بل بصفته الرساليّة الحقّة التي لن تموت؛ لأنّها مرتبطة بالله، والله حيّ لا يموت، وهو سبحانه القائل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[2] صدق الله العظيم.

وعليه فإنّ الثورة التي قادها وضحّى بنفسه من أجلها هي المنتصرة لا محالة، فهي فصل من فصول الثورة الإسلاميّة الكبرى لسيّد الشهداء الحسين عليه السلام وسيبقى دم

---

١. عن كتيب أصدرته حركة المجاهدين في العراق.

٢. الصافّات (٣٧): ١٧١ ـ ١٧٣.

الشهيد ناراً تحرق قصور الظالمين، وتزيد من إصرار المجاهدين في العراق على مواصلة الكفاح حتّى إسقاط الحكم التكريتي الكافر، وإقامة حكم الله في الأرض. ولئن حكم عليك الظالمون بالإعدام فإنّهم بذلك قد حكموا على كيانهم الخاوي بالفناء.

وإذا كانوا يجهلون ذلك، فالغد الإسلامي القريب، سيلقّنهم دروساً لا تنسى، ويعلّمهم ما كانوا يجهلون، وما الله بغافل عمّا يعمل الظالمون.

فيا جمرات في العراق تلهّبي طغى البغي كلّ البغي بالأرعن الوغدِ
دم الصدر لا ينسى ألا بشرّ الجلّاد بالقتل والجلدِ
سنشعلها في الشرق والغرب حوله ونرمي حصون البغي بالوصول والهدِّ

أيّها المسلمون... يا طلائع الجهاد المقدّس.

الإمام القائد... الإمام الشهيد يتحدّث إليكم، ويضعكم أمام مسؤوليّاتكم الشرعيّة في الدفاع عن الإسلام والمسلمين في العراق، وفي كلّ مكان من أرض الإسلام.

الشهيد الصدر والثورة الإسلاميّة في إيران[١]

احتلّت الثورة الإسلاميّة في إيران المكانة العليا من اهتمامات آية الله الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر بصفته مرجعاً من مراجع الأُمّة الإسلاميّة، وقائداً لانطلاقة الشعب العراقي المسلم ضدّ حكم الطواغيت.

فكان سماحته عبر رسائله التي يوجّهها إلى الشعب الإيراني ينفخ في هذا الشعب روح اليقظة والثبات في طريق الكدح الربّاني الطويل، مبيّناً لهذا الشعب أنّ ثورته امتداد لخطّ النبوّة التغييري في هذه الأرض.

فها هو سماحته يخاطب الشعب الإيراني قائلاً: «إنّي أشعر باعتزاز كبير يغمر نفسي وأنا أتحدّث إلى هذا الشعب العظيم، إلى هذا الشعب الإيراني المسلم الذي كتب بجهاده ودمه وبطولته الفريدة تاريخ الإسلام من جديد، وقدّم إلى العالم تجسيداً حيّاً ناطقاً لأيّام الإسلام الأُولى بكلّ ما زخرت به ملاحم الشجاعة والإيمان».

ولم يغب عن ذهن المفكّر الإسلامي الشهيد أن يواكب الشعب الإيراني، وهو يخوض جولاته الانتخابيّة فقد خاطبهم في إحدى رسائله الشريفة، جاعلاً مشاركتهم في الانتخاب عملاً عباديّاً، وواجباً مفروضاً لابدّ أن يؤدّى بروح تعبديّة خالصة.

قال حفظه الله: «ولا شكّ أنّكم باختيار الجمهوريّة الإسلاميّة منهجاً في الحياة وإطاراً للحكم تؤدّون فريضةً من أعظم فرائض الله تعالى، وتعيدون إلى واقع الحياة روح التجربة التي مارسها النبيّ الأعظم ﷺ، وكرّس حياته كلّها من أجلها، وروح الأُطروحة التي جاهد من أجلها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وحارب لحسابها المارقين والقاسطين، وروح الثورة التي ضحى الإمام الحسين عليه السلام بآخر قطرة من دمه الطاهر في سبيلها».

---

١. مجلّة سروش للعالم العربي الطهرانيّة، السنة الأُولى، العدد الثالث «عدد خاصّ»

وفي فترة الإعداد للتصويت على دستور الجمهوريّة الإسلاميّة كان العلّامة الشهيد يقيّم في مقدّمة أحد كتبه عن هذه الفترة: بأنّها ذات لحظات زاخرة بالتأريخ، وغنيّة بمعاني البطولة والجهاد، ومفعمة بمشاعر النصر والإرادة التغييريّة. فقد كان سماحته يرى أنّ القيام بهذا الدور إنّما هو تجسيد لتجربة رائعة ورائدة في تأريخ الإسلام الحديث.

وما أكثر ما كان يتطلّع ﷺ إلى أن يأخذ الشعب المسلم في إيران دوره الجهادي في تعميم نور الإسلام؛ ليغمر به العالم بعد أن حجبته عنه ظلمات الإنسان الغربي وعملائه المتربّين على ثقافته الماديّة. وبكلّ تأكيد فسوف يعرّي هذا النور تلك الأنظمة التي حملت اسم الإسلام زوراً بنفس الدرجة التي يدين بها الأنظمة التي رفضت الإسلام.

والسيّد الصدر حينما كان يقيّم انتصار الشعب الإيراني المسلم لم يكن ليغفل الإشارة إلى أسباب هذا النصر المبين، بل كان يرى أنّ من الطبيعي أن يزداد هذا الشعب المسلم إيماناً برسالته التأريخيّة العظيمة؛ لأنّه بالإسلام وبزخم المرجعيّة التي بناها الإسلام، وبالإمام الخميني استطاع أن يكسر أثقل القيود، ويحطّم عن معصمه تلك السلاسل الهائلة. فالإسلام هو المنقذ، وهو القوّة الوحيدة في الميدان التي استطاعت أن تكتب النصر لهذا الشعب المجاهد.

فالإمام الشهيد بهذا إنّما يريد أن يقول للمسلمين في العالم أجمع، وفي العراق بشكل خاصّ بأنّ سرّ النصر واكتساح حكم الطواغيت، يكمن في الرسالة الإسلاميّة ممثّلة بقيادتها الشرعيّة الواعية.

فاستيعاب هذه الرسالة والالتفاف حول القيادة الشرعيّة، من أهمّ عوامل النصر، وتحقيق الأهداف المقدّسة في إقامة حكم الله في الأرض.

أمّا عن قائد الثورة الإمام الخميني فكثيراً ما كان الشهيد السيّد الصدر يبيّن للناس أنّ خطّ الإمام الخميني خطّ النبوّة والإمامة الواجب الاتّباع، وهو الخطّ القادر على اقتلاع الجذور الاستعماريّة من نفوس المسلمين وأراضيهم.

قال ـ رحمة الله عليه ـ في رسالة له: «ولم يكن الإمام الخميني في طرحه لشعار الجمهوريّة الإسلاميّة إلّا استمراراً لرسالة الأنبياء، وامتداداً لدور محمّد وعليّ عليهما السلام في إقامة حكم الله على الأرض، وتعبيراً صادقاً عن أعماق ضمير هذه الأمّة التي لم تعرف لها مجداً إلّا بالإسلام، ولم تعش الذلّ والهوان والبؤس والحرمان والتبعيّة للكافر المستعمر إلّا حين تركت الإسلام، وتخلّت عن رسالتها العظيمة في الحياة».

ولقد تمتّع سماحة آية الله السيّد محمّد باقر الصدر بروح جهاديّة عالية في مواجهة طغيان الحكم الطاغوتي في العراق، وما أن انتصرت الثورة الإسلاميّة في إيران حتّى بادر سماحته بتأييدها في برقيّة للإمام القائد آية الله العظمى السيّد الخميني يهنّئه فيها على هذا النصر العظيم، ويعلن ولاءه ودعمه لهذه الخطوة المباركة، ومن بعدها أعلن بياناً مفصّلاً ضمّنه إشادته لجهود الشعب الإيراني المسلم، وأبرز فيه دور المرجعيّة في مبارزة الكفر مهما تعدّدت ألوانه.

ولقد كان ـ قدّس الله سرّه ـ يدرك تماماً أنّه بعمله هذا في تأييد الثورة الإسلاميّة، سيؤجج نار الحقد عليه في صدور الزمرة الحاكمة في بغداد. لكنّه لم يكن ليأبه لمثل هذه الأمور، وما هي إلّا فترة قصيرة حتّى أخذوا يضيّقون في تعاملهم الوحشي على سماحة السيّد الصدر، ويعتقلون كلّ من يتوجّه لزيارته، وبعدها طلبوا منه رسميّاً مغادرة العراق، ولكنّه رفض بإباء هذا المنطق الأجوف، وفضّل أن لا يفارق ساحة جهاده، ولا يدع الشعب الذي أحبّه من كلّ قلبه لقمةً سائغةً لإشباع النزاعات الدمويّة لحكّام البعث تلامذة الاستعمار.

وهنا بادر السيّد الإمام الخميني إلى تأييد سماحته وحثّه على البقاء في النجف الأشرف، معرباً عن قلقه فيما لو غادرها، وقد أجابه السيّد الصدر ببرقيّة تضمّنت إصراره على البقاء والمحافظة على الكيان العلمي للنجف الأشرف، كما نقل إلى الإمام تحيّات الملايين من المسلمين والمؤمنين في العراق العزيز الذي وجد في نور الإسلام الذي أشرق من جديد على يد الإمام الخميني ضوءاً هادياً للعالم

كلّه، وطاقةً روحيّةً لضرب المستعمر الكافر والاستعمار الأميركي خاصّةً، ولتحرير العالم من كلّ أشكاله الإجراميّة، وفي مقدّمتها جريمة اغتصاب أرضنا المقدّسة فلسطين، كما جاء في نصّ برقيّة سماحته الجوابيّة.

ومنذ ذلك الحين أخذ سماحة السيّد الشهيد يعمل جاهداً لتحريك الساحة العراقيّة من أجل تحقيق أهداف مسيرتها الإسلاميّة، وإتمام النصر الذي أحرز في إيران بنصر آخر للإسلام على أرض العراق المقدّسة.

وأخذ القائد البطل ينسّق مع أبنائه وإخوانه المجاهدين خطوات العمل الثوري المبارك، ويصعّد في العاملين روح الثبات والتضحية لتطهير الأرض من حكم الطواغيت الأمناء على المصالح الاستعماريّة في أرضنا الإسلاميّة.

وأخذ يلتقي بجموع الشباب المؤمن في بيته المتواضع المحشور في أحد أزقّة النجف الضيّقة التي ما عادت لتسع وفود المجاهدين، وهم يغرسون بكلّ خطوة شوكة في عيون المخبرين، الذين زرعتهم السلطة القمعيّة عند مداخل تلك الأزقّة، وتحت شرفات منازلها الموغلة في القدم، وما هي إلّا أيّام حتّى غدت تلك الأزقّة والشوارع مسرحاً لعمليّات جريئة، ينفّذها المجاهدون الأبطال، وهم يتصيّدون جلاوزة السلطة الطاغوتيّة، مبرهنين لهم أنّ سياسة البطش وخنق الحرّيّات لا تولّد إلّا ثورة في نفوس المتطلّعين شوقاً إلى أنوار الفجر، مهما ادلهمّ الليل وطال.

وهنا لابدّ أن يتصرّف الجلّادون كما تملي عليهم طباعهم الخبيثة، فلا شيء غير منطق الاعتقال والإرهاب والتهديد، كجولة أُولى للتأثير على معنويّات المجاهدين وقائدهم، فكان أن اقتحمت مجموعة مسلّحة منزل السيّد الصدر، واقتادته بوقاحة القذر إلى مديريّة أمن بغداد، حيث تعرّض ـ قدّس الله سرّه ـ إلى جولات تحقيقيّة، كشفت بوضوح عن مدى الرعب الذي يدبّ في أوصال الطغمة الحاكمين، والدائرين في فلكها من جرّاء تصاعد المدّ الثوري في إيران والعراق.

فلقد سئل ـ قدّس الله سرّه ـ من قبل مدير الأمن العامّ عن سبب تعاطفه وتأييده للثورة الإسلاميّة في إيران خاصّةً، وأنّ هذا التأييد قد جاء قبل إعلان موقف

حكومة بغداد من هذه الثورة، وباطمئنان المؤمن، وعقليّة القائد أجاب المرجع الشهيد: «بأنّي مرجع للمسلمين، وأتصرّف كما يمليه عليّ ديني الإسلامي، وموقعي القيادي في الأمّة، وإنّي غير مرتبط بموقف حكومة مّا، ولا مسؤول أمامها عن تصرّفاتي».

لقد كانوا يشعرون بأنّ كلّ فرد في العراق لابدّ أن يخضع لقانون الوصاية بشكل أو آخر، وحينما يصطدمون بالقمم العالية، يتهاوون إلى الحضيض أذلّةً تافهين.

وبعد أيّام من اعتقال السيّد الشهيد الصدر شعر الجهاز الحاكم بخطورة الموقف، فبادر إلى إطلاق سراحه بعد أن فشلوا في انتزاع كلمة ضعيفة، أو موقف ليّن؛ ليجعلوا منه جسراً للعبور إلى ذلك الأُفق الصعب المترامي.

ولم تتكلّف العقليّة القمعيّة في بغداد عناء التفكير بعد أن رأت بالأمس القريب الدور الذي قام به الإمام الخميني في تحريك الساحة الإيرانيّة، وإسقاط «هُبل»، فما كان من الجلاوزة إلّا أن قاموا بتطويق منزل السيّد الصدر، وفرضوا عليه الإقامة الجبريّة، ولكي يحكموا عزله عن الجماهير الثائرة بادروا إلى منع اتّصاله بالناس، واعتقال أيّ زائر يخرج من بيته، بعد أن يسمح له بعض رجال الأمن، كإجراء لصنع كمين للعناصر المتحرّكة.

واستمرّت السلطة القمعيّة في احتجازها للسيّد الصدر، غير أنّها لم تستطع وقف التيار الثوري الذي بعثه الإمام القائد في أوساط الشعب المضطهد المسلم، فلم يمرّ يوم إلّا وللمجاهدين عمل يؤرقون به ليل الطغاة المتحكّمين في بغداد، حتّى قام الجلاوزة أخيراً على جريمتهم الوقحة حينما اعتقلوا الشهيد الصدر مع أُسرته وأطفاله الأبرياء، ونقلوهم من النجف الأشرف إلى بغداد.

ثمّ ارتكبوا بعد ذلك جريمة إعدام المرجع الكبير وشقيقته العالمة الفاضلة ـ بنت الهدى ـ رحمهما الله برحمته الواسعة.

وإذ نستقبل اليوم ذكرى استشهاد آية الله الصدر فإنّنا نعاهد شهيدنا أن تستمرّ رايته مرفوعة لتحقيق أهدافه الإسلاميّة العليا. انتهى.

بيان حزب الدعوة الإسلاميّة بمناسبة الذكرى الأُولى لاستشهاده[1]

يا شعبنا العراقي الجريح...

يا أبناء أُمّتنا الإسلاميّة المجيدة.

في العام الماضي وفي مثل هذه الأيّام السوداء من تأريخ عراقنا المجاهد أقدمت حكومة الكفر العميلة في بغداد على تنفيذ جريمة العصر النكراء بإعدامها المفكّر الإسلامي والإنساني الكبير، المرجع الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر، وشقيقته العالمة الفاضلة بنت الهدى ـ رضوان الله عليهما ـ مستهترةً في عملها الإجرامي ذلك بأبسط حقوق الإنسان، ومبادئ الإسلام، وكرامة الشعب العراقي الجريح.

فرغم أنّ المرجع الشهيد كان إماماً لملايين المسلمين في العراق، ومدرسةً فكريّةً إسلاميّة في شتّى ضروب المعرفة أجمع المهتمّون بشؤون الفكر على إمامته الفكريّة، وأصالته الإسلاميّة، فإنّ حكم القتلة المجرمين لم يرع له حرمته، ولم يعترف بمشاعر الأُمّة التي حملت الولاء والانقياد له، حيث اقتيد وشقيقته العالمة إلى أحد معتقلات البعث الرهيبة في بغداد، وعرض إلى أشدّ أنواع التعذيب النفسي والجسدي، ونفّذ فيه وفي شقيقته الكريمة حكم الإعدام دون محاكمة ولا حتّى إعلان تهمة، ودفن جسده الطاهر الذي شوّهه التعذيب في النجف الأشرف.

أيّها المسلمون في كلّ مكان، ويا أحرار العالم.

إنّنا نعجب أشدّ العجب من إحجام المؤسّسات الدوليّة التي تدّعي نشدان الحقّ، والحفاظ على كرامة الإنسان، عن فضح الحكم الدموي العميل الذي قلّ نظيره في تأريخ البشريّة.

إنّنا نعجب من سكوت المؤسّسات الإسلاميّة وأحرار العالم كذلك على الجرائم المنكرة التي يقترفها هذا العميل المفضوح.

---

١. مجلّة الجهاد، السنة الثانية، العدد ١٤.

فإذا كانت جريمة إعدام المفكّر الإنساني الكبير الشهيد الصدر معلماً بارزاً من معالم المسلك الدموي الذي يسكله صدّام التكريتي في سياسته تجاه المؤمنين والأحرار كافّةً في العراق، فإنّ آلافاً من الجرائم الأُخرى التي لم يشهد لها تأريخ الإنسان المعاصر مثيلاً تجري كلّ يوم في عراقنا الجريح.

فالاعتقالات الكيفيّة، وإطلاق يد العابثين ممّن يسمّون برجال الأمن لانتهاك الحرمات والاعتداء على أعراض المعتقلين وإبادة أُسر بأكملها؛ لاتّهام شخص فيها أنّه عضو في الدعوة الإسلاميّة، وتهجير عشرات الأُلوف من ديارهم، وتشريد الآلاف من بيوتهم ووطنهم وإعلان بيان الإبادة لكلّ منتم أو متعاون مع أكبر حركة إسلاميّة في العراق، والقتل الجماعي تحت التعذيب، وفي المحاكمات الصوريّة، وزجّ الجيش العراقي في حرب قذرة ضدّ أمل المسلمين في العالم ـ جمهوريّة إيران الإسلاميّة ـ وغير ذلك من جرائم لا يصحّ لأيّ مهتمّ بشؤون الإنسان والإسلام أن يسكت عليها.

إنّ الشعب العراقي بقيادة مجاهديه وأحراره يعلن عن إدانته لأيّ سكوت على جرائم صدّام التكريتي ويستصرخ الضمير العالمي للتحقيق في جرائم القتل الجماعي وحرب الإبادة على المؤمنين الأحرار والوطنيّين الشرفاء وسياسة التهجير الظالمة والتصفيات الجسديّة للمعتقلين من الشباب والشيوخ والنساء والأطفال.

إنّ الله ـ جلّ وعلا ـ سيحاسب المقصّرين عن نصرة قضيّتنا الكبرى في العراق، وإنّ التأريخ لن يرحم الساكتين عن قول الحقيقة.

نعاهد دم الشهيد السعيد السيّد الصدر، ودماء الشهداء الأبرار كافّةً، وجميع المخرجين من ديارهم ظلماً واليتامى والثكالى، كافّة أبناء شعبنا العراقي الجريح أنّنا سنمضي على الدرب قدماً حتّى نحقّق إرادة أُمّتنا المظلومة المغلوبة على أمرها، بكسر القيود والأغلال وإقامة حكم الله في الأرض، حكم العدالة والحرّيّة والكرامة.

﴿وَسَيَعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

---

١. الشعراء (٢٦): ٢٢٧.

لقاءان حول الشهيد الثالث

اللقاء الأوّل:

مع سماحة الشيخ محمّد مهديّ شمس الدين «نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان»

كان للمنطلق لقاء فكري مع سماحة نائب رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الشيخ محمّد مهديّ شمس الدين، وقد طرحنا عليه الأسئلة التالية حول شخصيّة الشهيد الثالث، السيّد محمّد باقر الصدر، كمفكّر إسلامي رائد، وكمفكّر عالمي، وتفضّل سماحته بالإجابة عليها:

١ ـ ما هي الظروف الاجتماعيّة والسياسيّة والفكريّة التي نشأ فيها السيّد الصدر كمفكّر، وكان لها إسهام في بلورة اتّجاهه أو شخصيّته الفكريّة؟

٢ ـ بم تتميّز المدرسة الفكريّة التي يمثّلها السيّد الصدر؟

٣ ـ هل تشاركونا الرأي في اعتبار السيّد الصدر مفكّراً عالميّاً؟

٤ ـ ما هي تأثيرات المدرسة الفكريّة للسيّد الصدر على الساحة السياسيّة؟ وهل لذلك علاقة مباشرة باستشهاده؟

١. شهدت فترة ما بين الحربين العالميّتين تحوّلات عميقةً جدّاً في الأوضاع السياسيّة والثقافيّة والاجتماعيّة في العالم الإسلامي وفي العالم العربي بوجه خاصّ حيث نمت موجة التغريب بشكل مكشوف، وغدت مسألة تقود سياسات الأنظمة الحاكمة في الدول العربيّة والإسلاميّة، ورافق هذه الفترة أشكال متنوّعة من الحكم الاستعماري المباشر على الصعيد السياسي.

ويتّصل بموجة التغريب هذه تفشّي ما يمكن أن نسمّيه نمط الحياة الغربيّة المتعلّق بروح الترف، حيث نمت وسط هذا المناخ الحياتي المترف طبقة ثريّة جدّاً، والتي اصطلح على تسميتها بالطبقة الارستقراطيّة أنتجت قيادات سياسيّة وثقافيّة واجتماعيّة، هذا الواقع أوجد حالة صدمة أصابت عامّة الناس العاديّين الذين بدأ ينمو تحت أنظارهم وأسماعهم نمط جديد من الحياة، وأسلوب جديد من الحياة، يختلف في قليل أو كثير، ونقدّر أنّه يختلف في كثير عن قناعاتهم الذهنيّة والعقيديّة التي يتّصل بعضها بالتقاليد، ولكن معظمها يتّصل بالعقليّة والثقافيّة الإسلاميّة التي يحملها هؤلاء حتّى ولو كانوا أُميّين؛ لأنّ الثقافة ليست مسألة تعليميّة، وإنّما هي مسألة قناعات وفهم معيّن، ولا شكّ في أنّ الأكثريّة الساحقة من أُمّتنا في العالم العربي، أو العالم الإسلامي الواسع، كانت تستمدّ كثيراً من مقوّماتها من المفاهيم والقيم الإسلاميّة فاصطدمت هذه الفئة الواسعة، ونكاد نقول الأُمّة باستثناء نخبة الطبقة الوسطى والطبقة الارستقراطيّة اصطدمت بهذا النموذج الذي ينمو تحت سمعها وبصرها، أُصيبت بالذهول في حالات، بالدهشة في حالات، بالنفور في حالات، وربّما بالفرح في حالات، ولكنّ الطابع العامّ، كان هو طابع الغربة، غربة الأُمّة عن هذا النمط الجديد من الحياة.

الفريق الثاني الذي صدم بهذه الظاهرة الجديدة بأوجهها الفكريّة والسياسيّة، والحياتيّة هي القيادة الإسلاميّة المتمثّلة بعلماء الدين، وهي التي تعتبر نفسها أمينةً على هذا الفكر، وعلى الأُمّة التي تعتنقه، وقد واجهت هذه القيادات. وهنا علينا أن نواجه واقعنا بوضوح وبلا مجاملات، وخارج نطاق المنطق التبريري الذي تعوّده البعض، واجهت هذه القيادات هذا الواقع الجديد بردود فعل متنوّعة، فمنها من واجهه بالاستسلام، ولكن بالتأكيد ليس منها من واجهه بالرضى والقبول، هذه الظاهرة بأوجهها، ووجهت من قبل هذه القيادة بالرفض والإدانة والتبرّي، ولكن هذا الرفض يمكن أن نسمّيه بالرفض الاستسلامي، وموقف هذا الفريق متأثّر بنوع من الثقافة التي

يغلب عليها الطابع الصوفي أو الغيبي الذي ربما يرى في ما حدث علامة من علامات القدر المبرم الذي لايقاوم، وربما كان يرى فيها ظاهرة أخرويّة ذات رمزيّة أخرويّة رفضها واستسلم للواقع ولم يقاوم كان الرفض رفضاً ذهنيّاً، رفضاً فكريّاً، ولم يكن رفضاً عمليّاً بأيّ وجه من الوجوه، ويمكن للمتتبّع في تأريخ مراكز القيادات الفكريّة في أنحاء العالم الإسلامي أن يجد شخصيّات تصلح أن تكون نماذج لهذا النوع من الرافضين.

النموذج الثاني هو التصدّي، ولكن التصدّي يكون بأدوات تقع خارج المرحلة التأريخيّة، يعني بأدوات تجاوزها التأريخ، بأسلوب فكري تجاوزه التأريخ، وبأسلوب عملي تجاوزه التأريخ أيضاً. هؤلاء كانوا يحسّون بخطورة كبرى، وكانوا يرفضون انطلاقاً من المعطيات الفكريّة الإسلاميّة، وكانوا يحملون روحاً جهاديّةً لا شكّ فيها، ولكنّهم كانوا يفتقرون إلى اللغة والأُسلوب اللذين يتناسبان مع المرحلة التأريخيّة التي ظهرت فيها هذه القضيّة.

غنيّ عن القول أنّ الفئة الأُولى لم تضف أيّ جديد إلى مقاومة الأُمّة المدهوشة أو الخائفة أو المتعجّبة، لم تلبّ حاجتها إلى القيادة الصحيحة، ربما ساهمت في خلق أجواء الحيرة، ربما بل لعلّها ـ أي هذه الفئة ـ ساهمت في حالة الضياع الذي ساد في قطاعات واسعة من الأُمّة، ومن ثمّ خدمت بشكل غير مباشر موجة التغريب.

أمّا الفئة الثانية فقد كانت بطبيعة الحال تطمح إلى أن تقود عمليّة المواجهة، وقد قادتها بشكل أو بآخر بمستوى هزيل، أو بمستوى كبير، ولكنّها بطبيعة الحال فشلت في المواجهة؛ لأنّها لم تكن كما قلنا تملك الأداة التي تتناسب مع المرحلة التأريخيّة للمواجهة، وأتكلّم هنا عن المواجهات على مستوى الفكر، ومستوى العمل الاجتماعي والتوجيهي، وليس على المستوى العسكري وقيادة الثورات، أو العصيان المسلّح، فهذه لها حديث آخر، وهي مظهر كبير، ولكنّه مظهر لمقاومة الاستعمار السياسي، ولا يتّصل اتّصالاً وثيقاً بموضوع حديثنا.

هذه الفئة قادت لكنّها بالتأكيد فشلت في قيادتها؛ لأنّها لم تكن تملك الأدوات الفكريّة والتنظيميّة المناسبة للمرحلة، وترتّب على فشلها أيضاً تقديم فرص إضافيّة لقادة موجة التغريب، لقد مضت مشغولةً ومملوءةً بأمثال هذه المواجهات السلبيّة الاستسلاميّة أو الإيجابيّة، ولكنّ التي لا تملك الأدوات اللازمة للمواجهة.

طبعاً هذا الواقع كان ينطوي في ثناياه على إمكانات مستقبليّة، تنتجها المرحلة على صعيد الإسلام ومواجهة الإسلام مع الموجّة الغربيّة.

أستدرك فأقول: إنّ الحال لم يكن متساوياً في كلّ العالم الإسلامي، هناك استثناءات يمكن أن نذكرها، كانت قريبةٌ جدّاً من أن تملك أدوات المرحلة، يمكن أن نذكر حالة «إقبال» بشكل خاصّ في شبه القارّة الهنديّة، ولكنّه كان عمله عملاً فكريّاً مجرّداً يفتقر إلى التنظيم الذي يحوّله إلى حقائق سياسيّة، لا شكّ بأنّه ساهم فيما بعد في إنضاج الحالة السياسيّة، ويمكن أن نذكر أيضاً محاولات الشمال الإفريقي، خاصّةً قيادة ابن باديس[١]، ولكن يبدو ولست متأكّداً من حكمي يبدو لي أنّ كفاءاتهم الفكريّة والتنظيميّة لم تكن في مستوى المرحلة، ربما كانت من نوع المرحلة، ولكنّها لم تكن في مستواها ربما لم تنجح في المواجهة، ولكنّها نجحت في إذكاء روح المقاومة الشعبيّة، ويمكن أن نذكر في هذا السياق حركة جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده، كما نذكر بعض الأسماء البارزة في العراق، كالشيخ محمّد جواد البلاغي مثلاً، أو في إيران، ولكن كلّ هذا وبالرغم من النجاحات المحدودة والمتفاوتة في محدوديّتها، والتي تحقّقت هنا وهناك لم يمنع موجة التغريب على صعيد الفكر والسياسة والمجتمع، وأسلوب ونمط الحياة من أن تكتسح.

---

١. كان رئيس جمعيّة العلماء في الجزائر، ولد سنة ١٣٠٥، وكان شديد الحملات على الاستعمار، وقد حاولت الحكومة الفرنسيّة إغراءه بتوليته رئاسة الأمور الدينيّة، فامتنع واضطهد وأوذي، له مؤلّفات، منها: تفسير القرآن الكريم، توفّي سنة ١٣٥٩ هـ ملخّصاً عن الأعلام ج ٣ ص ٢٨٩.

هكذا مرّت عقود من السنين، والعالم الإسلامي يواجه بهذا الشكل.

ألا إنّ المرحلة وهذا النوع من المواجهات وخيبات الأمل السياسيّة بوجه خاصّ، ولّدت بطبيعة الحال حالة وعي في صفوف القيادات الدينيّه الشابّة، أو البراعم التي هي في دور تكويني.

كما أعتقد أيضاً أنّه في هذا المكان المحموم المملوء بخيبات الأمل والخوف والعنفوان، في نفس الوقت ولدت إمكانات فكر جديد لا في جوهره؛ إذ هو في جوهره فكر إسلامي، ولكنّه جديد في فهمه لحقيقة المشكلة، وجديد في تناوله للمسائل، وفي طرحه لها بعيداً عن التشنّجات وأحكام الإدانة.

إنّه يتناول المشكلة تناولاً علميّاً محايداً يسعى إلى الفهم، وليس تناولاً متعصّباً لا يملك إلّا الرفض، وعلى هذا الأساس طرحت هذه المشكلة طرحاً أميناً، وبحث عن أجوبتها في نطاق الفكر الإسلامي ومنه، وبالأسلوب وباللغة وبالروحيّة التي تتلاءم مع المرحلة.

وأحبّ أن أقول كلمة عن الروحيّة يمكن أن تستعمل في بعض أقسام الحديث الماضي، نحن يمكن أن نفهم مشكلةً مّا فهماً صحيحاً، ويمكن أن نطرحها طرحاً صحيحاً، ويمكن أن نجد لها أجوبةً صحيحةً، ولكن كلّ عملنا يفسد إذا لم نفهمها ولم نطرحها ولم نجب عليها بالروحيّة التي تتناسب مع المشكلة الروحيّة. ماذا أعني بها؟ أعني أنّنا مثلاً الآن في سنة ١٤٠٠ علينا أن ندرك أنّنا أيضاً في نفس الوقت موجودون في سنة ١٩٨٠، يعني أنّنا موجودون في عالم ينتمي أكثره إلى مناخ حضاري آخر، كما يعني أنّ شروط الحياة الماديّة والعاطفيّة التي تحكم الإنسان العادي تختلف عن شروط الحياة قبل نصف قرن، وبالتالي أن نعي أنّ هذا الإنسان المسلم الذي نريد أن نحوّله إلى جندي، وإلى مجاهد، معرّض كما لم يحدّث في أيّ وقت مضى على مدى المساحة التأريخيّة كلّها، معرّض لتأثير إعلامي وفكري غير إسلامي طوال الوقت، وأنّ هذا

الإنسان يريد أن يحيا عالمه، أن يحيا عصره، ولا يريد أن يعيش في عالم منفصل.

الفكر الجديد، أو النمط الجديد للفكر الإسلامي فكر المواجهة، فكر التفسير، أو إعادة التفسير، وفي نفس الوقت فكر المواجهة يمتاز بهذه الخصوصيّة، بالرغبة التي كانت ناجحة في بعض الحالات، فاشلة في بعض الحالات، بالرغبة في أن تفهم حالة الإنسان المسلم المعاصر.

في هذا المحيط بكلّ وعوده وآماله، وبكلّ خيبات أمله نما محمّد باقر الصدر في أُسرة عريقة في الحياة العلميّة الإسلاميّة، وفي مدينة تعتبر إحدى كبريات مراكز الفكر الإسلامي في العالم، ونقدر أنّه تفاعل فكراً وعاطفةً مع هذا الواقع، ويصادف نشوءه مع نشوء حركات التحرّر السياسي التي كان يقودها في بعض الحالات الرفض الإسلامي، وفي بعض الحالات الفكر العلماني الذي مثّلته إلى حدّ كبير الطبقة الوسطى الناميّة والمتأثّرة بالفكر القومي الأوروبي، وأعتقد أنّ هذا المناخ ساهم إلى حدّ كبير في دفع محمّد باقر الصدر لأن يكون فقيهاً غير تقليدي، وأن يكون مفكّراً غير تقليدي.

طبعاً مواهبه الشخصيّة، نبوغه، ذكاؤه، روحه العلميّة جدّاً، محيطه العائلي والاجتماعي ساهمت إلى حدّ كبير في تكوين اتّجاهه الفكري، ونوعيّة هذا الاتّجاه. أُضيف إلى ذلك الحمّى السياسيّة التي كانت تطرح باستمرار أمام جميع البصائر المتفتّحة.

مصير الإنسان العادي بين أن يعيش حياةً مقبولةً نوعاً مّا، ولكنّها ممسوخة سياسيّاً وفكريّاً، يعني: تعاني من الغربة الفكريّة والاستلاب السياسي، وبين أن يعيش خارج حركة التأريخ، على منطق الذين سمّيناهم بالرافضين المستسلمين، أو أن يضع نفسه في حركة التأريخ ولكن من موقع إسلامي يحرمه الحياة التي تعد بها المؤسّسات الجديدة المتغرّبة، وتبني وسائلها.

أمام إنسان مؤهّل يملك كفاءات متميّزة، أو يعيش في ظروف، وربّي على

الإخلاص للقضيّة التي يؤمن بها، أمام هذا الإنسان المشروع الذي هو مشروع قيادة فكريّة وسياسيّة. كانت نماذج الناس: الإنسان الحائر، الإنسان الممسوخ، والإنسان المجاهد، ولكنّ الذي يبحث عن هويّة تأخذ بنظر الاعتبار حالة العصر. لا تأخذ فقط سنة ١٤٠٠ وإنّما تدخل في تقييم الموقف كوننا نعيش في مسار حضاري ثانٍ هو ١٩٨٠.

أعتقد أنّ كلّ هذه الأفكار تصوّر إلى حدّ لا أعرف هل هو محدود أو كبير أو كامل، المناخات التي نمت فيها الشخصيّة الفكريّة والتوجّه الفكري للسيّد محمّد باقر الصدر.

٢ ـ من المعلوم الآن أنّه يمكن إلى مدى بعيد، وإلى مدى يتمتّع بقدر كبير من الصدق أن نقول: هناك مدرسة فكريّة للسيّد محمّد باقر الصدر، ومدرسة فكريّة متميّزة. ولا يصعب على الإنسان المتتبّع للفكر الإسلامي في العصر الحديث، والمساهم فيه أن يكتشف بسهولة بعض الخصائص الكبرى لهذه المدرسة:

أعتقد أنّها تتميّز بالأصالة، فلأوّل مرّة فيما أعلم يوجد فكر إسلامي حديث، لا يتّكئ على تبرير نفسه بالنظريّات والفكر الغربي، مقوّماته إذا صحّ التعبير محليّة تماماً، يعني إسلاميّة خالصة، في نفس الوقت هو فكر عميق، فكر يستحقّ هذه الكلمة وليس فكراً سطحيّاً، هذا إذا صحّ للسطحيّة أن تسمّى فكراً، إنّه يغوص إلى الجذور.

السمة الثالثة هي الشموليّة في معالجاته تجد هذه الميزة، وهذا أمر له مغزاه الكبير، إنّه في فلسفتنا يعتبر أنّ المدخل لفكره الفلسفي هو المسألة الاجتماعيّة، أنا لا أتذكّر أنّ معالجةً فلسفيّةً مؤصلةً وأصليّةً تجعل حافزها ومدخلها المسألة الاجتماعيّة، وهذا يكشف عن خصوصيّة أخرى هي ليست لمحمّد باقر الصدر، بل هي لكلّ من ربّي على القرآن والإسلام أنّ الفكر الفلسفي الذي هو أعلى مستوى من التجريد الفكري يلتصق ويتلاحم مع الفكر الاجتماعي الذي هو أعلى أو أدنى مستويات الكثافة الحياتيّة المادّية الملتصقة بهذا الفكر.

الشموليّة يلاحظها الإنسان في كلّ آثاره الكبيرة في اقتصادنا، وفلسفتنا، وفي البنك

اللاربوي، وفي الأسس المنطقية للاستقراء الذي هو كتاب أعتقد أنّه لم يكتشف حتّى الآن، كما أوجّه الأنظار إلى فكره الأصولي والفقهي الأكاديمي الذي كان يلقيه كدروس، بالإضافة إلى معالجاته التأريخيّة العامّة، أو التفسيريّة العامّة، حيث يكتشف الإنسان فيها كلّها هذه الشموليّة، بالإضافة إلى الخصوصيّتين السابقتين اللتين هما: الأصالة والعمق، الأصالة ربما تفهم في كثير من الأوساط خطأً على أنّها تعني مواجهة الفكر الآخر بروح عدائيّة، وهو خطأ لم يقع فيه السيّد محمّد باقر الصدر، الأصالة تعني أكثر فأكثر التعامل مع الفكر الآخر، وليس الرفض التعصّبي والمتشنّج للفكر الآخر.

وهذه السمة من سمات الأصالة نلمسها في القرآن الكريم الذي عرض الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيه جميع وجوه الفكر المضادّ، وواجهها دون أن يخفيها أو يتجنّبها.

٣ ـ لجهة السؤال عن السيّد الصدر كمفكّر عالمي على بعض المقاييس، وفي مستوى المرحلة بالتأكيد يمكن أن نعطيه هذه الصفة، كما نلاحظ هناك أسماء كثيرة خارج الفكر الإسلامي أعطيت هذه الصفة، بعضها بطبيعة الحال يستحقّ أن ينالها، وبعضها والكثير منها لا يستحقّ هذه الصفة، علينا أن نتّفق على مقياس لهذه الصفة، وعلى أساسه تعطى أو لا تعطى.

هل المفكّر العالمي هو الأكثر شهرةً؟ أم هو الأكثر التصاقاً بقضايا الإنسان، والأكثر تمثيلاً لطموحات أُمّته، والأكثر معاناةً في سبيل هذا الفكر.

وهذه الطموحات ربما يسقط البعض في التفاهة أو في السهولة، فيعطون هذا اللقب لبعض الأسماء المشهورة التي تشتغل بعالم الفكر والكتابة، وهي لا تستحقّ بالتأكيد هذا اللقب، وإنّما تكون الشهرة راجعةً لوسائل الدعاية العصريّة التي نعرفها، ولشركات العلاقات العامّة التي نعرف تأثيرها الواسع النطاق في هذا العصر.

بالتأكيد بعض المشهورين يستحقّون شهرتهم ولكن كما قلت: كثيرون منهم

لا يستحقّون هذه الشهرة. فلنأخذ مثلاً على ذلك سولجنتسين[١] الذي لم يكن معروفاً خارج نطاق الاتّحاد السوفياتي إلى أن التزم بموقف سياسي معيّن، فحوّله الإعلام الغربي إلى مفكّر عالمي، وهو لا يستحقّ أن يكون مفكّراً عالميّاً.

أو فلنتصوّر مثلاً سارتر الذي جعلت منه الطرافة والغربة الفكريّة والدعاوى السياسيّة مفكّراً عالميّاً.

ربما كان يستحقّ هذا اللقب بإنجازه الفلسفي الذي قد توافق على بعضه، أو لا توافق على كلّه، أو لالتزامه السياسي، ولما يبدو أنّه صادق فيه من التزامه الفلسفي، ولكن حينما نصدم باتّجاهه الصهيوني نتوقّف كثراً، وقد توقّفت كما تلاحظون، فكرت في إطلاق هذه الصفة عليه، واستحقاقه لها حينما نجد هذا الانفصام بين الفكر والشعار، وبين الموقف السياسي كما تجلّى من موالاته لإسرائيل، فإنّنا نصل إلى أن ليست من سمات المفكّر العالمي. الشهرة ليست مقياساً، بعض السياسيّن في العالم الذين لا يساوون قيمة الورق الذي يكتب عنهم بالتأكيد هم مشهورون أكثر من كلّ المفكّرين، بعض ممثّلات السينما، أو ممثّلي السينما مشهورون أيضاً أكثر من أيّ مفكّر عالمي.

من هذا المقياس نعتبر السيّد محمّد باقر الصدر ـ وأمثاله ـ مفكّراً على مستوى عالمي، ولا يؤثّر في هذه الحقيقة كونه لم يكن في نطاق سياسي يخدم شهرته، وكونه لم يكن يملك الوسائل الماليّة التي تخدم شهرته؛ إذ المهمّ أنّه أعطى فكراً أصيلاً يعبّر عن شخصيّة اُمّته، وعاش حياةً ملتزمةً بهذ الفكر، وختم هذه الحياة بأعلى مستوى للالتزام بهذا الفكر، هو مستوى الشهادة.

٤ ـ أمّا لجهة تأثيرات هذه المدرسة الفكريّة فأقول بسعادة أنّنا نلاحظ أنّها ذات

---

١. فيلسوف وأديب روسي، ولد سنة ١٣٢٣ اقترنت باسمه الفلسفة الوجوديّة، أحرزت مؤلّفاته نجاحاً، جعله الممثّل الأوّل للوجوديّة في فرنسا، نال جائزة نوبل لكنّه رفضها. انتهى عن المجموعة العربيّة الميسرة ج ١ ص ٢١١.

تأثير واسع النطاق وعميق، وذو طابع يتجاوز الممارسة الأكاديميّة المحضة إلى كونه يشكّل طريقة حياة لدى الكثيرين من الرجال والنساء الذين التزموا به، على أنّه الصيغة السياسيّة للمرحلة.

أعتقد أنّ هذه التأثيرات لا تزال في بداياتها، ولا أقول في بدايتها؛ لأنّها منذ عقد من السنين على الأقلّ تجاوزت البداية.

نعم هي في أوائلها. وكلّما مضى وقت أكثر في الحمّى السياسيّة التي تستوعب العالم العربي على الأقلّ، والعالم الإسلامي بوجه عامّ، بعد نجاح الثورة الإسلاميّة في إيران أعتقد أنّ فرص النموّ والتعمّق لهذا الفكر تتضاعف باستمراره، وخصوصاً على الساحة السياسيّة. نظراً لتأثيره بالذات على نمط الالتزام السياسي، وأُسلوب المواجهة السياسيّة.

أمّا إذا كان لذلك علاقة مباشرة باستشهاده، فإنّ الجواب هو بالتأكيد نعم، بل أكاد أقول: إنّ توجّهه الفكري الملتزم هو المسبّب الوحيد لاستشهاده، التزامه من جِهة، وكون فكره أصبح فكر التزام، وليس فكر ترف، أو فكراً مجرّداً من جِهة. انتهى.

اللقاء الثاني: مع السيّد محمّد باقر الحكيم

بتأريخ ١٩٨٠/١/٧ كان للمنطلق لقاء مع سماحة السيّد محمّد باقر الحكيم، نجل المغفور له المرجع الإسلامي الأعلى السيّد محسن الحكيم، وأمين عامّ جماعة العلماء المجاهدين في العراق، والذي يحتلّ الموقع القيادي الأوّل في المعارضة الإسلاميّة والسياسيّة ضدّ النظام العراقي.

وقد وجّهت إليه المنطلق الأسئلة التالية حول الوضع السياسي الراهن في العراق الجريح، فتفضّل سماحته بالإجابة عليها:

س ١: بعد مضيّ أكثر من خمسة أشهر على بداية الحرب العدوانيّة التي يشنّها

النظام العراقي ضدّ الثورة الإسلاميّة في إيران... ما هو تقييم سماحتكم للوضع السياسي في العراق؟... وهل يمكن القول بأنّ النظام العراقي قد بات وشيك السقوط؟

ج ١: الوضع السياسي في داخل العراق متدهور كثيراً نتيجةً للضربات القويّة التي يوجّهها المجاهدون في داخل العراق لرموز النظام وجلّاديه؛ وكذلك بسبب ردود الفعل ضدّ الحرب العدوانيّة التي فرضها نظام صدّام على الشعب العراقي المسلم الرافض لوجوده ولأساليبه القمعيّة، ولروح السيادة والتعالي الجوفاء التي يتعامل بها مع هذا الشعب، ولا شكّ في أنّ النظام يعيش الآن على شفا الهاوية التي سوف يسقط فيها، وهو يحاول بروح اليائس أن يستمرّ يوماً آخر باتّباع أقسى أساليب القمع والإرهاب والاضطهاد وتصفية القوى الإسلاميّة والمخلصة، والاعتماد على الدعم الأجنبي، أي: على العمليّة الأمبرياليّة العالميّة، وعملائها في المنطقة.

إنّ الشعب العراقي المسلم ينتظر اللحظة المناسبة ليسقط هذا النظام في مستنقع الطغاة المجرمين.

س ٢: يحاول النظام العراقي أن يصوّر المعارضة الحاليّة، وكأنّها عميلة لدولة أو دول خارجيّة...، وليست كنتيجة لجهاد الشعب العراقي المسلم، ما هو رأي سماحتكم في ذلك؟

ج ٢: لقد بدأت الحركة الإسلاميّة في العراق في أواخر الخمسينات... وقد أرست أُسسها الفكريّة والسياسيّة في الستّينات، كما أنّها حقّقت تقدّماً ملحوظاً في هذه الفترة، حيث أصبحت المرجعيّة الدينيّة في النجف الأشرف، والمتمثّلة بالفقيد الإمام الحكيم، والتي كانت تحتضن الحركة الإسلاميّة أصبحت تهدّد النظام التعسّفي في بغداد، ومن الممكن أن نفسّر إنقلاب السابع عشر من تموز ١٩٦٨ على أنّه محاولة استعماريّة لضرب الحركة الإسلاميّة.

ومن هنا وجدنا أنّ هذا النظام بادر منذ أيّامه الأُولى لضرب المؤسّسات الدينيّة، وخصوصاً الحوزات العلميّة، ولمطاردة الشخصيّات والحركات الإسلاميّة وتصفيتها،

ويمكن أن نلحظ ملامح أو بداية الثورة الإسلاميّة في العراق قبل قيام الدولة الإسلاميّة المباركة في إيران، في انتفاضة ذكرى أربعين الإمام الحسين عليه السلام بداية سنة ١٩٧٧، والتي ذهب فيها كوكبة من الشهداء، وحكم فيها على عدد آخر بالسجن المؤبّد، ولكن بالنسبةللاقتران الزمني بين انتصار الثورة الإسلاميّة في إيران، وبين تصاعد التحرّك الجماهيري الداخلي لإسقاط النظام العراقي، إنّ هذا الاقتران يعود إلى ازدياد ثقة الشعب العراقي المسلم وإيمانه بالله، وهو يرى في إخوانه المجاهدين في إيران القدوة والأمثولة.

إنّ عداء القوى الإمبرياليّة وعملائها في المنطقة للثورة الإسلاميّة في إيران، وخوفها من امتدادها إلى المناطق الإسلاميّة المجاورة، أدّى إلى اتّهام الثورة الإسلاميّة في العراق بدوافع خارجيّة بقصد محاصرتها إعلامياً، كما أنّ النظام في بغداد قد اعتاد أن يربط دائماً كلّ تحرّك جماهيري على الساحة العراقيّة الداخليّة بعامل خارجي، من أجل تضليل الرأي العامّ العالمي، لتبرير أساليب القمع والإرهاب التي يتبعه ضدّ المجاهدين والمخلصين من أبناء العراق.

س ٣: شهدت الساحة العراقيّة سلسلة من المؤامرات ضدّ الإسلام والمسلمين من قبل السلطة، ابتداءً من حياة والدكم ـ قدّس الله سرّه ـ، ومروراً بإعدامات سنة ١٩٧٤، وسنة ١٩٧٧، والتي تمّ فيها اعتقال سماحتكم، وتتويجاً باستشهاد الإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر... فما هو موقعكم تجاه تلك الأحداث والمؤامرات؟

وهل يمكن أن تعطونا صورةً تأريخيّةً سريعةً عن أهمّ معالمها البارزة؟

ج ٣: في أواخر الخمسينات دخلت العمل الإسلامي الفكري والسياسي، ولا زلت أواصل ذلك.

ولقد كنت إلى جانب أية الله العظمى الشهيد محمّد باقر الصدر منذ ذلك الوقت إلى حين استشهاده سواء في الجوانب الفكريّة أو السياسيّة... وكان دوري في الجوانب

الفكريّة دور التلميذ الذي يتفاعل مع الأُستاذ فقد عملت إلى جنبه في جماعة العلماء التي تأسّست في أواخر الخمسينات، كما عملت كأحد أعضاء اللجنة التوجيهيّة في مجلّة «الأضواء» النجفيّة... وكان لي مساهمة في إرساء قواعد العمل السياسي الإسلامي في العراق، وفي الاتّصالات التي كانت تجري مع كلّ الفئات الإسلاميّة وخصوصاً الجامعيّة منها، وباعتبار موقعي من مرجعيّة الإمام الحكيم، فقد كنت حلقة الاتّصال بين هذه المرجعيّة والتحرّك الإسلامي العامّ الفكري والسياسي، وفي حوادث سنة ١٩٦٩ التي تعرّض فيها منزل والدي الحكيم للهجوم كنت إلى جانبه، وقد لازمته طيلة احتجابه في داره، حيث ساهمت في ما أُسمّيه بمعركة الصمود في وجه العدوان سياسيّاً وفكريّاً.

لقد تعرّضت للمطاردة والاعتقال عدّة مرّات، وكنت في كلّ هذه المرّات إلى جانب الإمام الشهيد السيّد الصدر في المستشفى، وتمّ الإفراج عنّي وعنه في وقت واحد. كما صدر أمر الاعتقال معاً في سنة ١٩٧٤، والتي أسفرت حملة الاعتقالات فيها عن استشهاد كوكبة من الإسلاميّين، وسجن مجموعة أُخرى، كما اعتقلت وسجنت في سنة ١٩٧٧ في انتفاضة الأربعين التي اعتقل فيها الإمام الشهيد أيضاً لعدّة ساعات، وقد قضيت في السجن مدّة سنة ونصف تقريباً، وبعد العفو العامّ خرجت من السجن، وكنت بعدها تحت المراقبة، وقد هدّدت بالاعتقال يوم استشهاد السيّد الصدر من قبل سلطات الجور. انتهى ملخّصاً.

حول أشهر كتبه

شهادات نخبة من الأعلام

كلمة الدكتور سليمان دنيا:

في هذا المقام يحلو لي أن أشير إلى مفخرة من مفاخر المسلمين، بحقّ أن نعتزّ بها ونفاخر، تلكم هي: كتب السيّد محمّد باقر الصدر، التي ما أظنّ أنّ الزمن قد جاء بمثلها في مثل الظروف التي وجدت فيها.

لقد أنتجت عبقريّته الفذّة الكتب الآتية:

فلسفتنا واقتصادنا والأسس المنطقية للاستقراء.

تلكم الكتب التي تعرض عقيدة الإسلام ونظم معاملاته عرضاً تبدو إلى جانبه الآراء التي تشمخ بها أنوف الكفرة والملاحدة من الغربيّين وأذنابهم، ممّن ينتسبون إلى الإسلام وهو منهم براء، وكأنّها فقاقيع قد طفت على سطح الماء، ثمّ لم تلبث أن اختفت وكأنّها لم توجد.

ألا فليقرأ هذه الكتب أولئكم الذين حشوا رؤوسهم بهراء من القول وزيف من الخيال ليتطهّروا بطهور الحق من رجس الباطل، وليبصروا نور الوجود بعدما ضلّوا في بيداء العدم، وليجدوا أنفسهم بعدما فقدوها.

ألا فليقرأ هذه الكتب شباب الإسلام المخدوع ببريق المدنية الكاذبة، وكيف يتيسّر لهم قراءتها، وقد شغلوا بالهزل عن الجدّ، وبالباطل عن الحقّ؛ لأنّ الهزل والباطل قد اقتحما عليهم عقولهم، وقلوبهم في غفلة عن الجدّ والحقّ.

ألا فليتعرّف على هذه الكتب المربّون ليقوّموا بها نفوساً قد اعوجّت، وقلوباً قد أظلمت، وعقولاً قد أقفرت وأجدبت، حتّى هانت الدنيا على أصحابها،

فسخروا منها؛ لأنّهم لم يحسّوا لها طعماً، ولم يعرفوا لها قدراً، فساءت أحوالهم، وانحرف به سلوكهم، وضلّت عنهم آمالهم، وأصبحوا بحالة تستوجب أن يخلقوا خلقاً جديداً.

وإنّه لا يسعني في ختام هذه الكلمة إلّا أن أشكر الأخ الفاضل السيّد مرتضى الرضوي صاحب مكتبة النجاح بالنجف الأشرف على جهوده الموفّقة المشكورة في نشر العلم، والتعريف بكنوزه الدفينة. انتهى ملخّصاً.

وقد نقل عنه السيّد مرتضى المذكور في ص ١٥٨ من الكتاب الذي حوى على هذه الكلمة ـ مع رجال الفكر في القاهرة ـ ما يلي:

إنّني استفدت كثيراً من كتاب فلسفتنا، وطالعته أكثر من مرّة، فلو أنّك تقيم معنا بمصر، وتطبع هذا الكتاب فإنّني مستعدّ للقيام بتدريسه هنا على طلّابي في الجامعة. انتهى.

وللدكتور زكيّ نجيب محمود كلمة عن الكتب الثلاثة: فلسفتنا، اقتصادنا، الأسس المنطقيّة للاستقراء وهي ما يلي:

إذا جمعت هذه الأنجم الثلاثة في سماء واحدة وجدتها إضافةً في حياتنا الفكريّة يندر أن تجد ما يعادلها قيمةً في محاولتها هدايتنا على الطريق، إنّني يا سيّدي، لأعوام خلت لم أنقطع عن إمعان الفكر في هذه القضيّة الثقافيّة الكبرى، التي أعدّها بحقّ أمّ القضايا جميعاً في حياتنا الفكريّة الراهنة، وهي: كيف السبيل إلى ثقافة نساير بها عصرنا، ونحافظ بها على كياننا الفكري في آن وأحسب أنّك بكتبك الثلاثة هذه قد أشعلت لنا سراجاً وهّاجاً لن يخبوله ضوء، ما دامت القضيّة قائمةً تصرخ من أجل حلّ يفضّ عنها إشكالها.

فمهما قدّمت لك من شكر ومن تقدير فهو دون ما يقتضيه الحقّ، فلك من الله الجزاء الأوفى، ومن الأمّة العربيّة العرفان بالجميل. إنتهى.

وللأستاذ محمّد مبارك [١] كلمة عن كتاب اقتصادنا، وهي ما يلي:

اقتصادنا: للبحّاثة الإسلامي المفكّر، السيّد محمّد باقر الصدر، وهو أوّل محاولة علميّة فريدة من نوعها، لاستخراج نظريّة الإسلام الاقتصاديّة، من أحكام الشريعة الإسلاميّة من خلال استعراضها استعراضاً تفصيليّاً بطريقة جمع فيها الأصالة الفقهيّة، ومفاهيم علم الاقتصاد ومصطلحاته، وقد جعل المؤلّف كتابه في جزءين كبيرين، أوّلهما لعرض المذهبين ـ الرأسمالي والماركسي ـ لاستخراج معالم النظريّة الإسلاميّة في الاقتصاد. انتهى.

تقريظ الأُستاذ أكرم زعيتر لـ فلسفتنا

فلسفتنا هذا كتاب قرأته في تأمّل، بل درسته دراسةً في كدح ذهن وجهد فكر.

وتساءلت حين شرعت في قراءته ـ بل دراسته ـ عن مؤلّفه من هو محمّد باقر الصدر، وعلى من يعود ضمير الجمع المتكلّم في فلسفتنا؟

وانتهيت من الكتاب إلى اليقين بأنّ السيّد محمّد باقر الصدر علّامة مدرك، غزير الاطّلاع، يجيّد الكرّ على الخصم، ويحسن الدفاع، وقد حملني كتابه على أن أصفّه في صفّ الفلاسفة الإسلاميّين، وفي أئمّة المتكلّمين، وعلى الاعتقاد أنّه بوفرة علمه، ووجاهة فكره، وقوّة حجّته ينزل المنزلة التي تجيز له أن يجعل عنوان كتابه فلسفتنا.

وقد وددت لو أستطيع الحديث عن هذا الكتاب بكلمة وجيزة عن مؤلّفه العلّامة، ولكن جهلي به حال دون ذلك.

وكتاب فلسفتنا إنّما يدرس دراسةً دقيقةً ولا يطالع مطالعةً عابرةً، ولابدّ لقارئة من

---

١. أديب كبير، وسياسي لامع، ومجاهد من مجاهدي فلسطين المعروفين، تقلّد عدّة وزارات ومناصب رفيعةً في مملكة الأُردن، له عدّة مؤلّفات تأريخيّة واجتماعيّة قيّمة في مواضيعها.

بعض إلمام بالمذاهب الفلسفيّة ومصطلحاتها، ومن أين يكون ذا صبر على الغوص في الفلسفة، وذا جلد على تفهّم دقائقها، وتتبّع الفروق بين مناحيها، ومعنى هذا أنّ هذا الكتاب يستعصي فهمه على القارئ العادي.

وبعد فإنّ كتاب فلسفتنا هو دراسة موضوعيّة في معترك الصراع الفكري القائم بين مختلف التيارات الفلسفيّة، خاصّةً بين الفلسفة الإسلاميّة والماديّة الديالكتيّة الماركسيّة.

وهذه الدراسة تتّسم بالدفاع المنطقي الحارّ عن الميتافيزيقيّة أو الإلهيّة، حتّى يمكن القول بأنّ الكتاب هو جهد فلسفي منطقي موفّق لنسف الأُسس الفلسفيّة للإلحاد.

وإنّني أعتقد أنّ الماديّة الديالكتيّة الماركسيّة لم تجبه بمناقشات فلسفيّة واعية فاهمة، ولم تقرع بردود علميّة من قبل كتّاب العرب المتفلسفين، كما جبهت، وكما قُرعت في هذا الكتاب.

أجل لم ينازلها فلسفياً منازل عربي، أو مسلم عنيد، حسب اطّلاعي مثل محمّد باقر الصدر. انتهى ملخّصاً.

وقرّظه أيضاً الدكتور أحمد عبدالستّار الجواري[1]، وجاء من جملة كلامه ما يلي:

هو ثقافة فلسفيّة دقيقة عميقة، استخدمها المتخصّص إحاطةً شاملةً، تجمع الأشباه والنظائر، وتعكس صور التناقض والتهافت والاختلاف في شتّى الآراء والأفكار، وينتفع بها غير المتخصّص من تثقيف عقله بألوان من الفلسفة، جمعت في تناسق ونظام، وعرضت عرضاً موضوعيّاً أميناً.

وأنا أشهد أنّ فلسفة الإسلام وعقيدته لم تشهد في عصرها الحاضر من أحسن جلاءها وجلّى نورها على هذا الوجه الأمين الرزين الدقيق، الذي لم تفعل فيه

---

١. هو من كبار أُدباء العراق وكتّابه، يمتاز بأخلاقه العالية ومزاياه الحميدة، وفقّه الله.

العاطفة، ولم يوفّر فيه الشعور في الانفعال الذاتي.

ولعلّ المؤلّف ثاني اثنين، أو ثالث ثلاثة في تأريخ الفكر العربي الإسلامي؛ أوّلهما: حجّة الإسلام أبوحامد الغزالي[1]، وثانيهما: ابن رشد[2]، والثالث: هو الفيلسوف المسلم المعاصر محمّد إقبال[3] على اختلاف في الطّرائق، وتفاوت في المسالك. انتهى.



١. هو محمّد بن محمّد الطوسي فيلسوف متصوّف وفقيه شافعي، له نحو مائتي مصنّف، منها: إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، ولد في طوس سنة ٤٥٠ وتوفّي فيها سنة ٥٠٥، انتهى عن الكنى والألقاب ج ٢ ص ٤٩٢ والأعلام ج ٧ ص [٢٧: ٢٢] ٢٤٧.

٢. هو محمّد بن أحمد بن محمّد بن رشد الأندلسي الفيلسوف عني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربيّة، وزاد عليه زيادات كثيرة، صنّف نحو خمسين كتاباً منها: فلسفة ابن رشد، ولد في قرطبة سنة ٥٢٠، وتوفّي بمراكش سنة ٥٩٥، انتهى ملخّصاً عن الأعلام [٥: ٣١٨] ج ٦ ص ٢١٢.

٣. هو أحد كبار شعراء الهند وفلاسفتها المعروفين، ولد في سيالكوت من مقاطعة بنجاب سنة ١٢٩٣، وكان كاتباً عبقريّاً سلس الأسلوب، وخطيباً يسحر أسماع السامعين كيف يشاء، وشاعراً تقرأ في شعره نبل الغاية وقوّة الروح، توفّي سنة ١٣٥٧، انتهى ملخّصاً عن العرفان.

في رثائه

قصيدة الشيخ محمّد حسين النجفي

لست أبكيك يا شهيد الإباءِ ... بدموع لكن بفيض دماءِ
لست أبكيك يا عنوداً على الحقّ ... على رغم محنة نكراءِ
لست أبكيك رغم عمق مصابي ... بافتقادي لمجدك الوضّاءِ
لست أبكيك أيّها القائد ... الفذّ تعاليت عن أسىً وبكاءِ
لست أبكيك صدر كلّ الفتوّ ... ات ورمز العقيدة العصماءِ
لست أبكيك أنت أغلى من ... الدمع مسالاً في غمرة الأرزاءِ
فسأبكيك في رصاص مثارٍ ... في صدور الرفاق والدخلاءِ
وسأبكيك مثلما شئت في ... قصف شديد لمعقل الأُجَراءِ
وعلى قبرك الحبيب سأهديك ... زهوراً من أرؤس العملاءِ
ليس يجدي لطم الصدور إذا رمـ ... ـنا وفاءً لسيّد الشهداءِ
ليس يوفيك غير لطم طغاة ... أمعنوا في جريمة وشقاءِ
لم تشيّع من بعد قتلك كالسبـ ... ـط جديلاً على ثرى كربلاءِ
إن أردتم بأن توفّوه حقّاً ... شايعوا اليوم ثورةالعلماءِ
يا شهيد العقيدةالعصماءِ ... لك من أُمّتي جميل الثناءِ
يا زعيم العراق قد خلت السوح ... فأرضي أصبحت بكفّ الظباءِ
يا لعظم المأساة حين افتقد ... ناك فقدنا للدين كلّ علاءِ
بعدك اغترّ معشر زعموا أنّك ... قد غبت عن لظى الهيجاءِ
وتمادى البغيّ يضحك جذلان ... بأن راح صدركم للفناءِ
أبداً لا تزال فينا تقود ... الركب لا زلت حاملاً للّواءِ

لم تـــزل روحك الفـــتيّة تـدعو نـــا لحـــمل الأمـــانة الـسـمحاءِ
لم يـزل صـوتك المـدوي يـقُضُّ الظـــلم، لمّـا تـزل ربـيع عـطاءِ
قـــلت: يـا شـعب يـا عـراق البـطولات هـلمّوا لعـزة وسـناءِ
أبـــذلوا الدم يســتكن الطـــوا غـــيت فـلا عـزّة بـغير دمـاءِ
إن أردتـم أن تـأمنوا الشـرّ يـوماً أضـــربوا رأس حـــيّة رقـطاءِ
يـــا شـــهيد العـقيدةالعـصما ء قســـماً بـــالهداة والأنـــبياءِ
قسـماً بـالدماء سـالت عـلى الأر ض لتـــحيا مـــبادئ للســـماءِ
قســـماً بـــالمختار ثـــمّ بـنيه قســـماً بـــالأئمّة الأصـــفياءِ
قسـماً بـالحسين ثـار عـلى الطـغيا ن مـــن أجـل فكـرة سـمحاءِ
قســـماً بـالقوافـل الغـرّ مـن كـــلّ شـهيد ككـوكب وضّـاءِ
بـــدموع الأيـــتام أقسـمت لابـــل بأســـى الأمّـــهات والآبـاءِ
بـدم الصـدر طـاهراً سـال فـي الأر ض لتـــرسو دعـــائم للـــصفاءِ
بـدم الصـدر قـائد الأمّـة المـظلو م أقســمت وهــو سـرّ الوفـاءِ
وبـــبنت الهـدى الزكـيّة أقسـمـ ـت بـــمثل أمّـــها الزهـــراءِ
دمك الحــرّ يـا شـهيد المـعالي صـــدر قـومي إلى طـريق الفداءِ
دمك الحـــرّ لن يـــروح هـباءً هـــو فـــخر لعـــزّة وعـــلاءِ
ســوف نسـتاف مـن دمـاك عـبيراً لحـــياة كـــريمة وهـــناءِ
ولظـــى الدم يســتحيل سـعيراً مـــحرقاً للـــطغاة والأمـــراءِ
خســـئ البـعث حـين ظـنّ بأن مـتّ ولا زلت أعـــظم الأحـــياءِ
أبـداً كـلّ قـطرة مـن دم الصـد ر ســـراج فـي الليـلة الظـلماءِ
أبـداً كـلّ قـطرة مـن دم الصـد ر ســـتفني مـــعاشر الدخـــلاءِ
أبـداً كـلّ قـطرة مـن دم المـظلو م زيت لثـــورة الأتـــقياءِ
فـدم الصـدر سـوف يـبقى عـلى الدهـــر رصـيداً لثـورة وبـناءِ

قـد خسـرناك يـا شهيد المعالي ... بـطلاً شـامخاً بسوح الفـداءِ
وفـقدناك للـبلاد زعـيماً ... وحّـدت فـيه فـرقة الأجـزاءِ
وأضـعناك نـبعاً إلى الديـن ثـرّاً ... أبـداً ليس فـيه غـير النـقاءِ
أفـأنعاك للـعلوم وقـد ... أبـحرت فـيها فكـنت ريّ الظـماءِ
كـم كـتاب خـلّفته كـان نـجماً ... لامـعاً فـي غـياهب الظـلماءِ
وفـنون كـتبت فـيها وحـلّقت وفـي ... الكـلّ كـنت جـمّ العـطاءِ
يـا ربـيع القـلوب يـا أمـل الشعـ ... ـب أضـعناك فـي اشـتداد البـلاءِ
بـطل الديـن حـاملاً خـير روح ... لم تـدنّس بشـهوة وريـاءِ
خـير روح لم تـعرف الحـقد يـوماً ... لم تـحمل بـضغنة وعـداءِ
وحـفظت الشـباب مـن كـلّ فكـر ... أجـنبيّ بـه ضـروب الشـقاءِ
صـنت للـدين والعـقيدة مـجداً ... أبـديّاً بـطهر خـير دواءِ
وهـزمت المـعسكرين بـفكر ... مشـرق يـنتمي لوحـي السـماءِ
قد أبدت الحـصون حـصناً فحصناً ... لطـغاة المـبادئ الحـمقاءِ
لم تـدع مـنهم بـما نـعتوه الفكـ ... ـر إلّا جـعلته كـالغثاءِ
بـطل العـلم قـد كـبا ولواء العـصـ ... ـر قـد طـاح يـا لعـظم العـزاءِ
غـير أنّـا وإن تـعاظم رزء ... مـوجع القـلب مـقلق الأحشـاءِ
ليس حـقّاً بأن نـقيم عـزاء ... حـقّه عـقد مـحفل للـهناءِ
حيث إنّ النـصر الكـريم عـلى كـفّيـ ... ـه قـد بـات واضـح الأرجـاءِ
بورك الدم كم له فـي اللـيالي السـو ... د للشـعب مـن يـد بـيضاءِ
يـا دم الصـدر يـا ضـياء قـلوب ... أنت فـجر مـضمّخ الأضـواءِ
يـا دم الصـدر حـرقة سـوف تـبقى ... فـي قـلوب الهـداة والأولـياءِ
يـا دم الصـدر حـرقة تـبعـ ... ـث الأجـيال للـثأر والغـد الوضّـاءِ
بـورك الفـاتح العـظيم لديـن اللـ ... ـه والشـعب فـي دم وفـداءِ

قصيدة مصطفى الغمّاري

غالتك يا كبر الحسين عصابة «البعث» الهجينِ
يا باقر الفكر الأصيل وحامل الألم الحزينِ
سافرت فيك مواجعاً ثكلى وجمراً من أنينِ
وصرخت في صمت الحضور، صرخت بالألم الدفينِ

❊ ❊ ❊

غالوك باسم «البعث» يخطر في المرايا الجاهليّة
وأتوا على وادي السراب ململمين خطا أميّة
يتخايلون كأنّهم خيل الفتوحات الأبيّة
يتواثبون وإنّهم في الدرب أشباح غبيّة

❊ ❊ ❊

غالوك، يا رمز الطهارة من ينابيع الرسولِ
يا ابن الحسين، وأن تخثر حاقد، يا ابن البتولِ
هيهات أن ترتدّ شمسك يا «محمّد» للأفولِ
رغم انتخاء «البعث» في زمن العشائر والطبولِ

❊ ❊ ❊

غالوك فالتهبي جياد الله مدّي ألف ثارِ
كوني الحضور الصعب يرتاد المدى أسياف نارِ
قدر بأغلى ما تضمّ قلوبنا قدر انتصارِ
حداك مطلعه ووعدك يا جياد رؤى انتظارِ

❊ ❊ ❊

لولا الشهادة يا ابنها لصرخت ملء القلب آهْ
لولا الشهادة يا سليل إبائها واكربلاهْ
زرعوا دماءك في الدروب وإنّهم زرعوا الحياهْ
لو يعلمون وفي دمائك ثورة تحيي الفلاهْ

❊ ❊ ❊

ما زال حرفك في شفاه الجيل ريّان العبيرْ
ما زلت تورق في دمي يا أيّها الفكر الكبيرْ
ما زلت في أبعادك الخضراء أرتقب النفيرْ
يهب المعاناة الولود ويصلب «الزبد» الحقيرْ

❊ ❊ ❊

الريح تلهث في الدروب الخضر تمعن في الديارْ
والعاشقون النار تزهر في مراياها اخضرارْ
كانوا الحضور الصعب يشرق في المسافة «ذا الفقارْ»
كانوا الجهاد فيا رماد سدى ويا «بعث» البوارْ

❊ ❊ ❊

لله يا بنت البتول هواك يا بنت الهدى
لله أيّام العفاف البكر ما ضاعت سدى
لله نجواك الخصيبة حين يصهرها الفدى
في مثل عمقك يا سماء ومثل طهرك يا ندى

❊ ❊ ❊

لا القيد لا السكّين لا الطاغي يروم لها جبينا
رغم السُّعار يمدّ في شقّ الدجى قيحاً وطينا

رغم ارتكاض الريح تنشر في الحمى صداً أفينا
أن يقتلوك فعبر ذاكرة الصغار ستزهرينا

❋ ❋ ❋

رؤياك من مقل الضحى يا أيّها النفس الزكيّةْ
وخطاك ترسمك الجراح تضمّها مقلاً سخيّةْ
للجيل يشرق في المدى ويعيد رسم القادسيّةْ
لا «البعث» يغزل حلمه شوقاً بعرس الجاهليّةْ
أبداً ولا ريح التآمر من بقايا «المرجئيّةْ»
للنور أنت وللرماد رموز «نجد» أو «اميّةْ»

❋ ❋ ❋

عيناك في كبر الجراح وفي جلال الأنبياءِ
ترنو بأهداب الصغار إلى غد ثمل مضاءِ
زاهٍ بأفراس الفتوح يرودها جيل الفداءِ
جيل العقيدة هازيء بـ«البعث» يركض للوراءِ

❋ ❋ ❋

يا آية الله المضيئة رغم أسراب الظلامْ
ستظلّ تزهر في الحضور دماً وتهتف يا إمامْ
وتثور في بغداد قافلة «الحسين» على الطغامْ
كم ساوموا باسم العروبة باسمها قتلوا السلامْ

❋ ❋ ❋

قتلوك إذ كانوا الغياب وكنت في دمنا الحضورا
وتوهمّوا أن اغتيالك يجهض الألم الكبيرا

ويـــرمد الرؤيـــا ضـــباب يـــنجب العـــقم المـثيرا
وتـــوهّموا لكـــنّهم حـــفروا لـ«يـــعثهم» القـــبورا

❋ ❋ ❋

حسب العـروبة مـا تسـام بـه الدروب ومـا تـلاقي
للـنيل بـاقية الهـوى والكأس تـزجـى فـي العـراقِ
واللاهـــثون بكـــلّ مـــا يـهب الشـعار مـن شقاقِ
نـــفقت بأوطـــان العـــروبة بـاسمها سـوق النـفاقِ

❋ ❋ ❋

يـــا أمّـــة لم يـــروها الأيّـــام إلّا فـــي البـــلاء:
لو كـنت بـيتاً فـي القـصيد لكـنت بـيتاً فـي الرثـاء:
لو كنت حرفاً في الهجاء لكـنت «هـاءً رغـم «فـاء»
أودى بـــنوك بـــما بـــنت «بـــدر» ويـا عـزّ البـناء:

❋ ❋ ❋

بـــيعت مســـافة حـــبّنا القـدسي يـا بـنت الرشـيدِ
واللاهـــثون يـــعاقرون دم الشـــهادة والشـــهيدِ
والشيخ «خزعل» قصّة تروى عـلى شـفة الشـريدِ
وقصيدة في الزيف تبحر بـاسم مـن ذبـحوا القـصيدِ

❋ ❋ ❋

الشيخ «خزعل» في عيون «البعث» رمـز الفـاتحين
رمـــز العـــروبة يـا «أبـا سـفيان» رمـز النـاكثين
ســـتظلّ أهـــواز الجـــراح لآيـــة الفـــلق المـــبين
رغـــم اصـطخاب جـاهلي نـزّ مـن صـدأ السـنين

❋ ❋ ❋

«سمراء» باسم الانتماء المرّ والنسب الصراحْ
«يمن» بلا يمن و«نجد» للثراء وللسفاحْ
باسم الشعار العفلقي تجوبنا سود الرياحْ
وتجوبنا فحضورنا في القهر يكبر في الجراحْ

❊ ❊ ❊

كنت الغناء لها الخصيب وكان من دمي القصيدْ
وزرعتها في القلب رائعة من الحلم النضيدْ
وسرقت من أهدابها طير المناجاة السعيدْ
وهصرت من جناتها غصن الشباب كما أُريدْ

❊ ❊ ❊

يا مقلة غبامت ليسكر من مدامعها الضبابْ
غنيّتها كبداً يلوب على شواطئها اغترابْ
وحضرت في آلامها واللاهثون رؤى كذابْ
حلمي على أعتابها ورد وقافيتي شرابْ

❊ ❊ ❊

يا أُمّة يهوي المساء بها ويرتحل النهارُ
أحزابها للكفر حزب للمروءات احتضارُ
نهب مواسمها لمن كفروا وقرّ لهم قرارُ
والقدس في مقل الرؤى يقتات عفّتها الصغارُ

❊ ❊ ❊

سيّان وجه «البعث» و«الدولار» في زمن النفاقْ
الصمت يكبر في الخليج، الرعب يغتال العراقْ

وتــثور خـيل الفـاتحين، النـار تـمطر فـي العـراقْ
والحـــــرف يــورق فــيِ لهــاة الجـيل نــهتف:
يا إمام إلى العراقْ إلى العراقْ

قصيدة رعد هادي جبّارة

نشرت في مجلّة الجهاد التي تصدر في طهران، وذلك في العدد الرابع عشر من سنتها الثانية ص ٢٧:

سـيوف البـغي تـفنيها الدمـاءُ   ونـــار الكـفر يــخفيها الفــداءُ
ويـــحمل رايــة الأحــرار ليث   أبـــيّ الضــيم يـعلوه النــقاءُ
هـو الصـدر العـظيم يسـلّ سيفاً   ليـجلو اللـيل والدنـيا تـضاءُ
ويـــقطع رأس جـزّار رهـيب   تـــجبّر ليس يـــردعه حــياءُ
هـــو الإعــصار ليس له حـدود   إذا مـــا هبّ فــي يـده اللــواءُ
لواء الظــالمين إلى انــدحار   وصـــوت الثـائرين له العــلاءُ
ولا يـخشى المـنايا الحـمر يوماً   أيـــخشاها وهـــذي كــربلاءُ
غــداة دم الحســين أبـيح فـيها   غــدت تـبكي السـما والأنـبياءُ
أبـى أن يسـتكين لحكـم قـوم   فـــإنّ الذلّ فــي الدنـيا شـقاءُ
دماء «الصدر» تـصرخ كـلّ حـين   ألا يـــا شـعب، يكـفينا البكـاءُ
وهــيّا للكــفاح وللـــمنايا   فـــإنّ النــصر مــوضعه الفـداءُ
وليس المــوت إلّا خـير فـضل   يــنال بــه العــلا وهــو السناءُ
فــتعساً للــطغاة وكـيف ظـنّوا   بـــأنّ الصـــدر ليس له بــقاءُ
وظــنّوا أنّـهم يـقضون يـوماً   على «بـنت الهـدى» وهـو الغـباءُ
ألا والله إنّ الصــــدر بـــاق   وأرجـــاس الورى لهـم الفـناءُ

يـــنير الدرب للأجـيال دومـــاً ... وكــــلّ عـــطائه الثـرّ الإبـاءُ
أمــا عــلموا بــأنّ الكـفر ليـل ... وعـــند الصـبح يـنبلج الضـياءُ
أمــا عــلموا بــأنّ كـماة شـعبي ... ليــــوث حـين يشـتدّ البـلاءُ
سيمضي الشـعب رغـم المـوت حتّى ... يـــزال بـــقوّة هـــذا البـلاءُ
ويــــأخذ ثأر قـــائده ويـعلو ... عـــلى الآفـــاق لله اللـــواءُ
وللإسـلام كــان النـصر دومـاً ... وليس لشـــعلة الحــقّ انـطفاءُ



رسالتاه وبرقيّته ﷺ إلى الشعب الإيراني، وطلّابه المهاجرين إلى إيران

الرسالة الأولى: وهي موجّهة إلى الشعب الإيراني قبل الانتصار

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على محمّد خير خلقه، وعلى الهداة الميامين من آله الطاهرين.

وبعد، فإنّنا في النجف الأشرف إذ نعيش مع الشعب الإيراني بكلّ قلوبنا، ونشاركه آلامه وآماله، نؤمن أنّ تأريخ هذا الشعب العظيم أثبت أنّه كان ولا يزال شعباً أبيّاً شجاعاً، وقادراً على التضحية والصمود، من أجل القضيّة التي يؤمن بها، ويجد فيها هدفه وكرامته.

ونحن إذا لاحظنا مسيرة هذا الشعب النضاليّة خلال الفترة المنظورة من هذا القرن وجدنا أنّه خاض فيها ـ بكلّ بطولة وإيمان ـ عدداً من المعارك الباسلة في سبيل الحفاظ على كرامته، وتحقيق ما آمن به من طموحات خيّرة وأهداف عالية؛ فمن قضيّة «التبغ»[1] التي استطاع فيها هذا الشعب العظيم أن يكسر الطوق الذي أراد حكّامه ومخدوموهم المستعمرون أن يطوّقوا به وجوده، إلى قضايا «المشروطة» التي قاوم فيها الشرفاء الأحرار من أبناء هذا البلد الكريم ألوان التحكّم والاستبداد، وفي وقت كان العالم الإسلامي فيه غارقاً في أشكال مؤلمة من هذا

١. إشارة إلى قضيّة تحريم تدخين التبغ بفتوى المرجع الديني الكبير في عصره آية الله العظمى ميرزا محمّد حسن المجدّد الشيرازي ﷺ. راجع: أعيان الشيعة ٥: ٣٠٤ ـ ٣١٠؛ نقباء البشر ١: ٤٣٦ ـ ٤٤١، الرقم ٨٦٥؛ كتاب تحفة الرازي إلى المجدّد الشيرازي للشيخ آقا بزرك الطهراني.

الاستبداد، إلى الممارسات الفعليّة لهذا الشعب المكافح التي قدّم من خلالها حجماً عظيماً من التضحيات ولا يزال يقدّم، وهو يزداد يوماً بعد يوم إيماناً وصموداً وتأكيداً على روحه النضاليّة.

بين هذه الملاحم النضاليّة يبدو عمق الشخصيّة المذهبيّة للفرد الايراني المسلم، والدور العظيم الذي يؤدّيه مفهومه الديني، وتمسّكه العميق بعقيدته ورسالته ومرجعيّته، في مجالات هذا النضال الشريف، وفي كلّ هذه الملاحم نلاحظ أنّ الروح الدينيّة كانت هي المعين الذي لا ينضب للحركة، وأنّ الشعارات الإسلاميّة العظيمة كانت هي الشعارات المطروحة على الساحة، وأنّ المرجعيّة الرشيدة كانت هي الزعامة التي تلتفّ حولها جماهير الشعب المؤمنة، وتستلهمها في صمودها وجهادها، ولا توجد هويّة لشعب أصدق انطباقاً عليه وتجسيداً لمضمونه من الهويّة التي يتجلّى بها في ساحة الجهاد والبذل والعطاء، ولم يعبّر شعب عن حريّته النضاليّة تعبيراً أوضح وأجلى بما عبّر به الشعب الايراني المسلم عن هويّته الإسلاميّة، في كلّ ما خاضه من معارك شريفة كانت التعبئة لكلّ واحدٍ منها تتّسم باسم الإسلام، وكانت المشاعر والقلوب تتجمّع على أساسه، وكانت القوى الروحيّة والمرجعيّة الصالحة هي التي تتقدّم المسيرة في نضاله الشريف.

ولئن كان الشعب الايراني قد عبّر عن هويّته النضاليّة الأصيلة باستمرار فإنّ نهضته الحيّة المعاصرة لهي التعبير الأروع عن تلك الهويّة النضاليّة المؤمنة التي عبّر بها الشعب الايراني عن نفسه ولا يزال، وهي من أعظم ذخائر الإسلام وطاقاته التي يملكها في التأريخ الإسلامي الحديث.

وتشير هذه الهويّة النضاليّة في خلال التجارب الجهاديّة التي مارسها ولا يزال يمارسها شعب إيران المسلم إلى عدد من الحقائق تبدو واضحةً كلّ الوضوح، ومن الضروري أن تشكّل إطاراً أساسيّاً ثابتاً لرؤية هذا الشعب لطريقه.

ومن تلك الحقائق الثابتة أنّ الشعب الايراني كان يحقّق نجاحه في نضاله بقدر

التحامه مع قيادته الروحيّة ومرجعيّته الدينيّة الرشيدة التحاماً كاملاً. واستطاع هكذا أن يحوّل الشعارات التي نادى بها إلى حقيقة. وما من مرّة غفل فيها هذا الشعب المجاهد من هذه الحقيقة أو استغفل بشأنها إلّا وواجه الضياع والتآمر.

فالمرجعيّة الدينيّة الرشيدة، والقيادة الروحيّة هي الحصن الواقي من كثير من ألوان الضياع والانحراف.

ومن تلك الحقائق أنّ القيادات الروحيّة كانت تقوم بدورها هذا وتنجزه إنجازاً جيّداً بقدر ما يسودها من التلاحم والتعاضد والوقوف جنباً إلى جنب.

وما من مرّة استطاع الشعب الإيراني المسلم أن يحقّق نصراً إلّا وكان للتلاحم والتعاضد المذكور دور كبير في إمكانيّة تحقيق هذا النصر.

ومن تلك الحقائق أيضاً أنّ المبارزة الشريفة لكي تضمن وصولها إلى هدفها الإسلامي لابدّ أن تتوفّر في ظلّها نظرة تفصيليّة واعية وشاملة لرسالة الإسلام ومفاهيمها وتشريعاتها في مختلف مجالات الحياة الاجتماعيّة.

وبقدر ما تتوفّر من أساس فكري ورصيد عقائدي للمبارزة ـ هذه النظرة التفصيليّة التي تميّز المعالم الفكريّة للهويّة النضاليّة ـ تكتسب المبارزة القدرة أكثر فأكثر على ممارسة التغيير وتحقيق أهدافها الإسلاميّة، وحماية شخصيّتها العقائديّة من تسلّل الآخرين.

وهكذا نرى أنّ المبارزة الشريفة التي تقود الشعب الإيراني المسلم في كفاحه مدعوّة ـ أكثر من أيّ يوم مضى ـ بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة الدقيقة من مسيرتها، واكتسبت ولاء الأمّة ـ كلّ الأمّة ـ على الساحة؛ أقول: إنّها مدعوّة اليوم ـ أكثر من أيّ يوم مضى ـ إلى أن تنظر بعين إلى الحاجات الفعليّة لمسيرتها، وتنظر بعين أخرى إلى حاجاتها المستقبليّة، وذلك بأن تحدّد معالم النظرة التفصيليّة من الآن في ما يتّصل بإيديولوجيّتها ورسالتها الإسلاميّة الشريفة.

وكما أنّها مرتبطة في النظرة الأُولى إلى الحاجات الفعليّة للمسيرة وتقييمها وتحديد خطواتها بالمرجعيّة الدينيّة المجاهدة. كذلك لابدّ أن ترتبط بالنظرة الثانية ـ وهي تحديد معالم أيديولوجيّة إسلاميّة كاملة ـ بالمرجعيّة الدينيّة الرشيدة التي قادت كفاح هذا الشعب منذ سنين؛ لأنّ المرجعيّة هي المصدر الشرعي والطبيعي للتعرّف على الإسلام وأحكامه ومفاهيمه.

كما نرى أيضاً أنّ المبارزة الشريفة قد حقّقت مكسباً كبيراً حينما أفهمت العالم كلّه بخطإ ما كان يتصوّره البعض من أنّ الإسلام لا يبرز للساحة إلّا كمبارز للماركسيّة، وليس من همّه بعد ذلك أن يبارز الطبقة الأُخرى.

فإنّ هذا التصوّر كان يستغلّه البعض فيسبيل إسباغ طابع التخلّف والتبعيّة على المبارزة الإسلاميّة، وقد تمزّق هذا التصوّر من خلال المبارزة الشريفة التي برزت على الساحة الإيرانيّة باسم الإسلام، وبقوّة الإسلام، وبقيادة المرجعيّة الدينيّة الرشيدة؛ لتقاوم كياناً أبعد ما يكون عن الماركسيّة والماركسيّين.

وقد أثبت ذلك أنّ الإسلام له رسالته وأصالته في المبارزة، وأنّ الإسلام الذي يقاوم الماركسيّة هو نفسه الإسلام الذي يقاوم كلّ ألوان الظلم والطغيان، وأنّ على المبارزة الشريفة ـ وقد آمن الشعب الإيراني بقيادته الإسلاميّة ـ أن تكون على مستوى هذه المرحلة، وأن تدرك بعمق ما يواجهها من عداء عظيم لتحقيق أهدافه الكبيرة في عمليّة التغيير؛ لأنّ بناء إيران إسلاميّاً ليس مجرّد تغيير في الشكل والأسماء، بل هو ـ إضافة إلى ذلك ـ تطهير للمحتوى من كلّ الجذور الفاسدة، وملء المضمون ملءً جديداً حيّاً، تتدفّق فيه القيم القرآنيّة والإسلاميّة في مختلف مجالات الحياة.

ولا شكّ في أنّ البطولة الفريدة التي تحقّقت بها المبارزة في عمليّة مكافحة الواقع الفاسد وهدمه تؤكّد كفاءتها لإدراك هذه المسؤوليّات وعمقها الروحي والاجتماعي والتأريخي.

ونسأل المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرعى التضحيات العظيمة التي يقدّمها

الشعب الإيراني المجاهد بقيادة علمائه، ويجعل من الدماء الطاهرة التي أراقـها السفّاكون على الساحة شموعاً تضيء بالنور لتخرج إيران من ظلمات الاستبداد والانحراف إلى تطبيق الإسلام الشامل في كلّ مجالات الحياة.

وليست القافلة الأخيرة من الضحايا في مدينة «مشهد» المقدّسة إلّا حلقة جديدة من مجازر الطغاة.

تغمّد الله الشهداء بعظيم رحمته، وألحقهم بشهدائنا السابقين، والصدّيقين والصالحين، ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً﴾[١]، ﴿وَالعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ﴾[٢]، ﴿وَسَيَعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[٣].

محمّد باقر الصدر

الرسالة الثانية:

وهي موجّهة بُعيد الانتصار إلى طلّابه الذين كانوا قد هاجروا إلى إيران، وإليك نصّ الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم

أولادي وأعزّائي! حفظكم الله بعينه التي لا تنام.

السلام عليكم جميعاً ورحمة الله وبركاته.

أكتب إليكم في هذه اللحظات العظيمة التي حقّق فيها الإسلام نصراً حاسماً وفريداً في تأريخنا الحديث، على يد الشعب الإيراني المسلم، وبقيادة الإمام الخميني ـ دام ظلّه ـ، وتعاضد سائر القوى الخيّرة والعلماء الأعلام، وإذا بالحلم يصبح حقيقةً، وإذا بالأمل يتحقّق، وإذا بالأفكار تنطلق بركاناً على الظالمين،

---

١. النساء (٤): ٦٩.

٢. القصص (٢٨): ٨٣.

٣. الشعراء (٢٦): ٢٢٧.

لتتجسّد وتقيم دولة الحقّ والإسلام على الأرض، وإذا بالإسلام الذي حبسه الظالمون والمستعمرون في قمقم يكسر القمقم بسواعد إيرانيّة فتيّة، لا ترهب الموت، ولم يثن عزيمتها إرهاب الطواغيت، ثمّ ينطلق من القمقم ليزلزل الأرض تحت أقدام كلّ الظالمين، ويبعث في نفوس المسلمين جميعاً ـ في مشارق الأرض ومغاربها ـ روحاً جديدةً وأملاً جديداً.

إنّ الواجب على كلّ واحد منكم، وعلى كلّ فرد قدّر له حظّه السعيد أن يعيش في كنف هذه التجربة الإسلاميّة الرائدة أن يبذل كلّ طاقاته وكلّ ما لديه من إمكانات وخدمات، ويضع ذلك كلّه في خدمة التجربة، فلا توقّف في البذل والبناء يُشاد لأجل الإسلام، ولا حدّ للبذل والقضيّة ترتفع رايتها بقوّة الإسلام، وعمليّة البناء الجديد بحاجة إلى طاقات كلّ فرد مهما كانت ضئيلةً.

ويجب أن يكون واضحاً أيضاً أنّ مرجعيّة السيّد الخميني ـ التي جسّدت آمال الإسلام في إيران ـ لابدّ من الالتفاف حولها، والإخلاص لها وحماية مصالحها، والذوبان في وجودها العظيم بقدر ذوبانها في هدفها العظيم.

وليست المرجعيّة الصالحة شخصاً وإنّما هي هدف وطريق، وكلّ مرجعيّة حقّقت ذلك الهدف والطريق فهي المرجعيّة الصالحة التي يجب العمل لها بكلّ إخلاص.

والميدان المرجعي أو الساحة المرجعيّة في إيران يجب الابتعاد بها عن أيّ شيء من شأنه أن يضعف أو لا يساهم في الحفاظ على المرجعيّة الرشيدة القائدة.

أخذ الله بيدكم، وأقرّ عيونكم بفرحة النصر، وحفظكم سنداً وذخراً، والسلام عليكم يا أحبّتي ورحمة الله وبركاته.

التوقيع: أبوكم

البرقيّة:

وهي مرسلة إلى الشعب العربي في إيران، حينما بدت بدايات المخالفة من قبل بعضهم للوضع الإسلامي القائم بقيادة السيّد الإمام؛ وإليك نصّ البرقيّة:

بسم الله الرحمن الرحيم

شعبنا العربي المسلم العزيز في إيران المجاهد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وبعد: فإنّي أُخاطبكم باسم الإسلام، وأدعوكم ـ وسائر شعوب إيران العظيمة ـ لتجسيد روح الأُخوّة الإسلاميّة، التي ضربت في التأريخ مثلاً أعلى في التعاضد والتلاحم في مجتمع المتّقين، الذي لا فضل فيه لمسلم على مسلم إلّا بالتقوى، مجتمع عمّار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، مجتمع القلوب العامرة بالفكر والإيمان، المتجاوزة كلّ حدود الأرض المفتوحة باسم السماء ورسالة السماء.

فلتتوحّد القلوب، ولتنصهر كلّ الطاقات في إطار القيادة الحكيمة للإمام الخميني، وفي طريق بناء المجتمع الإسلامي العظيم الذي يحمل مشعل القرآن الكريم إلى العالم كلّه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمّد باقر الصدر

النجف الأشرف ١٦ / رجب

نداءآته الثلاثة إلى الشعب العراقي

المضطهد بصوته الشريف ضمن الكاسيت، والتي أصدرها في أواخر حياته المباركة، وقد أُذيعت بصوته الشريف من إذاعة إيران بعد استشهاده؛ وإليك نصّها:

النداء الأوّل:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله الطاهرين وصحبه الميامين.

أيّها الشعب العراقي المسلم!

إنّي أخاطبك ـ أيّها الشعب الحرّ الأبيّ الكريم ـ وأنا أشدُّ إيماناً بك، وبروحك الكبيرة، وبتأريخك المجيد، وأكثرهم اعتزازاً بما طفحت به قلوب أبنائك البررة من مشاعر الحبّ والولاء والبنوّة للمرجعيّة؛ إذ تدفّقوا إلى أبيهم يؤكّدون ولاءهم للإسلام، بنفوس ملؤها الغيرة والحميّة والتقوى، يطلبون منّي أن أظلّ إلى جانبهم أواسيهم، وأعيش آلامهم عن قرب؛ لأنّها آلامي.

وإنّي أودّ أن أؤكّد لك ـ يا شعب آبائي وأجدادي ـ أنّي معك وفي أعماقك، ولن أتخلّى عنك في محنتك، وسأبذل آخر قطرة من دمي في سبيل الله من أجلك!

وأودّ أن أؤكّد للمسؤولين أنّ هذا الكبت الذي فُرض بقوّة الحديد والنار على الشعب العراقي، فحرمه من أبسط حقوقه وحرّيّاته في ممارسة شعائره الدينيّة، لا يمكن أن يستمرّ، ولا يمكن أن يعالج دائماً بالقوّة والقمع.

إنّ القوّة لو كانت علاجاً حاسماً دائماً لبقي الفراعنة والجبابرة.

أسقطوا الأذان من الإذاعة فصبرنا!

وأسقطوا صلاة الجمعة من الإذاعة فصبرنا!

وطوّقوا شعائر الإمام الحسين عليه السلام، ومنعوا القسم الأعظم منها فصبرنا!

وحاصروا المساجد وملأوها أمناً وعيوناً فصبرنا!

وقاموا بحملات الإكراه على الانتماء إلى حزبهم فصبرنا!

وقالوا: إنّها فترة انتقال يجب تجنيد الشعب فيها فصبرنا! ولكن إلى متى؟ إلى متى تستمرّ فترة الانتقال!

إذا كانت فترة عشر سنين من الحكم لا تكفي لإيجاد الجوّ المناسب لكي يختار الشعب العراقي، فأيّ فترة تنتظرون لذلك؟!

وإذا كانت فترة عشر سنين من الحكم المطلق لم تتح لكم ـ أيّها المسؤولون ـ إقناع الناس بالانتماء إلى حزبكم إلّا عن طريق الإكراه، فماذا تأملون!

وإذا كانت السلطة تريد أن تعرف الوجه الحقيقي للشعب العراقي فلتجمّد أجهزتها

القمعيّة أسبوعاً واحداً فقط، ولتسمح للناس بأن يعبروا خلال أُسبوع عمّا يريدون.

إنّي أُطالب باسمكم جميعاً؛ أُطالب بإطلاق حرّيّة الشعائر الدينيّة، وشعائر الإمام أبي عبدالله عليه السلام.

وأُطالب باسمكم جميعاً بإعادة الأذان وصلاة الجمعة، والشعائر الإسلاميّة إلى الإذاعة.

وأُطالب باسمكم جميعاً بإيقاف حملات الإكراه على الانتساب إلى حزب البعث على كلّ المستويات.

وأُطالب باسم كرامة الإنسان بالإفراج عن المعتقلين بصورة تعسّفيّة، وإيقاف الاعتقال الكيفي الذي يجري بصورة منفصلة عن القضاء.

وأخيراً أُطالب باسمكم جميعاً، وباسم القيم التي تمثّلونها بفسح المجال للشعب؛ ليمارس بصورة حقيقيّة حقّه في تسيير شؤون البلاد، وذلك عن طريق إجراء انتخاب حرّ ينبثق عنه مجلس يمثّل الأُمّة تمثيلاً صادقاً.

وإنّني أعلم أنّ هذه الطلبات سوف تكلّفني غالياً، وقد تكلّفني حياتي، ولكن هذه الطلبات ليست طلب فرد ليموت بموته، وإنّما هذه الطلبات هي مشاعر أُمّة وإرادة أُمّة، ولا يمكن أن تموت أُمّة تعيش في أعماقها روح محمّد وعليّ، والصفوة من آل محمّد وأصحابه، وإذا لم تستجب السلطة لهذه الطلبات، فإنّي أدعو أبناء الشعب العراقي الأبيّ إلى المواصلة في حمل هذه الطلبات، مهما كلّفه ذلك من ثمن؛ لأنّ هذا دفاع عن النفس، وعن الكرامة، وعن الإسلام، رسالة الله الخالدة، والله وليّ التوفيق.

٢٠ / رجب / ١٣٩٩

محمّد باقر الصدر

النداء الثاني:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد وعلى آله الطاهرين، وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقي العزيز!

يا جماهير العراق المسلمة التي غضبت لدينها وكرامتها، ولحرّيّتها وعزّتها، ولكلّ ما آمنت به من قيم ومثل! أيّها الشعب العظيم!

إنّك تتعرّض اليوم لمحنة هائلة على يد السفّاكين والجزّارين، الذين هالهم غضب الشعب وتململ الجماهير، بعد أن قيّدوها بسلاسل من الحديد ومن الرعب والإرهاب، وخُيّل للسفّاكين أنّهم بذلك انتزعوا من الجماهير شعورها بالعزّة والكرامة، وجرّدوها من صلتها بعقيدتها وبدينها وبمحمدها العظيم، لكي يحوّلوا هذه الملايين الشجاعة المؤمنة من أبناء العراق الأبيّ إلى دمى وآلات يحرّكونها كيف يشاؤون، ويزقّونها ولاء «عفلق» وأمثاله من عملاء التبشير والاستعمار، بدلاً عن ولاء محمّد وعليّ صلوات الله عليهما.

ولكن الجماهير دائماً هي أقوى من الطغاة مهما تفرعن الطغاة، وقد تصبر ولكنّها لاتستسلم، وهكذا فوجئ الطغاة بأنّ الشعب لا يزال ينبض بالحياة، ولا تزال لديه القدرة على أن يقول كلمته.

وهذا هو الذي جعلهم يبادرون إلى القيام بهذه الحملات الهائلة على عشرات الآلاف من المؤمنين والشرفاء من أبناء هذا البلد الكريم، حملات السجن والاعتقال والتعذيب والإعدام، وفي طليعتهم العلماء المجاهدون، الذين يبلغني أنّهم يستشهدون الواحد بعد الآخر تحت سياط التعذيب!

وإنّي في الوقت الذي أدرك فيه عمق هذه المحنة التي تمرّ بك يا شعبي! يا شعب آبائي وأجدادي، أؤمن بأنّ استشهاد هؤلاء العلماء، واستشهاد خيرة شبابك الطاهرين، وأبنائك الغيارى تحت سياط العفالقة لن يزيدك إلّا صموداً وتصميماً على المضيّ في هذا الطريق، حتّى الشهادة أو النصر!

وأنا أعلن لكم ـ يا أبنائي ـ أنّي صممت على الشهادة.

ولعلّ هذا آخر ما تسمعونه منّي، وأنّ أبواب الجنّة قد فتحت لتستقبل قوافل الشهداء؛ حتّى يكتب الله لكم النصر!

وما ألذّ الشهادة التي قال عنها رسول الله ﷺ: «إنّها حسنة لاتضرّ معها سيّئة،

والشهيد بشهادته يغسل كلّ ذنوبه مهما بلغت»[1].

فعلى كلّ مسلم في العراق، وعلى كلّ عراقي في خارج العراق أن يعمل كلّ ما بوسعه ـ ولو كلّفه ذلك حياته ـ من أجل إدامة الجهاد والنضال لإزالة هذا الكابوس عن صدر العراق الحبيب، وتحريره من العصابة اللاإنسانيّة، وتوفير حكم صالح فذّ شريف، يقوم على أساس الإسلام. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٠ شعبان

محمّد باقر الصدر

النداء الثالث:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين. والصلاة والسلام على محمّد وعلى آله وصحبه الميامين.

يا شعبي العراقي العزيز!

أيّها الشعب العظيم!

إنّي أُخاطبك في هذه اللحظة العصيبة من محنتك وحياتك الجهاديّة، بكلّ فئاتك وطوائفك، بعربك وأكرادك، بسنّتك وشيعتك؛ لأنّ المحنة لا تخصّ مذهباً دون آخر، ولا قوميّةً دون أُخرى، وكما أنّ المحنة هي محنة كلّ الشعب العراقي، فيجب أن يكون الموقف الجهادي، والردّ البطولي، والتلاحم النضالي، هو واقع كلّ الشعب العراقي. وإنّي منذ عرفت وجودي ومسؤوليّتي في هذه الأمّة بذلت هذا الوجود من أجل الشيعي والسنّي على السواء، ومن أجل العربي والكردي على السواء، حيث دافعت عن الرسالة التي توحّدهم جميعاً، وعن العقيدة التي تضمّهم جميعاً، ولم أعِش بفكري وكياني إلّا للإسلام طريق الخلاص وهدف الجميع.

فأنا معك يا أخي وولدي السنّي! بقدر ما أنا معك يا أخي وولدي الشيعي! أنا

---

١. لم نعثر عليه في المصادر الروائيّة ولا في غيرها بالرغم من الفحص الأكيد.

معكما بقدر ما أنتما مع الإسلام؛ وبقدر ما تحملون من هذا المشعل العظيم لإنقاذ العراق من كابوس التسلّط والذلّ والاضطهاد.

إنّ الطاغوت وأولياءه يحاولون أن يوحوا إلى أبنائنا البررة من السنّة أنّ المسألة مسألة شيعة وسنّة؛ ليفصلوا السنّة عن معركتهم الحقيقيّة ضدّ العدو المشترك.

وأُريد أن أقولها لكم يا أبناء عليّ والحسين، وأبناء أبي بكر وعمر: إنّ المعركة ليست بين الشيعة والحكم السنّي.

إنّ الحكم السنّي الذي مثّله الخلفاء الراشدون، والذي كان يقوم على أساس الإسلام والعدل، حمل عليّ السيف للدفاع عنه، إذ حارب جنديّاً في حروب الردّة تحت لواء الخليفة الأوّل ـ أبي بكر ـ وكلّنا نحارب عن راية الإسلام وتحت راية الإسلام، مهما كان لونها المذهبي.

إنّ الحكم السنّي الذي كان يحمل راية الإسلام قد أفتى علماء الشيعة ـ قبل نصف قرن ـ بوجوب الجهاد من أجله، وخرج مئات الآلاف من الشيعة، وبذلوا دمهم رخيصاً من أجل الحفاظ على راية الإسلام، ومن أجل حماية الحكم السنّي الذي كان يقوم على أساس الإسلام.

إنّ الحكم الواقع اليوم ليس حكماً سنّيّاً، وإن كانت الفئة المتسلّطة تنتسب تأريخيّاً إلى التسنّن.

إنّ حكم السنّي لا يعني حكم شخص ولد من أبوين سنّيّين، بل يعني حكم أبي بكر وعمر، الذي تحدّاه طواغيت الحكم في العراق اليوم في كلّ تصرّفاتهم، فهم ينتهكون حرمة الإسلام، وحرمة عليّ وعمر معاً في كلّ يوم، وفي كلّ خطوة من خطواتهم الإجراميّة.

ألا ترون ـ يا أولادي وإخواني ـ أنّهم أسقطوا الشعائر الدينيّة التي دافع عنها عليّ وعمر معاً؟!

ألا ترون أنّهم ملأوا البلاد بالخمور، وحقول الخنازير، وكلّ وسائل المجون والفساد التي حاربها عليّ وعمر معاً؟!

ألا ترون أنّهم يمارسون أشدّ ألوان الظلم والطغيان تجاه كلّ فئات الشعب؟! ويزدادون يوماً بعد يوم حقداً على الشعب، وتفنّناً في امتهان كرامته والانفصال

عنه. والاعتصام ضدّه في مقاصيرهم المحاطة بقوى الأمن والمخابرات، بينما كان عليّ وعمر يعيشان مع الناس وللناس وفي وسط الناس ومع آلامهم وآمالهم.

ألا ترون إلى احتكار هؤلاء للسلطة احتكاراً عشائريّاً، يسبغون عليه طابع الحزب زوراً وبهتاناً؟ وسدّ هؤلاء أبواب التقدّم أمام كلّ جماهير الشعب سوى أولئك الذين رضوا لأنفسهم بالذلّ والخنوع، وباعوا كرامتهم وتحوّلوا إلى عبيد أذلّاء.

إنّ هؤلاء المتسلّطين قد امتهنوا حتّى كرامة حزب البعث العربي الاشتراكي، حيث عملوا من أجل تحويله من حزب عقائدي إلى عصابة يُطلب الانضمام إليها والانتساب لها بالقوّة والإكراه. وإلّا فأيّ حزب حقيقي يحترم نفسه ـ في العالم ـ يفرض الانتساب إليه بالقوّة؟!

إنّهم أحسّوا بالخوف حتّى من الحزب العربي الاشتراكي نفسه الذي يدّعون تمثيله. أحسّوا بالخوف منه إذا بقي حزباً حقيقيّاً له قواعده التي تبنيه؛ ولهذا أرادوا أن يهدموا قواعده لتحويله إلى تجمّع يقوم على أساس الإكراه والتعذيب ليفقد أيّ مضمون حقيقي له.

يا إخواني وأبنائي، من أبناء الموصل والبصرة، من أبناء بغداد وكربلاء والنجف، من أبناء سامرّاء والكاظميّة، من أبناء العمارة والكوت والسليمانيّة، من أبناء العراق في كلّ مكان، إنّي أعاهدكم بأنّي لكم جميعاً، ومن أجلكم جميعاً، وأنّكم جميعاً هدفي في الحاضر والمستقبل.

فلتتوحّد كلمتكم، ولتتلاحم صفوفكم تحت راية الإسلام، ومن أجل إنقاذ العراق من كابوس هذه الفئة المتسلّطة، وبناء عراق حرّ كريم، تغمره عدالة الإسلام، وتسوده كرامة الإنسان، ويشعر فيه المواطنون جميعاً ـ على اختلاف قوميّاتهم ومذاهبهم ـ بأنّهم إخوة، يساهمون جميعاً في قيادة بلدهم وبناء وطنهم، وتحقيق مثلهم الإسلاميّة العليا، المستمدة من رسالتنا الإسلاميّة، وفجر تأريخنا العظيم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محمّد باقر الصدر
النجف الأشرف

قالوا فيه

لقد كان المرحوم الصدر شخصيّةً علميّةً، ومجاهداً مضحيّاً من مفاخر الحوزات العلميّة، ومراجع الدين، والمفكّرين المسلمين، فلا عجب لشهادة هؤلاء العظام الذين أمضوا عمراً في الجهاد في سبيل الأهداف الإسلاميّة.

الإمام روح الله الخميني

آية الله الصدر كان من العلماء والمفكّرين والمتبحّرين في العلوم الإسلاميّة، وأحد الأبناء الصادقين للإمام الحسين عليه السلام.

آية الله العظمى الشيخ المنتظري

إنّ الشهيد الصدر كان يعدّ من الشخصيّات الفريدة في التأريخ الإسلامي، وكان يعتبر ثروةً فريدةً بالنسبة إلى العالم الإسلامي، والذي أراق دم الصدر ليس واحداً وإنّما هم أعداء الإسلام جميعاً.

رئيس الجمهوريّة الإسلاميّة
السيّد عليّ الخامنئي

لقد كان الشهيد الصدر مصنعاً منيعاً للفكر الإسلامي، وإنّ هذه الشخصيّة تعتبر ثروةً إسلاميّةً في عصرنا الحاضر.

رئيس مجلس الشورى الإسلامي
الشيخ هاشمي رفسنجاني

إنّ تأريخ الإسلام الحديث لم يشهد مثل هذه الشخصيّات الفذّة إلّا قليلاً وكان الشهيد الصدر من أوائل علماء المسلمين الذين رسموا خطوات مؤثّرة في مجال القضايا الاقتصاديّة في الإسلام.

رئيس ديوان القضاء الأعلى
السيّد آية الله الموسوي الأردبيلي

إنّ من الأسباب التي جعلت الاستكبار يفكّر في قتل الشهيد الصدر هو وقوفه بوجه انتشار الأفكار البنّاءة لهذا الشهيد الكبير، والتي هي الضمانة لاستمرار الحركة التحرريّة للأمة الإسلاميّة.

رئيس وزراء الجمهوريّة الإسلاميّة

السيّد مير حسين الموسوي

وبعد، فهذا كلّه بعض ما يؤشّر ـ في أواخر حياة أُستاذنا الشهيد ـ إلى أنّه لو كانت تستمرّ حياته المباركة لكانت تتكرّر تجربة إيران الإسلام على يديه في العراق.

لا أقول: إنّ سلطة العراق الكافرة والاستكبار العالم اطّلعا على كلّ هذه النقاط وغيرها، لكنّي أقول: إنّهما اطّلعا حتماً على القدر الكافي ممّا يشير إلى هذه النتيجة، إذن فاغتياله حذراً من تكرّر تجربة إيران الإسلام كان أمراً طبيعيّاً جدّاً للاستكبار العالمي وللسلطة المحليّة.



الشهيدة آمنة «بنت الهدى»

شقيقة الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر

أمّا شقيقته الشهيدة السعيدة السيّدة آمنة المعروفة بـ«بنت الهدى» فهي آية من آيات الله تعالى في علمها ونبوغها وتفوّقها، وما وهبها من مواهب وقابليّات قد أثّر فيها عرق جدّتها الزهراء وعمّتها زينب عليها السلام تأثيراً قويّاً، فهي سيّدة من سيّدات نساء زمانها، ودرّة يتيمة من دراري دهرها، كانت ـ عليها الرحمة والرضوان ـ قويّة في شكيمتها وشخصيّتها، عظيمة في نفسيّتها وأنفتها وعلوّ أخلاقها، واعتدادها بنفسها، لكنّه اعتداد بغير غرور ولا كبرياء، فهي نفس هاشميّة علويّة عالية، وأنت حين ترى علوّ نفسيّة الشريف الرضي من أوصافه ومن شعره، ثمّ تقف على أوصاف شهيدتنا المظلومة ـ عليها الرحمة والرضوان ـ تراه كأنّه هو قد ولدها، لكنّه ليس ببعيد عنها فهو من أبناء عمّ جدّها المعاصر له، وقد أجاد في وصفها أخي السيّد صدر الدين ـ عليه الرحمة ـ في مجلّته النهج، العدد ٦ من السنة التاسعة ص ٨٨ وما بعدها فقال:

بنت الهدى حجاب يقنّع وجهاً بمثله شرفت الخدور، وارتفعت حتّى انخفضت دونها الشموس والبدور، ثمّ لا ندري هل توارى خلفه لتكتم اسمها الميمون، رعاية لبيئتها المحافظة، أم ضمّنته معنى تواضع المجيد المخجول بجودته، أم أرادته امتحاناً لقارئ تعوّد أن ينظر إلى من قال لا إلى ما قيل.

ومهما يكن من أمر، فالرمز يتضمّن ـ قصدت أم لم تقصد ـ أصدق التعابير عن ميراث اتّصل من أبيها إلى الإمام موسى بن جعفر عليه‌السلام دون انقطاع في نسب شرفه حمل الرسالة منفعلاً وفاعلاً باستمرار.

وإذا كان للبيئة يد في تحجيب اسمها بالرمز، فإنّه لممّا يشرّف النهج أن تحطم هذا التقليد غير الإسلامي، وتشقّ الصدف عن مكنون هذه الدرّة الغالية، لو كان للدر هذا الشرف، ومن أولى بآمنة ابنة المغفور له الإمام السيّد حيدر الصدر بأن تكون طليعة الكتيبة القائدة في نهضة النجف النسويّة، انتهى ملخّصاً.

ولدت ـ قدّست نفسها الزكيّة ـ في الكاظميّة يوم التاسع من المحرّم سنة ١٣٥٦، وأنبتها الله نباتاً حسناً، حيث صاغها من ذلك المعدن الطيّب الطاهر، وأنشأها على أحسن ما تكون عليه المرأة من صفات العلوّ والكمال.

فدرست مبادئ العلوم ومقدّماتها على شقيقيها الإمامين الجليلين ـ قدّس الله روحيهما ـ وواصلت تنمية ملكاتها الأدبيّة على يد أخيها الشهيد الثالث رحمه‌الله، وابتدأت بنظم الشعر وهي بعد لم تبلغ العاشرة، وبكّر بها النبوغ، وظهرت عليها مخايل النجابة والذكاء في أوائل سنيها كأخيها، وتفقّهت عليه حتّى صارت مرجعاً لعدد كبير من النساء في الأحكام الشرعيّة، والمسائل الدينيّة، وحلّ المشاكل العائليّة. وما تجاوزت العقد الثاني من عمرها حتّى تجاوزت مرحلةً كبيرةً من العلم والفضل، وظهرت عبقريّتها العلميّة والفكريّة، وبرزت كاتبةً إسلاميّةً تبرز معاني الإسلام ومحاسن الدين على أحسن وجه، فأخرجت مؤلّفات كثيرة في شتّى المواضيع الإسلاميّة ممّا يدعو إلى الإعجاب والإكبار، كما نشر لها كثير من المقالات والأشعار في عدّة مجلّات.

وقد تولّت الإشراف على عدّة مدارس ابتدائيّة ومتوسّطة وثانويّة للبنات، منها مدرسة الزهراء في الكاظميّة، ومنها المركز الديني لتعليم البنات في النجف وغيرها، وقد عرفت في أوساط هذه البيئة بالقدرة على القيادة الفكريّة والتوجيه الصحيح، ولها أثر كبير في توجيهها المعنوي والأخلاقي كما عرفت بقوّة العارضة وعلوّ الخطابة

حينما تعلو المنبر في مختلف المناسبات خاصّةً في المجالس الحسينيّة للنساء، حيث كانت تتولّى مهمّة المنبر بنفسها بطريقة حديثة تعتبر تجديداً على صعيد المجالس النسائيّة، ويشتمل منبرها على تحليل تأريخ أهل البيت عليهم السلام وتسليط الأضواء على مواطن العبرة منه، والتركيز على الجوانب الخلقيّة والعائليّة.

وكان تدريسها لا يقتصر على ما تلقيه في المدارس المنظّمة التي تشرف عليها، بل إنّها تدرّس بعض الموادّ لعدد من السيّدات خارج نطاق المدرسة، من قبيل كتاب شرائع الإسلام في الفقه، وعقائد الشيعة الإماميّة، ونحو هما من موادّ المعرفة الإسلاميّة.

ففقيدتنا الغالية إذن هي فقيهة عالمة عاملة في حقل الوعي الديني، وقائدة مصلحة في ميدان الوعي الاجتماعي.

وبعد استشهادها نشرت عنها رابطة المرأة المسلمة في العراق كتيّباً بعنوان من حياة الشهيدة بنت الهدى ونحن ندوّنه هنا بما يلي:

ليس الإيمان لفظاً باللسان أو ادّعاء فحسب، بل هو كما عرّفه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بأنّه: «ما وَقَرَ في القلب وصدّقته الأعمال»[1].

وذكره الإمام الباقر عليه السلام بقوله: «إنّ الإيمان هو ما استقرّ في القلب، وأفضى به إلى الله، وصدّقه العمل»[2]؛ لذا نرى أنّ عمليّة وجود مؤمن رسالي عمليّة غير هيّنة، وليست سهلة المطلب؛ حيث تحتاج إلى إخلاص مطلق لله تعالى، ثمّ تمثيل عملي لواقع الإخلاص هذا، فشاهدنا أنّ النوعيّات المؤمنة من نسائنا عالية جدّاً، ونتائجهنّ عظيمة وخالدة رغم الكمّ القليل منها.

وبالتالي فإنّ المؤمنات المجاهدات أضأن الطريق، وأمسين شموعاً مشتعلةً في طريق الجهاد الإسلامي النسوي بالعلم والعمل والتضحية... وهذه المهمّة الرساليّة من الجهاد تتطلّب عناءً ومثابرةً وصبراً ومواصلةً رغم المحن، ورغم عثرات

---

١. بحار الأنوار ٥٠: ٢٠٨.

٢. الكافي ٢: ٢٦، باب أنّ الإيمان يشرك الإسلام...، ح ٥؛ بحار الأنوار ٦٥: ٢٥١.

الطريق وأشواكه، لكنّ المؤمنة الخالصة لله تعالى لا توقفها هزيمة، أو تثنيها خسارة ماديّة، وليس لليأس والقنوط منفذ في نفسها؛ لأنّها جازمة وعازمة في طريق الحقّ والهداية، نتيجةً لإيمانها الحقيقي الذي لا يتزعزع...؛ لأنّ مسألة الإيمان تخلق في النفس روح الثبات، وتخلق الشخصيّة المستقرّة التي ليس أمامها غير طريقين، فإمّا البقاء مع العزّة والكرامة، ومع الحرّيّة والإباء، وإمّا الموت وبالعزّة أيضاً.

ولو تصفّحنا تأريخنا الإسلامي لوجدنا الكثير من هذه الأمثلة من نسائنا اللواتي ضربن المثل والقدوة، بل وفُقْنَ الكثير من الرجال في مختلف الميادين...

فتلكم فاطمة الزهراء عليها السلام، وبنتها زينب بطلة كربلاء ولسان حال ثورة أخيها الحسين عليه السلام بعد استشهاده، وخديجة بنت خويلد التي جاهدت بمالها...إلى آخر.

أمّا تأريخنا المعاصر فكاد يكون عقيماً إلّا من القليل منتثرات في أقاليم العالم الإسلامي، وقد برزت في عصرنا المجاهدة الكبيرة، والمفكّرة الإسلاميّة القديرة العلويّة الطاهرة الشهيدة آمنة الصدر، المعروفة ببنت الهدى، حيث شمّرت عن ساعد الجدّ؛ لتوجد ثورةً تغييريّةً في عالم المرأة المسلمة، بعد أن ذبل عودها، وجفّ قوامها، واصفرّت أوراقها.

نهضت هذه البطلة لتنشئ جيل الإسلام من فتياته، وجيل الثورة المحمّديّة بثقافة الإسلام، وحقّها أن تقوم بهذا البناء، وتشيّد هذا الصرح من الفتيات المؤمنات، والنساء الرساليّات، فهي العالمة المفكّرة، والمؤلّفة المتمكّنة، والمربيّة القديرة، والمعلّمة المعطاءة، والحنون الرؤوفة، تلك هي بنت الهدى التي سلكت هذا الدرب وفضّلته، بل وأوجبته على كلّ شيء في حياتها، فليس لها محطّة واحدة، ولا مدينة واحدة، ولا بيت واحد، ولا عمل واحد، فقد كانت سفيرة الإسلام المتنقّلة، ومشرفة المدارس الإسلاميّة في بغداد والنجف الأشرف، والمدرّسة والباحثة الاجتماعيّة للمؤمنات وغير هنّ، حيث تقوم بواجباتها العديدة رغم كلّ ما تلاقيه من صعاب، فكانت تحمل هموم الرسالة، وهموم المرأة المسلمة، فضحّت بكلّ

غـال ونـفيس، ونـذرت نـفسها لعـقيدة جـدّتها الزهـراء البـتول(ع)، وجـدّها رسول(ص)، كلّ تلك الخطى، وكلّ ذلك الجهاد بدأ منذ نعومة أظفارها، وحتّى أن استقرّت في سجن الطغاة مع أخيها الشهيد الإمام الصدر ـ رحـمه الله تـعالى ـ وفوزها بدرجة الشهادة.

وهنا في هذه الوريقات التالية، وبهذه العجالة سوف نكشف عن بعض جـوانب حياة هذه البطلة المجاهدة راجين أن نكون قد وفينا بجزء بسيط جدّاً تجاه هذه المظلومة المحتسبة، داعين المولى عزّ شأنه أن يحقّق بفضلها ودمها ودم أخيها الإمام الشهيد النصر المؤزّر، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

نشأتها ودراستها

في مدينة تضمّ مرقدي الإمامين الطاهرين المسمومين موسى بن جعفر الكاظم، وحفيده محمّد الجواد(ع)، وفي زقاق من القسم القديم من هذه المدينة التي تبعد بضع مئات من الأمتار عن نهر دجلة، وفي بيت متواضع جدّاً تركن إليه عـائلة صغيرة، هما العلّامة حجّة الإسلام السيّد حيدر الصدر (قده)، وزوجته شقيقة آية الله العظمى الشيخ مرتضى آل ياسين ـ طاب ثراه ـ وولديهما البارّين آية الله السيّد إسماعيل الصدر، والإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر ـ قدّس سرّهما ـ وهم يعيشون ظلال الهدى والإيمان، وفي هدوء ذلك البيت الصغير الذي ينعم بقسم الله تعالى، حيث فقد الأبوان ثمانية أطفال تتراوح أعمارهم بين عدّة شـهور وسـبع سنوات، وهما ينظران إلى ولديهما كالضيائين اللذين ينيران البيت، بـاذلان كـلّ الجهد والرعاية، مانحان لهما كلّ الحبّ، حريصان على تربيتهما بمناهل القـرآن وثراء علومه، وفي غمرة تلك الحياة السعيدة المطمئنّة، أطلّ عليهم فجر جـديد بابتسامة جميلة، وبأنسامه النديّة؛ ليكشف عن صبح جـديد اشـتبكت خـيوطه الذهبيّة لتحمل الفرح والبشرى لهذه القلوب النابضة بالإيمان؛ حيث ولدت الطفلة آمنة إذ أشرقت بنورها الوضّاح الذي راح يدغدغ تلك الأمّ الصابرة، ويعيد لهـا

بسمة الشكر والثناء للواهب الكريم، وأخذت تقبّل طفلتها مكبّرةً ومهلّلةً في قدومها السعيد، وكان ذلك عام ١٣٥٧[1].

بدأت الطفلة التي سميّت آمنة تيمّناً بأمّ سيّد الأنبياء ﷺ، حيث ذلك الجوّ الإيماني الطاهر العطر بشذى الهدى، وتمضي الأيّام والعائلة تعيش أفراحها بهذه النعمة المباركة، وترفل بالخير، لكن سرعان ما تصاب العائلة، وبعد ستّة أشهر تقريباً من عمر آمنة؛ إذ يتوفّى الوالد، ويدبّ الحزن يدخل قلب الأمّ الرؤوم، وتعود إليها المصاعب والهموم، لقد كانت فادحةً حيث فقدت الزوج والمربّي والعالم والمتكفّل بالعيال.

وتنشأ العلويّة الصغيرة محرومة الحنان الأبوي، إلّا من كنف أمّها، وحنان والدتها التي كانت مكمن حبّها ورعايتها، فهي ترافقها في كلّ مكان، فكانت الوفاء لها تغذّيها من حبّها وعطفها، تفتح لها قلبها الكبير، تحرص عليها كلّ الحرص.

وعندما كبرت شهيدتنا، وأحسّت بما حولها حيث تفقد أباها الذي ترك فراغاً كبيراً في حياة هذه العائلة المجاهدة، ولكن شهيدتنا ومنذ نعومة أظفارها لم تجعل لهذا الفراغ سيطرة على حياتها، وإن عزّ عليها ذلك، ولكنّ الايمان كان هو المؤثّر الحقيقي في حياتها، وسارت هذه العائلة في موكب النور، تواكب الخطى للارتشاف من علوم الإسلام، رغم الحالة الماديّة المترديّة، والفقر الذي كان يحيطهم، وتواضع العيش؛ إذ لم يهمّهم ذلك، وكانت آمنة تستعين بأخويها ﷺ في دراستها، ولمّا أراد السيّدان الجليلان الرحيل إلى الجامعة الدينيّة في النجف الأشرف لإكمال دراستهما رحلت العلويّة الطاهرة «آمنة» معهما، وكان عمرها حينذاك أحَدَ عَشَرَ عاماً.

ولم يهمّ العائلة أيّ شيء سوى التوجّه الكلّي نحو الدراسة والبحث، وآمنة لا تترك فرصةً لأخويها إلّا واستثمرتها بالدراسة، وتلقّي العلوم الإسلاميّة، حيث ليس

---

١. الصواب في تأريخ ولادتها ما مرّ قبلاً [مرّ في ٤٨١ أنّها ولدت في سنة ١٣٥٦].

هناك دراسات إسلاميّة علياللبنات، ونما عودها العلوي بالعلوم المحمّديّة، وللصفات التي كانت تتّصف بها الشهيدة البطلة من ذكاء كبير، وتطّلع واسع، فقد كانت سريعة التعلّم والاستيعاب، وبعد هذه المرحلة أخذت تدرس اللغة وعلومها، والفقه وأُصوله والحديث وعلومه، كما درست الأخلاق وعلوم القرآن والتفسير، فكانت في مستوى جيد أهّلها للانتقال إلى مرحلة جديدة من الدراسة، وهي دراسة المجتمع، وتشخيص أمراض المرأة المسلمة في العراق والعالم الإسلامي، وكيف استعمرت الثقافة الغربيّة الزائفة المرأة المسلمة فحطّت من كرامتها، وشوّهت من معالمها، واحتالت عليها ببريقها المسموم، فقامت بنت الهدى لتعيد الحياة إلى نصف المجتمع، وتغرس في نفس المرأة المسلمة الأمل والنور، وتعيد لها بصيرتها ورشدها، وتطلعها على واقعها وتيهها، وكان لها في ذلك جهاد طويل ومرير.

لقد جمعت شهيدتنا إضافةً لدراستها لعلوم الشريعة السمحاء دراسة الكتب والمؤلّفات الحديثة، فاتّسعت معالم اطّلاعها ومعرفتها بكثير من الأُمور، وأمست كالطبيب والحكيم الذي راح يدرس علوم الطبّ ليكون شافياً لمن أصابه مرض.

عاشت شهيدتنا المجاهدة في ينابيع العلوم الإسلاميّة حيث ارتوت ودرست عن شغف هذه العلوم، وعاشت حياة الزهد مشاركةً عائلتها التي اقتدت بأوليائها من أئمّة الهدى والرشاد، فلم يحسبوا لمتاع الدنيا حساباً؛ لأنّها الفانية بأهلها، فكانت حياتها علماً وعملاً وتقىً وزهداً.

صفاتها

ماذا نقول في عالمة جليلة، ومربّية قديرة، وكاتبة مفكّرة مشهورة، وموضع ثقة أكابر مراجع المسلمين في جانب الإشراف والمتابعة للمشاريع الإسلاميّة التربويّة؟

أم ماذا نصف أو عمّن نتكلّم؟ وقد أغنت بسلوكها وجهادها وفكرها وتآليفها

الأمّة، وأصبحت غنيّةً عن التعريف بصفاتها وسجاياها، حيث تمثّل في شهيدتنا خلق الرسالة، وسجايا جدّتها فاطمة ﷺ، وتمثّلت بها تعاليم القرآن، وتجسّد فيها الإيمان الخالص، فعكست ذلك قولاً وفعلاً، فكانت تعامل الجميع معاملة الإسلام لا تفرّق بين أحد منهنّ، تسمع لشكواهنّ كأنّها الأمّ الرؤوم، تعالج تصدّعهنّ كالمداوية الرحيمة، فكانت سكناً لبنات جنسها المؤمنات.

كانت كريمة النفس، سخيّة اليد نحو المعوزين، تكرم المحتاج بمختلف الوسائل، حيث تحمل شعور المسؤوليّة، فتزور المرضى، وتتفقّد المحتاجين، وتصل عوائل الشهداء، وتسأل عن احتياجاتهم، كلّ ذلك دون كلل أو ملل.

كما كانت حريصةً على الوقت، لا تفرط بالدقيقة قدر إمكانها، فكان عملها يشغل الليل والنهار.

نشاطها وجهادها

وبعد أن أصبحت مجاهدتنا في حالة تؤهّلها أن تخوض غمار العمل؛ إذ صارت شخصيّةً إسلاميّةً قياديّةً، لما اتّصفت به من شروط القيادة الحقّة في العلم والجدارة والإيمان بهدفها وغايتها، والتطلّع إلى بناء المرأة المسلمة من جديد، وفق أُسس الإسلام وتعاليمه السامية، فنهضت وهي في ريعان شبابها، وشمّرت عن ساعد الجدّ والحزم، وأخذت بزمام المسؤوليّة الكبرى لتنقذ هذه المرأة المعذّبة، وتخلّصها من بين يدي هذا العدوّ الكاسر ـ الاستعمار ـ الذي عمل على تحريف المرأة المسلمة عن جادّة الخير والصواب، وطريق الحقّ والإسلام، حيث هتك حرمتها بعد أن سلبها سترها وحجابها، كما أبعدها عن أُصولها السليمة وفكرها، وزيّف هويّتها الإسلاميّة، فقامت مجاهدتنا البطلة لترسم خطّتها نحو تحقيق أهدافها في الخلاص من هذه الحالة المتدهورة، وبعد أن حقّقت النظر تبنّت ما يلي:

أوّلاً: القيام بالتربية الإسلاميّة عن طريق المحاضرة والدرس والندوة، حيث

قسّمت عملها في هذا المضمار وانتهجت في سيرتها بعدّة طرق ووسائل هي:

١ ـ القيام بعمليّة الإشراف على مدارس الزهراء للبنات في كلّ من بغداد والكاظميّة، فعملت على إيجاد خطّة تدريسيّة، ومناهج ملائمة؛ ملاحظةً لا حتياجات الفتاة الإسلاميّة، من المفاهيم والأفكار الإسلاميّة، والنسق التربوي والأخلاقي لها، وقد شاركت فعلاً في ذلك بالكتابة والتدريس للطالبات، كما كانت تجتمع بالمدرّسات، اللواتي ينتقين من الخيرة، وتعمل على إلقاء المحاضرات خلال اجتماعها المستمرّ، وتوجيههنّ للصورة التي ينبغي لهنّ ممارستها في مجال التربية والتعليم.

٢ ـ عمل ندوة فكريّة إسلاميّة عامّة، يحضرها الكثير من الفتيات الجامعيّات، والمدرّسات الموظّفات وغيرهنّ، حيث تطرح فيها الشهيدة مختلف المفاهيم، بعد أن تلقي الأضواء الكاشفة للواقع، والزيف الذي خدّر المرأة، وجعلها العوبة لا تعرف واقعها الحقيقي في المجتمع الذي تكوّن هي نصفه.

٣ ـ إحياء المناسبات الإسلاميّة بالاحتفالات وتجسيد واقع الذكرى، وملامحها من خلال شخصيّتها أو صاحبها، أو مناسبتها بكونها المناسبة مثالاً وقدوةً وتجربةً بالوقت نفسه.

ثانياً: القيام بالنشاطات الميدانيّة بالزيارات المختلفة المجالات والغايات، فمنها الزيارات التفقّديّة، والكشف عن احتياجات الأخوات، ممّا يساعد على شدّ بعضهنّ بعضاً، وإظهار روح التعاون وتقويتها؛ إذ أنّ المؤمنين بعضهم أولياء بعض[١]، ومنها الزيارات لغرض الاطمئنان على صحّة مريضة، والوقوف على احتياجاتها. وكانت تغرس في نفوس المؤمنات روح الإسلام وأخلاقه، فتجعل الواحدة منهنّ تشعر، وكأنّها جزء من الأخريات، فتشاركهنّ في أفراحهنّ وأتراحهنّ، كما كانت تعمل على إثارة الروح الجهاديّة، ورفع المرأة إلى مستوى مسؤوليّتها الدعوتيّة

١. التوبة (٩): ٧١.

ومعرفة موقعها في العمل الجهادي النامي، فخلقت جيل النهضة، جيل بنت الهدى الذي أثار عليها عيون الظالمين، فجعلوا يتربّصون بها الدوائر ليتخلّصوا منها ومن الرؤوم الحنون العطوف في معاملتها مع جميع النساء، لا سيّما الفاقدات للعطف. فكنت تراهنّ يستقبلنها بشوق ورغبة للتزوّد من حنانها، فيشعرن بوجودهنّ في هذه الحياة كما يقلن أنفسهنّ.

وكانت ـ رحمها الله ـ تأتي إلى بغداد والكاظميّة ثلاثة أيّام من كلّ أسبوع للإشراف على المدرسة الدينيّة الخاصّة بالبنات، وهي التي أسّسها الإمام السيّد الخوئي دام عزّه.

كما كانت تستقبل الوفود النسائيّة من مختلف المدن العراقيّة، فتحلّ مشاكلهنّ، وتخطب بهنّ، وتجيبهنّ عن أسئلتهنّ التي يوجّهنها إليها، وهي بنفس الوقت تعمل على تلبية متطلّبات أخيها الإمام الشهيد، سيّما في أوقات مجيء الزوّار والوفود إليه.

لذا كانت تتنقل بين النجف الأشرف وبغداد والكاظميّة، ولم يكن لنفسها إلّا الوقت القليل جدّاً. والجدير بالذكر أنّ الشهيدة السعيدة سلوى البحراني المعروفة بأمّ سعد، كانت اليد اليمنى، والرفيقة الخيّرة لبنت الهدى، حيث جعلت سيّارتها الخاصّة التي تقودها هي بنفسها في خدمة العلويّة «آمنة» عند مجيئها إلى بغداد. أمّا انتقالها من النجف الأشرف إلى بغداد فكان حسب وقتها المبرمج، وفي إحدى هذه السفرات تأخّرت عن موعدها في الوصول إلى الكاظميّة، وكان السبب عدم ملاءمة الطقس، ورداءة الجوّ، وغزارة الأمطار ،إلّا أنّها عزمت عزم المجاهدات الصابرات، وواصلت السير وهي تنظم هذه القصيدة بهذه المناسبة:

قسماً وإن ملئ الطريق   بما يعيق السير قدما
قسماً وإن جهد الزمان   لكي يثبّط فيّ عزما
أو حاول الدهر الخؤون   بأن يريش إليّ سهما
وتفاعلت شتّى الظروف   تكيل آلاماً وهمّا

فتراكمت سحب الهموم بــأُفق فكــري فــادلهمّا
لن أنـــثني عــمّا أروم وإن غدت قدماي تدمى
كــلّا ولن أدع الجــهاد فـغايتي أعـلى وأسـمى

❁ ❁ ❁

أنــا كـنت أعـلم أنّ در ب الحقّ بالأشواك حافلْ
خالٍ من الريـحان يـنشـ ـر عطره بـين الجـداولْ
لكــنّني أقــدمت أقـفو السير في خـطو الأوائـلْ
فــلطالما كــان المــجا هد مفرداً بين الجـحافلْ
ولطــالما نــصر الإلــه جـنوده وهــم القـلائلْ
فالحقّ يخلد في الوجود وكــلّ مـا يـعدوه زائـلْ
سأظلّ أشدو باسم إسلا مي وأنكـر كـلّ بـاطلْ

❁ ❁ ❁

إســـلامنا أنت الحـبيب وكـلّ صـعب فـيك سـهلُ
ولأجــل دعـوتك العـزيز ة عــلقم الأيّــام يـحلو
لم يعل شـيء فـوق اسـمـ ـك في الدنا فالحقّ يـعلو
وتــطبّق الدنــيا مـبادئك العـــزيزة وهـــي عـــدلُ
وســـينصر الرحـــمن جـنـ ـد الحقّ ما ساروا وحـلّوا
وســـيخلّدون ديــن الله وكــلّ مـــا يــعدوه يـبلو
وأظـــلّ بــاسمك دائــماً أشــدو فلا ألهو وأسلو

وفعلاً فإنّ الله تعالى ناصر عبده قد يسّر للعلويّة المجاهدة، وذلّل لهـا الصـعاب، فوصلت السيّارات التي تذهب إلى بغداد، واستقلّت مكانها، والفرح قـد غـمرها بتغلّبها على ما لاقته، ووصلت غايتها، ولكن بعد تأخّر. هذا التأخّر الذي كاد أن لا يكون مجيء لولا عزم وقوّة ومثابرة المؤمنة المثابرة بنت الهدى.

دور المجاهدة في النجف الأشرف

لم يقل نشاط ودور شهيدتنا المجاهدة في النجف الأشرف عن دورها ونشاطها في بغداد والكاظميّة، فقد عنيت بعمليّة الإشراف على المدرسة الدينيّة للبنات في النجف الأشرف فضلاً عن التدريس والتربية والتوجيه؛ ولذا فإنّه يمكن تقسيم دور العلويّة بنت الهدى في النجف الأشرف إلى ما يلي:

أوّلاً: القيام بعمليّة الإشراف العامّ على المدرسة الدينيّة الخاصّة بالبنات، والتي أسّسها سماحة المرجع الديني السيّد أبو القاسم الخوئي، حيث كانت تعمل على توجيه الدراسة، وحثّ المدرّسات، والمداولة في شؤون المدرسة وتمشية أعمالها، وكذا في تنظيم الدراسة، والمنهج والاحتياجات، وكانت تشغل الوقت الطويل من أجل ذلك، ولم تركن إلى الراحة رغم الأتعاب التي كانت تصادفها، فتعمل على تذليل ذلك بالتوكّل على الله تعالى والمثابرة والنشاط المتواصل، فكان لوجودها الأثر الفعّال في تمشية المدرسة نحو النموّ والعلى.

ثانياً: المحاضرات والتدريس حيث عملت شهيدتنا في مجال التربية الإسلاميّة، وعقدت الندوات والمجالس التربويّة للجيل الحاضر من نساء الإسلام، حيث مزّقت أستار الظلمة، وأبانت نور الحقيقة عندما أخذت على عاتقها تربية المرأة المسلمة وفق تعاليم سيّد الأنبياء محمّد ﷺ، وبمختلف جوانب الرسالة السمحاء، سيّما الجوانب الأخلاقيّة والفقهيّة والقرآنيّة، فكانت هدىً، وكانت قدوةً حيّةً لكلّ جيل الإسلام المعاصر من فتياته.

ثالثاً: استقبال الوفود النسائيّة المتقاطرة على مقرّها في بيتها في النجف الأشرف، فقد كانت النساء المسلمات المتلّهفات على معين الرسالة، يأممن بيت الإمام الصدر من كلّ مدينة وبلدة، ويقتضي الحال في كثير من الأحيان توفير الطعام وتقديمه إليهنّ.

رابعاً: تحضير البحوث والكتابات التي يقتضي الحال أن تلقيها، أو تبعث بها إلى

النساء المريدات، أو اللواتي يعقدن الندوات، وينتظرن بنت الهدى لإلقائها عليهنّ، كما أنّها تعمل في الكتابة والتأليف.

ومن الجدير بالذكر أن شهيدتنا كانت تقوم بجولة من الزيارات المبرمجة والمرتّبة إلى كثير من النساء اللواتي ألمّت بهنّ بعض النوائب، أو المشاكل الحياتيّة أو الاجتماعيّة، أو أُمور أُخرى، فترى صاحبة القلب الكبير تعيش آلام هؤلاء النساء والفتيات، فتعودهنّ وتملي من حنانها وعطفها الإسلامي الكبير عليهنّ، وتخلق فيهنّ روح العمل والاندفاع نحو الجهاد، فكانت تعطي الدروس الإسلاميّة الحقّة في سلوكها وعملها وكلامها وإيمانها فكانت قدوة العارفين، ومنار الراغبين في العلم والأدب والأخلاق.

مؤلّفات الشهيدة

رأينا بنت الهدى مربيّة في دروسها ومحاضراتها، وأُستاذة في تعليمها، ومشرفة في أعمالها الجهاديّة في المدرسة، سواء في بغداد أو الكاظميّة أو النجف الأشرف، ورأيناها في بيتها مع الوفود النسائيّة، ومكتبها الذي يعجّ بالوافدات للاستفسار والسؤال عن الكثير من الأُمور الدينيّة والحياتيّة وغيرها.

ورأيناها وهي تحفّز النساء نحو نيل المكارم لتأخذ المرأة دورها وموقعها الرسالي في عمليّة البناء الإسلامي للمجتمع الإسلامي الكبير، ورأيناها وهي تنشئ الشخصيّات الإسلاميّة النسويّة، وكيف تعلمهنّ طرق الجهاد والعمل في سبيل الله تعالى ومشاركة الأزواج والأخوان والآباء في دورهم الرسالي الملقى على عواتقهم؛ لأنّ الرجل وهو يقارع الظلم ويهدم الضلال، ويبني لبنات صرح الإسلام ومجتمعه، لابدّ من أن يستعين بالعنصر النسائي الذي يكون الساعد الأيمن له، فكانت تعطي توجيهاتها لهنّ مشيرةً إلى دورهنّ في ذلك.

اتّجهت شهيدتنا ـ رحمها الله ـ إلى التأليف والبحث في مختلف المجالات لتحقيق هدفها الرسالي، فاتّخذت من القصّة والحوار مرّةً في فنّ التربية، واتّخذت من

الكتابة والبحث الفكري والعلمي في مجال آخر، كما اتّخذت من الأدب والشعر في مجال آخر أيضاً، حيث نظمت الشعر الهادف والشعر المنبعث من آمال مرّةً، ومعاناة مرّةً أُخرى، فكان لهذا الدور العظيم والأثر الفعّال والكبير في إيصال المعرفة إلى نساء الإسلام في كلّ مكان، سيّما اللاتي لم يتشرّفن باللقاء بها، والتحدّث معها، والنيل من فكرها الواسع، فكان لمؤلّفاتها أهميّة بالغة، وانتشار واسع في كثير من بلدان العالم الإسلامي، بهدف خلق جيل يتحلّى بخلق الإسلام وعفافه، وأفكار الإسلام وعلومه، كانت مؤلّفاتها تجعل من المرأة صاحبة رسالة، وصاحبة هدف، وحاملة لهموم أُمّتها وأهلها ومجتمعها، بعيدة عن زيف الحياة الماديّة الساقطة، وكانت مؤلّفاتها أجراساً تدقّ في عالم المرأة لتعي مسؤوليّتها، وتعرف طريقها وتستلهم العبر والمواعظ، لتعيد حقيقتها الإسلاميّة التي أرادها الله تعالى بها، ومن مؤلّفاتها:

١. الفضيلة تنتصر.
٢. الباحثة عن الحقيقة.
٣. صراع.
٤. لقاء في المستشفى.
٥. امرأتان ورجل.
٦. الخالة الضائعة.
٧. ذكريات على تلال مكّة.
٨. ليتني كنت أعلم.

شهيدتنا ويوم ١٦ رجب

في هذا القسم من الكلام نرى ملامح البطولة والجهاد الإسلامي الذي تمثّلت به بنت الهدى، وكيف وقفت وقفتها كوقفة عمّتها الثائرة زينب بنت عليّ بن أبي طالب عليها السلام، هنا تتكشّف حقائق عظيمة، ويظهر دور بارز في حياة مجاهدتنا

البطلة؛ إذ المعروف أنّ السلطة الغاشمة في العراق أخذت تعدّ العدّة، وتمهّد لتصفية الإمام الشهيد السيّد الصدر، وإن ليس لديها أيّ وسيلة كما ترتئي إلّا في القضاء عليه، ولكن كيف؟ وأين؟ ومتى؟

هناك محاذير كثيرة في طريقها، ولكن ليس هناك أيّ حلّ لبقائهم وظلمهم وتسلّطهم إلّا بتصفية الإمام الشهيد؛ لأنّه شوكة في عيونهم، وثورة في وجوههم، فدبّرت الخطّة من القصر الجمهوري في بغداد، بأمر الأسياد الأنكلو أميركان، وبات الأمر باعتقال الإمام السيّد محمّد باقر الصدر لابدّ منه، بقي الوقت المناسب الذي يأتون به إلى دار السيّد الصدر ﵀، وفعلاً وعند إطلالة فجر السادس عشر من شهر رجب عام ١٣٩٩ حتّى طوقّت منطقة العمارة، وهي الحارة التي تقع فيها دار سماحة الإمام، وأعلن الإنذار لقوى البغي والضلال، وجاء إلى البيت أكثر من مائتي عنصر من عناصر الأمن والمخابرات وبمختلف الرتب، جاؤوا في وقت كانوا يحسبون أنّه وقت يستغرق الناس فيه بنوم عميق، وكان مدير الأمن ـ المدعوّ أبو سعد ـ واقفاً على الباب، وبدافع الحقد دقّ باب الدار، وخرج لهم سماحة السيّد الشهيد بطلعته العلويّة، وشجاعته الحيدريّة، وقال: من؟ ماذا تبغون؟ وما الذي جاء بك إلينا في هذا الوقت؟؟

فانتاب آمر المجموعة مدير الأمن ـ أبو سعد ـ الذُهول والارتباك لما فوجئ من هيبة الإمام، وأجاب بصوت مرتعش، نريدك يا أبا جعفر، وسنعود بك إلى البيت بعد فترة قصيرة.

وكانت شهيدتنا المجاهدة خلف الباب تسمع ما يدور من حديث، وقالت: جئتنا في هذا الفجر حسبت أنّ أهل النجف نائمون؟؟ لا يا أبا سعد، إنّك على خطإ كبير. إلّا أنّ المجرم أخرس لم يتفوّه بكلمة.

ثمّ أردفت العلويّة المجاهدة بقولها: وماذا يريد هذا الجيش من الرجال؟

يكفي أن تأتي ومعك شخص أو شخصان لأخذ أخي، ماذا يخيفكم؟ وماذا وجدتم في بيتنا؟ هل وجدتم أسلحة ومتفجّرات؟

كلّ ذلك ومدير الأمن ـ أبو سعد ـ لا يستطيع أن يلفظ كلمة ردّ واحدة إلّا اصطناع ابتسامة صفراء تدلّ على صغرهم وسقوطهم، بل وتعجّب وهو يسمع إلى كلمات الحقّ تصدح من بنت الهدى، والذي أحسّ بحقارته وصغره ومدى تهوّره وأسياده في القضاء على كرامته وعلى العلم والعلماء وهتك حرمتهم، بعد ذلك اصطحب الإمام الشهيد إلى خارج الدار، وقد خرجت معه شهيدتنا المجاهدة، وكذا زوجته، فالتفت مدير الأمن إليها وقال: ارجعي نحن نريد أبا جعفر فقط.

ووقف السيّد الشهيد وقال لأُخته الطاهرة: ارجعي يا أختاه، فأجابته: لا أُريد أن أعود يا أخي، أُريد أن أرافقك كما رافقت زينب عليها السلام أخاها الحسين عليه السلام.

وما أن ساروا في الزقاق الذي تقع فيه دار السيّد رحمه الله، والهدوء والظلام يطبق على الجميع، والخوف والحذر واجم على وجوه زبانيّة السلطة العميلة حتّى وصلوا السيّارة التي تنتظرهم في الشارع، وكانت شهيدتنا ترافق أخاها، إلى أن أشار إليها السيّد الشهيد بالعودة فتنحّت جانباً حتّى إذا ركب الإمام سيّارة السلطة الغاشمة، وانطلقت سيّارات الأمن، ثارت ثورتها ورجعت بها الأفكار، حيث مواقف زينب بنت عليّ عليه السلام، وصاحت في الشارع مكبّرةً ثلاث مرّات: «الله أكبر»، وهي تصرخ في وجوه بقايا الأمن الذين لم يذهبوا في السيّارات قائلةً لهم: أما راجعتم أنفسكم؟ متى تستيقظ ضمائركم؟ لماذا هذا الذلّ الذي تعيشون؟ أفيقوا من سباتكم!! كفاكم استجابةً للطواغيت والكفرة!!

واستمرّت بخطبتها وحديثها المشرق مع هؤلاء الشرذمة الذين استحوذ عليهم الشيطان، وسلبهم عقولهم، وعرّفتهم أنفسهم وفعالهم، ولكن لم يحرّكوا ساكناً.

رجعت إلى الدار وهي تشعر وكأنّها لن تؤدّي كامل مسؤوليّتها، فخرجت ثانيةً حيث وصلت السوق في طريقها إلى الحرم العلوي الشريف، صاحت بكلّ صلابة: الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر.

أين أنتم يا أهل النجف؟ انهضوا، أفيقوا يا رجال عليّ، انهضوا أيّها الغيارى يا أبناء عليّ، يا أبناء الإسلام، لقد أخذ مرجعكم، لقد أخذ السيّد الصدر.

وما أن وصلت بطلتنا المجاهدة إلى حرم جدّها أمير المؤمنين عليه السلام حتّى استنجدت قائلة: يا جدّاه يا أبا الحسن، إليك نشكو مصابنا من هؤلاء الكفرة الذين هتكوا الحرمات، وها هم قد اعتدوا على إمام الأمّة، وقامت تحرّض الناس الذين اهتزّوا لندائها وكلامها وأخذت تثيرهم وتحمّسهم للعمل على استنكار الأعمال الإجراميّة للسلطة الكافرة. عند ذلك دقّت ساعة الصفر لجماهير النجف، وما هي إلّا دقائق، إلّا وعطّلت الأسواق وخرجت المظاهرات الصاخبة، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، وهي تكبّر وتهلّل وتستنكر أعمال صدّام الإجراميّة، واقترافه على يد عصاباته الاعتداء الأثيم باعتقال سماحة الإمام، وأخذت الجماهير المسلمة تجوب الشوارع مناديةً بالإفراج عن الإمام فوراً، وعودته إلى داره في النجف الأشرف، ممّا اضطرّ السلطة الكافرة أن تستجيب للأمّة ونداءاتها، بعد أن رأت التململ الشعبي قد أخذ يتسرّب إلى المدن الأخرى، والقطّاعات المختلفة، فأفرجت عن سماحة السيّد الصدر بنفس اليوم، وعاد إلى عرينه في مدينة الإمام علي عليه السلام.

ولا أروع ما يقوله وهو يصل بيته: إنّ أخذ الطغاة لن يخفّف من همومي، ويبعدني عن ممارسة مسؤوليّتي مع أبنائي واخواني المؤمنين؛ لأنّني أشعر بمسؤوليّتي كاملةً تجاه كلّ شعبي وأمّتي الإسلاميّة.

هكذا وقفت الشهيدة المجاهدة، وهكذا كان موقفها الكبير، حيث ألهبت الأمّة وحرّكتها بخطاب واحد، فكانت قدوة في عملها وجهادها ومواقفها وجرأتها وثقتها بنفسها.

ففي خطبتها في عناصر الأمن، خلقت في نفوسهم صراعاً بين الحقّ الذي شاهدوه بأعينهم على لسان شهيدتنا، وبين المهمّة التي يعملون لأجلها، حتّى نقل عن بعضهم قوله: «إنّ وقع كلمات بنت الهدى في نفسي كوقع السهام، ولولا كثرتنا وتفرّقنا واختلاف بلداننا لعملت شيئاً، كنت أتمنّى أنّ واحداً من الأمن أثق به لقمنا بقتل الجميع» لكن لا يفيد ذلك، فبإمكان الفرد أن يخلق الجموع إذا انسلخ من جبنه وعبوديّته.

وأمّا خطبها في الجماهير المؤمنة. فقد أثارت فيهم الهمم لا في النجف الأشرف فحسب. بل وتعدّى ذلك إلى باقي المدن الأخرى، حيث كانت الانتفاضة الكبرى في اليوم التالي ليوم اعتقال الإمام، أي في اليوم السابع عشر من رجب عام ١٣٩٩.

اعتقال بنت الهدى واستشهادها

أقلّ السنة تمرّ ونظام العمالة في بغداد يفكّر ويخطّط كيف يتخلّص من قائد الثورة الإسلاميّة في العراق الجريح الإمام السيّد محمّد باقر الصدر، وهل سيترك شقيقته في هذه المرّة؟

فكان الجواب في يوم السبت العشرين من جمادى الأولى عام ١٤٠٠، بأن يعتقل الإمام الشهيد، وكذا شقيقته المجاهدة بنت الهدى.

فقد داهمت السلطة الكافرة بيت السيّد الشهيد صباح السبت المذكور، وطلبوا منه أن يحضر معهم لأمور مهمّة، وكانت الشهيدة المجاهدة واقفةً عند أخيها، وقد أصابها إحساس؛ وكأنّها علمت بأنّ أخاها سوف لن يعود بعد الآن.

وما أن خرجوا حتّى جاء أحد الزبانية ليخبر العلويّة بقوله: إنّ السيّد أبا جعفر يودّ أن يراك، فتفضّلي معنا.

عند ذلك تأمّلت وتمعّنت كثيراً، علمت بنت الرسالة بأنّ الأمر مدروس، وأنّ العدوّ لن يقرّ له قرار، لكنّها نذرت روحها لرسالتهاوعقيدتها، فكانت تلك البطلة الشامخة شموخ الأبطال، كما أنّها شعرت أنّها ستخرج إلى غير رجوع، فذهبت وأخاها إلى مقرّ السلطة الكافرة في بغداد، حيث لم يهنا ولم ينكلا، فهما الصابران المحتسبان المطمئنّان بوعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكان السيّد الشهيد يعبّر عن عظمة القيادة، وكان شغوفاً بأن يبيّن لهم ظلمهم وعدوانهم وهتكهم للشريعة وأعمالهم الإجراميّة بكلّ شجاعة وثقة.

وكان الطغاة يحسبون أنّهم يرهبون القائد ويخيفونه، فما وجدوا فيه إلّا صلابة جدّه رسول الله ﷺ، وجدّه أمير المؤمنين عليه السلام حيث حاولوا استجوابه، فأحال

نهارهم ظلاماً وطلباتهم منه خيالاً. وانبرى لهم كالأسد الهصور، ولم تخفه تهديداتهم، ولم يثن من عزمه إرهابهم، أرادوا منه أن يحرّم تنظيم الدعوة الإسلاميّة فرفض، وأرادوا منه أن يجوّز الدخول في حزبهم المسمّى بحزب البعث العربي الاشتراكي، فرفض بل وأكّد تحريمه لدخول هذا الحزب العميل.

عاشا سويّةً ـ الإمام الشهيد وشقيقته الشهيدة بنت الهدى ـ وجاهدا سويّةً، وعذّبا بأيدي طغاة عصرهما وعملاء أعداء الرسالة سويّةً، وكانت سيرة أهل البيت عليهم السلام شاخصةً أمامهما، فلم يهتمّا بأذىً، ولم يلينا لظالم وطاغٍ.

كانت الشهيدة تواجه الحرس بكلمات التقوى والهدى، لن تغفل عن خطتها ونهجها وجهادها حتّى في تلك الساعة، مع أولئك النفر الحارسين عند سجنها، فلن يغيب عنها موقف الزهراء البتول عليها السلام، ولن تنسى موقف العقيلة زينب عليها السلام.

صورة واحدة، وحادثة متشابهة، وذرّيّة بعضها من بعض، من أجل المبدإ ومن أجل الرسالة.

ولمّا يئس المجرمون الجبناء منهما عملوا لتصفيتهما حيث أعدموهما بعد ثلاثة أيّام من اعتقالهما في بغداد ليسجّلوا أكبر جريمة في القرن العشرين، حيث وأدوا العلم والفكر والتقى، فيستشهدان سويّةً، ويفوزان بوسام الفخر سويّةً، ليسجّلا أنصع تأريخ للمجاهدين والعاملين، ويلتحقا بركب النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. انتهى ملخّصاً.

جولة في أدب الشهيدة بنت الهدى

وكتب عنها السيّد حسن الهاشمي في العدد العاشر من مجلّة المنطلق ص ٣٤ وما بعدها، وذلك ما نصّه:

أهميّة الاقتراب

يكتسب الاقتراب من أدب الشهيدة بنت الهدى أهميّةً خاصّةً هذه الأيّام، وذلك لثلاثة أسباب:

١ ـ أنّه يأتي منسجماً مع الشعور للأديبة المجاهدة التي قضت في سبيل الدفاع عن أصالة هذه الأُمّة، وعقيدتها الإسلاميّة، وبخاصّة وأنّ الجريمة ما تزال ولن تزال صارخة والدماء لمّا تجف.

٢ ـ أنّه اقتراب من أدب نسويّ رائد في مجاله حيث نجد للمرّة الأُولى امرأةً مسلمةً تكتب قصّةً بنفس رسالي مكافح.

٣ ـ أنّ هذا الاقتراب يلقي نظرةً على الصراع الدائر الآن حوالينا بكلّ عنف بين الاستعمار الكافر وعملائه، وبين القوى الإسلاميّة المنافحة عن رسالتها، كما أنّنا بهذا الاقتراب نلقي ضوءاً على مكمن القوّة في أدب الفقيدة الشهيدة، القوّة التي جعلت أعداء الإسلام يخشونها، والتي أدّت بهم إلى قتلها شهيدةً صابرةً محتسبةً، وذلك في محاولة فاشلة من هؤلاء الأعداء لإيقاف المدّ الإسلامي الزاحف.

فأدب بنت الهدى لم يكن بالأدب المترف الذي يسعى للإمتاع من أجل الإمتاع، ويهتمّ بالفنّ من أجل الفنّ.

صحيح أنّ الحاجة إلى المتعة الفنيّة حاجة أصيلة في نفس الإنسان، فهي التي تقف وراء كلّ الحكايات الشعبيّة المتناقلة، والتراث القصصي المكتوب، إلّا أنّ هذه الحاجة تبدو لغواً لا طائل تحته إن لم توظّف في سبيل غرس القيم والمبادئ،

وبخاصّة في هذا الظرف بالذات، من ظروف شرقنا المسلم الذي يشهد ـ وكأنّه لم يكفه الاستعمار السياسي والاقتصادي السافر والمقنع ـ استعماراً من نوع أخطر، استعماراً ثقافيّاً قصد منه المساعدة على تحقيق الاستعمار الأوّل، استعماراً قصد منه إيجاد فئة ترتبط بالغرب في ولائها ومشاربها ونمط حياتها، فئة تكون ركيزة للهيمنة الغربيّة من ناحية، وعاملاً على بثّ الصراع في المجتمع الإسلامي بغية تسهيل عمليّة إخضاعه، بفصله عن هويّته وتعريضه لانفصام الشخصيّة بين الأفكار والسلوكات الموروثة والمستوردة.

وكان طبيعيّاً من فقيدتنا الكبيرة بحسّاسيّتها المرهفة وبيتها العريق، وثقافتها الواسعة أن تكون من الصراع في قلبه، وكان طبيعيّاً أن تنظر في أدبها فنجده، وكما تقول في مقدّمة قصّتها الأولى الفضيلة تنتصر:

«لا يعدو أن يكون صورة من صور المجتمع الذي نعيشه وانموذجاً من واقع الحياة التي نحياها، حيث تتصارع قوى الخير وقوى الشرّ، وتلتحم العقيدة بجيشها الفكري والروحي في معركة مع حضارات الاستعمار وأخلاق المستعمرين».

وأنّه ـ وإن لعب الخيال دوره أحياناً ـ «في تجسيد صورة محدودة لهذا الصراع لكي يبرزه بطريقة ترضيك وتدفعك إلى متابعته»، فإنّ غاية الفقيدة من الكتابة تبقى «إبراز جوهر لارتوشاته وهوامشه» ص ٧ ط ٥ دار التعارف.

والعمل على تحويل الالتزام بالإسلام من التزام لفظي وتقاليد عمياء إلى اقتناع مستنير ينبع من أعماق الإنسان اقتناع يستطيع بالتالي الوقوف بصلابة أمام الهجمة الكافرة، وذلك بعد أن يرسخ قواعده داخل الذات وداخل الأسرة، حيث يحوّل المرأة من مجرّد قليل مهمل إلى عنصر فعّال مكافح في قلب الصراع.

عرض تحليلي

ونظرة سريعة على مضامين كتب بنت الهدى كافية للتدليل على ما نقول.

فالفضيلة تنتصر، أُولى قصصها رواية تصوّر نموذجين للمرأة المعاصرة في شرقنا

المسلم، إحداهما «نقاء» تمثّل المرأة المثقفة المسلمة الملتزمة. والأُخرى «سعاد» بنت خالتها أُنموذج المرأة المفتونة بالحياة الغربيّة، والتي تعي فشل هذا النمط، إذا ما خلت إلى نفسها، وتعي فشل حياتها، ولكنّها تداوي خيبتها «بالتي كانت هي الداء» وتسعى بدل أن تترك حياتها اللاهثة وراء الأزياء والتقليعات، وحرّيّتها التي تعرف حرّيّة التنقّل من صديق إلى آخر من أصدقاء العائلة تستجدي المتعة والإعجاب، دون معرفة من زوجها محمود بخيانتها في حين أنّه لا يربطها بهذا الزوج غير ماله تنفقه في سبيل نزواتها، والذي يعمد أمام انصراف زوجته سعاد عنه وضعف شخصيّته وفساد تفكيره، إلى إقامة علاقة غير إسلاميّة بخادمته وسواها.

أقول: بدل ترك هذا النمط من الحياة، فإنّها ـ أي سعاد ـ تزداد إيغالاً فيه وتسعى للانتقام لفشلها لتحطيم حياة بنت خالتها نقاء لفصلها عن زوجها إبراهيم الذي لمّا تزف إليه، والذي سبق وداس كرامة سعاد، دون أن يعرف حتّى اسمها حين رفض غوايتها مستعصماً بدينه وتقواه.

وهي تسعى إلى هدفها بشتّى الوسائل ـ ودون معرفة من إبراهيم زوج نقاء بالطبع ـ أوّلاً بمحاولة التأثير على نقاء، وجرّها إلى تمضية شهر العسل في أُوروبا، وتعييرها برجعيّتها والقيود المفروضة عليها، ثمّ وقد فشلت أمام متانة عقيدة نقاء، وإرشاد إبراهيم لها سعت إلى جرّ نقاء إلى حفلاتها الماجنة المختلطة فتفشل أيضاً، وأخيراً تسعى إلى إغراء زوجها محمود نفسه، بملاحقة نقاء وإغوائها ـ مستغلّةً سفر إبراهيم إلى أُوروبا لمناقشة أُطروحة الدكتوراه ـ فهي تصوّر نقاء لمحمود دون أن تسمّيها، ودون أن يعرف محمود أنّها بنت خالتها، تصوّرها أنّها مرائية في تديّنها، وأنّها ذات وجوه متعدّدة، وأنّ اثنين من معارفه يلاحقانها، وأنّها صيد يستحقّ العناء، وترشده بعد ذلك إلى الأماكن التي ترتادها.

غير أنّ مكيدة سعاد ترتدّ إلى نحرها، وتؤدّي ملاحقة محمود لنقاء، وصدّ نقاء العنيف له، والنقاشات القصيرة التي دارت بينهما حول أنّ القيمة للمبدأ لا للحبّ، وأنّ المال لا يصنع كرامةً ولا شخصيّةً ولا استقامةً، واكتشاف محمود سموّ خلق

نقاء، وأنّ ثمّة نموذجاً للمرأة يختلف عن تلك التي يعرفها في بيئته الخاصّة، يؤدّي بكلّ ذلك إلى اكتشاف غلطته، وإلى مراجعة عميقة لنفسه واعتذاره من نقاء طالباً الإرشاد، عندها ترشده نقاء التي تطلع زوجها بالمراسلة على ما يدور، إلى كتب تكون طريقه إلى الهداية.

وأخيراً وحين يكتشف محمود ـ وقد اهتدى ـ خيانة زوجته، وييأس من صلاحها يطلّقها، ويعوّض خادمته بمبلغ من المال تبدأ به حياةً مستقيمةً، وتنتهي القصّة بتكشّف مكيدة سعاد، حين يعود إبراهيم ويلتقي بمحمود، ويتكشّف سموّ نقاء ووعيها وهي ترى في ما فعلته سعاد مدعاة للرثاء لا الحقد، معلّلة موقفها بمايلي: «لا أنا لست فوق البشر، ولكنّي أرثي لحال هذه المسكينة، وأرى أنّ أحد أسباب انحرافها يعود إلى المجتمع المنحرف، وإلى انعدام القيم الإسلاميّة فيه، ولو أنّها كانت في مجتمع فاضل، وأنشئت فيه نشأة إسلاميّة صحيحة، وهذّبت تهذيباً روحيّاً حقيقيّاً لما وصلت إلى هذا الدرك، فالمجتمع الفاسد يقدّم كثيراً من الضحايا، وأكثر ضحاياه من النساء؛ لأنّهنّ أعجل تأثّراً وأسهل انقياداً». ص ٢١٣.

نفس النموذجين المتضاربين نلقاهما في القصّة الطويلة «امرأتان ورجل» مع فارق في نتيجة الصراع وحوادثه، وفي أنّ القرابة بين المرأتين هنا ألصق، فهما أختان: «حسنات» و«رحاب» تحاول ثانيتهما أن تقوم مع أُختها بنفس دور «سعاد» مع «نقاء»، وذلك بإبعاد حسنات عن عريسها الجديد المؤمن، الذي تزوّجها دون معرفة مباشرة إلّا بالوصف، والذي هو في المهجر من أجل الدراسة. والذي يدفع رحاب إلى ذلك أمران: الغيرة من أُختها، والنقمة على حسنات، وعلى البيئة الرجعيّة التي تنقم على رحاب وتتّهمها بالانحراف؛ لمجرّد أنّها متأثّرة بالمستوردات الغربيّة. تستغلّ رحاب وقوع أوّل رسالة من مصطفى عريس حسنات إلى عروسه. تستغلّ وقوع هذه الرسالة بين يديها قبل أن تتعرّف بها أُختها، للردّ على مصطفى متقمّصةً شخصيّة أُختها حسنات لتشوّهها في عينه، معطيةً إيّاه عنواناً لإحدى صديقاتها كي يراسلها عليه، وتبدي بلسان أُختها

حسنات تذمّرها من عدم معرفتها به وبطبعه، وعدم الحاجة إلى الدين؛ لأنّه لم تعد هناك تناقضات طبقيّة، ولا فئات ظالمة، أو فئات مستضعفة: «كيف؟ لاندري» فيكون الدين عنصر تمكين للظالم، أو عزاء للمستضعفين، وينتصر مصطفى على خيبة أمله، ويفضّل هداية عروسه المزيّفة بدل تركها، ويجيب مبيّناً سبق الدين على التناقضات الطبقيّة، وقدمه في حياة الشعوب فلا يمكن تفسيره بأنّه كان لإلهاء الطبقات الكادحة قبل أن توجد طبقات، ولا أنّه كان تعزية للمستضعفين في حين أنّ الأنبياء الذين أتوا بالأديان كانوا أبعد الناس عن الضعف.

وتؤدّي إجاباته المقنعة إلى أسئلة جديدة من جانب رحاب، أو حسنات المزيّفة حول وجود الخالق، وحقيقة القرآن، ويجيب مصطفى أيضاً، وتقود إجاباته مع القراءات التي قامت بها رحاب بمعونة أُختها حسنات، تقود رحاب إلى الإيمان، وتتعزّى حسنات بإيمان أُختها المفاجئ عن خيبة أملها؛ لعدم ورود أيّ رسالة من مصطفى، وهي تنتظر قدوم أُخت زوجها لتسألها عن ذلك، وتشعر رحاب، وقد دخل قلبها الإيمان بالندم لما فعلته، وتسعى لإصلاح غلطتها بإرسال رسالة إلى زوج أُختها تبيّن له فيها ما جرى كما تهرع إلى أُختها طالبة العفو، ويكون سرور الزوجين بإيمان رحاب خير تعويض عن الذي جرى، وتنتهي القصّة بخطبة رحاب لمحمّد شقيق مصطفى، وبزفاف الأخوين إلى الأُختين في وقت واحد.

أمّا الباحثة عن الحقيقة فتختفي منها مثال شخصيّة «نقاء» و«حسنات»، واللتين يمكن أن نرى فيهما ممثّلتين «لبنت الهدى» نفسها، ونجد بدلاً منها شخصيّة العالم الديني الذي لا نعرف اسمه ولا مكانه، والذي نستطيع أن نرى فيه صورةً للإمام الشهيد السيّد محمّد باقر الصدر، نجد هذا العالم الديني يرفض أن يشهد بإسلام إحدى الفتيات «سندس»، والتي لاتحدّد القصّة دينها الأوّل من أجل تسهيل زواجها من حبيبها المسلم بالاسم «فؤاد» ويغيّر مسلك العالم الديني ثقافته من النظرة التقليديّة التي تكوّنت عند الشابّين إلى علماء الدين معطياً صورة مشرقةً تشدّهما إليه، وتدفعهما إلى متابعة الحوار معه، والالتقاء به للتعرّف على الإسلام،

يبدأ العالم الديني ببيان ضرورة الدين والحاجة إليه بسبب ضعف الإنسان وافتقاره من ناحية، وبفعل وجود ما يسمّيه غريزة الإيمان بالغيب، وغريزة النظرة الوجوديّة إلى الكائنات، ويبيّن الصفات التي ينبغي توفّرها في أيّ دين؛ لكي يحقّق الهدف منه، وهي أن يكون منسجماً مع الفطرة، ومع الغريزتين السابق ذكرهما، وأن يكون ملائماً للعقل، ثمّ ينطلق من ذلك ليبيّن تحقّق هذه الصفات في الإسلام من إعجاز قرآنه إلى أفكاره الاجتماعيّة المتقدّمة ـ حقوق الإنسان، مكافحة الرقّ ـ وشموله وتشريعاته الوقائيّة مثل: تحريم الخمر والقمار، وفرض الستر على المرأة بما يحفظ إنسانيّتها، ويقي المجتمع شرّ المفاسد المترتّبة على الإثارة والإغراء، ومساواة الإسلام بين المرأة والرجل دون أن يعني ذلك المشابهة في الأحكام، لاختلاف التكوين والاستعداد عند أفراد الجنسين.

وتبدو قوّة اقتناع «سندس» بالإسلام حين تفعل مكيدة أحد أبناء دينها فعلها ـ وكان يودّ الزواج منها ـ فتتوهّم أنّ فؤاداً قد خانها، ومع ذلك تتابع الذهاب إلى بيت العالم الديني بغية الاستزادة، دون أن يثنيها عن ذلك ما تصوّرته من خيانة فؤاد، وأخيراً وبعد أن يدخل قلبيهما الإيمان تنكشف الحقيقة ويتمّ الزواج.

وأمّا لقاء في المستشفى آخر ما كتبته الشهيدة فتتقمّص بنت الهدى فيها شخصيّة «الدكتورة معاد» الطبيبة في مستشفى لا نعرف أين هو، والتي تدين بهدايتها إلى أخيها الطبيب «الدكتور سناد» نرى فيه صورةً محوّرةً للسيّد محمّد باقر الصدر تقذف الظروف في درب «معاد» بفتاة مسلمة متعلّمة، تلبس الحجاب بفعل التقليد، ورقاء تأتي بجدّتها إلى المستشفى فتفتتن بأخلاق معاد وإنسانيّتها معها، وتدور محاورات، كيف يقود الطبّ إلى الإيمان؟ وكيف تنقض أقوال الشكّاك والتجريبيّين، تجد معاد استجابةً من ورقاء لأفكارها وتعجب بها فتعرض عليها الزواج بأخيها سناد، غير أنّ وهم الجدّة أنّ أبا معاد كان وراء قتل والد ورقاء، يؤدّي إلى رفض ورقاء للعرض رغم قناعتها الداخليّة بالعكس، وتنقطع فترةً من معاد، ثمّ ما تلبث أن تدفعها عواطفها إليها، وتحاول الجدّة تزويجها بقريب لها غير

متديّن فترفض؛ وهنا تستغلّ الكاتبة هذا الرفض لنقد الحضارة الماديّة على لسان ورقاء، ثمّ وأمام محاولة الضغط لإتمام ذلك الزواج بهدف إبعاد ابن الوجيه «حامد» الذي يحاول أبوه فرضه عليها؛ مهدّداً بالاستيلاء على البيت الذي رهنه لديه والد ورقاء، ثمّ وبعد أن فكّ الرهن فقد المستندات الدالّة على سداد الدين أمام هذا الضغط تقع ورقاء فريسة للحمّى، ولا تجد الجدّة بديلاً عن معاد فتستدعيها، وتحت وطأة الحمّى يفصح هذيان ورقاء عن رغبتها في الزواج من سناد، وعن السبب في عرقلة الزواج، وهنا تأتي معاد، وبعد أن تشفى ورقاء بدليل على عدم بنوّتها للذي تسبّب في دمار والد ورقاء، وأنّه إنّما ألحقها وأخاها بنسبه بعد تزوّجه من أمّها، وتنحلّ المشكلة، وتنتهي القصّة بإيحاء بإتمام زواج ورقاء من سناد.

فإذا انتقلنا إلى المجموعتين القصصيّتين ـ الخالة الضائعة، وليتني كنت أعلم ـ وجدنا فيها نماذج مختلفةً، وشرائح أقصر من حياة البيئة الإسلاميّة بفعل كونها قصصاً صغيرةً، فالخالة الضائعة هي ضحيّة تركها لبنتها وابنها للحضارة الوافدة، يتأثّران بها، فتكون النتيجة نبذهما لها والتجاؤها إلى رشدها بعد أن انتهى أمرها بالطلاق من زوجها غير الملتزم.

وفي نكران الجميل تصوير لما تثيره حالة نكران الجميل في نفس الفتاة المؤمنة هدى، من اتّهام لنفسها بالتقصير بدل اتّهام الغير، ونصيحة من وداد لهدى بأن لا يمنعها نكران الجميل عن العطاء قائلةً ـ ص ٣٥ و٣٦ ـ:

فنصيحتي إليك أن تسيري في دروب الهدى وتغرسين في كلّ تربة بذرة، وتزرعين في كلّ روض زهرة، وتنيرين على كلّ منعطف شمعة، وإذا كان هناك من يشكّ في سلامة البذرة، ولا يستسيغ منظر الزهرة، فإنّ ما ينبت عن البذرة، وما يفوح من أريج الزهرة لكفيلان بجذبه إليهما من جديد، بعد أن يثبتا وجود هما بشكل لا يقبل الجدل.

وزيارة عروس، نقد على لسان غفران؛ للتكلّف في العلاقات الاجتماعيّة من تزيّن النساء المبالغ فيه حال زيارة العرائس، واشتراط جدّة اللباس إلى إرهاق النفس

بشراء الأثاث الباهظ، واستعارته بغية المضاهاة إلى شراء هدايا العروس الغالية، ممّا ينحرف بالهدية عن هدفها كرمز محبّة وتذكار؛ لتصبح واجباً ثقيلاً على نفس مهديها.

واختيار زوجة، تحطيم لمقاييس الغنى، والجاه في اختيار شريكة الحياة من أجل إحلال مقاييس الأخلاق الفاضلة والتقوى محلّها.

وصافرة إنذار، نقد للتكلّف للعلاقات الاجتماعيّة، وللأعباء الماليّة، التي تفرضها بعض النساء على أزواجهنّ من أجل حفلة تفاخر بها زميلاتها، وتصرف فيها الأموال الطائلة لقاء ساعة أُنس، هي نفسها ليست أكيدةً، ومعرضةٌ للمفاجآت.

ونداء الضمير، نقد للأثر المخدّر للموسيقى التي تبثّها أجهزة الصوت والصورة في بلادنا.

أما رسائل وخواطر، فرسائل متبادلة بين زهراء وأسماء، تعطيان فيها تشابيه من الطبيعة والبيئة للمرأة المنفلتة المنكرة لقيمها، كالزهرة المحكوم عليها بالذبول بعد أن تقطع من نبتتها، مقابل المرأة المتديّنة التي هي كالوردة المنشّدة إلى جذورها، وتشبيهاً للمؤمن بالشجرة المعطاء، وحديثاً عن التأمين الربّاني للإنسان المؤمن مقابل كلّ ما يصيبه في سبيل الله، وإنّ الدنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر[1]، وإنّ العمل الصعب كنقش الصخر يؤدّي إلى ثبات النتيجة، بخلاف العمل السهل.

وعمليّة جراحيّة تتحدّث عن ضرورة انقطاع الإنسان بين وقت وآخر، إلى نفسه بغية إجراء عمليّة جراحيّة تطهّرها من أوضار الذنوب والأوزار والأهواء.

أمّا كتابها ليتني كنت أعلم فتبدأ قصّةً قصيرةً بنفس الاسم، تصوّر في شخص «أنفال» حال الإنسان غير المؤمن أمام الموت المتوقّع، وذلك بعد أن أخبرها الطبيب بأنّها مصابة بسرطان الدم، وكيف يئست ممّا حولها وعزمت على التوبة؟ ثمّ كيف أفادتها التجربة حين تبيّنت خطأً في الاسم وأنّها سليمة؟ فاستمرّت على عزمها على سلوك سبيل الهداية.

وفي صفقة خاسرة يتكشّف زيف المقاصد التي كثيراً من الشباب إلى اقتناص

١. كما ورد في الخبر. راجع الأمالي للطوسي: ٣٤٦، ح ٧١٥، وبحار الأنوار ٧٠: ٩٩، ح ٨٤.

المرأة لمالها، وتنبّه القصّة إلى ضرورة الوعي لمثل هذه المقاصد.

وآخر هديّة من شهيد مقاتل في سبيل فلسطين إلى زوجته الواعية الصابرة، هي لوحة خضراء مكتوب عليها: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾[1].

وتحوي الأيّام الأخيرة مذكّرات لفتاة مؤمنة متوفّاة تتضمّن تحليلاً لمراحل حياتها. إنّها قصّة نفس تتوق إلى التكامل، وتسعى إلى الفهم، وتبحث عن المحبّة والصداقة والصدق، فتجد ضالّتها في الإسلام، وتتعرّض لفاقة ماليّة وفترة جمود، فانفتاح جديد دون أن تفتّ كلّ السلبيّات من عزيمتها.

ومغامرة قصّة الفتاة المؤمنة التي تغامر بمصيرها من أجل الزواج بشابٍّ غير ملتزم، على وهم هدايته غير مبالية بخطر حصول تأثير معاكس من جانبه عليها. وتكون النتيجة أن تعود إلى صديقتها التي نصحتها بعدم الزواج منه مطلّقةً معترفةً نادمةً.

وتختتم المجموعة برسائل مليئة بالعاطفة والشاعريّة بين رجاء، وبين من كانت دليلها إلى الهدى «وفاء» تتحدّث فيها رجاءٌ عن مشاعرها إزاء مولدها الجديد بالإيمان، وعمّا سبقه من صراع، وكيف ساعدها الإيمان على إحلال الرضى، والأمل محلّ الألم.

نتيجة الصراع

هذا هو عالم الشهيدة بنت الهدى، عالم صراع بين الحقّ والباطل، وبين الخير والشرّ، وبين الفضيلة والرذيلة، ولكلّ ما يسانده.

فالحقّ والخير والفضيلة تجد دعمها في الضمير الأخلاقي من ناحية، وفي حاجة الإنسان إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وشعوره بعظمته، والتدخّل الإلهي لمساعدة الإنسان، ووجود الهداة الآمرين بالمعروف، والناهين عن المنكر.

١. البقرة (٢): ١٥٦ ـ ١٥٧.

أمّا الشرّ فيعتمد على الانصياع لطلب اللذّة والجاه والترف، ويعتمد على رموز تسانده في المجتمع، وأفكار فاسدة متداولة تتسبّب في سقوط الأبرياء أحياناً، ولكن إلى حين.

ويجد الخير دائماً له شخصيّات تمثّله «نقاء وزوجها إبراهيم، حسنات وزوجها مصطفى، العالم الديني، الدكتورة معاد وأخوها سناد» والقصص القصيرة مليئة بدورها بنماذج الخير.

أمّا الشرّ الخالص فقلّما نجد شخصيّات رئيسيّة تمثّله، كمثل سعاد في الفضيلة تنتصر، ذلك أنّ «رحاب» مثلاً في قصّة امرأتان ورجل ينتهي أمرها إلى الاهتداء، وحتّى بالنسبة لسعاد، فإنّ نقاء وجدت فيها ضحيّةً من ضحايا المجتمع وليس أكثر.

وفي الغالب فإنّنانلقى مقابل الخير شخصيّات قلقة خاضعة لتأثير الأفكار الوافدة والبيئة المنحرفة ما تلبث أن تستجيب للهدى بعد صراع يطول أو يقصر إثر التقائها بشخصيّات الخير، وكأنّ بنت الهدى إنّما أرادت أن تبيّن اعتقادها بأنّ الغالبيّة العظمى ممّن نظنّهم أشراراً هم في الحقيقة ضحايا لفساد المجتمع السياسي والثقافي، وأنّ قليلاً منهم من سيصرّ على ضلالته فيما لو وجد الجوّ المساعد على الهداية؛ ذلك لأنّ الخير يظلّ أقوى منطقاً من الشرّ؛ ولأنّ أسلحة الشرّ من أفكار مستوردة إلحاديّة، أو نمط حياة يعطي حرّيّة للغرائز على حساب احترام النفس واحترام حقوق الآخرين، آباءً وأزواجاً وأقارب وأصدقاء، لا يمكن لها أن تقوم مقابل الأفكار الإيمانيّة إذا أحسن عرضها، ولا مقابل الشخصيّات المؤمنة إذا أحسن بناؤها وتدعيمها بالمعرفة والسلوك الفاضل، وتبدو هذه الحقيقة في عجز مكر سعاد أمام صلابة نقاء ونقاء روحها، وفي تراجع محمود واستخذائه أمام القوّة المنبعثة من شخصيّة هذه الأخيرة.

كأنّ بنت الهدى تدعونا بذلك إلى تحسّس واجبنا تجاه الآخرين، ومعرفة أهميّة التغيير الشامل كمقدّمة لهداية الغالبيّة العظمى ممّن تخدعهم الزخارف المستوردة

ويؤثّر فيهم المناخ السائد. وذلك مع الاستمرار في عملنا لمعالجة الحالات الفرديّة، كما فعلت نقاء ومصطفى، والعالم الديني، والدكتورة معاد، وكما فعل كثير من شخصيّات قصصها القصيرة؛ إذ أنّ تغييره الأفراد والجماعات عملان يسيران جنباً إلى جنب.

متغيّرات الأسلوب

هذا هو عالم بنت الهدى في خطوطه العامّة من زاوية المضمون، أمّا من جانب الشكل، فإنّنا نلمس تبايناً في المستوى الفنّي بين القصص المختلفة.

ومن بين هذه القصص لابدّ من إعطاء مكان مميّز لقصّتها الأولى الفضيلة تنتصر التي بالإضافه إلى كونها الأطول، تبرز على أنّها الأجود فنيّاً.

الجودة الفنيّة هذه عائدة ولا شكّ بشكل جزئي إلى مضمون الأفكار المعروضة على لسان أبطال القصّة، والتي هي أفكار اجتماعيّة حول السفر إلى أوروبا والحرّيّة والأزياء والمال تناسب الشخصيّات. أضف إلى ذلك أنّ طول القصّة يسمح بعرض هذه الأفكار في ثنايا الأحاسيس والمشاعر، بحيث يسير عرض الأفكار في آن واحد مع تطوّر الأحداث والمشاعر، وهكذا تبدو شخصيّات الفضيلة تنتصر أكثر وضوحاً وتميّزاً بعضها عن بعض، وهي تتكشّف تدريجيّاً من خلال مواقفهامن الأحداث الحاصلة، وبشكل يجعلنا نفهم سلوكها اللاحق في علاقته بسابقة وتبرز الشخصيّات منسجمة مع نفسها، فلا تقوم بسلوك يتنافى مع طبيعتها، وتبدو أفكارها بالتالي لصيقةً بشخصيّتها، فلا نحسّ بانفصام بين الأفكار وبين الشخصيّات.

وهكذا لا نجد صعوبة في نسبة الأفكار إلى أصحابها فيما لو اُخفيت عنّا هويّاتهم، كذلك فإنّ تكشّف الشخصيّات لنا يبدو لنا محلّه منسجماً مع تطوّر الأحداث التي لا تختار منها الكاتبة إلّا ما يخدم حبكتها الفنيّة، ويعبر عن تطور الأزمة في نفوس أبطالها.

فنقاء تتكشّف منذ البداية فتاة مؤمنة تصدمها أحاديث سعاد. وتبدو أزمتها أوّلاً في عدم تمكّنها من طردها، لأنّها قريبتها، وفي خجلها ممّا تتظاهر به سعاد من أخلاق ومحبّة. وتتطوّر الأحداث فنحبس أنفسنا قلقاً عليها بعد سفر إبراهيم، وبدء مكيدة سعاد بإغراء زوجها بها. خاصّةً وإنّنا لم نكن على علم كافٍ بعد بشخصيّة محمود التي ما تلبث أن تتكشّف من خلال رجوعه إلى ذاته في نهاية المطاف.

وسعاد تتكشّف عواطفها نحو إبراهيم وحقدها منذ أن دار الحديث عنه مع نقاء، ونعرفها مفتونة في الوقت نفسه بحضارة الغرب، ثمّ يتبيّن لنا فيها سبباً لموت أمّها بسبب سوء سلوكها ممّا يدلّ على إصرار الانحراف.

ثمّ يتكشّف عزمها على الانتقام من نقاء دون مراعاة للقرابة بينهما.

وهنا تبدو الرغبة في الانتقام بسبب معرفتنا بالحبّ المصدوم من ناحية، وبغياب الوازع الديني من ناحية أُخرى؛ ولذلك فنحن نخاف منها على نقاء.

ثمّ يبدو جانب من حياتها المستهترة وفساد حياتها البيتيّة ممّا يفسّر لنا كيف يمكن أن تلجأ امرأة إلى دفع زوجها وراء امرأة أُخرى دونما غيرة أو خوف عليه منها.

وأمام هذا الماضي السيّء، فنحن لا نستغرب إصرار سعاد ولا نهايتها التعيسة، كذلك نحن لا نستغرب إمكانيّة أن يتحوّل محمود وينقلب اتّجاهه ونحن الذي عرفناه ضعيفاً أمام زوجته، يتقبّل صدودها عنه دون شكّ أو مقاومة تذكر، ممّا يدلّ على أنّ سلوكه المنحرف دليل ضعف لا دليل إصرار واستكبار، وهو بالتالي بحاجة ـ وقد خدّره المال الذي ورثه عن أبيه ـ إلى صدمة تكون سبباً لحثّه على الاستفادة من كبوته، وإلى يد تدلّه على الطريق المستقيم.

صحيح أنّ ثمّة جوانب لا نستطيع فهمها، فكيف يمكن لسعاد أن تتوقّع ذهاب محمود ليمضي أُسبوعاً مع نقاء دون أن تتوقّع معرفة أهل نقاء بغيابها في مقابل ذلك، ودون أن تعرف استحالة قيام نقاء بذلك. اللّهمّ إلّا أن نفسّر ذلك بغلبة الرغبة في الانتقام، وأنّ الحقد يعمي ويصمّ.

كذلك فالمكان يبدو غامضاً في القصّة «بالجهد نستطيع أن نستنتج أنّها تدور في دمشق بسبب ذكر بعض المعالم الدمشقيّة، وذلك بعد التوغّل في القصّة» وغموض المكان أمر عامّ في سائر قصصها؛ ولعلّ الفضيلة تنتصر هي الأكثر توضيحاً للمكان والبيئة.

غير أنّ هذا لا يمكن أن يلغي واقعيّة الوصف وعنصر التشويق في قصّة الفضيلة تنتصر خاصّةً، وكأنّ بنت الهدى اعتذرت في بداية قصّتها ص ٧ عن أنّ «هذه ليست قصّةً، فلست قصّاصةً ولا كاتبة للقصّة، بل إنّي لم أحاول قبل الآن أن أكتب قصّةً إلّا أنّ هذا الذي أُقدّمه اليوم إليك لا يعدو أن يكون صورة من صور المجتمع» وإنّ ما قامت به «لا يعدو عن كونه محاولة بنّاءة لفتح الطريق وتعبيده» كأنّها حين فعلت ذلك إنّما كانت تستهدف إثبات العكس، أو إنّها كانت تمهّد للإقلال من العناية بالجانب الفنّي في قصصها التالية بعد أن أثبتت جدارتها في القصّة الأُولى. هذا لا يعني غياب الفنّ من القصص التالية، وإلّا لما كنّا سمحنا لأنفسنا بتسميتها قصصاً، وإنّما نعني بذلك غلبة الطابع الفكري عليها بشكل أكبر، وكأنّ الشهيدة ـ رحمها الله ـ في حماسها للدفاع عن الإسلام، وفي خضم مشاغلها الاجتماعيّة لم تجد مبرّراً لقضاء وقت طويل في إبراز رتوشات الصراع وهوامشه، وهي التي قالت منذ البداية أنّ غايتها الواقعيّة هي: «إبراز جوهر الصراع لا رتوشاته وهوامشه». الفضيلة تنتصر ص ٧.

ولذلك وأمام الطابع التجريدي للأفكار المعروضة في هذه القصص «ضرورة الدين، وجود الخالق» نشهد لجوءاً إلى حوار فكري يذكّرنا بالمحاورات الفلسفيّة، سوى أنّه من طرف واحد؛ لأنّه يدور بين معلّم ومتعلّم لا بين مفكّرين.

كما تشهد تركيزاً على الرسائل المتبادلة التي تعطي مجالاً أكبر للإعداد، وتنميق الكلمات والأفكار وتركيزها وإتاحة الفرص للعمق الفكري، والأُسلوب الشاعري لكي يبرز كلّ بحسب السياق، وتصبح الحبكة البسيطة مجرّد إطار يحثّنا على متابعة الحوار الفكري، وتصبح الأحاديث الأُخرى غير الفكريّة، وتطوّر العواطف

استراحات تجعلنا نستعيد أنفاسنا بين الرسائل، أو جلسات الحوار.

ومن الطبيعي في خلال ذلك أن تصبح الشخصيّات أقلّ وضوحاً وتمايزاً، وأكثر تشابهاً وتسطيحاً، كما يؤدّي الاهتمام بعرض الأفكار إلى الإقلال من الاهتمام بوصف البيئة وإفرازها.

غير أنّ ذلك لا يقلّل من الدور الريادي للأديبة الشهيدة، ولا من قدرتها الأدبيّة، خاصّةً وأنّها جعلتنا نتوقّع سلفاً عدم تركيزها الكبير على الفنّ، واعتماده فقط لتغليف الصراع الفكري؛ لكي تتلبّس الأفكار بلبوس الأشخاص، وتمتلك الحدّ اللازم من الحياة لجعلنا نحسّ بالمتعة أثناء متابعتها.

هكذا فإنّ قصص بنت الهدى تمتلك ـ رغم تباينها من حيث مستوى الحبكة القصصيّة والتشويق ـ تشويقاً من نوع آخر، هو تشويق الأفكار الجديدة والعميقة التي نراها معروضةً فيها، وهل ثمّة من ينكر قيمة المحاورات أو القصص الفلسفيّة لمجرّد أنّ طابعها فكري تجريدي.

لقد خلّفت بنت الهدى إلى جانب القصّة صفحات مليئة بالأفكار المشخّصة. صفحات تنبت فيها الشاعريّة هنا وهناك، إلى جانب تشويق القصّة والفكرة.

ولن نستطيع الآن أن نلقي على مواطن الجمال والرقّة في أُسلوب الشهيدة ـ رحمها الله ـ ولكن بحسبنا أن نشير إلى وصفها لعاطفة الحبّ في بداية قصّة الباحثة عن الحقيقة، وموقف انتظار الموت في قصّة ليتني كنت أعلم، وإلى الرسائل التي تتضمّنها رسائل وخواطر في الخالة الضائعة.

نحو الله

وتترك بنت الهدى وقد تعلّمنا الكثير، نتركها ونحن نسمعها تردّد مع رجاء ليتني كنت أعلم ص ١١٩ ـ ١٢٠ متّجهة نحو الله سبحانه قائلةً:

لقد صحوت من بعد غفلة، صحوت لكي انطلق في مسيرة النور نحو العفو الإلهي، نعم نحوك يا إلهي.

فما أروع رحمتك حين يتحسّسها العباد، وما أهون الصعاب في سبيلك يا ربّ، وما أروع العذاب من أجلك، وما أيسر العسير في طريقك، وما أحلى المرّ في الوصول إليك.

هانت يا إلهي دمعة لا تذرف من أجلك، وبعدت يا مناي، غاية لا تؤول إليك.

إلهي إن تظافرت في حياتي طرق الشقاء، فإنّ في طريقي إليك سعادة لا تدرك، وإن أطبقت عليّ سماء الدنيا فإنّ لي في ذكرك أفقاً أرحب وأوسع.

إلهي! ما أروع أن أسعى إليك فأحجب عنك فتنطلق إليك روحي من قيود أسرها، وتهرب إليك نفسي من حديدها.

إلهي! ما عدت أرغب إلّا في رضاك، ولا أطمع إلّا في عفوك، ولا أسعى إلّا إلى الفناء بك، إلهي! ما الدنيا إلّا ممرّ درب إلى فِنائك، وما العمر إلّا لحظات كفاح من أجلك وفي سبيلك، فاجعل حياتي يا ربّ كلمة رضى، واجعل أعمالي يا إلهي ساعة جهاد، واجعل روحي يا سيّدي خفقة أمل ورجاء، ترنو إلى عفوك، وتشتاق إلى رفدك، وتحنّ إلى رضاك، آمين. انتهى ملخّصاً.

ومن المناسب أن نذكر في خاتمة هذه الترجمة أنّ شهيدتنا المقدّسة مضت للقاء ربّها ورضوانه وهي عزباء لم تتزوّج، فقد رأت بثاقب فكرها ونور بصيرتها أنّ الحياة الزوجيّة، وإدارة البيت، وتربية الأطفال تعطّل عليها الكثير من جهودها وجهادها ورسالتها الإصلاحيّة. فآثرت العزوبة على الزواج، سائرةً في مرضاة الله تعالى، مجاهدةً فيه حقّ جهاده، حتّى اختارها إلى جواره فائزةً بالشهادة والسعادة. فلعن الله ظَلَمتها وقَتَلتها، وألحقهم بأشقى الأوّلين وأشقى الآخرين، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الموضوعات



ملحقات بغية الراغبين

سيّدان صدريان

